المصريون المحدثون



شمائلهم وعاداتهم

نقله الى العربية

عدلى طاهر نور

المصريون المحدثون
شمائلهم وعاداتهم

تأليف

المستشرق الانجليزى

ادوارد وليم لين

نقله إلى العربية

عدلى طاهر نور

MANNERS AND CUSTOMS
OF THE
MODERN EGYPTIANS

E. W. LANE

الطبعـــة الثـــانية

(مزيدة ومنقحـــــــة)

١٩٧٥

تمهيد للطبعـــة الثانية

أتممت بهذه الطبعة الثانية من كتـــاب (المصريون المحـدثون ، شمائلهم وعاداتهم) ماكنت قد تركته ، عن عمد أو نسيان ، فى الطبعة الأولى . فقمت بترجمة الفصل الثالث ، الخاص بالدين والشريعة ، وكنت قد أسقطته لاعتقادى أن القارىء العربى ، وهو يعلم الكثير من شؤون ذلك الدين وأحكامه ، قد يمل قراءته . وقد فاتنى حينذاك تقـدير الفـائدة ، التى يقدمها بحث المؤلف فى ذلك الفصل ، حق قدرها . وقمت أيضاً باضافة الكثير من الشروح والتعاليق حين يقتضى الأمر ، وحسبما أعلم ، تبييناً للقارىء عندما يستزيد . وأخيراً أشرت فى أكـثر من مكان ، فيما يتعلق بالعـادات والشمائل ، إلى ما بقى أو تحـول أو انقضى منها .

ويؤسفنى أن تظل تلك الطبعة يشوبها عجزى عن إعادة بعض النصوص إلى أصـلها العربى ، الذى نقله المؤلف إلى لغته ، بعد أن أخفقت فى الوصول إلى المصادر التى استمد منها هذا المؤلف موضوعاته .

وآمل أن أكون قد أضفت فى هـذه الطبعة ما يستفيد منه القارىء وذلك حسبى والله الموفق

أول سبتمبر ١٩٧٤ — عدلى طاهر نور

مقدمة المترجم

لم أر بعد المقريزى فى كتابه (المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار) ولا بعد الجبرتى فى كتابه (عجائب الآثار فى التاريخ والأخبار) . من عنى بتسجيل العادات المصرية والآداب الشعبية بدقة وأمانة إلا المستشرق الكبير إدوار وليم لين فى هذا الكتاب لذلك لم أكد أفرغ من قراءته حتى عقدت نيتى على ترجمته لأنقل إلى لغتنا العربية سجلا حافلا لعاداتنا واعتقاداتنا وأساطيرنا فى القرن التاسع عشر .

إن مصر ابتداء من القرن العشرين أخذت تحث الخطى فى سبيل المدنية الغربية ، وقد قطعت فى تلك السبيل مراحل كادت تبعد الجيل الحاضر عن سنن ماضية وتنسيه شمائل قومه ، فانتشرت العادات الأوربية بالمحاكاة والاقتباس وانكمشت العادات المصرية ، وعلى الأخص فى المدن بالمجافاة والترك ، فبعضها إلى الزوال ، وبعضها إلى الاضمحلال ، وأكثرها للمسخ ، على تفاوت فى ذلك بين طبقة وطبقة ، وبين مصر ومصر . فلم يكن بد من نقل هذا الكتاب ليضيف حلقة جديدة طريفة إلى سلسلة التاريخ الاجتماعى الذى صاغ حلقاتها الأولى المقريزى وابن تغرى بردى والسيوطى والجبرتى . ولعل هذه الحلقة تمتاز بوضوح المنهج ودقة التفصيل وتوخى الحقيقة وجمال العرض وتصوير الأشياء والأشخاص بالقلم والريشة تصويراً يحفظ لها خصائصها وملامحها فى الذهن والعين على تراخى الزمن . والكاتب كما يتبين لك من مقدمته ومن كتابه قد خالط الدهماء فى البيوت والأسواق والمواسم والمساجد والحفلات فرأى وسمع وقرأ واستفهم واستبطن وتأثر وحكى كل ما علم بلسان نزيه وقلم محايد فلم يتعصب لجنس ولم يتحيز لنحلة ولم يتقيد بغرض .

لذلك بذلت غاية الجهد فى المحافظة على روح الكاتب والاحتفاظ بصورة الكتاب فترجمته عن لغته ترجمة أمينة تكاد لمطابقتها الأصل تكون حرفية وقد نقلت مع الأصل جميع الصور التى رسمها المؤلف بريشته للأشياء والأشخاص تصويراً لهيئة أو تسجيلا لحالة . وأضفت إلى الكتاب بعض الشروح فى حدود وقتى وعلمى . وإنى لأود قبل أن أقدم الكتاب إلى القارىء أن أقدم الشكر إلى صديقى الأستاذ أحمد حسن الزيات على معونته إياى فى تحرير هذه الترجمة .

القاهرة فى مايو ١٩٥٠ — عدلى طاهر نور

محتويات الكتاب

صفحة

ملحق

ذيل

فهرس الرســـوم

شكل		صفحة

شكل		صفحة
٦١	دكاكين فى أحد شوارع القاهرة	٢٧٦
٦٢	دكان تاجر تركى فى خان الخليلى	٢٧٧
٦٣	سقاءون	٢٨١
٦٤	سقا شربه	٢٨١
٦٥	حملى	٢٨٢
٦٦	عرقسوسى	٢٨٣
٦٧	مسلكاتى	٢٨٤
٦٨	الشادوف	٢٨٥
٦٩	قطاع الحرارة	٢٩٥
٧٠	رسم تخطيطى للحمام	٢٩٦
٧١	أحجار من الطين المحروق	٢٩٧
٧٢	كمنجة	٣١١
٧٣	عازف على الكمنجة	٣١١
٧٤	القانون	٣١٢
٧٥	عازف على القانون	٣١٣
٧٦	العود	٣١٣
٧٧	عازف على العود	٣١٤
٧٨	النای	٣١٤
٧٩	عازف على النای	٣١٤
٨٠	رباب الشاعر	٣١٥
٨١	الساجات والطار والدرابكة	٣١٧
٨٢	درابكة من الفخار . زمارة . أرغول	٣١٧
٨٣	الغوازى	٣٢٦
٨٤	الشاعر وبصحبته عازف الرباب وبعض السامعين	٣٣٧
٨٥	درويش من طائفة المولوية	٣٦٤
٨٦	المحمل	٣٦٩
٨٧	الدوسة	٣٨٠
٨٨	جنازة	٤٣٧
٨٩	نعش امرأة أو ولد	٤٣٩
٩٠	قبر ومدخله	٤٤٢
٩١	عمامة البطريرك القبطى والأساقفة	٤٥١

شكل | صفحة

مقدمة المؤلف

فى زيارة سابقة للقاهرة قصدت بها على الأخص دراسة اللغة العربية فى أشهر مدرسة، جعلت أكثر همى ملاحظة شمائل المصريين المسلمين وعاداتهم . وسرعان ما أدركت ، بعد معاشرة هذا الشعب سنتين ونصف سنة ، أن كل ما أمكننى الحصول عليه سابقاً ، من الأخبار المتعلقة بهم لايكفى ليكون ذا فائدة كبيرة لمن يدرس الأدب العربى ، أو ليقضى حاجة القارىء العادى . لذلك رغبت فى تدوين ملاحظات عن أشهر عاداتهم ، لأستزيد لنفسى من جهة ، ولأستطيع أن أزيد فى معرفة مواطنىّ بالطبقات المتحضرة لأمة من أهم أمم العالم من جهة أخرى ، وذلك برسم صورة مفصلة عن سكان أكبر مدينة عربية . إلا أن زيارتى الأولى لم تكف لبلوغ هذا الغرض مع متابعة دروسى الأخرى(١) ، فصرفت النية عن نشر ما قيدته عن المصريين المحدثين . وبعد خمس سنوات من عودتى إلى انجلترا عرضت هذه المذكرات على بعض أعضاء من لجنة جمعية نشر المعارف المفيدة(٢) Committee of the Society for the Diffusion of Useful

---

(١) كان لين يقصد ، فى زيارته الأولى لمصر ، فى سبتمبر ١٨٢٥ ، دراسة أحوالها ، قديماً وحديثاً ، دراسة وافية . فلم تشمل هذه الدراسة لغة العرب وآدابهم فحسب ، بل امتدت إلى وصف البلد وآثاره وأهله ، فى القاهرة وضواحيها، وفى شمال مصر وفى صعيده ، من الجيزة إلى الشلال الثانى فى النوبة . وقد دون مشاهداته بالقلم والريشة، فى أكثر من ألف صفحة ومن مائة رسم ، وضمها فى كتاب « وصف مصر » Description of Egypt ، الذى ظل مخطوطاً ولم ينشر إلى الآن .

وقد عمد لين، بعد كتابة هذا السفر الضخم ، إلى تجميع ما كتبه فيه عن المصريين المحدثين ، وإعداده ليكون أساس كتابه « المصريون المحدثون ، عاداتهم وشمائلهم » Manners and Customs of Modern Egyptians الذى ألفه فى رحلته الثانية إلى مصر . (المترجم) .

(٢) أنشئت هذه الجمعية سنة ١٨٢٧ . وقد اشترك فى إنشائها اللورد هنرى بروم Henry Brougham والأيرل جون رسل John Russel. وقد كان لإنشاء هذه الجمعية أثر عظيم فى نشر الكتب الجيدة بثمن زهيد إذ كان الكتاب يباع بستة بنسات . وقد أصدر اللورد بروم بعد ذلك نشرات رخيصة: Penny Magazine سنة ١٨٣٢ ، ثم دائرة معارف Penny Cyclopaedia سنة ١٨٣٣ تمت بعد إحدى عشر سنة وكانت فى النهاية سبباً فى إفلاس الجمعية .

دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشر تحت Brougham. (المترجم) .

Knowledge فاستحسنوها وأوعزوا إلى اللجنة أن تعنى بموضوعاتها ، وطرافة بعض محتوياتها ، فعهدت إلىّ تكملتها ثم طبعها. وقد كان ذلك حافزاً لى على قبول النصيحة ومتابعة العمل ، وفى أقرب فرصة عدت ثانية إلى مصر. وبعد أن أقمت أكثر من سنة فى عاصمة ذلك البلد ، ورحلت نصف سنة فى الوجه القبلى ، أتممت ، بقدر ما استطعت(١) العمل الذى تعهدت به(٢) .

قد يقال إن القارىء الإنجليزى استفاد من كتاب الدكتور رسل Russel عن أهل حلب وصفاً صادقاً لشمائل العرب وعاداتهم . ولا أحب أن أصم أمانتى الكتابية التى أدعيها بمحاولة التقليل من المزايا الحقيقية لهذا الكتاب القيم ، ولكن يجب أن أؤكد أن الكتاب فى مجموعه قد وصف العادات التركية أكثر مما وصف العادات العربية ، وأن المؤلف الأصلى وأخاه ، الذى ندين له بالطبعة المزيدة المنقحة ، لم يكونا يعرفان اللغة العربية معرفة كافية لإنعام النظر فى بعض ما يقتضى وضع الكتاب معالجته من الموضوعات المهمة . ولم يكن منصبهما المعروف فى حلب ولا شعورهما الوطنى يسمحان لهما أن يتنكرا هذا التنكر الضرورى الذى يمكنهما من إيلاف الكثير المهم من الحفلات الدينية ، والأفكار الاجتماعية ، والأساطير الشعبية ، التى قاما بوصفها . فنقص الملاحظة هو الخطأ الوحيد الذى استطعت أن أكشف عنه فى كتابهما العلمى الجليل(٣) .

---

(١) يقول لين فى مذكراته عن الرحلة الثانية: السابع عشر من سبتمبر ١٨٣٤ — بلغت اليوم سن ٣٣ وأتممت على قدر إدراكى مذكراتى عن عادات مسلمى مصر وشمائلهم. وبقى أن أراجعها وأن أستفهم عن بعض شؤون الأقباط .

ويقول فيها أيضاً: السادس والعشرون من ديسمبر ١٨٣٤ — بلغت إقامتى بمصر سنة كاملة . وبدأت الآن فى تدوين نصوص مؤلفى عن المصريين المحدثين . (أنظر المستشرق الكبير ادوارد وليم لين تأليف عدلى طاهر نور) . (المترجم)

(٢) يسرنى كثيراً أن أرى ، وأنا جاد فى تسجيل شمائل المصريين وعاداتهم ، وهم أكثر الشعوب العربية تهذيباً ، أن أحد أصدقائى العلماء ، فلجنس فرينل Fulgence Fresnel (*) يعمل بنجاح باهر على إحياء كثير من البيانات الهامة فى تاريخ العرب وأن آخر ، السيد (الان سير جاردنر) ويلكنسن Gardner Wilkinson ، يعد بحثاً عن قدماء المصريين فى معيشتهم الخاصة وشمائلهم الخ . وقد نشرا هذان الكتابان منذ كتابة هذا . ولا حاجة بى أن أشير هنا بفضل هذين الكتابين بعد أن أثنى عليهما النقاد المبرزون أعلى ثناء وأعدله .

* ويشير لين إليه فى مقدمة كتابه (مد القاموس ١٨٦٣) بقوله : عند وصولى إلى القاهرة لجأت أولا إلى المرحوم فلجنس فرينل الذى وثقت علاقتى به فى زيارة سابقة إلى مصر . وقد أخبرته بمشروعى (إصدار المعجم « مد القاموس ») من قبل فقام باختيار الكثير من المصريين المثقفين لاختيار من يصلح لمساعدتى فى تجميع المواد اللازمة لقاموسى وترتيبها وأوصى بمن وجده أكثرهم صلاحية وهو الشيخ ابراهيم (الملقب بعبد الغفار) الدسوقى . (المترجم)

(٣) بين مجموعة السفر الفرنسى العظيم فى وصف مصر رسالة عنوانها : مقالة فى أخلاق سكان مصر المحدثين Essai sur les moeurs des habitants modernes de l'Egypte =

أما ظروفى فكانت غير ذلك . فقبل قدومى الأول إلى هذا البلد ، شدوت شيئاً من العلم بلغة العرب وآدابهم(١) . وكنت أستطيع ، بعد سنة من قدومى ، أن أتحدث إلى الشعب الذى كنت أعيش بين أفراده فى شىء من السهولة . وقد عايشت بصفة خاصة مسلمين من جميع الطبقات ، وأخذت إخذهم فى الحياة العامة . وكنت أصرح دائماً أننى أوافقهم على آرائهم كلما سمح بذلك ضميرى اكتساباً لصداقتهم وإخلاصهم . وفى أحوال كثيرة أخرى أمسكت عن مخالفتهم فى الرأى ، بقدر ما امتنعت من أى عمل ينفرون منه . فأمسكت عما يحرمه دينهم من الطعام والشراب ، وتركت ما لا يألفونه من العبادات والأساليب : كاستعمال الشوك والسكاكين(٢) . واستطعت بفضل ألفتى لحفلاتهم الدينية العامة أن أشاهد

= ويبدو لى أن مؤلف هذه الرسالة (*) وقع فى خطأ كبير ، ذلك أنه طبق على المصريين عموماً ملاحظات كان معظمها فى الحقيقة وصفاً لشمائل المماليك ، حكام مصر المتجنسين بجنسيتها ، ولعاداتهم . ويحتمل أن يكون المصريون قلدوا إلى درجة ما وبقدر استطاعتهم عادات هذه الطبقة الحاكمة . غير أنه يمكننى أن أتجاسر فأؤكد أن المقالة المشار إليها لا تعبر حقاً عن حالة المصريين الحاضرة ، الأخلاقية والاجتماعية . ثم أن المؤلف نفسه يذكر أنه أهمل كثيراً فى ملاحظاته وأبحاثه معاً . ويظهر ذلك بصفة خاصة فى التحريف الغريب الذى وقع فيه عند مطابقته التوقيت الفرنسى بالإسلامى ، وفى الصفحتين الأولين من القسم الخاص بالأعياد العامة . وقد أورد المؤلف كثيراً من الملاحظات الفلسفية الصحيحة ، غير أنها تشغل جزءاً كبيراً بالنسبة إلى حجم الرسالة التى تكاد تزيد على ثلث هذا الكتاب . ولأبرهن على أن ملاحظاتى تلك لم تملها روح الحسد ، أعبر بكل رضى عن إعجابى العظيم بأجزاء أخرى من السفر العظيم (خاصة ما كتبه مسيو جومار M. Jomard) تتعلق بموضوعات شغلت ذهنى وقلمى معاً . ويحتمل أن أنشر ملاحظاتى عليها .

أما كتاب بوركهارت Burckhardt فى « الأمثال العربية Arabic Proverbs » فهو يضم أفكاراً كثيرة عن عادات جديرة بالذكر ، وصوراً من خلق المصريين المحدثين . ولكنها لا تكون عرضاً شاملا ، أو على أى حال عرضاً صحيحاً ، إذ أن الأمثال لا تصلح جيداً لتمييز أخلاق الشعب .

إلا أن هناك كتاباً واحداً يقدم إلينا صوراً باهرة عن العرب ، وخاصة المصريين ، شمائلهم وعاداتهم . وهو كتاب ألف ليلة وليلة . ولو كان بيد القارىء الإنجليزى ترجمة صادقة لهذا الكتاب وشرحاً وافياً له ، لما جشمت نفسى عناء كتابة هذا . ولذلك شغلت منذ نشر الطبعة الأولى من كتابى الحالى بترجمة تلك القصص العجيبة وشرحها بحواش تفسيرية .

(*) كاتب هذه الرسالة Chabrol de Volvic . وكان عضواً فى البعثة العلمية التى رافقت نابليون فى حملته على مصر .

أنظر كتاب Voyageurs et écrivains français en Egypte, Jean - Marie - Carré ص ١٥٦ ج ١ . (المترجم)

(١) شغف لين بالدراسات الشرقية قبل أن يغادر إنجلترا ، ولا يعرف متى بدأ يتعلم اللغة العربية . غير أنه ترك مخطوطاً به مذكرات فى أصول اللغة العربية ومؤرخاً سنة ١٨٢٢ . فلا بد أن لين أخذ فى اللغة العربية قبل ذلك .

وقد عنى لين بدراسة لغة العرب وآدابهم وشؤونهم أكثر من خمسين عاماً . (المترجم)

(٢) يقول لين فى مخطوطه (وصف مصر) ، صفحة ١٨٤ من الفصل العاشر من الجزء الأول ، إنه كره أول الأمر أن يتخلى عن عادة استخدام الشوكة والسكين إلى أن شاهد رقة الشرقيين فى تناول الطعام بالأصابع . ويقول إنه كان بطبعه ينفر من شرب النبيذ وأكل لحم الخنزير . (المترجم) .

أعيادهم وطقوسهم ، من غير أن أثير الشك فى أننى أجنبى لا يحق له التدخل فى شؤونهم. وبينما كان العامة يظنوننى تركياً ، من ملابسى التى وجدتها أكثر ملاءمة لى ، كان أصدقائى يعرفون طبعاً أننى إنجليزى . ولكنى ألزمتهم أن يعاملونى معاملة المسلم باعترافى مختاراً بأثر العناية الإلهية فى ظهور الإسلام وانتشاره ، وباقرارى ، عندما أسأل ، باعتقادى فى المسيح طبقاً لما جاء فى القرآن من أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه . وهكذا حسن رأيهم فىّ وقويت ثقتهم بى ، ولكن إلى حد لم يغننى عن مجابهة بعض الصعاب . والمسلمون يكرهون أن يبوحوا بشىء يتعلق بدينهم أو بأساطيرهم للذين يشتبهون فى أنهم يخالفونهم فى العاطفة ، ولكنهم لا يأبون الكلام فى هذه الموضوعات مع من يعتقدون أن بينه وبينهم معرفة وألفة . لذلك كنت أعمد إلى سؤال الذين هم أكثر تساهلا وأقل علماً لأحمل الذين هم أوسع معرفة وأضيق صدراً على الكلام فى المسائل التى أريدها. وبهذه الطريقة نجحت فى التغلب على ترددهم . وكان لى أستاذان للعربية وآدابها وللدين الإسلامى وفقهه ، يدرسان لى بانتظام وبأجر . وكنت أسألها عما أشك فيه لأحقق ما سمعته فى أحاديثى مع أصدقائى ، أو أصححه ، أو أضيف إليه . وأحيانا كنت أتصل بمن هم أغزر علماً ، وكان من دواعى غبطتى أن أعد بين أصدقائى فى هذه المدينة بعض رجال بلغوا شأواً بعيداً فى المعارف الشرقية(١) .

وربما يفيد القارىء أن أعرفه أن بأحد معلمىّ اللذين أشرت إليهما آنفاً(٢) ، وأن أبين له فى الوقت نفسه كيف كان كغيره من مواطنيه ينظر إلىّ : ذلك هو الشيخ أحمد (أو السيد أحمد ، لأنه من طبقة « الأشراف » الكثيرة العدد ،

---

(١) ومن بينهم الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، كاتب (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز). والشيخ محمد عياد الطنطاوى الذى رحل إلى روسيا حيث قام بتدريس اللغة العربية .
أنظر كتاب (المستشرق الكبير ادوارد وليم لين) ص ٩٨ (المترجم)

(٢) لم يذكر لين هنا أى بيان عن معلمه الثانى . وأعتقد أنه يقصد الشيخ ابراهيم عبدالغفار الدسوقى (١٨١١ – ١٨٨٣) ، الذى درس بالأزهر وعمل رئيساً للتحرير فى جريدة الحكومة الرسمية

(Oriental Essays — Portraits of Seven Scholars. A. J. Arberry. Macmillan Company. 1960).

وكان يعمل أيضاً فى هيئة المحررين والمصححين المشتركة مع هيئة المترجمين فى مدرسة الطب المصرية لنقل الكتب الطبيـة الأجنبية إلى اللغـة العربية (دراسات فى التاريخ الإسلامى ، للدكتور جمال الشيال) .

وقد عاون لين فى نسخ معجم (تاج العروس) وترتيب مواده اللازمة لتأليف معجمه العربى الإنجليزى (مد القاموس) . وقد وصـفه لين بسوء الخلق ولكنه خشى أن يستغنى عن خدماته فيجعل منه عدواً يربك عمله فى القاموس بدلا من أن يسهله (المستشرق الكبير ادوارد وليم لين. صفحة ١٠٠) . (المترجم)

أى من سلالة النبى)(١) وكانت سنه تربو على الأربعين باعترافه، ولكن يبدو عليه أنه يناهز الخمسين. وكانت سحنته وخليقته تستحقان الذكر. كان ربعة إلى القصر، وكان أصهب اللحية قد وشعها المشيب. ويظهر أن العور قد أصابه منذ سنوات عديدة. وهو يكحل عينيه فى المناسبات الخاصة ولا سيما فى عيدى الفطر والأضحى. والكحل قلما يستعمله غير النساء. وهو لا يفتخر بانتمائه إلى الرسول فحسب، بل يتمدح كذلك بانتسابه إلى الولى المشهور الشعراوى(٢). وبشرته الصافية تؤيد إدعاءه أن أجداده عاشوا منذ أجيال فى مناطق أفريقيا الشمالية الغربية. وكان يعيش على ميراث قليل مع اتجاره بالكتب. وكان يزورنى كل ليلة تقريباً لينتفع من مهنته من ناحية، وليجتمع بى، أو ليتحدث إلى للتدخين وشرب القهوة من ناحية أخرى.

وكان قبل احترافه تجارة الكتب وراثة عن أبيه، قد قضى بضع سنوات لم يحترف فيها غير الذكر فى الحفلات الصوفية. والذكر عبارة عن جماعة يقفون مترنحين يرددون اسم الله وصفاته الخ. وهو لا يزال إلى اليوم يقوم بهذا العمل. وكان حينئذ درويشاً فى الطريقة السعدية، وأهل هذه الطريقة معروفون على الأخص بأكل الثعابين الحية. ويقال إنه كان واحداً من آكلى الثعابين، ولكنه لم يقصر نفسه على أكل يهضم بمثل هذه السهولة. ففى ذات ليلة، بينما كان فريق من أهل طريقته فى حفل حضره شيخهم، اعترت صديقى جذبة، فخطف زجاجة طويلة كانت تحيط بقنديل موضوع على الأرض وأكل جزءاً كبيراً منها. فدهش الشيخ والدراويش الآخرون، ونعوا عليه خروجه على نظم الطريقة لأن أكل الزجاج لم يكن من الكرامات التى كان يسمح لهم باظهارها. ثم طردوه فى الحال فدخل فى الطريقة الأحمدية. ولما كان أهل هذه الطريقة هم أيضاً لا يأكلون الزجاج، فقد عزم على ألا يعود إلى فعلته مرة أخرى. غير أنه بعد ذلك بقليل أخذته هذه الجذبة فى اجتماع بعض الإخوان من أهل الطريقة وفى حضرة كثير من رجال الطريقة السعدية، فوثب على شمعدان وقبض على مصباح من مصابيحه الزجاجية الصغيرة، فابتلع نصفه وشرب ما فيه من الزيت والماء. فقادوه إلى شيخه ليعزره على هذا التعدى، ولكنه أقسم ألا يعود إلى أكل الزجاج أبداً،

---

(١) لن يجد القارىء فى هذا الكتاب اسم النبى (عليه الصلاة والسلام) مقروناً بهذا الدعاء إلا فى الموضع الذى يريد المؤلف أن يذكر ذلك به. (المترجم)

(٢) هكذا ينطق عادة بدلا من الشعرانى (المؤلف)

الشعرانى، أبو المواهب عبد الوهاب. تبع الطريقة الشاذلية وأسس الطريقة الشعراوية. كان يرفع شأن المرأة. توفى فى القاهرة (٩٧٣) ألف كتباً فى التصوف والتراجم والعلوم القرآنية والفقه والنحو والطب. (المنجد). (المترجم)

فعفا عنه وأبقاه فى الطريقة . وعلى الرغم من حلفه اليمين لم يلبث أن عاد إلى ديدنه من أكل الزجاج. وقد حاول أحد الحاضرين من الإخوان أن يقاده فنشبت قطعة كبيرة من الزجاج بين لسانه وسقف حلقه. وقد شق على صديق أحمد استخراجها. فأعيد ثانية إلى شيخه ، ولما لامه على الحنث بقسمه والرجوع فى توبته أجاب بهدوء : أتوب مرة أخرى وما أحسن التوبة ، لأن الله قال فى كتابه العزيز : « إن الله يحب التوابين » . فصاح الشيخ مغتاظاً : « أتجرؤ على هذا التصرف ثم تستشهد بالقرآن أمامى ؟ » ثم أمر بعد هذا التوبيخ أن يسجن عشرة أيام. ثم طلب منه القسم مرة أخرى على أن يمتنع عن أكل الزجاج ، وبهذا سمح له بالبقاء فى الطريقة الأحمدية . وقد حرص على أن يبر بقسمه هذه المرة . — وقد قص على هذه الوقائع من كان مكلفاً بمراقبته من الإخوان ، ثم اعترف لى هو بعد ذلك بحقيقتها .

وقد عرفت الشيخ أحمد قانعاً بزوجة واحدة من زمن طويل. إلا أنه سمح لنفسه الآن بزوجة أخرى(١) استمرت تعيش فى منزل أهلها .ومع ذلك فقد اهتم بأن يؤكد لى أنه ليس من الغنى بحيث يرفض الكسوة السنوية التى أهدتها إليه . وفى زيارتى الثانية لمنزله ، أثناء إقامتى الحالية فى هذا المكان ، حضرت أمه لدى باب الغرفة التى كنت جالساً فيها معه ، لتشكو إلى سوء عمله باتخاذه زوجة جديدة. وكانت تشير بيديها من خلال الباب بالحركة اللائقة ليكون لكلامها تأثير (أو لعلها كانت تريد أن تظهر جمال راحة اليد وأطراف البنان المخضوبة بالحناء الرطبة) ، إلا أنها كانت تستر شخصها ، فأخذت تناشد شعورى بقوة وتقول :

« يا أفندى ! إنى أضع نفسى تحت رحمتك ! أقبل قدميك ! لا أمل عندى إلا فى الله وفيك » .

فقلت لها : « ما هذا الكلام يا سيدتى ؟ أى مصيبة أصابتك ؟ وماذا أستطيع أن أصنع لك ؟ أخبرينى » .

فاستمرت تقول : ابنى هذا ، ابنى أحمد ، شخص لا قيمة له . له زوجة طيبة ، عاش معها سعيداً على بركة الله ستة عشر عاماً . وها هو الآن يهملها

---

(١) وقد قال لى إنه تزوج أكثر من ثلاثين مرة ، ولكنى أعتقد أنه يبالغ كثيراً .

ويهملني ويتخذ زوجة أخرى صغيرة السن قليلة الحياء . وهو يبدد نقوده على هذه القردة وعلى غيرها من أمثالها ، وينفق على أبيها وأمها وأعمامها وأخيها وأولاد أخيها ، ولا أعلم من عداهم ، ثم يقصر فى حقنا ، أنا وزوجته الأولى ، ، ولا يوفر لنا الراحة التى تعودناها من قبل . والنبى ! ورأسك الغالى ! إننى أقول الحق . أقبل قدميك ، أرجوك أن تلح فى تطليق زوجته الجديدة .

وكان الرجل المسكين أثناء مخاطبة أمه لى من وراء الباب ينظر بغباء ، وما كادت تذهب حتى وعد بتحقيق رغباتها. ثم قال : على أن المسألة صعبة ، فقد كنت متعوداً أن أنام أحياناً فى منزل شقيق البنت التى تزوجتها أخيراً ، وهو يشتغل كاتباً عند عباس باشا . ومنذ أكثر من سنة ، أرسل عباس باشا فى طلبى وقال : سمعت أنك تنام غالباً فى منزل كاتبى محمد . لماذا تفعل هذا ؟ ألا تعلم أن هذا غير لائق وفى المنزل نساء ؟ .

فقلت : سأتزوج من أخته .

فسألنى الباشا : لماذا لم تتزوجها من قبل ؟ .

ــ لأن سنها تسع سنوات فقط .

ــ هل عقد العقد ؟ .

ــ لا .

ــ ولم لا ؟

ــ ليس فى قدرتى الآن دفع المهر .

ــ وما مقدار المهر ؟

ــ تسعون قرشاً .

فقال الباشا :

ــ هاك إذاً النقود . وليعقد العقد حالا(١) .

---

(١) لم يكن الزواج فى سن مبكرة وقبل البلوغ أمراً غريباً . وقد تدخل المشرع لعدة أسباب صحية واجتماعية لتحديد سن الزواج ، ولكنه كان يقابل بالتحايل عليه .

وكان الفراعنة كذلك يتزوجون فى سن مبكرة .

ويقول لين إن أنوثة المصريات يبدأ نموها عند التاسعة أو العاشرة ، فتبلغ عنفوانها فى الخامسة عشر أو السادسة عشر. (المترجم)

فهكذا ترانى أننى اضطررت إلى التزوج من البنت ، وأخشى أن يغضب الباشا إذا طلقتها . ولكنى سأتصرف تصرفاً بجعل أخاها يشدد فى طلب الطلاق، ويومئذ أعود ثانية إلى عيش السلام والهدوء . وهـذا مثل طيب للراحة التى ينعم بها من يتزوج اثنتين .

ومنـذ وقت قريب عرض علىّ نسخة من القرآن لأشتريها ، وظن من الضرورى أن يلقى إلىّ بعض المعاذير . وقد لاحظ أننى من طـول ما ألفت طقوس المسلمين أفرضمناً أننى واحد منهم ، وأن من الواجب عليه أن يعتبرنى أحسن اعتبار ، وأنه يفعل ذلك مطمئن النفس ، لأنه يعلم أن اعتقادى علانية بالإسلام يُغضب علىّ مليكى ، وأنه لأجل ذلك لايمكننى أن أفعل هـذا(١) . وقال لى : « إنك تحيينى بقولك : السلام عليك . لذلك أكون آثماً لو قلت إنك كافر ، لأن الله عز اسمه قال : « ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السـلام لست مؤمناً »(٢) ثم أضاف إلى ذلك قوله : « وعلى هـذا ليس حراماً أن أضع بين يديك القرآن الكريم . ولكن من مواطنيك من يأخذه بيده القذرة ، بل ويجلس عليه . وأنا أستغفر الله من مثل هـذا الكلام وأستبعد أن تفعل هـذا وأنت والحمد لله تعرف أنه : (لايمسه إلا المطهرون)(٣) وتراعيه » . وفى مرة أخرى باع نسخة من القرآن بناء على طلبى لمواطن لى . وفى أثناء انعقاد الصفقة دخـل الغرفة إنسان ، فانزعج مواطنى وأسرع فوضع الكتاب على المقعـد وخبأه بجزء من ملابسه . فأخجل هذا العمل الكتبى وظن أن صديقى جلس على الكتاب ، وأنه يفعل هـذا احتقاراً له . فلم يخف اعتقاده أن الله سيعاقبه أشـد عقاب على هذا البيع الحرام . وكان هناك شىء واحد صعُب علىّ أن أقنعـه بعمله أثناء زيارتى السابقة لهذا البلد ، وهو أن يذهب معى فى وقت خاص إلى مسجد الحسنين ، وهو المدفن المشهور لرأس الحسين ، وأقدس المساجـد فى العاصمة المصرية . وبعد ظهر يوم من أيام رمضان ، كنت أمشى وإياه أمام أحد أبواب هذا الجامع ، وكان ساعتئذ يغص بالأتراك ، وكثير من سكان المدينة العظماء بين الحشد . فظننت أنها مناسبة طيبة لأشاهده من كثب ، وطلبت من رفيقى الدخول معى ، فرفض بحزم خوفاً من أن يُعرف أننى انجليزى ، وكان من الممكن أن يثير ذلك غضب المتعصبين من الأتراك الموجودين هناك ، فأعرض

---

(١) من الاعتقادات الشائعة لدى المصريين أن كل سائح أوروبى يزور بلادهم يكون رسولا من ملك بلاده ، ومن الصعب إقناعهم بالعكس إذ هم يستغربون تعرض الشخص لكثير من المضايقات والنفقات بقصد الحصول على معارف الأمم الأجنبية .

(٢) سورة النساء ، آية ٩٤ .

(٣) سورة الواقعة ، آية ٧٩ .

نفسى إلى بعض الأذى . فدخلت وحدى وبقى هو بالباب يتبعنى بعينه الوحيدة متعجباً من جرأتى . فلما رآنى عارفاً بالأساليب العادية : أطوف حول الستر البرنزى المحيط بالضريح ، ويقال إن رأس الشهيد مدفون به ، وأقوم بأوضاع الصلاة المنتظمة ، دخل وأقام صلاته بجانبى .

وأود بعد سرد هذه الحكايات أن أذكر أن أخلاق أصدقائى الآخرين لا يلاحظ عليها مثل هذا الشذوذ . وكان استقبالى لضيوفى لا يخرج عن عادات الضيافة الشرقية المألوفة . كنت أقدم إليهم الشبك والقهوة وأدعوهم إلى مشاركتى الغداء أو العشاء . وقد كتبت الكثير من أخبارهم بالعربية باملائهم ثم ترجمتها إلى الإنجليزية ونشرتها فى هذه الصفحات .

والمقصد الأول من وضع هذا الكتاب هو تمحيص الأشياء وتحقيق الحوادث ، فلم أضحِ بالحقيقة فى سبيل تجميل القصة . أما الصور التى نشرت فيه فقد رسمتها للشرح لا للزينة .

القاهرة — ١٨٣٥ .

مقدمة الكتاب

البلد ومناخه — العاصمة — المنازل — السكان

من المشاهد أن أكثر الخصائص لشمائل أمة وعاداتها وأخلاقها ، إنما يرجع إلى الخصائص الطبيعية لإقليم هذه الأمة . فخصائص الإقليم المصرى تؤثر ولا شك فى أحوال المصريين الأخلاقية والاجتماعية ، وهى لذلك تقتضينا كلمة إيضاحية نجمل فيها الآثار العامة . أما الآثار الخاصة ، فستتجلى فى الفصول الآتية من هذا الكتاب .

يجرى النيل فى وادى مصر العليا الشديد الضيق الكثير الالتواء بين صحراوين جبليتين رمليتين ، حتى يجتاز سهول مصر السفلى . وهو فى مجراه تكتنفه فى كل مكان ، ما خلا مواضع قليلة منه ، حقول زراعية تكونت من غرينه . وهذه المناطق الزراعية ليست مستوية كل الاستواء لانخفاضها عند الصحراء وارتفاعها قليلا عند النهر ، يتخللها غابات من النخل وسلاسل من القرى ، وتقطعها ترع عديدة . وتصل أمطار الصيف الغزيرة ، التى تقع فى الحبشة وما جاورها من البلاد ، أرض مصر حول الانتقال الصيفى . وعند الاعتدال الخريفى يبلغ النهر أقصى فيضانه ، فيُترع النهيرات والقنوات التى تروى الحقول ، ويغمر بقاعاً واسعة من الأرض الصالحة للزراعة ، ثم يهبط تدريجياً حتى يعود سيرته الأولى . ويحمل النيل معه ، وعلى الأخص فى وقت الفيضان ، الغرين (الطمى) الذى يجرفه من البلاد الجبلية حيث ينبع ، فيوزع فى كل سنة هذا الغرين الوفر على الحقول المنبسطة على جانبيه ، بالفيضان الطبيعى أو بالرى الصناعى ، بينما يرتفع مجراه من تراكم هذا الغرين بدرجة مساوية لارتفاع الحقول . ويعتمد المصريون جميعاً على نهرهم فى خصب الأرض ، لأن المطر ظاهرة نادرة جداً فى بلادهم ، ما عدا البلاد الواقعة على سواحل البحر المتوسط . ولما كانت الفصول منتظمة كل الانتظام ، فان الفلاح يمكنه

أن يرتب العمل الواجب إنجازه بكل دقة . وعمل الفلاح على الجملة سهل ، ولكن رفع المياه للرى شاق متعب .

ومناخ مصر ، فى معظم السنة ، ملائم للصحة إلى درجة تستحق الذكر . غير أن الأبخرة المتصاعدة من الأرض بعد الفيضان تجعل أواخر الخريف أقل ملاءمة للصحة . فهى تسبب الرمد والديسنطاريا وبعض أمراض أخرى تكون أكثر شيوعاً فى الخريف منها فى الفصول الأخرى . وتهب فجأة رياح جنوبية حارة تدوم ثلاثة أيام فى وقت الخماسين(١) التى تدوم على وجه التقريب خمسين يوماً تبدأ فى شهر أبريل وتنتهى فى آخر مايو . وتلك الرياح يندر أن ترتفع منها الحرارة فوق ٩٥ درجة فارنهايت فى الوجه البحرى ، أو ١٠٥ درجة(٢) فى الوجه القبلى ، إلا أنها تكرّب الأنفاس وتضيق الصدور . وفى الصيف يفد الطاعون إلى مصر ، ويكون أشد خطراً فى مدة الخماسين . ومصر معرضة أيضاً فى الربيع وفى الصيف لريح السموم ، وهى أشد وطأة من رياح الخماسين ، ولكنها أقصر مدة ، إذ ينـدر أن تدوم أكثر من ربع ساعة أو عشرين دقيقة . وهى تهب عامة من الجنوب الشرقى ، أو من جنوبى الجنوب الشرقى ، حاملة معها سحباً من الغبار والرمال . وتتراوح الحرارة فى منتصف الشتاء بعد الظهر فى الوجه البحرى بين الخمسين والستين درجة فى الظل . أما فى أشد الفصول حرارة فتتراوح بين التسعين والمائة درجة . ويزيد على ذلك حوالى عشر درجات فى مناطق الصعيد الجنوبية . على أن حرارة الصيف مهما بلغت شدتها قلما تضايق النفس ، لأن النسيم الشمالى يلطفها ، ولأن المناخ شديد الجفاف . إلا أن هناك مصدراً كبيراً للضيق يسببه ذلك الجفاف ، وهو كثرة الغبار . وهناك أوبئة أخرى تقلل كثيراً من الراحة التى ينعم بها المصريون وضيوفهم فى هذا المناخ البهيج . ويكثر الذباب ، فى الربيع والصيف والخريف ، كثرة مزعجة أثناء النهار . أما فى الليل فينتشر البعوض انتشاراً يقض المضاجع ما لم يتقه النائم بالكلة . ويملأ البق أثنـاء الفصل الحار كل المنازل ذات الأثاث الخشبى . ولا يمكن تجنب القمل فى أى فصـل ، ولكن من السهل التخلص منه . أما البراغيث فتكثر فى الشتاء كثرة مزعجة .

ومناخ الصعيد أكثر ملاءمة للصحة من الريف وإن كان أشد حرارة .

---

(١) أنظر هامش الفقرة الأولى فصل ٢٦ .

(٢) هذه هى الحرارة فى الظل وقد لاحظت فى مدينة طيبة أن ميزان الحرارة يرتفع إلى ما فوق ١١٠ درجة فى الظل أثناء ريح خماسينى .

وقلما ينتشر الطاعون فيما وراء القاهرة . وهو أكثر انتشاراً فى مناطق المستنقعات القريبة من البحر المتوسط . وفى أثناء السنين العشر الاخيرة ، قبل زيارتى الثانية لمصر ، لم تحدث غير إصابات قليلة جداً ، إلا فى الأقاليم السابقة الذكر . وهذه لم يكن الوباء فيها شديداً (١) ، لأن البلاد تحسن صرف مياهها ، وأدخلت فيها نظم المحاجر الصحية لمنع دخول هذا المرض من بلاد أخرى أو لوقفه . والرمد أكثر انتشاراً فى الوجه البحرى منه فى الأقاليم الجنوبية . وهو يحدث عامة من العرق . ولكن ضرره يتفاقم من الغبار ومن أسباب كثيرة أخرى . وقلما يستفحل خطر هذا المرض إذا أسرع المرضى فى استعمال الدواء ، ولكن كثيراً من الوطنيين ، لجهلهم طريقة العلاج ، أو لإصرارهم على تفويض الأمر للقدر ، يفقدون البصر كله أو بعضه .

وكثيراً ما سألنى السائلون هل فى مصر معمرون ؟ ومن المحقق أن قليلا من أهل هذا البلد من يبلغ السن العالية . ولكن من النادر أن يبلغ المرء هذا السن فى بلدنا دون أن يصاب مراراً بمرض مميت لولا عناية الطب ، التى لا ينالها إلا النزر القليل فى مصر . وحرارة الصيف تنهك الجسم ، ولكنها تدفع المصريين إلى الإفراط فى الملذات الشهوانية . وخصوبة الأرض تولد الكسل ، فيكتفى المصرى بالقوت القليل ، وهذه الكفاية يحصل عليها بأدنى سعى وأقل مشقة .

والعاصمة المصرية الحديثة التى يشغل الحديث عن سكانها أكثر صفحات هذا الكتاب ، تسمى الآن « مَصر »(٢) ، أو باللفظ الأفصح « مصر » . ولكنها كانت تسمى من قبل « القاهرة » ، فصحفها الأوربيون إلى « كَايرو » . وموقعها عند مدخل الصعيد فى منتصف المسافة بين النيل وسلسلة المقطم الشرقية . وبينها وبين النهر بقعة صالحة للزراعة فى أكثر أجزائها ، يزيد عرضها على ميل فى المناطق الشمالية (حيث يقع ميناء بولاق) ، ولكنها فى الجنوب أقل من نصف ميل . ومساحة العاصمة تبلغ تقريباً ثلاثة أميال مربعة . وقد أحصيت عدد سكانها أثناء زيارتى الثانية فبلغ زهاء مائتين وأربعين ألفاً ، وقد زاد هذا العدد

---

(١) هذه الملاحظة كتبت قبل طاعون سنة ١٨٣٥ الهائل الذى دخل من تركيا وانتشر فى كل أنحاء مصر ، ولو أن آثاره لم تكن عظيمة فى الأقاليم الجنوبية . وقد أهلك ما لا يقل عن ثمانين ألف نفس فى القاهرة ، أى ثلث السكان ، وأزيد بكثير على ما أعتقد من مائتى ألف فى كل مصر . وطبقاً لتقرير حكومى بلغ عدد ضحايا هذا الوباء حوالى أربعين ألفاً فى القاهرة . ولكن أخبرتنى جهة رسمية عليا أن الحكومة جرت فى هذه الحالة على تقرير نصف عدد الأموات فقط .

(٢) هذا هو الإسم الذى يطلقه المصريون المحدثون على بلدهم كما يطلقونه على عاصمة بلادهم .

بعد ذلك كثيراً بسبب إنقاص عدد الجيش ولأسباب أخرى . والقاهرة محاطة بسور تقفل أبوابه ليلا ، وتشرف عليها قلعة كبيرة تقع فى زاوية من المدينة بالقرب من الجبل ، وشوارعها ليست مبلطة وأكثرها ضيق غير منتظم ، وهى أحرى بأن تسمى أزقة(١) .

وتبدو القاهرة ، للأجنبى العابر فى شوارعها ، مدينة ضيقة جداً تغص بالسكان ، ولكن الحال تختلف فى نظر من يشرف على المدينة من سطح منزل أو من مأذنة مسجد. وأكبر الشوارع يكون فيه عادة صف من الحوانيت على كل جانب(٢) ، وفوق الحوانيت غرف لا تتصل بها ، وقلما تكون مشغولة بمستأجرى الدكاكين . وتوجد على أيمان الشوارع الكبيرة وعلى شمائلها دروب وحارات . وأغلب الدروب طرق مزدحمة لكل منها بوابة من الخشب كبيرة على مدخلها تقفل ليلا ، ويحرسها بواب من الداخل يفتح لكل من يطلب الدخول . أما الحارات فغالباً ما تتكون من عطفات ضيقة لها مدخل عام واحد ذو بوابة تقفل كذلك ليلا ، ولكن أكثرها يشقها درب من أولها إلى آخرها .

شكل ١ (منزل فى القاهرة)

ولا بد لى من وصف دور العاصمة ، وهذه الصورة التى أمامك تعطيك فكرة عامة عن خارج تلك المنازل . وتبنى الجدران الأساسية ، فى الطابق الأول خارجاً وداخلا ، من الحجر الجيرى الناعم يقطعونه من الجبال المجاورة . وعندما يقطع الحجر يكون سطحه ذا لون ضارب إلى الصفرة الخفيفة ، ولكن لونه سريعاً ما يقتم . وتلون خطوط الواجهة أحياناً بالحمرة والبياض(٣) على التعاقب ، خصوصاً فى المبانى الكبيرة

(١) يقول لين (جزء أول ، الفصل العاشر ، وصف مصر) إن عرضها بين ٥ و ١٠ أقدام ، وإن بعضها يكون أقل من ٤ أقدام . (المترجم)
(٢) ويجد القارىء فى فصل لاحق مناظر الحوانيت فى القاهرة .
(٣) بالمغرة الحمراء والجير .

كما هو الحال فى أكثر المساجد(١) . ويشيد البناء العلوى بالآجر ، ويغطى بالكلس أحياناً ، وهو ذو واجهة تبرز حوالى قدمين ، يقوم على كوابيل أو دعائم . والآجر لبن محروق ذو لون أحمر قاتم . ويتكون الملاط من طين بنسبة النصف ، وكلس بنسبة الربع ، والباقى من رماد التبن والسقط . لذلك تبدو الجدران غير المغشاة بالكلس قذرة اللون كما لو كانت مبنية باللبن . ويغطى سطح المنزل بالكلس ، ويكون عادة من غير سور .

ويبين الرسم رقم ٢ الأسلوب المعمارى الأكثر ذيوعاً لمدخل المنزل القاهرى : فالباب كثيراً ما يزين على هذه الطريقة المصورة ، فيصبغ القسم الذى فيه الكتابة والأقسام الأخرى المتشابهة الشكل بلون أحمر يحده حد أبيض ، بينما تلون بقية الباب باللون الأخضر . أما عبارة « هو الخلاق الباقى » ، التى سنشرح موضوعها عند الكلام على خرافات المصريين ، فترى على أبواب كثيرة . وهى تنقش عادة بحروف سوداء أو بيضاء . وقلما تصبغ الأبواب ما عدا أبواب البيوت العظيمة . ويكون لها على العموم سماعة من الحديد وضبة من الخشب . وعلى جانب الباب درجتان من الحجر للركوب(٢) .

شكل ٢ (باب منزل قاهرى)

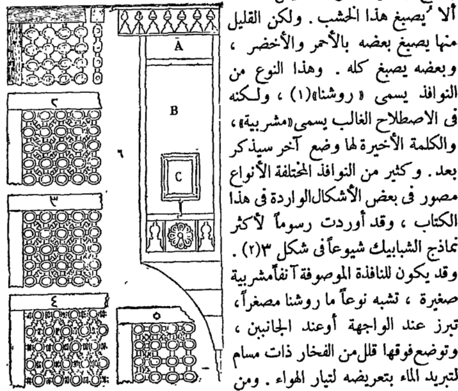
---

(١) طريقة تزيين الدور أصبحت أعم بكثير مما كانت عليه قبلا بناء من أمر الحكومة طلبت فيه من السكان الاحتفال بقدوم إبراهيم باشا من سورية . وبعد ذلك بسنوات كان سكان القاهرة يؤمرون بتبييض طبقات منازلهم العليا . فشوش هذا منظر المدينة الجميل لأن التباين بين بياض الجدران وسواد أخشاب النوافذ القديمة أحدث تأثيراً غير جميل .

ويظهر الشارع فى الصورة (شكل ١) أوسع مما هو فى الواقع فان النوافذ البارزة على جانبى الطريق تكاد تتقابل فتحجب الشمس تقريباً وتحدث رطوبة مقبولة فى الصيف . وقد منع بناء هذه النوافذ فى السنين الأخيرة لأنها تساعد على انتشار الحرائق .

(٢) وهى المعروفة بسلم التسليم . وأخبرنى بذلك (المرحوم) الأستاذ الشيخ محمود زناتى أمين الخزانة الزكية سابقاً . (المترجم)

وحجرات الطابق الأرضي لها نوافذ صغيرة مركبة من قضبان من الخشب المنقور ، ومرتفعة بحيث لا تسمح للراجل أو للراكب أن ينظر من خلالها . أما الغرف العلوية فنوافذها تبرز بمقدار قدم ونصف قدم أو أكثر. وأغلبها مصنوع من الخشب المخروط المشبك ، وهو ، لضيق ثقوبه ، يمنع كثيراً من النور والشمس ويحجب سكان المنزل عن الأنظار ، ولكنه في الوقت نفسه يسمح بدخول الهواء . ومن العادة ألا يُصبغ هذا الخشب . ولكن القليل منها يصبغ بعضه بالأحمر والأخضر ، وبعضه يصبغ كله . وهذا النوع من النوافذ يسمى « روشنا»(١) ، ولكنه في الاصطلاح الغالب يسمى«مشربية» ، والكلمة الأخيرة لها وضع آخر سيذكر بعد. وكثير من النوافذ المختلفة الأنواع مصور في بعض الأشكال الواردة في هذا الكتاب ، وقد أوردت رسوماً لأكثر نماذج الشبابيك شيوعاً في شكل ٣(٢) . وقد يكون للنافذة الموصوفة آنفاً مشربية صغيرة ، تشبه نوعاً ما روشنا مصغراً، تبرز عند الواجهة أو عند الجانبين ، وتوضع فوقها قلل من الفخار ذات مسام لتبريد الماء بتعريضه لتيار الهواء . ومن هنا اشتق اسم « مشربية » ، ومعناه : « مكان الشرب »(٣) . ويعلو النافذة البارزة مباشرة نافذة أخرى مسطوحة من الخشب المشبك أو من القضبان



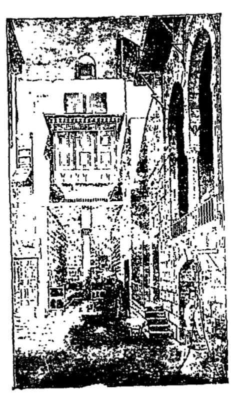
شكل ٣ (نماذج من شبابيك الخشب الخرط) والمسافة بين منتصف صف من الحبات إلى منتصف صف آخر (في تلك النماذج) تبلغ من بوصة وربع إلى بوصة وثلاثة أرباع

(١) قد يكون من الفارسية « روشندان » ، وتعنى مكان يوضع فيه المصباح ، مكان يدخل منه النور ، منور . (المترجم)

(٢) يبين الرسم رقم ١ قطاعاً لقسم من النوع الساذج . ويبين الرسم رقم ٦ جانباً من شباك بارز ونسبة كل جزء منه إلى الآخر عامة . ويكون الجزء A في أكثر الأحوال من الخشب المخروط المماثل للنموذج رقم ١ ، ويتألف عرضه من ١٢ صفاً من الخرزات الخشبية تقريباً . ويكون الجزء B عادة على مثال النموذج السابق أو على مثال أحد النموذجين ٢ أو ٣ . أما الشباك الصغير C ، الذي يتصل بذلك الجانب بمفصلات ، فيكون عامة على شكل النموذج رقم ٤ .

(٣) ويوجد رأي يقول إن المشربية تحريف ظاهر من كلمة مشرفية أي التي تشرف منها النساء . دكتور عبد العزيز سالم ، في وصف العمارة المدنية بالأندلس ، صفحة ١٢٢ من دائرة المعارف الشعبية ، جزء ٢ . (المترجم)

الخشبية أو من الزجاج الملون . وشباك هذه النافذة العلوية ، إذا كان لها شباك ، كثيراً ما يكون ذا رسوم قوامها موضوعات تصويرية أكثر من الأنواع الأخرى ، فيمثل طستاً فوقه إبريق ، أو صورة أسد ، أو إسم الله ، أو أمثال هذه الجملة : « الله أملى » الخ . وقد تكون النوافذ البارزة ملوّحة كلها بالخشب ، وقليل منها يميل إلى الأمام من أسفل إلى أعلى بزاوية عشرين درجة تقريباً ، وتفتح من القمة لدخول النور . وبعض الأشكال الغالبة تكون جوانبها ذوات ألواح زجاجية . وفى أجمل المنازل أيضاً تجهز شبابيك النوافذ الآن بألواح زجاجية من الداخل ، فتقفل كلها فى الشتاء لأن البرد القارس يشعر به المصريون عندما تنخفض الحرارة إلى أقل من ستين درجة فارنهايت(١) . وأما نوافذ الدور الدنيا فأكثرها من طراز آخر لأنها مستوية مع سطح الحائط الخارجى . وجزؤها الأعلى يكون شباكاً ، يماثل عادة النموذجين (١) أو (٥) فى شكل رقم ٣ ، أو قضباناً خشبية ، والجزء الأسفل له دُرف معلقة يقفل بها . والكثير منها له مشربية للقلل تبرز عند جزئه الأسفل .



شكل ٤ (فناء منزل قاهرى)

يتألف المنازل على العموم من طابقين أو ثلاثة . ويتوسط كل دار كبيرة فناء مكشوف غير مبلط (شكل ٤) يدخل إليه من دهليز ينعطف مرة أو مرتين بقصد منع المارين فى الطريق من النظر إلى الداخل . وفى هذه الطرقة من داخل الباب يوجد مقعد حجرى طويل يسمى « مصطبة » ، وهو ملاصق للحائط الخلفى أو الجانبى ، يجلس عليه البواب والخدم الآخرون . وفى هذا الفناء بئر يتسرب ماؤه المائل للملوحة خلال الأرض من النيل ، كما يوجد

---

(١) أما النوافذ الزجاجية على الطريقة الأوربية ، التى لكل منها شباك فى خارج نصفها الأسفل ، فقد شاع استعمالها فيما بعد فى المنازل الجديدة فى أقسام كثيرة من القاهرة . وأكثر هذه النوافذ توجد فى المنازل المشيدة على الطراز التركى الذى يقرب كثيراً أو قليلا من النظم الأوربية ، وهى لا تلائم المناخ الحار وإن كانت مريحة فى الشتاء .

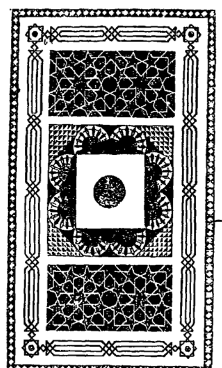
فى جانبه الظليل جرتان يجلب إليهما الماء يومياً من النهر فى قِرَب(١) . وتطل



شكل ٥ (البهو أو غرفة الاستقبال)

الغرف الرئيسية على الحوش ، وتغطى جدرانها الخارجية (تلك التى تكون من الآجر) بالجص وتبيض . وهناك كثير من الأبواب تفتح على الفناء ، منها واحد يسمى « باب الحريم » وهو مدخل السلم الذى يؤدى إلى الحجرات المخصصة للنساء ولرب الدار وأولاده(٢).

ويوجد غالباً فى الطابق الأرضى غرفة تسمى « منضرة » (٣) (شكل ٥) يستقبل فيها الزائرون من الرجال . ولهذه الغرفة نافذة واسعة من القضبان الخشبية ، أو نافذتان من هذا النوع تطلان على الحوش . وأرضيتها جزء صغير يمتد من الباب إلى الجهة المقابلة منخفضاً عن بقية الغرفة بأربع أوخمس بوصات تقريباً ، ويطلق عليه اسم



شكل ٦

(أرضية درقاعة عرضها حوالى ٨ أقدام)

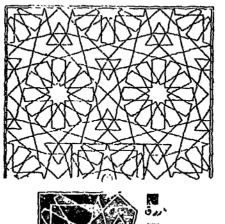
---

(١) يوجد فى بعض المنازل الكبيرة فناءان يخصص الداخلى منهما للحريم. ويوجد عادة فى الفناء الآخر أو فى الاثنين معاً سياج صغير به أقواس خشبية تزرع فيه الأشجار والزهور. وأكثر أنواع الشجر شيوعاً فى فناء المنازل الكروم والتوت ، وكثيراً ما يوجد معهما الموز والنخيل وأشجار أخرى.

(٢) يلاحظ فى الرسم الذى رسمته لفناء المنزل أن باب الحريم هو ذلك الذى يواجه الناظر .

(٣) المنظرة : ما ارتفع من البناء ونظرت منه (المنجد). (المترجم)

خشبية دقيقة الصنع ، لأن الحرارة ويبوسة الجو تعرضان الخشب للتقلص والالتواء كما لو كان داخل تنور . ولهذا السبب تصنع أبواب الغرف أيضاً بالطريقة نفسها . ويلاحظ أن هناك تفنناً عظيماً ومهارة فائقة فى مختلف الأساليب المتبعة فى صنع تلك الحشوات الصغيرة وتركيبها ، وقد نشرت بعض نماذج مختارة منها (شكل ٩) . أما السقف الذى يعلو الليوان ، فهو ذو جسور من الخشب المنقور يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة قدم ، ويلون بعضها وأحياناً يذهب . ولكن هذا الجزء من السقف ، الذى يعلو الدرقاعة ، يكون فى المنازل الجميلة أفخم نقوشاً وأكثر زخرفة . وبدلا من العروق الكبيرة ، تسمر بضعة شرائط خشبية دقيقة فى الألواح ، فتؤلف نماذج غريبة التعقيد ، كاملة الانتظام ، ذات تأثير زخرفى عظيم . وقد رسمت جزءاً من السقف على هذا الأسلوب الزخرفى ، ولكنه ليس من الطراز الكثير التعقيد (شكل ١٠) وهذه الشرائط تدهن بالأصفر أو تذهب وما بينها يلون بالأخضر والأحمر والأزرق(١) . وتكون الألوان فى المثل الذى ضربته ، كما هو مشار إليها فى الرسم ، بالنسبة نفسها ، ولكن على مقياس أكبر . أما المربع الذى يتوسط السقف ، فتكون الشرائط فيه سوداء على أرضية صفراء . وكثيراً ما يتدلى قنديل من وسط هذا المربع . وهناك بضعة نماذج متشابهة ، وألوانها ، الواحد بالنسبة للآخر ، توضع غالباً بالترتيب نفسه إلا أن هذه السقوف فى بعض المنازل لاتلون . أما سقف النافذة البارزة ، فكثيراً ما يزخرف بالطريقة نفسها ، (كما ترى فى الشكل ١١).



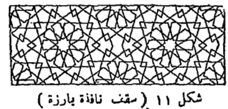
شكل ١٠ (سقف درقاعة)
عرضه حوالى ثمانى أقدام

وهكذا يتجلى الذوق السليم بقصر الزخرفة على الأجزاء التى لا تكون دائماً أمام

---

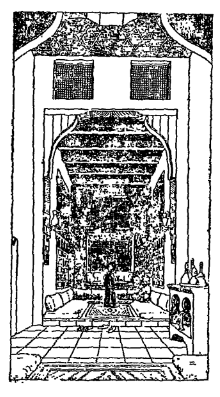
(١) أنظر سفر أرميا الإصحاح الثانى والعشرين ، الآية الرابعة عشرة : أبنى لنفسى بيتاً وسيعاً وعلالى فسيحة ويشق لنفسه كوى ويسقف بأرز ويدهن بمغرة .

العين ، لأن إدمان النظر إلى مثل تلك الخطوط الكثيرة المتقاطعة المتجهة في اتجاهات عديدة مما يؤلم العين .



شكل ١١ (سقف نافذة بارزة)
وتكون أبعاده حوالى ثمانى أقدام
طولا وثلاثة أقدام عرضاً

وفى بعض المنازل (كما مر بك فى شكل ٤) توجد حجرة أخرى تسمى « مقعد » ، ترتفع عن الطابق الأرضى نحو ثمانى أقدام أو عشر ، وتستعمل مثل « المنضرة » ، وهى ذات واجهة مكشوفة لها عقدان أو أكثر ودرابزون(١) منخفض .كذلك يوجد فى الطابق الأرضى مكان مربع ، يسمى « تختبوش »(٢) ، له واجهة مكشوفة يتوسطها عمود يحمل الجدران العليا ، وأرضيته ليوان مبلط عليه مقاعد خشبية طويلة ، يسمى الواحد منها « دكة » ، تصف على جانب واحد أو على جانبين أو على الجوانب الثلاثة . وكثيراً ما يرش الحوش أثناء الصيف بالماء ، حتى تصبح الغرف المحيطة به ، أو على الأقل حجر الطابق الأرضى ، لطيفة الحرارة . أما تأثيث الغرف فعلى الطريقة السابق وصفها .



شكل ١٢ (قاعة)

وبين الغرف العلوية الخاصة بالحريم يوجد عامة غرفة تسمى « قاعة » ، كما ترى فى (شكل ١٢) ، وهى عالية بصفة خاصة ، ولها ليوانان ، واحد على كل جانب ، أحدهما أكبر من الآخر ، وهو أكثرهما قدراً . وفى سطح هذه القاعة قسم يعلو الدرقاعة ، التى تتوسط الليوانين ، مرتفعاً عن بقية السقف

(١) يونانية (المنجد) . (المترجم)
(٢) لعله من الفارسية تخت : كل ما كان مرتفعاً للجلوس أو الاتكاء أو النوم ، والمكان المسطح . وبوج : مجوف . (المترجم)

فى ثقوب مقابلة لها فى المزلاج المتحرك كلما دفع إلى المهج . وفى المفتاح أيضاً مسامير ، مطابقة لتلك الثقوب ، تدخل فيها فترفع المسامير الأولى ، وحينئذ يمكن سحب المزلاج للوراء فيفتح القفل . ويبلغ طول قفل باب الشارع أربع عشرة بوصة تقريباً (١) . وأبواب الغرف والدواليب الخ من سبع إلى تسع بوصات تقريباً . أما أبواب الحارات والمبانى العامة فأقفالها من النوع نفسه ، ولكن طولها غالباً قدمان أو أكثر . وليس من الصعب فتح هذا القفل .

ويلاحظ أن رسم أكثر المنازل يعوزه النظام. فالغرف مختلفة الارتفاع بحيث يجب على الإنسان أن يخطو عدة درجات عندما ينتقل من غرفة إلى أخرى ملحقة بها . وغاية المعمارى الأولى هى جعل المنزل خاصاً بقدر الإمكان ، وخصوصاً قسم الحريم ، فيشيد المنزل بحيث لا تطل النوافذ على غرف منازل أخرى . ويراعى المعمارى غرضاً آخر ، فى بناء منازل الموسرين والعظماء ، وهو أن يجعل للمنزل « باب سر(٢) » يستطيع الساكن أن يهرب منه فى حالة الخطر ، أو يمكن العاشقين المرور منه . ومن الشائع أيضاً بناء مكان لإخفاء الكنوز (يسمى « مخبأ ») يكون فى جانب من المنزل . وفى حريم المنازل الكبيرة حمام يسخن على طريقة الحمامات العمومية .

وقد أشرت سابقاً إلى طراز معمارى آخر ، على الطريقة التركية ، جرى عليه الأغنياء أخيراً فى بناء منازلهم ، وتلك المنازل لا تختلف كثيراً عن تلك التى سبق وصفها ، ما عدا النوافذ ، فهى فى الغالب يوضع بعضها بجانب بعض تقريباً .

وعندما تشغل الحوانيت الجزء الأسفل من البناء فى شارع ما (كما هو الحال فى شوارع العاصمة الكبيرة ، وفى بعض الدروب) ، يقسم البناء العلوى عادة إلى مساكن منفصلة ، يطلق عليه اسم « ربع » ، وتلك المساكن ينفصل بعضها عن بعض ، وكذلك عن الدكاكين تحتها ، وتؤجر للعائلات التى لا تقوى على دفع إيجار منزل بأكمله . وكل مسكن فى الربع يحتوى على غرفة أو غرفتين للجلوس والنوم ، وعلى مطبخ ودورة مياه . ويندر أن يكون للمسكن مدخل من الشارع على حدته ، فليس هناك إلا مدخل واحد وسلم واحدة لعدة

---

(١) هذا هو طول المزلاج .
(٢) وهذه العبارة تطلق أحياناً على باب الحريم .

مساكن . والغرف فى الربع تشبه غرف الدور الخاصة السابق وصفها . وهى لا تؤجر أبداً بفرشها . ومن النادر أن يسمح للأعزب أو لمن لا يملك جارية بالسكن فى تلك الربوع أو فى أى مسكن خاص . ومثل هذا الشخص ، ما لم يكن يعيش مع أبويه أو مع أقاربه المقربين ، يضطر إلى السكن فى « وكالة » ، وهى بناء مخصص لاستقبال التجار ، وإيداع بضائعهم(١) .

وفيما عدا العاصمة وبعض المدن الأخرى ، قلما توجد منازل كبيرة أو جميلة . أما مساكن الطبقات السفلى ، وخصوصاً طبقات الفلاحين ، فيبدو عليها الفقر المدقع : فأكثرها مبنى باللبن والطين ، وبعضها ليست إلا أكواخاً عادية . ومع ذلك فأغلبها يحوى غرفتين أو أكثر بالرغم من أن القليل منها يتألف من طابقين . ويوجد فى مساكن فلاحى الوجه البحرى ، فى غرفة ما ، « فرن » فى الطرف الأقصى من المدخل شاغلا عرض الغرفة كلها . وهو عبارة عن دكة من الطوب والطين لا يزيد ارتفاعها على صدر الإنسان ، وسقفها مقوس فى الداخل ومسطح عند القمة . ويندر أن يمتلك الفلاحون لحافاً يلتحفون به فى ليالى الشتاء ، فينامون كلهم على سطح الفرن ، بعد أن يوقدوا فيه ناراً ، أو يتمتع بهذا الترف الزوج وزوجته ، بينما يفترش الأطفال الأرض . وفى الغرف فتحات صغيرة مرتفعة يدخل منها النور والهواء ، وتشبك أحياناً بقضبان خشبية . وتكون السقوف من جذوع النخل وتغطى بالجريد والسعف وسيقان الذرة ، وتكسى بطبقة من الطين والتبن . ولا يتعدى أثاث المنزل حصيرة أو حصيرتين للنوم ، وبعض أوعية من الفخار ، ورَحاً لطحن الحبوب . ويلاحظ أن فى كثير من القرى أبراجاً للحمام كبيرة مربعة الشكل ، مع ميل خفيف فى جدرانها نحو الداخل (مثل كثير من مبانى قدماء المصريين) ، أو على شكل قالب سكر ، تبنى على أسطح الأكواخ باللبن والفواخير (٢) والطين . وأكثر قرى مصر يقع على أطلال مرتفعة ، بحيث لا تصل إليها مياه الفيضان ، وتحيط بها أو تجاورها أشجار النخل . وهذه المرتفعات تتكون عادة من بقايا أكواخ سابقة أو مدينة قديمة ، ويبدو أنها تزيد بقدر ما يزيد مستوى الوادى من الرواسب وبقدر ما يزيد مجرى النهر .

---

(١) ومع ذلك فالفرنج الآن معافون من هذا المنع .

(٢) وتكون أوعية الفخار المستخدمة فى بناء الأبراج على شكل بيضاوى . وتكون لها فوهة واسعة متجهة إلى الخارج ، وبها ثقب صغير فى الطرف الآخر . ويشغل كل زوج من الحمام وعاء على حدة .

من الحبوب سنوياً (١) . وهذا الإحصاء يتفق مع ما قاله ديودور الصقلى من أن مصر بلغ عدد سكانها فى أيام الملوك الأقدمين سبعة ملايين ، بينما فى عصره لم يقلوا عن ثلاثة ملايين .

ومن تأمل فى سياسة محمد على(٢)، لا يسعه إلا أن يأسف للفرق بين حالة مصر تحت حكمه وبين ما كان يجب أن تكون ، إذ لم يزد عدد سكانها بكثير عن ربع العدد الذى كان فى إمكانها إعالته . ولقد كان فى استطاعة العاهل العظيم أن ينفع شعبه أجزل النفع ، لو أنه بدلا من إفقار الفلاحين ، بنزع الأراضى الزراعية واحتكار المحصولات القيمة ، واستخدام كفاءة السكان فى إرضاء طموحه وتحقيق فتوحه ، أو فى منافسته الصناعة الأوربية على غير طائل ، كان قد وجه عنايته إلى مساعدة الطبيعة فى أن يجعل مصر بلداً زراعياً على الأخص . فقد كان يكفى محصول قطنها وحده ، بل ويفيض ، للحصول على كل منتجات المصانع الأجنبية وكل المحصولات الطبيعية التى تتطلبها حاجة السكان من البلاد الأجنبية(٣) .

---

(١) وقد لمح لى البعض إنه بتصدير الحبوب تستورد أشياء ذات قيمة مساوية ، وإن تصدير الحبوب أو أى شىء آخر ينعش الصناعة وينشط السكان . ولكنى لا أعرف ما يمكن استيراده ليقوم بالغذاء اللازم لشعب عدده يستهلك أكثر من محصول أرضه * .

* أسقط لين فى هذه الطبعة جملة كانت واردة فى الطبعة الأولى وهى: ويساند ابراهيم باشا السياسية التى يوصى باتباعها عاليه . (المترجم)

(٢) ذكر لين الكثير من أعمال محمد على فى كتابه المخطوط Description of Egypt (وصف مصر) (المترجم)

(٣) فى ١٨٣٥ شحن من الاسكندرية أكثر من ١٠٠ر٠٠٠ بالة قطن (زنة البالة حوالى قنطارين) ، وكان ما دفعه التجار يزيد على ٧٠٠ر٠٠٠ جنيه أما الكمية المصدرة فى العام الماضى فكانت ٣٤ر٠٠٠ بالة وهى أقل من المعتاد بكثير .

الفصل الأول

مميزات المصريين المسلمين وملابسهم

يؤلف المسلمون العرب غالبية سكان مصر منذ قرون . وقد أحدث ذلك انقلاباً فى اللغة والقوانين والشمائل العامة ، وأصبحت العاصمة المصرية أعظم قاعدة للمعارف والفنون العربية ، وفى كافة النواحى ، أعظم المدن العربية فى عصرنا . وسيخصص لوصف هذا الشعب ، وعلى الأخص الطبقتان الوسطى والعليا فى القاهرة ، أكبر جزء من هذا الكتاب . ويلاحظ أن شمائل المصريين وعاداتهم تثير الاهتمام بنوع خاص ، لأنها مزيج من تلك الشمائل والعادات التى تسود الجزيرة العربية ، وسورية ، وشمال أفريقية كله ، وتركية إلى حد بعيد . وليس هناك بلد كمصر يمكننا أن نحصل فيه على معرفة تامة بأكثر طبقات العرب تمدناً .

ويظهر من الإحصائيات الواردة فى مقدمة هذا الكتاب ، أن المصريين المسلمين ، أو المصريين العرب ، يؤلفون تقريباً أربعة أخماس سكان العاصمة وسبعة أثمان سكان مصر كلها .

والمصريون المسلمون من جنس خليط ، انحدر إلى حد كبير من عدة قبائل وعشائر عربية وفدت إلى مصر فى عصور مختلفة ، بعَيْد الفتح . وهؤلاء العرب المهاجرون كانوا أولا قبائل تجوب الصحراء ، ولكنهم تركوا حياة البداوة وتحضروا ، ثم أصهروا إلى الأقباط الذين أصبحوا بالإسلام آمنين ، فأدى اختلاطهم هذا إلى تكوين شعب كثير الشبه عامة بقدماء المصريين ، الذين ينتمون إلى الجنس « القوقازى » ، مع قرابتهم إلى الجنس الأسود على درجات مختلفة(١) وهذا الشبه يبدو تاماً فى عدة أفراد منهم على الجملة ، وعلى الأخص فى القبط والنوبيين . وهو فى مسلمى مصر الوسطى والعليا (مثل ما فى القبط) أكثر شيوعاً ووضوحاً ، ولكنهم مع ذلك ليسوا أقل عروبة من

---

(١) يرى موريه Moret (فى كتابه Le Nil et La Civilisation Egyptienne ص ٤٤ أن قدماء المصريين لا ينتمون إلى جنس واحد فقط . فالآثار والهياكل العظمية تميز ثلاث عناصر صهرت جميعاً فى وادى النيل لتكون الشعب المصرى . وقد أضافت الغزوات والهجرة على مر العصور ، عناصر أخرى تلاشت فى ذلك الشعب ، وظل وادى النيل محتفظاً بطابعه المصرى . (المترجم)

يطلقون لحاهم بمقدار قبضة اليد تقريباً . وهذا هو المتبع عادة ، وتلك كانت عادة الرسول . وهم ، لمحافظتهم على السنة ، لا يطيلون الشاربين ولا يمدونهما على الأقل فوق الشفة العليا ، حتى لا يضايقانهم عند الأكل أو الشرب . وعادة الخضاب ليست شائعة في مصر لأنهم يحترمون الشيب . ويحلق المصريون شعر الرأس كله ، أو يتركون خصلة صغيرة فوق الناصية تسمى « شوشة »(١) . ويقال إن هذه العادة الأخيرة ، التي تكاد تكون عامة بينهم ، منشأها خوف المسلمين عند وقوعهم في أسر الكفار أن يعمد هؤلاء ، عند ذبحهم ، إلى وضع أيديهم النجسة في الفم ليحملوا الرأس منه إذا لم يجدوا شعراً، وقد تكون اللحية قصيرة أيضاً . ولكن الراجح أن تلك العادة أخذت عن الأتراك ، لأنها لا تشاهد عامة عند البدو ، ولأن عادة حلق الرأس ظهرت بين العرب منذ عهد قريب ، ثم إنها للنظافة(٢) . ويتبع المصريون عادات أخرى لنظافتهم لا محل لذكرها هنا(٣) . ويلاحظ أن كثيراً ما يشم رجال الطبقة السفلى وغيرهم أذرعتهم وأحياناً أيديهم وصدورهم كما يفعل النساء . وسنصف هذه العادة عند الكلام عن النساء .

وتتألف ملابس رجال الطبقتين العليا والوسطى من الأجزاء الآتية(٤) : أولا ، سروال(٥) فضفاض من الكتان أو القطن يشد حول الوسط بشريط (٦) ، طرفاه مطرزان بالحرير الملون وإن كانا تحت الملابس الخارجية . ويصل السروال إلى ما تحت الركبتين بقليل أو ينزل حتى الكعبين . إلا أن الكثير من العرب لا يلبسون السراويل الطوال لأن النبي حرمها عليهم(٧) . بعد ذلك

= ويعتبرونها علامة الرجولة . وهم يطلقون عليهما لفظ (شنب)، ويذكرونه كثيراً في حديثهم لتأكيد أقوالهم كأن يقول : أحلق شنبي (لو تم ذلك الأمر) . (المترجم)

(١) يعد المسلمون ترك قصاصة الشعر أو قلامة الأظافر الخ على الأرض مخالفاً للاحترام الواجب لكل ما يخص الجسد ، وهم لذلك يدفنون هذه الأشياء في التراب ، بينما النساء يحشين بها شقوق الجدران .

(٢) ويستقبح رجال العلم والدين هذه الشوشة .

(٣) وهي مذكورة في « مشكاة المصابيح » الجزء الثاني ص ٣٥٩ ويراعيها كلا الجنسين .

(٤) ولا تزال طريقة لبسهم كما كانت على مر القرون .

(٥) يسمى « لباس » .

(٦) يسمى « دكة » أو « تكة » .

(٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار . رواه البخاري والنسائي . وفي رواية النسائي : إزرة المؤمن إلى عضلة ساقه ، ثم إلى نصف ساقه ، ثم إلى كعبه ، وما تحت الكعبين من الإزار ففي النار . — لأنهم كانوا يقصدون به الخيلاء بإطالة ثيابهم .

الترغيب والترهيب من الحديث للإمام الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري جـ ٣ ، ص ٣٧١ . (المترجم)

قميص أكمامه واسعة جداً تصل حتى المعصم ، يصنع من نسيج الكتان الأبيض الرخص أو من نسيج القطن أو الحرير الموصلى أو الحرير المخلوط بالقطن ، وكلها مفوفة ببيضاء(١) . ويرتدى أغلب الناس فوق هذا ، عندما يبرد الطقس ، « صديرياً »(٢) قصيراً من الجوخ أو من الحرير الملون المفوف أو من القطن ، ولا أكمام له(٣) . ويضاف إلى هذا رداء طويل من الحرير المفوف أو القطن(٤) يسمى « قَفطان » أو على حسب التعبير الغالب ، « قُفطان » ينزل حتى الكعبين ، وأردانه الطويلة تمتد إلى ما بعد أطراف الأصابع ببضع بوصات وتشق من فوق الرسغ بقليل أو من وسط الذراع بحيث تكشف اليد ، إلا أنه يمكن سترها بالكم عند الضرورة لأن من العادة أن تغطى اليدان فى حضرة شخص عظيم . ثم يلف حول هذا الثوب شال ملون(٥) أو قطعة طويلة من الحرير الموصلى الأبيض المنقوش . وأخيراً ، الحلة الخارجية العادية وهى عبارة عن كساء طويل من الجوخ ، من أى لون كان ، يسميه الأتراك « جُبّه » ويسميه

شكل ١٤ (زى الطبقتين الوسطى والعليا)

(١) ولقد نهى الرسول الرجال دون النساء عن لبس الحرير إلا أن هذا المنع لا يراعيه إلا القليل جداً من المسلمين المحدثين ، ماعدا الوهابيين . (المؤلف)

عن على رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله (ص) أخذ حريراً فجعله فى يمينه وذهبا فجعله فى شماله ثم قال : إن هذين حرام على ذكور أمتى . رواه أبو داود والنسائى (الترغيب والترهيب من الحديث الشريف جـ ٣) (المترجم)

(٢) وعلى الأصح « صُديرة »*

* ولعلها مصغر صُدرة . والصدرة الثوب يغشى الصدر (المنجد) (المترجم) .

(٣) ويكون نسيج الظهر ، فى الصديرى والملابس الداخلية جميعاً ، من نسيج الصدر

(٤) وقلما يكون التفويف واحد الشكل فقد يكون مصوراً أو مزهراً .

(٥) حزام .

المصريون « جبّه » ولا تتعدى أكمامه المعصم تماماً(١) . وبعض الأشخاص يلبسون « البنش » ، وهو قباء من الجوخ ، أكمامه كأكمام القفطان طولا ولكنه أوسع منها(٢) ، ويرتدونه على الأخص فى الحفلات فوق الجبة ، ولكن الكثير منهم يستبدلونه بها . وهناك رداء آخر يسمى « فرَجيّة » يشبه البنش تقريباً ، وأكمامه طويلة غير مشقوقة ، ويلبسها غالباً رجال العلم . ويُتوشح شتاء بنوع من المآزر الصوفية السوداء يسمى « عبايه »(٣) ، وقد تشد فوق الرأس . وفى الشتاء أيضاً يتدثر كثير من الناس بشال من الحرير الموصلى ، أو غيره (مثل الذى يستعملونه للعمامة) يلف حول الرأس والكتفين .



شكل ١٥ (زى الطبقة الدنيا)

أما غطاء الرأس ، فيتكون من قلنسوة(٤) قطنية صغيرة مطابقة للرأس تماماً وتغير كثيراً . ثم يوضع « الطربوش » وهو غطاء من الجوخ الأحمر ، محكم على الرأس أيضاً ، يتدلى من قمته شرّابة من الحرير الأزرق القاتم . وأخيراً يلف على الطربوش قطعة طويلة من الحرير الموصلى الأبيض المصور ، أو شال كشميرى ، وهذه هى العمامة(٥) . وقلما يستعمل الشال الكشميرى إلا عندما يبرد الجو . وقد يلبس البعض طربوشين أو ثلاثة ، الواحد فوق الآخر . أما عمامة الشريف ، وهو الموصول نسبه بنسب الرسول ، فخضراء ،

---

(١) أنظر الصورة الأمامية فى شكل رقم ١٤ .

(٢) أنظر الصورة اليسرى من نفس الشكل .

(٣) أنظر الشكل رقم ١٥ وقوامه عباية مخططة ، وتسمى أيضاً « عباءة » و « عبا » .

(٤) تسمى « طاقية » أو « عرقية » .

(٥) تسمى « عِمّة » .

وله وحده هذا الامتياز . كما أنه ليس من المعتاد أن يلبس أحد غير الأشراف ثياباً خضراء ناضرة .

أما الجوارب فلا يستعملها إلا بعض الناس شتاء ، ويتخذونها من الصوف أو القطن . وأما الحذاء(١) فهو من الجلد المراكشي الأحمر السميك ، وطرفه الأمامي مدبب معقوف إلى أعلى . وينتعل البعض حذاء داخلياً(٢) من الجلد المراكشي الأصفر الناعم ذا نعل من الجلد نفسه ، فيخلع الحذاء الخارجي وحده عند الدوس على البسط . ولهذا السبب يلبس الحذاء الخارجي مكعوباً .

ويحمل المصريون في خنصر اليد اليمنى خاتماً(٣) من العقيق أو غيره ينقش عليه اسم حامله ويصاغ عادة من الفضة . ويرفق الإسم غالباً بعبارة خادمه (أي خادم الله أو عبده) أو بعبارات أخرى تعبر عن إيمان الشخص بالله الخ(٤) . وكان الرسول يستقبح استعمال الذهب(٥) ، ولذلك قلما يلبس المسلمون خواتم من ذهب . ولكن النساء يتحلين بمختلف الحلي (من خواتم وأساور الخ) من هذا المعدن الثمين . ويستعمل الخاتم لختم الرسائل وغيرها من المكاتبات ، ويعتبر أصدق من إمضاء اليد(٦) . وطريقة ذلك أن يلطخ الخاتم بقليل من الحبر بأصبع من الأصابع ، ثم يضغط على الورقة بعد أن يأخذ الشخص من ريقه بأصبع أخرى ويبلل المكان المراد ختمه . وكل فرد تقريباً يحمل خاتماً متى كان يستطيع ذلك ولو خادماً . ويضع محترفو الكتابة والعلماء وغيرهم في منطقتهم دواة « دواية » من الفضة أو النحاس الأصفر أو النحاس الأحمر ، وهي عبارة عن محبرة أو صندوق به أوعية للحبر والأقلام(٧) ، ويحمل البعض ، بدلا منها أو علاوة عليها ، مطواة أو خنجر .

---

(١) مركوب .

(٢) ويسمى (مز) أو أكثر صحة (مزد) من التركية (مست) .

(٣) وقد يوضع في أي أصبع من أصابع اليد اليسرى .

(٤) أنظر انجيل يوحنا ٣/٣٣ (ومن قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق) ، والخروج ٣٠/٣٩ (وصنعوا صفيحة الإكليل المقدس من ذهب نقي . وكتبوا عليها نقش الخاتم قدس للرب) .

(٥) عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رجلا قدم من نجران إلى رسول الله (ص) وعليه خاتم من ذهب فأعرض عنه الرسول (ص) وقال إنك جئتني وفي يدك جمرة من نار . رواه النسائي . الترغيب والترهيب من الحديث الشريف . (المترجم)

(٦) ولذلك يعتبر إعطاء الخاتم لأي شخص آخر دليلا على الثقة ، أنظر سفر التكوين ٤١/٤٢ (وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف) .

(٧) وتلك عادة قديمة . أنظر حزقيال ٩/٢،٣،١١ (وإذا بستة رجال مقبلين من طريق الباب الأعلى الذي هو من جهة الشمال ... وفي وسطهم رجل لابس الكتان وعلى جانبه دواة كاتب ...) ويوضح شكل ٥٨ رسم الدواة .

ويحمل المصريون شبكهم معهم أينما حلوا (إلا فى المساجد) ، أو يحملها لهم خدمهم ، وإن كانت العادة لم تجر بالتدخين فى الشوارع . وهم يضعون كيس التبغ فى صدر القفطان ، الذى يتهدل فوق الحزام ، كما يضعون فيه أيضاً مناديلهم المطرزة بالحرير الملون والذهب ، بعد أن تطوى باعتناء .

وقد يرغب الكثير من أفراد الطبقة الوسطى أن ينفوا عنهم فكرة الترف فيرتدوا فوق ملابسهم مئزراً قطنياً أسود اللون لا تميزه من مآزر العامة ميزة .

أما ملابس الطبقة السفلى فهى جد بسيطة : يلبسون سروالا فوقه قميص طويل فضفاض أو ثوباً أزرق واسع الأكمام من الكتان أو القطن ، أو من الصوف الأسمر ، (ويسمى الأول « عرياً » والآخر « زعبوطاً ») ، وهو يشق ابتداء من الرقبة إلى الوسط تقريباً(١) . ويتمنطق البعض بمنطقة بيضاء أو حمراء من الصوف . والخدم يتحزمون بحزام(٢) عريض أحمر اللون من الصوف أو من الجلد وبه عادة كيس لحفظ النقود . وعمامة العامة شال من الصوف ، أبيض أو أحمر أو أصفر ، أو قطعة من غليظ القطن أو الحرير الموصلى ، تلف حول طربوش تحته لبدة بيضاء أو سمراء. وبعض الفقراء لا يملكون غير اللبدة ، فلا عمامة ولا سراويل ولا نعل ، إنما يرتدون الجلباب الأزرق أو الأسمر أو أسمالا بالية . وعلى النقيض من ذلك ، يرتدى الكثيرون صدرياً تحت الجلباب الأزرق . ويلبس بعضهم ، وعلى الأخص خدم العظماء ، جلباباً أبيض وصدرياً وقفطاناً أو جبة ، أو الإثنين معاً ، ثم « العرى » الأزرق أخيراً . وتشد أكمام « العرى » الواسعة إلى أعلى بحبل (٣) يمر حول كل من الكتفين ويشبك خلف الظهر ويعقد . وقد تعود الخدم (والسواس خاصة) هذه الطريقة ، ويستعملون لها حبالا من الحرير الأحمر أو الأزرق القاتم . ويرتدى الكثير من أفراد الشعب فى الشتاء عباءة كالتى وصفناها من قبل ، ولكنها أغلظ منها ، وبدلا من اللون الأسود تكون أحياناً ذات خطوط عريضة سمراء وبيضاء ، أو زرقاء وبيضاء ، فى حالات نادرة . وهناك نوع آخر من الأكسية كثير الاستعمال يتخذ

---

(١) ويلبس الزعبوط فى الشتاء غالباً .

(٢) يسمى « كر » (المؤلف)

الكمر : منطقة من شعر . (فارسية) (المترجم)

(٣) يسمى « شمار » (المؤلف)

ولعله من شمّر الثوب رفعه (المترجم)

من الصوف الأسود أو الأزرق القاتم ، وهو أوسع من العباءة ويسمى « دفّية »(١). أما النعال فهي من الجلد المراكشي الأحمر أو الأصفر أو من جلد الخراف . ونعال السواس تكون من الجلد المراكشي الأحمر القاتم ، ولكن نعال البوابين والسقائين تكون عادة من الجلد الأصفر .

وتمتاز عمامة المسلم باللون الأبيض عن عمامة القبطي واليهودي وغيرهما من رعايا الباب العالي ، فهؤلاء يعتمون باللون الأسود أو الأزرق أو الرمادي أو الأسمر الخفيف ، ويلبسون عامة الثياب القاتمة . ويرجع استخدام الألوان للتمييز بين المذاهب والعشائر والأسر المالكة إلى عهد بعيد . فان الإمام إبراهيم ابن محمد لما قتله الخليفة الأموي مروان لطلبه الخلافة اتخذ بنو العباس الثياب السود لباساً لهم حداد عليه ، ومن هنا أصبح سواد اللباس والعمامة الزي المميز للعباسيين وولاتهم . حتى أنهم كانوا إذا غضبوا على عامل حكموا عليه يلبس الأبيض . أما اللون الأبيض فقد اختاره مدعي النبوة (المقنع) ليميز حزبه عن العباسيين ، كما اختاره فاطميو القاهرة لعدائهم لبني العباس . وكان سلطان مصر الملك الأشرف شعبان، الذي حكم من سنة ٧٦٤ إلى ٧٧٨هجرية —١٣٦٢ إلى ١٣٧٦ ميلادية ، أول من أمر بتمييز الأشراف بالعمامة الخضراء . ومن الدراويش الرفاعيين من يلبسون عمامة من الصوف الأسود أو من الموصلي الزيتوني القاتم . أما عمائم الأقباط واليهود وغيرهم ، فهي عادة من الموصلي أو الكتان الأسود أو الأزرق . والعمائم الغالبة الآن في مصر لا تختلف أشكالها كثيراً . فعمائم الخدم معقدة ذات تلافيف حلزونية مدرجة ، وكذلك عمائم كبار التجار والمتوسطين منهم وغيرهم من سكان العاصمة والمدن الكبيرة ، إلا أنها أقل حجماً منها . والعمامة التركية في مصر أكثر أناقة . والعمامة السورية تمتاز بسعتها .وكان العلماء ورجال الدين والأدب يلبسون العمائم الواسعة الكبيرة ، ويسمونها « مُقلة » ، كما ترى في شكل ١٦ . والعمامة موضع الاحترام والإجلال ، ولها في منزل الموسرين كرسي(٢) توضع عليه ليلا ولا يستعمل لغير هذا الغرض .

---

(١) وهناك نوع من الثياب الزرقاء أو البيضاء يسمى « ملاية » يلبسها بعض الرجال وأغلب النساء ، وسنصفها عند الكلام على ملابس النساء . ويتشح بها الرجال فوق الكتفين أو حول البدن .

(٢) يسمى « كرسي العمامة » .

وكثيراً ما يعد هذا الكرسى فى جهاز العروس ، كما كان من المعتاد أيضاً أن يكون للمرأة كرسى آخر لغطاء رأسها . وتحضرنى حكاية قصها علىّ صديق أسوقها إليك مثالا لمقدار الاحترام الذى يكنه الشعب للعمامة . فقد رووا أن عالماً سقط من فوق حماره فى شارع من شوارع المدينة فتدحرجت مقلته بعيداً عنه . فتجمع المارون وأخذوا يجرون وراء العمامة صائحين : ارفعوا تاج الإسلام ! ارفعوا تاج الإسلام ! بينما كان العالم المسكين طريح الأرض يناديهم مغتاظاً : « أنهضوا أولا شيخ الإسلام » .

شكل ١٦ (المقلة)

ننتقل الآن إلى وصف هيئة النساء العامة وملامحهن . فالمصريات منذ بلوغهن الرابعة عشرة حتى العشرين ، هن من حيث الجسم مثال الجمال(١) ، ومحياهن يسر العين ويجذب النفس . ولكن سرعان ما يذوى هذا الجمال بعد أن يستحير الشباب ويستكمل الجسم نموه . وطبيعة الجو تؤثر على طبيعة الصدر قبل الأوان ، فترتخى هيئته وتستوى أجزاؤه ، بينما يحتفظ الوجه بكل فتنته . وبالرغم من أن تراخى الزمن لا يذهب رواءهن ، فان كثيرات منهن متى بلغن الأربعين يصبحن ، ولو كن جميلات فى شبابهن ، قبيحات الصورة كريهات المنظر . وأنوثة المصريات يبدأ نموها عند التاسعة أو العاشرة تقريباً ، فتبلغ عنفوانها فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة . ويلاحظ أن سحن النساء كسحن الرجال ، إلا أن الشمس لاحتجابهن لا تسعفهن ، ويمتزن مثل الرجال بمحيا بيضى جميل ، وقد يعرض فى بعضهن . أما العيون فدعجاء ، نجلاء ، لوزية الشكل ، وطفاء الأهداب ، تفيض وداعة تملك النفوس ، وسحراً يسبى القلوب . ولم أر فيما رأيت عيوناً أجمل من العيون المصرية ، ويزيدها جاذبية احتجاب الملامح بالنقاب . وتأثيرها فى النفوس يزيده كحل الجفون ، كما ترى فى شكل ١٧ .

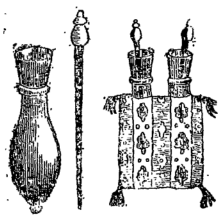
والكحل سناج اللبان العطرى المحروق . ويصنع أيضاً من سناج قشر اللوز . وهذان النوعان ، مع الاعتقاد بفائدتهما للعين ، يستعملان للزينة فقط . إلا أن هناك أنواعاً أخرى تستعمل لخواصها الطبية الحقيقية ، وأخصها مسحوق الرصاص(٢) ، المضاف إلية العنزروت وعرق الذهب وسكر

شكل ١٧
(عين مكحلة)

(١) يتم ملبس الفلاحات فى القرى عن الكثير من مفاتن أجسامهن ، كما أن المار على شاطىء النيل كثيراً ما يشاهد حيث لا يتوقع منظر البنات وهن يستحممن فيه .

(٢) « كحل الحجر » .

النبات ومسحوق الذهب البندقى ، وأحياناً مسحوق اللآلىء . ويقال إن الأثمد كان يستعمل قبلا لتكحيل أصول الأهداب . وتكحل العين بمرْود صغير من الخشب أو العاج أو الفضة ، دقيق الطرف كليل الحد ، يبلّ أحياناً بماء الورد ثم يغمس فى المسحوق ويمرر بين الجفنين . والوعاء الزجاجى الذى يوضع فيه الكحل يسمى « مُكْحُلة » ، شكل ١٨ . وعادة التكحل كانت شائعة بين الجنسين فى مصر القديمة ، وهى ظاهرة فى نقوش المعابد والمقابر المصرية ورسومها . وكثيراً ما اكتشف فى المقابر القديمة مكاحل فيها آثار الكحل ومراودها ، (شكل ١٩) ولكن طريقة التكحل القديمة تختلف بعض الاختلاف عن الطريقة الحديثة كما ترى فى شكل ٢٠ . وقد رأيت فى ضواحى القاهرة نساء يكحلن أعينهن على الطريقة القديمة ، ولم أصادف ذلك إلا مرتين . وهذه الطريقة نفسها كانت شائعة فى عقائل الإغريق ونساء اليهود فى قديم الزمن(١) وعين المصرية على الجملة أجمل ما فى وجهها . ويلاحظ أن جمال الملامح فى المصريات أقل من جمال الهيئة . ولكنى بصرت بوجوه يميزها نوع من الحسن ينم عن حلاوة العذوبة ويعبر عن فتنة الأنوثة ، فيأخذ بمجامع القلب إلى حد يفكر الإنسان وقتاً ما أن الله لم يخلق للمصريات مثيلات فى أى بلد آخر . والقليل من النساء يسفرن أمام الغريب ، مدفوعات إلى ذلك بالرغبة فى إظهار جمالهن ، وإن ادعين غير ذلك . ومن ثم لا يستطيع الأجنبى أن يبنى رأياً صحيحاً من هؤلاء النسوة . ولكن مثل هذه العيون لا يمكن أن تخلق إلا فى الوجه الحسن ولو كانت تقاطيعه متوسطة الجمال .



شكل ١٨ (مكاحل ومراود)

شكل ١٩ (مكحلة ومرود قديمان)

شكل ٢٠ (الطريقة القديمة فى التكحل)

أما الأنف فمستقيم القنا ، والشفاه أغلظ من شفاه الرجال ،

(١) أنظر سفر الملوك الثانى الإصحاح التاسع الآية الثلاثون ونصها : « ولما سمعت ايزابل كحلت بالأثمد عينيها وزينت رأسها » ، وحزقيال ٢٣/٤٠ ، ونصها : « ... هم الذين لأجلهم استحممت وكحلت عينيك وتحليت بالحلى » . وكثيراً ما يستعمل الملقاط لتزجيج الحاجبين وزيادة تقوسهما .

دون أن تصل إلى غلظة شفاه الزنوج ، غير أن الفم وغيره من قسمات الوجه تقرب من الجنس الحبشي. وأما الشعر فهو من ذلك الأسود الحالك المصقول، الذى يناسب السحن كلها غير السحنة البيضاء ، وقد يكون غليظاً بعض الأحيان ، ذا حلق من دون تجعيد .

ويخضب نساء الطبقات الراقية والوسطى والكثير من الفقيرات بعض أيديهن وأقدامهن بعجينة أوراق الحناء(١) ، فتكتسب أطرافهن لوناً أحمر مشرباً بالصفرة ، أو برتقالياً قاتماً . والكثيرات منهن لا يصبغن غير أظافر الأصابع ، وبعضهن لا يتعدين عقود الأنامل ، والبعض الآخر يرسمن خطاً على صف العقود التالية ، ويوجد غير ذلك من الأشكال الغريبة الأخرى . إلا أن الطريقة الغالبة هى تخضيب أطراف الأيدى والأرجل ، حتى المفاصل الأولى ، وكذلك راحة الكف وبطن القدم(٢)، وأحياناً يضاف خط بجانب المفاصل الوسطى وآخر فوق أصابع القدم بقليل ، كما ترى فى شكل ٢١ . والخضاب يكون بسحق أوراق الحناء وعجنها بالماء ، ثم تبسط على راحة الكف وأجزاء اليد الأخرى ، ثم تثنى الأصابع وتقبض اليد ، وتربط برباط من الكتان ليلة بطولها ، وكذلك القدم . ولا ينصل الخضاب إلا بعد أيام ، فيجدد كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. وعادة الخضاب ليست قاصرة على مصر ، بل تتعداها إلى بلدان الشرق التى يمونها شاطىء النيل بالحناء . والحناء على الأظافر تكون أكثر لمعاناً وأشد صفاء وأطول بقاء . كما أن تخضيبها أو تخضيب الأصابع يعتبر بحق زينة للنساء ،

شكل ٢١
(تخضيب الأيدى والأقدام بالحناء)

(١) Lawsonia inermis

(٢) ويقال إن التخضيب له تأثير لطيف على البشرة ، وعلى الأخص يقى الجسد شدة الرخوصة والحساسية .

إذ يحسن لون البشرة ويكسبه رقة . بيد أن بعض النساء يعمدن إلى طرق لا يستسيغها الذوق الأوربى، فيُعقبن الحناء بمعجون من الجير والسناج وزيت بذر الكتان، فيتحول لون الحناء الجميل إلى لون أسود أو زيتونى مشرب بالسواد . وكثيراً ما يلاحظ ميل النساء إلى هذه الطريقة فَـُيرَيْنَ مَخضبات الأظافر أو الأصابع بهذا اللون القاتم ، إلا أنهن يتركن العقود الوسطى بحمرة الحناء ، والكف على النقيض من ذلك يتوسطه خط عريض أسود ، وبعضهن يتبعن أبسط الطرق ، فيسودن الأنامل وراحة الكف كلها .

هناك عادة أخرى ، لا تختلف كثيراً عن عادة الخضاب ، شائعة بين نساء الدهماء فى مدن الريف وقراه وفى ، العاصمة بدرجة أقل : تلك هى عادة الوشم « الدق » ، ويكون فى الوجه وغيره ، أو على الأقل فى أعلى الذقن وظهر اليد اليمنى ، واليسرى أحياناً ، وعلى الذراع اليمنى أو الذراعين معاً ، وفى القدم ، ووسط الصدر ، والجبهة . وأغلب علامات الذقن والكفين شيوعاً يبينها الشكل رقم ٢٢ . وطريقة الوشم أن يوخز الجلد بمجموعة من الإبر ، تكون سبعاً فى العادة ، على الشكل المراد رسمه ، ثم يدلك الموضع بمزيج من سناج الخشب أو الزيت ومن لبن امرأة . ثم بعد أسبوع ، قبل أن يبرأ



شكل ٢٢
فتاة موشومة — نماذج من وشم الذقن — وشم الأيدى والأقدام

الجزح ، يوضع عليه معجون من أوراق السلق الطازجة أو البرسيم ، فيكسبه لوناً أزرق أو مشرباً بالخضرة ، أو بدلا من ذلك يدعك مكان الإبر النيلج . وتوشم الأعضاء عادة فى سن الخامسة أو السادسة ، وتقوم بعمله نساء النوّر . ويلاحظ أن أغلب نساء الصعيد الأقصى وهن يمتزن بلونهن القاتم ، يشمن الشفاه ليكسبن أسنانهن بريقاً . إلا أن ذلك يشرب لونهن القاتم زرقة لا يقبلها الذوق الأوربى(١) .

ومن مميزات المصرية الواجب ذكرها قوامها الممشوق ومشيتها الجميلة . وهذه الصفة تشاهد خصوصاً فى الفلاحة ، ولا شك أن سبب ذلك ما تحمله على رأسها من جرار الماء وغيرها من الأثقال.


شكل ٢٣ (ملابس المنزل)

أما ملابس نساء الطبقتين الوسطى والعليا فتمتاز بجمال نسيجها وأناقة زيها (شكل ٢٣) . وقميص المرأة كقميص الرجل، فضفاض ، ولكنه قصير فلا يكاد يصل إلى الركبتين . وهو أيضاً من النسيج نفسه ، أو من الكريب ، أسود أو غير أسود . أما السراويل ، وتسمى « شِنتيان » ، فهى واسعة ، وتكون من الحرير أو القطن المفوف أو المطبوع أو المطرز أو من الأبيض الواحد الشكل ، وتشد بتكة حول الوركين تحت القميص(٢) . أما أطرافها السفلى فتشد إلى أعلى وتربط تحت الركبتين تماماً ، إلا أن طولها يهبط بها حتى

(١) أما المادة المستعملة عادة لنتف الشعر فهى نوع من الصمغ المسمى لبان شامى ، يوضع على الجلد ذائباً ، إلا أن هذه العملية ليست على حد قولهم ضرورية ، لأنه إذا وضع كما يؤكدون دم خفاش على بشرة الطفلة الحديثة الولادة لا ينبت فيها شعر . وتسمى المرأة التى عملت لها هذه العملية « موطوطة » من الوطواط . ويعمد بعض النساء إلى نتف الشعر بعد ذلك الموضع برماد الفحم فقط .

(٢) أما التركيات ، كما قيل لى ، فهن يربطن سراويلهن فوق القميص .

القدمين وغالباً إلى الأرض . ويلبس فوق القميص والشنتيان سترة طويلة ، تسمى « يلك »(١) ، من نسيج الشنتيان ، تشبه القفطان ، ولكنها أكثر التصاقاً بالجسم والذراعين ، وأكمامها أطول . واليلك له أزرار تشده إلى الجسم ، من الصدر إلى ما تحت الحزام ، حتى لايتهدل ، كما هو الحال فى القفطان . وهو مشقوق الجانبين من أعلى الورك إلى أسفل ، ويشق عادة بحيث يكشف عن نصف الصدر لولا القميص . ولذلك كان الكثير من النساء يرتدين قيصاً واسع الصدر . ولا بد أن يكون اليلك ، طبقاً لأحسن الأزياء ، ضافياً حتى الأرض أو يزيد . وقد يستبدل به صدرة قصيرة ، تسمى « عنترى » ، تصل إلى ما تحت الوسط بقليل ، وتشبه اليلك المقطوع الأسفل . ويمنطق الوسط بشال مربع ، أو بمنديل مطرز ، يطوى منحرفاً ويربط فى استرخاء ويتدلى طرفاه خلف الظهر . وقد يطوى طبقاً للزى التركى ، مثل حزام الرجال ، وإنما يكون أكثر استرخاء، وتوضع فوق اليلك جبة من الجوخ أو المخمل أو الحرير مطرزة بالذهب أو بالحرير الملون. وهى تختلف عن جبة الرجال بعدم سعتها، وبالأخص فى مقدمها ، وتكون بطول اليلك . وكثيراً ما يستعمل بدلها سترة ، تسمى « سلْطة » ، من الجوخ أو المخمل مطرزة على غرار الجبة . ويتكون غطاء الرأس من طاقية وطربوش ، ثم منديل مربع ، يسمى « فارودية » ، من الموصلى ، الموشى أو المطبوع ، أو من الكريب ، يلف حولها بقوة ، ويسمى هذا « ربطة » . وكانت هذه المناديل تستعمل منذ قريب ، ولا زالت تستعمل أحياناً ، لربط عمائم النساء ، التى تكون مرتفعة مستوية بخلاف عمائم الرجال . وهناك نوع من التيجان ، يسمى « قرصاً » ، وبعض الحلى الأخرى توضع على غطاء الرأس . وقد ألحقت بهذا الكتاب فصلا خاصاً بحلى النساء وصفها وصورها . وهناك أيضاً « الطرحة » ، وهى قطعة طويلة من الموصلى الأبيض مجبوكة الطرفين بالحرير الملون والذهب ، أو من الكريب الملون المرصع بأسلاك الذهب وصفائح ذهبية ، كفلوس السمك(٢) ، تطرح فوق الرأس وتتدلى على الظهر حتى تكاد تدانى الأرض أحياناً .

أما الشعر ، فيضفر ضفائر ، من إحدى عشرة ضفيرة إلى خمس وعشرين عادة ، على أن يكون العدد فردياً ، ويضاف إلى كل جديلة ثلاثة خيوط من الحرير

---

(١) الفارسية يلك : قميص نسائى . ويعنى هذا اللفظ فى التركية صديرياً . (المترجم)

(٢) ترتر . (المترجم)

الأسود يعلق بها قطع ذهبية صغيرة تسمى « صفا » ، وهى موصوفة فى ملحق الكتاب . ويقص الشعر فوق الجبهة ، وتتدلى منه على الصدغين خصلتان غزيرتان(١) حلقاً أو جدائل(٢). والقليل من سيدات مصر يلبسن الجوارب ، غير أن أكثرهن ينتعلن المز (أى الحذاء الداخلى) وهو من الجلد المراكشى الأصفر أو الأحمر المطرز بالذهب أحياناً. وينتعلن بابوجا من الجلد المراكشى الأصفر ، مرتفع الطرف الأمامى مدببه ، عندما يمشين على البسط والحصر ، أو يستعملن قبقاباً(٣) يعلو إلى تسع بوصات ولا يقل عن أربع ، ويزين بالصدف أو الفضة ، الخ . والقبقاب يستعمله الرجال والنساء فى الحمام دائماً ، ولا يستعمله النساء فى المنزل ، إلا أن بعضهن ينتعلنه حتى لا يسحبن ذيل الثوب على الأرض ، وبعضهن يتخذنه ليبدون طويلات .



شكل ٢٤
(سيدة متحلية بالقرص والصفا)

تلك هى ملابس السيدات داخل المنزل . أما ثياب الخروج ، فتسمى « تزييرة » (٤) . فالسيدات ، كلما يخرجن من المنزل ، يتدثرن ، علاوة على الملابس السابق وصفها ، بدثار كبير فضفاض ضاف (يسمى « توب » أو « سبلة »(٥)) يكاد عرض كمّيه يعادل طوله (٦) ، ويكون من الحرير القرنفلى أو الوردى أو البنفسجى. ثم يضعن بعد ذلك « البرقع » ، أى غطاء الوجه ، وهو عبارة عن قطعة طويلة

(١) تسمى الواحدة منها « مقصوصاً » .

(٢) ويقسم النساء بمقصوصهن — كما يقسم الرجال بلحيتهم — فيمسكنه باليد صائحات : « وحياة مقصوصى » .

(٣) ويسمى عادة « قبقاب » بالضم .

(٤) لعلها من « الزيرة » ، وتعنى هيئة الزيارة . (المترجم)

(٥) يقال جر سلبته أى ثيابه (المنجد) . (المترجم)

(٦) مثل توب نساء الطبقة الدنيا كما فى الشكل رقم ٢٦ .

من الموصلى الأبيض تحجب الوجه كله، ما عدا العينين، وتسقط حتى القدمين. ويشد البرقع إلى الرأس بشريط ضيق يمر على الجبهة، ويخاط مع طرفى النقاب الأعليين بعصابة تلف حول الرأس. ثم يرتدين « الحبرة ». وحبرة السيدة المتزوجة تتكون من نسجين من الحرير الأسود اللامع عرض كل منهما ذراع، بطول ثلاث ياردات، ويخاطا معاً عند الطرف، أو بالقرب منه (حسب طول الشخص) وتكون اللفقة أفقية تبعاً لطريقة لبس الحبرة. ويوجد فى أعلى الحبرة، من الداخل على بعد ست بوصات من طرفها، رباط ضيق من الحرير الأسود يربط حول الرأس. ويبين الشكل رقم ٢٥ طريقة لبسها. إلا أن البعض يقلدن تركيات مصر، فيضممن مقدم الحبرة، بحيث تخفى الملابس كلها ماعدا جزءاً من النقاب يعلو اليدين. أما غير المتزوجات فيرتدين حبرة من الحرير الأبيض أو شالا. وبعض نساء الطبقات الوسطى لا يستطعن اقتناء الحبرة، فيلبسن عوضاً عنها « إزاراً » وهو قطعة بيضاء من نسيج القطن على شكل الحبرة ويلبس مثلها. أما الحذاء، فهو « خف » من الجلد الأصفر يدخل فى بابوج.

شكل ٢٥
(زى الخروج)

وثياب الخروج متعبة مربكة عند المشى. وهى وإن كانت محتملة لدى سيدات الطبقة الراقية، اللائى قلما يشاهدن راجلات، فقد يرتديها غيرهن ممن لا يملكن أجرة الركوب. وإعداد هذه الملابس لإخفاء زينة المرأة وكل ما فيها من جاذبية أو ملاحة لا عيب فيه، إذ أن الثوب ذاته يعوزه الكثير من الأناقة. إلا أن هناك اعتباراً يقتضينا أن نلاحظ عدم ملاءمة هذه الثياب لغرضها الأصلى، وهو أن العيون، التى تكاد تكون دائماً جميلة، يزيدها جمالا حجب تقاطيع الوجه، التى يندر أن يبلغ جمالها جمال العين، ثم إنها تجعل الأجنبى يتصور الوجه الجذاب

وجهاً معيباً دميماً لاختفائه وراء القناع(١) . ويرجع استعمال النقاب إلى قديم الزمن(٢) ، غير أن الظاهر من نقوش الفراعنة ورسومهم أن المصريات فى ذلك العهد كن سافرات . ولكنهن فى الوقت الحاضر، حتى الخادمات منهن ، يتخذن من فضل طرحتهن قناعاً يخفين وراءه الوجه ، إلا عيناً واحدة ، كلما وجدن فى حضرة رجال العائلة التى يخدمنها .



شكل ٢٦ (نساء الطبقات الدنيا وأطفالها)

وملابس أغلب الموسرات من الطبقة الدنيا تتألف من سروال (كشنتيان السيدات الراقيات ، إلا أنه من أبيض القطن أو الكتان الواحد الشكل) ، وقميص أزرق من الكتان أو القطن ، لا يكون بسعة قميص الرجال ، يصل إلى القدمين ، وبرقع أسود من غليظ الكريب(٣) ، وطرحة زرقاء قاتمة من الموصلى أو الكتان . وبعضهن يلبسن فوق القميص الطويل ، أو بدلا منه ، «توباً» من الكتان مثل «توب» السيدات الراقيات(٤) وبعضهن يلبسن قميصاً قصيراً تحت القميص الطويل ويضفن إليه أحياناً صديرياً أو عنترياً . وتشمر أكمام «التوب» فوق الرأس حتى لا تضايق الشخص

---

(١) لاشك أن أفضل وقاية من الأذى عدم التعرض له وذلك سبب من أسباب انزواء المرأة المسلمة وانتقابها عند الخروج وهاتان العادتان لا تفرضهما غيرة الرجل فحسب بل والخوف أن تضر بها نظرة حاسد .

وكان الرجل الفريد الجمال فى جزيرة العرب قديماً يتقنع تحرزاً أيضاً ، وعلى الأخص عند ما كان يقصد الأسواق وغيرها . أنظر كتاب «آثار وثنية فى المدنية الإسلامية» . وسترمارك ص ٣٧٠ "Survivances Paiennes Dans La Civilisation Mahométane"

Westermarck, Payot, Paris 1935 (المترجم)

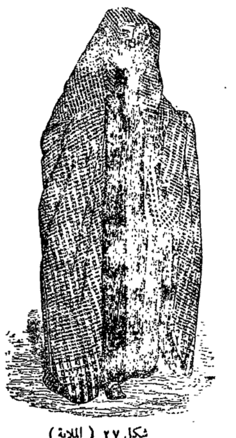
(٢) أنظر الخروج ٦٥/٢٤ : وقالت العبد من هذا الرجل الماشى فى الحقل القائنا . فقال العبد هو سيدى . فأخذت البرقع وتغطت – واشميا ٢٣/٣* وأنظر أيضاً كورنثوس ١٠/١١ : (لهذا ينبغى للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة) والحاشية المتعلقة بهذا المقطع .

* والصحيح هو ١٩/٣ : والحلق والأساور والبراقع . (المعرب)

(٣) أما إذا كن من سلالة النبى فيلبسن برقعاً أخضر .

(٤) أنظر الصورة اليسرى من الشكل ٢٦ .

أو لتحل محل الطرحة(١) . وقد يتدثر بعضهن فوق هذه الثياب بمعطف ذى مربعات شطرنجية يشبه الحبرة ويلبس مثلها أو مثل الطرحة(٢) ، ويتكون من قطعتين من القطن المنسوج أشكالا مربعة ، زرقاء وبيضاء ، أو خطوطاً متشابكة تصبغ أطرافه بصبغ أحمر ، ويسمى «ملاية»(٣) . ويزين أعلى البرقع بلآلىء زائفة ، وقطع صغيرة من النقود الذهبية ، وبعض الحلى الذهبية الصغيرة المسماة «برق» ، وأحياناً بخرزة من المرجان تحتها قطعة من النقود الذهبية وبعض النقود الفضية ، وغالباً بحبات من النحاس أو الفضة ، تسمى «عيون» ، تعلق فى الأطراف . وتلف الرأس بمنديل أسود ، يسمى «عصبة» ، بحاشية حمراء وصفراء ، يطوى منحرفاً ويعقد عقدة واحدة من الخلف . وقد يلبس الطربوش والفاروقية بدلا من العصبة . وأحسن الأحذية التى ينتعلها نساء الطبقة الدنيا تكون من الجلد الأحمر المراكشى المنثنى الطرف ، ولكن يغلب أن يكون طرفها مستديراً. والبرقع والنعال شائعاً الاستعمال فى القاهرة والوجه البحرى . أما



شكل ٢٧ (الملاية)



شكل ٢٨ (براقع سود محلاة)
ويوضح الرسم على اليمين شكل البرقع بطوله الكامل

---

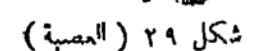
(١) أنظر الصورة اليمنى من الشكل ٢٦ .

(٢) وهناك نوع راق من الملايات يكون من الحرير المختلف الألوان إلا أنه نادر الاستعمال. والقطعتان اللتان تؤلف منهما الملاية يخاطان معاً كقطعتى الحبرة .

(٣) عوضاً عن «ملاءة» .

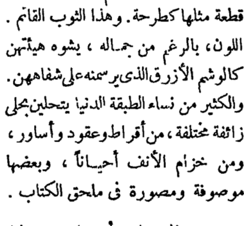
فى الصعيد فقلما يستعملان . وعند الضرورة يستبدل بالبرقع إسدال الطرحة على الوجه .

والملاحظ أن نساء الطبقات السفلى ، حتى فى العاصمة ، لا ينتقبن . والثياب الشائعة فى معظم القطر المصرى هى القميص الأزرق ، أى التوب ، والطرحة . أما فى أقاليم الصعيد الأقصى ، وعلى الأخص ، ما فوق مدينة أخميم(١) فأغلب نسائها يتغطين بقطعة من الصوف الأسمر القاتم ، تسمى « حلية » (بضم الحاء وفتح اللام الأولى وكسر اللام الثانية) ، تلف حول الجسم وتضم أطرافهـا فوق الكتفين(١) (شكل رقم ٣٠) ، وتستعمل

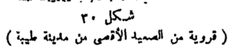


شكل ٢٩ (العصبة)

قطعة مثلها كطرحة . وهذا الثوب القاتم . اللون ، بالرغم من جمـاله ، يشوه هيئتهن كالوشم الأزرق الذى يرسمنه على شفاههن . والكثير من نساء الطبقة الدنيا يتحلين بحلى زائفة مختلفة ، من أقراط وعقود وأساور ، ومن خزام الأنف أحيـاناً ، وبعضها موصوفة ومصورة فى ملحق الكتاب .



ويرى المصريات أن واجب تغطية الرأس وما خلفه أولى من تغطية الوجه ، وحجب الوجه أولى من حجب أكثر أجزاء الجسم . وكثيراً ما رأيت فى هذا البلد نساء لاتكاد تسـترهن أسمالهن الحقـيرة ، وأخـريات فى زهرة الشبـاب ، أو فى متوسط العمـر ، لا يحمـلن على أجسادهن غير خـرقة ضيقـة تشد حول الوركين .



شكل ٣٠
(قروية من الصعيد الأقصى من مدينة طيبة)

(١) إخميم على الأصح .
(٢) لا بد أن القـارىء قد لاحظ أن هذا الشـوب الفاتن حلة من حلل الأغريقيات والرومانيات فى قديم الزمن .

الفصل الثانى

الطفولة وتربية الأطفال

يسترشد المسلمون فى تربية أطفالهم والاعتناء بهم بأوامر الرسول وتعاليم الأئمة . ومن أول الواجبات عند ولادة الطفل الأذان فى أذنه اليمنى ، ولا بد أن يكون المؤذن ذكراً . ويقرأ بعضهم الإقامة ، وهى تشبه الأذان تقريباً ، فى الأذن اليسرى . والغرض من ذلك حفظ الطفل من الجن . وقد يتلى للغرض نفسه عبارة : « ياسم الرسول وابن عمه على » .

وكانت استشارة المنجمين ، قبل تسمية الطفل واتباع ما يختارونه له ، عادة شائعة فى مصر والبلاد الإسلامية الأخرى . وقلما يتبع أحد الآن تلك العادة القديمة ، فيختار الأب لابنه اسما من غير احتفال ولا تكلف . أما تسمية البنت فتكون عادة باختيار الأم . وكثيراً ما يسمى الأولاد بأسماء الرسول (محمد ، أحمد أو مصطفى) أو أهل البيت (على ، حسن ، حسين ، الخ .) أو أصحابه الأفاضل (عمر ، عثمان ، عمرو الخ .) أو الرسل والأنبياء ، مثل : (إبراهيم ، إسحق ، إسماعيل ، يعقوب ، موسى ، داود ، سليمان الخ .) أو يسمون عبد الله ، عبد الرحمن ، عبد القادر وما شابه ذلك . أما البنات فكثيراً ما يسمين بأسماء نساء الرسول أو إبنته الحبيبة أو غيرهن من نساء عائلته (مثل خديجة ، عائشة ، آمنة ، فاطمة ، زينب) ، أو يسمين بأسماء تعنى محبوبة ، مبروكة ، نفيسة . أو بأسماء الزهور أو أى معنى لطيف آخر(١) .

ولما كان الإسم لايتحتم توارثه على العموم ، فقد جرت العادة أن يميز

---

(١) جرى ذوق العصر فى القاهرة على تغيير الأسماء الخمسة الأولى والإسم الأخير إلى خدوجة ، عيوشة ، أمونة ، فطومة ، زنوبة ، نفوسة . وهناك أسماء أخرى تنطق بهذه الطريقة نفسها وهى تطلق هنا على سبيل الفضل والجاه . (ويخطىء الكتاب الأوربيون فى كتابة اسم الرحالة الشهير ابن بطوطة – بالتشديد Ibn-Battootah – فيكتبونه ابن بطوطة بالتخفيف Ibn-Batootah أو Ibn-Batùtah) .

الشخص بعَـلم أو أكثر : إما «كنية» مثل «أبو على(١)» ، «ابن أحمد» الخ. أو «لقب» ، مثل «نور الدين» ، «الطويل» الخ . أو «إسم» يتعلق بالبلد أو المولد أو الأصل أوالمذهب أو التجارة أو الحرفة الخ (٢) . مثل : الرشيدى ، الصباغ ، التاجر . وكثيراً ما يتوارث بعض هـذه الأعلام ، وعلى الأخص الألقاب والنسب ، فتصبح لقب العائلة .

أما ملابس أطفـال الطبقتين الوسطى والعليا فهى كملابس الوالدين ، ولكنها قذرة غير مهندمة . ويلبس أطفال الفقراء إما قميصاً وطاقية من القطن أو طربوشاً ، وإما أن يتركوا عراة حتى سن السابعـة أو ما بعد ذلك ، وقد لا يصعب عليهم الحصول على خرقة تستر بها الجسم ، كما فى أغلب القرى . ويلاحظ أن البنات الصغيرات ، اللاتى لا يملكن إلا قطعـة من رث النسيج لا تكفى الجسم والرأس معاً ، يفضلن تغطية الرأس ، وأحياناً يدفعهن الدلال إلى حجب الوجه بفضلة من النسيج بينما يترك الجسم كله مكشـوفاً . أما الراقيات فى سن الرابعـة أو الخامسة ، فيلبسن كأمهاتهن النقاب الأبيض . ويحلق رأس الولد ، حينما يبلغ الثانية أو الثالثة أو قبل ذلك ، وتترك له خصلة فى وسط الرأس وأخرى فوق الجبهـة(٣) . وقلما يحلق رأس البنات . ويُحمل الأطفال فوق أكتاف أمهاتهم ومربياتهم(٤) على هيئة ركوب الخيل ، أما إذا كانت المسافة قريبة فيحملون فوق الورك .

تظهر الموسرات فى تربية أطفالهن تسامحاً زائداً وشفقة مفرطة ، ولكن الفقيرات لا يبذلن نحوهم إلا العناية القليلة بقـدر ما تقتضيه الطبيعة من الحاجة

---

(١) وهناك معنى مجازى لهذه الكنيـة . أنظر ما يتعلق به فى حاشية بآخر الفصل الرابع .

(٢) يسمى «نسبة» أو «اسم منسوب» .

(٣) من الشائع عنـد أكثر فلاحى مصر ، بمناسبة حلق رأس الطفل لأول مرة ، أن تذبح ذبيحة من المعز على قبر أحد أولياء الله ، الأقرب إلى البلد . ويعد اللحم لوليمة يدعى إليها الأصدقاء ويحضرها من يريد . وتلك العادة أكثر شيوعاً فى الصعيد وعند القبائل التى لم يمض على إقامتها بشاطىء النيل زمن طويل . وكان العرب الجاهليون يجرون على هذه العادة. وكانوا يتصدقون بمقدار وزن الشعر ، فضـة أو ذهباً . وقد تلقى هذه العادة بعض الضوء على الحالة المذكورة فى سفر صموئيل الثانى ، الإصحاح الرابع عشر الآية ٢٦ ، المتعلقة بوزن أبشالوم شعر رأسه بعد ما حلقه ، (ونصها : وعند حلقه رأسه إذ كان يحلقه فى آخر كل سنة لأنه كان يثقل عليه فيحلقه ، كان يزن شـعر رأسـه مئتى شـاقل بوزن الملك) وتسمى الذبيحة «عقيقة» وتقدم ضحية لافتداء الطفل من النار . وقد حرم الرسول عادة حلق بعض رأس الطفل وترك البعض الآخر . (المؤلف)

العقيقة : شعر كل مولود ، قيل لها ذلك لأنها تحلق . الشاة ، التى تذبح عن المولود يوم أسبوعه عند حلق شعره . (المنجد) — (المترجم)

(٤) أنظر أشعياء الإصحـاح التاسع والأربعون ، الآية ٢٢ ، ونصها : ... فيأتون بأولادك فى الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن .

الضرورية . وقد جعل الشرع تمام الرضاعة حولين كاملين إلا إذا وافق الزوج على غير ذلك ، فيفطم الطفل عادة بعد السنة الأولى أو بعد سنة ونصف سنة . وينشأ الطفل ، ذكراً أو أنثى ، فى الأوساط الموسرة ، بين جدران الحريم ، أو على الأقل ، داخل المنزل . ويستمر هكذا ، تحت رعاية النساء ، حتى يعهد به إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة كل يوم . ومن المهم ملاحظة أن مايتعلمه الطفل فى الحريم ، من واجبات الاحترام المشوبة بالعطف والمحبة نحو الوالدين وكبار السن ، يهيئه للاتصال بالعالم الخارجى كما سترى بعد قليل .

وكثيراً ما يصطحب النساء أطفالهن عند الخروج للزيارة أو للتنزه ، فتحمل كل جارية أو خادمة طفلا أو تجلسه أمامها على الحمار ، إذ جرت العادة أن تركب الخادمات مثل سيداتهن الحمير ، وكان النساء إذا ركبن الحمير أدلين كل ساق على جانب . ولكن قلما ينعم أطفال الأغنياء بهذه التسلية الهينة ، فقد أثر على صحتهم طول الحجاب وشدة العناية وإفراط التغذية ، فيصبحون لذلك كثيرى التقلب ، متكبرين ، أنانيين . ويندر كذلك أن يشتد نساء الطبقة الوسطى فى تربية أطفالهن . ويتوقف تقدير الزوج لزوجه أو تقدير الناس لها إلى درجة كبيرة على كثرة النسل والعناية بالأطفال ، لأن الشرقيين رجالا ونساء ، أغنياء وفقراء ، يعتبرون العقم لعنة وعاراً . ومن الشائن أن يطلق الرجل امرأته بلا سبب قوى ما دامت قد ولدت له طفلا وما دام الطفل حياً . فالمرأة الولود تكون موضعاً لحب الزوج واحترام الناس ، وبيتها يكون مثابة للسرور والإيناس . ويلاحظ فى مصر أن القليل من المال يكفى لإعالة ذرية كثيرة(١) وأسرة كبيرة .

ومهما يكن تدليل الأطفال والولوع بهم عظيماً ، فهؤلاء يكنون ويظهرون لأبويهم احتراماً عميقاً خليقاً بالمدح . ويعتبر المسلمون العقوق من أعظم الخطايا . وهم يضعونه لجسامته مع الكبائر الست الأخرى ، وهى الشرك بالله وقتل النفس وقذف العفيفات بالزنا وأكل أموال اليتامى والربا الفاحش والتخلف عن جهاد العدو . وقلما ترى فى المصريين أو فى العرب من لا يطيع والديه . ويصطبح الطفل ، فى الطبقات الوسطى والعليا ، بتقبيل يد أبيه ، ثم يقف أمامه باحترام وخشوع حتى

---

(١) وقد ذكر ديودور الصيقلى أن قدماء المصريين كانوا يكسون أولادهم ويربونهم بأقل نفقة .

يصدر إليه أمراً أو يسمح له بالانصراف. ولكن العادة جرت أن يقبل الأب ابنه ويلاطفه. ولا يقل احترام الطفل لأمه عنه لأبيه، وكذلك احترام أفراد العائلة الآخرين بمقتضى سنهم وقرابتهم ومركزهم. ومن هنا تنشأ في الطفل السهولة واللباقة في تصرفاته خارج الحريم، كما تنشأ فيه الطاعة والولاء اللذان كثيراً ما يعدان، من غير حق، نتيجة الحكم الاستبدادي في الشرق(١) ويندر أن يجلس الأبناء أو يأكلوا أو يدخنوا في حضرة الأب إلا إذا سمح لهم بذلك. وكثيراً ما يقومون أيضاً على خدمته وخدمة ضيوفه عند تناول الطعام وفي المناسبات الأخرى. ويظل الأبناء كذلك حتى بعد أن يصبحوا رجالاً — وقد دعيت مرة في شهر رمضان إلى الإفطار على مائدة تاجر مصري أعدت أمام داره. وكان يدعو كل شخص يمر بالقرب منا، مهما كان فقيراً، إلى مشاركتنا الطعام. ومع ذلك كان يقوم على خدمتنا اثنان من أولاده أكبرهما يبلغ الأربعين. وقد لاحظت أنهما لم يتناولا بالرغم من صيامهما طول اليوم غير جرعة ماء، فرجوت الأب أن يسمح لهما بالإفطار معنا، فأجاب رجائي في الحال، ولكنهما رفضا — وتتمتع الأم بأكبر قسط من عطف أطفالها، ولكنها لا تتمتع مثل الأب بأكبر قسط من الاحترام. وقد رأيت خدماً كثيرين يعطون أمهاتهم ما يدخرون من أجرهم، وقلما كنت أرى من يدخر شيئاً لأبيه.

ويلاحظ أن الأطفال المصريين، ما عدا أطفال الأغنياء، يظلون دائماً قذرى الشكل ممزقى الثياب، مع أنهم محل الرغبة وموضع التفكير. وقد يشمئز الأجانب من رؤيتهم، ويسرعون في الحكم على المصريين بأنهم شعب قذر دون أن يبحثوا عن سبب آخر لذلك. ومن الملاحظ أيضاً أن أكثر الأطفال تدليلا وعناية، أقذرهم جسما وأحقرهم ثياباً. وليس من الغريب أن ترى السيدات الجميلات، في شوارع القاهرة، متئدات في مشيتهن، معطرات الجو بعطر المسك، مراعيات في زينتهن الكاملة دقة النظافة ومنتهى الرقة، معتنيات بكحل عيونهن، مخضبات الأصابع، بينما يرافقهن طفل، قد يكون الوحيد، وهو ملطخ الوجه، ملوث الثياب. ومن الأشياء التي أثارت عجبي عند قدومي إلى هذا البلد مناظر من هذا القبيل، وقد لفتت نظري لغرابتها وتناقضها، فأخبرت أن الأم الحانية على أطفالها تهمل

---

(١) إن نظام الحكومة الشرقية ليس إلا اتساعاً لنظام المنزل الأبوي Urquhart's Spirit of the East vol ii p. 247 (روح الشرق تأليف أوركهارت الجزء الثاني ص ٢٤٩).

هندامهم ، فتتركهم بلا نظافة ، وتلبسهم أحقر الملابس عمداً ، وعلى الأخص عندما يرافقونها فى الخارج ، خوفاً من شر العين . ويخشى من الحسد بصفة خاصة على الأطفال ، لأنهم يعتبرون نعمة عظيمة يشتهيها الجميع . ويرجع للسبب نفسه حجز الأطفال فى الحريم طويلا ، حتى أن البعض يلبسن الذكور من أطفالهن ملابس الإناث ، لأن البنت أقل تعرضاً للحسد .

وأطفال الفقراء ما زالت هيئتهم بعد أكثر إهمالا . فهم ، فضلا عن قلة ملابسهم وحقارتها أو تمام عريهم ، قذرون إلى أقصى حد ، تغشى عيونهم الأدران والذباب دون أن يكترثوا لذلك . ويعتبر المصريون أن غسل العين وحتى لمسها ، عندما يسيل منها الصديد الذى يجذب الذباب ، مضر بها . ويؤكدون أن فقد البصر قد ينتج من كثرة لمس العين أو غسلها عند ما تصاب بهذا السيلان ، غافلين عن أن الغسل إنما يلطف الألم .

ويختن الولد فى سن الخامسة أو السادسة ، وأحياناً بعد ذلك(١) . وقبل الختان يحتفل القاهريون وغيرهم من الحضريين ، إذا توفر لديهم مال ، بزف الولد فى موكب يمر بالشوارع المجاورة للمنزل . وكثيراً ما يحتفلون بزفة الختان مع زفة عرس فى الوقت نفسه تقليلا من نفقات الاحتفال . وفى الحالة الأخيرة يتقدم الموكب الولد وحاشيته . والمحتفل به يلبس أحياناً عمامة من الكشمير الأحمر ، وقد يرتدى ، لإعتبارات أخرى ، ثياب أنثى ، فيلبس اليلك والسلطة والقرص والصفا وغيرها من حلى النساء ، ليجذب العين الحاسدة إليها ويلهيها عن شخصه(٢) وتستعار هذه الملابس عادة من بعض السيدات الموسرات ، وتكون من أفخر الملابس وأبهاها ، كما تكون كافية السعة لتلائم الولد . ويستعار كذلك حصان جميل العدة ليركبه المحتفل به . ويمسك الولد بيده اليمنى منديلا مطرزاً مطوياً يضعه باستمرار أمام فمه ليحجب بعض وجهه اتقاء شر العين . ويتقدم المحتفلَ به صبى الحلاق ، الذى سيقوم بعملية الختان ، وثلاثة من الموسيقيين أو أكثر ، وآلاتهم لا تتعدى المزمار والطبول ، كما ترى فى شكل ٣١ . فالشخص الذى يتقدم الموكب هو صبى الحلاق ، كما ذكر ، ويحمل « الحَمْل » ، وهو صندوق خشبى نصف أسطوانى ، ذو قوائم أربع قصيرة ، يزين وجهه قطع من المرايا ومن النحاس البارز النقش ، ويغطى ظهره بستار . وهذا الحمل

---

(١) عند الفلاحين ليس أقل من سن الثانية عشرة حتى الرابعة عشرة .

(٢) وصفت حلى النساء ، المشار إليها هنا ، فى ذيل الكتاب . وقد قدمت أيضاً رسماً للقرص والصفا فى الشكل رقم ٢٤ .

هو شعار الحلاق . ويحمله الخادم بالطريقة المبينة فى الرسم ، ثم يتبعه الزمار والطبالان (وقد يتقدم بعضهم الحمل) ، ثم الولد يقود جواده سائس ، وأخيراً يمشى خلفه الكثير من القريبات والصديقات . وكثيراً ما يحتفل بختان ولدين معاً ، وقد يحملهما حصان واحد . أما موكب العرس الذى كثيراً مايتضمن موكب ختان كما سبق فسنتكلم عنه فى حينه . وسنذكر أيضاً وصفاً لبعض العادات الأخرى المتعلقة بالختان ، وبالأخص واحدة منها أقل شيوعاً وأكثر وجاهة ، فى الفصل المتعلق بمختلف الأعياد الخاصة(١) .



شكل ٣١ (زفة الختان)

وقلما يبذل الأبوان كثيراً من وقتهما أو انتباههما فى تربية الطفل تربية ذهنية ، قانعين بتثبيت بعض المبادىء الدينية فى ذهنه الصغير ، فاذا كانت لديهم المقدرة ، يعهدون به للمدرسين . ويلقن الطفل ، فى سن مبكرة بقدر الإمكان ، الشهادتين وحب الإسلام ، وكراهية من هم على غير دينه(٢) . وأكثر أطفال الطبقات العليا والوسطى ، وبعض أطفال الطبقات الدنيا ،

---

(١) عادة ذكرها سترابو Strabo (ص ٨٢٤) باعتبارها سادت مصر فى عهده، ولا زالت شائعة فى أنحاء مصر يراعيها المسلمون والقبط جميعاً إلا فى الإسكندرية وفى بعض المناطق الساحلية . وهى تسود أيضاً جزيرة العرب وإن كانت أقل شيوعاً . وقد لاحظ رلاند Reland الذى وصف هذه العادة وصفاً ناقصاً فى كتابه (فى الدين الإسلامى) طبعة ١٧١٧ ((De Religione Mohammedica p. 75 ed, 1717)) أن جالن Galen ذكرها أيضاً . (المؤلف) .

لعله يقصد ختان البنت.وهى عادة أخذت فى الزوال فىالطبقات الراقية ، وبعض الطبقات الوسطى ، فى العصر الحديث . (المترجم)

(٢) قد يكون (لين) قد صادف صورة فردية من التعصب ، فأطلق تلك الصفة على المصريين . (المترجم)

يتعلمون فى الكتّاب القراءة وتلاوة القرآن وترتيله(١) جميعه أو بعضه من ظهر القلب(٢) . ثم يتعلمون بعد ذلك أغلب قواعد الحساب الشائعة .

والكتاتيب كثيرة العدد ، لا فى العاصمة فحسب ، بل فى كل مدينة كبيرة ، كما يوجد فى كل قرية كبيرة مدرسة واحدة على الأقل . ويلحق بكل مسجد وسبيل وحوض فى العاصمة كتّاب يتعلم فيه الأطفال بأيسر الأجور ، إذ يتناول « الشيخ » أو « الفقى »(٣) كل خميس(٤) من أب الطالب نصف قرش أو أى شىء آخر . ويتناول مدرس المدارس الملحقة بالمساجد ، أو بغيرها من مبانى العاصمة ، سنوياً ، طربوشاً وقطعة من الموصلى الأبيض للعمامة وقطعة من الكتان وحذاء . كذلك يتناول كل ولد طاقية من الكتان وقطعة من نسيج القطن ، طولها أربع أذرع(٥) بلدية أو خمس ، وقد يأخذون نصف ثوب من الكتان (مقداره ١٠ أو ١٢ ذراعاً بلدياً) وحذاء ، وأحياناً يعطون قرشاً أو نصف قرش ، وهذه الخلع تؤخذ من أموال موقوفة على المدرسة وتقدم فى شهر رمضان . ولا يحضر الأولاد إلا ساعات الدرس ثم ينصرفون إلى منازلهم . ويكتب الدرس عادة على ألواح من الخشب المصبوغ بالأبيض ، تمسح بعد كل درس ويكتب عليها الدرس الجديد . وتعلّم الكتابة أيضاً على اللوح نفسه . والعادة أن يجلس المدرس وتلاميذه على الأرض ، وكل تلميذ بيده لوحة أو نسخة من القرآن ، أو جزء من أجزائه الثلاثين ، توضع على كرسى من الجريد . ويلقى الأولاد جميعهم درس



شكل ٣٢ (تلميذ يتعلم القراءة)

(١) أنظر فصل الموسيق .

(٢) قيل أننى أصور الأطفال المصريين وكأنهم يتفهمون القرآن تفهماً كاملا . والقارىء على بينة، لو استطاع أن يجد عبارة تتضمن مثل هذا الكذب الفاضح، أن يغفلها . وقد ذكرت فى الفصل التاسع أن تفسير القرآن تتضمنه برامج الدراسات الجامعية .

(٣) هذا اللفظ تحريف لكلمة « فقيه » التى تطلق فى مصر على الذين حذقوا الدين والفقه . أما الرجل الذى يحترف تلاوة القرآن أو يدرس تلاوة القرآن ، فيسمى عادة « فقى »

(٤) باعتبار الجمعة يوم راحة .

(٥) يساوى الذراع المستخدم فى قياس المنسوجات ٢٢ بوصة و ثلثى البوصة .

القراءة أو ينشدونه بصوت واحد هال ، هازين رؤوسهم وأجسامهم هزاً لا ينقطع أماماً وخلفاً ، وكذلك أغلب قراء القرآن يتبعون تلك العادة ظناً أنها تساعد على التذكر . وليتصور القارىء أى ضجة يحدثونها(١) .

أول ما يتعلم الأولاد ،حروف الهجاء ثم الشكل ، ثم يتعلمون القيمة العددية لكل حرف من حروف الهجاء(٢). وقد جرت العادة قبل وصول التلميذ إلى تلك المرحلة الثالثة فى تعليمه ، أن يزين المدرس اللوح باللون الأسود والأبيض والصبغ الأخضر ، ثم يكتب حروف الهجاء بترتيبها العددى ويرسلها إلى والد التلميذ ، فيعيدها هذا إليه وعليها قرش أو قرشان . وهكذا يكرر ذلك فى مراحل التعليم اللاحقة ،عندما يأخذ فى تعلم القرآن ، ويتدرج فى حفظه ، وفى كل مرة يكتب الدرس التالى على اللوح . وعند ما يحفظ الولد القيمة العددية لحروف الهجاء ، يتمرن على قراءة الكلمات المهلة ، مثل أسماء الرجال ، ثم صفات الله التسع والتسعين . وبعد ذلك يحفظ الفاتحة فيكررها حتى يعيها تماماً ، ثم يشرع فى حفظ السور الأخرى . على الترتيب العكسى ، من السور القصيرة إلى السور الطويلة . ويندر أن يتعلم الأولاد الكتابة إلا عند ما يخصصون لبعض الوظائف التى تتطلب معرفتها . وفى هذه الحالة يتعلمون الكتابة ، والحساب كذلك ، على يد « قبانى » . وهو الشخص المنوط به وزن البضائع فى السوق على القبان . أما الذين يسلكون أنفسهم فى النظام الدينى أو فى أى مهنة علمية فيتبع غالبهم تعليما منظماً فى الجامع الأزهر .

وأغلب معلمى الكتاتيب قليلو العلم والاطلاع . والقليل منهم من تتعدى معرفته القرآن وبعض الأناشيد والأدعية ، فيؤجرون لتلاوتها وتلاوة القرآن فى المناسبات الخاصة. وقد حدثونى أخيراً عن رجل لا يعرف القراءة والكتابة نجح فى شغل وظيفة مدرس . فقد كان يحفظ القرآن كله ، ولذلك سهل عليه الإصغاء إلى الأطفال وهم يسمعون الدرس. أما تعليمهم الكتابة ،فقد كان يستخدم فيها « العريف » (طالب متفوق يقوم بمساعدة المدرس) ، مدعياً ضعف النظر . وبعد شغله هذا المنصب بأيام ، جاءته امرأة فقيرة ليقرأ لها خطاباً جاءها من إبن لها ذهب للحج . فتظاهر الفتى بالقراءة ولكنه لم يفه بحرف واحد . فتوجست المرأة من سكوته شراً واستنتجت من هدوئه أخباراً سيئة ، فقالت له : « هل أصوت ؟ » . فأجابها : « نعم » . وسألته : « هل أمزق ثيابى ؟ »

---

(١) والعقوبة العادية هى ضرب الطفل بجريدة من جريد النخل على بطن القدم .

(٢) عندما تستعمل حروف الهجاء للدلالة على الأعداد ترتب على ترتيب الحروف الهجائية العبرية .

فأجابها : « نعم » فرجعت المسكينة إلى منزلها ، وأقامت هى وصاحباتها مناحة ومأتماً . ولم يطل عليها الزمن حتى عاد ولدها ، فسألته ماذا يعنى بهذا الخطاب الذى يخبرها بموته ؟ فلما شرح لها ما فى الخطاب ، ذهبت إلى المدرس وطلبت منه أن يوضح لها لماذا قال لها أن تصوت وتمزق ثيابها ، ما دام الخطاب يقرر أن ابنها بخير وأنه فى طريق العودة ؟ فأجابها غير مضطرب : « إن الله عنده علم الغيب . فمن لى أعرف أن ولدك سيعود سلما ؟ وكان خيراً لك أن تظنيه ميتاً حتى لا تنتظرى عودته ، وقد يخيب انتظارك ». فصاح بعض الجالسين مادحاً حكمته : حقاً إن « فقينا » الجديد رجل ثاقب البصر حكيم . وهكذا بين عشية وضحاها ارتفعت شهرة الرجل لغلطة غلطها(١) .

وبعض الآباء يجعلون لأولادهم شيخاً يعلمهم فى المنزل . والعادة أن يعلم الأب ابنه الوضوء والصلاة وغير ذلك من الواجبات الدينية والأخلاقية على قدر مكانه . وقد أمر الرسول أن يعوّد الصلاة من يبلغ السابعة ، ويضرب من يمتنع منهم عند العاشرة ، كما أمر أن ينام الأولاد كل وحده فى هذه السن(٢) . ومع ذلك يندر أن يقوم المصريون بواجب الصلاة قبل البلوغ .

قلما يتعلم البنات القراءة والكتابة . وكذلك لا يتعلمن الصلاة ، حتى بنات الطبقة الراقية . ويستخدم بعض الأغنياء « شيخة » لتزور الحريم يومياً ، فتعلم بناتهم وجواريهم إقامة الصلاة وتلاوة بعض سور من القرآن . وقد تعلمهن القراءة والكتابة ، إلا أن هذا ، حتى لنساء الطبقة الراقية ، شىء كمالى يندر أن يتم (٣) . وهناك عدة مدارس تعلم فيها البنات الخياطة والتطريز الخ . ولكن إذا سمحت الظروف يعهد بالبنات إلى « معلمة » تعلمهن تلك الأشغال فى منازلهن .

---

(١) وقد وجدت بعد ذلك قصة تكاد تشبه هذه الحادثة تماماً فى كتاب ألف ليلة وليلة طبعة القاهرة . وهى حكاية من الحكايات الملحقة بالفصل الثامن عشر من الترجمة التى ترجمتها لذلك الكتاب . ولذلك إما أن تكون القصة التى بلغتها غير صحيحة ، وإما أن يكون الرجل المشار إليه مقلداً للقصة السابقة . والحالة الأخيرة قد تكون محتملة ، فقد حكى لى عدة حكايات مماثلة تستحق التصديق فضلا عن أنى أعرف أن واحدة منها أمر واقعى .

(٢) عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله (صلعم) « مروا أولادكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً وفرقوا بينهم فى المضاجع .

فقه السنة . السيد سابق . ج ١ (المترجم)

(٣) وقد تتلقى بنات الطبقات الوسطى علومهن مع الأولاد فى مدرسة واحدة . إلا أنهن عادة يلبسن الحجاب ولا يخالطن الأولاد . وكثيراً ما شاهدت بنات حسان الهندام يقرأن القرآن فى مدرسة للبنين .

الفصل الثالث

الدين والشريعة *

من الواجب، قبل أن نشرع فى بحث الوضع الاجتماعى للمصريين ومسلكهم الخلقى وهم فى سن الرجولة ، أن ندرك إدراكاً تاماً المبادىء العامة للدين والشريعة ، والكثير من أمورهما الثانوية ، حيث إن المصريين يعدونهما أعظم فروع التربية شأناً ، ويعتبرونهما القاعدة الرئيسية التى تقوم عليها عاداتهم وشمائلهم .

وقد أدى اختلاف الرأى بين المسلمين ، فى بعض نواحى الدين والشريعة ، إلى قيام مذاهب أربعة * ، يعتبر كل منها الآخر مذهباً قويماً فيما يتعلق بشؤون الدين الأساسية . وهؤلاء المسلمون يسمون أنفسهم « سنيين »، أى أتباع السنة ، بينما يطلقون على غيرهم من المسلمين عبارة « شيعيين » (بكسر الشين وفتح الياء) ، أو « شيعيين» ، (بدون فتح الياء)، ويسمونهم إجمالا «الشيعة»* . ويعنى ذلك، وفقاً لتفسيرهم ، منشقين . ويعنينا هنا طبقة السنيين وحدها . وهى تشمل المذاهب الأربعة : الحنفى ، والشافعى ، والمالكى (بكسر اللام)(١) ، والحمبلى(٢) ، وقد سميت تلك المذاهب هكذا تبعاً لإسم كل من الأئمة الذين

* رأيت إتماماً للفائدة أن أعرض هذا الفصل على أحد العارفين بشؤون الدين وهو الأستاذ عبد القادر إبراهيم زيدان .

وقد أفضل علىّ فى هذا المجال ، بتعاليقه القيمة ، فأدرجتها متوالية تحت العلامة النجمية * . (المترجم)

* ليس هذا من خلاف الرأى بين المسلمين . فالجمهور قد تنازل عن رأيه مكتفياً كل فريق منهم باتباع رأى من الأربعة . وهم بذلك مقصرون فى دراسة الدين . وليس أى شخص ملزماً بتقليد أى إمام .

* الانقسام إلى سنة وشيعة انقسام سياسى بشأن نصيب آل على وحقهم فى الخلافة . وقد شط بعض الشيعة فى تحمسهم لآل على مما خرج ببعضهم عن دائرة الدين . أما المعتدلون منهم فالخلاف الفقهى بيننا وبينهم لا يعدو الخلاف بين رأيين فى فهم السنة أو ما روى منها. ومثل هذا الخلاف قائم بين اتباع المذاهب الأربعة بل بين اتباع المذهب الواحد .

(١) وتنطق عادة مالكى بتسكين اللام .

(٢) هكذا بالميم بدلا من حنبلى بالنون . وقد فات المؤلف أن يذكر أن العامة ينطقون هذا اللفظ هكذا : حمبلى . والمعروف أن العامة يقلبون النون ميماً فيقولون : تمبل (تنبل)، زمبق (زنبق)، زمبلك (زنبرك) ، الخ . (المترجم)

أتبعت تعاليمهم . وينتمى الأتراك إلى المذهب الأول ، الذى يعتبر أكثر المذاهب اعتدالا ، وينتمى سكان القاهرة ، ما عدا فئة قليلة تتبع المذهب الحنفى ، إلى المذهب الشافعى أو المالكى . والشائع أن أكثرهم ، مثل سكان الجزيرة العربية ، شافعيون . وأهل الشرقية (شرق الدلتا) شافعيون ، وأهل الغربية (الدلتا) كذلك شافعيون ، ما عدا القليل منهم ينتمون إلى المذهب المالكى . وينتمى أهل البحيرة (غرب الدلتا) وأهل الصعيد ، ما عدا فئة قليلة ، وكذلك أهل النوبة والمغاربة ، إلى المذهب المالكى أيضاً . وقلما يصادف المرء ، فى الوقت الحاضر ، أحداً ممن ينتمون إلى المذهب الرابع . — وتتفق جميع هذه المذاهب على أنها تستمد قواعدها فى الدين والشريعة من مصادر أربعة : القرآن والسنة ، وإجماع الصحابة ، والقياس .

ويطلق العرب على الدين الذى علمه محمد ، « الإسلام » . وتطلق عبارتا « الإيمان » و « الدين » ، بالتوالى ، على العقيدة الدينية وإقامة الشعائر . وتقوم مبادىء الإيمان بمادتين ، تنص أولاهما أن :

« لا إله إلا الله » .

إن الله — هو الخالق ، الحافظ ، الحكم ، القيوم ، الصمد ، القادر ، العارف ، الموجود — أحد . وتقرر سورة الإخلاص(١) وحدانيته تعالى : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » . فالله تعالى ، فى عقيدة المسلمين ، لا شريك له ولا عقب ، وإن كانوا يعتقدون أن سيدنا عيسى (ولا يذكر اسمه إلا مقروناً بعبارة « عليه السلام ») وُلد لعذراء بتول بقوة إعجازه تعالى(٢) دون أن يمسها بشر ، وأنه المسيح ،

---

(١) التزمت أحياناً عند استشهادى بالآيات القرآنية ، بترجمة سيل Sale . وإنى لأشهد له عن طيب خاطر بالأمانة فى الترجمة . غير أنه يجب أن أشير إلى أن بعض حواشيه التفسيرية يعوزها السند والدقة ، ومثال ذلك ما يتعلق بقوانين الإرث . ويخطىء (سيل) أيضاً فى ترجمة نصوصها . وقد ميزت الآيات بالترقيم كلما دعت الحاجة إلى ذلك . وتبعت تقسيم مرتشى Marracci أول الأمر ، ثم ما لبثت أن عدلت عنه إلى تقسيم فلوجل Fluegel ، كما ورد فى طبعته العربية الأخيرة التى يحتمل أن تحل محل الطبعات السابقة عليها لدقتها المتناهية . (المؤلف)

إن ترقيم الآيات الذى يتبعه (لين) لا يطابق الترقيم الوارد فى المصاحف المعروفة لدينا ، ولذلك لم ألتزم به . وسأكتفى ببيان الترقيمين ، ترقيم (لين) والترقيم الشائع ، فى الهامش التالى فحسب ، ليتبين القارىء الفرق بينهما ، ثم ألزم الترقيم المعروف لدينا دون ترقيم (لين) . (المترجم)

(٢) القرآن . سورة ٣ . الآيات ٤٠ — ٤٢ . (المؤلف)
سورة آل عمران . آية ٤٧ . (المترجم)

وكلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه(١) . ومع ذلك فهم لا يسمونه ابن الله ، ولا يبجلونه بأكثر من أنه نبي ورسول ، بل وينزلونه إلى مرتبة أدنى من محمد ، بقدر ما يعتبرون الإنجيل قد خلفه القرآن . ويعتقد المسلمون أن سيدنا(٢) عيسى أدى رسالته ثم رفعه الله إليه من اليهود الذين سعوا إلى قتله ، وأن آخر شبهه الله بعيسى فصلب بدلا منه(٣) . ويعتقدون أن عيسى سيعود إلى الأرض ليوطد الإسلام ويقتل المسيح الدجال فيسود السلام والطمأنينة ، ويكون ذلك من علامات الساعة .

وتنص المادة الثانية التى يقوم بها الإيمان ، وهى لا تنفصل عن الأولى فى عقيدة المسلمين ، أن :

« محمداً رسول الله »

ويعتقد أتباع محمد أنه خاتم الأنبياء والرسل وأعظمهم مكانة(٤) ، وأن ستة* من هؤلاء ، وهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، أوحى الله إليهم بشريعة قائمة على مبادىء الدين والأخلاق . ويعتقدون أن ما أوحى إلى آدم قد نسخه ما أنزل بعده ، وأن كل شريعة تنسخ* ماقبلها ، وإن تشابهت أسسها الجوهرية . ومن ثم ، فهؤلاء الذين اعتنقوا اليهودية منذ عصر موسى إلى عصر عيسى هم مؤمنون . وكذلك هم مؤمنون هؤلاء الذين اعتنقوا ، إلى عصر محمد ، الدين المسيحى (الذى لم يحرفه ، حسب قول المسلمين ، الاعتقاد بأن المسيح إبن الله) . ولكن المعتقد أن التحريف الشديد قد أصاب أسفار العهد القديم ، والزبور (هو فى اعتقاد المسلمين موحى به من الله) ، والعهد الجديد ، فى شكلها الحالى ، فلم تعد تتضمن غير القليل من كلمة الله الحقة ، بينما القرآن لم يتعرض لتحريف جوهرى أياً كان .

---

(١) سورة النساء . آية ١٧١ .
(٢) يطلق المسلمون لقب « سيدنا » على الأنبياء وعلى غيرهم من الأفراد المكرمين .
(٣) سورة النساء . آية ١٥٧ .
(٤) يندر أن يذكر المسلم اسم النبى دون أن يضيف إليه عبارة « صلى الله عليه وسلم » .
* المعروف أن أولى العزم خمسة فقط بإخراج آدم من هؤلاء .
* ما يتعلق بالاعتقاد من إلهيات وسمعيات متفق عليه ، وليس مجالا للتغيير فى دين بعد آخر . والتغيير مقصور على الأعمال والسلوك نزولا على حكم التطور فى المجتمعات البشرية ، ولا تنسخ شريعة سواها لأن كلا منها محدودة بزمن لا يمتد إلى مابعده ، ولا يخاطب بها أحد بعد فواته . وهى أيضاً محدودة مكاناً لتوجيهها إلى طائفة معينة ؛ فقوة النسخ ميزة للشريعة العامة زماناً ومكاناً وهى شريعة محمد . ومن الواضح أن المراد بالشريعة هنا هو الجانب العملى فقط من عبادات بدنية ومعاملات .

وعلى المسلم علاوة على ذلك أن يؤمن بوجود الملائكة ، والجن أخيارهم وأشرارهم . وأشرار الجن هم الشياطين وبرأسهم إبليس(١) . وعلى المسلم أيضاً أن يؤمن بخلود الروح ، وبالبعث ويوم الحساب ، وبالجزاء فى اليوم الآخر فى الجنة وجهنم ، وبالميزان حيث توزن الطيبات والسيئات ، وبالصراط (الذى يمتد فوق جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف) يمر الخلق فوقه ، فيسقط شرهم منه إلى النار . ويعتقد المسلم أيضاً أن من آمن بالإسلام وارتكب المعاصى ، سوف يؤمنه هذا الدين من دوام العذاب فى النار ، بينما يخلد فيها غيره ممن ينتمون إلى دين آخر . ويعتقد أن الجزاء على الطيبات أو السيئات درجات ، ويكون العقاب عذاباً أليماً بين السعير البالغ والقر الشديد ، وتكون المكافأة بعضها بارضاء النفس بما لذ من الطعام والشراب ، والتمتع بصحبة فتيات الجنة ذوات العيون الحور(٢) ، الفارعات طولا فى تناسق يتفق وقامة الرجل ، التى تطول بطول النخيل ، إلى ستين قدماً . ويعتقد المسلمون عموماً أن آدم وحواء كانا يبلغان ذلك الطول . ويقال إن أرواح الشهداء تسكن ، إلى يوم القيامة ، فى حوصلة طيور خضراء تأكل من فاكهة الجنة وتشرب من أنهارها(٣) . ويؤكد الكثير من المسيحيين أن المسلمين يعتقدون أن المرأة لا روح لها . ولكن عقيدة الإسلام لا تحرم المرأة من جزاء الجنة ، ويبشر القرآن فى أكثر من آية المؤمنين والمؤمنات بالجنة . وتقضى تعاليم القرآن أن الجنة لا يدخلها بشر وفقاً لحسناته فحسب ، ولكن الله ينعم بها على المؤمنين ، تبعاً لإيمانهم ، علاوة على أن كل امرىء سوف ينال الجزاء المناسب لأعماله الطيبة . وأقل ما يوعد به المؤمن فى الجنة ثمانون ألف « وليد »(٤) يتوفرون على خدمته ، واثنتان وسبعون زوجة من « الحوريات »(٥) إلى جانب زوجاته فى الحياة الدنيا ، إذا شاء ذلك (ولا شك أن الطيبين يتوق بعضهم إلى بعض) . ويقام له خيمة واسعة مرصعة باللآلى والياقوت والزمرد . ويقدم له ثلاثمائة

---

(١) ذكرت هنا فى طبعة هذا الكتاب الأولى أن الشيطان يختلف عن الجن . غير إننى وجدت فيما بعد أن أكثر المؤلفين العرب الجديرين بالاعتبار هم على رأى مناقض . ويشارك المصريون المحدثون هؤلاء فى هذا الرأى عموماً . – والمعتقد أن صفات الملائكة أدنى منزلة من صفات البشر (لأن الله أمر الملائكة بالسجود أمام آدم) ، وتكون صفات الجن هكذا أدنى بكثير .

(٢) مثل عيون الغزلان . غير أن معنى تلك التسمية (التى تذكر فيما بعد) موضع جدل .

(٣) يطلق لفظ الشهيد على الجندى المتطوع للجهاد فى سبيل إيمانه ، وعلى من يغتال بغير ذنب ، وعلى ضحية الطاعون (اذا كان لم يتجنب المرض) أو الزحار (الديسنطاريا) ، وعلى الغريق ، أو من يلقى حتفه تحت الأنقاض .

(٤) أو ولدان .

(٥) أو « الحور العين » أو « الحور العيون » .

خادم ثلاثمائة صنف من الطعام مختلفاً ، فى أطباق من الذهب ، دفعةواحدة ، وتكون آخر لقمة مثل أول لقمة سائغة . والنبيذ كذلك ، يباح على الإطلاق فى الحياة الأخرى ، رغماً من تحريمه فى الحياة الدنيا ، ولا يصيب شاربه ضرر ، لأن نبيذ الجنة لا غول فيه(١) . ويقال ، علاوة على ذلك ، إن فضلات الجسد سوف تزول عند أهل الجنة فيما يفرزون من العرق ، الذى سوف ينشر أريجاً مثل المسك ، وإن هؤلاء سوف يلبسون من الحرير أنفسه ، فى لون أخضر على الأخص . وهم يوعدون أيضاً بدوام الشباب ، وإنجاب الأطفال على قدر ما يرغبون . وسوف تفتن تلك المتع ، وأناشيد الملاك إسرافيل معاً ، والكثير من المتع الحسية الأخرى . أهل الجنة بجميع طبقاتهم . ولكنها لن تفتن كثيراً هؤلاء الذين حباهم الله ببركته وخصهم بأعلى المراتب ، فيجعلهم ينعمون بتلك المتعة الروحية بمشاهدة وجهه تعالى(٢) نهاراً وليلا . — وعلى المسلم أيضاً أن يؤمن بسؤال الملكين ، منكر ونكير(٣) ، للميت فى قبره ، فى أمور إيمانه . وللأخيرين هيئة مرعبة تجعل الجسد (الذى ترتد إليه الروح فى هذا الحين) يجلس منتصباً فى قبره(٤) . ويوقع الملكان العذاب الشديد بالشرير ، ولا يمسان الطيب بأذى . وعلى المسلم أخيراً أن يؤمن بقضاء الله المطلق فى الخير والشر . وقد أثارت هذه العقيدة جدلا كثيراً بين المسلمين وكذلك بين المسيحيين على السواء . غير أن المسلمين عامة يؤمنون بالقضاء والقدر على أنه مشروط فى بعض الوجوه .

وأهم الفروض التى توجبها قواعد العبادات والأخلاق هى الصلاة والزكاة والصوم والحج .

تتمثل الطهارة الدينية فى نوعين . أولها ، الوضوء العادى الذى يهيىء الفرد للصلاة . وثانيهما ، الغسل (بضم الغين) وهو تعميم الجسد بالماء مع الوضوء السابق.

---

(١) أنظر مقدمة (سيل) لترجمة القرآن ، القسم الرابع .

(٢) وقد صرح لى مسلم على درجة ما من التعلم أنه يعتبر وصف القرآن الجنة رمزياً إلى حد بعيد، ويقول إن ذلك يماثل الوصف الوارد فى سفر الرؤيا للقديس يوحنا . وقد أكد لى أن ذلك هو رأى الكثير من المسلمين المتعلمين .

(٣) ويقول العامة ناكر ونكير .

(٤) توضع الجثة دائماً فى سرداب ، ولا توضع داخل تابوت ، وتلف بالكفن فحسب . (المؤلف)

إن الشائع أن يحفر للميت لحد ، فيفترض وضعه فى اللحد ذلك الاعتقاد المشار إليه عاليه . (المترجم)

ولتلك الطهارة بنوعيها أهمية أساسية،لأن فرض الصلاة،الذى يسمى لعظم شأنه « مفتاح الجنة » ، لا يقبل ممن يقوم به فى نجاسة . وقد وجب لذلك تجنب القذارة بقص الأظافر والقيام بغير ذلك من العادات المماثلة(١) .

ومن الطهارات ما هو غسل مشروع(٢) يجب على كل مسلم لبعض الأمور، ولو كان لا يقوم بفرض الصلاة . أما الوضوء للصلاة فإنى أبادر بوصفه . إن الغسل السابق الإشارة إليه جزء من الوضوء . ولا يلتزم الفرد بالطهارة الأخرى بعده مباشرة ، ولكنه يلتزم بها فقط عندما يعتزم الصلاة . ويتم ذلك فى المسجد أو فى المنزل ، علانية أو على انفراد . يقام بكل مسجد صهريج (يسمى « مَيْضأة »(٣)) أو خزان مرتفع « حنفية » ، يُجعل به حوله صنابير ينبثق منها الماء . وتحوى بعض المساجد الاثنتين معاً . ويقوم المسلمون من المذهب الحنفى (والأتراك منه) بالوضوء من الحنفية (التى اشتقت اسمها لهذا السبب من هذا المذهب) ، لأن الحنفيين يلتزمون الوضوء بالماء الجارى ، و من صهريج أو بركة فى سعة عشرة أذرع مكعبة على الأقل . واعتقد أنه لا يوجد بالقاهرة غير « ميضأة » واحدة ، على عمق عشرة أذرع ، يحويها الجامع الأزهر . ويستخدم عادة للوضوء داخل المنازل « حنفية »(٤) من النحاس المقصدر ، توضع على رف غير مرتفع ، وطست كبير (شكل ٣٣) ، أو إبريق وطست صغيرين من المعدن نفسه .



شكل (٣٣)
يبلغ ارتفاع الوعاء الأعلى (الحنفية) على العموم قدماً ونصف قدم تقريباً

ويعمد الفرد عند قيامه بالوضوء إلى رفع كميه فوق المرفق قليلا ، ويقول فى صوت خفيض أو غير مسموع : نويت فرائض الوضوء للصلاة(٥) ثم يغسل

(١) وقد أشير إليها فى الفصل الأول .
(٢) وقد وصف رلاند Reland هذه الطهارة ومناسباتها فى كتابه De Rel. Moh. (فى الدين الإسلامى) ، ص ٨٠ — ٨٣ ، طبعة ١٧١٧ .
(٣) الميضاة والميضاءة . (المترجم)
(٤) والملاحظ أن لفظ حنفية يطلق هنا على الوعاء والأنبوبة معاً . (المترجم)
(٥) لا يتقيد المسلمون بالكلام نفسه تماماً فى هذه المناسبة ، ولا أثناء الوضوء كذلك . وأغلب القائمين بالوضوء لا يتفوهون بكلمة . (المؤلف) =

يديه ثلاثاً قائلا بالطريقة السابقة : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى جعل الماء طهوراً ، والإسلام نوراً وهادياً ، ومرشداً إلى جناتك ، جنات النعيم ، وإلى منزلك ، منزل السلام. ثم يقذف الماء داخل فمه بيمينه ويمضمضه ثلاثاً(١) ، قائلا : اللهم أعنى على تلاوة القرآن ، وذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك ثم يستنشق الماء فى منخره بيمينه ، ويخرجه بالضغط على أنفه بالإبهام وإحدى أصابع اليد اليسرى ثلاثاً ، قائلا : اللهم أرحنى رائحة الجنة ، وباركنى بنعمها ، ولا ترحنى رائحة النار. ثم يغسل وجهه ثلاثاً ، بقذف الماء إليه بكفيه ؛ قائلا: اللهم بيض وجهى بنورك ، يوم تبيض وجوه أوليائك ، ولا تسود وجهى ، يوم تسود وجوه أعدائك(٢). ثم يغسل يده اليمنى مع ذراعه إلى المرفق ثلاثاً ، ويجعل الماء يجرى فى كل مرة على ذراعه من راحة يده إلى مرفقه ، قائلا : اللهم اعطنى كتابى بيمينى(٣) ، وحاسبنى حساباً يسيراً . ويغسل يده اليسرى مع ذراعه بالطريقة نفسها ، قائلا : اللهم لا تعطنى كتابى بيسارى ، ولا من وراء ظهرى ، ولا تحاسبنى حساباً عسيراً ، ولا تجعلنى من أهل النار . وبعد ذلك يمسح مقدم رأسه مسحة واحدة بيده اليمنى مبللة ، وهو يرفع عمامته باليسرى ، ويقرن الفعل بهذا الابتهال : اللهم اشملنى برحمتك ، وانزل على بركتك ، وأظلنى تحت ظلة عرشك ، يوم لا ظل إلا ظل عرشك . ثم يتخلل لحيته ، إذا كان ملتحياً ، بأصابع يمناه المبتلة . ثم يمسح أذنيه ، باطنهما وظاهرهما ، بوضع طرفى السبابتين فى الصماخين ، والإبهامين خلفهما ، ويحرك الأصابع معاً من أسفل إلى أعلى فى حركة دائرية ، قائلا : اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أو يقول : اللهم اجعلنى أحسن السمع . ثم يمسح عنقه بظهر أصابع يديه ، جاعلا أطرافها متقابلة خلف رقبته ، ويسحبها إلى الأمام قائلا : اللهم اعتق رقبتى من النار ،

= حاولت على قدر استطاعتى إعادة الترجمة الإنجليزية إلى النص العربى الأصلى ، فيما يرد فى هذا الفصل ، من ابتهال أو دعاء أو أذان أو خطبة إلى غير ذلك . واكتفيت بالمعنى المرادف عند عجزى عن الحصول على النص الأصلى . (المترجم)

(١) والواجب أيضاً استخدام المسواك لتنظيف الأسنان . ولكن قل من يفعل ذلك .

(٢) ويعتقد أن الصالح يقوم يوم القيامة أبيض الوجه ، والطالح أسوده . ولهذا يقال أن وجه الإنسان أبيض أو أسود تبعاً لحسن سمعته أو سوءها . ومن اللعنات السائرة قولهم : سود الله وجهك .

(٣) لكل إنسان كتاب خاص به تقيد فيه أعماله الدنيوية . ويقال إن المستقيم من الناس سوف يتناول كتابه بيمينه ، ويتناوله شرهم بيساره التى تربط خلف ظهره بينما تغل يمينه إلى عنقه .

واحفظني من الأغلال والأطواق والقيود . وأخيراً يغسل رجليه إلى الرسغ ، ويتخلل أصابع قدميه بيديه ، ويقول وهو يغسل قدمه اليمنى : اللهم ثبت قدمي على الصراط ، يوم تزل الأقدام . واليسرى : اللهم اجعل عملي مقبولا ، وذنبي مغفوراً ، وسعيي مشكوراً ، وتجارتي لن تبور ، بمغفرتك ، يا قادر ، يا غفار . وبرحمتك ، يا أرحم الراحمين . وبعد أن يتم وضوءه هكذا يرفع رأسه إلى السماء قائلا : سبحانك اللهم وحمدك ، وأشهد أن لا إله إلا أنت وحدك ، لا شريك لك ، وأستغفرك ، وأتوب إليك . ثم ينظر إلى الأرض ، ويضيف : أشهد أن لا إله إلا الله . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . ثم يتلو بعد ذلك سورة القدر مرة أو مرتين أو ثلاث مرات*

ويتم الوضوء عادة في أقل من دقيقتين ، إذ أن أكثر المسلمين يتعجلون القيام به ، ويغفلون مايصحبه وما يتبعه من دعاء وغيره جميعاً تقريباً . والوضوء لا يلزم قبل كل صلاة من الصلوات الخمس اليومية ، عندما يكون الفرد مدركاً أنه تجنب أي نوع من النجاسة منذ قيامه بآخر وضوء . وللمسلم أن يقوم بالتيمم عندما يعز عليه وجود الماء ، أو عندما يخشى من الماء ضرراً على نفسه . ويكون التيمم بضرب كفي اليدين على الرمل أو التراب الجاف (ويكتفي بعمل ذلك على ردائه الجوخ الذي يحوي وجوباً بعض التراب) ، ويمسح الوجه بكلتيهما . ويقوم المسلم بالطريقة نفسها بمسح يديه وذراعيه إلى المرفق ، اليمنى ثم اليسرى على التوالي . وبذلك يتم هذا الوضوء . وكثيراً ما يتم غسل الجسم كاملا للنظافة فحسب ، وليس لأمر ديني ، إلا في مناسبات خاصة مثل صباح الجمعة أو في العيدين وغير ذلك(١) . ويسمى التطهير حينئذ « غُسلا » .

---

* هذه الأدعية التي يرددها عامة الناس حين الوضوء مبتدعة في الدين لم يثبت منها شيء في الصدر الأول، ولم ترو عنه صلى الله عليه وسلم . وكل ما صحت نسبته إليه عليه الصلاة والسلام في ذلك هو البسملة في أول الوضوء والشهادتين عند الفراغ منه . ثم يدعو : اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين .

وكل ما أورده المؤلف شائع بين العامة ولم يعرف قائله الأول . وهو لا شك من صياغة أناس مختلفين شغلوا أنفسهم بالدعاء واجتهدوا فيه ، كل بقدر ما أوتي من صحة الفهم للدين. أو عكس ذلك .

(١) من الواجب أن أطلب إلى القارىء مرة أخرى هنا (إذا شاء مثل تلك المعرفة) أن يرجع إلى وصف (رلاند) للغسل ومقتضياته . De Rel. Moh. ، ص ٦٦ — ٧٧ .

والطهارة لازمة كذلك فى موضع الصلاة من أرض أو حصير أو سجاد أو رداء أو غير ذلك ، مما يقام فوقه الصلاة ، أياً كان . وكثيراً ما يؤدى أفراد الطبقة الدنيا صلاتهم على الأرض العارية التى يعتبرونها طاهرة ما دامت جافة . وقلما يبادر هؤلاء إلى مسح ما علق من تراب بالأنف والجبهة وقت السجود ، إذ يعدون ذلك زينة لوجه المؤمن . غير أن من يملك منهم عباءة أو رداء ما فهو يبسطه فوق الأرض ، ويستخدمه كسجادة للصلاة ، إذا لم يكن فى خلعه ما يشينه . ويستعمل الأغنياء للصلاة « سجادة » بحجم السجادة العريضة التى تمد أمام المدفأة(١) ، ويكون بها شكل محراب ، فيبسطونها جاعلين طرف المحراب نحو مكة(٢). ومن الإثم أن يمر المرء عن قرب أمام المصلّى. وعلى هذا الأخير أن يقف ، عند الصلاة ، على قيد خطوات من حائط أو ما شابه ، أو يضع أمامه « سُترة » ، قد تكون عصا تُغرز فى الأرض ، أو توضع أفقية إذا صلبت الأرض ، أو تكون سوطاً أو سرج المصلى أو حذاءه ، بحيث لا يتقدمه مباشرة كائن حى أو صورة ما(٣) . وعلى المصلى ، إن لم يجد مايضعه كسترة ، أن يخط أمامه خطاً على الأرض .

وتقام الصلاة ، وينطقها العامة « صَـلَه » ، خمس مرات يومياً . ويتبين بالمقارنة أن الذين لا يهملون هذا الفرض ، قليلا أو كثيراً ، هم قلة فى مصر ، وأن الكثير من المصريين يندر أن يقيموا صلاة أبداً . والصلاة التى يعينها القرآن « فرض » ، أما ما يحددها الرسول ، ولم يدع الله إليها ، فهى « سنّة » .

وتبدأ أولى الصلوات فى المغرب(٤) ، أو على الأصح ، بعد غروب الشمس* بحوالى أربع دقائق . وتكون صلاة « العشا » ، وهى الثانية ، عند ما ينتهى

---

(١) يتكلم لين هنا على هذا النوع من السجاد الذى يبسط عند أقدام الجالسين أمام المدفأة فى منازل أوربا . (المترجم)

(٢) ويباع مثل تلك السجادة حالياً فى لندن بوصفها سجاد فارسى .

(٣) وقد تكون تلك عادة صادرة من يهود الجزيرة العربية ، وأقتبسها محمد منهم ، وقد تفسر أمراً عسيراً أربك المفسرين للتوراة فى الآية ٣١ من الإصحاح ٤٧ من سفر التكوين (ونصها : فقال إحلف لى . فحلف له . فسجد إسرائيل على رأس السرير) .

(٤) وقد سميتها الأولى لأن اليوم يبدأ فى التقويم الإسلامى من غروب الشمس . غير أن صلاة الصبح كثيراً ما تسمى الأولى ثم تليها صلاة الظهر ، وهكذا .

* يبدأ وقت المغرب عند غروب الشمس . ولكن من السنة أن يعلن وقت الصلاة بالأذان ثم يدعى إليها بالإقامة . وقد يستغرق ذلك أربع دقائق .

المساء ، وينتشر الظلام تماماً(١) . وتكون الصلاة الثالثة ، فى « الصبح » أو « الفجر »(٢) . والرابعة ، فى « الظهر » ، أو ، بالأحرى ، بعيد ذلك، عندما تأخذ الشمس فى الزوال . والخامسة ، فى « العصر » ، أى فى منتصف الوقت بين الظهر ودخول الليل(٣) . وينتهى زمن الصلاة الواحدة عندما تحين الصلاة التالية ، ما عدا صلاة الفجر التى تنتهى بشروق الشمس . وكان الرسول لا يستوجب القيام بالصلاة عند شروق الشمس ، ولا فى تمام الظهر أو الغروب ، لأن المشركين عبدوا الشمس فى مثل تلك الأوقات .

وليس على المسلم أن يقوم للصلاة إذا وجبت وهو يتناول طعامه ، أو يكون فى سبيله إلى ذلك ، فيؤديها بعد الانتهاء من تناوله . وعلى المسلم أن يقوم بالصلاة فى بدء أوقاتها بقدر الإمكان ، وقد تقام بعد وجوبها* ، وليس قبل ذلك . ويعلن المؤذن فى كل مسجد الصلاة فى أوقاتها ، فيصعد الى المئذنة ويلقى « الأذان » كما يلى : « الله أكبر » (ويقولها أربع مرات) . « أشهد أن لا إله إلا الله » (مرتين) . «أشهد أن محمد رسول الله »(مرتين) . « حى على الصلاة » (مرتين) . « حىّ على الفلاح » (مرتين)(٤) . « الله أكبر » (مرتين) . « لا إله إلا الله » . — ويتميز أكثر المؤذنين فى القاهرة بحلاوة الصوت وقوته ، فيخرجونه إلى أقصى طبقاته . ويتصف أذانهم بنغم سلس جليل ينفذ إلى النفس ، فى سكون الليل خاصة(٥) . ويفضل عموماً الرجال العميان للقيام بوظيفة المؤذن ، فلا يكشفون الحريم وأسطح المنازل المحيطة .

---

(١) ويكون « العشا » فى مذاهب الشافعى والمالكى والحميلى [هكذا بالميم] من مغيب الشفق الأحمر بعد غروب الشمس . وفى الحنفى ، من مغيب الأحمر والأبيض .

(٢) وتكون عادة عند ظهور أول ضوء فى الأفق الشرق . ويؤدى أفراد المذهب الحنفى صلاة الصبح غالباً بعيد ذلك الوقت عند ظهور الإصفرار ، ويعتبرونه أنسب الأوقات . وقد يقيمون الصلاة قبل ذلك .

(٣) ويكون العصر فى مذاهب الشافعى والمالكى والحمبلى [هكذا بالميم] عندما يصير ظل الشىء مثله بالإضافة إلى ظل هذا الشىء عند انتصاف النهار . ويكون طبقاً لمذهب الحنفى عندما يصير ظل الشىء ضعفه بالإضافة إلى ظله عند الإستواء .

* على الرغم من صحة قضاء الصلاة بعد الوقت ، لا يعفى المصلى من تبعة التأخير ما لم يكن معذوراً .

(٤) وهنا يضاف إلى أذان الصبح عبارة : « الصلاة خير من النوم » (مرتين) .

(٥) سأقدم لحن الأذان الشائع فى القاهرة فى الفصل الخاص بالموسيقى المصرية .

ويؤذن للصلاة مرتين أثناء الليل لينهض من يرغب فى إقامة النوافل منها(١) فيصعد المؤذن فى الجوامع السلطانية (أى التى ينشئها السلطان)، وبعض الجوامع الأخرى، إلى المآذن بعيد منتصف الليل* لالقاء أول الأذانين اللذين يؤديان فى غير أوقات صلاة الفرض. ويسمى هذا الأذان «الأولى». وهو يبدأ بكلمات الأذان السائر، مع العبارة الخاصة بأذان الصبح: «الصلاة خير من النوم». ويتبعه ما يلى: لا إله إلا الله (ثلاثا). وحده لا شريك له. له الملك، وله الحمد. يحيى ويميت، وهو حى لا يموت. وبيده النعمة، وهو عظيم. — لا إله إلا الله (ثلاثا)، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين حنفاء(٢)، ولو كره المشركون(٣). لا إله إلا الله. محمد أكرم الخلق عند الله. محمد خير المرسلين، وسيد الصحابة الذين بفضله أصبحوا أسياداً، جميل، كامل، حلو، عذب، سائغ. إغفر يارب لعبدك وتابعك الفقير، واقف هذا المكان، وهو الذى يسهر عليه بالجود والإحسان، وما جاوره، وهؤلاء الذين يترددون إليه فى أوقات الصلاة للتصدق. أنت ياكريم. — يارب(٤) (ثلاثا). أنت الذى لا ينفك عن التميز بالرحمة. أنت كريم برحمتك نحو العاصى، وتصونه، وتحجب الخطأ، وتظهر الفضيلة، وتهب إحسانك إلى عبدك، وتواسيه، أنت ياكريم — يارب. (ثلاثا). إن ذنوبى، عندما أراجعها كثيرة، ولكن رحمة ربى أوفر من ذنوبى. أنا لا أسأل حساباً على مافعلت من طيبات، ولكن أتوق أكثر إلى رحمة الله. سبحان الدائم. لاشريك له فى ملكوته. سبحانه. وتبارك. سبحان الله.

ويقوم المؤذن فى أغلب المساجد بالقاء الأذان الثانى، ويسمى «الأبد»(٥)، قبل الفجر بساعة تقريباً. وهو يسمى هكذا لوقوع ذلك اللفظ فى بداية الأذان(٦). وهو كما يلى: سبحان الله، الأبدى الأبد (ثلاثا). سبحان الله،

---

(١) وقل من يقوم بها.

* الأذان الأول فى الفجر يقع قبل حلوله وقت وجوبه بدقائق تختلف باختلاف حظ المؤذن من العزيمة، وحسن الصوت، ووفرة المحفوظ من الأدعية، والمواعظ، والمناجاة.

أما الثانى فيحل وقته بحلول وقت الصبح وهو كالأذان المعتاد فى سائر الأوقات بزيادة عبارة (الصلاة خير من النوم) مرتين بعد عبارة (حى على الفلاح). والأدعية التى يرددها المؤذن قبل الوقت غير مقيدة بألفاظ معينة. وهى غير واردة عن الصدر الأول إذ كان الأذان الأول والثانى فى الفجر بألفاظ الأذان المعتاد مع تمييز الثانى بالعبارة الدالة على تفضيل الصلاة على النوم.

(٢) سورة البينة، آية ٥.

(٣) سورة التوبة، آية ٣٣. وسورة الصف، آية ٩.

(٤) وتنطق بصوت عال.

(٥) التسمية الشائعة فى بعض الجهات: «التسابيح». وهى تسمية أكثر ملاءمة لتردد التسبيح باقه بهذا الأذان. (المترجم)

(٦) ويأتى لفظ «أبد» هنا ظرفاً بمعنى: على الدوام.

الصمد ، الموجود ، المفرد ، الأعلى ، سبحان الله الواحد الأحد . سبحانه الذى لم يتخذ فى ملكوته صاحبة ، ولا شريكاً ، ولا شبيهاً له ، ولا عاصياً ، ولا ولياً ، ولا كفواً ، ولا ذرية . سبحانه تعالى . إنه إله علم ما كان قبل أن يكون ، وخلق ما كان ، وهو قائم كما كان . سبحانه ، وتعالى . إنه إله لاشبيه له . لاشبيه لله الكريم . لاشبيه لله الرحيم . لاشبيه لله العظيم . ولا إله إلا أنت . ياربنا تعبد وتحمد وتُسأل وتمجد . سبحان من خالق الخلق ، وأحصاهم عدداً وقسّم رزقهم ، وحدد آجال عبيده . وربنا ، الكريم ، الرحيم ، العظيم ، لاينسى واحداً منهم . سبحان الذى ، بقدرته وعظمته ، فجّر الماء القراح من الصخر الجلمود . سبحانه من كلّم سيدنا موسى فوق الجبل(١) ، فجعل الجبل دكا(٢) ، من خشية الله ، تبارك ، الواحد ، الأوحد . لا إله إلا الله . إنه حكم . سبحان الأول . الصلاة والسلام عليك ياجميل المحيا ، يا رسول الله . الصلاة والسلام عليك ، يا أفضل خلق الله ، وخاتم رسل الله . الصلاة والسلام عليك ، أنت يانبى . عليك وعلى آلك ، وعلى أصحابك أجمعين . الله أكبر . الله أكبر ... إلى آخر أذان الصبح . ثم يقول : اللهم صلّ وسلّم وبارك على النبى المبارك سيدنا محمد . واسأل الله ، تبارك أسمه وتعالى ، أن يرضى عليك ، يا سيدنا الحسن ، وعليك ، يا سيدنا الحسين ، وعليك يا « أبوفراج »(٣) ، يا شيخ العرب ، وعلى أولياء الله أجمعين .

وتشمل فروض الصلاة الخمسة اليومية عدة ركعات(٤) .

يقف المصلى مستقبلا القبلة (أى متجهاً نحو مكة) ، ولا يضم قدميه الواحدة إلى الأخرى تماماً ، وينوى فى السر أداء الصلاة معيّنا عدد الركعات

---

(١) وتنطق تلك العبارة : سبحان من كلّم ... ، بصوت جهورى .

(٢) سورة الأعراف . آية ١٤٣ .

(٣) أبو فراج ، لقب ولى مشهور ، السيد أحمد البدوى ، مدفون بطنطا . ويعنى هذا اللقب أن الولى ينال الفرج لمن يزور قبره ويلتمس شفاعته .

(٤) وتشمل صلاة الصبح ركعتين « سنة » ، وركعتين « فرض » . والظهر أربع ركعات « سنة » وأربع « فرض » . والعصر ، مثل الظهر . والمغرب ، ثلاثاً « فرض » واثنتين « سنة » . والعشا أربعاً « سنة » وأربعاً « فرض » ، ثم اثنتين « سنة » مرة أخرى . ويقام علاوة على ذلك ثلاث ركعات « وتر » أى صلاة فردية أو منفصلة . وهى تؤدى بعد صلاة العشا مباشرة ، أو فى وقت آخر من أوقات الليل . ولكنها تكون أكثر قبولا فى الوقت المتأخر من الليل .

(سنّة أو فرضاً)، ومحددا الوقت (الصبح أو الظهر الخ .)،حاضراً أو قضى. ثم يرفع يديه مبسوطتين إلى جانبي وجهه ، ويلمس شحمة أذنيه بطرف إبهاميه ، قائلا : الله أكبر . ويسمى هذا القول : « التكبير* » ويتابع بعد ذلك تأدية الصلاة بعدد الركعات المفروض(١) ، هكذا : — يظل واقفاً ، ويداه ، اليسرى فى اليمنى ، أسفل منطقته قليلا* . فيتلو (وهو متجه ببصره نحو موضع رأسه عند السجود) سورة الفاتحة(٢) ، ويعقبها بثلاث آيات أخرى أو أكثر ، أو سورة قصيرة ، تكون عادة سورة الإخلاص* ، دون أن يكرر البسملة فى هذه التلاوة الثانية . ثم يكبّر حال الخفض للركوع ، ويكون باحناء الرأس والجسد ، مع وضع اليدين ، وما بين الأصابع متباعد قليلا ، فوق ركبته . ويسبّح ، وهو فى هذا الوضع ، بقوله : سبحان ربى العظيم (ثلاث مرات) ، ويضيف : سمع الله لمن حمده . ربنا ولك الحمد* . ثم يكبّر وهو يعتدل . ثم يهبط بهدوء على ركبتيه ، ويكبّر مرة أخرى . ويكون السجود بوضع رأسه ، أنفه ثم جبهته ، فوق الأرض بين يديه بالقرب من ركبتيه إلى الأمام . ويسبح قائلا : سبحان ربى الأعلى* (ثلاث مرات) . ثم يعتدل برفع رأسه وجسده ، ويظل جالساً على ركبتيه ، مرتكزاً إلى الخلف على عقبيه* ويضع يديه فوق فخذيه ، ويكبّر . ويكرر التكبير معاوداً الإنحناء فوق الأرض ، ثم يكرر التسبيح على النحو السابق ، فى السجدة الأولى ، ويكبّر مثل قبل وهو يرفع رأسه مرة أخرى. وهكذا



شكل ٣٤ (أوضاع الصلاة)

---

* تكبيرة الإحرام .

(١) وإنى أصف هنا أوضاع الصلاة طبقاً للمذهب الحنفى . وتختلف أوضاع الصلاة فى المذاهب الأربعة اختلافاً قليلا .

* وضع اليدين أثناء القراءة للمصلى يكون فوق سرته من منطقة الصدر وأعلى البطن .

(٢) يتلو البعض قبلا بعض عبارات زائدة عن حمد الله وتمجيده، ويضيفون: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وكثيراً ما تتقدم تلك العبارة تلاوة أى جزء من القرآن فى المناسبات الأخرى . ويفرض ذلك الفرض القرآن نفسه (سورة النحل آية ٩٨) . وتقرأ آيات القرآن عادة فى صلاة الفرض بصوت خفيض ، فيما عدا فرضى الظهر والعصر فتقرأ فى السر . ويرتل الامام القرآن وهو يؤم المصلين، وقد يفعل ذلك من يؤدى الصلاة منفرداً أثناء تأديتها . وتؤدى صلاة السنة بصوت غير مسموع .

تتم صلاة الركعة الأولى . ويجب على المصلى ألا يغير موضع أصابع القدم اليمنى في جميع أوضاع الصلاة المختلفة ، ولا يحرك القدم اليسرى إلا أقل حركة ممكنة .



شكل ٣٥ (بقية أوضاع الصلاة)

وينهض المصلى بعد الركعة الأولى (دون أن يحرك قدميه من موضعهما الأول ، وخاصة القدم اليمنى) ، ويكرر الصلاة نفسها . غير أنه يجب أن يتلو بعد الفاتحة سورة أخرى ، أو بعض سورة أخرى ، مختلفة عما تليت في الركعة الأولى . وتكون ، على سبيل المثال سورة الكوثر(١) .

ولا ينهض المصلى مباشرة بعد كل ركعة ثانية (وبعد الركعة الأخيرة ، وإن كانت مفردة في صلاة المغرب)، ولكن يثنى قدمه اليسرى تحته ، ويجلس عليها ، ويضع يديه فوق فخذيه مبعداً ما بين الأصابع قليلا . ويقول وهو على هذا الوضع : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات . السلام عليك ، أيها النبي ، ورحمة الله ، وبركاته . السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين . ثم يرفع سبابة يده اليمنى(٢) دون أن يحرك يده ، ويضيف : أشهد أن لا إله إلا الله . وأشهد أن محمداً رسول الله .

= * يكثر العامة من قراءةسورة الإخلاص لقلة ما يحفظون من القرآن الكريم ، أو مراعاة للتخفيف عند الحاجة

* (سمع الله لمن حمده) لا يبدأ المصلى قولها إلا بعد الفراغ من الركوع . ويحسن أن يكون ذلك بعد إتمام القيام واعتدال القامة ثم يتبعها (ربنا ولك الحمد) .

* الفصل بين السجدتين بالقعود يكون بالجلوس على القدم اليسرى وهى على الأرض في وضع أفقى مع الارتكاز على أصابع اليمنى في وضع رأسى .

(١) وفي الركعتين الثالثة والرابعة من صلاة الفرض ، لا يتلى بعد الفاتحة تلاوة أخرى ويجب ترديد الإقامة قبل صلاة الفرض عندما تكون في أربع ركعات . وتتألف الإقامة من كلمات الأذان ، ويضاف إليها : « قد قامت الصلاة » تردد مرتين ، بعد عبارة « حى على الفلاح » . وأكثر الناس يهملون القيام بهذا ، والكثير لا يراعى القاعدة السابقة .

(٢) يختلف علماء الإسلام فيما يتعلق بالوضع الملائم لأصابع اليد اليمنى . ويرى البعض وجوب ثنى الأصابع جميعاً ما عدا الأول كما يوضحه الشكل الثانى من أوضاع الصلاة .

وبعد أن يختم المصلى صلاته ، وبعد قراءة « التحيات لله »(١) ، يقول ، وهو ينظر فوق كتفه اليمنى : السلام عليكم ورحمة الله . ويردد العبارة نفسها وهو ينظر فوق كتفه اليسرى . ويعتبر البعض هذا السلام موجهاً إلى الملائكة الحارسة التى تسهر على المؤمنين ، وتسجل أعمالهم(٢) . ويقول آخرون إن السلام يوجه إلى الملائكة ، وإلى الحاضرين من الرجال المؤمنين أيضاً . ومع ذلك ، لا يرد السلام أحد من هؤلاء . وقد يتلو المصلى ، قبل ختام صلاته بالسلام ، دعاء قصيراً (فى لغة تستمد مفرداتها من القرآن ، أكثر ما تكون فى أسلوب المصلى نفسه) ، وهو ينظر إلى راحة يديه ، كأنهما كتاب مفتوح أمامه ، ثم يمسح بهما وجهه ابتداء من جبهته* .

ويظل المصلى جالساً ، بعد الانتهاء من صلوات الفرض والسنة ، إذا كان يعزم على تسديد ما عليه نحو خالقه تماماً ، أو على الأحرى ، إقامة صلاة النفل . ويستطيع فى هذه الحالة أن يسترخى فى جلسته . ويتلو آية الكرسى(٣) ، ويضيف إليها : يا علىّ ، يا عظيم ، سبحانك . ثم يردد : سبحان الله ، ثلاث وثلاثين مرة . ثم : سبحان الله العظيم وبحمده إلى الأبد ، مرة واحدة . ثم : الحمد لله ، ثلاث وثلاثين مرة . ثم : جل جلاله . لا إله إلا هو ، مرة واحدة . ثم : الله أكبر ، ثلاث وثلاثين مرة . ثم : الله أكبر فى عظمته والحمد لله حمداً موفوراً ، مرة واحدة . ويحصى المصلى دعاءه على السبحة* (بكسر السين) ، والأصح السبحة (بضم السين). والسبحة تسع وتسعون خرزة ، يفصل بين كل ثلاث وثلاثين منها علامة . وتكون الخرزات من العود ، أو غيره من الخشب العطر أو الثمين ، أو من المرجان ، أو من نوى بعض الثمار أو بزورها الخ .

---

(١) لم يذكر لين بقية التحيات ، التى جرت العادة بختم الصلاة بها كاملة ، وهى : اللهم صل على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم . وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم . فى العالمين إنك حميد مجيد . (المترجم)

(٢) يقول البعض إن كل مؤمن يلازمه ملكان . ويقول آخرون ، خمسة . وآخرون ستون أو مائة وستون .

* رفع اليدين ومسح الوجه بهما لم يثبت من طرق قوية ولم يشتهر عن الرسول (صلعم). وهو ممنوع فى أثناء الصلاة لأنه عمل كثير ومن آداب الصلاة سكون الجوارح .

(٣) وتبدأ بعبارة : « الله لا إله إلا هو » . وتنتهى بعبارة : « إنه العلى العظيم » .

* ليس استخدام المسبحة ظاهرة عامة . فكثير من المصلين يحصون الذكر عقب الصلاة على سلاميات الأصابع .

والواجب على المصلى أن يتجنب تماماً أن يتيه بنظره ، أو يشرد بذهنه ، أو يسعل ، أو يقوم بما يشابه ذلك ، أو يأتى بأى عمل غير موجب (مالم يكن بين صلاتىّ السنة والفرض ، أو يكون من الصعب تفاديه . وللمصلى أن يخرج عن السلوك الصحيح تجاوزاً بحركة تكون خفيفة غير منتظمة ولا تزيد عن ثلاث) . وإلا وجب عليه تأدية صلاته من جديد مقترنة بالاحترام الواجب . ويعد قطع المرء على رجل صلاته إثماً كبيراً . وتشغل الصلاة عادة من وقت المصلى ، بركعاته الأربع وبدون النافلة ، أقل من أربع دقائق ، بل وأقل من ثلاث دقائق . ويؤدى المسلم صلاته اليومية فى منزله أو دكانه ، أو فى المسجد ، حسب ما يلائمه أكثر . ويندر أن ينتقل من منزله ليؤدى صلاته فى المسجد ، فيما عدا أيام الجمعة حيث تؤدى الصلاة جماعة . أما رجال الطبقة الدنيا فهم أكثر أداء لصلاتهم فى المسجد من هؤلاء الذين يملكون منزلا مريحاً ، وحصيراً أو سجادة يقيمون عليها فريضتهم .

ولا تختلف صلاة الجماعة فى المسجد ظهر يوم الجمعة عن الصلاة العادية . غير أن هناك بعض شعائر إضافية يقوم بها الإمام وغيره من المشايخ فى هذه المناسبة . ويقال إن خصوص يوم الجمعة يرجع فى المقام الأول إلى خلق آدم فى يوم من أيام الجمعة ووفاته فى مثل ذلك ، وإلى التنبأ بحدوث يوم القيامة فى ذلك اليوم أيضاً . ومن ثم أطلق عليه خاصة «الجمعة» أى الجمع . ولا يمتنع المسلم عن ممارسة أعماله الدنيوية يوم الجمعة ، إلا وقت الصلاة ، طبقاً لتعاليم القرآن الواردة فى الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة الجمعة .

من الضرورى ، حتى يكتون المرء فكرة صحيحة عن شعائر صلاة الجمعة . ن يتبين داخل المسجد . ويسمى المسجد الذى تؤدى به صلاة الجمعة «جامعاً» ، والقاهرة تزخر بالمساجد ، فلا يوجد بها ما يغص بالمصلين على نحو ثقيل ، يوم الجمعة . ومنها ما تبلغ مساحته ثلاثمائة أو أربعمائة قدم مربع . وتبنى أكثر المساجد بالحجارة التى تتعاقب طبقاتها من الخارج فى لونين من الأحمر والأبيض . والشائع فى المساجد الكبيرة أن تتكون من أروقة تحيط بفناء غير مسقوف ، يتوسطه خزان أو حنفية للوضوء . ويواجه المسجد مكة بأحد جوانبه ، ويكون رواق هذا الجانب، وهو المكان الرئيسى للصلاة، أكثر سعة من الأروقة الثلاثة الأخرى المحيطة بالفناء . ويكون له عموماً صفان أو أكثر من الأعمدة التى تقام موازية للجدار الخارجى فى أجنحة متعددة . وقد يجعل هذا الرواق أحياناً ،

مثل الأروقة الثلاثة الأخرى ، مفتوحاً على الفناء . وقد تفصله عن الأخير فواصل خشبية تضم صف الأعمدة المتقدم . ويتوسط الجدار الخارجي « محراب » يبين اتجاه مكة ، ويقع على يمينه « المبر »(١) . ويواجه هذا الأخير ، فى مقدم الرواق ، أو فى وسطه ، مسطح ، يسمى « دكة » ، يرتفع على أعمدة صغيرة ، ويحيط به حاجز . ويوضع بجانب الدكة ، أو أمامها ، مقعد أو مقعدان ، بهما نوع من المناضد لحمل المصحف ، فيتلى منه على جماعة المصلين سورة من سور القرآن . وتبيض جدران المساجد عموماً بالجير فحسب . غير أن الجدار القائم بمكان الصلاة

شكل ٣٦ (داخل مسجد)

يخطط أسفله فى بعض المساجد بالرخام الملون ، بينما يزين بقيته بشعارات مختلفة ترسم بالجص . والغالب أن تزينه آيات قرآنية(٢) ، على هيئة أطر مستطيلة يكون لها فى النفس وقع لطيف . ولا تستخدم صورة الكائنات الحية فى هذا الأمر أبداً . ويفرش بلاط المسجد بالحصر ، ويؤدى كل من الغنى والفقير صلاته جنباً إلى جنب ، فلا يميز صاحب الجاه أو الثروة ميزة خاصة أو رفاهية ما . غير أن الأخير قد يمتلك سجادة للصلاة يحملها خادمه ويبسطها أمامه(٣) .

ولم يحرم الرسوم على النساء أن يؤدين الصلاة العامة فى المساجد ، ولكنه فضل لهن إقامتها على انفراد(٤) . وفى القاهرة ، مع ذلك ، لا يسمح للنساء

(١) يذكر (لين) هنا هذا اللفظ الدارج فحسب ، ولا يذكر اللفظ الصحيح « منبر » إلى جانب اللفظ الدارج كما تعوّد أن يفعل . (المترجم)

(٢) وآية الكرسى من أكثرها شيوعاً .

(٣) ويلحق بكل مسجد عدة مراحيض يوضع بكل منها وعاء به ماء للوضوء .

(٤) عن أم سلمة رضى الله عنها عن رسول الله (ص) قال : خير مساجد النساء قعر بيوتهن . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله (ص) : لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن . الترغيب والترهيب ص ١٩٠ ، جـ ١ للإمام الحافظ ولى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى . (المترجم)

والأطفال إقامة الصلاة مع جماعة المصلين، ولا دخول المسجد أيضاً فى أوقات الصلاة . وكان للنساء تلك الحرية من قبل (وقد تكون قائمة للآن فى بعض البلدان) ، ولكن كان عليهن أن يقمن الصلاة بمعزل عن الرجال، وخلفهم . ويرى المسلم ، كما لاحظ (سيل)، أن وجود المرأة لا يوحى بالتقى اللازم توفره فى مكان مخصص لعبادة الله . وقلما تقيم المصريات الصلاة فى المنزل أيضاً .

ويتولى كل مسجد من مساجد القاهرة « ناظر » يشرف على الأموال التى ينتجها ما يوقفه منشىء المسجد وغيره ، من أراض ومنازل وغيرهما ، على المسجد ، كما يعين المشايخ والخدم . وتستلزم إقامة الشعائر فى المساجد الكبيرة إمامين . فيقوم أحدهما ، وهو « الخطيب » ، بالقاء الخطبة وإمامة جماعة المصلين يوم الجمعة . ويقوم الآخر ، وهو إمام عادى، يسمى « إمام راتب »، بامامة الحاضرين للصلاة فى أوقاتها الخمسة يومياً . ويقوم بتينك الوظيفتين إمام واحد فى المساجد الصغيرة . ولكل مسجد أيضاً مؤذن واحد أو أكثر من مؤذن، وأكثر من بواب ، على حسب المآذن والمداخل . ويستخدم عدة خدم آخرين لكنس المسجد ، وفرش الحصر ، وإضاءة القناديل ، والاعتناء بالساقية التى تزود الخزان أو الحنفية، أو الأوعية الأخرى، بالماء اللازم للوضوء . وتُصرف رواتب الإمام والخدم جميعاً من أموال المسجد ، وليس مما يفرض على الشعب .

ويختلف وضع الأئمة ، فى أكثر الوجوه ، عن وضع القسس المسيحيين . فلا سلطان للسابقين على غيرهم من الأفراد ، ولا هم يتمتعون من الاحترام بأكثر ما يفرضه ما عُرف عنهم من تقى وعلم . وهم لا يؤلفون طبقة متميزة من الرجال ، مثل طبقة الكهنوت عندنا ، تتوفر على إقامة شعائر الدين، ولا ينظمون جمعية متماسكة لا تنفصم . إذ أن أمام المسجد قد يعزله ناظر ذلك المسجد ، فيفقد لقب الإمام ووظيفته وراتبه ، ولا يكون حظه فى إعادته إلى وظيفة دينية أوفر من حظ أى شخص آخر يكون أهلا لإقامة الشعائر . ويسعى الإمام ، لقلة راتبه ، وراء أسباب المعيشة خاصة بطرق أخرى غير خدمة المسجد . فالخطيب يتناول عامة قرشاً (أى بنسين وخمسىْ بنس) تقريباً فى الشهر . والإمام العادى ، ما يقرب من خمسة قروش . وبعض هؤلاء يشتغلون بالتجارة ، وأكثرهم بالعطارة ، والكثير منهم يقومون بالتدريس . أما هؤلاء الذين لا يحترفون مثل تلك الأشغال المنتظمة ، فهم يستأجرون لتلاوة القرآن فى المنازل الخاصة . وهم يختارون فى الغالب بين طلاب الأزهر الفقراء .

تفتح الجوامع أبوابها منذ الفجر إلى ما بعد العشاء بقليل ، أى بعد الغروب بساعتين . بينما تُغلق المساجد الأخرى فيما بين صلاة الصبح وصلاة الظهر . وتقفل أغلب المساجد أيضاً (فيما عدا أوقات الصلاة) عندما تمطر السماء ، خشية أن يدخل الحفاة ، فيتوحل البلاط والحصر . ولكن هؤلاء يدخلون المساجد دائماً من أقرب الأبواب إلى الميضاة (إذا كان هناك أكثر من باب) ، فيغتسلون قبل أن يتوجهوا إلى مكان الصلاة . وجرت العادة أن يُكتفى بفتح باب الميضاة وحده فى هذا الجو البغيض . ويظل الجامع الأزهر مفتوحاً طول الليل ، باستثناء مكان الصلاة الرئيسى المسمى « المقصورة » ، لانفصاله عن بقية المسجد . وكثيراً ما يشاهد الناس فى المساجد الكبيرة ، وقت العصر خاصة ، يجلسون فى استرخاء ، أو يتجاذبون أطراف الحديث ، أو يتناولون الطعام ، أو يستسلمون للنوم . وقد يشتغلون بالغزل أو الخياطة أو بحرفة أخرى من الحرف غير المعقدة . ولكن المسلمين ، رغماً من ذلك السلوك المغاير لتعاليم نبيهم ، يحترمون مساجدهم احتراماً فائقاً . ويوجد بالقاهرة عدة مساجد (مثل الأزهر والحسنين وغيرهما) كان لا يسمح لإفرنجى ، ولا لمسيحى آخر ، ولا ليهودى بالمرور بها ، منذ الغزو الفرنسى إلى عهد قريب .

وفى يوم الجمعة يصعد المؤذن إلى أعلى المئذنة ، قبل الظهر بنصف ساعة ، ليلقى « السلام » وهى تحية للنبى ، فى كلمات قد تختلف فى كل مرة ، ولكنها لا تخرج عموماً عن المضمون التالى : الصلاة والسلام عليك ، يا ذا الفضل ، يا رسول الله . الصلاة والسلام عليك ، الذى ألقى الله إليك كلمة الحق . الصلاة والسلام عليك ، أنت أفضل خلق الله وخاتم رسل الله . منى السلام عليك ، عليك وعلى آلك وأصحابك . — ويتوافد المصلون حينذاك على الجوامع .

ويراعى المسلمون فى صلاة الجماعة أقصى الاحترام والوقار . فلا ترى فى أبصارهم وفى سلوكهم حماسة دينية ، ولكن خشية وخشوع ، ولا يحدث أن يصدر منهم . أثناء الصلاة ، عن عمد ، كلمة أو حركة مخالفة للأصول إطلاقاً . والظاهر أن ما يعرضونه ، من كبرياء وتعصب ، فى حياتهم السائرة ، نحو إخوانهم ، أو من يخالفهم فى الدين ، يتلاشى عند دخولهم المسجد . فيبدون منهمكين فى عبادة خالقهم ، خاشعين ضعفاء ، فى غير تكلف أو تظاهر .

ويخلع المسلم نعليه عند باب المسجد ، ويحملهما بيسراه جاعلا أسفل كل منهما يقابل الآخر . ويخطو فوق العتبة إلى الداخل بيمناه . ويتوجه إلى

الميضاة مباشرة إذا لم يكن قد قام بفريضة الوضوء من قبل . ويضع ، قبل أن يأخذ فى الصلاة ، حذاءه ، كل فردة فوق الأخرى وأسفل كل منهما نحو الآخر (وسيفه ومسدساته إذا كان مسلحاً بها) على الحصير بالقرب من موضع الرأس عند السجود .

ويصطف جموع المصلين يوم الجمعة فى صفوف تواجه جدار القبلة وتوازيه . والكثير منهم لا يدخلون الجامع قبل آذان الظهر ، وقد يدخلونه قبل ذلك مباشرة . وعندما يصل المصلى إلى الجامع عند إلقاء « السلام » أو بعد ذلك بقليل ، ويأخذ مكانه فى أحد الصفوف ، يبادر باقامة ركعتين* ، ثم يظل جالساً على ركبتيه ، أو يجلس متعارض الساقين ، بينما يتلو أحد المقرئين ما تيسر من سورة الكهف . ويقوم المقرىء بالتلاوة من الذاكرة عادة ، وهو جالس على كرسى القراءة ، بعد انتهاء المؤذن من إلقاء « السلام » مباشرة . ويختم هذه التلاوة عندما يؤذن للظهر* . فيجعل المصلون حينذاك جلستهم على الركبتين والقدمين ، ثم يقفون عند انتهاء الأذان ، ويقوم كل منهم بتأدية ركعتى(١) « سنة الجمعة » ، ويختمانهما كالعادة بالسلام . ويقوم بعد ذلك أحد خدم المسجد ، « المرقى » ، بفتح مصراعى الباب القائم أسفل المنبر ، ويتناول من خلفه سيفاً خشبياً مستقيماً ، ويقف إلى اليمين قليلا ، وجانبه الأيمن نحو القبلة ، ويمسك السيف بيمينه واضعاً طرفه على الأرض . ويقول ، وهو فى هذا الوضع : « إن الله وملائكته يصلون على النبى . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً »(٢) . فينشد واحد أو أكثر من « المبلغين » ، فوق الدكة ، ما يلى ، أو ما يشبهه(٣) : اللهم ، صل وسلم وبارك على أنبل العرب والعجم ، إمام

---

* ليس المشروع ركعتين فقط ولكن يندب لمن ينتظر صلاة الجمعة أن يستمر فى الصلاة ما استطاع إلى أن يخرج الإمام من حجرته ليبدأ الخطبة بعد صعود المنبر . وهذه الصلاة هى سنة الجمعة .

* يؤذن لدخول وقت الجمعة . وهذا الأذان ما أضافه الخليفه الثالث عثمان بن عفان لما كثر المسلمون وتباعدت أطراف المدينة المنورة ، وكانت الإضافة تبينها لمن نأى منزله أو شغله عمله. أما أذان الجمعة فلا يكون إلا بعد صعود الإمام فوق المنبر وجلوس من ينتظرون الصلاة فى نظام وصمت للاستماع .

(١) إذا كان من المذهب الشافعى الذى ينتمى إليه أغلب أهل القاهرة . أما إذا كان من المذهب الحنفى فيؤدى أربع ركعات .

(٢) سورة الأحزاب . آية ٥٦ .

(٣) تختلف صيغة السلام على النبى فى صلاة الجمعة اختلافاً طفيفاً باختلاف الجوامع . وأذكر هنا أكثرها شيوعاً .

مكة والمدينة والكعبة ، الذى فضّله العنكبوت ، ونسج على الغار نسيجه ، والذى حيّاه الضب(١) ، وانفلق أمامه القمر* ، سيدنا محمد وآله وصحبه. — ثم يتلو « المرقّى » الأذان* (الذى ألقاه المؤذن من قبل) ، على فقرات عديدة ، يتوقف بعد كل منها ، فيرددها المبلّغون بعده ، فوق الدكة ، فى نغم رنان(٢) . ويتجه الخطيب ، أو الإمام ، إلى أسفل المنبر ، قبل انتهاء الأذان ، ويتناول السيف الخشبى من « المرقى » ، ويصعد المنبر ، ويجلس أعلاه . وفى هذا اليوم ، يزيّن منابر الجوامع علمان ، طرّز عليهما الشهادتان واسما الله ومحمد ، وثبتا بأعلى السلم مائلين إلى الأمام . وبعد أن ينتهى « المرقى » و « المبلغون » من تلاوة الأذان ، يردد الأول حديثاً للنبى قائلا : « إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت » . فاصمتوا ، تكافئوا . إن الله يجازيكم . — ثم يجلس . فيقف الخطيب ممسكاً بالسيف الخشبى(٣) ، على طريقة « المرقى » ، ويلقى « خطبة الوعظ » . وقد يهم القارىء أن يتبين إحدى المواعظ الإسلامية ، فأقدم هنا إحداها ، وهى خطبة تلقى فى يوم الجمعة* الأول من العام الهجرى(٤) ، والمعتاد أن تلقى فى أسلوب مسجوع: الحمد لله ، مجدد السنين ، ومضعّف المنن ، وخالق الشهور والأيام ، فى أتم حكمة وأبدع نظام . الذى فضّل شهور العرب على جميع الشهور الأخر ، وأثبت بين أفضلها المحرم المقدس ، وبدأ به العام ، كما ختمه بذى الحجة .

---

(١) جنس Lacerta Lybica .

* أفرط المنشدون والمادحون للرسول (ص) فى ذكر بعض الأعمال الخارقة للعادة وإضافتها إلى الرسول (ص) ظناً منهم أن ذلك مما يضفى عليه شرفاً أو يزيده رفعة، وما أغناه صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن وشرف الرسالة عن هذه المخاطبة الصارخة للحواس وفيهما من سمو الهدف وحكمة التشريع ما يجعله فى مقدمة الدعاة إلى الله عز وجل .

* هذا هو أذان الجمعة الذى لم يعرف المسلمون فى عهد الرسول (ص) سواه .

(٢) ويقوم بالتبليغ ، فى الجامع الأزهر ، عدة مبلغين متفرقين فى أنحائه ليسمع الأذان جميع أفراد المصلين .

(٣) إحياءً لذكرى غزو مصر . ولا يستخدم الخطيب هذا السيف إطلاقاً إلا فى البلاد أو المدن التى استولى المسلمون عليها عنوة .

* شرعت خطبة الجمعة لتكون درساً جماعياً يتلقاه المسلمون عامة كل أسبوع ، والذى دلت عليه السنن أن موضوع الخطبة مشكلة من مشكلات المجتمع، أو ناحية من نواحى السلوك ، تتغير بتغير أحوال الناس من أسبوع إلى آخر . هكذا كانت خطبه (ص) . أما ما ضمنه الدواوين من خطب موقوتة بأسابيع العام فهى مظهر لتهاون الناس وجهلهم بقواعد السنن وحكم التشريع ولا بد من البساطة فى العبارة ووضوح الفكرة إلى حد يدركه العام ولا يمله الخاص .

(٤) ذهبت إلى الجامع الأزهر ، فى أولى زياراتى لمصر ، لمشاهدة صلاة الجمعة يؤديها أكبر مجموعة من المصلين فى القاهرة . وقد أعجبت بالقاء خطيب الجامع ، جاد المولى ، وحصلت منه فيما بعد على ديوان « الخطب » الذى يضم خطب الجمعة على مدار السنة ، وفى العيدين أيضاً . وقد ترجمت الخطبة الأولى .

أوفق البداية بالخير ، وما أطيب النهاية بالجود(١) . سبحانه منزهاً من الإشراك به . أبدع ما شكّل ، ووطد ما رسم ، وهو وحده القادر على أن يخلق وأن يفنى . أحمده ، سبحانه ، وتبارك إسمه لما وهب من المعرفة والإرشاد . وأشهد أن لاإله إلا الله وحده ، لا شريك له . هو الملك القدوس ، السلام . وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد عبده ورسوله ومصطفاه وحبيبه ، هادى السبيل ومصباح الظلام . اللهم ، صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم ، والسيد والرسول الجليل ، الرحيم القلب ، سيدنا محمد ، وآله ، وصحبه ، وزوجاته ، وذريته ، وأهل بيته ، الأشراف ، وامنحهم أوفر سلام . — يا عباد الله ، إن حياتكم تقصر تدريجاً ، وقد مرّ العام تلو العام ، وأنتم نيام فى سرير التراخى وعلى وسادة البغى . أنتم تمرون بمقابر أسلافكم ، ولا تخشون وقوع القدر والهلاك ، كأن الآخرين قد تركوا الدنيا ، وأنتم يجب حتماً أن تبقوا بها . إنكم تبتهجون لقدوم السنوات الجديدة كأنها تمد فى آجالكم ، وتسبحون فى بحور الشهوات ، وتوسعون آمالكم ، وتتجاوزون الغير بكل وسيلة وأنتم متباطئون فى عمل الخير . ما أكبرها مصيبة . إن الله يعلّم بضرب الأمثال . ألا تعلمون أن فى اختصار الوقت بالتراخى والنوم بلاء عظيماً ؟ ألا تعلمون أن فى تقصير الأعمار بمرور السنين إنذاراً عظيماً ؟ ألا تعلمون أن الليل والنهار يقصمان حياة العديد من الأنفس ؟ ألا تعلمون أن العافية والمقدرة نعمتان يشتهيهما الكثير من الرجال ؟ ولكن الحقيقة تجلت لمن له عينان . أنتم الآن بين عامين . عام زال وانتهى بشروره ، وأنتم قد دخلتم فى عام آخر سيكشف فيه الغم عن البشر إن شاء الله . أفيكم من يعقد العزم على الكد فى العام المقبل ؟ أو يتوب عن خطاياه فى الأوقات التى انقضت ؟ إن السعيد من يعوض الوقت الماضى فى الوقت القادم . والشقى من تنقضى أيامه فلا يبالى بوقته . لقد جاء هذا العام الجديد وأتى إليكم ببركاته شهر الله المحرم ، أول شهور السنة ، والشهور الحرم الأربعة ، وأجدرها بالتفضيل والإجلال والاحترام . إن الصيام به أفضل صيام بعد صيام رمضان ، وإن عمل الخير فيه من أفضل ما يرام . ومن شاء أن يجنى حسنة منه ، فليصم فى يوميه التاسع والعاشر ، مترقباً العون(٢). ولا تمسكوا

---

(١) يبدأ العام وينتهى بشهر حرام . والشهور الحرم أربعة: الأول والسابع والحادى عشر والثانى عشر . وكان يحرم شن الحرب خلالها ، ولكن ذلك حل فيما بعد . ويتميز الشهر الأول كذلك بوقوع يوم « عاشورا » به . (أنظر ما يتعلق بذلك اليوم فى الفصل الرابع والعشرين) . ويتميز الشهر الأخير بالحج .

(٢) أنظر بيان العادات التى تراعى فى « يوم عاشورا » فى الفصل الرابع والعشرين .

عن هـذا الصيام لكسل ، ولاعتباره مشقة ، ولكن استجيبوا له بأحسن طريقة ، وكرّموه أحسن تكريم ، وأصلحوا وقتكم بعبادة الله نهاراً وليلا . اتجهوا إلى الله بالتوبة قبـل أن يداهمكم الموت . إن الله تواب غفـور . — وفى الحديث(١) : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة الصلاة فى جوف الليل . وأفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله المحرم » .

ويقول الخطيب للمصلين بعـد أن ينتهى من موعظته : ابتهلوا إلى الله . ثم يجلس ليصلى* منفرداً ، فيعمد المصلون فى ذلك الوقت إلى التضرع إلى الله فى أمورهم الخاصـة على النحو السائر فى الصلاة العادية بأن يضع كل منهم يديه أمامه (وهو يشخص إلى راحتيه) ثم يمسح بهما وجهه . وبعد ذلك ، يقول « المبلّغ » : آمين ! آمين ! يارب العالمين . — فيقوم الخطيب مرة أخرى ليلقى « خطبة النعت »(٢) :

الحمد لله حمداً وفيراً ، كما أمر تعـالى . أشهد أن لا إله إلا الله وحـده . لا شريك له . مُقراً بسيادته ، ومستهجناً لمَن كذّب وكفر . وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، سيد البريّة ، الشفيع ، الشفيع المصـدّق فى يوم الحشر . صلى الله عليه وعلى آله ما دامت العين تنظر والأذن تسمع . ياأيها الناس عظموا الله بالقيام بما أمر ، وامسكوا عما حظّر وحرّم . السعيد من أطاع ، والشقى من عارض وأثم . اعلموا أن الدنيا مقام عابر ، وأن الآخرة مقام دائم . فتزودوا فى موضعكم العابر لموضعكم الدائم ، وتهيئوا لحسـابكم والوقوف أمام ربكم . فاعلموا أن غـداً ستوضعون أمام الله ، وتحاسبون حسب أفعـالـكم . وأمام رب العزة ستحضرون ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب سينقلبون »(٣) . واعلموا أن الله سبحانه وتعالى قال : ولم يزل قائلا حكيماً ، تشريفاً لقدر نبيه وتعظيماً ، وإرشاداً لعباده وتعليماً — : « إن الله وملائكته يصلون على النبى .

---

(١) يختم الخطيب خطبته دائماً بحديث أو بحديثين من احاديث النبى .

* جلوس الخطيب بين الخطبتين ليس صـلاة ، ولكنها جلسـة للراحة بين موضوعين يتناولها الخطيب فى مقاله أو فاصل بين زاويتين من زوايا الفكر فى موضوع متشعب .

(٢) وهذه تكون دائماً بعينها ، أو تكاد تكون كذلك .

(٣) الآية الأخيرة من سورة الشعراء .

يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً(١)». اللهم ، صلّ على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم فى العالمين . إنك حميد مجيد . اللهم ارض أيضاً على الخلفاء الأربعة ، الأرباب الراشدين ، ذوى المنزلة الرفيعة والشرف المجيد ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وارض اللهم على الستة الباقين من الأشراف العدول العشرة الذين أصدقوا الولاء لنبيك محمد (صلى الله عليه وسلم) تحت الشجرة (فأنت رب التقوى ورب المغفرة) ، هؤلاء ذوو الفضيلة والرحمة ، وسداد الرأى والفلاح ، طلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن ابن عوف وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وعلى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أجمعين . وارض ، اللهم ، على السبطين الشهيدين ، القمرين الساطعين ، « سيدَى شباب أهل الجنة فى الجنة » ، زهرتَىْ بنى تلك الأمة العطرتين ، أبى محمد الحسن وأبى عبد الله الحسين . وارض ، اللهم ، على والدتهما ، ابنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فاطمة الزهراء ، وعلى جدتهما خديجة الكبرى ، وعلى عائشة ، أم المؤمنين ، وعلى سائر الزوجات المحصنات ، وعلى خلف الصحابة ، وخلف خلفهم ، بالإحسان إلى يوم الدين . اللهم ، اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وللمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، فإنك سميع مجيب ، يا رب العالمين . اللهم ، انصر الإسلام ، وقوّ أركانه ، وزلزل الكفر ، ودمّر قواه ، واحفظ عبدك ، وابن عبدك ، الخاضع لقدرة جلالتك ومجدك ، المستعين بالله ، برعاية الملك المحبوب ، سيدنا السلطان ، ابن السلطان ، السلطان محمود(٢) خان ، نصره الله ، وأدام . اللهم ، انصره ، وانصر جيوشه ، أنت يارب الدين والدنيا والآخرة . يارب العالمين . اللهم ، انصر قوى المسلمين ، وجيوش الموحدين . اللهم ، اهزم الكافرين والمشركين ، أعداءك ، أعداء الدين . اللهم ، نكّس أعلامهم ، ودمّر مساكنهم* ،

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٥٦ .

(٢) وهو السلطان الحاكم وقت كتابة هذه الخطبة . ويقام الدعاء للسلطان التركى باعتباره الخليفة . وكانت العادة سابقاً أن يرد ذكر الخلفاء العباسيين والفاطميين بتلك الطريقة فى صلاة الجمعة .

* الدعاء على الكفار بالهلاك مخالف لروح الإسلام ، مناف لما يجب على المسلمين من العمل على نشره بين الناس بالحكمة والموعظة الحسنة . .

وقد رفض الرسول (ص) أن يمس المشركون بالدمار حينما أساءت ثقيف لقاءه وآذاهم صبيانهم ، فقال له الملك : « إن الله قد أمرنى أن أطيعك فى قومك » يعنى طلبه الهلاك لمن آذوه منهم .

واجعلهم وأملاكهم أسلاباً للمسلمين(١) . اللهم فك أسر المأسورين وامح دين المدينين ، واجعل هذه المدينة آمنة مطمئنة ، وأنعم عليها باليسر والوفر ، وجميع مدن المسلمين ، يا رب العالمين . واقض بالأمان والعافية لنا ولجميع المسافرين ، والحجاج ، والمحاربين ، والمتجولين فى أرضك وبحرك ، ما داموا مسلمين ، يا رب العالمين . « ربنا فقد ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (٢) » . واسأل الله العظيم أن يغفر لى ولكم ، ولشعب محمد ، عباد الله ، أجمعين. « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون (٣) » . أذكروا الله يذكركم . واحمدوه يزيدكم . الحمد لله رب العالمين .

وتتضمن خطبة الجمعة كذلك الدعاء بإيفاء فيضان النيل ،أثناء ارتفاعه . وبعد أن ينتهى الخطيب ، أو الإمام،من إلقاء خطبته، ينزل من المنبر ، فينشد المبلغان « الإقامة » التى سبق وصفها . ويقف الإمام تجاه القبلة ، ويقيم صلاة « فرض » الجمعة ، فى ركعتين ، كسائر الصلاة . ويؤدى جمهور المصلين تلك الصلاة ، فى صمت ، على نسق الإمام تماماً ، فى أوضاعها المختلفة . ويغادر المصلون من المذهب المالكى ، والكثير من المذاهب الأخرى، المسجد بعد ذلك . ولكن بعض اتباع المذهبين الشافعى والحنفى (ويندر وجود أى حنبلى فى القاهرة) يظلون به لإقامة صلاة الظهر العادية، فى جماعات صغيرة منفصلة ، يؤم كلا منها أحد أفرادها . وكثيراً مايتصدق الموسرون ، عند خروجهم من المسجد ، على الفقراء القائمين خارج الباب .

وهناك صلوات أخرى تقام فى مناسبات خاصة — فى العيدين ، وفى ليالى رمضان، وعند كسوف الشمس أو خسوف القمر ، وللاستسقاء ، وقبل الشروع فى الحرب ، وفى الحج ، وفى الجنائز .

= فقال برقة الإنسان ورحمة النبى «اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون» . فقال أيضاً « إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده » مبرراً بذلك رفضه لما عرض عليه من إفنائهم .

فما يفعله المسلمون الآن فى الدعاء على الأعداء بالهلاك غفلة عن تلك الحكمة ومجانبة لذلك الأدب . والأفضل أن ندعو لهم بالهداية والإسلام بكثرة الجند لاتباع هؤلاء لنداء الحق والدخول فى حوزته .

(١) لم تكن تلك العبارة التى تبدأ : (اللهم اهزم) مدرجة فى نسخة الدعاء التى حصلت عليها من أحد الأئمة . وقد أخبرنى إمام آخر ، أملى علىّ ما قمت بترجمته هنا، أن هذه العبارة وغيرها من العبارات كثيراً ما تغفل .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٣ .

(٣) سورة النحل آية ٩٠ .

وقد أسهبت فى الكلام على عبـادة المسـلمين لأن مواطنى يعوزهم فى هذا الموضوع البيان الوافر الصحيح. ومنهم كثيرون يتوهمون أيضاً أن المسلمين تعودوا أن يعبدوا نبيهم كما يعبدون الله. والواقع أن المسلمون كثيراً ما يتوجهون بالدعاء للرسول ، خاصة عند قبره ، سائلين شفاعته . ويلتمس المسلمون أيضاً شفاعة أوليائهم العديدين(١) .

وتلى فريضة الزكاة الصلاة فى الأهمية. ويطلق لفظ « الزكاة » على ما تفرضه الشريعة. ويسمى ما لا يُفرض «صدقة» (رغم أن هذين اللفظين يترادفان فى اللغة). وكانت الزكاة ، فى عصور الإسلام الأولى ، يلتزم بجبايتها قائمون على الشؤون الدينية كاقامة المساجد وغير ذلك ، ويتولى الحاكم تعيينهم. أما الآن فان أمر الزكاة يترك لضمير المسلم ، فيقوم بتأديتها بالطريقة التى يراها مناسبة ، ويمنحها للمعوز الذى يختاره. والزكاة تقدم مرة واحدة فى السنة ، من البقر والغنم * ، واحد من كل أربعين واثنين من كل مائة وعشرين عامة . ومن الإبل ، لكل خمسة منها نعجة ، أو ناقة حامل لكل خمسة وعشرين منها . وقد يعطى ما يماثل ذلك نقوداً ، وفى المذهب الحنفى ، بضـاعة . ويدفع سنوياً ربع العشر ، أو ما يوازى هذا القدر ، من يملك نقداً إلى مائتين درهم فضة ، أو عشرين مثقال ذهب ، أو ، فى المذهب الحنفى ، ما يوازى ما سبق من الحلى والأوعية الفضية أو الذهبية وغيرها .

ويلى ذلك فريضة الصوم . فيفرض على المسلم الصيام يومياً طول شهر رمضان (٢) ، من أول الفجر ، منذ الساعة الذى يتبين فيها المرء الخط الأبيض من الخط الأسود(٣) ، أى الشعاع الأبيض والشعاع الأسود عندما يبدوان فى الأفق الشرقى عنـد أول ظهور الفجر (ويكون ذلك فى مصر سـاعتين قبل الشروق تقريباً) ، ابتـداء من ذلك إلى الغـروب . فيمسك عن الأكل والشرب والتدخين وشم العطور ، وكل ما يعد ترفاً غير لازم أو متعة دنيوية ، ويمتنع أيضاً عن ازدراد لعابه قصداً* . وعندما يقع رمضان فى

---

(١) إن عادة التماس الشفاعة من الأوليـاء والقـديسين شائعة عند المسلمين والمسيحيين على السواء . (المترجم)

* نصاب البقر مغاير لنصاب الزكاة فى الغنم يخرج عنها تبيعا إذا بلغت ثلاثين . أما الغنم فلا شيء فيما يقل عن الأربعين منها .

(٢) لأن الرسول تلقى الوحى الأول فى ذلك الشهر .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٧ .

* ازدراد اللعاب من الأمور المباحة باتفاق وقلما يرد لها ذكر فى كتب الفقه نظراً لعدم قيام شبهة فى إباحة ذلك للصائم .

الصيف(١) يصبح الصيام شديد القسوة ، ويزداد الإحساس بألم العطش . ولا يفرض الصيام في رمضان على المريض ، أو من يكون على سفر ، أو على الجندي المحارب ، ولكن على هؤلاء أن يعيدوا الصيام في المستقبل بقدر ما تركوا في شهر رمضان . ويعفى من الصيام أيضاً الظئر* والحبلى . وقد استهجن النبي أن يقوم بصيام رمضان من لا يكون قادراً على ذلك تماماً ، ويكره أن يبالغ المرء في صومه فيضر بصحته أو يعجزه عن ممارسة أعماله الضرورية. ويبدو أن المسلمين المعاصرين يعتبرون صوم رمضان أكثر الفروض الدينية أهمية ، لأن الكثير منهم يقومون بالصيام بينما يهملون تأدية فريضة الصلاة، بل ويعمد هؤلاء الذين يفطرون ، ما عدا القلة منهم ، إلى التظاهر بالصيام . ويفطر كثير من المسلمين في الطبقات الموسرة سراً في رمضان ، ولكن أغلبهم يتمسك بالصوم، الذي يكون مهلكاً لضعاف الصحة . وهناك بعض أيام أخرى يكون الصيام بها موضع تقدير وإن لم يكن لازماً تماماً . وقد حرم النبي صراحة الصيام في العيدين (٢) .

بقيت الإشارة إلى الحج ، آخر الفرائض الأربع الجديرة بالاعتبار . يتحتم على كل مسلم القيام بالحج إلى مكة وجبل عرفات ، مرة واحدة في حياته ، ما لم يمنعه الفقر أو المرض من ذلك . وقد ينيب المسلم من المذهب الحنفي من يقوم مقامه في الحج ، ويدفع له نفقاته (٣) . ولكن الكثيرين يهملون فريضة الحج بلا عذر مشروع ، ولا يلقون لوماً على ذلك . ولا يعد المسلم حاجاً(٤) لمجرد زيارته مكة ، وقيامه بمراسم الطواف حول الكعبة سبع مرات وتقبيل الحجر

---

(١) ولما كانت السنة قمرية، فإن كل شهر يتراجع خلال الفصول جميعها في سياق ثلاثة ، ثلاثين عام ونصف عام تقريباً .

* إن الظئر لا يباح لها الإفطار لأنها ترضع ولداً لغيرها بأجر : والرخصة للأم المرضع لا لسواها .

(٢) أجمع العلماء على تحريم صوم يومي العيد سواء أكان الصوم فرضاً أم تطوعاً ، لقول عمر رضي الله عنه : « إن رسول الله (ص) نهى عن صيام هذين اليومين ، أما يوم الفطر ففطركم من صومكم ، وأما يوم الأضحى فكلوا من نسككم » . رواه أحمد والأربعة . فقه السنة للسيد سابق . ج ٣ ص ٢٢٠ . (المترجم)

(٣) والمالكي يفرض عليه الحج ما دام قادراً على تحمل السفر راجلا ، وعلى كسب معاشه في الطريق .

(٤) فيما يتعلق بنطق هذا اللفظ ، أنظر هامش الفقرة الثانية من الفصل الخامس .

الأسود فى كل دورة ، وغير ذلك من الطقوس فى المدينة المقدسة ، إنما غاية القصد فى الحج هو جبل عرفات ، الذى يقع على مسيرة ست ساعات من مكة. ويرتدى المسلم ثياب الإحرام (حِرام عند العامة) طوال تأديته الشعائر اللازمة فى مكة ، وكذلك فى الرحلة إلى عرفات ، وإلى أن يتم الحج ، ويتكون هذا الرداء الخاص عامة من قطعتين بسيطتين من القطن أو الكتان أو الصوف ، ولا يخاطان أو يزخرفان . ويلف المسلم إحداها حول خاصرته ، ويغطى كتفيه* بالأخرى. ويجب أن يسير عارى الرأس ، كما يجب ألا يغطى مداسه مشط القدم وعقبه . ويستخدم الكثير من الحجاج المظلة فى الوقت الحاضر ، ويتحتم على الحاج أن يكون حاضراً أثناء إلقاء الخطبة* على جبل عرفات عصر التاسع من شهر ذى الحجة وفى مساء اليوم التالى ، يأخذ الحجاج فى العودة إلى مكة ، بعد الغروب* . وهم يتمون مراسم الحج عندما يقفون فى اليوم التالى بوادى منا (أو مُنى كما ينطق عادة) ، فيضحون (بواحد أو أكثر من الخراف أو الماعز أو البقر أو النوق ، ويأكلون بعضه ، ويتصدقون بالبعض الآخر) ، ويحلقون الرأس ويقلمون الأظافر . ويعود كل منهم بعد ذلك إلى ملابسه المألوفة ، أو يرتدى ملبساً جديداً ، إذا توفر له ذلك . وتسمى التضحية « الفدا » لأنها تؤدى إحياء لذكرى افتداء اسماعيل بالكبش عندما كان أبوه يوشك أن يضحى به ، والرأى السائد عند المسلمين أن ابنه هذا ، وليس إسحق ، هو الذى كان موضع التضحية .

وهناك طقوس أخرى ترتبط كثيراً أو قليلا بما سبق بيانه .

يحتفل المسلمون بالعيد الصُغَير (١) والعيد الكبير(٢)، وقد سبق أن ذكرت

---

* رداء الحج يمر من تحت إبطه الأيمن صاعداً على كتفه الأيسر ، فذراعه اليمنى وكفه الأيمن مكشوفان .

* الركن فى الحج هو الوقوف بعرفة يوم التاسع من ذى الحجة وقتاً ما من ليل أو نهار والاحتياط أن يكون بعد الزوال من ذلك اليوم . ولا يشترط للحج سماع الخطبة .

* الإفاضة من عرفات فى نهاية التاسع من ذى الحجة للتوجه إلى منى مروراً بالمزدلفة . والإقامة من صبح يوم النحر وهو العاشر بمنى لرمى الجمار أربعة أيام أو يومين بعد ذلك ، إذا أراد أن يؤجل الطواف الواجب إلى ما بعد الجمار ، وله أن يعجل الطواف فى اليوم الأول من أيام النحر تخفيفاً عن نفسه من قيود الإحرام على أن يعود من مكة بعده حلالا إلى منى لإتمام رمى الجمار فى بقية أيام النحر .

(١) على الأصح ، صغير . وقد أطلق الكثير من الرحالة هذه العبارة خطأ على العيد الكبير.

(٢) ويسميان أيضاً على التوالى : عيد الفطر وعيد الأضحى . وقد يدعو إغفال المؤلف لهاتين العبارتين إلى اعتبار أنهما لم تكونا شائعتين وقتذاك . (المترجم)

مناسباتهما ، باقامة الصلاة فى الجوامع وبالابتهاج الشامل . ويحتفل بالعيد الأول ثلاثة أيام ، وبالثانى ثلاثة أيام أو أربعة(١) . ويرد وصف الاحتفال بهما فى فصل لاحق . ويجب على المسلم ، فى أول أيام العيد الكبير (وهو اليوم الذى يقوم فيه الحجاج بالتضحية) أن يقوم بذبح ضحية ، إذا استطاع ذلك . ويقوم الموسر بذبح عدة خراف ، أو خروف واحد أو خروفين ، وجاموسة ، ويوزع أكثر لحمها على الفقراء . وقد ينيب المضحّى غيره فى القيام بذبح الذبيحة .

ويفرض الجهاد على المسلمين ، كواجب مقدس ، ضد أعداء الإسلام الذين كانوا أول المعتدين عليه . وينال من يلقى حتفه ، وهو يقوم بهذا الواجب ، جزاء الشهيد . وقد قيل ، كما قال بعض العلماء أيضاً ، إنه فرض على المسلمين قتل من يرفض من المشركين اعتناق الإسلام ، ما عدا النساء والأطفال ، فيخضعون للرق (٢) . غير أن القواعد التى يقوم عليها هذا الفرض تخص الوثنيين العرب الذين نكثوا العهد وواصلوا عداءهم لمحمد وأتباعه . ويقرر العلماء أصحاب الرأى المعتدل أن الأحكام التى تطبق على الوثنيين الآخرين ، وكذلك المسيحيين واليهود ، الذين جلبوا على أنفسهم عداء المسلمين ، تختلف عن السابقة . ومثل هؤلاء الأعداء الذين يقهرون بقوة السلاح ، يُقتل الرجال منهم أو يستعبدون ، عند رفضهم التفاوض أو الاستسلام . أما نساؤهم وأطفالهم ، فقد يستعبدون . ولكن الحياة والحرية تمنحان لمن يكف عن المقاومة من هؤلاء الأعداء بالاستسلام أو بغيره ، بشرط أن يعتنقوا الإسلام أو يدفعوا الجزية ، ما لم يتسم تصرفهم نحو المسلمين بالغدر ، كما فعلت قبيلة قريظة اليهودية ، التى تحالفت مع محمد ثم انتقلت إلى صفوف أعدائه وقاومته فقُتل رجالها رغم استسلامهم ، واستعبد نساؤها وأطفالها ، لهذا السلوك . — ويمكن أن نضيف هنا أن المسلمين يحرم عليهم مصادقة الكفار .

---

(١) المعروف أن الاحتفال بالعيد الكبير يدوم أربعة أيام . (المترجم)

(٢) وقد خدعنى رأى هؤلاء العلماء ، والرأى السائد فى أوربا ، فصورت شرائع الجهاد صورة تبدو أكثر صرامة مما يقدمه نص القرآن وروحه ، عندما عنيت بمراجعتهما ، ومما تقدمه قواعد المذهب الحنفى . وإنى لمدين للسيد أركهارت Urquhart بما أوحى إلى بوجوب مراجعة بيانى السابق فى هذا الموضوع . ولذلك يتحتم على أن أعبر عن اعتقادى أن القرآن لا يتضمن قاعدة تبرر شن حرب لم يستوجبها ما يثيرها .

ويفرض القرآن شرائع محرّمة يجب ذكرها هنا على اعتبار أنها تؤثر في وضع المسلمين الأخلاقى والاجتماعى .

يحرم النبيذ ، وكل مشروب مسكر ، لأن إثمه أكبر من نفعه(١) . ومع ذلك يشرب الكثير من المسلمين ، فى الوقت الحاضر ، النبيذ والبراندى وغيرهما سراً . ولا يتردد بعضهم فى استباحة شرب الخمر علناً لاعتقادهم أن لا إثم فى تناولها* باعتدال ، ولكن المصريين قلما ينتهكون هذه الحرمة بتلك الطريقة الفاضحة . ويعتاد ملاحو النيل ، وغيرهم من الطبقة السفلى ، شرب « البوظة » ، وهى مشروب مسكر يصنع من فتات خبز الشعير يهصر فى الماء ويترك حتى يختمر(٢) . ويعد الأفيون ، والمخدرات الأخرى التى تحدث أثراً مماثلا ، محرماً شرعاً ، ولو لم يرد ذكره فى القرآن . ويعتبر من يتعاطى هذه المخدرات فاسق الخلق . وقلما يوجد فى مصر مثل هؤلاء المدمنين . ويرى بعض المسلمين أن تدخين التبغ ، وشرب القهوة أيضاً ، محرم شرعاً .

ويحرم لحم الخنزير تحريماً تاماً . ويُحدث أكله فى المناطق الحارة آثاراً ضارة تستدعى تحريمه ، علاوة على أن الخنزير يثير اشمئزاز المسلمين بسبب عاداته القذرة على الأخص(٣) . والملاحظ أن أكثر الحيوانات التى تحرم الشريعة الموسوية أكلها تحرم بالمثل على المسلمين ، ما عدا الجمل . وقد حرم على المسلم : « الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢١٩ . وكان لفظ « نبيذ » (ويطلق الآن على مشروب محرم) اسم سابق لنوع من المشروبات غير المحرمة. ويتكون هـذا المشروب عادة من منقوع الزبيب أو البلح الجاف . وكان المسلمـون يتركونه يتخمر قليلا . وكان النبى نفسه يتعود شربه منقوعاً ، ولكن ليس لأكثر من يومين . ويسمى نبيذ العنب اليوم زبيباً .

* الخمر محرمة بنص القـرآن الكريم فمن اعتقد حلهـا فقد كفر لإنكاره ما علم من الدين بالضرورة .

وربما كان مصدر الشبهة (لمن يظن أن بعض المسـلمين لا يعتقد حرمة الخمر) هو قول بعض الأحنـاف بحل شرب النبيذ ، ولا عذر لمن يقع فى هـذا الوهم لأنهم يقصدون بالنبيذ شيئاً غير ما يعرفه أهل زماننا من كلمة (النبيت) فهؤلاء القائلون بحل النبيذ يقصدون ما يلقى فى الماء من الفـواكه الجافة بعض الوقت حتى يترك فى المـاء شيئاً من حلاوة الطعم أو اللون والرائحة دون تخمر ولا مساس بحضور الذهن .

(٢) كان قدماء المصريين يستعملون مشروباً مماثلا يجهز بتلك الطريقة من الشعير(هيرودوتس، الكتاب الثانى ، الفصـل ٧٧) ويصنع المصريون المحدثون البوظة أيضـاً من القمح والذرة بالطريقة نفسها ، ولكن ذلك غير شائع كثيراً .

(٣) وكان قـدماء المصريين عامة يعتبرون الخنزير نجساً (هيرودوتس ، الكتـاب الثانى ، الفصل ٤٧) . (المؤلف)

والنطيحة ، وما أكل السبع إلا ما ذكـيّتم، وما ذبح على النصب »(١) . ويجب أن يتم ذبح الحيوان المعد لطعام الإنسان بطريقة خاصة ، فيلزم من يقوم بالذبح أن يبدأ ذلك بقوله : « باسم الله . الله أكبر » ، ثم يذبح الذبيحة فى الموضع التالى لرأسها ، قاصداً فصل القصبة الهوائية والمرىء والوداجين. ويكون نحر الجمال بطعنها تحت الصدر. ويحرم عند الذبح النطق بعبارة : « بسم الله الرحمن الرحيم » * ، التى تستخدم فى مناسبات أخرى كثيرة ، لأن ذكر أكثر صفات الله تعلقاً بالشفقة فى مثل تلك المناسبة قد يبدو تهكماً بالآلام التى تحل بالحيوان . ويقول بعض المصريين ، والنساء غالباً ، عندما يُقدمون على ذبح الحيوان للأكل : « باسم الله . الله أكبر . الله يصبرك على ما بَلاك » . ولو أن الشعور الذى يوجب هذا الدعاء أساساً يصدر عن صدق عميق، لاعتبر سمة جميلة فى أخلاق الشعب الذى يستخدمه . ويحل للمسلم ، للضرورة عند التعرض للموت جوعاً ، أن يتناول طعاماً يحرم عليه فى الأوقات العادية . ولا ريب أن طريقة الذبح المشار إليها سابقاً يلزم استخدامها للحيوان المستأنس فقط . وأغلب أنواع السمك يعد طعاماً مشروعاً(٢) . وكذلك الكثير من الطيور ، ويذبح الداجن

= يقول هيرودوتس : يعتبر المصريون الخنزير حيواناً نجساً ، فاذا مس أحدهم وهو سائر ذهب ليغطس فى النهر بملابسه . أما رعاة الخنازير ، رغماً من أنهم مصريون ، فهم وحدهم الذين لا يدخلون معبداً من معابد مصر . ولا يقبل أحد أن يزوج ابنته لهم ، ولا يتزوج من بناتهم ، وهم يتزوجون فيما بينهم » .

وقد رجعت ، عند ذكر أقوال هيرودوتس ، إلى Ph. - E. Legrand الذى أثبت النص وترجمه إلى الفرنسية ونشره إبتداء من عام ١٩٣٢ بباريس . . (المترجم)

(١) سورة المائدة ، آية ٣ .

* البسملة عند الذبح ليست محظورة ، ولكنها كغيرها من ألفاظ الذكر وعباراته . ولا منافاة بين الرحمة والذبح إذ حقيقة شعور المذبوح شىء مجهول لدى الإنسان ، وما نخشاه منه هو كونه وسيلة إلى الموت .

كل ما فى الأمر هو أنه لا بد من مراعاة آداب الشرع فى الذبح وأسبابه ووسيلته وكيفيته .

(٢) لا يبدو الشرع الإسلامى ، فى بعض الوجوه ، فى صرامة الشرع الموسوى القائم على المقتضيات الصحية . أنظر اللاويين ١١/٩ - ١٢ : وهذا تأكلونه من جميع ما فى المياه . كل ما له زعانف وحرشف فى البحار والأنهار من كل دبيب فى المياه ومن كل نفس حية فهو مكروه لكم . ومكروه يكون لكم . من لحمه لا تأكلون وجثته تكرهون . كل ما ليس له زعانف وحرشف فى المياه فهو مكروه لكم - وفى مصر ، يعتبر السمك المجرد من الحراشف ضاراً . ومن قوانين (الحاكم) الحصيفة القليلة ذلك الذى حرم بيع هذا النوع من السمك أو صيده . أنظر دساسى ، مختارات من المؤلفين العرب ، طبعة ثانية ، جزء أول، ص ٩٨.
De Sacy , Chrestomathie Arabe

منها على طريقة ذبح الماشية . أما المتوحش فيصاد . ويعد الأرانب البرّية والأليفة ، والغزال ، الخ . من الأطعمة المشروعة ، وقد تصاد بقذيفة (كما قد يحدث مع الطيور) ، أو بوساطة الكلاب . ويشترط النطق باسم الله ، وقت إطلاق السهم وغيره ، أو عند إطلاق الكلب ، على ألا يأكل الكلب شيئاً من الفريسة ويعتبر هذا الحيوان مع ذلك نجساً . ويحرص الشافعيون على ألا يدنسهم أنف الكلب الخضل ، وعليهم أن يغسلوا بالماء سبع مرات ، وإحداهن بالتراب ، ذلك الجزء من ثيابهم إذا لمسه أنفه . ويكتفي البعض الآخر بالحرص على ألا يلعقهم ذلك الحيوان ، أو ينجسهم ، بطريقة أسوأ ، في شخصهم أو ملبسهم . ويجب المبادرة إلى ذبح الفريسة إذا أسقطتها القذيفة في غير مقتل ، حتى لا تكون طعاماً محرماً .

ويحرم الميسر والربا(١) ، وألعاب الحظ جميعها ، وكذلك تصوير الكائن الحي(٢) أو رسمه . وقال النبي إن الصورة من هذا القبيل ستوضع أمام صانعها يوم الحساب ، فيؤمر باحيائها ، الأمر الذي يعجز عن تنفيذه فيلقى إلى النار برهة(٣) .

بقي عرض الشرائع المدنية والجنائية ، وهي في الأصل يرجع بعضها إلى شمائل عرب الجاهلية ، وأكثرها إلى التوراة والعرف اليهودي .

وتُستمد تلك الشرائع في المقام الأول ومباشرة من القرآن(٤) . ولكن هذا المصدر السامي لا يتضمن قاعدة لكثير من الأمور الجديرة بالاعتبار .

---

(١) يحرم دفع فائدة ، مهما صغرت ، لعارية أو نسيئة ، كما يحرم تناولها . وتحرم المقايضة ، بتبادل بضاعة بأخرى ، من جنس واحد ، ولكن تختلف في الكمية . وهذه والكثير غيرها من الصفقات التجارية المماثلة تدان بشدة . غير أنه ليس من النادر أن يتناول بعض المسلمين المحدثين فوائد باهظة .

(٢) يعتقد أكثر المسلمين أن تماثيل الكائنات الحية ، التي تلقى ظلا ، هي وحدها المحرمة . ولكن النبي حرم الرسم أيضاً بالتأكيد .

(٣) في رواية للبخاري قال : كنت عند ابن عباس إذ جاءه رجل فقال : يا ابن عباس . إني رجل إنما معيشتي من صنعة يدي ، وإني أصنع هذه التصاوير . فقال ابن عباس : لا أحدثك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول : من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ فيها أبداً . فربا الرجل ربوة شديدة . فقال : ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شيء ليس فيه روح . — الترغيب والترهيب من الحديث الشريف . ج ٥ ، ص ٢ . (المترجم)

(٤) يسمى ما يشرعه القرآن « فرضاً » .

فتسترشد أحكام القضاء ، فى أكثر هذه الأحوال ، بالحديث الشريف(١) . ومع ذلك ، هناك بعض قضايا هامة ، وكثير دون الأولى أهمية ، يعقلها القرآن والسنة معاً ، أو لا يحددان أحكامها . فيفصل فيها طبقاً لتفسيرات الأئمة الأربعة لما يرد بأجماع الصحابة أو بالقياس . وتستند الأحكام عادة على رأى إمام المذهب الذى ينتمى إليه حاكم البلد . وهو ، فى مصر وبلاد الدولة العثمانية ، المذهب الحنفى. وعندما لا يفصل قرار الأئمة فى النزاع القائم (الأمر الذى لا يندر حدوثه) يصدر القضاء بالقياس على حكم أحد العلماء البارزين الآخرين . — واقتصر هنا بوجه عام على تقديم الشرائع الرئيسية فقط ، كما فرضها القرآن والسنة .

إن نظام الزواج وإجازة تعدد الزوجات ، وسهولة الطلاق الذى يبيحه القرآن ، والإذن بالتسرى ، هو فى جوهره نتيجة حتمية وطبيعية لتكوين المجتمع الإسلامى فى قاعدته الأساسية : تقييد اختلاط الجنسين قبل الزواج . وقليل من الرجال قد يرغب فى الزواج ، إذا كان لا يسمح له بالزواج بأخرى ، عندما يخيب أمله فى زوجة لم يرها إطلاقاً من قبل . ولعل قارئى يستطيع أن يرى سبباً أقوى يبرر هذه الشرائع ، على اعتبار أنها شرعت للمسلمين . ولما كان موسى قد أجاز لشعب الله المختار ، بسبب قسوة قلوبهم ، أن يطلقوا زوجاتهم ، ولم يحرم تعدد الزوجات ولا التسرى ، فعلى من يعتقد أن موسى قد سن خير الشرائع لشعبه ، بوحى من الله ، أن يسلم بأن إباحة هذه العادات ، عند شعب يشابه قدامى اليهود(٢) ، هى أقل خدشاً للأخلاق من تحريمها . ولا شك أن إباحة تلك العادات تحدث آثاراً مهينة لقواعد الأخلاق ومهددة للسعادة المنزلية ، ولكنها تحول دون انتشار انحلال خلقى قد يفوق ذلك الإنحلال الذى يعم إلى حد بعيد البلاد الأوربية ، حيث يتم زواج الطرفين بعد تعارف وثيق . اما تعدد الزوجات الذى تبدو إجازته غير ملائمة لتحقيق الغرض الأساسى من إنشاء الزواج ، ولممارسة أنبل القوى الذهنية والعمل على تقدمها ، فيجب أن نلاحظ ، فيما يتعلق به ، بأن شرع الإسلام لم يقرره ، وإنما حدّ منه . وحقيقى إنه ميّز نفسه بعدد من الزوجات ، يزيد على ما سمح به للآخرين ولكن الدافع إلى ذلك قد يكون نقص السلالة من الذكور* وليس رغبته فى الشهوة .

---

(١) يسمى ما يستمد من الأحاديث النبوية « سنة » .

(٢) لم يحدد المؤلف أوجه التشابه . وقسوة القلوب ليستمنها على أى حال . (المترجم)

* الزواج لإنجاب الذكور ليس هدفاً من أهداف الرسول (ص) وقد أشار القرآن الكريم إشارة دقيقة إلى أن حظ الرسول (ص) من الدنيا هو الحرمان من أبوته للرجال =

وقانون الزواج والتسرى صريح فى تحـديد عدد الزوجـات اللاتى يستطيع المسلم الاحتفـاظ بهن فى وقت واحد ، ولكنـه ليس كذلك فيما يتعلق بعدد السرارى . وقد كتب : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعـدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمـانكم(١) » ، أى إمائكم . ولذلك يتزوج الكثير من المسـلمين الأغنياء زوجتين وثلاث زوجـات أو أربعاً ، ويتخذ إلى جانب ذلك العـديد من جواريه سرارى . وقد سجّل الكتّـاب أن كثيراً من المسلمين المبجلين ، ومن الصحابة أيضاً ، قاموا بالمثل . ويوضح سلوك هؤلاء أن عدد السرارى فى حوزة الرجـل لم تحدده الشريعة فى رأى الراشدين(٢) .

ويحل للمسلم أن يتزوج مسيحيـة أو يهودية لحب زائد ، أو لعجـز عن الحصول على زوجة مسلمة . ويتبع الخلف ، فى هذه الحالة ، دين الأب(٣) ، ولا ترث الزوجة عنـد وفاته . ولكن المسلمة لا يسمح لها على أى حال ، إلا عند الإكراه ، بالزواج برجـل على غير دينها . ويحرم القرآن(٤) والسنة على الرجل الزواج بأمه ، أو غيرها صعوداً ، وابنته ، أو غيرها نزولا ، وأختـه ، أو أخته غير الشقيقة وعمته أوخالته ، أو غيرهما صعوداً وابنة أخيه أو أخته ، أو أى من ذريتهما ، ومرضعته(٥) ، أو امرأة تنسب إليه بالرضاع على أى درجة قد تعوق الزواج بها إذا كانت على قرابة دم مماثلة . وتحرم أم الزوجة بمجرد العقـد على ابنتها ولكن لا تحرم بنت الزوجة على الرجل إلا إذا كان قد دخل بها فعلا بعـد العقد عليها ، وزوجة أبيه ، وزوجـة إبنـه . ويحرم عليـه

= (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، وإنما كان زواجه لأسباب تشريعية كتحريم التبنى حينما كلف زواج زينب إبطـالا لنظام التبنى الذى شاع فى الجاهليـة ، أو دعماً للإسلام بمصاهرة البيوت القوية التى يرجى من حماستها للإسلام أن يجد سنداً قوياً الخ .

(١) سورة النساء ، آية ٣ .

(٢) يناقش بعض المسلمين المهتمين بعلم الأخلاق تلك المسألة فيقولون إنه ما دام قد حدد للرجل أربع زوجات عدداً كافياً ، فيكفيه بالتـالى أربع سرارى ، أو أربع نساء من الطبقتين معاً . غير أنه من من المؤكد ، رغماً مما يجزم به (سيل) وبعض العلماء الآخرين وكذلك الأمر ، فإن الشريعة لم تحدد عدد السرارى المصرح به للرجل سواء بالإضافة إلى الزوجة أو الزوجات أو بدون .

(٣) وبالمثل ، عندما يتزوج مسيحى يهودية ، يوجب الشرع الإسـلامى أن يتبع النسل الدين الأحسن أى المسيحية ، إذا لم يرغب فى اعتناق الإسلام .

(٤) سورة النساء ، آية ٢٣ .

(٥) طبقاً للفقه الحنفى ، لا يجوز للرجل الزواج بمن أرضعته نقطة لبن واحدة . ولكن الفقه الشافعى لا يحرم الزواج إلى خمسة رضعات خلال السنتين الأولين .

أن يجمع بالزواج فى وقت واحد بين أختين ، أو بين العمة وإبنة الأخ أو الخالة وإبنة الأخت ويحرم عليه الزواج بجاريته ما لم تعتق ، أو جارية رجل آخر ، إذا كان متزوجاً بالفعل من امرأة حرة . ويحل للرجل النظر إلى وجوه المحرمات عليه ، ولا يحل له النظر إلى غيرهن ، ما عدا زوجاته وجواريه .
ويتم زواج الرجل والمرأة ، أو الرجل والبنت البالغة ، شرعاً باقرارهما (وينوب وكيل عن البنت البالغة فى ذلك عموماً) قبول الزواج كل من الآخر ، بحضور شاهدين (إذا أمكن تدبير الشهود) ، وبدفع مهر أو جزء من المهر . ولا يشترط قبول البنت دون سن البلوغ ، فيتصرف أبوها حسب مشيئته نيابة عنها(١) ، وعند وفاة أبيها يتولى ذلك ، أقرب الأقارب الذكور إليها ، أو من يعين وصياً عليها بوصية أو بقرار من القاضى . ودفع المهر لازم ، وقد حدد الشرع حداً أدنى عشرة دراهم ، ويساوى هذا المبلغ خمسة شلنات من عملتنا تقريباً ، ويستطيع الرجل الزواج شرعاً دون إثبات المهر ، ولكن المرأة ، بعد إتمام الزواج بالدخول عليها ، تستطيع فى هذه الحالة أن تجبره على دفع عشرة دراهم(٢)* .

ويستطيع الرجل أن يطلق زوجته مرتين ، ويسترجعها فى كل مرة بدون التقييد بشكل ما ، إلا فى حالة سأذكرها فيما بعد . وعندما يطلقها مرة ثالثة ، أو يطلقها ثلاثاً فى عبارة واحدة ، فلا يمكنه ردها مرة أخرى حتى تتزوج بآخر غيره ، يكتمل الزواج بالدخول عليها(٣) ، ثم يطلقها . وعندما يطلق الرجل زوجته (ويتم ذلك بمجرد قوله : أنت طالق) ، يدفع إليها ثلث مهرها عامة . وهو جزء من المهر يودعه جانباً ليؤديه فى هذه المناسبة . أو عند وفاته . وتستعيد الزوجة الأثاث وغيره مما أحضرته عند الزواج . ويستطيع الرجل هكذا أن يطلق الزوجة لمجرد الكراهية(٤) ، وبدون تعيين سبب . غير

---

(١) وقد يزوج الولد بتلك الطريقة : ولكنه يستطيع أن يطلق زوجته .
(٢) يعتبر كل ما تحصل عليه الزوجة من زوجها وأقاربها ، أو من أى آخر ، ملكاً خاصاً بها تماماً ، لا يخضع لمطالبة ما من زوجها أو دائنيه .
* المعروف فقهاً أن الزوجة تستحق مهر مثلها إذا لم يسم لها مهر فى العقد ولم يتراض الزوجان على مهر معين .
(٣) سورة البقرة ، الآيتان ٢٢٩ و ٢٣٠ .
(٤) مثل ما تجيزه الشريعة الموسوية . أنظر التثنية ٢٤/١ : « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته .

أن المرأة لا تستطيع أن تنفصل عن الرجل ضد إرادته ، إلا إذا ارتكب إثماً كبيراً مثل القسوة في المعاملة أو الإهمال . ويلزم أيضاً حينئذاك الإلتجاء إلى القضاء لإجبار الرجل على تطليقها . وتخسر هي بقية المهر المشار إليها أعلاه .

ويسمى الطلاق الأول والثاني ، إذا تما بدون اتفاق على تعويض من المرأة ، أو تضحية مالية من قبلها ، « طلاق رجعى » لأن الزوج يستطيع أن يرد زوجته ، في وقت عدتها (التي ستفسر الآن) ، ولا يشترط قبولها. ولا يستطيع أن يردها بعد انقضاء العدة إلا برضائها وبعقد جديد . وإذا طلقها مرة أولى أو ثانية مقابل تعويض . وقد يكون ذلك بناء على طلبها بأن يطلقها مقابل ما يكون مديناً به لها ، أو بأن يعجل بمالها (من مهر أو جهاز الخ .) ، أو يفعل ذلك مقابل مبلغ إضافى ، فلا يمكنه إذن ردها إلا بموافقتها وبعقد جديد . وهو « طلاق بائن » ، ويطلق عليه « البينونة الصغرى » ليميز من الطلاق الثالث ، الذى يسمى « البينونة الكبرى » . والعدة مدة زمنية تلتزم المطلقة ، أو الأرملة ، بمراعاتها قبل أن تتزوج مرة ثانية . وفى حالة أخرى ، عندما تكون حاملا ، تنتظر حتى الوضع . وبعبارة أخرى ، يجب على الأولى أن تنتظر ثلاث دورات قمرية ، أو ثلاثة شهور ، والثانية ، أربعة شهور وعشرة أيام . وتستطيع المطلقة ، وهى حبلى ، أن تعقد زواجاً جديداً بعد الوضع مباشرة ، ولكن يجب عليها أن تنتظر أربعين يوماً أخرى قبل إتمام الزواج بالدخول عليها . ويجب على الزوج الذى يطلق زوجته أن يكفيها معاشها فى منزله ، أو فى منزل أهلها ، أو فى مكان آخر ، أثناء عدتها ، ولكن يجب أن يمتنع عن معاشرتها معاشرة الزواج منذ بداية هذه المدة . وتستطيع المطلقة الاحتفاظ بأبنها دون السنتين إلى أن يبلغ هذا السن . ويمكن إجبارها على ذلك طبقاً للفقه الشافعى ، وإلى سن البلوغ ، طبقاً للفقه المالكى . ويحدد الفقه الحنفى مدة الحضانة بسبع سنين . أما الإبنة فتحتضنها المطلقة إلى سن التاسعة ، أو إلى البلوغ . وعندما يطلق الرجل زوجته قبل الدخول عليها ، فيجب أن يعطيها نصف المهر الذى تعهد به . وإذا كان لم يتعهد بمهر ، فيجب أن يدفع نصف أدنى قدر قررته الشريعة للمهر ، الذى أشير إليه سابقاً . وللمطلقة أن تتزوج ثانياً مباشرة .

وإذا رفضت الزوجة الامتثال لأوامر زوجها الشرعية ، فيستطيع أن يشكوها بتقديمها ، أو باستدعاء شاهدين(١) ضدها ، إلى المحكمة ، حيث

---

(١) ويجب أن يكون الشهود مسلمين دائماً فى الدعاوى ضد المسلمين .

يشهد عند ثبات الدعوى أن المرأة « نشاز » ، أى خارجة عن طاعة زوجها . وتسمى هذه الدعوى « تسجيل امرأة ناشزاً » ويعفى ذلك زوجها من وجوب إيوائها ، وكسائها وكفالتها . ولا يفرض عليه تطليقها . وهو برفضه القيام بذلك ، يستطيع أن يعوقها عن الزواج برجل آخر ما دام حياً . ولكن يجب عليه أن يردها ويكفلها ، أو يطلقها ، إذا تعهدت بعدئذ بالطوع له . غير أن السائر أن تلجأ المرأة إلى القضاء ، عندما يرفض الزوج الطلاق ، ويكون لها أبوان أو أقارب قادرين على كفالتها برغبتهم ، فتقرر أن سلوك زوجها نحوها يعجزها عن المعيشة معه ، الأمر الذى يوجب اعتبارها ناشزة ، ويستدعى بالتالى الطلاق منه . ويصر الزوج ، فى هذه الحالة على العموم ، على رفض الطلاق لمجرد الإغاظة .

من المناسب أن أدرج هنا ، على اعتبار السرارى جوارى ، بعض البيانات المتعلقة بالرقيق عموماً ، مع عرض القواعد الرئيسية الخاصة بالسرارى وذريتهن الخ . إن العبد هو من أسر فى حرب ، أو حمل قسراً من بلد أجنبى معاد ، وكان وقت الأسر كافراً ، أو من ولد لأمة من عبد آخر ، أو من رجل غير مالكها ، أو من مالكها إذا رفض الاعتراف بأبوته له . غير أن الفرد لا يمكن أن يرق لقريب يكون ضمن طبقة يحرم الزواج منها . وللمالك على عبده سلطة لا حد لها ، فهو يستطيع قتله وهو فى حصانة من العقوبة ، كما أنه لا يتعرض لغير عقوبة طفيفة (كالسجن لمدة يحددها القاضى حسب رأيه) عندما يوصم سلوكه بالوحشية والعبث . ويستطيع المالك أن يهب عبيده أو يبيعهم ، إلا فى حالات ستذكر فيما بعد ، ويستطيع أن يزوجهم لمن يشاء ، ولكن لا يستطيع أن يطلق بعد الزواج . ولا يستطيع العبد ، طبقاً لرأى أكثر الفقهاء ، أن يحتفظ بأكثر من زوجتين فى وقت واحد . ولما كان العبد يتمتع بمزايا تقل عما يتمتع بها الحر ، فقد أوجب القانون ، فى بعض الحالات أن تكون عقوبة العبد لجريمة ما نصف العقوبة التى توقع على الحر لارتكابه الجريمة نفسها . وقد تقل العقوبة عن النصف أيضاً . ويلتزم المالك عند الحكم بغرامة ، أو بتعويض مالى ، بدفع ما حكم به ، إلى ما يوازى قيمة العبد ، عند الضرورة ، أو يقدم العبد عوضاً عنه . وتنتقل ملكية العبد غير المعتق ، عند وفاة سيده ، إلى ورثة الأخير . وعندما يموت عبد معتق بدون ذرية من الذكور أو أقارب لجده ، يرثه سيده السابق ، أو ورثته . ولا يجوز للعبد غير المعتق أن يمتلك شيئاً بدون إذن سيده .

وقد يعتق العبد أحياناً عتقاً تاماً ومباشراً بلا مقابل ، أو مقابل تعويض مالى يدفع فى المستقبل . ويتم ذلك فى وثيقة مكتوبة ، أو باقرار شفوى أمام شاهدين ، أو بأن يقدم إلى العبد شهادة البيع من المالك السابق . ويُتفق أحياناً على عتق العبد فى وقت لاحق عند إنجاز بعض الشروط ، والغالب أن يتم ذلك عند وفاة المالك . وفى الحالة الأخيرة لا يستطيع المالك أن يبيع العبد الذى قدم له هذا الوعد . وإذ كان المالك لا يستطيع أن يتصرف فى أكثر من ثلث تركته ، فان القانون يفرض ، عندما تزيد قيمة العبد المذكور على هذا القدر ، وجوب حصول العبد على المبلغ الإضافى ودفعه إلى ورثه المالك . — ويستطيع المسلم أن يتسرى بأية جارية من جواريه ، مسلمة أو مسيحية أو يهودية ، إذا كان لم يزوجها برجل آخر . ولكنه لا يمكنه أن يتسرى ، فى وقت واحد ، بجارتين أختين أو أكثر ، أو قريبتين على أى من الدرجات التى يحرم فيها عليهما الزواج به فى وقت واحد لو كانتا حرتين . وتحرم الشريعة أن يتسرى المسيحى ، وكذلك اليهودى بجارية مسلمة(١) . ولا يجوز التسرى بالجارية قبل فوات مدة معينة ، (من شهر إلى ثلاثة شهور على العموم) من يوم اقتنائها . وعندما تحمل الجارية من سيدها ، يصبح حملها حراً إذا اعترف ببنوته . وقد لا يعترف به (وهو ما يندر حدوثه حسب اعتقادى) ، فيظل عبداً له . ولا يستطيع السيد فى الحالة الأولى أن يبيع الأم أو يهديها (وإن لزم بقاؤها قائمة على خدمته وسرية له ما دام يرغب ذلك) ، ويؤهلها ذلك للعتق عند وفاته . ويستدعى حمل السرية من سيدها عتقها ، ولكن ذلك لا يلزمه ما دام حياً ، وإن كان يجعله جديراً بالثناء إذا أعتقها وتزوجها ، على شرط ألا يكون له أربع زوجات فى ذلك الحين ، أو إذا زوجها برجل آخر إذا شاءت هى ذلك . ولا يجوز للإنسان الحر ، رجل أو امرأة ، أن يتزوج من رقيقه قبل أن يحرره . ويفسخ زواج الحر من الرقيق المملوك لآخر إذا أصبح الأول مالكاً للثانى . ولا يمكن تجديد الزواج إلا بالعتق وتحرير عقد شرعى .

إن المبادىء العامة لقانون الإرث الجديرة بالذكر هى إنكار حق البكر فى الإرث دون سائر الأبناء(٢) ، وإعطاء الأنثى نصف حظ الذكر عند انتمائهما

(١) ولا يراعى الكثير من المسيحيين واليهود ، مع ذلك هذا الأمر ولا يتعرضون لأية عقوبة .

(٢) تختلف الشريعة الإسلامية فى ذلك عن الشريعة الموسوية التى تحدد نصيباً مضاعفاً للولد البكر . أنظر التثنية ٢١/١٧ : بل يعرف ابن المكروهة بكراً ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لأنه هو أول قدرته له حق البكورية .

إلى المتوفى على درجة واحدة من القرابة(١). ولا يستطيع المرء أن يوصى بأكثر من ثلث ما يملك، إلا إذا كان ليس له وريث شرعى. ولا يستطيع أن يوصى بأى قدر إلى وريث شرعى، فيما عدا الزوج أو الزوجة، بدون موافقة بقية الورثة جميعاً. ويرث أولاد المتوفى جميع تركته، أو ما تبقى منها بعد خصم حصص معينة تذكر فيما بعد، ومن بعد وصية يوصى بها أو دين الخ. ويكون للذكر مثل حظ الأنثيين. فان كن نساء، اثنتان فأكثر، فلهن، حسب شريعة القرآن، ثلثا ما ترك. وإن كانت واحدة فلها النصف[وتخصص السنة ما تبقى أيضاً، ثلثاً أو نصفاً، للسابقات أو للأخيرة. (ويطبق حكم السنّة ذلك على حالات أخرى)، إن لم يكن هناك وريث شرعى آخر]. وعندما لا يترك المتوفى ذرية مباشرة، يرث أولاد ابنه أو أبنائه، رجالا ونساء [أو من يليهم]، للذكر مثل حظ الأنثيين. وإن كان له ولد أو ولد ولد [أو ما يليه] فلأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك. فان كان الأب متوفى، يذهب نصيبه إلى أبيه [وإن كانت الأم متوفاة يذهب نصيبها إلى أمها. وإن لم يكن له ولد أو ولد ولد [أو من يليه]، فلأمه ثلث التركة، أو ثلث ما تبقى من بعد نصيب الزوجة أو الزوجات أو الزوج، ويذهب الباقى إلى الأب. فان كان للمتوفى إخوة رجالا ونساء، فلأمه السدس، ولأبيه الباقى. ولا يرث الإخوة المذكورين شيئاً(٢)،[إذا ترك المتوفى أباً أو أياً من الذكور صعوداً]. وللرجل

---

(١) وردت بعض أخطاء فيما قدمت عن مجمل الشرائع الرئيسية الخاصة بالأرث فى الطبعتين الأولبين لهذا الكتاب، لاعتمادى كثيراً على ترجمة (سيل) للقرآن. وكنت لا أشك فى دقته لأنه كان يحوز الكثير من المراجع فى التفسير، ولم يكن لدى شيء منها، وبالتالى قصرت تحقيق الخاص بتلك الشرائع على إضافة الحواشى، فلم أعن بالتحقق من صدق البيانات الواردة فى ترجمته. وقد قدمت البيان الصحيح مستمداً من القرآن وتفسير الجلالين، وزودت بعض الألفاظ بالتفسير اللازم(الوارد بين معقوفتين)الذى يرجع بعضه إلى شيخ كان يدرس لى، والبعض الآخر إلى الكتاب القيم (لمحة عامة للدولة العثمانية لمؤلفه دوسون. القانون المدنى. الكتاب الرابع Tableau Général de l'Empire Othman. D'hosson

(٢) طبقاً لترجمة (سيل) للآية ١١ من سورة النساء والحاشية المتعلقة بها، إن لم يكن للمتوفى ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ولأبيه الثلثان الباقيان وإن كان له إخوة فلأمه السدس. — ويقتضى الأمر، حسب ترجمة (سيل) للآية الأخيرة من تلك السورة التى تقرر أن الإخوة لهم حق الأرث فى تركة المتوفى بدون ذرية، يقتضى أن يكون للإخوة نصيب إذا كان الأب على قيد الحياة، وبالتالى يكون لهم السدس، وذلك لأنه لم يقرر أن هذا القدر المقتطع من نصيب الأم يذهب إلى الأب، ولا نصيب الأب أنه ينتقص. — ولا أرى لماذا يقل نصيب الأم بينما يزيد نصيب الأب فى الحالة التى تشير إليها هذه الحاشية. ولو لم يكن انتساب الإخوة رجالا ونساء إلى الأم فقط جائزاً لتيسر معرفة السبب.

نصف مايتبقى من تركة الزوجة من بعد وصية توصى بها، الخ. إن لم يكن لها ولد أو ولد ولد [أو من يلى] وله الربع إن كان لها ولد أو ولد ولد [أو من يلى] . وللزوجة ، أو الزوجات معاً، الربع إن لم يكن للزوج المتوفى ولد أو ولد ولد [أو من يلى] . ولها الثمن إن كان له مثل هذا الخلف(١). وإن لم يكن للمتوفى أب [أو من صعد من الذكور] ولا ولد [أو ولد ولد الخ .] تفرض الشريعة ما يلى : — ١. للأخ ، أو الأخت ، من الأم ، السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث، ولا يميز بين ذكر وأنثى . — ٢. لشقيقة المتوفى [إن لم يكن له شقيق] نصف ماترك. ويرث الرجل شقيقته [من بعد وصية الخ .] إن لم يكن لها ولد . ويرث ، إن كان لها بنت ، ما تبقى من بعد نصيب البنت [ومن بعد وصية الخ .] . وإن كان للمتوفى شقيقتان أو أكثر [ولا شقيق] فلهما الثلثان . وإن كانوا إخوة رجالا ونساء ، للذكر مثل حظ الأنثيين . — ٣. يرث إخوة المتوفى من الأب ، رجالا ونساء ، [إن لم يوجد أشقاء] مثل الأخوة الأشقاء(٢) . ولا يميز بين ولد الزوجة وولد الجارية من سيدها (إذا اعترف ببنوته) ، فيرث كلاهما بالتساوى . وكذلك ولد الزوجة والولد المتبنى. ويرث الولد غير الشرعى أمه فقط ، والعكس بالعكس . وتذهب التركة إلى « بيت المال » عندما لا يوجد وريث شرعى أو موصى إليه . وقد رأيت من غير الضرورى أن أذكر هنا الشرائع الخاصة ببعض درجات القرابة البعيدة(٣) . وتقسم تركة المتوفى تقسيماً إسمياً إلى أربعة وعشرين قيراطاً ، فيقال إن نصيب كل ولد ، أو وريث آخر ، كذا قيراط .

يُظهر القانون نحو المدين تساهلا جديراً بالملاحظة . وفى القرآن(٤) : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم ». ويأمر القرآن المسلم ، فى السورة نفسها ، عندما يتداين بدين ، أن يكتبه وأن يشهد شهيدان من الرجال ، أو رجل وامرأتين من المسلمين . ويسجن المدين عند امتناعه

---

(١) ويقتصر هذا على ما قد يكون باقياً من مهرها واجب الأداء . والعادة أن يحتفظ الزوج بثلث المهر ليدفعه عند الطلاق أو عند وفاته .

(٢) وتقوم تلك القواعد المذكورة عاليه على الآيتين ١١و١٢ والآية الأخيرة من سورة النساء .

(٣) للقارىء أن يرجع إلى كتاب (دوسون) المذكور سابقاً .

(٤) سورة البقرة آية ٢٨٠ .

عن دفع الدين ، ولكن يفرج عنه إذا أثبت عجزه عن دفع ما عليه . وقد يجبر على العمل لإيفاء دينه إذا كان قادراً .

يقضي القرآن بمعاقبة القتل العمد بالإعدام ، أو على الأصح ، يكون القصاص الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى . أو يدفع القاتل لورثة المقتول ، إن أجازوا ذلك ، دية يحدد تقسيمها قانون الميراث(١) . ويفرض أيضاً على من يقتل خطأ أن يحرر رقبة مؤمن ، وأن يدفع دية إلى أسرة القتيل ، إلا إذا صفحوا(٢) . وهذه القوانين يفسرها القرآن والأئمة ويسهبون فى شرحها . — ولا تقبل الدية إلا إذا صاحبت جريمة القتل ظروف مخففة . وتكون الدية ، هى ثمن الدم ، مائة جمل ، أو ألف دينار (٥٠٠ جنيه استرليني تقريباً) تفرض على من يملك ذهباً ، أو إثنى عشر ألف درهم(٣) (٣٠٠ جنيه تقريباً) على من يملك فضة . وهذه هى دية الحر . وتكون دية النساء نصف هذا القدر ، ودية الرقيق مايوازى قيمته ، وهى تنقص عن دية الحر وجوباً . وعلى من يعجز عن تحرير رقبة مؤمن أن يصوم شهرين . ويخضع شركاء القاتل لعقوبة الإعدام ، ويعدم قاتل المرأة أيضاً طبقاً للسنة ، وكذلك قاتل عبد الغير طبقاً للمذهب الحنفى . ويعفى من تلك العقوبة قاتل ولده أو آخر من عقبه أو عبده ، أو ولد عبده ، أو عبد يشارك فى تملكه . ويُعفى شركاؤه كذلك من العقوبة . ولا يحكم الفقه الشافعي بالإعدام على المسلم ، ولو كان عبداً ، لقتله كافراً ، ولو كان حراً . غير أن القتل يعاقب بالإعدام عموماً فى الوقت الحاضر ، ويندر أن تجيز الحكومة تسوية مالية لهذا الأمر . ويُعفى من العقوبة من قتل غيره دفاعاً عن نفسه أو عن ماله من السرقة . وثمن الدم دين تلتزم به أسرة القاتل أو قبيلته أو الهيئة التى ينتمى إليها . ويلتزم به أيضاً أهل الحى المحدود ، أو صاحب الحقل ، أو أصحابه ، إذا وجد به جثة القتيل المجهول قاتله ، إلا إذا وجدت فى بيته الخاص . وعندما تدان امرأة لارتكاب جريمة قتل ينفذ فيها الحكم باغراقها فى النيل عموماً .

وقد وضع البدو شريعة لثأر القتيل تتسم بالقسوة والجور الشديدين ، متجاوزين فى ذلك حدود القرآن . ويتعرض طبقاً لنظامهم من ينحدر من سلالة القاتل ، أو سلالة أبيه فصاعداً ، للقتل بيد أحد أقارب القتيل فى مثل

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٧٨ .
(٢) سورة النساء ، آية ٩٢ .
(٣) ويقول البعض عشرة آلاف درهم .

تلك القرابة . ولكن أكثر القبائل عموماً تقبل الدية بدلا من إراقة الدماء . ويكثر ثأر الدم بين فلاحي مصر الذين احتفظوا بالكثير من عادات أجدادهم البدو ، كما أشرت سابقاً . ويفضل أقارب القتيل فى القرية المصرية الأخذ بالثأر بأنفسهم عموماً على الالتجاء إلى الحكومة ، وكثيراً ما يفعلون ذلك بوحشية تثير الإشمئزاز ، بل ويمثلون بجثة ضحيتهم ويهينونها . والعادة أن يهرب أقارب القاتل إلى قرية أخرى حماية لأنفسهم . وكثيراً ما تستمر العداوة بين الطرفين سنوات عديدة بعد الأخذ بالثأر . وكثيراً ما يورط الثأر سكان أكثر من قرية فى خصومات تثار من حين لآخر على مدى أجيال متتابعة .

والثأر لجرح أو بتر غير مقصود ، مثل القتل ، مباح : العين بالعين(١) . وقد تُقبل ديّة بدلا منه ، والقانون يجيزها أيضاً للأضرار غير المقصودة . وتكون دية العضو المبتور المفرد (كالأنف) مثل ثمن الدم كاملا ، كما فى حالة القتل . وتكون فى المثانى (مثل اليد) نصف ثمن الدم . وتكون فيما يتكوّن من عشر (مثل الأصبع) عُشر ثمن الدم . ولكن ديّة مايحدثه الرجل لامرأة من تشويه أو جرح تكون نصف ما يحدث مثله من ضرر للرجل . وتختلف دية ما يُحدث الحر من ضرر للعبد باختلاف قيمة الأخير . ويستوجب حرمان الرجل من إحدى حواسه الخمس ، أو جرحه على نحو خطير ، أو تشويهه تشويهاً فاحشاً مدى الحياة ، ديّة كاملة .

ويعاقب القرآن(٢) السارق ، رجلا أو امرأة ، بقطع اليد اليمنى لأول سرقة . ولكن السنّة لا تفرض هذه العقوبة إذا قلّ المال المسروق عن ربع دينار(٣) ، وإنما تفرض ليكون السارق عرضة لهذه العقوبة ضرورة أن يكون المسروق فى موضع يصعب على السارق الوصول إليه ، أو فى مكان لا يألفه ، وبالتالى يعفى منها إذا تمت السرقة فى منزل أحد أقاربه ، أو كان عبداً وسرق منزل سيده . وتُقطع القدم اليسرى إذا عاد السارق إلى السرقة . وتقطع اليد اليسرى طبقاً للفقه الشافعى فى المرة الثالثة . والقدم اليمنى فى الرابعة . ويُجلد الثابت على السرقة أو يُقرع . ويفرض الفقه الحنفى على السرقة فى المرة الثالثة

---

(١) سورة المائدة ، آية ٤٥ .
(٢) سورة المائدة ، آية ٣٨ .
(٣) والدينار« مثقال » (٧٢ قمحة إنجليزية تقريباً) ذهب . وينقل (سيل) عن ترجمة خاطئة لمرتشى Marraci دون الرجوع إلى النص العربى ، أنه أربعة دنانير .

وما يليها السجن الطويل . ولا تعد سرقة الطفل الحر خرقاً للقانون لأن الأول ليس مالا . وليست سرقة الطفل الرقيق كذلك . ولا تقتضى سرقة الطعام السريع العطب قطع اليد ، لأنه قد يؤخذ ليمسك رمق الجائع . وهناك حالات أخرى يعفى السارق فيها من العقوبات السابق ذكرها . ولم تعد تلك العقوبات توقع فى السنوات الأخيرة فى مصر ، واستبدل بها عقوبة القرع بالعصا و الأشغال الشاقة فى حالة السرقة للمرة الأولى والثانية أو الثالثة ، وكثيراً ما يحكم بالإعدام فى المرة الرابعة . والعادة أن يعاقب مرتكب الجرائم الطفيفة بالجلد بالكرباج (ويكون من جلد فرس النهر فى شكل مستدير) أو القرع بالعصا على أخمص القدمين(١) .

يرد الحديث عن الزنا على نحو أشد صرامة . غير أن إقامة الدعوى على الزوجة الزانية تستلزم استشهاد أربعة عليها(٢) ، فاذا ثبتت التهمة رجمت حتى الموت(٣) . ولا حاجة للقول إنه من النادر أن تقام دعاوى من هذا النوع لصعوبة الحصول على مثل تلك الشهادة(٤) . وقد شرّع القرآن(٥) ، أحكاماً أخرى خاصة بموضوع الزنا هى فى الواقع لحماية المرأة من شطط الاتهام : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم . والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين » . ويرى المفسرون والفقهاء وجوب فسخ الزواج فى مثل هذه الظروف . ويأمر القرآن ، فى الآية الثانية من سورة النور ، بجلد الزانية والزانى كل واحد منهما

---

(١) ويشد طرفا القدمين بسلسلة أو حبل إلى عصا تلف حتى تحبك الشدة . ويسمى ذلك « الفلقة » . ويقف على كل جانب اثنان يتناوبان القرع .

(٢) سورة النساء ، آية ١٥ .

(٣) هذا ما فرضته السنة ، والقانون كذلك إذا كان الزانى متزوجاً . ولكن ذلك الحكم لا ينفذ أبداً . أنظر اللاويين ٢٠/١٠ (« وإذا زنى رجل مع امرأة قريبة فانه يقتل الزانى والزانية ») ويوحنا ٨/٤ ، ٥ (« قالوا له يا معلم هذه المرأة أمسكت وهى تزنى فى ذات الفعل وموسى فى الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم . فماذا تقول أنت ») .

(٤) والجدير بالملاحظة أن الواقعة التى سببت إصدار مثل هذا القانون هو اتهام عائشة زوجة النبى المفضلة.وقد برأها القرآن هكذا من التهمة . ولحقت به آيات تثبت طهارة سمعتها .

(٥) سورة النور ، الآيات ٤ إلى ٩ .

مائة جلدة . وتفرض السنّة عقوبة أخرى : النفى سنة كاملة(١) . وسأتحدث فى الفصل التالى عن عقوبة المرأة المتهمة بالفسق فى القاهرة ، باعتبار ذلك الأمر من أعمال الحكومة التعسفية التى لا سند لها فى القرآن أو السنة(٢) .

وكان إدمان الخمر يعاقب عليه بالجلد فى أيام الرسول . ولا تزال العقوبة هكذا فى القاهرة وإن كانت غير منتشرة . و « حد » هذه الجريمة ثمانون جلدة للرجل الحر ، وأربعون للعبد .

ويعتبر الارتداد عن دين الإسلام إثماً شنيعاً عقابه الإعدام ، إلا إذا تخلى المرتد عنه علناً بعد الإنذار به ثلاثاً . وقد شاهدت مرة امرأة مرتدة تزوجت مسيحياً يستعرضونها فى شوارع القاهرة ، فى طريقها إلى النيل لإغراقها . وكانت لسوء الحظ قد وشمت على ذراعها صليباً أزرق ، الأمر الذى أدى إلى أن تكشف إحدى صديقاتها السابقات ذلك فى الحمام . وكان أبوها هو متهمها ! وأصدر القاضى حكمه بالإدانة بعد أن نصحها بدون جدوى بالعودة إلى دينها السابق . وقد أركبت فى أجمل لباس ، حماراً عالى السرج ، على طريقة ركوب سيدات الطبقة الراقية فى القاهرة ، وكان يصحبها العسكر ، ويحيط بها حشد من الناس يلعنونها بأعلى صوت بدلا من الرثاء لها . وحُملت فى مركب إلى منتصف النهر حيث جُردت من ثيابها تقريباً ، وخُنقت ثم قذف بها فى النهر(٣) . وقد أسف الأوروبيون المقيمون بالقاهرة لغياب الباشا (محمد على) بالأسكندرية فى ذلك الحين ، لأنهم كان بقدرتهم إقناعه بالعفو عنها . وقد حدث قبل ذلك اليوم أن تدخلوا لإصدار العفو عن امرأة ارتدت عن دينها ، فأمر الباشا باحضارها أمامه ، ونصحها بالاعتراف بخطئها ، ولكنها أصرت على رأيها ، فأنبها لحماقتها ، وأمر بارسالها إلى منزلها دون أن يصيبها أذى .

---

(١) يخضع الزانى الأعزب كذلك لهذه العقوبة فقط . وقد أدرجت فى الشريعة الإسلامية قاعدتان مذكورتان فى اللاويين ٢٠/١٣ ، ١٥ (وإذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجساً إنهما يقتلان دمهما عليهما — وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها) غير أن أحكامهما لا تنفذان فى الوقت الحاضر إطلاقاً .

(٢) وفى قرى مصر كثيراً ما تتعرض المرأة التى لا تكون بغياً عاماً ، لمصير مختلف يرد وصفه فى الكلام عن الحياة المنزلية فى الطبقات الدنيا . وذلك عندما ترتكب جريمة الزنا أو يشتبه فيها .

(٣) وتنم بكل أسف تصرفات الطبقات الدنيا فى القاهرة فى هذه المناسبة بما يتعارض مع أخلاق أفرادها . وقد ألفت أغنية تتعلق بضحايا هذا القانون الرهيب وذاع صيتها فى القاهرة .

وكذلك القانون الخاص بالتجديف فهو أشد صرامة . فهو يقضى بأن يُعدم فوراً ، ولو أعلن توبته لأنها غير مقبولة لمثل هذا الإثم ، كل من جدّف نحو الله أو محمد أو عيسى أو موسى أو أحد الأنبياء . وسوء التقدير هو سبب الردة أو الكفر . أما التجديف فهو نتيجة الفسق المطلق .

وأضيف هنا بعض البيان عن طائفة « الوهّابيين » ، ويسمى أفرادها أيضاً « وهَبيون ». وقد أنشأ تلك الطائفة منذ أقل من قرن مضى محمد بن عبدالوهاب ، وهو شيخ تقي عالم من إقليم نجد وسط الجزيرة العربية . وفى منتصف القرن الماضى تقريباً ، حالفه الحظ عندما اعتنق مذهبه أحد كبار شيوخ الدرية عاصمة نجد . وقد أصبح هذا الشيخ ، محمد بن سعود ، زعيم الطائفة الجديدة ورئيسها الدينى والسياسى ، وانتشرت الوهابية فى أغلب أنحاء الجزيرة فى عهده وعهد خلفائه . وقد خلفه إبنه عبد العزيز ، ثم سعود بن عبد العزيز أعظم قادة الوهابيين ، وأخيراً عبد الله بن سعود الذى ناضل جيوش محمد على نضالاً عنيفاً واستسلم إلى عدوه المنتصر بعد الوعد بالأمان والحياة ، حسب قول البعض ، ثم أرسل إلى مصر ومنها إلى الاستانة حيث قطع رأسه . وكان هدف محمد على الرئيسى من شن الحروب على الوهابيين هو القضاء على قوة هذا المذهب السياسية . ولا يزال الكثير من العرب يؤمن بتعاليم هذا المذهب الدينية ويعتبرها علماء مصر المبرزين تعاليم راشدة . ويتمسك الوهابيون بأصول الإسلام ، وتعاليمه المكملة لها ، الواردة فى القرآن والسنة ، فهم بالتالى مصلحون فحسب . وقصارى القول هم ينهجون فى عقيدتهم منهج صدر الإسلام . وهم يستهجنون تجميل الأضرحة وإقامة القباب فوق القبور ، ويهدمون ما يصادفهم من ذلك كلما استطاعوا على الإطلاق . ويدينون بالوثنية كل من قدم إلى الأولياء المتوفين تبجيلاً خاصاً ، بل ويصرحون بأن إفراط المسلمين الأخرين فى احترام النبى بدعة . وهم يحرمون لبس الحرير ، والتحلى بالذهب والتدثر بالنفيس ، كما يحرمون عادة التدخين . وهم يعرّضون أنفسهم من حرمانهم من هذا الترف الأخير إلى حد ما بالإفراط فى تناول القهوة(١) . ويوجد منهم كثير من العلماء ، وقد جمعوا من أنحاء الجزيرة المختلفة ، ومن مصر ، العديد من الكتب (التاريخية خاصة) .

---

(١) من البيانات الخاطئة عن الوهابيين الجزم بأنهم حرموا شرب القهوة .

الفصل الرابع

الحكومة[1]

قاست مصر ، هذه السنوات الأخيرة ، تقلبات سياسية عظيمة ، وزالت تبعيتها للباب العالى إلا قليلا . وقد استقل حاكمها الحالى محمد على تقريباً ، بعد أن أباد الغز(٢) ، أو المماليك ، الذين شاركوا أسلافه الحكم ، إلا أنه أعلن ولاءه للسلطان وأصبح يؤدى الخراج للأستانة كما هى العادة . ثم إنه خضع لأحكام القرآن الأساسية والسنة . وهو ، خلافاً لذلك ، يتمتع بسلطة لا حد لها(٣) . فهو يستطيع أن يقضى على أى فرد من رعاياه بالموت دون محاكمة أو تعيين سبب . وكفاه أن يحرك يده حركة أفقية بسيطة ليتضمن ذلك حكم الإعدام . ولكن يجب ألا يفهم من كلامى إننى ألمح بميله إلى سفك الدماء بلا موجب . إن من طبع هذا الوالى الصرامة الحازمة لا القسوة الشريرة . وقد دفعه طموحه المطلق

---

(١) لما كان الإصلاح السياسى الذى أجراه محمد على ستبقى أهميته العظيمة على الدوام ، ولما كانت التغييرات التى أحدثها خلفاؤه فى نظمه قليلة الأهمية ، وعلى العموم مخالفة لكل تقدم ، فقد أبقيت هنا دون تغيير جوهرى وصف حكومة مصر فى سنتى ١٨٣٤ و ١٨٣٥ وهما خير سنى حكمه .

(٢) الغز من أمم الترك غرب آسيا . (ويسمون أيضاً الخزر . ويدفعنا ذلك إلى الاعتقاد أن ذلك الاسم تغير بنقله إلى العربية فحولت الخاء غيناً وضعفت الزاى) .

أنظر مقدمة ابن خلدون الاقليم الخامس من المقدمة الثانية من الفصل الأول من الكتاب الأول .

أما ما بين القوسين فقد ذكر فى الترجمة الفرنسية Les Prolégomènes D'Ibn Khaldoun - M. De Slane ص ١٠٧ الجزء الأول . (المترجم)

(٣) وإن كانت أرض ولايته نقصت كثيراً منذ كتابة هذا إلا أن سلطته فى مصر بقيت كما هى على التقريب .

إلى جميع الأعمال ، فكان يجلب لنفسه المدح تارة أو الملامة تارة أخرى(١) .

ويوجد فى قلعة العاصمة مجلس للقضاء، « يسمى الديوان الخديوى »(٢) ، يرأسه فى غياب الباشا نائبه « الكخيا »(٣) حبيب أفندى . ويبت رئيس الديوان الخديوى فى الأمور التى تخرج عن اختصاص القاضى ، أو التى تكون واضحة بحيث لا تحتاج إلى الرجوع إلى القاضى، أو أى مجلس آخر. وقد أقيمت فى أنحاء العاصمة دور كثيرة للشرطة ، فى كل منها بلوك نظام ، أى فرق منظمة. وتسمى الشرطة « قلق »(٤) أو « قراقول »(٥)، حسب الشائع حالياً. ويقبض على من يتهم بالسرقة أو السطو الخ. ، فى القاهرة، ويقاد إلى دار الشرطة الرئيسى فى الموسكى، حيث يسكن أغلب الفرنج(٦). وبعد أن تثبت التهمة كتابة، يقاد المتهم إلى « الظابط »، أى رئيس شرطة العاصمة . وبعد أن يسمع الضابط القضية يرسل

---

(١) إن حكومة مصر منذ الفتح العربى لم تتغير كثيراً عما هى عليه الآن فى تأثيرها على شمائل السكان وعاداتهم وطباعهم. ولذلك أرى أن لا حاجة إلى عرض تاريخ الماضى لتوضيح هذا الكتاب . إلا أنه يجب الإشارة إلى أن المصريين لا يسمح لهم الآن بالاستمرار فى معاملة النصارى واليهود بتلك الغلظة التعصبية الشديدة التى كانوا يعاملونهم بها قبلا . ومن هنا يدين السياح الأوربيون لمحمد على بالشكر ويعترفون له بالجميل . وقد يزيد هذا التقييد شعور التعصب الزائد بادىء الأمر ، ولكنه سيلطفه على الأرجح بمرور الزمن . — ولم يتم هذا التنبؤ بعد ، وعلى النقيض من ذلك أثار استعمال العلماء ومستخدمى الحكومة "البدع الأوربية فى ملبسهم وشمائلهم وعاداتهم المنزلية تعصب رجال العلم والدين وجملة الشعب عموماً .

(٢) « خديوى » نسبة إلى الكلمة التركية « خديف » أى أمير .

(٣) هكذا ينطق به فى مصر والأصح « كياحا » أو كتخدا .

(٤) من التركية « قول لق » .

(٥) والعامة يقولون « كركون » .

(٦) وكان حى الأفرنج يمتد من الخليج إلى الأزبكية . وقد اقتضت كثرة الثورات تجمع الأجانب حول دار القنصل الفرنسى الذى كان يرعى مصالحهم حينذاك . وأهم شوارع ذلك الحى شارع الموسكى وقد سمى باسم الأمير عز الدين موسك — أحد أقارب السلطان صلاح الدين ابن أيوب — الذى أنشأ قنطرة على الخليج بالقرب من ذلك المكان .

أنظر Le Caire تأليف Marcel Clerget الجزء الأول ١٨٢ ، والخطط المقريزية ، ذكر قناطر الخليج الكبير . (المترجم)

يرسل المتهم للمحاكمة أمام الديوان الخديوى(١). وعندما ينكر المتهم الجريمة الموجهة إليه ، ولم يكن هنـاك دليل على الإدانة ، غير بعض الشـبهة ، يجلد ليحمل على الاعتراف بجريمته . وحينئذ ، إن لم يكن قبلا ، يعترف المتهم بالجريمة إذا كانت طبيعتها لا تعرضه لعقـوبة شديدة . ويعترف اللص عادة بعد هذا التعذيب بقوله : « إن الشيطان أغرانى ففعلت » . وعقوبة المجرمين يرتبها نظام مستبد ، ولكنه لطيف حكيم . ويكون عادة بالزامهم ، مقابل قوت قليل ، القيام ببعض الأشغال العمومية ، مثل نقـل القمامة وحفر القنوات . الخ ، وقد يجند الشـبان الأقوياء متى كانت التهمة طفيفة . ويستحق محمد على ، على استخدامه المجرمين لإصلاح البلد وتحسينه ، المدح الذى كان وقفاً على سـاباكون Sabacon(٢) الفاتح الحبشى وملك مصر ، الذى يقـال إنه أدخل هذا النظام . إلا أن الباشا كان شديداً فى معاقبة الجرائم التى ترتكب ضد شخصه ، فالإعدام هو العقوبة العادية فى أحوال كهذه .

وهناك عدة مجالس دنيا لإدارة شؤون الأقاليم المختلفة . وأهمها، أولا : مجلس « المشوَرة » ، ويقال أيضاً « مجلس المشورة الملكية » ، تمييزاً له عن المجالس الأخرى . ويختار الباشا أعضاء هذا المجلس والمجالس المشابهة الأخرى ممن يتحلون بمواهب أو صفات أخرى ، ولذلك تخضع جميع قراراتهم لإرادته ورغباته . وهم آلته ورهن إشارته ، ويكونون لجنة تشرف على إدارة البلد العامة ، وشؤون الباشا التجارية والزراعية . وتعرض العرائض الموجهة إلى الباشا ، أو إلى ديوانه ، المتعلقة بالمصالح الخاصة أو بشؤون الحكومة ، على أعضاء المجلس وتخضع لتقديرهم وحكمهم ، إلا إذا وقعت فى اختصاص المحاكم الأخرى المذكورة فيما بعد . ثانياً « مجلس الجهادية » ، أو مجلس المشْوَرة العسكرية » . واسمه يدل على مدى اختصاصه . ثالثاً « مجلس الترسخانة » أو البحرية . رابعاً «ديوان التجار» .

---

(١) كثيراً ما يستبد القائمون بأمر هذا المجلس وما أشبه ، كما أن إتمام الإجراءات ينقصه الوقار والأدب . فكثيراً ما يستعمل الموظفون الأتراك ، حتى الكبراء منهم ، ألفاظاً لا أستطيع أن أذكرها لشدة ما تتقزز منها النفس ، نحو المتقاضين .

(٢) ساباكو Sabaco أو شاباك Shabbak أحد ملوك الأحبـاش . جرد حملة على مصر ونشر سلطانه عليهـا (٧٢٨ قبـل الميلاد) ولقب بملك مصر ، ولكنه ترك مباشرة الحكم لأخته أمنيريتس Ameniritis وزوجها بيانخى Piankhi . وكثيراً ما يرى شـاباك وأخته على جدران معابد طيبة وغيرها .

وتؤكد الروايات اليونانية القـديمة أن هذا الملك الحبشى حكم مصر حكماً لطيفاً فلم يلجأ أبداً إلى حكم الإعدام واستخدم المجرمين فى حفر القنوات وبناء الخزانات .

(أنظر The Historians' History of the world الطبعـة الخامسة سـنة ١٩٢٦ الجزء الأول ص ١٧٦) . (المترجم)

وقد أنشىء هذا المجلس ، الذى يتكون أعضاؤه من تجار مختلفى البلد والدين ، تحت رئاسة « الشاه بندر »(١) (كبير تجار القاهرة) ، لينظر فى بعض الأحوال الناشئة عن المعاملات التجارية الحديثة مما لم ينص عليه فى القرآن أو السنة .

ويتولى قاضى القاهرة القضاء فى مصر لمدة سنة واحدة ، ثم يقدم عند انتهائها قاض جديد من الآستانة . وجرت العادة أن يقوم القاضى من القاهرة ، مع قافلة الحج الكبيرة ، إلى مكة ، فيقضى واجبات الحج ، ويبقى فى المدينة المقدسة سنة واحدة ، وفى المدينة المنورة سنة أخرى(٢) ، يقضى بين الناس . ويشترى القاضى منصبه بالممارسة من الحكومة ، التى لا تقيم أى اعتبار لمواهبه . غير أنه يجب أن يكون ذا علم ولو قليلا ، وأن يكون « عثمانلياً » (أى تركياً) ، حنفى المذهب . وقلما يجيد القضاة اللغة العربية لأن معرفتها لا تلزمهم . ولا يكاد القاضى فى القاهرة يعمل شيئاً غير التصديق على حكم « نائبه » ، الذى ينظر فى أغلب الدعاوى العادية ، والذى يختاره القاضى من علماء استنبول ، أو التصديق على قرار « المفتى » الحنفى ، الذى يقيم دائماً فى القاهرة ، ويصدر فتواه فى القضايا الصعبة . ولكن النائب على الأكثر قليل المعرفة باللغة المصرية العامية . ولذلك يجب على القاضى فى القاهرة ، حيث يتكلم أغلب المتقاضين العربية ، أن يضع غاية ثقته فى « الباش ترجمان » . ومنصب هذا دائم ، ومن ثم فهو يعرف أنظمة المحكمة ، وخاصة نظام الرشوة . وهو على أتم استعداد لأن يلقن هذا النظام لكل من يستجد من القضاة والنواب . وقد يكون القاضى جاهلا بالشرع جهلا غليظاً فى كثير من تفاصيله ، وقد حدثت عدة أمثلة من هذا النوع ، ولكن يجب أن يكون النائب بارعاً فى الشرع علماً وعملا .

وعندما يرفع الشخص قضية يذهب إلى المحكمة ، ويطلب من الباش رسول (أى رئيس المحضرين) أن يرسل « رسولا » ليحضر الخصم . ويتناول الرسول قرشاً أو قرشين(٣) ، يقسمهما مناصفة بينه وبين رئيسه على انفراد . ويحضر المدعى والمدعى عليه فى بهو المحكمة الكبير : وهو غرفة كبيرة تواجه فناء فسيحاً ، ولها واجهة مكشوفة بها صف من الأعمدة والعقود . ويجلس فيها كتبة يسمى الواحد منهم « شاهداً » ، وعمله أن يصغى إلى أقوال الطرفين فى القضية

---

(١) من الفارسية ، رئيس التجار . شاه : كبير ، سيد . وبندر : سوق ، ميناء . (المترجم)
(٢) جرت العادة أن يقدم القاهرة فى أول رمضان ولكن حدد فيما بعد أول محرم .
(٣) وكان القرش المصرى عندما كتب هذا يساوى خمس الشلن أو بنسين وخمسى بنس ٢ ٢/٥

ويدونها ، ورئيسهم « الباش كاتب » . ثم يقصد المدعى أى واحد من هؤلاء الكتبة ويقرر أمامه ظروف القضية ، فيثبتها الشاهد كتابة ، ويتناول جعلا قدره قرش أو أكثر ، ثم بعد ذلك يصدر حكمه ، إذا كانت القضية لا قيمة لها ، والمدعى عليه يعترف بعدالتها ، وإلا قدم الطرفين إلى النائب فى غرفة داخلية . وبعد أن يسمع النائب القضية ، يأمر المدعى أن يستصدر فتوى من مفتى الحنفية ، الذى يتناول جعلا يندر أن يقل عن عشرة قروش ، ويزيد غالباً على مائة قرش أو مائتين . ويصدر النائب حكمه فى القضايا التافهة منفرداً وبأقل تعب . أما القضايا المهمة أو المعقدة ، فانها تنظر فى غرفة القاضى الخاصة ، أمام القاضى نفسه ، والنائب ، ومفتى الحنفية ، الذى يستدعى للفصل فيها بفتوى . وقد تزيد القضية صعوبة أو أهمية ، فيستدعى بعض علماء القاهرة . وبعد أن يصغى المفتى إلى القضية ، يصدر حكمه كتابة ، فيصدق القاضى عليه ويختم الورقة بختمه ، وهذا كل ما عليه أن يعمله فى أى قضية . ويستطيع المتهم أن يبرىء نفسه باليمين إذا لم يقدم المدعى شهوداً ، فيضع يده اليمنى على القرآن ويقول : بالله العظيم ثلاث مرات ، مردفاً : وبما يحتويه هذا من كلام الله . ويجب أن يكون الشاهد عدلا ، أو يؤكد أنه كذلك ، وألا تكون له مصلحة فى القضية . ويلزم لكل دعوى شاهدان(1) على الأقل ، أو رجل وامرأتان . ويجب أن يزكى الشاهدين شخصان آخران . وشهادة الكافر على المسلم لا تجوز شرعاً فى حالة العقوبة الشديدة . والشهادة لصالح الابن أو الحفيد أو الأب أو الجد لا تقبل ، وكذلك شهادة الأرقاء ، ولا يستطيع السيد أن يشهد لصالح عبده .

جرت العادة إلى وقت قريب أن يدفع الرسوم من يكسب القضية . أما الآن فيدفعها الطرف الآخر . والرسوم القضائية فى قضايا بيع الأموال تكون ٢ ٪ من مجموع الأملاك ، وفى قضايا الوصايا ٤ ٪ ، إلا إذا كان الوارث قاصراً فيدفع ٢ ٪ . أما القضاء فى المسائل المتعلقة بملكية العقار ، فيكون رسمه ٢ ٪ ، إذا كانت قيمة العقار معلومة ، وإلا يكون إيجار سنة . هذه هى الرسوم الشرعية ، ولكن كثيراً ما يلزم المتقاضى بأكثر من القدر الواجب . ويحدد نائب

---

(1) هذا الحكم أخذ من الأسفار الموسوية الخمسة . أنظر التثنية الاصحاح ١٩ الآية ١٥ (ونصها : لا يقوم شاهد واحد على إنسان فى ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التى يخطىء بها . على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر) . ويستطيع الرجل أن يمتنع عن الشهادة .

القاضى مقدار الرسوم فى غير الأحوال المتعلقة بالملكية . وهناك رسوم أخرى غير الرسوم القضائية يجب دفعها بعد الحكم . مثلا ، إذا كان الرسم القضائى مائتين أو ثلاثمائة قرش ، وجب دفع قرشين تقريباً إلى الباشترجمان ، ومثلهما للباش رسول ، وقرش للرسول ، أو لكل رسول قام بعمل .

وكثيراً ما تؤثر مكانة المتقاضين أو الرشوة فى حكم القاضى . ويرتشى النائب والمفتى على العموم ، ثم يتناول القاضى نصيبه من النائب . وقد يحكم فى القضية لصالح الطرف الذى يدفع أكثر من الآخر ، وعلى الأخص عندما تطول الخصومة . ويحدث ذلك كثيراً فى القضايا المعقدة . وصرامة العدل لا تتحقق دائماً ، ولو كان تطبيق القانون لا تعترضه صعوبة ،لاستخدام المتقاضين الرشوة والشهادة الزور . وقد يصعب الوثوق بالمدى الهائل الذى وصلت إليه عادة الرشوة وشراء شهود الزور فى المحاكم الإسلامية ، وقد يقتضى ذلك أدلة قوية تستند إلى سلطة لا ريب فيها . وهأنذا أورد مثل هذا الدليل بتلخيص دعوى نظرت من زمن غير بعيد ، قصها على ناموس الشيخ المهدى وإمامه ، وكان حينئذ مفتى القاهرة الأعلى (لكونه المفتى الأكبر لمذهب الحنفية) ، وكانت الدعوى قد عرضت عليه بعد أن أصدر القاضى حكمه فيها .

توفى تاجر من تجار القاهرة الأتراك عن أملاك قدرها ستة آلاف كيس(1) ، ولم يكن له وارث غير بنت واحدة . فلما سمع السيد محمد المحروقى الشاه بندر بهذا الحادث ، رشا فلاحاً عادياً ، كان بواباً لشيخ محترم ، وكان الناس يعرفون عائلته ، ليدعى أنه ابن أخى المتوفى ورفع الأمر إلى القضاء . ولما كانت الدعوى ذات أهمية عظيمة استدعى بعض أكابر علماء المدينة ليحكموا فيها . وكانوا جميعاً محل رشوة المحروقى أو تأثيره ، كما سيبين الآن ، وأتى بشهود زور ليشهدوا بصدق ادعاء البواب ، وبآخرين ليزكوا هؤلاء الشهود . فقضى القاضى بثلاثة آلاف كيس لابنة المتوفى ، وبالنصف الآخر للبواب ، وتناول المحروقى المبلغ المحكوم به بعد أن خصم منه ثلاثمائة قرش أعطاها للبواب . وكان المفتى الأكبر الشيخ المهدى غائباً عن القاهرة أثناء نظر الدعوى . فلما عاد بعد أيام ، توجهت ابنة التاجر المتوفى إلى منزله ، وقصت عليه أمرها متوسلة إليه أن ينصفها . ومع أن المفتى اقتنع بما أصابها من جور ، ولم يشك فى صدق

---

(1) والكيس خمسمائة قرش . وكان يساوى حوالى سبعة جنيهات استرلينية ويساوى الآن خمسة جنيهات فقط .

ما نسبته إلى المحروقى فى هذه القضية ، فقد أخبرها أنه لا يستطيع نقض الحكم إذا لم يجد مخالفة فى إجراءات الدعوى ، وأنه سيطلع على الدعوى فى سجل المحكمة . ثم أسرع إلى الباشا ، الذى كان للمفتى عنده حظوة كبيرة لعلمه واستقامته ، وشكا إليه أن المحكمة قد أسقطت حرمتها بافراطها فى الظلم ، وأن العلماء يقبلون شهادة الزور مهما كان أمرها واضحاً ساطعاً ، وأنهم أصدروا أخيراً حكماً أثناء غيابه أثار لغط المدينة وعجبها . فاستدعى الباشا القاضى وجميع العلماء الذين قضوا فى الدعوى لمقابلة المفتى فى القلعة. ولما اجتمعوا خاطبهم فى شكوى المفتى كما لو كان الأمر صادراً منه . فظهر السخط عليهم لهذه التهمة وطلب القاضى أن يعرف علام تستند هذه التهمة. فأجابه الباشا إلى قرائن عامة ، ولكنها تستند خاصة على القضية التى سلمت فيها المحكمة بادعاء بواب قرابة ووراثة لا يمكن الاعتقاد بحقه فيها . فأبان القاضى أنه أصدر الحكم تبعاً لإجماع العلماء الحاضرين حينئذ . فقال الباشا لنقرأ محضر الدعوى . فأتوا بالمحضر ، ولما فرغوا من تلاوته ، قال القاضى ، بصوت جهورى ولهجة صلفة ، « وهكذا حكمت ! » فصاح المفتى ، بصوت أعلى وأكثر سلطة ، « وكان حكمك زوراً » . فشخصت الأنظار دهشة ، آناً إلى المفتى ، وآناً إلى الباشا ، وآناً آخر إلى العلماء . وأدار القاضى والعلماء رؤوسهم ، وأخذوا يعبثون بلحاهم. ثم صاح القاضى ، ضارباً صدره بيده : « أنا ، قاضى مصر ، أصدر حكماً زوراً ؟ » . وصاح العلماء : « ونحن ! نحن يا شيخ مهدى ! نحن علماء الإسلام نقضى قضاء زوراً ؟ » ، وقال المحروقى وقد كان يحضر مجالس الباشا لما بينهما من معاملات تجارية ، « يا شيخ مهدى احترم العلماء كما يحترمونك » . فصاح المفتى « يا محروقى ! هل لك شىء فى هذا الأمر ؟ صرح بنصيبك منه وإلا فالزم السكوت . اذهب وتحدث فى مجتمعات التجار ولا تسمح لنفسك مرة أخرى أن تنبس ببنت شفة فى مجلس العلماء » . فترك المحروقى القصر فى الحال ، لأنه أدرك كيف ينتهى الأمر ، وأن عليه أن يرتب أموره . وطالب العلماء المفتى بالدليل على بطلان قرارهم. فسحب المفتى من صدر قفطانه كتيباً فى أحكام المواريث وقرأ عليهم : « لإثبات دعوى القرابة والوراثة يجب التحقق من اسم أبى المدعى وأمه وجده لأبيه ولأمه وجدته لأبيه ولأمه » ، ولم يكن شهود الزور معدين لإعطاء هذا البيان ، فكان هذا نقصاً فى الشهادة ينقض الحكم. وجىء بالبواب أمام المجلس ، ولما أنكر الفرية التى جعلوه محورها ، أمر الباشا أن يجلد بشدة. ولكن على الرغم من التعذيب الذى احتمله ، لم يعترف إلا بأنه لم يتناول من الثلاثة آلاف كيس غير ثلاثمائة قرش . وفى أثناء ذلك ذهب المحروقى إلى سيد البواب ، وأخبره بما حدث فى القلعة وما ينتظر ، ووضع

بين يديه ثلاثة آلاف كيس، ورجاه أن يذهب حالا إلى المجلس ويسلم هذا المبلغ قائلا إنه كان أمانة عنده من خادمه. وقد تم ذلك، وأعيدت النقود إلى ابنة المتوفى.

وفي قضية أخرى سلط فيها باشا من الباشاوات (غير محمد علي) نفوذه على القاضي ومجلس العلماء حتى أصدروا حكماً مخالفاً للشريعة، فعارضهم الشيخ المهدي بالطريقة نفسها. وهذا المفتي مثل نادر في النزاهة والاستقامة. ويقال إنه لم يتناول على فتاويه أجراً. وقد توفي هذا الشيخ بُعيد زيارتي الأولى لمصر. ويمكنني أن أسرد حوادث أخرى على ذيوع الرشوة في القضاء، ولكن ما قدمته يكفي.

في القاهرة خمس محاكم دنيا. وفي بولاق، ميناء القاهرة الرئيسي، محكمة. وفي مصر العتيقة، ميناؤها الجنوبي، محكمة أخرى. ويرأس كل محكمة من هذه المحاكم الصغيرة شاهد من المحكمة الكبرى، نائباً عن كبير القضاة، الذي يصادق على تصرفاته. وتحال على هذه المحاكم القضايا المتعلقة ببيع الأموال والوصايا والزواج والطلاق. فالقاضي يزوج اليتيمات القاصرات اللاتي ليس لهن أقارب بالغون يتولون الوصاية، والنساء كثيراً ما يلجأن إلى أحكام الشريعة لإجبار أزواجهن على الطلاق. ويوجد أيضاً في كل مدينة من مدن الريف قاض، يكون على العموم من أهل البلد، ولا يكون أبداً تركياً. وهو يقضي في جميع القضايا، أحياناً في حدود معرفته للشريعة، وعادة طبقاً لفتاوى المفتي. ويقوم القاضي الواحد عامة بخدمة القضاء في أكثر من قرية.

ولكل مذهب من المذاهب الأربعة «شيخ»، أي رئيس ديني، يختار من أعلم علماء المذهب، ويقيم بالقاهرة. ويؤلف شيخ الجامع الأزهر (وهو شافعي المذهب دائماً، ويكون شيخ ذلك المذهب أحياناً)، مع شيوخ المذاهب الأربعة والقاضي ونقيب الأشراف وغيرهم كثيرين، مجلس العلماء(١)، الذي كان يثير الرهبة والاحترام في نفوس الحكام الترك والمماليك ويحد من طغيانهم. وقد فقدت الآن هذه الهيئة نفوذها على الحكومة إلا قليلا. ويتحاكم الطرفان المتنازعان في الخصومات التافهة أمام شيوخ المذاهب غالباً، إذ أن كلا من هؤلاء هو مفتي مذهبه الأكبر، ومحل الاحترام العظيم

---

(١) ويعطى لقب عالم بصفة أخص إلى أساتذة الفقه. ويستعمل الكتاب الأوربيون جمع هذه الكلمة عوضاً عن مفردها.

والامتثال التام . على أن الباشا كثيراً ما يعرض على هؤلاء الشيوخ القضايا الصعبة الخاصة بأحكام القرآن والسنة . ولكنه لا يرى دائماً رأيهم ، مثل استشارته إياهم فى شرعية التشريح للعلم ، فلما أعلنوا أن التشريح يتنافى وأحكام الدين ، قرر ممارسته لطلبة الطب المسلمين .

ويخضع حرس العاصمة للقيادة العسكرية أكثر من خضوعه للسلطة المدنية. وقد كان من سنوات قليلة تحت رياسة « الوالى » و« الظابط ». إلا أنه منذ زيارتى الأولى لمصر ألغيت سيادة الأول . وكان واجب الرئيس أن يقبض على اللصوص وغيرهم من المجرمين. وكانت المومسات تحت ولايته ، وكانت عنده قائمة بعددهن ، وكان يفرض عليهن ضريبة . وكان يشرف أيضاً على سيرة النساء على العموم ، ويضيف من تتهم بفاحشة واحدة إلى قائمة المومسات ، وتفرض عليها الضريبة إلا إذا فضلت أن تتفادى هذا العار برشوة ذات اعتبار . وكان النظام المطرد ، ولا زال ، أن يلزم شخص بجباية الضريبة من المومسات(١) العازبات والمتزوجات على العموم . ولكن أولئك الأخريات قد يقتلن إذا لم يستطعن الخلاص بالرشوة أو بحيلة أخرى . ومثل هذه الإجراءات مع ذلك تخالف القانون من ناحيتين ، فنص القانون أن كل من يتهم امرأة بالزنا أو ارتكاب الفاحشة ، دون أن يقدم أربعة شهود على الجريمة ، يجلد ثمانين جلدة ، وينص على عقوبات أخرى غير فقد الاعتبار والغرامة توقع على من حكم عليها .

سبقت الإشارة إلى عمل الضابط . وهو الآن رئيس الشرطة . أما مخبروه الذين لا تميزهم ميزة ، فينتشرون فى أحياء العاصمة ، ويختلطون بالناس فى المقاهى وكلهم عيون وآذان . وأغلبهم لصوص عُفى عنهم . وهم يرافقون الحرس فى دورته الليلية خلال شوارع القاهرة . ولا يسمح لأحد غير العمى بالتجول فى الخارج بلا مصباح أو أى نور بعد غروب الشمس بحوالى ساعة ونصف . وقلما ترى سائراً بعد ساعتين أو ثلاث . ولا يكاد الليل ينتصف حتى تمر فى العاصمة جميعها فلا تقابل أكثر من عشرة أشخاص أو عشرين ، خلا المراقبين والحراس وبوابى الحارات

---

(١) منذ كتابة هذا أجبرت العاهرات فى مصر على ترك مهنتهن الفاحشة . (المؤلف)

من يوميات المؤلف : « السابع من يونيو ١٨٣٤ . — ألغى نظام العاهرات ، والغوازى أيضاً ، فى العاصمة وضواحيها أثناء الأسبوع المنصرم ... وكانت العاهرات قد زاد عددهن زيادة بالغة وانتشرن فى أحياء العاصمة . وسكن بعضهن ، وقد اقتنين مالا وافراً ، بيوتاً تكاد تكون جديرة بسكن العظماء » .

أنظر المستشرق الكبير إدوارد وليم لين . ص ٧٩ . (المترجم)

والدروب . وعندما يمر عابر سبيل يناديه الحارس بالتركية : « من هذا ؟(١) » فيرد المار بالعربيـة : « ابن بلد ! (٢) » . والحارس الخاص كذلك يصيح : « وحّد الله » أو « وحّـد » فقط . فيجيبه السائر : « لا إله إلا الله » ويجيب النصارى مثل المسلمين بهذا القول ، لأنهم يفهمون التوحيد فهماً مختلفاً . والمفروض أن اللص أو من يشرع فى مخالفـة القانون لا يجرؤ على النطق بهذه الكلمات . وبعض الأشخاص يجيبون الحارس بصوت مرتفع : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ويستخدم الحارس الخاص لحراسة الأسواق والأحياء ليلا . وهم يحملون نبوتاً ولا يحملون مصباحاً .

والعادة أن يتجول « الضـابط » ، أو أغا الشرطة ، فى شوارع القاهرة ، ويرافقه غالباً السياف و « الشعلجى » ، أى حامل الشعلة المستعملة إلى الآن(٣) . وهذه الشعلة تشتعل حال إضرامها فلا يصعد لهبها إلا حين تحرك فى الهواء ، عندما تضرم فجأة فى الخارج . وهكذا تؤدى عمل مصابيحنا المعتمة . وقد يوضع على الطرف المشتعل إناء صغير أو جرة أو يغطى بشىء آخر حين لا تلزم الإنارة . ويقال إن اللصوص كثيراً ما يشعرون بالشعلة فى الوقت المناسب فيتفادون مقابلة حاملها . وعقوبة من يقابله الشرطى بلا نور هى الضرب ، وقلما يحاول المقاومة أو الهرب . وكان لرئيس الشرطة سلطة مطلقة فى ضرب عنق أى مجرم أو مذنب بلا محاكمة ، حتى ولو كان القانون لا يعاقبه بالإعدام . وكذلك كان لكثير من المرؤوسين هذه السلطة كما سترى بعدُ . وقد ندر فى السنوات الأخيرة مباشرةُ هذه السلطة ، وأعتقد أنه لم يعد يسمح لهم بذلك الآن . ويقوم أعوان الضابط بدوراتهم الليلية مع الجنود لأنهم أحسن معرفة منهم بمخابىء اللصوص والأشرار ومناهجهم . ويندر أن يباشر الضابط نفسه سلطة تخرج عن حد القرع أو الجلد .

كثيراً ما يتخـذ رؤساء الشرطة وسائل غريبة ، مثـل الذى نراها فى بعض قصص ألف ليلة وليلة ، لاكتشـاف المجرم ، وذلك قبل المحدثات الأخـيرة . وأذكر هنا حادثاً ، لا يختلف فى صحته أحـد ، على سبيل المثـال . وسأرويه بالطريقـة التى سمعتها : قصـد ذات يوم رجل مسكين أغا الشرطة وقال له :

---

(١) « كيمن در أو » عوضاً عن « كيمدر أو » .
(٢) ويجيبه « أعمى » إذا كان لا يرى .
(٣) ويخطىء البـارون هامر پرجشـتال باستعمال « مشعلجى » بدلا من « شعلجى » . فالعامل الأخير لا يحمل مشعلا ولكن شعلة مفتولة . وقد وصفت المشعل ورسمته فى الفصل السادس .

ياسيدى، اقبلت إلىّ اليوم امرأة وقالت لى: خذ هذا القرص ودعه فى حيازتك وقتاً وأقرضنى خمسمائة قرش. فأخذته منها ياسيدى، وأعطيتها الخمسمائة قرش وانصرفت. وبعد انصرافها قلت لنفسى: لأنظر إلى هذا القرص، وتأملته فاذا هو من النحاس الأصفر، فلطمت وجهى وقلت: سأذهب إلى الأغا وأقص عليه قصتى عسى أن يحقق هذه المسألة ويوضحها، فليس هناك غيرك من يستطيع مساعدتى فى هذه القضية. فقال له الأغا: إصغ إلى ما أقوله لك يا رجل. أنقل ما فى دكانك ولا تترك فيه شيئاً ثم أقفله، وبكر فى الذهاب صباح اليوم التالى، وبعد أن تفتح دكانك صح قائلا: ياحسرتاه على أموالى! ثم خذ فى يدك مدرتين واضرب نفسك بهما وصح: يا أسفاً على أموال الناس! فاذا سألك أحد: ماذا حدث؟ فقل له: ضاعت أموال الناس: فقدت رهناً كان عندى لامرأة، لو كان ملكى لما انتحبت هكذا. هذا كفيل بأن يكشف لنا الأمر. ووعد الرجل بتنفيذ ما طلب منه، فنقل كل ما فى دكانه. وفى بكرة اليوم التالى ذهب إلى دكانه وفتحه وأخذ يصيح: يا ويلاه على أموال الناس! وأخذ مدرتين وضرب نفسه بهما وجعل يدور فى أنحاء المدينة صارخاً: يا حسرتاه على أموال الناس! ضاع رهن لامرأة كان عندى، لو كان ملكى لما أهمنى. فسمعت المرأة التى رهنت القرص صياحه وتبينت أنه الرجل الذى خدعته. فقالت لنفسها: اذهبى وارفعى دعوى عليه. وذهبت إلى دكانه راكبة حماراً لتكسب نفسها أهمية وقدراً، وقالت له: يا رجل، اعطنى ما لى عندك. فأجابها: ضاع. فصاحت: قطع الله لسانك! هل أضعت مالى؟ لأذهبن إلى الأغا ولأخبرنه بذلك. فقال لها: اذهبى! وذهبت إلى الأغا وسردت شكواها. فبعث الأغا فى طلب الرجل. فلما جاء قال للمشتكية: ما لك عنده؟ فأجابته: قرص من الذهب البندقى الأحمر. فقال الأغا: يا امرأة، عندى هنا قرص ذهبى أود أن أريك إياه. فقالت: أرينيه، ياسيدى، فاننى أعرف قرصى. فحل منديلا وأخذ منه القرص الذى رهنته، وقال: أنظرى. فنظرت إليه وعرفته، فطأطأت رأسها. وقال الأغا: إرفعى رأسك وأخبرينى أين نقود هذا الرجل؟ فأجابت: يا سيدى، إنها فى بيتى. فأرسل معها إلى المنزل السياف مجرداً من سيفه، وعادت بكيس فيه النقود. وأعيدت الخمسمائة قرش إلى صاحبها. ثم أمر الأغا السياف بأخذ المرأة إلى الرميلة، وهى مكان فسيح مكشوف أسفل القلعة، ليقطع رأسها هناك. ونفذ الأمر.

أما أسواق القاهرة، والموازين والمكاييل، فتخضع لمراقبة المحتسب. وهو يجوس من حين لآخر خلال المدينة، يتقدمه عامل يحمل قسطاساً كبيراً، ويتبعه

الجلادون والخدم . وهو يمر على الدكاكين والأسواق ، واحداً واحداً ، وأحياناً يتفقد واحداً هنا وواحداً هناك ، فيفحص الميزان والأوزان والأكيال ، كما يستفهم عن أثمان المؤن من مأكولات وغيرها . وكثيراً ما يستوقف خادماً ما ، أو غيره ، يقابله صدفة فى الطريق حاملاً مأكولات قد اشتراها ، فيسأل عن ثمنها ووزنها . فاذا تبين له أن البائع استعمل موازين أو مكاييل مغشوشة ، أو طفف الميزان ، أو زاد على سعر السوق ، أنزل به العقوبة فى الحال . والعقوبة العامة هى الضرب أو الجلد . ورأيت مرة رجلا تنفذ عليه عقوبة مختلفة ، لبيعه خبزاً ناقص الوزن . خزم أنفه ، وعلقت فيه ، بطول الشبر وبسُمك عرض الأصبع . وجرد من ثيابه ، إلا قطعة من الكتان حول صلبه ، وشُدّ إلى قضبان شباك من شبابيك جامع الأشرفية ، فى أهم شوارع المدينة ، وذراعاه خلفه وقدماه فوق قاعدة الشباك . وبقى كذلك حوالى ثلاث ساعات معرضاً لأنظار الجمهور المحتشد وأشعة الشمس المحرقة .

وكان ممن عين محتسباً ، بعيد قدومى الأول إلى مصر ، رجل كردى اسمه مصطفى كاشف ، تولى سلطته بأقسى الطرق ، فكان يقطع شحمة الأذن أو طرفها لجرم مهما صغر ولغير جرم . وفى مرة قابل رجلا شيخاً يقود حميراً محملة بطيخاً ، فأشار المحتسب إلى واحدة من أكبرها حجماً ، وسأل عن ثمنها . فأمسك العجوز شحمة أذنه وقال : اقطعها ياسيدى ! فأعاد عليه المحتسب السؤال مرة بعد مرة ، فكان الجواب واحداً . فاغتاظ المحتسب ، ولكنه لم يتمالك أن ضحك ، وقال : هل أنت مجنون أو أصم ؟ فأجاب العجوز : لا ، لست مجنوناً ولا أصم ، ولكنى أعرف أننى إذا قلت ثمن البطيخة عشرة فضة ، فستقول : اقطع أذنه . وإذا قلت خمسة فضة أو فضة واحدة ، فستقول : اقطع أذنه . لذلك اختصرت الأمر وقلت اقطعها ودعنى أتبع طريقى . ولم ينجه إلا ما فى تهكمه المفاجىء من فكاهة . — كان قطع الأذن هو العقوبة العادية التى يوقعها هذا المحتسب ، ولكنه اتبع أحياناً طرقاً مختلفة . فقد عاقب جزاراً ، باع لحماً ينقص عن الوزن الحقيق أوقية ونصفاً ، بقطع هذا القدر من ظهره . وأمر بتجريد بائع كنافة ، حصل على زيادة فى الثمن تافهة ، من ثيابه ووضعه على الصينية النحاسية المستديرة حيث تسوى الكنافة ، وتركه كذلك حتى احترق احتراقاً رهيباً . وكان يعاقب الجزارين بوضع كلابة فى أنوفهم يعلق بها قطعة من اللحم . وفى ذات يوم قابل هذا المحتسب رجلا حاملا صندوقاً كبيراً صفت فيه قلل فخارية من سمنود ، وهو يبيعها بوصفها من قنا ، فأمر أتباعه أن يكسروا القلل

على رأسه واحدة واحدة . وكان يظهر طغيانه خارج ولايته . ففى ذات مرة خطر له أن يرسل حصانه إلى الحمام ، وطلب من صاحب حمام بجواره أن يعد العدة لاستقباله والعناية بتحميته وتنعيم جلده . فثقـل على صاحب الحمام هـذا الأمر العجيب ، وخاطر بأن قال : إن أرضية الحمام من الرخام ، وقد ينزلق الجواد فيقع ، وقد يصاب ببرد عنـد خروجه ، فيحسن لذلك نقـل ماء الحمام إلى الإصطبل حيث تباشر عملية الحمام . فقال مصطفى كاشف : إنى أرى السبب غير ذلك . أنت لا تريد أن يذهب جوادى إلى حمامك . وأمر بعض خـدمه أن يطرحوه أرضاً ، ويضربوه بالعصى حتى يأمرهم بالكف . ولم يأمرهم بالكف حتى مات المسكين .

ولسنوات قليلة خلت كانت العادة أن يسعى بين يدى المحتسب ، عند طوافه بالمدينة لفحص الموازين والمكاييـل ، رجل معه ميزان أكبر حجماً من الميزان المستعمـل . ويقال إن قب الميزان كان أنبوبة مجوفة بها زئبق ، فكان حامل الميزان يستطيع إذا عرف الذين رشوا سيده أن يرجح إحدى الكفتين بسهولة .

ويشرف على الأسواق العامة المستخدمون المكلفون بمراقبـة تجارة الباشا وصناعاته المختلفة . ووظيفتهم كوظيفة المحتسب سواء بسواء . وقد اشتهر بعضهم بارتكاب أرذل أنواع البغى والقسوة . وكان أحدهم ، ويسمى على بك « ناظر القماش » ، إذا وجد أحداً يملك نولا خاصاً ، أو صادفه يبيع ما نسجه ، يشده فى قطعة من هـذا النسيج ، يغمسها فى الزيت والقار ، ثم يعلقه هكذا فى فرع شجرة ، ويوقد فيه النار . فأباد الكثيرين بهذه الطريقة الوحشية . وقد مات هو نفسه حرقاً فى جم غفير أثناء انفجار مخزن بارود بمنحدر القلعة الشمالى سنة ١٨٢٤ ، العام السابق على قدومى الأول إلى مصر . وقال صديقى الذى حدثنى عن فظائع هذا الوحش : « عندما نقلت جثته لدفنها ، صلى عليها الشيخ العروسى ، شيخ الجامع الأزهر يومئذ ، فى مسجد الحسين . وكنت أقوم بالتبليغ خلف الإمام ، فلما نطق الشيخ بالدعاء ، ساد السكوت بين الحاضرين الكثيرين ، ومضى الشيخ يقول : وكان من الصالحين ، فلم يسمع لأحد صوت . فارتبك الشيخ ، وقال بصوت خافت : ليرحمه الله . ثم قال صديقى ، مواصلا حديثه : الآن نستطيع أن نؤكد أن مصير هـذا الرجـل الملعون إلى جهنم . ومع ذلك لا تزال زوجتـه تقيم له ختمة فى منزلها ، وتوقد له كل ليلة شمعتين فى مسجد الحسين » .

ولكل حى من أحياء العاصمة شيخ ، يسمى « شيخ الحارة » ، وهو يباشر سلطته للمحافظة على النظام ، ولفض صغير المشاكل بين السكان ، ولطرد من يعكر صفو الجيران . وتنقسم العاصمة إلى ثمانية أقسام ، رأس كلا منها شيخ يسمى « شيخ الثمن »(١) .

وكذلك كان لكل طائفة من الطوائف التجارية والصناعية المختلفة فى العاصمة وفى غيرها من المدن الكبيرة شيخ يحكم فى المنازعات المتعلقة بهذه التجارة أو الحرفة ، ويصدق على قبول الأعضاء الجدد .

كذلك يخضع خدم القاهرة لأمرة شيوخهم . ويستخدم الخدم بواسطة هؤلاء الشيوخ ، إذ يشهدون لهم بحسن السلوك مقابل قرشين أو ثلاثة . فاذا ارتكب الخادم سرقة يلزم الشيخ بتعويض السيد ، ولو حصل على المال المسروق .

واللصوص أيضاً ، منذ سنوات قليلة ، اتخذوا كبيراً منهم شيخاً عليهم . وكثيراً ما كان هذا الشيخ يطالب بالبحث عن المسروقات ، وتقديم المجرمين للمحاكمة . وكان على العموم يقوم بذلك . ومما يستحق الذكر أن هذا النظام العجيب كان سائداً فى عهد المصريين القدماء(٢) .

ويحكم بطريرك الأقباط ، وهو الرئيس الأعلى لكنيسته ، فى القضايا الصغيرة بين المتقاضين من طائفته فى العاصمة . ويقوم مرؤوسوه من القسس مقامه فى البلاد الأخرى ، وقد تستأنف أحكامهم أمام القاضى . وللمسلم الذى يعتدى عليه قبطى أن يرفع أمره إلى البطريرك أو إلى القاضى . أما القبطى الذى يقاضى المسلم فيجب عليه أن يقصد القاضى . واليهود كذلك . والفرنجة أو الأوربيون على العموم لا يخضعون إلى غير قناصلهم ، إلا إذا جنوا على مسلم ، فيسلمون إلى السلطات التركية ، التى تستأنف أمامها ، من ناحية أخرى ، قضايا الفرنجة الذين يعتدى عليهم أى مسلم .

ويخضع سكان الأقاليم لحكم المستخدمين الأتراك والمصريين. ويقسم القطر المصرى إلى عدة مديريات واسعة ، يتولى كلا منها « عثمانلى » (أى تركى) .

---

(١) كانت مراكز الشرطة تسمى سابقاً ، وإلى وقت غير بعيد ، « الثمن » . (المترجم)
(٢) أنظر ديودور الصقلى . الكتاب الأول ، الفصل الثمانون .

وتقسم هذه المديريات إلى مراكز، يديرها موظفون من الوطنيين يلقبون «بالمأمور» و «الناظر». وللقرية، كالمدينة، شيخ، يسمى «شيخ البلد»، ويكون من أهل القرية المسلمين. وكان هؤلاء المستخدمون جميعاً، ما عدا شيخ البلد، تراكاً من قبل. وكان هناك ولاة أتراك آخرون يتولون المراكز، وكان يطلق عليهم اسم «كاشف» و «قائمقام». وقد حدث هذا التغيير قبيل زيارتى الثانية لمصر. ويشكو الفلاحون من أن حالهم أصبحت أسوأ مما كان قبلا، ولكنهم على العموم يقاسون طغيان الولاة الأتراك أشد مقاساة.

ويبين الحادث الآتى حالة الفلاح المصرى فى بعض الأقاليم بعض البيان. فى ليلة ما ذهب حاكم مدينة طنطا(١)، وهو تركى(٢) ساءت سيرته لأعماله الهمجية، إلى أهراء الحكومة بالمدينة، فوجد فلاحين نائمين هناك، فسألهما من يكونان وماذا يفعلان فى هذا المكان. فقال أحدهما أنه أحضر من إحدى قرى المركز ١٣٠ أردباً من القمح. وقال الآخر إنه أحضر ٦٠ أردباً من أرض تابعة للمدينة. فقال الحاكم لهذا: أيها اللص! هذا الرجل يورد ١٣٠ أردباً من قرية صغيرة، وانت تورد ٦٠ أردباً من أراضى المدينة؟ فأجاب فلاح طنطا: «هذا الرجل لا يورد القمح إلا مرة واحدة كل أسبوع، أما أنا فأورده كل يوم» فأسكته الحاكم وأمر أحد الخدم أن يشنقه على فرع شجرة قريبة. فنفذ الأمر، وعاد الحاكم إلى منزله. وفى الصباح التالى عاد ثانياً إلى الأهراء، فبصر برجل ينقل غلالا كثيرة إلى الداخل. فاستفسر عنه وعن المقدار الذى أتى به. فأجابه الخادم الذى شنق الفلاح فى الليلة السابقة: هذا هو الرجل يا سيدى الذى شنقته إطاعة لأوامرك» ليلة أمس، وقد أحضر ١٦٠ أردباً» فصاح الحاكم: «ماذا؟ هل بعث الرجل من قبره؟» فأجابه الخادم: «لا يا سيدى. إنى علقته وقدماه كانتا تلمسان الأرض، ولما انصرفت حلت عقدة الحبل. إنك لم تأمرنى بقتله» فدمدم التركى قائلا: «آها!

---

(١) هكذا تنطق الآن. وكانت سابقاً طندتا. (المؤلف)
أنظر الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك الجزء الثالث عشر صفحة ٥٤: طندتا بمهملة مفتوحة فنون ساكنة فدال مكسورة فمثناة فوقية مقصورة. كذا سمع من بعض الفضلاء، والعامة يقولون طنتا وهى مدينة كبيرة، وقسمها القبطى القديم طنيطاد، وقال ابن حوقل إن طندتا قرية كبيرة بها جوامع وأسواق وملحق بها جملة قرى. (المترجم)
(٢) سليمان أغا السلحدار وقد توفى حين كتابة هذا الكتاب.

إن الشنق والقتل شيئـان مختلفان . إن اللغـة العربية غنية . فى المرة القادمة سأقول اقتل . احترس من أبى داود(١) » . وهذه هى كنيته .

وأذكر حادثة أخرى تناسب المقام زيادة فى بيان طبيعة الحكومة التى تحكم المصريين يومئذ . عين فلاح ناظراً على المنوفية ، قبيل قدومى الثانى إلى مصر . وفى أثناء جباية الضرائب ، طولب فلاح فقير بمبلغ ستين ريالا (والريال تسعون فضة ، فالمبلغ مائة وخمسة وثلاثون قرشاً ، وكان يساوى حينذاك ثلاثين شلناً تقريباً) . فقال الفلاح إنه لا يملك غير بقرة لا تكاد تصلح شأنه وتقيم أوده هو وعائلته . فلم يأمر النـاظر بضربه ، كما هى العـادة عندما يمتنع الفلاح عن دفع الضريبـة ، وإنما بعث بشيخ البلد ليأتى ببقرة الفلاح المسكين ، ثم أمر بعض الفلاحين بشرائها . فلم يستطع أحد شراءها لقلة المال . فأرسل الناظر فى طلب الجزار ، وأمره بذبح البقرة وتقطيعها ستين قطعة . وبعد أن دفع إلى الجزار رأس البقرة أجرة له ، أحضر ستين فلاحاً معاً ، وأجبر كلا منهم على شراء قطعة من البقرة بريال . فذهب صاحب البقرة ، باكياً شاكياً ، إلى محمد على الدفتردار رئيس الناظر ، وقال له : «ياسيدى أنا مظلوم بائس . لم أكن أملك غير بقرة واحدة ، بقرة حلوب . كان لبنها قوتنا أنا وعائلتى ، وكانت تحرث لى الأرض وتدرس الغلال . وكانت معيشتى كلها عليها . فقد أخذها الناظر وذبحها وقطعها ستين قطعة باعها إلى جيرانى بستين ريالا ، بينما كانت تساوى مائة وعشرين ريالا أو أكثر . أنا مظلوم بائس غريب عن هـذا المكان لأنى من قـرية أخرى ، ولكن الناظر لم يرحمنى . وقد أصبحت أنا وعائلتى نسأل قوتنا ولم ندخر شيئاً . رحمتك وعدلك يا سيدى . أتوسل إليك بقداسة حريمك » . فأمر الدفتردار باحضار الناظر وسأله : « أين بقرة هذا الفلاح ؟ » فقال الناظر : « بعتها » . « بكم ؟ » . « بستين ريالا » « ولماذا ذبحتها وبعتها ؟ » . «كان على صاحبها ستون ريالا ضريبة على الأرض ، فأخذت البقرة وبعتها وفاء للمبلغ » . « وأين الجزار الذى ذبحها ؟ » . « فى منوف » . فأرسل الدفتردار فى طلب الجزار ، فلما قدم قال له : « لماذا ذبحت بقرة هذا الرجل ؟ » فأجاب الجزار : « إن الناظر أمرنى وما كان لى أن أعصى أمره لئلا يضربنى ويخرب بيتى . وقد ذبحتها وأعطانى الرأس أجرة لى » ، فقال الدفتردار : « يا رجل هل تعرف من اشترى اللحم ؟ » فرد الجزار بالإيجاب . فأمر الدفتردار ناموسه بكتابة

---

(١) أبو داود ، أبو على الخ : كنية يستعملها فلاحو مصر على العموم ولا تعنى والد داود أو والد على . وإنما تعنى الذى أبوه داود أو على .

أسماء الستين رجلا وإرسالها إلى شيخ بلدتهم لإحضارهم إلى منوف حيث أقيمت الشكوى، وسجن الناظر والجزار. وفى اليوم التالى قدم شيخ القرية معه الفلاحون الستون. فأخرج السجينان وأوقفا بين يدى الدفتردار، فسأل شيخ البلد والفلاحين: «هل كانت بقرة هذا الرجل تساوى ستين ريالا؟» فأجابوا: «يا سيدى إن قيمتها كانت أكبر» فبعث الدفتردار إلى قاضى منوف وقال له: «يا قاضى، هذا رجل ظلمه الناظر بأخذ بقرته وذبحها وبيع لحمها بستين ريالا. فما حكمك؟» فأجاب القاضى: «إن من يظلم أحد الرعية طاغية قاسى. ألا تساوى البقرة مائة وعشرين ريالا، فباعها الناظر بستين؟ إنه ظلم صاحبها». فقال الدفتردار لبعض جنده: «اقبضوا على الناظر وجردوه من ملابسه وأوثقوه» ثم قال للجزار «يا جزار ألا تخشى ربك؟ لقد ذبحت البقرة ظلماً» فأوضح الجزار مرة أخرى أنه إنما اضطر إلى إطاعة أمر الناظر. فقال الدفتردار: «أتنفذ ما آمرك به؟» فأجاب الجزار: «نعم». فقال الدفتردار: «إذبح الناظر». وسرعان ما قبض الجند عليه وألقوه على الأرض، ونحره الجزار كما ينحر الحيوان. فقال الدفتردار: «قطعه ستين قطعة». فنفذ الجزار الأمر والحاضرون يتأملون هذا المنظر ولا يجرؤون على الكلام. ثم أمر الدفتردار الفلاحين الستين أن يتقدموا واحداً واحداً، وفرض على كل منهم قطعة من لحم الناظر بدفع ريالين. وبهذه الطريقة حصل على مائة وعشرين ريالا. وبعد انصراف الفلاحين سأل الدفتردار القاضى: ماذا يكون جزاء الجزار؟ فأجاب القاضى أن يجازى كما جازاه الناظر. فأمر الدفتردار أن يعطى رأس الناظر. وفرح الجزار بنصيبه الذى لا يساوى شيئاً وهو يحمد الله على أن حظه لم يخنه أكثر من ذلك، وانصرف وهو لا يكاد أن يصدق أنه نجا بهذه السهولة. أما صاحب البقرة فدفع إليه ثمن لحم الناظر.

ويتعدى أغلب حكام الأقاليم فى طغيانهم حدود السلطة التى خولهم الباشا إياها، حتى شيخ القرية يسىء استعمال سلطته الشرعية عندما ينفذ أوامر رؤسائه وتكون للرشاوى وأواصر القرابة والمصاهرة أثرها فى تصرفات هؤلاء. فيخففون الظلم عن البعض بينما يضعفونه على البعض الآخر. وليست وظيفة شيخ القرية منصباً يقبض صاحبه مرتبه بلا عمل. ففى وقت جباية الضرائب، كثيراً ما ينال شيخ القرية من الضرب أكثر مما ينال مرؤوسيه، إذ أنه عندما لا يورد سكان القرية المبلغ المطلوب، يضرب الشيخ لتقصير الفلاحين وهو لا يدفع دائماً نصيبه حتى يشبع ضرباً. ويفتخر الفلاحون أجمعون بما يتركه الكرباج على أجسادهم من آثار لرفضهم دفع الضرائب. وكثيراً ما يتباهون بعدد الضربات التى نالوها

قبل أن يدفعوا نقودهم . ويصف اميانوس مارسلينوس Ammianus Marcellinus (١) المصريين في زمنه بالخلق نفسه ٢ .

ويبلغ إيراد والى مصر ، على ما يقال ، ثلاثة ملايين جنيه استرليني(٣) . يرد نصفها تقريباً من الضرائب المباشرة على الأطيان ، ومما يؤخذ من الفلاح ظلماً بطريق غير مباشر . ويرد النصف الباقي على الأخص من الرسوم الجمركية ، والضرائب على النخيل ، ومن بيع محصولات الأرض المختلفة التي تكسب الحكومة منها ما يزيد على الخمسين في المائة . وقد نمى الباشا الحالي إيراده إلى هذا القدر باتباعه أشد الوسائل تعسفاً . وقد نزع من الملاك أراضيهم ومنحهم معاشاً بنسبة مساحة الأرض وصفاتها . ولذلك لم يكن للمزارع ما يخلفه لأولاده غير كوخه ، وقد يترك لهم بعض الماشية وبعض مدخرات طفيفة .

وتقدر ضرائب الأطيان المباشرة حسب مزايا الأرض الطبيعية . ويبلغ متوسطها حوالى ثمانية شلنات للفدان(٤) . ولكن الفلاح لا يستطيع أن يحصى ما تطالبه الحكومة منه تماماً . فهو يعانى الكثير من الطلبات غير المباشرة (وهى تختلف باختلاف السنين ولكنها تفرض على الفدان) من الزبدة ، والعسل ، والشمع ، والصوف ، والسلال المصنوعة من السعف ، والحبال المفتولة من ألياف النخيل ، وغير ذلك من المحاصيل . ويجبر الفلاح أيضاً على دفع أجرة الجمال التى تحمل الغلال إلى شونة الحكومة ، وعلى القيام بنفقات عديدة أخرى . وتستولى الحكومة على جزء من محصول الأرض(٥) ، وأحياناً تستولى بثمن محدد مناسب على المحصول كله ، الذى قد يحجز مع ذلك ، فى عدة أقاليم ، ليعوض ديون الفلاحين المعسرين(٦) . وكثيراً ما يضطر الفلاح ، للحصول على ضروريات الحياة ، أن يسرق محصول أرضه ، ويحمل ما يستطيع حمله إلى كوخه سراً . ويحضر الفلاح بذور

---

(١) وهو أشهر مؤرخى الرومان فى القرن الرابع بعد الميلاد . وكان من يونانى سوريا ولد بأنطاكية بين سنتى ٣٢٥ و٣٣٠ على التقريب ، وتوفى بعد سنة ٣٩١ . سلك نفسه فى نظام الجيش واشترك فى عدة حملات ثم رحل إلى إيطاليا حيث كتب تاريخ الأمبراطورية الرومانية فى ٣١ جزءاً . (المترجم)

(٢) كلما تساهل الفلاح فى الدفع طلب منه أكثر . الكتاب الثانى والعشرون .
(٣) وبعضهم يقدره بخمسة ملايين والبعض الآخر أكثر من مليونين بقليل .
(٤) وقد أنقصت مساحة الفدان أخيراً .
(٥) وتستولى الحكومة دائماً على بعض المحصولات كلها مثل القطن والكتان الخ .
(٦) حتى ديون قرية ما كثيراً ما تفرض على سكان قرية أخرى سبق أن دفعوا ما عليهم .

أرضه بنفسه أو يأخذها سلفة من الحكومة ، ولكنه فى هذه الحالة قلما يحصل على كمية كافية من التقاوى ، لأن القائمين بالأمر يسرقون منها مقداراً كبيراً قبل أن يسلموها للفلاح . ولا يتسع هذا الكتاب لذكر ما يعانيه الفلاح المصرى من ظلم المأمور والمستخدمين وخياناتهم . ويندر أن يستطيع الفلاح أن ينعم بالحياة مع شدة العذاب ، لذلك لا أرى ضرورة للقول بأن الفلاح قلما يثابر على تحمل أعباء الزراعة إلا إذا أجبره على ذلك الحكام .

ولم يستول الباشا على الملكية الخاصة فحسب ، بل أضاف إلى خزائنه كثيراً من دخل المنشآت الدينية ، باعتبار أن أموالها المتراكمة تزيد على اللازم . وقد بدأ يفرض ضريبة ، حوالى نصف ضريبة الأرض المنتظمة ، على الأراضى الموقوفة على المساجد والسبل والمدارس العامة الخ . ثم استولى على هذه الأراضى استيلاء تاماً ، ومنح عوضاً عنها بعض رواتب سنوية ، لترميم المبانى ، ولنفقة الأشخاص التابعين للوقف ، من نظار وموظفين دينيين وخدم وطلبة وغيرهم من المستحقين . وقد أثار الباشا بهذا مقت رجال العلم والدين الشديد ، وعلى الأخص نظار المساجد ، الذين كانوا يثرون من الأموال الوافرة المودعة تحت رعايتهم وأمانتهم . أما ما وقف على خدمة المساجد والمنشآت العامة (وهى أوقاف مختلفة وقفها كثيرون من طبقات مختلفة) فلم يمسها الباشا حتى الآن .

وقد بلغت ضريبة النخيل حوالى مائة ألف جنيه استرلينى ، وهى تقدر حسب أنواع النخيل ، وتكون ، على العموم ، بمقدار قرش ونصف قرش على كل نخلة .

وتبلغ ضريبة الدخل ، المسماة « الفردة » ، على العموم $\frac{١}{١٢}$ أو أكثر من دخل الرجل أو مرتبه السنوى ، إذ أمكن تحديد ذلك . إلا أن الحد الأقصى لا يتعدى خمسمائة قرش . وهى تفرض فى المدن الكبيرة على الأفراد ، وفى القرى على المنازل . وتبلغ ضريبة الدخل فى العاصمة ثمانية آلاف كيس ، أو حوالى أربعين ألف جنيه استرلينى .

ويدفع سكان العاصمة وغيرهم من سكان المدن الكبيرة ضريبة ثقيلة على الحبوب الخ . وضريبة الحبوب ثمانية عشر قرشاً على الأردب من كل زوع . وهذا المقدار يساوى ثمن القمح فى الريف وقت المحصول الطيب .

الفصل الخامس

الحياة المنزلية

الآن ، وحسبنا ما نظرنا فى حالة مسلمي مصر الأخلاقية والاجتماعية ، نستطيع أن نلقى نظرة على حياتهم المنزلية وعاداتهم المألوفة . ولنبدأ بالطبقتين العليا والوسطى .

يطلق على رب العائلة أو من يبلغ سن الرجولة ، إذا لم يكن خادماً أو خاملا ، لقب « شيخ » احتراماً وتشريفاً . والمعنى اللغوى لكلمة شيخ هو عجوز ، ولكن كثيراً ما تستعمل مرادفة لفظة « سيد » ، وإن أطلقت بصفة أخص على رجال الدين وأولياء الله . ويقال للشريف من سلالة النبى « السيد » أياً كان منصبه . وكثير من الأشراف يشتغلون خدماً وزبالين وساقئين ومع ذلك يلقبون بالسيد ، ويميزون بالعمامة الخضراء(١) ، إلا أن غالبهم يفضلون على هذه الامتيازات لقب الشيخ والعمامة البيضاء . ويسمى من قام بفريضة الحج « الحاج »(٢) . على أن هناك جملة حجاج ، مثل الأشراف ، يفضلون لقب الشيخ ويطلق على العقائل بوجه عام لقب « الست » .

وقبل أن أصف عادات رب العائلة ، يجب أن أشير إلى الطبقات المختلفة التى قد تتكون منها العائلة . الحريم ، أى نساء المنزل ، ولهن غرف خاصة بهن (يطلق عليها ، كما يطلق على النساء « الحريم ») ، لا يسمح للرجال بدخولها ، ماعدا رب العائلة وبعض الأقارب الأدنين والأطفال . ويتألف الحريم من زوجة أو أكثر ،

---

(١) كثيراً ما يتزوج رجال هذه الطبقة ونساؤها من غير الأشراف . ولما كان لقب الشريف يورث من أى الأبوين فقد كثر عدد من يتمتع بهذا التمييز كثرة عظيمة . (المؤلف) والواقع أن هذا اللقب يورث من الأب فقط . (المترجم)

(٢) هذه الكلمة تنطق هكذا فى القاهرة وأغلب أنحاء مصر . ولكن أكثر البلاد العربية تنطقها « حاج » (بتعطيش الجيم) ويستعمل الأتراك والفرس بدلا منها كلمة « حاجى » (بتعطيش الجيم) .

ثم من الجوارى ، والبيض من الجوارى"والحبشيات"(أو على الأصح الجلا) يقتنين على العمـوم للتسرى ، وأما السود منهن فيتخـذن للخدمة ، وأخيراً الخادمات الحـرائر ، ولا يجوز أن يتخـذن للتسرى بأى حال . أما التابعون الذكور فهم عبيد سود أو بيض ، ثم خدم أحرار وهم الأكثرية . وقلما يبيح المصريون لأنفسهم ما أباح الدين من تعـدد الزوجات . ولا يزال عـدد من يعاشر أكثر من امـرأة بالزواج أو التسرى قليـلا . حتى أن أغلب الذين يكتفون بزوجة واحـدة لاينسرون ليتمتعوا بالهدوء المنزلى ، إذا لم يكن لسبب آخر . ولكن بعضهم يفضـل اقتناء جارية حبشية للتسرى على القيام بالنفقات الزوجية المرهقة ، ويجعل لخدمتها ، ولتنظيف غرف الحريم وللطبخ ، جارية سوداء أو خادمة مصرية . ويندر أن يحتفظ الرجل بزوجتين أو أكثر فى المنزل نفسه ، وإلا خصص لـكل منهن غرفة متميزة . ويقوم على خـدمة رب الدار وضيوفه خادم أو أكثر ، ومنهن خادم يسمى « سقا » ، ولـكنه على الأخص يقوم على خدمة السيدات وهن خارج المنزل فقط(١) ، ثم البواب وهو يجلس دائماً على باب المنزل ، والسائس للاعتناء بالاصطبل(٢) . وقلما يمتلك المصريون مماليك ، إذ أن أغلبهم فى حوزة أغنياء الترك . ويندر أيضاً أن يكون لأحـد غير عظماء الأتراك أغاوات . ويفتخر أغنياء التجـار المصريين عنـدما يسير فى ركابهم ، أو يحمل شبكهم ، عبد أسود .

يبكر المصرى فى نومه وفى استيقاظه ، وهو ينهض للصلاة قبل الفجر ، وبينما يقوم بفروض الوضوء والصلاة ، تجهز له امرأته أو جاريته القهوة ، وتحشو له شبكه تبغاً ، وتقدمهما له حين ينتهى من فروضه الدينية .

وكثير من المصريين لا يتناولون شيئاً قبل الظهر غير القهوة وتدخين الشبك وبعضهم يتناول أكلة خفيفة فى ساعة مبكرة . ويتكون الفطور من الخبز والبيض والزبد والجبن والقشـدة أو لبن الزبادى الخ . أو من « فطيرة » تؤكل وحـدها أو بالعسل يصب فوقها أو بالسكر . والفطيرة نوع من العجين يشبع بالسمن ، ويبسط رقيقاً ، ويطوى طبقـات . ومن الألوان المألوفة فى الفطـور « الفول

(١) إلا إذا كان هناك أغا ، والسقا على العموم هو رئيس الخدم .
(٢) ويطلق الآن على القائم على نظافة السيارات أيضاً . (المترجم)

المدمس »(١) ، وهو يدمس بانضاجه على مهل ليلة بطولها فى إناء من الفخار ، يدفن إلى رقبته فى نار الفرن أو الحمام ، بعد أن تسد فوهته سداً محكماً . ويؤكل الفول بزيت بذر الكتان أو بالزبد ، ويعصر عليه قليل من الليمون عموماً . ويباع هذا الفول فى أسواق القاهرة وغيرها من المدن . ويتكون طعام الفقراء من الخبز و « الدقة » ، وهى خليط من الملح والفلفل مع الزعتر أو النعناع أو الكمون وإحدى المواد الآتية أو أكثرها أو جميعها ، وهى : الكزبرة والدارصينى والسمسم والحمص . ويصنع الخبز مستديراً مسطحاً ، بطول الشبر تقريباً وفى عرض الأصبع أو أقل .

ويتمتع بالتدخين والقهوة كل من يستطيع هذا الترف ، فى الصباح المبكر وكثيراً أثناء النهار . وهناك كثيرون يندر أن تراهم بدون شبك ، إما بين أيديهم وإما مع الخادم خلفهم . ويضع المدخن ، لاستعماله اليومى ، دخانه فى كيس من نسيج الشيلان أو الحرير أو المخمل ، يحفظه فى عب قفطانه ، وكثيراً ما يكون معه كيس آخر به الزناد والصوفان .

ويبلغ طول قصبة التدخين (وأسماؤها عديدة منها الشبك(٢) والعود الخ) أربع أقدام أو خمساً ، والبعض أقصر من ذلك ، والبعض الآخر أطول بكثير . وما يستعمل عادة فى مصر يصنع من خشب « الجرمشق »(٣) (بفتح الجيم والميم والشين وتسكين الراء) . وأكثر طول القصبة ، من الفم إلى ثلاثة أرباعها ، يغطى بالحرير الذى تحد طرفيه سلوك ذهبية محبوكة بالحرير الملون ، أو تحدها ماسورتان من الفضة المذهبة . ويتدلى من الغطاء الحريرى فى الحد الأسفل شرابة حريرية . وكان هذا الغطاء مخصصاً بادىء الأمر ليبلل بالماء فيبرد بالتبخر الشبك وبالتالى الدخان . ولكن الشبك لا يغطى إلا إذا كان عتيقاً أو قبيح الشكل . وكثيراً ما يستعمل أيضاً الشبك المصنوع من خشب الكرز ، خصوصاً فى الشتاء ، وهو لا يغطى أبداً . ولا يبرد الدخان فى شبك الكرز صيفاً مثل ما يبرد فى الشبك السابق ذكره . أما « الحجر » فهو من الآجر(٤) ، وأما

---

(١) لا يزال الفول المدمس إلى الوقت الحاضر أكثر الأطعمة المصرية انتشاراً ، وهو يسود فى الطبقات الوسطى والدنيا ، وكذلك عند الأغنياء فى شهر رمضان ، عند الإفطار ، خاصة .

ولا يذكر الفول المدمس من دون قرينه : « الطعمية » (الفلافل ، فى الأسكندرية) ، فهما يعدان الطعام الشعبى الرئيسى فى مصر . والغريب أن (لين) لم يذكر « الطعمية » ضمن الألوان المألوفة فى الفطور . (المترجم)

(٢) من التركية (شبوق) .

(٣) اعتقد أنه القيقب maple .

(٤) ويوضع تحت الحجر صينية نحاسية صغيرة لصيانة السجاد أو الحصير من النار ، ويستعمل أيضاً صينية خشبية ليوضع فيها الرماد .

« الفم » ، أو « التركيبة » ، فيتكون من قطعتين أو أكثر من الكهرمان الفاتح اللون ، يصل ما بينهما زخارف من الذهب المرصع بالمينا والحجر اليماني واليشب والعقيق ، أو غير ذلك من الأحجار الكريمة أو المعادن النفيسة . والفم أثمن ما في الشبك ، وقد يرصع بالماس . ويبلغ ثمن الشبك ، الأكثر شيوعاً بين الطبقة الوسطى ، من جنيه إلى ثلاثة جنيهات أسترلينية . ويوضع داخله أنبوبة من الخشب كثيراً ما تغيّر كلما تلوثت بزيت الدخان ، والشبك ذاته يتطلب النظافة كثيراً ، وينظف بألياف الكتان مشدودة في سلك طويل . ويعيش كثير من فقراء القاهرة على تنظيف الشبك(١) .


شكل ٣٧ (قصبات التدخين)

ويدخن أفراد الطبقة الراقية في مصر تبغاً له عطر لطيف لذيذ ، يجلب أكثره من جوار اللاذقية في سوريا . وأحسن الأصناف «الدخان الجبلي» يزرع على التلال القريبة من هذه المدينة . وهناك صنف قوي ينسب إلى مدينة صور ، وهو « الدخان الصوري » يخلط أحياناً بالصنف السابق ، ويستعمله أفراد الطبقة الوسطى . وعندما يدخن المصريون أو الشرقيون يسحبون نفساً طويلا ، فيصل كثير من الدخان إلى الرئة . ويعبرون عن التدخين عادة بشرب الدخان أو شرب التبغ . والقليل يبصق عندما يدخن . ولم أر أحداً يفعل ذلك إلا نادراً جداً .

ويستعمل بعض المصريين الشبك الفارسي الذي يمر فيه الدخان خلال الماء ، وهذا النوع يستعمله عادة أفراد الطبقة الراقية . ويسمى « نارجيلة » ، لأن الوعاء الذي يحوي الماء جوزة هندية ،

(١) لم يعد المصريون يستعملون الشبك على الإطلاق في الوقت الحاضر وقد جرت العادة عند بعض المثقفين من المفكرين بتدخين « البايب » وقد جرت العادة عند الأطباء ورجال الأعمال بتدخين « السيجار » . (المترجم)

واسمها بالعربية نارجيلة. وهناك نوع آخر ذو وعاء زجاجي يسمى «شيشة»(١). وكلا النوعين له أنبوبة طويلة لينة. وهناك نوع خاص من التبغ الفارسي يسمى «تنباك» يستعمل في شبك الماء. وهو يغسل أولا عدة مرات ويجعل بعد ذلك في محجر الشبك وهو رطب، ثم يوضع عليه جمرتان أو ثلاث من الفحم. وللتنباك عطر لطيف مقبول. ولكن شدة استنشاق الدخان في هذا النوع من التدخين يضر بالرئة الضعيفة(٢). ومدخن الشبك الفارسي يجذب الدخان إلى رئتيه مثل ما يستنشق الهواء الخالص. وترجع كثرة أمراض الكبد في بلاد العرب إلى استعمال النرجيلة، كما أنه في مصر يتألم الكثيرون جد الألم بسبب هذا. وهناك نوع يسمى «جوزة» يشبه النرجيلة، إلا أن أنبوبته قصبة قصيرة بدلا من أنبوبة النرجيلة القابلة للانثناء، ويستعمله رجال الطبقة السفلى لتدخين التنباك والحشيش(٣).

أما القهوة(٤) فهي تصنع قوية لا تحلى بالسكر ولا تخفف باللبن. وفنجان القهوة صغير لا يسع الكثير منها. وهو من الخزف ولا أذن له، فيوضع في ظرف من الفضة أو النحاس تبعاً لحالة الحائز، وهو يشبه تقريباً في شكله وحجمه ظرف البيض عندنا(٥). ولتحضير القهوة يغلي الماء أولا، ثم يضاف إليه البن، بعد أن يحمص ويطحن حديثاً، ويقلب، ثم يعاد وعاؤه على النار مرات حتى تنضج القهوة رويداً رويداً، ثم تصب في الفناجين قبل أن يزول ما تكون على سطحها من القشدة. ويحب المصريون القهوة القوية الخالصة حباً شديداً، وقلما يضيفون إليها السكر. وبعضهم يحليها عندما يشعر بتعب.

---

(١) كلمة فارسية بمعنى (زجاج).

(٢) وهي مع ذلك توصف لمن يصاب بالسعال. ويستعمل أحد أصدقائي أشهر شعراء القاهرة، وهو مصاب بالربو، النرجيلة من الصباح إلى الليل بلا انقطاع تقريباً.

(٣) ويدخن المصريون، في الوقت الحاضر، «الشيشة» في المقاهي. أما «الجوزة» فيستعملونها في الريف والمقاهي الشعبية، ويستخدمها أيضاً مدخنو الحشيش في السر. (المترجم)

(٤) وهي اسم المشروب. أما الثمرة، كاملة أو مطحونة، فتسمى «بناً».

(٥) ويتكون الطقم الكامل من عشرة فناجين بظروفها موحدة الشكل، وفي كثير من الأحوال، من فنجان آخر بظرفه، من نوع أرق، يقدم لرب الدار أو الضيف الممتاز. وترى في الصورة رقم ٣٨ «البكرج» والظروف والصينية من الفضة. وتحت هذه المجموعة ظرف وفنجان من النوع نفسه على مقياس أكبر ثم ظرف نحاسي فوقه فنجان. وبعض الظروف تصاغ بالفضة المذهبة أو الموحدة الشكل، ويقتني القليل من الأثرياء ظروفاً ذهبية قد ترصع بالماس والياقوت وغيرهما من الأحجار. إلا أن كثيراً من المسلمين لا يستحسنون استعمال الأوعية الذهبية أو الفضية.

ولا يضيفون إليها اللبن أو القشدة أبداً ، ولكن كثيراً ما يضعون فيها الحبهان . وتبخير الفناجين بالمصطكا شائعة . وقد يعطر الأغنياء القهوة بعطر العنبر اللذيذ . والطريقة الشائعة أن يوضع حوالى قيراط من العنبر فى وعاء القهوة ، ويذاب على النار ، ثم تنضج القهوة فى وعاء آخر ، بالطريقة السابق ذكرها ، وبعد قليل تصب فى الوعاء الأول . ومن الناس من يستعمل العنبر للسبب نفسه بطريقة مختلفة . فهم يأخذون قيراطين من العنبر ، بعود صغير ، يضعونهما فى قاع الفنجان ويصبون القهوة بعد ذلك . ومثل هذه الكمية تكفى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . وهذه الطريقة كثيراً ما يتخذها من يحب لنفسه شرب القهوة معطرة بالعنبر دون ضيوفه . وقد يقدم « بكرج » القهوة موضوعاً على جمر فى وعاء من الفضة أو النحاس يسمى « عازق »(١) . ويعلق هذا الوعاء فى ثلاث سلاسل . ويقدم الخادم القهوة ممسكاً أسفل الظرف بين الإبهام والسبابة . وعندما يتناول الفنجان والظرف يستعمل كلتا يديه واضعاً شماله تحت يمينه . وتستعمل مجمرة تسمى « منقلا »(٢) ، ويسميها العامة « منقداً » ، من النحاس المبيض بالقصدير ، ويحرق فيها البخور أحياناً(٣) . ويتلذذ المصريون بالعطور تلذذاً



شكل ٣٨ (طقم قهوة)



شكل ٣٩ (العازق والمنقل)
المنقل على اليمين من الفخار

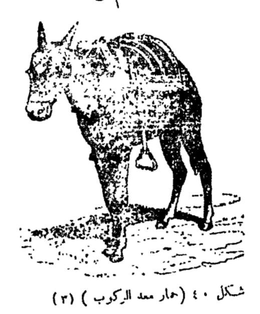
---

(١) يعتبر البارون هامر برجشتال أن هذه الكلمة محرفة ويضع عوضاً عنها كلمة « شاسكي » مع أن لفظة عازق هى المستعملة بين المصريين . (المؤلف)
كلمة عازق غير معروفة اليوم . (المترجم)

(٢) المنقل : كانون النار (المنجد) . (المترجم)

(٣) كان « المنقد » يستعمل إلى وقت غير بعيد للتدفئة فى الشتاء . وكان المصريون يلتفون حوله ، جالسين على الحشايا (الشلت) ، ويتسلون بتحضير القهوة وشى أبا فروة على جمره . (المترجم)

عظيماً (١)، وكثيراً ما يبخرون غرفهم. وأكثر المواد استعمالا لهذا الغرض بخور من نوع ردىء يسمى « بخور البر » ، ويستعمل كذلك الجاوى والعود .
وقلما يرى المصرى ماشياً أبعد من عتبة داره إذا استطاع أن يقتنى ركوبة أو يستأجر حماراً . ولكن القليل من أهل القاهرة والمدن الأخرى من يخاطر باقتناء جياد(٢) ، معرضاً نفسه إلى الاشتباه فى أنه يمتلك أموالا زائدة، تفرض عليها ضرائب ورسوم أشد مما كان يتحملها بوجه آخر . ويجهز سرج الجواد الحديث باللباد تحته، ويغطى بالجوخ أو المخمل ويطرز أو يزخرف . ويزين اللجام عند الرأس والصدر بشراريب حريرية وقطع نقدية وغيرها من الزخارف الفضية . والعادة أن يركب البغال أغنياء التجار وكبار العلماء . وسرج البغال كبردعة الحمير تقريباً . وعندما يكون الراكب عالماً تغطى العدة بسجادة، وكذلك قد تكون العدة التى يستعملها النساء بالرغم من شدة الاختلاف بينهما . وتستعمل الحمير فى شوارع القاهرة الضيقة المزدحمة . وهناك عدد كبير للكراء . ويسير الحمار سيراً رهواً هيناً . وقد اشتهرت القاهرة من زمن بجودة حميرها ، فهى أضخم من حمير بلادنا وأفضل منها فى كل ناحية . ويقدر ثمن الحمار الأصيل المدرب بحوالى ثلاثة جنيهات أو أربعة ، وقد يزيد ثمن بعض الحمير على ثمن الجواد العادى . ويجهز الحمار ببردعة محشوة يغطى



شكل ٤٠ (حمار معد للركوب) (٣)

مقدمها بالجلد الأحمر ، ومقعدها بشرائط صوفية ناعمة حمراء وصفراء وألوان أخرى . ويكون الركاب عالياً دائماً . ويتقدم الراكب « سايس » أو « سايسان » ليفسحا الطريق، ويحمل كل منهما نبوتاً قابضاً عليه من أسفل رافعاً إياه إلى أعلى. وقد يرافق الراكب للغاية نفسها خادم يجرى بجانب الحمار أو وراءه ، أو أمامه

(١) وقد يعطرون اللحية والشاربين بعطر الزباد .
(٢) ويرافق السيد خادم يحمل له الشبك سواء أكان راكباً أو راجلا .
(٣) ويكاد يكون شعره جميعاً مقصوصاً قصاً شديداً .

أحياناً، صائحاً فى المارة ليخلوا الطريق يميناً أو شمالا(١) . ومع ذلك يجب أن يكون الراكب حذراً، فلا يعتمد على خادمه كل الاعتماد، لئلا تصرعه أحمال الجمل الكبيرة . وهذه الحوادث قد لا يكون مفر منها فى شوارع القاهرة الأكثر ضيقاً والأشد ازدحاماً . وعندما ينزل السيد إلى منزل ما أو دكان ما ، يملأ الخادم له الشبك ، الذى يحمله عادة ، ويشعله .

ويقضى المصرى أغلب وقته ، إذا لم يكن له عمل منتظم يشغله ، فى الركوب والزيارة ، أو شراء حوائجه ، أو فى التدخين وشرب القهوة وفى التحدث مع الأصدقاء فى المنزل ، أو التنعم بترف الحمام ساعة أو أكثر صباحاً . وفى الظهر عليه أن يؤدى الصلاة إذا كان يقوم بفروضه الدينية . إلا أننى لاحظت أن القليل من المصريين نسبياً قد لا يهمل هذه الفروض ، وأن هناك كثيرين يندر أن يقيموا الصلاة أبداً . وبعد الظهر مباشرة (إذا لم يكن فطوره متأخراً) يتناول غداء خفيفاً ثم يأخذ الشبك والقهوة . وعندما تشتد حرارة الجو لا يمنع نفسه من القيلولة . وكثيراً ما ينسحب ليستريح فى الحريم ، حيث تراعى زوجته أو جاريته راحته ، أو تدلك له قدميه . وحينئذ ، أو عندما يرغب فى الخلوة ، يقول الخادم للزائرين إن السيد فى الحريم ، فلا يستدعيه أحد إلا إذا كان لعمل ضرورى . وهو يتمتع مرة أخرى ، بين صلاة العصر إلى الغروب ، بالتدخين والقهوة بمصاحبة أصدقائه فى المنزل أو فى الخارج . وبعيد غروب الشمس يتناول عشاءه .

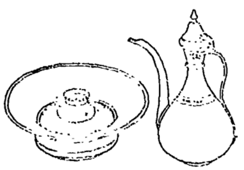
ويجب علىّ الآن أن أصف وجبتى « الغدا » و « العشا » وكيفية تناولهما ونظامهما . ولم ألاحظ فرقاً بينهما ، غير أن وجبة العشاء هى الأهم . والعادة أن يجهز الطعام فى العصر، وما يفضل بعد وجبة العشاء يقدم أثناء وجبة الغداء فى اليوم

---

(١) مثل هذا : إوعى . يمينك . شمالك . ظهرك . وشك . جنبك . رجلك . كعبك وإلى التركى : صاقن (أى احترس) ، وهى الصيحات المألوفة . وكثيراً ما يضاف إليها : يا أفندى ! (للتركى) : يا شيخ ! (للمسلم العجوز أو المتوسط العمر): يا صبى ! (للشاب) يا ولد ، أو يا إبنى ! (للولد) : يا شريف ! (للأشراف المعممين بالأخضر) : يا معلم ! (النصرانى أو اليهودى من أهل البلد) . يا خواجه ! (للأفرنجى) : يا ست ! (لسيدات الطبقة العليا والوسطى) : يا بنت ! (الفقيرة) . ويجب أن ينادى المرأة من الطبقة السفلى « يا بنت » ، مهما كان سنها كبيراً ، وإلا فالأرجح أنها لا تتحرك قيد أنملة . وكثيراً ما يطلق على الفتاة الصغيرة أو المرأة الشابة « عروسة » . أما لقب : « حاجة » ، فهو نداء شائع النساء فى الطريق .

التالى ، إذا لم يكن بالمنزل ضيوف . وعلى العمـوم يتناول رب الدار طعامه مع زوجته أو زوجاته وأطفاله . إلا أن كثيراً من الرجال ، وعلى الأخص رجال الطبقة العليا ، يمنعهم كبرياؤهم ، أو يشغلهم ارتباطهم بمجتمعاتهم ، عن تناول الطعام مع العائلة ، إلا فى بعض المناسبات القليلة . وحتى بعض رجال الطبقة السفلى يندر أن يأكلوا مع زوجاتهم وأولادهم . ويجب على رب الدار ، عندما يكون فى منزله صديق له ، أن يأمر باحضار الطعـام فى وقته ، وهـذا لا بد منه إذا كان الضيف أجنبياً .

ويغسل كل شخص يديه(١) ، وفمه أحياناً ، بالصابون والماء قبل أن يتناول الطعام ، أو على الأقل يصب على يده اليمنى بعض المـاء . ويحضر الخادم لذلك طستاً وأبريقاً من النحاس المبيض أو النحاس الأصفر(٢) .



شكل ٤١ (الطشت والإبريق)
عرض الطشت مثل طول الإبريق ١٤ بوصة

وللطست غطاء به عدة ثقوب ، وفى وسطه نتوء لوضع الصابون ، فيمر الماء عند الغسيل خلال هذه الثقوب إلى داخل الطست بحيث إذا قدم هذا إلى شخص آخر لا يرى الماء القذر.

ويعطى لـكل فوطة . والمـائدة « صينية » مستديرة من النحاس المبيض ، أو من النحـاس الأصفر أحياناً ، قطرها بين قدمين أو ثلاث أقـدام . وتوضع على « كرسى » ارتفـاعه حوالى خمس عشرة بوصة . ويصنع الكرسى من الخشب وقد طعم بالصدف

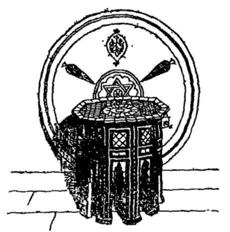
شكل ٤٢ (غسل اليدين قبل الأكل أو بعده)

---

(١) أنظر إنجيل مرقس ، الإصحاح السابع ، الآية الثالثة : « لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون » .

(٢) وتكون هذه الأوعية ، فى منـازل بعض الأثرياء ، من الفضة . وقد رأيت بعضها من النحاس المذهب .

أو الباغة أو العظم الخ . فالصينية والكرسى يكونان « السفرة » (شكل ٤٣) وتوضع على الصينية أرغفة الخبز المستديرة ، التى سبق وصفها ، كاملة أو مقطعة أنصافاً . ويصف معها حول الصينية أنصاف من الليمون ، لتعصر على المأكولات التى قد تحتاج إلى الحامض ، وملعقة من خشب البقس أو الأبنوس أو الباغة لكل آكل . وكثيراً ما يستعمل



شكل ٤٣ (الكرسى والصينية)

الخبز بدل الصحون . وبعد ذلك توضع أطباق اللحوم والخضر على اختلاف أنواعها ، جميعها مرة واحدة ، تبعاً للعادة المصرية ، أو طبقاً طبقاً ، حسب الطريقة التركية . وهذه الأطباق تكون من النحاس المبيض أو الخزف .

ويجلس الآكلون عل الأرض حول الصينية ، وعلى ركبتى كل منهم فوطته . أما إذا وضعت الصينية بجانب ديوان منخفض ، فيجلس البعض على الديوان ، والآخرون على الأرض . ولكن عندما يكثر العدد ، توضع الصينية فى وسط الغرفة ، ويجلس الجميع حولها ، واضعين إحدى ركبتيهم على الأرض والأخرى (اليمنى) قائمة . وهذا هو الوضع المستحسن أثناء تناول الطعام (أنظر شكل ٤٤) . وبهذه الطريقة يستطيع إثنا عشر شخصاً أن يجلسوا حول صينية سعتها ثلاثة أقدام . ويشمر كل شخص عن ذراعه اليمنى حتى الكوع أو ما تدلى من كمه . وقبل أن يشرع أحد فى الأكل يسمى باسم الله(١) بصوت منخفض ظاهر . ويبدأ رب الدار بالبسملة . ويعتبر هذا ملاطفة منه ودعوة إلى المدعوين لتناول الطعام .



شكل ٤٤ (جماعة يتناولون الطعام)
يحمل أحد الخادمين وعاء ماء ، والآخر مذبة من سعف النخيل

وعلى من يقال له « بسم الله » أو « تفضل » أن يقول ، إذا

(١) أو بسم الله الرحمن الرحيم .

رفض الدعوة ،«هنيئاً» أو ماشابه ذلك . وقد يكون ذلك أيضاً خشية شر العين إذا وقعت على الأكل . ويقولون فى هذا : (لا بركة فى الطعام إذا اشتهى) . إلا أن الإلحاح الذى يدعو به المصرى الأجنبى إلى مشاركته الطعام يبين أن الذوق السليم وواجب الضيافة يحتمان عليه قول البسملة(١) . ويبدأ بالأكل رب الدار ثم يتلوه الضيوف مباشرة .

والمصريون لا يستعملون السكين ولا الشوكة(٢)، وإنما يستعملون بدلا منهما الإبهام وأصبعين من اليمنى . وتستعمل الملاعق لتناول الحساء أو الأرز أو غيرهما من الأصناف التى لا يسهل تناولها بدونها . وقد تستخدم اليدان معاً فى أحوال سأذكرها الآن . وفى حالة ما توضع الأطباق جميعها مرة واحدة ، يغترف كل واحد من أى صنف يشتهيه أو من جميع الأصناف على التعاقب . وعندما يقدم الطعام طبقاً طبقاً ، يتناول الواحد من الطبق بعضه ، ثم سرعان ما يرفع ليقدم غيره(٣) . ومن الأدب أن تناول صديقك قطعة مختارة(٤) . وأرى أن طريقة تناول المصريين والشرقيين طعامهم بالأصابع أرق مما يتصور الأوربيون الذين لم يشاهدوهم أو لم يسمعوا الوصف على حقيقته . فالواحد منهم يأخذ من الخبز قطعة يغمسها فى الطبق ، ثم يرفعها إلى فمه مصحوبة بقطعة صغيرة من اللحم أو غير ذلك من محتويات الطبق(٥) . وتكون قطعة الخبز مزدوجة بحيث تحيط بقطعة اللحم الخ ، ولا يستخدم عادة غير الإبهام والإصبعين الأولين . وإذا تناول شخص قطعة لحم تزيد على اللقمة وضعها عادة على رغيفه .

يجهز الطعام بحيث يسهل تناوله بالطريقة السابق وصفها . وهو يتكون فى مجموعه من «اليخنى» : وهو لحم مسلوق وبصل مقطع ، أو قليل من البامية(٦)

---

(١) لا تزال هذه العادة سارية إلى الآن . (المترجم)

(٢) لا زال المصريون من الطبقة الفقيرة ، وفى الريف عامة ، يكتفون باستعمال الملعقة (المترجم)

(٣) وقد أكل سيدنا عيسى وتلاميذه من طبق واحد . أنظر إنجيل متى ٢٦/٢٣ «فأجاب وقال: الذى يغمس يده معى فى الصفحة هو يسلمنى» .

(٤) لا تزال هذه العادة سارية إلى اليوم فى الريف خاصة . (المترجم)

(٥) أو يغمس لقمته فى الطبق فقط . أنظر راعوث ٢/١٤ (فقال لها بوعز عند وقت الأكل تقدمى إلى ههنا وكلى من الخبز واغمسى لقمتك فى الخل ...) ويوحنا ١٣/٢٦ (أجاب يسوع هو ذاك الذى أغمس أنا اللقمة وأعطيه . فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الأسخريوطى) .

(٦) والبامية من الهيبسكس Hibiscus الصالحة للأكل . وما يؤكل عبارة عن قرن مضلع بطول ثلاث بوصات وعرض الأصبع الصغير . وهو يحوى بذوراً ومادة هلامية مغذية ، وله طعم مستساغ . ويستخدم اليمسون ليمصر فوق طبق البامية عندما تطبخ وحدها . وكذلك عندما تعد ببعض اللحم المفروم المقلى ينثر فوقها كما هى العادة الشائعة .

أو غيرها من الخضر . و « القاوُرمة » : وهو لحم كثير التوابل مع البصل . و « ورق محشى » : وهو ورق العنب أو الكرنب أو الخس ، يحشى بالأرز واللحم المفروم ، بعد أن يتبلا بالملح والفافل والبصل ، وغالباً بالثوم والبقدونس ، ويسلق. و« محشى » الخيار أو الباذنجان الأبيض أو الأسود ، أو الطماطم ، أو القرع الكوسة بالطريقة السابقة . و « الكباب » : وهو قطع صغيرة من لحم الضأن تشوى على السفود . وبعض الألوان تتألف جميعها أو أغلبها من الخضر مثل : الكرنب والرجلة والإسباناخ والبامية والفول والترمس والحمص والقرع المقسم إلى قطع صغيرة والقلقاس والعدس الخ . ويعد السمك المطبوخ بالزيت كذلك طبقاً مألوفاً . وتطهى أغلب الأطعمة بالسمن لعدم وجود الدهن ، وتوضع فيها التوابل بكثرة. ويذوب السمن فى الصيف تماماً . ولا بد من استعمال اليدين معاً لتقطيع ما يقدم من الطيور كاملا . وقد يقوم بهذه العملية شخصان معاً ، كل بيده اليمنى فقط . ولكن بعضهم يقوم بذلك وحده بدون مساعدة بمهارة فائقة وبيد واحدة . ولا يقبل الكثير من العرب لمس الطعام ، على أى حال ، بيسراهم(١) ، إلا إذا كانت يمناهم مبتورة . وليس من غير المعتاد أن تقدم الطيور المنزوع عظامها المحشوة بالزبيب والفستق والخبز المفتت والبقدونس ، أو حمل بأكمله محشواً بالفستق الخ ، وهنا يسهل نزع اللحم بيد واحدة . وكثيراً ما تخلط الحلوى باللحم مثل : العناب والخوخ والمشمش الخ ، والسكر مع اليخنى . وكثيراً ما تقدم أيضاً مختلف أصناف الحلوى دون مراعاة نظام خاص بالنسبة للأصناف الأخرى . ومن أصناف الحلوى المحبوبة الكنافة ، وتصنع من دقيق القمح ، وهى أدق من الشعرية ، وتقلى بالسمن وتحلى بالسكر أو العسل . ولا تخلو المائدة من البطيخ فى موسمه . وهو يقطّع قبل الأكل ، ويترك فى الهواء ليبرد بالتبخر . ولكن يجب ملاحظته حتى لا ينفث الثعبان سمه فيه ، لأن الثعبان ، على حد قولهم ، يحب البطيخ حباً شديداً ، ويشم رائحته على مسافة بعيدة . والبطيخ كثير فى مصر كثرة زائدة ، وهو غالباً لذيذ الطعم ومفيد للصحة . وآخر طبق يقدم الأرز المفلفل ، (پيلاف الأتراك) ، وهو أرز مسلوق يوضع عليه الزبد ويتبل بالملح والفلفل . إلا أن كثيراً ما يتبعه ، على موائد الأثرياء ، « خشاف »(٢) يتكون عادة من

---

(١) لأنها تستخدم استخداماً نجساً .

(٢) من الفارسية (خوش آب) أى الماء الحلو .

الماء والزبيب المسلوق فيه ويحلى بالسكر . ثم يضاف إليه عندما يبرد قليل من ماء الورد[1] . وكثيراً ما يحل البطيخ محله[2] .

ويأكل المصريون باعتدال ولكن بسرعة . وحالما ينتهى أحدهم يحمد الله ويقوم دون أن ينتظر الآخرين[3]، فيقدم له الخادم الطست والأبريق ليغسل يديه وفمه بالصابون والماء كما سبق .

ولا يشرب المصريون على الأكل غير الماء . وقد يقدم على مائدة الأغنياء « الشربات » التى سأصفها الآن . ولا يشرب العرب على الأكل إلا قليلا من الماء، أو لا يشربون مطلقاً . وهم على العموم يتناولون جرعة كبيرة بعد الأكل مباشرة . ويمتاز ماء النيل بحلاوته ؛ ولكن ماء الآبار . فى القاهرة وغيرها ، يميل إلى الملوحة .

شكل ٤٥ (أوعية الماء المسماة « دورق » وسدداتها المخنفة)

ويشرب الماء فى أوعية من الفخار أو طاسات من النحاس[4]. وأوعية الفخار نوعان : « الدورق »[5] (شكل ٤٥) و « القلة » (شكل ٤٦) والأول ذو حلق ضيق ، والثانية حلقها واسع . وهما من صلصال ذى مسام يبرد



شكل ٤٦ (أوعية الماء المسماة « قلة »)

---

(١) ويشرب بملعقة كبيرة من الباغة أو الجوز الهندى .

(٢) وأهم فواكه مصر وأحسنها البلح والعنب والبرتقال والليمون على أنواع مختلفة والتين والجميز والتين الشوكى والرمان والموز والبطيخ والشمام وما شابههما . والخوخ والمشمش متوافران ، ولكن ينقصهما الطعم اللذيذ . والكمثرى نادرة وأغلبها تجلب من سينا أو سوريا . ويبدو لك من هذا التعداد أنه ليس بمصر فاكهة طيبة كثيرة .

(٣) من المكروه أن يقوم الإنسان أثناء تناول الطعام حتى ولو كان ذلك احتراماً لقدوم عظيم، وقد حرم الرسول على أتباعه القيام أثناء الأكل أو على وشك تناول الطعام ولو حانت الصلاة كما ذكرت من قبل .

(٤) وكان قدماء المصريون يستعملون أقداحاً نحاسية للشرب فيها (هيرودوتس الكتاب الثانى الفصل السابع والثلاثون) .

(٥) الفارسية ، دوره : وعاء بلورى . (المترجم)

الماء برودة لذيذة بالتبخر ، وهما يوضعان لذلك فى تيار الهواء . وكثيرا ما يسوّد داخل الوعاء بدخان بعض الأخشاب الصمغية ، ثم يعطر بدخان خشب « القفل »(١) والمصطكا على التوالى . ويستعمل لهذا الغرض وعاء صغير من الفخار ، يسمى مبخرة (شكل ٤٧) ، يوضع فيه الفحم اللازم لحرق الخشب والمصطكا ، ثم تعلق القلة أو الدورق مقلوباً فوقه ، ويشد حول رقبة الدورق خرقة على بعد بوصة من الحلق ، لمنع السناج أن ينتشر بعيداً على خارج الوعاء . وكثيراً ما يوضع أيضاً قليل من ماء زهر البرتقال(٢) فيكسب الماء طعماً لذيذاً . وللأوعية سدادات من الفضة أو النحاس أو القصدير أو





شكل ٤٧ (المبخرة والدورق الصينى)

الخشب ، أو أغطية من السعف المجدول ، وهى توضع فى صينية من النحاس المبيض يسقط فيها الماء الرشيح . وكثيراً ما تستعمل الأوعية الصينية (شكل ٤٧) فى الشتاء عوضاً عن الفخار حتى لا يبرد الماء برودة شديدة(٣) . ويبين الشكل رقم ٤٨ كاستى الشرب الأكثر شيوعاً . وبعض الكاسات ينقش فى داخلها آيات



شكل ٤٨ (طاستان لشرب الماء)

قرآنية ، ولم أر ذلك كثيراً ، أو أسماء أهل الكهف . ويبسمل الشارب قبل الشرب ويحمد الله بعده ، فيقول له كل من الأصدقاء الحاضرين : «هنيئاً » ، فيرد عليه : « الله يهنيك » . وبالرغم من إشارة بعض قصص ألف ليلة وليلة المبهجة إلى رفع « سفرة الطعام » وإحضار « سفرة المدام » فان المصريين المسلمين

---

(١) Amyris Kafal طبقاً لفورسكال * Forskal . وهو من أشجار الجزيرة العربية .
* أحد علماء النبات . (المترجم)

(٢) (موية زهر أو موية زهر نارنج) .

(٣) وقد لاحظ البارون هامر برجشتال أنه كان يجب هنا ، فى النشرة الأولى لهذا الكتاب ، الإشارة إلى وعاءين آخرين . على الأخص لأن اللغات الأوربية اقتبست اسمهما وهما : الجرة Water-jar والدمجان * (بكسر الميم) La dame-jeanne .
* وينطقها العامة (جدانة) - وفى الفارسية كلمة مشابهة (جمدان) : حقيبة السفر . (المترجم)

فى هذا العصر لا يقدمون النبيذ فى المجتمعات العامة فى أى وقت من الأوقات على العموم . إلا أن الكثيرين لا يمتنعون عادة عن شرب النبيذ مع الأصدقاء المقربين(١) . وحينئذ لا يدخل الخادم غير الندامى . أما غيرهم فيقول لهم : إن السيد ليس بالدار ، أو إنه فى الحريم . وهؤلاء يحتسون النبيذ أثناء العشاء وقبله وبعده. ويستحسن قبل العشاء ، لأنه ، على حد قولهم ، يثير الشهية . وقد أخبرنى صديق مسلم ، تاب عن الخمر بعد إدمان (ولا يمكننى أن أتحدث فى هذا الموضوع عن تجربة ، لأننى لم أشرب النبيذ أبداً ، ولم يدعنى مسلم قط إلى ندوة شراب) أن مائدة المدام تتألف من صينية مستديرة مصبوغة باللك ، أو طبق زجاجى ، توضع على الكرسى المذكور سابقاً . ويُصفّ عليها إبريقان للنبيذ(٢) . و « العنبرى »(٣) ، أو أكثر من إبريقين معاً أحياناً ، وعدة أكواب صغيرة ، وصحون صغيرة فيها فاكهة يابسة وطازجة ، ومخللات أحياناً . وأخيراً يوضع على الصينية شمعتان ، وغالباً باقة زهر تثبت فى شمعدان .

ويصنع المصريون عدة أصناف من « الشربات » . وأكثرها شيوعاً الماء المحلى بالسكر فقط(٤) ، ويكون زائد الحلاوة . و « الليموناته » ، أو « شراب الليمون » ، نوع آخر . وهناك صنف ثالث أحب إلى النفس . وهو « شراب البنفسج » ، ويكون بسحق زهر البنفسج ووضعه مع السكر فى الماء وتركه على النار حتى يغلى ، وهذا الشراب أخضر اللون . وهناك أيضاً « شراب التوت » ، و « شراب الحميض » ، وكذلك « الزبيب »(٥) الذى يصنع من العنب ، ويباع فى الشوارع ، و « العرقسوس » ، و « الخروب » . ويقدم الشراب فى أكواب مغطاة ، تسمى الواحدة على العموم « قلة » ، وسعتها ¾ باينت .

شكل ٩ ٤ (أقداح الشربات)

---

(١) وقد أصبح هؤلاء يفضلون الويسكى والكونياك ، فاختفى النبيذ من « سفرة المدام » . ولكن ارتفاع سعر المشروبين السابقين دفع الكثير منهم إلى الاكتفاء بالجعة المصنوعة بالبلد . والملاحظ أن مدمنى الحشيش يحتسون الجعة عندما يعز عليهم الحصول على المخدر . (المترجم)

(٢) نبيد (بالدال غير معجمة) أو مدام (بضم الميم) .

(٣) يسميه المؤلف Rosoglio وهو لفظ يطلق على نوع من النبيذ الأحمر الحلو (المترجم)

(٤) ويسمى « شربات » أو « شربات سكر » أو « سكر » فقط .

(٥) وهذا الاسم يطلق أيضاً على نوع من الأشربه المسكرة .

وبعض المألوف من هذه الأكواب يزين بزخارف مذهبة من الزهور وغيرها ، (شكل ٤٩) وهى توضع على صينية مستديرة وتغطى بقطعة من الحرير المطرز أو الجوخ المرصع بالذهب . ويعلق على ذراع الخادم الأيمن ، أثناء تقديم الشربات ، فوطة مستطيلة الشكل عريضة الحاشية المرصعة بالذهب والمطرزة بالحرير الملون . ومن الجلى أنها تقدم لمسح الفم بعد الشراب ، ولكنها فى الواقع للمباهاة أكثر منها للاستعمال(١) .

يمضى المصريون ما بين وجبة المساء وصلاة العشاء فى التدخين وشرب القهوة . ويستأنفون لذة التدخين بعد فراغهم من الصلاة . وقد يلعبون الضامة أو الشطرنج أو غير ذلك ، أو الأقل يتسامرون ، فينقضى الوقت دون أن يشعروا بأدنى ضيق . ويقضى أفراد العائلة المصرية وقتهم ، عندما تسمح الظروف ، فى حبور وبهجة ، ولكن فى هدوء . وكثيراً ما يقوم الرجال بزيارة أصدقائهم ليلا وقت العشاء أو بعد ذلك . ويستضيئون أثناء خروجهم بمصباح مستدير مموج الجوانب ، يسمى « فانوس » ، ويصنع من النسيج المشمع المشدود إلى حلقات من السلك ، بينما أعلاه وأسفله يصنعان من النحاس المبيض . ويرى هذا النوع فى الشكل رقم ٥٠ ، وبجانبه النوع الشائع ، وهو «القنديل» ، بغطائه الخشبى العادى الذى يقيه شدة الهواء . وهذا القنديل وعاء زجاجى صغير ، ذو أنبوبة صغيرة فى قاعه ، يدخل فيها ذبالة من القطن تلف على عود من القش . ويصب فيه الماء ثم الزيت . وكثيراً ما يعلق القنديل على مدخل المنازل . ويخيم على





شكل ٥٠ (الفانوس والقنديل)

داخل البيوت أثناء الليل جو قاتم ثقيل . ويكتفى لإنارة الأبهاء الواسعة العالية بضوء شمعة أو شمعتين توضعان على الأرض أو على كرسى ، وقد تحاطان بوقاء زجاجى كبير ، أو توضعان فى مصباح من الزجاج ، لأن النوافذ من الخشب

---

(١) أصبحت عادة تقديم « الشربات » ، فى غير مناسبة الزواج ، فى طريق الزوال . وكذلك لم يعد يباع فى الشوارع غير العرقسوس والخروب ، أحياناً . (المترجم)

المشبك . والقليل من المصريين من يسهر صيفاً إلى أكثر من الساعة الثالثة أو الرابعة ، أى ثلاث ساعات أو أربع بعد غروب الشمس (إذ أن الوقت يحسب عندهم من الغروب) . وكثيراً ما يسهرون خمس ساعات أو ستاً فى الشتاء . وهكذا يمضى يومهم الرجال ذوو الدخل المتوسط الذين لا يمارسون عملا منتظماً أو أى عمل يتطلب إشرافاً مباشراً . وجرت العادة أن ينصرف التاجر ، بعد تناول الفطور مباشرة ، إلى حانوته أو مخزنه ، ولا يعود إلى المنزل قبل الأصيل(١) . ولديه هناك الفراغ الكافى للتدخين متى شاء . وكثيراً ما يدخن حرفاؤه معه ، فيقدم إلى بعضهم شبكه الخاص ، والقهوة يستحضرها من أقرب مقهى . وقد يمضى أغلب يومه فى التكلم مع الحرفاء أو مع جيرانه من التجار والتاجر يقيم صلاته على العموم فى دكانه . ويتناول بعد صلاة الظهر طعاماً خفيفاً ، مثل طبق من كباب ورغيف من الخبز ، يحضرهما إليه خادم صغير من المنزل أو من السوق يومياً ، أو بعض الخبز مع الجبن أو المخللات أو غير ذلك مما يشتريه من الباعة المتجولين . ويدعو التاجر دائماً الحريف إلى مشاركته الطعام ، وكثيراً ما يلح فى الدعوة ويحتفظ فى دكانه بقلة كبيرة يملأها عند اللزوم سقاء متجول . ويعود التاجر إلى منزله مساء للعشاء ، وسرعان ما ينام .

والعادة أن ينام الرجل هو وزوجته فى سرير واحد ، إلا أن أفراد الطبقة الموسرة يتخذون غالباً سرراً منفصلة . ويتكون السرير عند متوسطى الحال مما يأتى : حشيّة(٢) طولها حوالى ست أقدام ، وعرضها ثلاث أقدام أو أربع ، توضع على سرير منخفض من جريد النخيل ، ومخدة ليستريح عليها الرأس ، وملاءة تفرش فوق الحشية والمخدة . وغطاء الصيف خفيف ، ويسمى « حراماً » . أما غطاء الشتاء فغليظ محشو بالقطن ، ويسمى « لحافاً » . وقد توضع الحشية على الأرض إذا لم يوجد سرير ، أو توضع اثنتان معاً واحدة فوق الأخرى ، وكثيراً ما يكتنفها مسندان من مساند الديوان . والكلة(٣) تعلق فوق السرير بأربعة خيوط تشد إلى مسامير تدق فى الحائط . ويندر أن يغير المصرى ملابسه عند النوم . وفى الشتاء ينام بملابسه العادية جميعها إلا الجبة ، أو الملابس الجوخية ، أما فى الصيف فينامون عراة أو شبه عراة . وينصب السرير شتاء فى غرفة صغيرة

---

(١) سأصف الحوانيت وأخبار التجار فى فصل الصناعة .

(٢) طرّاحة .

(٣) « الناموسية » : وهى تصنع من الموصلى أو الكتان الواسع النسج أو الكريب . وهى عبارة عن مظلة بطول السرير وعرضه .

تسمى « خزنة » ، وصيفاً فى غرفة واسعة . ويطوى فرش السرير نهاراً ويوضع على جانب ، أو فى الخزنة السابق ذكرها . وعند اشتداد الحر ينام أغلب الناس على أسطح المنازل ، أو فى « الفسحة »، وهى غرفة لا سقف لها. ولكن تعرضهم للهواء الطلق أثناء الليل يسبب لهم الرمد وأمراضاً أخرى. وأكثر أنواع الأسرة شيوعاً ما يصنع من جريد النخل ، وهو يجلب البق الذى يكثر كثرة فاحشة فى مصر أثنـاء الصيف ، مثل كثرة البراغيث فى الشتاء . وقد سـبق ذكر هذه الحشرات والبلايا الأخرى التى يتعرض لها المصريون ليلا ونهاراً (١). والقمل أكثر هذه الحشرات إثارة للاشمئزاز ، ولكن الذى يغير ملابسه الداخلية كل يومين أو ثلاثة قلما تضايقه هذه الحشرة ، وإن لم يكن تجنبها سهلا دائماً حتى مع النظافة التامة. وإذا كان القمل يضايق فان من السهل الخلاص منه، لأنه لا يلصق بالجلد وإنما يوجـد على العموم فى الثيـاب . ومن الممكن أن ينظف المنزل من البراغيث بكثرة الغسل والكنس، وأن يمنع الذباب من الدخول بوضع الشباك على الأبواب والنوافذ ، وإن كانت حلقاتها واسعة . ولكن من المستحيل أن يطهر المنزل المصرى من البق، إذا كان أثاثه من الخشب كما هو الحال غالباً .

وحياة الخدم الذكور كلها دعة وراحـة ، ما خلا السائس الذى يجب عليه أن يرافق سيده وقت الركوب ، فيجرى أمامه أو بجانبه . وقد يقوم بعمله هذا فى أشد الأوقات حراً ولمدة أربع ساعات طويلة دون أن يبدو عليه التعب. ولكل ثرى من أثرياء القاهرة ، تقريباً ، بواب يلازم باب المنزل ، وعدة خدم ذكور آخرين. وأغلب هؤلاء مصريون. ويستخدم أيضاً النوبيون فى القاهرة وفى غيرها من مدن مصر. وكثيراً ما يقوم النوبيون بحراسة الأبواب، وهم على العموم أكثر أمانة من الخدم المصريين. وأجرة الخادم تافهة لا تتعدى ريالا أو ريالين فى الشهر ، إلا أنه يتناول منحاً كثيرة(٢) . فيعطى السـيد كل خادم فى عيـد الفطر بعض الملابس الجديدة أو خلعـة كاملة من عرى وطربوش وعمـامة . وعلى الخادم أن يدبر لنفسه ملابسه السنوية الأخرى، ما عدا الحذاء أحياناً. وقد يتناول، علاوة على ما يعطيه السيد ، بعض النقود من الضيوف ، أو من التجار الذين يعاملهم السيد ، وعلى الأخص عندما يشترى صفقة كبيرة . وينام الخادم بملابس النهار

---

(١) فى مقدمة الكتاب .

(٢) ويطلب الخادم من السـيد الأوربى أجـراً مرتفعاً . كما أنه يتناول منه منحاً أوفر عدداً وقيمة . وتلك العطـايا إذا منحت بتعقل يكون لها أثر حسن ، ولكنها كثيراً ما تشجع على الكسل والخداع .

على الحصر ، ويغطون أنفسهم شتاء بدثار(١) أو حرام . وكثيراً ما يرفع الخادم الكلفه مع سـيده ، فيضحك ويمزح معه . وفى بعض الأحـوال يخضع كل الخضوع ويظهر له كل الاحترام ، ويتقبل كل ما يوقعه عليه من العقوبة البدنية بهدوء الأطفال(٢) .

ويراعى السيد الخادم العبد أكثر من الخادم الحر . ويحيا العبد حياة توافق طبيعته الكسولة . ويمكنه إذا كان غير راض عن عمله أن يجبر سيده على بيعه . وأغلب عبيد مصر يلبسون الملابس العسكرية التركيـة . وهم على العموم أشـد الناس تعصباً فى مصر ، وأكثر تعوداً على إهانة المسيحيين وكل من كان على غير دينهم ، الذى اعتنقوه دون أن يعرفوا من مبادئه أكثر مما يعرف أطفال العرب الذين لم يمض عليهـم فى المدارس أكثر من أسبوع . وسأذكر بعض أخبـار الجوارى فى الفصل القادم .

ومعرفة أحوال المصريين المحدثين كثيراً ما تجرنا إلى مقارنة عاداتهم المنزلية بعادات الأوربيين فى القرون الوسطى . وما فى هـذه المقارنة من مشابهات ، قد تكون أكثر تأثيراً مما فيها من مباينات . هـذا بالنسبة للرجال . أما بالنسبة للنساء فالأمر على العكس .

---

(١) أنظر سـفر الخروج ٢٢/٢٦ ، ٢٧ : « إن ارتهنت ثوب صـاحبك فإلى غروب الشمس ترده إليه . لأنه وحده غطاؤه . هو ثوبه لجلده . فى ماذا ينام . . »

(٢) لم يعد المرء يرى تلك الصورة القديمة التى كانت عليها منازل الأثرياء إلى الربع الأول من القرن الحاضر ، عندما كان يعمل بالمنزل الواحد ، وفى وقت واحـد ، بواب وسائس وطباخ و(سفرجى) وخادمة ، أو أكثر من خادمة ، لشؤون المنزل من كنس وغسل وغيرهما ، ومربية للأطفـال الخ .. وأصبح سكنى المنـازل الخاصة ترفاً ينعم به قلة من الأغنياء ، واقتصر أكثرهم على سكنى الشقق ، وأصبح من المألوف أن يقوم كل امرىء بخدمة نفسه ، بينما يتغير نظام الخـدمة فى المنازل إلى العمل المؤقت بوقت محـدد ، وبأجر يرتفع على التوالى . وكان الريفيون يرسلون أولادهم الصغار ، صبياناً وبناتاً ، للعمل فى منازل المدن إلى أن وضع المشرع حداً أدنى لأجر العمل فى الحقـل وغيره ، وأخذت الأجـور ترتفع فى أوقات الزرع والحصد وغيرهما ، فآثر الفلاحون الانتفاع بعمل أولادهم فى الحقل . ولكن استخدام الأدوات الكهربائية فى البيوت يخفف الكثير من تلك الأزمة . (المترجم)

الفصل السادس

تابع الحياة المنزليـــة

الآن ، وقد أطلت الحديث عن الرجال ، يجب أن أنتقل إلى مهمة أكثر جرأة مما قمت به من قبل ، وهى الكلام عن الحريم(١) . ولكن يجب أولا أن أذكر بعض الشيء عن الزواج وحفلاته .

يعتبر المصريون امتناع الرجل عن الزواج بلا مبرر عند بلوغ السن الملائمة مخالفاً للآداب ومسيئاً للسمعة . ولقـد لقيت أنا نفسى لارتكابى هـذه الخطيئة (أقول ذلك حتى لا أذكر ما هو أشد قسوة) مضايقات ومكاره كثيرة ، واحتملت عتاباً شديداً أثناء زيارتىّ الأولين لمصر . فقد بدا لى فى المرة الأولى أن أنتقل من المنزل الذى سكنته بعض شهور فى شارع كبير من شوارع القاهرة إلى منزل آخر فى حى مجاور ، وكتبت عقد الإيجار ودفعت العربون ، ولكن جاءنى وكيـل المالك بعـد يومين يخبرنى أن سكان الحى ، وأكثرهم أشراف ، يعترضون على سكنى بينهم لأننى أعزب ، ولـكنهم يقبلوننى بكل سرور إذا اقتنيت على الأقل جارية تنفى عنى عار العزوبة . فأجبته إننى لا أنوى الإقامة فى مصر ، فلا أحب أن أتخذ لى زوجة أو جارية قد يضطرنى الرحيل إلى تركها . فأعاد إلىّ العربون . وساعـدنى الحظ فى حى آخـر ، فلم يعترض على عزوبتى أحد ، وإنما طلب منى الوعد بعدم السماح لأى شخص يلبس القبعة أن يزورنى فى الحى . ولـكن ، بعـد أن استقر بى المقام ، أخذ شيخ الحى يحاول إقناعى بوجوب الزواج . ولم يقم وزناً لكل ما أبديته من الحجج التى تمنعنى عن الزواج وقال : « تذكر لى أنك تريد ترك مصر بعـد سنة أو سنتين . وإن هنـا أرملة شابة جميلة تسكن على مقربة منك ، ويسرها أن تصبح زوجتك مع رضاها بأن تطلقها حينما تترك البلد . وفى وسعك طبعاً أن تفعـل ذلك إذا لم تعجبك » . وقد استطاعت هـذه الشابة مراراً أن تجعلنى أبصر وجهها الجميل أثناء مرورى بالمنزل الذى تسكنـه مع أهلها . فقلت لصاحبى إننى رأيت وجهها بطـريق

---

(١) إن لفظ « حريم » (الذى ذكرت سـابقاً أنه يطلق على نساء العائلة وعلى الغرف التى يشغلنها) يعنى محظوراً، مقدساً الخ . ويستخدم الأتراك، والكثيرمن العرب، اللفظ المرادف : حرم (بفتح الحاء والراء) . وينطقه الأولون بإمالة الراء : Harem .

المصادفة ، وأنها آخر امرأة أرغب فى الزواج منها فى مثل هذه الظروف لتأكدى من أننى لا أستطيع طلاقها أو فراقها إذا عشت معها. وقد شق على أن أسكت صديقى الخدوم . ولقد ذكرت فى المقدمة أن الأعزب أو من لا يقتنى جارية يضطر إلى السكنى فى الوكالة ، إلا إذا كان يعيش مع أهله . ولكن الفرنج الآن يعفون من هذا القيد .

وتبلغ المصريات الرشد فى سن مبكرة قبل نساء البلدان الباردة . وكثيراً ما يتزوجن فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . وقد ينضجن قبل السن بشكل يستحق الاعتبار ، ويتزوجن فى العاشرة(١) . إلا أن هذا الزواج المبكر غير شائع . وقلما تبقين بدون زواج بعد السادسة عشرة. وقد تصبح الفتاة المصرية أماً فى الثالثة عشرة أو قبل ذلك . ونساء مصر على العموم ولودات ، ولكن الأجنبيات اللاتى توطن مصر عقيمات غالباً . ويندر أن يعيش من يولد فى مصر من أولاد الأجانب إلى سن الكهولة ولو كانت الأم مصرية . ولهذا يرجع السبب فى تبنى المماليك المعتقين غيرهم من المماليك .

ومن الشائع بين العرب فى مصر وغيرها أن يتزوج الرجل من ابنة العم أو الخال . غير أن تلك العادة أقل شيوعاً فى القاهرة . ويستمر الزوجان على التنادى بألقاب القرابة ، لأن رابطة الدم لا تفصم ، ولكن صلة الزوجية عرضة للزوال . ومثل هذا الزواج يدوم على العموم بسبب رابطة القرابة ، وقد تربطهما وحدة البيئة فى طفولتهما ، ولكن قلما يسمح للفتى أن يرى وجه قريبته فى الطبقتين العليا والوسطى ، أو يقابلها أو يحادثها حين تقرب من سن البلوغ إلى أن تصبح زوجته .

ويتم زواج العذراء فى القاهرة بالطريقة الآتية ، إلا إذا كانت أرملة أو مطلقة فيكون الحفل صغيراً. تبدأ أم الراغب فى الزواج أو إحدى قريباته بوصف الفتاة التى تكون عرفتها وذكر أحوالها ، وترشده فى اختياره(٢) . وقد يستخدم خاطبة ، وهى امرأة عملها أن تساعد الرجال فى الزواج . وقد يستخدم أكثر

---

(١) وكثيراً ما يخطبن قبل ذلك بسنتين أو أكثر .

(٢) وكان إرسال إبراهيم رسولا إلى بلده للبحث عن امرأة لاسحق ابنه (أنظر سفر التكوين ٢٤) يعتبر تماماً عين الوسيلة التى قد يتبعها العرب المحدثون فى مثل هذه الظروف او تيسر الأمر لهم .

من خاطبة. وتقدم الخاطبة بيانها عن الفتيات مسارة، وتصف الواحدة أنها كالغزال جمالا ورشاقة وصغيرة السن ، والأخرى أنها ليست جميلة ولكنها غنية، وهكذا . والعادة أن تذهب أم الخاطب وبعض قريباته مع الخاطبة لزيارة عدة بيوت وللخاطبة حق الدخول لاحترافها سمسرة الزواج. إذ أن النساء كالرجال يستخدمنها أيضاً . وقد تقوم الخاطبة بمهنة (الدلالة) أيضاً ، تبيع الحلى والملابس الخ ، فيسهل عليها دخول البيوت تقريباً . وتقدم النساء اللاتى يرافقن الخاطبة للبحث عن زوجة لقريبهن ، باعتبارهن زائرات فقط، وقد لا يلبثن طويلا إذا لم يصادفن مرادهن، ويفهم الطرف الآخر طبعاً القصد من الزيارة . ولكن إذا وجدن بين نساء المنزل (ولا بد من رؤيتهن جميع من يصلحن للزواج) فتاة أو امرأة شابة تتحلى بالصفات اللازمة يكشفن عن قصدهن ويستفهمن، إذا لم يكن طلب الزواج وقتئذ مستقبحاً، عما تملك الفتاة من أملاك وحلى الخ . وقد تملك الفتاة إذا توفى أبوها منزلا أو أكثر وحوانيت كثيرة الخ . وتملك كل بنت على وشك الزواج ، فى الطبقتين العليا والوسطى، مجموعة من الحلى الذهبية والجواهر فى جميع الأحوال تقريباً . وبعد أن يستعلم الزائرات عن هذا وغيره يقدمن تقريرهن إلى الراغب فى الزواج. فاذا رضى بذلك البيان يقدم إلى الخاطبة هدية ويرسلها ثانية إلى عائلة الفتاة لتعرفهن رغباته . وتبالغ الخاطبة على العموم فى حديثها عن صفات الرجل الجذابة وثروته الخ، فتتحدث مثلا عن شاب خامل ، تعلم هى أنه لا يكاد يملك شيئاً ولا يمتاز بشىء، بقولها: « يا أبنتى، إن الشاب الذى يرغب فى الزواج منك صغير السن لطيف العشرة أنيق أمرد ثرى جميل الملبس مغرم باللطائف، إلا أنه لا يستطيع أن يتمتع بهذا الترف وحده ، فهو يريد أن تكونى شريكته . وسيعطيك كل ما يُشترى بالمال . وهو لا يخرج كثيراً ، وسيمضى وقته كله إلى جانبك يلاطفك ويدللك » .

قد يزوج أهل الفتاة فتاتهم لمن يشاؤون دون موافقتها إذا كانت قاصرة.. ويمكنها أن تختار زوجها إذا كانت بالغة، وتعين من ينوب عنها فى ترتيب الزواج وعقد العقد . والعادة أن تجتهد الخاطبة وقريبات القاصرة فى الحصول على موافقتها . وكثيراً ما يعارض الأب فى تزويج إبنته بمن ليس مثله

من المهنة أو التجارة، أو فى تزويج الصغرى قبل الكبرى(١). ويندر أن يستطيع العريس اختلاس نظرة من عروسه قبل أن تصبح فى حوزته ، إلا إذا كانت من الطبقة السفلى فيسهل عليه أن يراها .

وعندما تشرع المرأة فى الزواج تعين وكيلا ينوب عنها فى عقد العقد . وهذا التوكيل واجب إذا كانت الفتاة قاصرة ، ويكون أبوها حينئذ وكيلها . وفى حالة وفاته يكون أدنى الأقارب الذكور أو الوصى المختار أو المعين . أما إذا كانت بالغة فتعين هى وكيلها ، أو تعقد الزواج بنفسها . وذلك نادر .

وبعد أن يختار الرجل عروسه طبقاً لبيان قريباته أو الخاطبة، وبعد المعدات الأولى السابق ذكرها، ويقابل مع بعض أصدقائه وكيل العروس ، ويحصل منه على الموافقة ، إذا كانت العروس قاصرة ، ثم يسأله عن مقدار المهر .

ولا بد من دفع المهر كما ذكرت فى فصل سابق . ويقدم المهر على العموم بالريال ، باعتبار كل تسعين فضة . والنقد اسمى لا وجود له . ويبلغ المهر عادة إذا كان دخل العروسين متوسطاً ألف ريال ، وقد لا يزيد على نصف هذا المبلغ . (اثنين وعشرين جنيهاً إنجليزياً وعشرة شلنات) ويقدر الأغنياء المهر بالكيس ، وهو خمسمائة قرش حوالى (خمسة جنيهات إنجليزية) ويحددون المبلغ إلى عشرة أكياس أو أكثر . هذا فى حالة العذراء ، أما مهر الثيّب فأقل بكثير. وكثيراً ما يحدث بعض المساومة فى تحديد المهر كأى عملية مالية أخرى . فاذا طلب الوكيل ألف ريال يحتمل أن يعرض الطرف الآخر ستمائة ، ثم ينتهى الأمر بعد الزيادة والنقصان إلى ثمانمائة ريال . ويشترط دفع ثلثى المهر حالا قبل العقد ، ويدفع الثلث الأخير إلى الزوجة عند الطلاق بغير إرادتها أو وفاة الزوج .

ويتم الاتفاق على هذا الأمر بقراءة الحاضرين الفاتحة . ثم يحدد يوم قريب ، قد يكون بعد اليوم التالى، لدفع مقدم المهر والاحتفال بعقد الزواج، الذى يسمى عقد النكاح(٢) . ويسمى إنجاز العقد كتب الكتاب ، ولكن قلما توجد وثيقة

---

(١) أنظر التكوين ٢٩ — ٢٦ « فقال لابان لا يفعل هكذا فى مكاننا أن تعطى الصغيرة قبل البكر » .

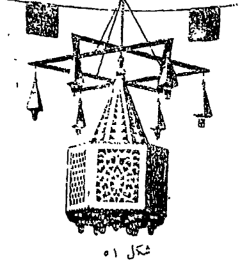
(٢) من الاعتقاد الشائع فى مصر أن من يعقد زواجه فى شهر محرم يخيب زواجه وتنحل عراه . ولذلك قلما يعقد عقد فى هذا الشهر . ويعتبر شوال أكثر الشهور ملاءمة لذلك .

مكتوبة تثبت الزواج ، إلا إذا كان العريس بسبب انتقاله إلى مكان آخر ، يخشى أن يضطر إلى إثبات الزواج حيث لا يتيسر له إحضار شاهدى العقد. وقد يتم عقد الزواج حالما ينتهى الطرفان من الاتفاق على المهر ، ولكن كثيراً ما يعقد بعد يوم أو يومين من ذلك الوقت. ويذهب العريس فى اليوم المحدد مع صديقين أو ثلاثة إلى منزل العروس قرب الظهر عادة ، فيستقبلهم وكيل العروس وبعض أصدقائه. ويجب عقد الزواج بشهادة شاهدين مسلمين إلا إذا استحال ذلك . ويقرأ جميع الحاضرين الفاتحة ، ثم يدفع العريس مقدم المهر. ويعقد بعد ذلك العقد بكل بساطة . فيجلس العريس على الأرض أمام وكيل العروس ، وكلاهما واضع إحدى ركبتيه على الأرض ثم يمسك كل منهما يمنى الآخر ويرفع إبهامه ويضغط به على إبهام الثانى . ويتولى تلقين الطرفين صيغة العقد بعض الفقهاء ، فيضع على اليدين المتماسكتين منديلا ، ثم يستهل العقد عادة بخطبة لا تخرج عن بعض الإرشادات والصلوات وبعض الآيات والأحاديث التى تشير إلى فضل الزواج ومزاياه . ثم يطلب من الوكيل أن يقول : « أخطب لك (أو أزوجك) ابنتى (أو موكلتى) فلانة (ويسمى العروس) العذراء[1] (أو العذراء البالغة) بمهر قدره كذا » ، وقد لا يذكر كلمة (بمهر الخ) . ثم يطلب من العريس أن يقول : « أقبل خطبتها (أو زواجها) وآخذها تحت رعايتى وأتكفل بحمايتها ، واشهدوا على ذلك أيها الحاضرون » ويردد الوكيل قوله هذا على العريس مرة ثانية وثالثة ، فيجيبه الأخير فى كل مرة بما سبق . وحينئذ يقول كلاهما « السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » . ويعيد الحاضرون قراءة الفاتحة . وليس للخطبة التى تتلى فى هذه المناسبة كلام موضوع أو نظام معين ، وقد يتلوها أى من الحاضرين ، وقد تحذف إطلاقاً . وقد يقبل العريس (ويندر ذلك إلا إذا كان من الطبقة السفلى) بعد انتهاء العقد أيدى أصدقائه وغيرهم من الحاضرين. ثم يقدم الشربات إليهم ويمكثون حتى تناول الغداء . ويهدى إلى كل منهم منديل مطرز تقدمه عائلة العروس ، بينما يتناول الفقيه منديلا مشابهاً تصر فيه قطع صغيرة من النقود الذهبية يقدمه له العريس . وتحدد ليلة الدخلة قبل انصراف الحاضرين . وتلك هى الليلة التى تنتقل فيها العروس إلى منزل العريس حيث يراها لأول مرة .

---

(١) وإن لم تكن عذراء يعبر عن ذلك بكلمة (سيب) أو على الأصح (ثيب) .

ويمهل العريس عروسه حوالى ثمانية أيام أو عشرة بعد عقد الزواج على العموم ، ويرسل إليها فى أثناء ذلك من حين لآخر بعض الفاكهة والحلوى الخ ، أو يهدى إليها شالا أو بعض الأشياء الثمينة . وتشتغل عائلة العروس فى الوقت نفسه باعداد الجهاز (من ديوان وحصير وسجاد وسرير وأدوات المطبخ) والملابس . ويصرف مقدم المهر فى شراء الجهاز الذى يصبح ملكاً للعروس ، فاذا طلقت يعاد إليها



شكل ٥١
(قنديل وخلافه معلق احتفالا بعقد زواج)

وتدفع عائلة العروس مبلغاً أكبر قد يزيد على المهر نفسه فى إعداد الجهاز ، ولذلك لا يمكن القول بحق أن الزوجة تُشترى(١) . ويرسل الجهاز عادة إلى منزل العريس على ظهور الجمال(٢) . وكثيراً ما يشمل الجهاز كرسى العمامة الذى سبقت الإشارة إليه . وكرسى العمامة كبير الحجم بسيط الصنعة إذ يصنع أسفله وظهره من الغاب ، وهو لا يستعمل للجلوس أبداً . وقد تكون له مظلة . وتوضع العمامة عليه ، وتغطى بقطعة من الحرير السميك ترصع عادة بسلوك ذهبية. وقد يحتوى الجهاز على كرسين : أحدهما لعمامة الزوج ، والآخر لعمامة الزوجة .

ويستقبل العريس عروسه فى ليلة الجمعة أو الإثنين(٣) ، وتعتبر ليلة الجمعة أسعد الأوقات. فلنقرر إذاً أن العروس تنتقل إلى عريسها مساء الجمعة .

---

(١) وفى الريف مع ذلك يتناول الأب أو الوصى الشرعى على العروس المهر ولا يعطى مقابل ذلك شيئاً غير الفتاة وبعض الحبوب الخ أحياناً . فيجهز العريس فى هذه الحالة عروسه بكل شىء حتى ملابسها .

(٢) لا تزال عادة عرض الجهاز سارية فى الريف ، وعند الطبقات الدنيا فى المدن . وهم يعمدون ، ليطول العرض إلى منزل العريس ، إلى وضع الجهاز على عدد كبير من العربات ، ولو كان الأمر يبدو جلياً أنه التظاهر بالكثرة . (المترجم)

(٣) لقد أخطأ (بركهاردت) بقوله أن يومى الاثنين والخميس ينجز فيهما الحفل الذى يسبق ليلة الدخلة مباشرة . وكان الواجب أن يذكر يومى الأحد والخميس . وقد ارتكب أيضاً بعض الأخطاء عند الكلام على حفلات الزواج عند المصريين فى كتابه الأمثال العربية (ص ١١٢ – ١١٨) ومن الواجب على أن أذكر ذلك وإن كنت أخشى أن تكون شهرة (بركهاردت) فى تمحيص الأشياء سبباً فى جعل القارىء يظن أنه على حق فى هذه المواضع . ولكنى أكتب هذا الكلام فى القاهرة وكتاب « بركهاردت » أمامى بعد شدة البحث والخبرة .

ويومئذ تضاء الشوارع أو الحى الذى يسكنه العريس ، أثناء الليلتين السابقتين أو قبل ذلك ، بالشمعدانات والفوانيس ، أو الفوانيس والقناديل الصغيرة ، يعلق بعضها فى حبال تمتد من منزل العريس وعدة منازل أخرى إلى المنازل المقابلة على جانبى الشارع . وتعلق أيضاً مع القناديل أو منفصلة ، رايات حريرية ذات لونين : أحمر وأخضر(١) . ويقام فى منزل العريس أثناء هذه الليالى ، وعلى الأخص الليلة الأخيرة التى تسبق عقد الزواج ، عدة حفلات . ومن المعتاد فى هذه المناسبات أن يرسل المدعوون والأصدقاء الخلص الهدايا إلى منزل العريس قبل الدعوة بيوم أو يومين ، فيرسلون سكراً وبناً وأرزاً وشمعاً ، أو حملا . وتوضع الهدايا السابقة على صينية نحاسية أو خشبية ، وتغطى بنسيج مطرز أو من الحرير . وتستخدم لتسلية المدعوين فرق موسيقية ومغنيات ومغنون وراقصات ، أو تقام « ختمة » أو « ذكر »(٢) .

وتقدم العائلات الموسرة إلى الخاطبة وإلى « داية » العائلة و « البلانة » وظئر العروس ، بعد إتمام العقد بيوم أو بيومين ، قطعة من النسيج الذهبى ، وشالا كشميرياً أو قطعة حريرية مفوفة من نسيج اليلك والشنتيان . فتضع هؤلاء النسوة هذه الملابس على الكتف اليسرى ، ويربطن أطرافها معاً على الجانب الأيمن ، ويركبن الحمير وأمامهن طبالان أو أكثر ، ويمررن على صديقات العروس ليدعوهن إلى مرافقتها الحمام ذهاباً وإياباً ، وإلى حضور الحفلات التى تقام بتلك المناسبة . وكلما يمررن على منزل تؤدب لهن مأدبة إذ أنهن يعلن عن زيارتهن فى يوم سابق . وتسمى أولئك « مدنات » (بضم الميم وكسر الدال) ، أو على الأصح « مذنات » ، وينطقها العامة « مدْنات » . وقد رأيتهن أحياناً يسرن راجلات ، ولا يتقدمن الطبالون ، ولكنهن كن يزغردن بدل دق الطبول .

ومن العادات التى تراعيها طبقات الشعب فى القاهرة أن تذهب العروس ظهر الأربعاء

---

(١) ويسمى القنديل الموضح فى شكل ٥١ المصنوع من الخشب المدهون أخضر وأحمر وأبيض وأزرق « ثريا » (تبعاً لإسم مجموعة الكواكب العربى « الثريا ») ويسمى الإطار الذى يعلوه والذى يتدلى منه ستة قناديل « خاتم سليمان » وتسمى المجموعة كلها « حمل قناديل » .

(٢) لا أصف هذه الحفلات هنا لأننى أفردت لها فصلا لاحقاً يتعلق بالحفلات الخاصة . والختمة عبارة عن تلاوة القرآن جميعه ، وأما الذكر فهو ترديد إسم الله وصفات التوحيد الخ . وسأتكلم عنهما بالتفصيل فى فصل آخر عند وصف الحفلات الدورية العامة .

الأول أو بعيد الظهر (أو يوم السبت إذا كان الزواج يتم ليلة الإثنين) إلى الحمام في أبهة واحتفال(١) . ويسمى هـذا « زفة الحمام » . فيتقـدم الزفة فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفـة الأنواع(٢) . وكثيراً ما تنتهز



شكل ٥٢ (زفة عرس. قسم أول)

الفرصـة ، كما ذكرت في فصل سابق ، للاحتفال بختان الولد ، فيسير هـذا وحاشيته خلف الموسيقيين بالطريقة السابق ذكرها . وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير المطرز أو الساذج . ويوجـد أيضاً سقاء يروي ظمأ السائرين ، ورجلان آخران يحمل أحدهما قمقماً من الساذجة أو المذهبة ، أو من الصيني ، مملوءاً بماء الورد أو زهر البرتقال ، يرش منه على السائرين من وقت لآخر . ويحمـل الآخر مبخرة من الفضـة يحرق فيها العود وغيره من المواد العطرية . ولكن يندر أن تسير الزفة بهذه الطريقة . وتكون حاشية العروس من صديقاتها وقريباتها المتزوجات ، يتقـدمن اثنتين اثنتين ، وتتاوهن الفتيات العـذارى . ويلبس المتزوجات الملابس العـادية ويتدثرن بالحبرة الحـريرية السوداء ، أما الأخريات فيلبسن الحبرة الحريرية البيضاء أو الشال . ثم تتبعهن العروس تحت مظلة حريرية ذات ألوان زاهية ، قرنفلية أو وردية أو صفراء ، أو ذات لونين معاً على هيئـة خطوط عريضة غالباً ما تكون وردية وصفراء . ويحمل المظلة من قوائمها الأربعـة ، المعلق على كل منها منديل مطرز ، أربعـة

(١) وقد رأيت مرة هذه الزفة ، وأخرى سأصفها فيما بعد ، تسير بعد ذلك الوقت بكثير وتعود بعد الغروب بساعة .

(٢) ونوع الموسيقى على العموم بدائي ونعزف، عادة ألحـاناً شعبية ، أوردت نماذج منها في هذا الكتاب .

رجال . ويفتح صدر هذه المظلة . وتختفي العروس تحت ملابسها ، فتتدثر ، من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ، بشال كشمير أحمر ، أو نادراً ، بشال أبيض أو أصفر . ويتوج رأسها بغطاء من الورق المقوى ، يوضع عليه الشال ، فيحجب عن الأنظار وجهها وملابسها الثمينة وحليها خلا قُصة أو قُصتين(١) (وحلى أخرى أحياناً) من الماس والزمرد ، تعلق على هذا الموضع من الشال الذى يغطى الجبهة . ويرافق العروس تحت المظلة اثنتان أو ثلاث من قريباتها ، وامرأة أخرى تروح عليها ، عندما تشتد الحرارة ، بمروحة كبيرة من ريش النعام الأسود ، يزين أسفلها مرآة صغيرة . وقد تقام زفة واحدة لعروسين معاً



شكل ٥٣ (زفة عرس . قسم ثان)

تحت مظلة واحدة ، فتسيران جنباً إلى جنب ، وتسير الزفة ببطء شديد وتتبع طريقاً ملتوياً ليطول العرض . وتتوجه إلى اليمين عند البدء فى السير . ويأتى فى ذيل الزفة فرقة موسيقية أخرى مثل الأولى أو فرقة من طبالين إثنين أو ثلاثة . ويلاحظ أن السائرات فى زفة العروس من الطبقة السفلى ، التى كثيراً ما تسير ، على النظام السابق وصفه ، يزغردن كثيراً . ويزغرد كذلك نساء الطبقة الفقيرة كلما شاهدن زفة .

وقد يستأجر الحمام كله للعروس وحاشيتها ، فيمضين ساعات أو ساعتين على الأقل فى الاستحمام واللعب وتناول الطعام . وكثيراً ما تستأجر العوالم (السِّقيان) لتسليتهن فى الحمام . ثم تعود الزفة بالنظام نفسه . ويتحمل أهل العروس نفقات الزفة ، إلا أن العريس يقيم المأدبة التى تعقب ذلك .

(١) أنظر وصف هذه الحلى فى الملحق .

وتعود العروس من الحمام إلى منزل أهلها ، فتتناول مع رفيقاتها العشاء . وتصحبهن القيان لاستئناف اللهو . وتدور أغانيهن على الحب والزواج . وبعد ذلك تعجن بعض الحناء ، وتضع العروس قطعة من العجين فى يدها ، ثم تتداول « النقوط » من ضيفاتها ، فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة فى تلك العجينة حتى لا يبقى موضع فيها فتقشطها العروس حينئذ بعيداً عن يدها على حافة وعاء مملوء بماء ، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها وتربطها بالكتان حتى الصباح ، فتصبغ بلون أحمر برتقالى قان . وتستعمل المدعوات ما تبقى من الحناء لصبغ أيديهن . وتسمى هذه الليلة « ليلة الحنا » .

ويقيم العريس الحفلة الكبرى فى هذه الليلة ، وأحياناً فى اليوم السابق . فيعرض « المحبظون » ألعابهم أمام المنزل أو داخل الفناء إذا كان المنزل واسعاً. وقد وصفت الألعاب الشائعة الأخرى التى تعرض على المدعوين لتسليتهم .

وتزف العروس إلى منزل عريسها فى اليوم التالى . وتسمى هذه الزفة لأهميتها « زفة العروسة » . أما الزفة السابق وصفها ، فتسمى « زفة الحمام » لتمييزها عن الأخيرة . وقد تسير العروس إلى الحمام بغير أبهة أحياناً تقليلا لمصاريف الاحتفال ، وتكون الزفة إلى منزل العريس فقط . وزفة العروس كالزفة السابقة تماماً . وتتناول العروس الفطور مع حاشيتها ، ثم تبدأ الزفة بعد الظهر . فتسير ببطء وانتظام ، كزفة الحمام ، سيراً طويلا خلال الشوارع الرئيسية لأجل العرض ، ولو كان منزل العريس قريباً . وقد تدوم الزفة ثلاث ساعات أو أكثر عادة .

وقد يتظاهر أمام الزفة مبارزان لا يلبسان غير السراويل ، أو يتضارب فلاحان بالنبوت أو بغيره . وترحب العائلات الموسرة بمن يجيد تسلية المتفرجين بحيلهم وألعابهم العجيبة أثناء زفة العروس ، وتقدم إليهم هدايا جميلة(١) . وحينما زوج السيد عمر نقيب الأشراف ، الذى كان الوسيلة الكبرى لبلوغ محمد على ولاية مصر ، بنته منذ حوالى خمس وأربعين سنة سار أمام الزفة شاب قد شق بطنه

---

(١) وأكثر ما يشاهد فى هذا الوقت العمل الشاق الذى يقوم به سقاء يطلق عليه لقب « قيم » ، ليحصل على هدية ولقب زهيد . فيحمل قربة ثقيلة تملأ رملا وماء أطول وقت دون أن يستريح بالقعود إلا إذا حبا . وقد شاهدت أخيراً فى زفة عرس قيما يحمل قربة من الرمل والماء تزن أكثر من قنطارين ، ابتداء من غروب اليوم السابق ، وظل يحملها طول الليل ، وفى اليوم التالى ، قبل الزفة وأثناءها حتى الغروب .

وأخرج أمعاءه على صينيـة من الفضـة ، ثم أعادها إلى موضعها بعد الزفة ، ولزم السرير عدة أيام ، قبل أن يشفى من آثار هذا الجنون الكريه . وضرب آخر ذراعه بسيفه أمام المتفـرجين ، ثم شد جرحـه قبل أن يخرج السلاح ببضعة مناديل تشربت بالدم . وقد وصف لى هذه الألعـاب شـاهد عيان . وهناك مشهد أكثر غرابة وأشد إثارة للاشمئزاز لا يقل شيوعاً فى هذه المناسبات عادة ، إلا أنه يندر أن يشـاهد الآن(١) . وقد يعرض الحواه أيضاً حيلا مختلفة . إلا أن أكثر الألعاب تكون تقليداً للمعـارك . وقد تعرض مثـل هذه الألعاب فى الاحتفال بختان . وقد تسير فى الزفة العظيمة عدة عربات يركبها صناع وتجار من مختلف الفنون والحرف الممارسـة فى العاصمة يمثلون أعمـالهم العادية . ويوجد فى إحدى العربات بعض الرجال يصنعون القهوة ويقـدمونها إلى المتفرجين أحياناً ، وفى عربة أخرى يجلس بعض الموسـيقيين ، وفى عربة ثالثـة بعض العوالم . وتركب العروس فى مثل هذه الزفـة عربة أوربيـة مقفلة ، ولكن كثيراً ما تركب العـروس وقريباتها وصـديقاتها الحمير فوق البرأذع المرتفعة ، ويتقدمهن الموسيقيون والمغنيات ويتلوهن فرق أخرى فى نهاية الزفة(٢) .

وتؤدب للعروس ورفيقـاتها مأدبة عند بلوغهن منزل العريس ، وسرعان ما تنصرف الصديقات ، وتبقى أم العروس وأختها وحدهما معها ، أو إحدى قريباتها الأخـريات ، وامرأة أخرى تكون « البـلانة » عادة . وتسمى الليلة التالية « ليلة الدخلة » .

ويبقى العريس فى الدور الأسفل . ويذهب قبل الغروب إلى الحمام ، فيغير ملابسه ، وقد يغيرها فى المنزل . وبعد أن يتناول وجبة العشاء مع بعض أصدقائه ، ينتظر قليلا إلى قبيل الصلاة أو إلى هزيع من الليل ، ثم يذهب حينئذ ، حسب العادة الشائعة ، إلى أحد المساجد المشهورة ، مثل مسجد الحسين ، لإقامة الصلاة . وتقام له بهذه المنـاسبة زفة إذا كان شـاباً ، فيتوجه إلى المسجد مسبوقاً بفرقة من طبالين وزمار أو زمارين ، وبصحبته بعض أصدقائه وحاملى المشاعل . والمشعل عبارة عن عصا طويلة ينتهى طرفها الأعلى باطار إسطوانى من الحديد يوضع فيه

---

(١) وقد وصفه « بركهاردت » وصفاً صحيحاً فى كتابه « الأمثال العربية » ص ١١٥–١١٦ .

(٢) جرت العادة أخيراً فى بعض الطبقات حديثة النعمة ، فى المدن الكبيرة ، أن يتجول العروسان وحاشيتهما فى رتل من السيارات ، فى شوارع المدينة ، فى جلبة مزعجة باستخدام آلات التنبيه على نحو متواصل . (المترجم)

خشب مشتعل . وقد يكون لها أكثر من وعاء واحد للنار (شكل ٥٤) .



شكل ٥٤ (مشاعل)

وتسير الجماعة إلى المسجد عادة بخطى سريعة ونظام قليل ، وتختم الزفة فرقة موسيقية كالأولى أو فرقة طبالين . ويلبس العريس عادة قفطاناً ذا خطوط حمراء وجبة حمراء ، ويعتم بشال من الكشمير باللون نفسه ، ويمشى بين صديقين فى مثل ثيابه . وتقام الصلاة للاحتفال فقط ، وفى أكثر الأحيان لا يصلى العريس مطلقاً أو يصلى من غير وضوء، مثل المماليك الذين يقيمون صلاتهم خوفاً من سادتهم فقط(١) . وتعود الزفة من المسجد فى نظام أتم وأبهة أعظم وبطء شديد . وربما كان سبب ذلك أنه لا يليق بالعريس أن يسرع إلى المنزل ليحظى بعروسه .

ويتقدم الزفة ، كما سبق ، موسيقيون وحاملو مشاعل ، يتبعهم رجلان يحملان على كتفيهما إطاراً معلقاً فى مذراة ، يتدلى منه ستون فانوساً صغيرة أو أكثر ، مقسمة إلى أربع دوائر تعلو إحداها الأخرى . ولا تثبت الدائرة العليا بحيث يستطيع أحد حاملى الإطار أن يديرها من حين لآخر . وينير لألاء هذه الفوانيس والمشاعل الكثيرة الشوارع التى تمر فيها الزفة ، فتحدث تأثيراً جميلا يستحق الاعتبار . ويتقدم العريس وأصحابه وغيرهم ، فى شكل حلقة مستطيلة ، متقابلين ، وفى يد كل واحد منهم شمعة أو أكثر ، وأحياناً يحملون أغصاناً من شجر الحناء أو بعض الزهور ، عدا العريس وصديقيه على كل جانب ، وهم يمشون فى مؤخر الحلقة التى تشمل عشرين شخصاً أو أكثر . وكثيراً ما يقف الموكب برهة ، يغنى أثناءها أحد رجال الحلقة أو صبيانها أنشودة العرس . ويقف أثناء ذلك دق الطبول ونغمات المزمار الحادة ، التى تبلغ مسامع العروس قبل وصول الزفة إلى المنزل بنصف ساعة أو أكثر . وينتهى الموكب كما سبق (عندما يكون فى طريقه إلى الجامع) بفرقة موسيقية ثانية .

---

(١) ومن هنا سميت هذه الصلاة « صلاة مماليكية » أو « صلاة المماليك » .

هذه هى الطريقة الشائعة فى زفة العريس . وهناك طريقة أخرى ، أكثر اعتباراً ، تسمى « زفة ساداتى » . يسير العريس فيها بين أصدقائه ، كالطريقة السابقة ، وبين حاملى المشاعل دون الموسيقيين ، ويستخدم مكان هؤلاء ستة أو ثمانية رجال يسمون ، لاحترافهم الغناء فى مثل هذه الأوقات ، « ولاد ليالى ». ويتوجه العريس بين هذه الحاشية إلى المسجد . ثم يعود الموكب على مهل ، ويشرع المغنون فى الغناء أو إنشاد الموشحات فى مدح الرسول . ويرتلون متعاقبين ما تيسر من القرآن بعد الوصول إلى المنزل ، ثم يقرأون جميعاً الفاتحة ، وينشد أحدهم بعد ذلك قصيدة فى مدح الرسول ، وأخيراً ينشد الجميع مرة أخرى الموشحات . ويتناولون النقوط من العريس وأصدقائه .

سرعان ما يترك العريس ، بعد عودته من المسجد ، أصدقاءه فى الدور الأسفل ينعمون بتدخين الشبك واحتساء القهوة والأشربة . وتظل أم العروس وأختها ، أو غيرهما من قريباتها ، فى الدور الأعلى ، بينما تكون هى والبلانة فى غرفة منفصلة . وينبغى أن يبدى العريس الشاب بعض الحياء مثل العروس ، فيحمله لذلك أحد أصدقائه فى بعض الطريق المؤدى إلى الحريم . وقد تجلى العروس ، إذا كانت من الطبقات الموسرة ، أمام العريس فى ملابس مختلفة تصل إلى سبعة . وعلى العموم يرى العريس عروسه مع البلانة وحدها ، فيمنحها عند دخوله الغرفة منحة فتنسحب فى الحال . وتغطى العروس رأسها بشال لا يرفعه العريس قبل أن يهبها هبة مالية تسمى « حق كشف الوش(١) » ، بينما تظهر العروس فى سبيل رفع الغطاء نفوراً وممانعة شديدة لتعبر عن خفرها البتولى . ويبسمل العريس عند كشف النقاب ، ثم يحيى العروس قائلا : « ليلة مباركة ! » . فتجيبه إن لم يرتج عليها من الخجل : « بارك الله فيك » وقد يرى العريس حينئذ لأول مرة وجه عروسه . ويجد العريس على العموم أن العروس كما وصفت له تقريباً . وكثيراً ما تنجز حينئذ طقوس عجيبة ، فيرفع العريس ملابس العروس جميعها ما عدا القميص ، ويجلسها على حشية سرير يتجه نحو مكة ، كما يولى ظهر العروس هذه الجهة ، ثم يجذب حجر قميصها إلى الأمام ويبسطه على الحشية . ويقف أمامها على بعد ثلاث أقدام تقريباً ، ويصلى ركعتين واضعاً رأسه ويديه عند السجود على هذا الجزء

---

(١) كلمة « وش » تحريف عامى لكلمة وجه أو وجه (بتعطيش الجيم) .

من القميص. ولا يبقى العريس مع عروسه أكثر من بضع دقائق(١)، بعد أن يكون قد أشبع فضوله بمشاهدة جاذبيتها ، ويطلب من النساء ، اللاتى يتجمعن عند الباب وهن قلقات ، أن يزغردن . وتصل الصيحات الحادة إلى مسامع الرجال فى الدور الأسفل وإلى الجيران ، وتتجاوب النساء بالزغاريد مخبرات أن العريس رضى بعروسه . ثم يهبط العريس إلى أصدقائه ويبقى معهم ساعة أو أكثر قبل أن يعود إلى زوجته . ويندر جداً أن يطلق الزوج زوجه إذا خاب فيها رجاؤه ، وإنما يستبقها أسبوعاً أو أكثر .

الآن وقد وصفت طريقة الاحتفال بزواج العذراء فى القاهرة ، أضيف بعض كلمات عن بعض حفلات تراعى فى أحوال أخرى خاصة بالعذارى والثيبات سواء .

يندر أن يذهب بنات العظماء إلى الحمام العمومى قبل الزواج لوجود الحمام فى المنزل . وعندما تخلو منازل العائلات الموسرة أو المتحضرة من حمام ، تذهب العروس مع قريباتها وصديقاتها إلى الحمام العمومى ، الذى يؤجر لهن خصيّة ، وإلى منزل العريس ، دون زفة ، راكبات الحمير فوق البراذع المرتفعة . وتتدثر العروس بشال كشمير على طريقة الحبرة . وقد ترافق حاشية العروس فرقة عوالم يركبن الحمير أيضاً ويغنين طول الطريق .

وقد يكون لعائلة العروس أو العريس أغاوات ، فيتقدمون العروس راكبين . وقد يجرى على رأس الزفة رجل يصيح : « صلوا على النبى(٢) » . وينثر هذا الرجل عند باب المنزل بعض أوراق السلق ، ليسير عليها السيدات اتقاء لأحداث الدهر . ثم يصيح الرجل نفسه قائلا : « نصر من الله وفتح قريب(٣) » .

وقد يتم عقد الزواج عند المصريين من غير أبهة ولا احتفال ، حتى فى حالة زواج العذراء ، برضا عائلتى العروسين المتبادل ، أو بموافقة العروس نفسها . أما الثيب فلا تزف أبداً عند الزواج . ويكفى أن تقول المرأة لمن يتقدم لزواجها : « وهبت لك نفسى » ، فتصبح امرأته شرعاً متى كانت بالغة ، حتى من دون

---

(١) أرجو من يرغب فى بعض التفصيل أن يرجع إلى بركهارت ص ١١٧ . فقد يكون وصفه أكمل ، ولكن يبدو أنه عنى بالإيجاز فى هذه الحالة بصفة خاصة .

(٢) عنبى (بتشديد النون) ، وهو ترخيم عامى .

(٣) سورة الصف . آية ١٣ .

شهادة ، إذا استحال الحصول عليها . وقد يعقد المسلمون فى مصر وغيرها من البلاد العربية الزواج بالثيب بهذه الطريقة البسيطة . ويبلغ مهر الثيب على العموم ربع مهر العذراء أو ثلثه أو نصفه .

وتتم حفلات الزواج فى القاهرة عند الطبقات التى تعلو الطبقات السفلى ، وإن حقرت معيشتها ، بنفس طريقة الطبقة الوسطى . إلا أنهم يراعون البساطة عند ما يستحيل تحمل نفقات مثل هذه الزفة السابق وصفها ، فتسير العروس متدثرة بشال أحمر ، ويحيط بها فريق من قريباتها وصديقاتها فى أحسن حللهن أو فيما يستعرن من الملابس.ولا يبهج الموكب من صيحات الفرح غير الزغاريد التى يرددنها من وقت لآخر .

وتختلف الزفة فى القرى عن الزفة السابقة . فالعادة أن تركب العروس جملا ، وهى متدثرة بشال ، حتى تبلغ منزل العريس . وقد يجلس معها على الجمل بعض النساء والبنات ، اثنتان على جانبيها ، واثنتان أو ثلاثة وراءها . ويكون الهودج كبيراً ويغطى بالبسط وغيرها . ويتبع العروس جماعة من النساء يغنين . وكثيراً ما يتقابل أصدقاء الطرفين وصديقاتهما فى منزل العريس ، مساء يوم الاحتفال والأيام السابقة ، ويلهون فى الهواء الطلق طويلا بالأغانى والرقص الذى ينقصه المهارة على ألحان الدف والطبل . ويغنى الجميع رجالا ونساء، ويرقص النساء فقط . وقد اختصرت الكلام فى وصف الحفلات الريفية لتجنب ترديد الوصف فى موضوعات متشابهة . ولنرجع إلى عادات أهل القاهرة .

وفى الصباح التالى للزفاف ، يعرض « الخولات »(١) أو « الغوازى » (رجالا ونساء) ألعابهم أمام منزل العريس أو فى الفناء (٢). وفى الصباح عينه ، إذا كان العريس شاباً ، يدعوه الشخص الذى سبق أن حمله إلى الحريم إلى قضاء اليوم فى الريف مع الأصدقاء. ويسمى هذا « الهروبة » . وقد ينظم ذلك العريس نفسه ، ويشترك فى النفقات إذا زادت على ما يقدمه أصدقاؤه من النقوط فى هذه المناسبة. ويستأجر الموسيقيون والراقصات لتسليتهم . وفى العودة يسير العريس من الطبقة السفلى فى مؤخرة الموكب

---

(١) ويسمى الخول أيضاً « غايش » وجمعها « غياش » .
(٢) ويسمى هذا « صباحية العروس » .

مسبوقاً ببعض الطبالين والزمارين . ويحمل كل من أصدقائه وغيرهم باقة من الزهر ، كما يفعلون أحياناً فى زفةالليلة السابقة . ويرافق الحاشية حاملو المشاعل والمصابيح عند عودتها بعد الغروب ، بينما يحمل الأصدقاء علاوة على الباقات شمعاً (١) . وهناك حفلات لاحقة تقام بمناسبة الزواج أيضاً ستوصف فى فصل لاحق .

ويفضل العريس على العموم ، إذا وفق إلىذلك ، أن تعيش أمه فىمنزله ، حتى يتسنى لها أن تحمى شرف زوجته وبالتالى شرفه أيضاً . ويقال إن الحماة تسمى كذلك لهذا السبب(٢) . ويقال إن المصريات يملن إلى الدسائس . وأخشى ألا يكون هذا الحكم ظلماً . وقد يسكن الزوج زوجه فى بيت أمها ويتولى الإنفاق عليهما . وهذا يوجب على الأم أن تهتم بالنفقات جد الاهتمام ، وأن تدقق فى ملاحظة ابنتها خوفاً من أن تطلق . ولكن يقال إن الأم فى هذه الحالة تعمل وسيطة لإبنتها ، فتعلمها الحيل والمكايد التى تتسلط بها على زوجها وتبذر نقوده . ويندر أن يقل الخوف من تأثير أم الزوجة عليها ولو كانت لا تنعم برؤية إبنتها إلا فى مناسبات عرضية . ولذلك يرى الرجال أنه من الحكمة أن يتزوجوا بنتاً لا أم لها ولا قريبات . حتى إن بعضهم يحرم على زوجته أن تستقبل امرأة غير قريباته . ولكن قلما يفرض هذا التقييد الشديد .

لا يصعب على من اختلط بمجتمع الرجال المسلمين فى القاهرة ، كما قد يتصور الأجنبى ، أن ينال ، من غير زواج ، مباشرة أو غير مباشرة ، أدق المعلومات الكثيرة عن شؤون النساء وعاداتهن . فأغلب رجال الطبقة الوسطى المتزوجين ، والقليل من الطبقة العليا ، يتحدثون طوعاً عن مسائل الحريم إلى من يصرح لهم باستحسانه آراءهم فى الأخلاق .

ولا تعتبر الزوجة على العموم متعقلة فى الحريم ، لأنها تكاد تكون مطلقة الإرادة فى الخروج وزيارة الصديقات واستقبال الضيفات . ولا جرم أنه ليس

---

(١) ويتقابل أصدقاء العروسين وأقاربهما فى ريف الصعيد فى اليوم اللاحق للزواج . وترقص العروس وقتاً قصيراً على نغمات تصفيق الرجال والدفوف وغيرها . وتطرح العروس على رأسها طرحة تصل إلى الكعبين وتغطى وجهها تماماً بمنديل من القطن المطبوع وتتحلى بأجمل ملابس العرس، وقد ذكرها بركهاردت فى المرجع السابق الإشارة إليه، التى تعلق على باب الدار بعد الزواج فى بعض مناطق ريف مصر . ثم يتمم الرقص بعض النساء محتجبات كالعروس ومتدثرات بأحسن ملابسهن ، أو مايستعرن ، مدة ساعتين أو أكثر .

(٢) وينطقها العامة (حمه) وهى مشتقة من فعل حمى بمعنى صان ورق .

للجوارى هـذا الاختيار ، إذ هن سواء خضعن للزوجة ، كما يخضعن للسيد ، أو للسيد فقط ، تحت سلطة لا حد لها تقريباً . ومن أهم ما يرمى إليه رب الدار بتخصيص حريم منفصل أن يتلافى رؤية الخدم وغيرهم من الرجال لنسائه دون نقاب كما يأمر الدين . وتبين الآية التاليـة أنه يجب على المسلمـة أن تخفى عن الرجال ، خـلا بعض الأقارب وغـيرهم ، ما يافتهم إلى شخصها أو زينتها : (وقل للمؤمنـات يغضضن من أبصارهن ويحفظنَ فرُوجهن ، ولا يُبدين زينتهن إلا ما ظهر منهـا ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بُعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعينَ غير أولى الإربة منَ الرجال أو الطفـل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربنَ بأرجاهن ليعلم ما يخفينَ من زينتهن(١) .) ويُشير الجزء الأخير من الآية إلى عادة رن الخلخال الذى كان يستعمله نساء العرب فى عهـد الرسول ولا يزال المصريات يتحلين به(٢) .

ويجب على أن أذكر هنا تعليقين لمفسرين فاضلين(٣) ، مدرجين فى ترجمة سيل Sale للقرآن ، توضيحاً للآية السابقـة ، حتى لا تؤديا إلى فهم العادات المتأخرة الخاصـة بدخول الحريم أو عـدمه فهماً خطأ . والتعليق الأول خاص بكلمـة (أو نسائهن) وقد شرحت كما يلى : « أى المسلمات ، ويروى البعض أن سفور المؤمنـة أمام الكافرة مخالف للشرع ، أو للحشمة على الأقل ، إذ لن تعف الكافرة عن وصفها للرجال . ويفترض الآخرون أن هـذا الاستثناء يشمل النسـاء جميعهن على العموم ، وتختلف آراء العلماء فى هذا الموضوع » . ولا يعتبر الآن فى مصر ، وفى كل بلد إسـلامى آخر على ما أعتقـد ، دخول امرأة ، من أى طبقة أو من أى دين ، حريم المسلم أمراً مخالفاً .

ويتعلق الشرح الآخر بجملة (ما ملكت أيمانهن) : « يشمل هذا الاستثناء جميع الأرقاء من الجنسـين ، وكما يرى البعض ، الخدم غير الأرقاء مثل هؤلاء

---

(١) سورة النور الآية ٣١ .

(٢) أنظر إشعيا ٣ / ١٦ « وقال الرب . من أجل أن بنات صهيـون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخشخشن بأرجلهن .

(٣) والتعليقان البيضاوى وجلال الدين — أنظر ترجمة سيل Sale للقرآن ص ٢٦٦ . (المترجم)

المنتمين إلى شعب آخر . ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أهدى مرة إلى ابنته فاطمة عبداً، وعندما أحضره أمامها لم تكن متدثرة بثوب ضاف، فكان لا بد أن تترك رأسها أو قدمها مكشوفاً ، فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم ، حينما لحظ ارتباكها ، أن لا تهتم ، لأنها ليست فى حضرة أحد غير أبيها وعبدها » . وقد يكون الحال كذلك اليوم عند عرب الصحراء ، ولكن لم يبلغنى قط أنه يسمح للعبد البالغ فى مصر أن يرى حريم رجل فاضل ، سواء كان العبد فى خدمة الحريم أو لا . وقد أكد لى أنه لا يسمح بذلك أبداً . وقد يكون سبب منح القرآن عبد المرأة هذا الامتياز استحالة الزواج به ما دام عبداً لها . ولكن ليس هذا موجباً لمنحه حق الدخول إلى الحريم فى مثل هذا المجتمع . ومما يستحق الاعتبار أن الآية السابقة لم تمنح الأعمام حق رؤية بنات الأخ أو الأخت مكشوفات الوجه . ويرى البعض أنهم ليسوا أهلا لذلك خشية أن يصفوهن لأبنائهم . ولا يليق بالرجل أن يصف سحنة امرأة أو شخصها (كأن يقول أن لها عينين نجلاوين وأنفاً مستقيماً وفماً صغيراً الخ) إلى من تحرم عليه رؤيتها . ولا عيب فى وصف المرأة وصفاً عاماً مثل قولك : « إنها فتاة لطيفة مكحلة بالكحل ومخضبة بالحناء » .

ولا يسمح للرجل عامة أن يرى غير زوجاته وجواريه ومن حرمن عليه لقرابة أو رضاعة بدون نقاب(١) . وقد أشرت فى الفصل الأول إلى قدم عهد النقاب . كما ذكرت أيضاً أن المصريات يعتبرن تغطية أعلى الرأس ومؤخره ألزم من تغطية الوجه ، وحجب الوجه أهم من حجب أغلب أجزاء الجسم الأخرى . فالمرأة التى لا يمكن حملها على كشف وجهها أمام رجل، قد لا تخجل من الكشف عن صدرها أو ساقها. وهناك حقيقة كثيرات من الطبقة السفلى يظهرن دائماً سافرات أمام العامة، ولكنهن مدفوعات إلى ذلك لفقرهن ولصعوبة إحكام الطرحة ، التى يندر أن تتجرد منها امرأة ، فوق الرأس لتحل محل البرقع ، وخاصة إذا شغلت كلتا اليدين فى تثبيت ما يحملن من الأثقال وتسرع المرأة الجليلة، عندما يصادفها رجل، مكشوفة الوجه أو الرأس، بلبس الطرحة أو إحكام وضعها . وكثيراً ما تصيح : « يادهوتى ! » أو « يا ندامتى ! » ولكن كثيراً ما يدفع الدلال المرأة المصرية إلى كشف وجهها أمام الرجل متظاهرة أنها فعلت ذلك عفواً، أو ظنت أنها لا تراه. وقد ينعم الرجل أيضاً برؤية وجه سيدة مصرية

---

(١) أنظر فصل الدين والشريعة . ويسمح للأغوات أن يروا وجه النساء، وكذلك الأطفال.

أحياناً، بينما هي تعتقد حقاً أنها بعيدة عن الأنظار ، من شباك مفتوح أو فوق سطح. ويوجد في القاهرة منازل صغيرة ليس لها غرف سفلى لاستقبال الضيوف من الرجال ، فيصعد هؤلاء إلى الدور الأعلى صائحين مراراً : « دستور يا ساتر! (١) » ، أو ما شابه ذلك لينبهوا من يصادفون من النساء في الطريق لينسحبن أو يحتجبن ، فتسحب المرأة فضلة من طرحتها أمام وجهها إلا عيناً واحدة . ويصل شعور المسلمين بحرمة النساء إلى درجة غريبة ، حتى أنه يحرم على الرجال دخول قبور بعض النساء. فلا يسمح مثلا لغير النساء بزيارة زوجات الرسول وغيرهن من أسرته في مدافن المدينة . ولا يدفن الرجل والمرأة في قبر واحد أبداً، إلا إذا فصل بين الجثتين جدار . ويوجد مع ذلك من لا يهتم كثيراً بهذا الأمر وإن قل عددهم . ولي صديق مسلم من هؤلاء يسمح لي على العموم أن أرى أمه عندما أذهب لزيارته . وأمه أرملة في الخمسين من عمرها تقريباً ، ولكن ضخامة بدنها ودلالة سيماها على عدم الكبر يجعلانها تعتبر نفسها في سن الأربعين . وتقبل عادة إلى باب غرفة الحريم حيث أستقبل ، لخلو المنزل من غرف سفلى للاستقبال، وتجلس هناك على الأرض ، ولكنها لا تدخل الغرفة أبداً . وقد تكشف أحياناً وجهها تماماً كما لو كان الأمر عرضياً ، فتبدو عيناها وقد أحاط بهما الكحل الكثير ، كما أنها لا تحاول أن تخفي حليها الماسية والزمردية وغيرها، بل على العكس من ذلك تحاول إبرازها. ولم يسمح لي صديقي برؤية زوجته أبداً ، مع أنه أذن لي بمحادثتها مرة في حضوره ، خلف زاوية في ممر أعلى السلم .

وأعتقد أن نساء مصر لا يضيق عليهن بالشدة المشاهدة في البلاد الأخرى الخاضعة للباب العالي. ولذلك ليس من غير المعتاد أن ترى نساء الأوشاب يتدللن ويمزحن مع الرجال علناً، والرجال يضعون أيديهم عليهن دون حرج. وقد يُظن أن نساء الطبقتين العليا والوسطى يشعرن بالجور والتعاسة في عزلتهن ، ولكن ليس هذا هو الحال عادة، بل على العكس نلاحظ أن الزوجة المصرية التي تتعلق بزوجها قد تظن ، إذا أطلق لها زوجها الحرية ، أنه يهملها ولا يحبها كثيراً ، وتحسد أولئك اللاتي يخضعن للرقابة الدقيقة .

---

(١) الفارسية ، دستور : أجازة ، إذن . ويصحح جيرار دنرفال Gérard de Nerval قول (لين) فيذكر : ياست. أنظر كتاب J. - M. Carré السابق ذكره ج ٢ ص ٣٥ وأعتقد أن السائد هو ما يقول لين . ولا تزال تلك العادة يعمل بها . (المترجم)

وليس من المألوف أن يتزوج المصرى بأكثر من امرأة، أو يتسرى بأكثر من جارية ، مع أن الشرع يبيح له أربع زوجات ، كما أشرت قبلا، والتسرى، طبقاً للرأى الغالب ، حسب رغبته . إلا أن الرجل ، وإن اقتصر على زوجة واحدة ، يمكنه أن يبدل كيفما شاء . ويقيناً ليس هناك كثيرون فى القاهرة لم يطلقوا امرأة إذا طال أمد الزواج . ويستطيع الزوج أن يطلق زوجه وقتما يريد بقوله : « أنت طالقة » . فاذا استقرت إرادته على ذلك عن صواب أو عن خطأ ، وجب على المرأة أن تعود إلى أهلها أو صديقاتها . وتعرض المرأة لطلاق لا تستحقه مصدر لحزن وقلق لا تجدهما فى أى اضطراب آخر . وقد تصبح لذلك فى حالة عوز شديد . وهذا التعرض يبدو طبعاً ، على العكس تماماً ، لأولئك اللاتى يأملن تحسين حالتهن . وقد ذكرت فى فصل الدين والشريعة أن الرجل يستطيع أن يطلق زوجه مرة أو مرتين ويردها إليه فى كل مرة من غير حفل . ولكنه لا يستطيع أن يردها شرعاً فى المرة الثالثة قبل أن تتزوج رجلا آخر وتطلق منه . وهذا بعينه نتيجة الطلاق ثلاثاً المعبر عنه فى جملة واحدة : « أنت طالقة بالثلاثة » . ولكن قد يتفق الرجل والمرأة على مخالفة الشرع ، أو ينكر الرجل أنه أوقع يمين الطلاق . وتجد المرأة فى الحالة الأخيرة صعوبة كبيرة فى تنفيذ الطلاق قانوناً إذا أرادت ذلك .

وأذكر ، لتوضيح هذا الموضوع ، قضية أدخل فيها أحد معارفى شاهداً على يمين الطلاق . فقد كان جالساً فى مقهى مع رجلين آخرين : كان أحدهما قد غضب على امرأته لشىء قالته أو فعلته . وأرسل هذا بعد حديث قصير فى هذا الأمر يدعو زوجه ، ثم أوقع عليها يمين الطلاق ثلاثاً ، وأشهد زميليه على ذلك . ولكنه سرعان ما ندم على فعله وأراد أن يعيد مطلقته ، فرفضت العودة إليه ولجأت إلى « شرع الله » . فقدمت القضية إلى المحكمة . وقررت المدعية أن المدعى عليه أوقع عليها الطلاق ثلاثاً ، وأنه يريد الآن ردها إليه لتعيش معه كزوجة على خلاف الشرع . وأنكر المدعى عليه الطلاق . فسأل القاضى المدعية : « هل لديك شهود ؟ » فأجابته « عندى شاهدان » . وكانا هما الرجلين اللذين شاهدا الحادث فى المقهى . فقررا أن المدعى عليه طلق امرأته ثلاثاً فى حضرتهما . فأكد المدعى عليه أن التى طلقها فى المقهى كانت امرأة أخرى . ولكن المدعية نفت وجود زوجة أخرى . فلفت القاضى نظرها إلى استحالة معرفتها ذلك ، وسأل الشاهدين عن إسم المرأة التى طلقها الرجل أثناء وجودهما . فأجابا أنهما يجهلان إسمها . فطلب منهما أن يقسما ، إذا استطاعا ،

أن المدعية هى المرأة المطلقة أمامهما . فأجابا أنهما لا يستطيعان ذلك لأنهما لم يريا المرأة سافرة أبداً . فرأى القاضى إزاء ذلك أن يرفض الدعوى . وأجبرت المرأة على العودة إلى منزل زوجها . كانت تستطيع أن تطلب حضور المرأة التى اعترف الرجل بتطليقها فى المقهى ، ولكن كان من السهل أن يحضر امرأة تقوم بالدور المطلوب ، ما دام لا يطلب منها وثيقة الزواج . وفى مصر يعقد الزواج دائماً من غير كتابة ، ومن غير شهادة أحياناً .

كثيراً ما يحدث أن يرد الرجل امرأته بعد طلاق ثالث (بشرط أن ترضى هى نفسها باستئناف المعاشرة ، وألا يوجد شهود بوقوع الطلاق) دون أن يخضع للقانون الثقيل السابق ذكره . وجرت العادة أيضاً أن يستخدم الرجل فى مثل هذه الظروف رجلا آخر يتزوج المطلقة بشرط أن يطلقها فى اليوم التالى لزواجهما ، فيعقد عليها الزوج الأول من جديد ، وإن خالف ذلك روح الشريعة مخالفة صريحة . ولكن قد تمسك الزوجة عن القبول ، إلا إذا كانت قاصرة ، فيزوجها أبوها أو الوصى عليها من يشاء . ويختار عادة للقيام بهذا العمل رجل فقير قبيح الشكل أعمى غالباً ، يطلق عليه لقب « مستحل » (بكسر الحاء أو فتحها) ، أو « محلل » . وكثيراً ما يعجب المستحل بجمال المرأة التى يتزوجها بالشروط السابقة أو بثروتها فيرفض أن يتركها . ولا يستطيع القانون أن يجبره على تطليقها إلا إذا ظلم ، وطبيعى أن يحرص على عدم الجور فى معاملتها . ولكن الرجل يستطيع أن يستخدم « المستحل » دون تعرض لهذا الخطر . فقد جرت العادة أن يستخدم أثرياء الترك وبعض المصريين عبداً أسود من عبيدهم ليقوم بهذا العمل . وقد يشترى العبد أحياناً لهذا الغرض ، أو يطلب من النخاس أن يقدم العبد على سبيل العارية . وأحسن العبيد أقبحهم شكلا . ويختار الترك على العموم عبداً غير بالغ ، إذ يسمح لهم مذهبهم بذلك . وعندما تستكمل المرأة عدتها ، يقدم لها مطلقها العبد ، بعد أن يحصل على رضاها بذلك من قبل ، ويسألها الموافقة على الزواج به ، فتوافق أمام الشاهدين ، ويقدم لها المهر لتكمل شرعية الزواج . وبذلك يصبح العبد زوجها الشرعى . وبعد العقد فوراً ، أو فى الصباح التالى ، يقدم الزوج الأول إلى مطلقته هذا العبد ملكاً لها ، فتنحل عقدة الزواج بقبولها إياه . إذ أن الشرع لا يبيح للمرأة أن تتزوج من عبدها إلا إذا أعتقته . وتستطيع الزوجة ، عندما يفسخ زواجها بقبولها العبد ، أن ترده إلى زوجها ثانية . ولكن يندر أن يسمح الزوج للمستحل بالبقاء فى المنزل . وبعد ذلك تستطيع الزوجة ، عندما تنتهى عدتها ، أن تعود إلى زوجها بعد أن فارقته مدة العدتين ، وذلك ما يقرب من نصف سنة أو يزيد .

ومن الميسور أن نتصور ما تنتجه سهولة الطلاق من ضرر ينال الجنسين معاً. وفى مصر رجال يتزوجون فى عشر سنين عشرين امرأة أو ثلاثين أو أكثر من ذلك. وفيها كذلك نساء لم تتقدم بهن السن يتزوجن عشرة رجال أو أكثر على التوالى. وقد أخبرت أن هناك رجالا تعودوا الزواج كل شهر تقريباً بامرأة جديدة. ولا يصعب ذلك على الرجل ولو لم يملك إلا القليل، إذ يستطيع أن يختار، من بين الطبقات السفلى، أرملة شابة أو مطلقة ترضى أن تصبح زوجة له بمهر يقرب من عشرة شلنات، ولا يلتزم عندما يطلقها بأكثر من ضعف هذا المبلغ أثناء عدتها. ولكن يجب القول بأن المصريين على العموم يعتبرون مثل هذه التصرفات فاضحة. وقلما توافق عائلات الطبقات العليا والوسطى أن يزوجن بناتهن من رجل مزواج.

ويقل تعدد الزوجات فى الطبقات العليا والوسطى عنه فى الطبقات السفلى. وتعدد الزوجات مفسد لأخلاق الزوج وزوجاته، ولا يبرره غير تقليله ارتكاب الفاحشة. ويستطيع الفقير أن ينعم بزوجتين أو أكثر، وتستطيع كل منهن أن تقوم بضروريات معيشتها تقريباً بأى صنعة أو عمل. إلا أن أغلب رجال الطبقات العليا والوسطى منصرفون عن ذلك لما يحدثه تعدد الزوجات من نفقات وتعب. وقد يضطر الرجل الذى يحب زوجته العقيم إلى الزواج بأخرى أحياناً، لتكون له ذرية. وقد يتزوج بثالثة أو رابعة للسبب نفسه. بيد أن السبب البين والمألوف لتعدد الزوجات هو عدم استقرار الشهوة. ولكن قل من يرضى هواه بالأسلوب السالف. وأعتقد أن ليس هناك أكثر من رجل واحد بين كل عشرين رجلا ينعم بزوجتين.

وتتمتع زوجة الرجل الأولى بالمكان الأول بين زوجاته الأخريات، وتسمى «الست الكبيرة». ومن هنا كان كثيراً ما يحدث، عندما يرغب الرجل فى الزواج، أن يشترط أهل الفتاة المخطوبة أو الفتاة نفسها أن يطلق الزوجة الأولى أولا. وطبيعى أن المرأة لا تستحسن زواج الرجل بأكثر من واحدة. ويُعِد الرجل الثرى، أو المتوسط الحال، حتى الفقير، لكل من زوجاته مسكناً منفصلا. وتستطيع الزوجة أن تجبر زوجها على أن يخصص لها «مسكناً شرعياً»، منفصلا أو شقة (بها غرفة واحدة للنوم وللجلوس ومطبخ ودورة مياه) منفصلة عن غرف المنزل الأخرى. وتسمى كل من الزوجتين أو الزوجات «ضُرة»(١).

---

(١) وينطقها العامة كذلك (أو بالحرى «درة»، بالدال) بدلا من ضرة (بفتح الضاد) وقد يكون ذلك فى الأصل تحويراً لمعنى كلمة، على سبيل التورية، إذ أن كلمة درة تسمية عامية للببغاء.

وكثيراً ما يتحدث الناس عن مشاجرات الضرائر . ويستنتج طبعاً أن الصداقة لا تحصل دائماً بين امرأتين يقتسمان حب رجل واحد وحدبه . وكذلك الحال على العموم بين الزوجة والسرية اللتين تعيشان فى منزل واحد وفى أحوال متشابهة(١) . ويحدث أحياناً إذا عقمت السيدة ، وحملت من دونها ، زوجة أو سرية ، أن تصبح الأخيرة مفضلة لدى الرجل ، و « تصغر فى عينيها » سيدة المنزل كما صغرت امرأة إبراهيم فى عينى هاجر للسبب نفسه(٢) . ولذلك كان كثيراً ما تفقد الزوجة الأولى مكانتها وامتيازاتها ، وتصبح الأخرى سيدة المنزل ، فيعاملها منافساتها والحريم جميعه والزائرات ، لحظوتها عند الزوج ، بنفس الاحترام الظاهر التى كانت تتمتع به الزوجة الأولى . ولكن قد تستعمل الكأس المسمومة أحياناً للتخلص منها . وكثيراً ما يكون تفضيل الزوجة الثانيـة سبباً فى تقييد الزوجة الأولى فى المحكمة « ناشزة »(٣) ، بناء على طلب الزوج أو طلب الزوجة الأولى نفسها . ومع ذلك كان كثيراً ما يرى زوجات يخضعن إلى أزواجهن الخضوع المثالى الصادق فى مثل هذه الأحوال ، ويعاملن الزوجة المفضلة بود وطيبة(٤) .

لبعض الزوجات جوار يُشترين خاصة ، أو يقدمن إليهن قبل الزواج . وأولئك الجوارى لا يصبحن سريات للزوج إلا باذن تسمح به السيدة أحياناً (كما كان حال هاجر جارية سارة) . ولكن ذلك نادر جداً . وكثيراً ما تأبى الزوجة لجاريتها أن تسفر فى حضرة زوجها . وقد يتسرى الزوج بالجارية دون إذن سيدتها ، وقد تحمل منه ، فيصبح الطفل عبداً ، إلا إذا بيعت الأم أو أهديت إلى الأب قبل ولادة الطفل .

والجوارى البيض غالباً فى حوزة الأتراك الأثرياء . أما سرارى(٥) المصريين فى الطبقتين العليا والوسطى فهن من الحبشيات . ويبدو أولئك الحبشيات من

---

(١) ويأمر الشرع الزوج الذى يتزوج بأكثر من واحدة أن يلزم العدل بينهن فى كل شىء ولكن يندر الخضوع لهذا الأمر .

(٢) أنظر سفر التكوين ١٦ / ٤ (فدخل على هاجر فحبلت ولما رأت أنها حملت صغرت مولاتها فى عينيها) .

(٣) وقد فسرت ذلك فى الفصل الثالث .

(٤) وطبعاً يعتبر أجمل زوجات الرجل أو أجمل جواريه أفضل نسائه وقتاً ما . ولكن أكثر النساء حظوة لاتكون فى أحوال كثيرة ، إن لم تكن أغلبها ، أجملهن . ولذلك ليس حب المسلم دائماً مجرد شهوة . ولا تتعلق أيضاً مكانة الزوجة وراحتها ، كثيراً وبلا تغير ، ببدوات الرجل أو بجاذبيتها الشخصية مثلما تتعلق بسيرتها العامة وأهليتها .

(٥) لا يستطيع المسلم أن يتسرى بجارية وثنية .

سيماهن ولون وجههن من جنس وسط بين الزنوج والبيض ، وإن كان الفرق بينهن وبين الجنسين كبيراً . ولكن الحبشيات يعتقدن أن ما بينهن وبين الجنس الأبيض من تفاوت قليل ، فلا يمكن حملهن على القيام بخدمة زوجات سادتهن مع الخضوع الواجب . وتشعر الجارية السوداء نحو الحبشية الشعور نفسه ، ولكنها تخدم البيض بكل ارتياح . وأذكر هنا أن الجوارى اللاتى يسمين حبشيات لسن ، ما عدا القليل منهن ، من بلاد الحبشة ، ولكنهن من أقاليم الجلا المجاورة ، وأغلبهن جميلات . ويقدر ثمن الحبشية المتوسطة الجمال من عشرة جنيهات استرلينية إلى خمسة عشر ، ولكن هذا نصف ما كان يدفع عادة ثمناً للواحدة من سنوات قليلة خلت . ويقدر أصحاب الشهوة فى مصر الحبشيات كثيراً . ولكنهن رقيقات التكوين ، فيفنى أغلبهن رويداً فى هذا البلد . ويقدر ثمن الجارية البيضاء عادة من ثلاثة أضعاف إلى عشرة أضعاف الحبشية ، وثمن السوداء حوالى النصف أو الثلثين ، أو ما يزيد بكثير إذا كانت تجيد الطهى . وتقوم الجوارى السود بالخدمة .

ويدخل جميع الجوارى تقريباً فى دين الإسلام . ولكنهن على العموم لا يعرفن من دينهن الجديد إلا قليلا . وأغلب الجوارى البيض اللائى كن بمصر أثناء زيارتى الأولى يونانيات . وقد أسرت الجيوش التركية والمصرية تحت قيادة إبراهيم باشا كثيرين من أبناء هذا الشعب البائس ، وأرسل كثيرون منهم ذكوراً وإناثاً وأطفالا ليباعوا فى مصر . وقد قل طلب الجوارى البيض فيما بعد لشيوع الفقر بالطبقات العليا فى مصر . ويجلب من الجركس والكرج عدد قليل قد تلقى بعضهن نوعاً من الثقافة الأولية ، إذ يتعلمن الموسيقى وبعض الفنون الأخرى فى الأستانة . وقد شغلت الجوارى البيض مكانة أعلى من مكانة الحرائر فى مصر عند الرأى العام . فكثيرات منهن كن رفيقات لعظماء الأتراك ، أو زوجاتهم ، وكان الأتراك يفضلوهن على الأخريات . ويلبس أولئك الجوارى أفخر الملابس ، ويتقلدن الحلى النفيسة ، وينعمن تقريباً بكل مستطاع ، ويعتبرن فى بعض الأحوال ، إذا لم يستعملن للخدمة ، سعيدات . وقد أثبت ذلك أخيراً ، منذ انتهاء الحرب فى اليونان ، أن جوارى كثيرات بقين أسيرات فى الحريم ، ولم يرغبن فى الحرية ، ولا يمكن افتراض عملهن نتيجة جهل بحالة أسرهن وأقاربهن ، أو خوف التعرض للفقر ، وإن كان يحتمل أن بعضهن حمل على البقاء تحت تأثير الظروف الدينية والأخلاقية التى خضعن إليها قسراً ، ولأنهن أنجبن أطفالا لساداتهن . ولكن إذا كان بعضهن سعيدات وقتاً ما على الأقل

فهن قليلات نسبياً . وقد قدر لأغلبهن أن يخدمن زميلاتهن الحظيات أو السيدات التركيات ، أو أن يتقبلن كرهاً ملاطفات عجوز غنى ، أو رجل أنهك الإفراط جسده وعقله ، ثم يعرضن للبيع (إذا لم يكن لهن أطفال) عندما يسأمهن سادتهن أو سيداتهن ، أو عندما يموتون ، أو يحررن ويزوجن من بعض الوضعاء ، الذين لا يستطيعون أن يمنحوهن إلا القليل مما تعودنه من الرفاهية . وتعتبر جوارى الطبقة الوسطى أحسن حالا من جوارى الأغنياء . فلا يعكر صفوهن فى أغلب الأحوال منافسة ، عندما يستخدمن للتسرى ، ولا يتعبن أو يشتد عليهن عندما يخصصن للخدمة . وكثيراً ما تكون حالة السرية أسعد من حالة الزوجة إذا دامت المحبة المتبادلة بينها وبين سيدها . إذ أن الزوجة قد تطرد فى وقت غضب الزوج ، فيوقع عليها طلاقاً لا رجعة ، فيه ، فتمسى فى حالة فقر ، بينما يندر أن يطرد رجل جاريته دون أن يدبر لها الأمر ، فإن لم تكن تعودت الترف لا تتألم كثيراً أو إطلاقاً من هذا التبدل . فيعتقها السيد ويمنحها مهراً ويزوجها رجلا طيب السمعة أو يقدمها إلى صديق . وسبق أن ذكرت أن السيد لا يمكنه التصرف فى جارية حملت منه واعترف بولدها ، وأن ذلك يستأهلها للتحرر بعد وفاته . وكثيراً ما يحدث أن تعتق هذه الجارية بعد الحمل فوراً وتصبح زوجة سيدها ، إذ لا تستطيع الجارية عندما تعتق أن تقوم طويلا مقام الزوجة شرعاً إلا إذا تزوج بها السيد . ويرى بعض الناس أن من العار بيع الجارية التى بقيت طويلا فى خدمتهم . ويفسد « الجلاّب » ، أو تاجر الرقيق ، فى الصعيد والنوبة ، الجوارى الحبشيات والسود أقبح فساد . ويندر أن ينجو من فى سن الثامنة أو التاسعة من شدة عنف النخاسين . وكثيراً ما يُلقى هؤلاء الأطفال ، والأحباش منهم خاصة ، أنفسهم فى النيل أثناء السفر(١) ، هرباً من قسوة «الجلاب» . وتعتبر الجوارى من أى طبقة أغلى ثمناً من الذكور فى السن نفسه . وتعد من لم تصب بالجدرى أقل ثمناً ممن أصيبت به ويُعطى المشترى ثلاثة أيام ، تظل الجارية أثناءها فى حريمه ، أو فى حريم صديق له ، ليقدم له النساء تقريراً عنها . ومن أسباب إعادة الجارية إلى التاجر أن تغط فى نومها أو تصر بأسنانها أو تتكلم أثناء النوم . — وتشبه ملابس الجوارى ملابس المصريات .

---

(١) ويرسل الجلاب جواريه عن طريق الصحراء والبعض الآخر عن طريق النهر. (المؤلف)
ويبدى لين رأياً مغايراً من قبل فى مخطوطه (وصف مصر) حيث يقول إن أكثر العبيد كانوا أطفالا . وكانوا عندما وصلت القافلة فى التو إلى شاطىء النيل ، بعد رحلة مضنية عبر الصحراء ، يبدون مبتهجين . وكان بعضهم مستلق فى ظل النخيل ، بينما يلهو الآخرون ويضحكون . ويقول لين : ما رأيت قط مجموعة من البشر فى مثل تلك السعادة . (المترجم)

يقوم الخادمات المصريات بأحقر الأعمال . ويغطين وجوههن فى حضرة سادتهن ، فيسحبن بعض الطرحة على الوجه فلا يظهرن غير عين ويد للقيام بالعمل . وإذا ما استقبل ضيف فى حجرة من حجر الحريم ، انسحبت النساء إلى حجرة أخرى ، وبقيت خادمة منتقبة لخدمته .

تلك هى أحوال طبقات النساء المختلفة . ويجب علاوة على ذلك أن نصف عاداتهن وأعمالهن وصفاً سريعاً .

إن الزوجات ، مثل الجوارى ، لا تحرم من امتياز تناول الطعام مع رب العائلة غالباً فحسب ، بل يجب عليهن أيضاً أن يقمن على خدمته أثناء طعامه ، أو عندما يدخن شبكه ويحتسى قهوته فى الحريم . وكثيراً ما تشتغل الزوجات كالخادمات ، فيحشون الشبك ويشعلنه ، ويصنعن القهوة ، ويجهزن الطعام أو بعض الأصناف اللذيذة على الأقل . وإذا استطعت الحكم تبعاً لتجربتى الخاصة ، قلت إن أغلبهن طاهيات بارعات ، وكلما أوصى إلى بطبق صنعته زوجة مضيفى ، وجدته لذيذاً بصفة خاصة . وتهتم السيدات فى الطبقات العليا والوسطى بارضاء أزواجهن وجذب قلوبهم اهتماماً متواصلا بحيل شتى . ويظهر دلال النساء ، حتى فى مشيتهن العادية ، عندما يخرجن ، بهز الجسم هزاً خاصاً(١) . وتحتشم الزوجات عادة فى حضرة الزوج قليلا أو كثيراً . ولذلك يسرهن ألا تتكرر زيارة الزوج للحريم أو تطول أثناء النهار . وكثيراً ما يستسلمن فى غيابه إلى ابتهاج صاخب .

ولا يختلف طعام المرأة عن طعام الرجل إلا فى قلة مقداره ، ولا تختلف كذلك طريقة تناول الطعام . ويسمح لأغلب النساء أن ينعمن بترف التدخين . ولا يعتبر النساء مهما علا مركزهن هذه العادة غير لائقة بهن ، إذ أن رائحة أنواع التبغ الجيد المستعمل فى مصر لطيفة جداً . ويلاحظ عادة أن شبك النساء أرشق من شبك الرجال وأكثر زخرفة . ويكون مبسم الشبك أحياناً من المرجان بدلا من الكهرمان . ويستعمل النساء العطور ، مثل المسك وقط الزباد الخ ، وكذلك الأدهان ، كثيراً ، ويستعملن خاصة بضعة عقاقير تؤكل أو تشرب للحصول على بدانة ملائمة(٢) . وبعض المسمنات تثير الاشمئزاز إلى أقصى حد ، لأنها

---

(١) ويسمون هذه الحركة (غنجاً) .
(٢) لا يعجب المصريون ، بخلاف المغاربة وبعض الافريقيين والشرقيين ، بالمرأة المفرطة البدانة . ويصف المصرى عادة حبيبته فى أغانى الحب برشاقة القد وهيف الخصر .

تتكون خاصة من الخنافس المسحوقة . وقد تعود كثير من النساء مضغ « اللبان » و«اللادن » (١) اللذين يطيبان النكهة . كما تعودن كثرة الوضوء ليكن طاهرات . ولا يبذل النساء وقتاً طويلا فى التبرج . وقلما يغيرن ملابسهن طول اليوم بعد أن يلبسن فى الصباح . ويضفرن شعرهن فى الحمام ولا يحللنه بعد ذلك عدة أيام .

والاعتناء بالأطفال أول ما يهتم به السيدات المصريات ، وعليهن أيضاً إدارة الشؤون المنزلية . إلا أن الزوج وحده فى أغلب الأسر يقوم بنفقات المنزل . ويمضى السيدات ساعات الفراغ غالباً فى الاشتغال بالإبرة ، وعلى الأخص فى تطريز المناديل والطرح بالحرير الملون والذهب على إطار يسمى « منسج » . وتكسب الكثيرات ، حتى فى منازل الأثرياء ، من تطريز المناديل وغيرها بهذه الطريقة ، إذ يستخدمن « دلالة » تبيعها فى السوق أو فى حريم آخر . وكثيراً ما تشغل زيارة حريم لحريم آخر اليوم كله تقريباً . ولا تخرج تسلية النساء عن



شكل ٥٥ (المنسج)

وهو يصنع من خشب الجوز المطعم بالصدف والباغة وأكثر المناسج شيوعاً ما يصنع من الزان

الأكل والتدخين واحتساء القهوة والأشربة والثرثرة وعرض زينتهن . ولا يسمح لرب الدار فى مثل هذه الأحوال أن يدخل الحريم إلا لعمل خاص لابد منه . ويجب عليه فى هذه الحالة أن يعلن قدومه ، ويترك للزائرات الوقت الكافى للاحتجاب أو الانسحاب إلى غرفة أخرى . وينغمس النساء فى المرح والبهجة لاطمئنانهن بالوحدة وعدم المفاجأة ، ولميلهن بطبيعتهن إلى الجذل والتبسط . وقد تقوم إحدى السيدات أحياناً بتسلية الجماعة ، عندما ينضب

---

(١) اللاذن والبسان نوعان من الصمغ المستخرج من النبات . الأول Cistus Creticus . ويستعمل عطراً وفى الطب . والثانى Boswellia Carterii ويستعمل بخوراً . ولكل من الكلمتين أشباه فى بعض اللغات السامية. أنظر معجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابى (المترجم)

الحديث العادى ، بسرد القصص العجيبة أو الفكاهية . وقلما يعلم السيدات المصريات الموسيقى أو الرقص . ولكنهن يتلذذن كثيراً بسماع محترفى الموسيقى والرقص ورؤيتهم . وكثيراً مايسلين أنفسهن وضيفاتهن بالضرب على « الدرابكة » « والطار »(١) إذا لم يتيسر وجود العازفين . ويندر ذلك فى المنازل التى يستطيع المارة أن يسمعوا منها أصداء الاحتفال . وكثيراً ما يستخدم القيان (العوالم) فى أى مناسبة تبهج النساء كميلاد طفل أو الاحتفال بختان أو عرس الخ . ولكن ذلك لا يحدث عند العائلات الجليلة ، فى المناسبات العادية ، لاعتبارها إياه مخالفاً للآداب . وقلما يقبل فى الحريم الغوازى اللاتى يعرضن رقصاتهن سافرات فى الشوارع ، ولكنهن يرقصن أمام المنزل أو فى الفناء فى مثل المناسبات السالفة الذكر ، وإن كان هذا يبدو للكثيرين غير لائق . ولا يستأجر « الآلاتية » دون غيرهم لتسلية النساء ، وإنما يستأجرون خاصة لتسلية الرجال ويعزفون دائماً فى مجتمعاتهم ، ويسمعون مع ذلك بوضوح داخل الحريم(٢) .

يركب نساء الطبقتين العليا والوسطى الحمير عندما يخرجن للزيارة أو لغيرها .



شكل ٥٦ (سيدات راكبات الحمير)

ويجلسن على براذع مرتفعة عريضة تغطى بسجادة صغيرة ، ويسير فى ركابهن رجل واحد أو رجلان كل منهما فى جانب . وتركب نساء الحريم جميعهن معاً الواحدة خلف الأخرى . ويظهرن وهن راكبات بالطريقة الموصوفة فى هيئة

---

(١) سنصف هذه الآلات ونوضحها بالرسم فى فصل آخر .
(٢) سنصف ألعاب الآلاتية والعوالم والغوازى فى فصل آخر .

غريبة جداً ، فيبدون غير مطمئنات فى جلستهن على هذا الارتفاع . إذ أن الحمار يجهز بالبرذعة المرتفعة ويطلق عليه : « الحمار العالى »(١) (بضم الحاء). ولكنى أعتقد أن الحال ليست بتلك الصعوبة كما تظهر ، فان الحمار قد شد حزامه جيداً ورسخت مشيته ، فهو يسير ببطء ورهو وحركة سهلة . ويركب سيدات الطبقات العليا ، كما يركب سيدات الطبقات الوسطى ، الحمير المجهزة بهذه الطريقة . ويندر أن يرن فوق البغال أو الجياد . وتكرى الحمير على العموم . وإذا لم تستطع السيدة الحصول على حمار عال ، تركب آخر مما يركبه الرجال ، بعد أن يوضع على البرذعة سجادة . وكثيراً مايفعل ذلك نساء الطبقة الدنيا ونساء الطبقة الوسطى . ولا يمشى السيدات أبداً فى الخارج إلا إذا قصدن مكاناً قريباً جداً . فيمشين ببطء وارتباك لصعوبة الاحتفاظ بالخف فى أقدامهن ، ويمسكن أطراف الحبرة الأمامية بالطريقة الموضحة فى شكل ٢٥ . ويتمتع النساء ، سواء ركبن أم مشين ، بالاحترام الزائد عند العامة ، فلا يشخص إليهن حسن التربية ، وإنما يحول نظره إلى اتجاه آخر . ولا يرى النساء فى الخارج ليلا أبداً إلا إذا اضطرهن إلى ذلك ضرورة ملحة . والقاعدة العامة أن يعود النساء من الزيارة قبل غروب الشمس . ولا يذهب سيدات الطبقة الراقية إلى الحوانيت أبداً ، وإنما يرسلن فى طلب ما يشأن . وهناك « دلالات » يدخلن الحريم لعرض أنواع الزينة وأمتعة النساء الخ . ولا يذهب أولئك السيدات إلى الحمام العمومى ، إلا إذا دعين لمرافقة بعض صديقاتهن ، إذ أن لأغلبهن حماماً فى المنزل(٢) .

---

(١) ويسمى أيضاً (حمار مغطى) .

(٢) منذ صدرت الطبعة الثالثة لهذا الكتاب أقامت أختى مسز بول (Mrs Pool) مع ولديها وزوجتى وأنا أكثر من سبع سنين فى القاهرة ، ونشرت سلسلة رسائل تحت عنوان : English Women in Egypt (الانجليزيات فى مصر) عرضت فيها لنساء هذا البلد عند ملاحظاتها عن حريم الأتراك خاصة . وقد استقبل كتابها استقبالا حسناً لا يحوجه إلى توصية. (المؤلف)

كان لين قد تزوج ، أثناء إقامته بانجلترا بعد رحلته إلى مصر ، بزوجته اليونانية فى ١٨٤٠ . وفتح منزله لأخته الأرملة وولديها . وفى أول يوليو ١٨٤٢ ، أبحر مع عائلته هذه إلى الاسكندرية فى رحلته الثالثة والأخيرة . (المترجم)

الفصل السابع

تابع الحياة المنزلية

أما الحياة المنزلية عند الطبقات السفلى ، فهى بسيطة إلى حد أنها ، بمقارنتها بحياة الطبقات الوسطى والعليا ، التى تكلمنا عنها الآن ، لايفيدنا العلم بها شيئاً كبيراً .

تتكون الطبقات السفلى من الفلاحين ، ما عدا فئة قليلة جداً تسكن المدن الكبيرة على الأخص . وأغلب هؤلاء الذين يسكنون المدن الكبيرة ، والقليل ممن يسكن المدن الصغيرة وبعض القرويين ، هم من صغار التجار أو أهل الحرف أو ممن يكتسبون معاشهم بالخدمة أو بمختلف الأعمال . وأرباحهم على أى حال طفيفة تكاد تكفيهم . وقد لا تضمن لهم ولعائلاتهم ضروريات الحياة .

ويتكون طعام الطبقة السفلى على الأخص من الخبز ، المصنوع من الدخن أو الذرة ، واللبن والجبن والبيض والفسيخ والخيار والشمام والقرع ، على أنواع كثيرة الاختلاف ، والبصل والكراث(١) والفول والحمص والترمس والباذنجان والعدس الخ ، والبلح ، الطازج والمجفف ، والمخللات . ويأكلون أكثر الخضروات نيئة . ويقطع الفلاحون كيزان الذرة ، عندما تقرب من النضج ، ويأكلونها مشوية أو مطبوخة . ولا يدخل الفلاحون الأرز فى طعامهم العادى لغلو ثمنه . وقلما يذوقون اللحم ، وينعم أغلبهم مع ذلك بترف تدخين تبغ بلدهم الرخيص الذى يجفف ويفرم . ولون هذا التبغ يضرب إلى الخضرة وهو لطيف العطر . وكثيراً ما لا يجد الفقراء غير « الدقة » ، التى وصفتها فى فصل سابق ، يغمسون فيها خبزهم بالرغم من بخس أثمان الأطعمة المذكورة آنفاً . ومما يثير الدهشة أن يكون الفلاح قوياً صحيحاً مع بساطة طعامه وقلته وما يعانيه من كد .

وقلما يحيا نساء الطبقات السفلى حياة الخمول . وإن بعضهن ليكد أكثر من الرجال . وأهم أشغال النساء تجهيز الطعام ، وجلب المياه ، فى جرار كبيرة يحملنها على الرأس من الموارد ، وغزل القطن والكتان أو الصوف ، وعمل « الجلة »

---

(١) أنظر سفر العدد ١١/٥ (قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم) .

أقراصاً مستديرة مسطوحة من روث البهائم المخلوط بالتبن ، للوقود . ويضعن هذه الأقراص على حوائط منازلهن أو فوق أسطحها أو على الأرض لتجفف فى الشمس ، ثم يستعملنها لوقود الأفران ولأغراض أخرى . ويخضع نساء الطبقة السفلى لأزواجهن أكثر من خضوع نساء الطبقات الراقية. ولا يسمح دائماً للمرأة الفقيرة أن تتناول الطعام مع زوجها . وإذا خرجت معه سارت وراءه ، والعادة أن تحمل الزوجة كل شىء إلا الشبك أو العصا . ويفتح بعض النساء فى المدينة حوانيت يبعن فيها الخبز والخضر الخ . فيساعدن مساعدة الزوج أو أكثر فى الإنفاق على الأسرة . ويضع الفقير الذى يرغب فى الزواج مسألة المهر موضع الاعتبار . ويكون المهر عادة من عشرين ريالا إلى أربعة أضعاف هذا المبلغ إذا كان نقوداً فقط ، ويقل إذا شمل بعض الملابس كما هو الحال فى معظم القطر المصرى . وقلما يتردد الفقير فى الزواج إذا استطاع أن يقدم المهر ، فأى مجهود إضافى يبذله يساعده على قوت زوجه وطفلين أو ثلاثة أطفال . ويصلح الأطفال عند سن الخامسة أو السادسة لرعى القطعان ، ويساعدون آباءهم فى أعمال الفلاحة ، عندما يتقدم بهم السن إلى أن يتزوجوا . وكثيراً ما يعتمد الفقير فى مصر على أولاده الاعتماد التام لمعيشته فى سن الكهولة . ولكن أغلب الآباء يحرمون هذه المساعدة ، فيقضون حياتهم على السؤال أو يموتون جوعاً . وقد حدث من زمن غير بعيد ، أن ألقى محمد على مرساه فى قرية على شاطىء النيل ، أثناء سفر له من الإسكندرية إلى القاهرة ، فأسرع إليه رجل فقير ، وأمسك بكمه بقوة لم يستطع معها أحد من الحاشية منعه ، وشكا إليه أنه كان وقتاً ما فى رغد ، ثم تحول الأمر إلى عوز تام بتجنيد أولاده فى الجيش وهو كبير السن . فخفف عنه الباشا بأن أمر أن يعطيه أغنى رجل فى القرية بقرة .

وقد يكون الأطفال مع ذلك حملا ثقيلا على والديهم الفقراء . ولذلك لا تجد من النادر فى مصر أن يباع الأطفال علناً ، بواسطة أمهاتهم أو نساء أخريات يستخدمهن الآباء لذلك . ولكن هذا لا يكون إلا فى حالة الضيق الشديد . وكثيراً ما يلجأ الأب والأقارب الفقراء إلى التخلص من الطفل الذى ماتت أمه ولم يفطم ، عندما لا يستطيعون الحصول على ظئر له . وقد يوضع الطفل أحياناً على باب المسجد ساعة صلاة الجمعة ، فيحدث عادة أن تأخذ الشفقة بعض المصلين عند خروجه من المسجد ، فيحمله إلى منزله حيث ينشأ فى أسرته كطفل متبنى ، لا رقيق . وقد يعتنى بعضهم بالطفل حتى يجد له رجلا أو امرأة تتبناه . وقد حدث منذ زمن غير بعيد، أن عرضت امرأة على سيدة من أسرة يعرفها صديق لى أن تبيعها طفلا ، سنه بضعة أيام ، وجدته على باب مسجد .

فقبلت السيدة تربية الطفل لوجه الله ، رجاء أن يحفظ لها طفلها الوحيد جزاء هذا الإحسان ، ثم ناولت المرأة التى أحضرت عشرة قروش ، ولكنها رفضت الأجر المقدم . وهذا يبين أن الأطفال يصبحون أحياناً مجرد سلع . ويستطيع من يشتريهم أن يجعلهم عبيداً له ، يتصرف فيهم كما يشاء . وقد أخبرنى أحد النخاسين ، وأكد لى غيره خبره هذا ، أن الوالدين قد يبيعان الصغيرات أحياناً باعتبارهن جوارى مجاوبات من بلاد أخرى ، وأن كثيراً من أولئك البنات سلمن إليه بإرادتهن ليبيعهن . وقد ألقى فى روعهن أنهن سينعمن بالملابس الفاخرة والترف العظيم ، وعُلّمن أن يقلن إنهن أحضرن من بلادهن فى سن الثالثة أو الرابعة ، ولذلك يجهلن لغتهن الأصلية ، وإنما يمكنهن التكلم بالعربية فقط .

وكثيراً ما يحدث أيضاً ، أن الفلاح يضطره الضنك الشديد إلى وضع ابنه ، مقابل مبلغ من المال ، وضعاً أسوأ بكثير من الرق . وذلك عندما يطلب مجندون من القرية ، فان شيخ البلد يعمد إلى الطريق الأسهل ، فيجند أولاد من يقتنون أملاكاً ، وهؤلاء يستطيعون أن يخلصوا أولادهم من الجندية ، بأن يعرضوا على الفلاحين الفقراء أن يجندوا أولادهم بدل أولادهم ، مقابل جنيه أو جنيهين لكل ولد . ويفوزون بطلبهم عادة ، مع أن حب البنوة سائد عند المصريين بقدر حب الأبناء لوالديهم . ويكره أغلب الوالدين مفارقة أولادهم ، عندما يجندون خاصة ، كما يدل على ذلك الوسائل التى يعمدون إليها لمنع تجنيدهم . وقد لاحظت ، أثناء زيارتى الثانية لمصر ، أنك لا تكاد تجد ، فى أى قرية ، شاباً صحيح الجسم ليس بأسنانه كسر (حتى لا يمكنه أن يقرض الفشكة) ، أو بأصابعه نقص ، أو بعينيه إصابة أو عمى ، حتى لا يجند . ويتخذ النساء المتقدمات فى السن وغيرهن هذا الأمر حرفة منتظمة ، فيدرن على القرى لتنفيذ هذه العمليات . وقد يقوم أبوا الولد أنفسهما بهذا الأمر . ويبدو ، مما قيل آنفاً ، أن العاطفة ليست وحدها دائماً السبب الذى يدفع أهل الطفل إلى الالتجاء إلى مثل هذه الوسائل حتى لا يحرموا أطفالهم .

ولا يمكن تصوير فلاحى مصر من حيث حالتهم المنزلية والاجتماعية وشمائلهم صورة ملائمة . ويشبه الفلاحون ، على أسوأ الاعتبارات ، أسلافهم البدو ، دون أن ينعموا بكثير من فضائل أهل الصحراء ، إلا فى درجة منحطة . وكثيراً ما أحدث ما ورثوه عن أجدادهم أسوأ تأثير فى حياتهم الداخلية . وقد ذكرنا من قبل أن المصريين انحدروا من عدة قبائل عربية سكنت مصر فى عصور مختلفة ، وأصهروا إلى الأقباط ، وأن التمييز بين القبائل لا يزال قائماً بين سكان القرى فى القطر كله . وقد انشعبت بمرور السنين سلالة كل قبيلة من المقيمين إلى عدة فروع ، وسميت هذه القبائل الصغيرة بأسماء متميزة ، أطلقت

على القرية أو القرى أو المركز الذى يقيمون فيه . ولم يحتفظ الذين أقاموا طويلا فى مصر بالعادات البدوية الكثيرة ، ولم يصونوا نقاوة جنسهم ، وإنما أصهروا إلى الأقباط الداخلين فى دين الإسلام أو سلالتهم ، ولذلك تحتقرهم القبائل التى أقامت فى مصر بعدهم ، فيسمونهم إزدراء « فلاحين » ، بينما يجعلون لأنفسهم تسمية العرب أو البدو . ويتزوج هؤلاء الآخرون متى شاؤا من بنات الأولين ، ولكنهم لا يزوجون بناتهم لهم . ويثأرون للدم إذا قتل شخص من قبيلة وضيعة أحدهم ، بقتل إثنين أو ثلاثة أو أربعة . وقد أشير إلى تلك الشريعة البدوية الوحشية الخاصة بثأر الدم وسيادتها بين سكان قرى مصر فى فصل سابق . فيقتل أحد أقارب القتيل ، من ذريته أو من سلالة الجد الأكبر لأبيه ، القاتل أو أحد الأقارب المذكورين من ناحيته . ولذلك كثيراً ما ينشب القتال بين قبيلتى القاتل والقتيل ، وقد يستمر أو يتجدد كل حين عدة سنين . وكثيراً ما يكون الأمر كذلك نتيجة إهانة يسيرة بين شخصين ينتميان إلى قبيلتين مختلفتين . وكثيراً ما يعود الثأر بعد جيل أو أكثر من ارتكاب القتل ، بينما كانت الخصومة فى ذلك الوقت هادئة ، وربما لم يكن يذكرها أكثر من شخص واحد . وهناك قبيلتان فى الوجه البحرى ، إحداهما (سعد) والأخرى (حرام) ، اشتهرتا بهذه الحروب والخصومات الصغيرة(١) ، ولذلك يطلق إسمهما عادة على أى شخصين أو فريقين عدوين . ومما يثير الدهشة ، أن يباح فى الأيام الحاضرة مثل هذه الأعمال ، التى إذا ارتكبت فى مدينة من مدن مصر عوقب عليها بالموت أكثر من شخص . وقد ذكرت فى الفصل المشار إليه سابقاً بعض وقائع خاصة بالثأر وعواقبها . وقد أباح القرآن الثأر ، ولكنه قيد تنفيذه بالعدل والاعتدال . وتخالف هذه الخصومات حديث الرسول : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » .

ويشبه الفلاحون البدو فى أحوال أخرى . فعندما تخون الفلاحة زوجها ، يقذف بها هذا أو أخوها فى النيل ، بعد أن ربط فى عنقها حجر ، أو تقطع إرباً ويقذف ببقاياها فى النهر . وقد يعاقب الأب أو الأخ العذراء التى تتهم بمنكر . ويعتبر أهل المرأة أن جريمتها تمسهم أكثر مما تمس الزوج ، وكثيراً ما يحتقرون إذا لم يعاقبوها .

---

(١) مثل قبيلتى (قيس) و(يمن) فى سوريا .

الفصل الثامن

عادات المجتمع العامة

يؤدى احترام المسلم للتجارة إلى اتساع دائرة معرفته بالناس على اختلاف درجاتهم اتساعاً عظيماً. وينشط قانون انفصال الجنسين حرية المعاملات بين التجار إلى مدى بعيد ، إذ يسمح للتاجر أن يشارك غيره ، بصرف النظر عن اختلاف الثروة أو الدرجة ، دون خشية اقتران شخصين متفاوتين بالزواج . وتتمتع النساء مثل الرجال بسعة المعاملات التجارية مع الغير من جنسهن .

ويتكلف المسلمون ويدققون فى شمائلهم الاجتماعية إلى أقصى حد ، رغماً من بعدهم عن التعقيد فى سلوكهم وعن الحرز فى أحاديثهم ويقوم الكثير من عاداتهم الشائعة على تعاليم الدين ، وذلك يميزهم فى مجتمعاتهم من كل قوم آخرين . ومن عاداتهم تحية بعضهم بعضاً بقولهم : « السلام عليكم »(١) فيرد من يحيونه بقوله : « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته(٢) » ولا يوجه المسلم هذا السلام إلى من يخالفه فى الدين(٣) ، ولا بالعكس(٤). ويجب على المسلم أن يحيى المسلم بهذه التحية ، إلا أن إهمال هذا الواجب لا حرج فيه . ويجب رد التحية على الإطلاق . فالتحية « سنة » وردها « فرض » . وقد يحيى المسلم مع ذلك خطأ من يخالفه فى الدين ، وليس على هذا أن يرد التحية . وينقض المسلم تحيته عندما يتبين خطأه بقوله : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » . وكذلك يفعل أحياناً إذا حيا مسلماً ورفض أن يرد السلام .

وأهم آداب السلام كما أملاها الرسول ، وكما يتبعها المصريون المحدثون ،

---

(١) أو « سلام عليكم » .

(٢) أو « عليكم السلام » فقط . ولكن العبارة الطويلة تستعمل عادة تبعاً لأمر القرآن (سورة النساء آية ٦٨) .

(٣) وقلما يفعل ذلك مسلمو مصر . وكثيراً ما يتوهم السائح الأوربى ، وهو فى غير الملابس التركية ، أن التحية موجهة إليه ، والواقع أن المقصود بها من يرافقه من المسلمين .

(٤) ومع ذلك يرد المسلم أحياناً بعبارة « وعليكم » عندما يحييه غير المسلم هذه التحية .

ما يأتى : يبدأ الراكب بالسلام على الراجل ، والعابر على الجالسين قلوا أو كثروا والفئة القليلة أو أحدهم على الفئة الكثيرة ، والصغير على الكبير(١) . ولما كان يكفى أن يوجه السلام واحد من الجماعة ، فكذلك يكفى أن يرده واحد. ويجب على المسلم أيضاً أن يحيي أهل المنزل عند دخوله وخروجه . ويجب دائماً أن يبدأ بالتحية ثم يتحدث . وللآداب السابقة بعض الشواذ . فلا يلزم مثلا ، فى المدينة المزدحمة ، (وبالفعل يصعب أن يكون ذلك ممكناً) ، تحية أكثر هؤلاء الذين قد يمر بهم الإنسان ، ولا فى الطريق حيث يقابل المرء عدة عابرين . إلا أن العادة جرت على أن يحيي الرجل الموسر أو الحسن الهندام ، أو الشيخ المحترم ، أو أى شخص وجيه ، من يبدو أنه رفيع المكانة أو عظيم الثروة أو من رجال العلم ، ولو كان الطريق حافلا . وعادة المهذبين أن يضع من يسلم أو من يرد السلام يده اليمنى على صدره ، أو يلمس شفتيه ثم جبهته أو عمامته ، ويسمى ذلك « تَيْـمينَـة ».وتؤدى التيمينة الأخيرة،وهي أكثر احتراماً،لمن علا قدره ، لا مع السلام فحسب،ولكن أثناء الحديث أيضاً،وبدون سلام حينئذ .

ولا يؤدى من كان من الطبقة الدنيا السلام إلى العظيم دائماً ،وعلى الأخص إذا كان تركيا ، وإنما يكتفى بأداء التيمينة . ويظهر احترامه لمن سما مركزه بأحناء اليد إلى أسفل ثم رفعها إلى شفتيه وجبهته دون أن ينطق بالسلام . ومن العادات الشائعة أيضاً ، أن يقبل الرجل يد العظيم ، ظهرها وحده أو ظهرها وباطنها أحياناً ، ثم يضعها على جبهته لإظهار احترامه الخاص .إلا أن العظيم لا يسمح بذلك فى أغلب الأحوال، وإنما يلمس اليد التى تمد إليه ، فيضع المحيِّ حينئذ يده على شفتيه وجبهته فقط . وتقبل القدمان دلالة على الخضوع والمذلة ، لالتماس العفو عن ذنب ، أو للشفاعة لشخص آخر ، أو لطلب إحسان من عظيم(٢) . ويقبل الولد يد أبيه ، والزوجة يد زوجها،والعبد،والخادم الحر غالباً ، يد السيد . ويقبل أرقاء العظيم وخدمه كم ملابسه أو طرفها .

وعندما يحيي الأصدقاء الخواص بعضهم بعضاً يتصافحون باليمنى ، ثم يقبل كل منهم يده،أو يضعها على شفتيه وجبهته ،أو يرفعها إلى جبهته فقط،أو بعضها

---

(١) وقد ذكر هيردوتس احترام المصريين للمسنين كما أشار إلى تحياتهم المهذبة (الكتاب الثانى ، فصل ٨٠) . (المؤلف)

يقول هيرودوتس (فى الكتاب الثانى ، فصل ٨٠) عن المصريين ، إن من الأمور التى يتفقون عليها مع شعب يونانى – مع أهل لاسيدومين Lacedomiens – أن يتأخر الشباب، فى بلادهم ، عندما يقابلون المسنين من الرجال ويحيدون عن طريقهم ، وينهضون عند قدومهم من مقاعدهم . ويشير إلى أمر يختلف فيه المصريون عن اليونانيين عامة ، فالأولون ، بدلا من تبادل كلمات التحية فى الشوارع ، ينحنون احتراماً بخفض اليد إلى الركبة . (المترجم)

(٢) من آثار تلك العادة القول السائر : أبوس رجلك . (المترجم)

على صدره دون أن يقبلها . ويتعانقون بعد الغياب الطويل وفى بعض المناسبات الأخرى ، فيقبل كل منهم الآخر على الناحيتين اليمنى واليسرى . وهناك طريقة أخرى للتحية شائعة الاستعمال بين الطبقات الدنيا . فعندما يتقابل صديقان بعد سفر ، يتصافحان ، ويهنىء كل منهما الآخر على سلامته ، ويتمنى له الهناءة والرفاهية ، مردداً عبارتى : « سلامات » و « طيبين » ، على التعاقب ومراراً. وعندما يبدآن هذه التحية ، التى تدوم وقتاً قبل أن يأخذا فى الحديث ، يتصافحان كالعادة المتبعة عندنا ، ويغيران وضع اليد كلما يلفظان العبارتين السابقتين . فيدير كل منهما أصابعه على إبهام الآخر ، عندما يردد العبارة الثانية ، ويعود إلى الوضع الأول عند العبارة الأولى .

للطبقة المهذبة تحيات وتهنئات أخرى متكلفة تتبع السلام . كما أن هناك عمليات خاصة للرد على أكثرها ، أو عبارتين أو أكثر قد تستعملان فى بعض الأحوال . غير أن الرد الذى لم تلزمه العادة قد يعتبر دليلا على الجهل أو الخساسة. وعندما يسأل رجل صديقه : « إيش حالكم ؟ » يجيبه الآخر : « الحمد لله » ويستدل المستفهم ، باللهجة التى يرد بها الآخر ، إذا كان صديقه معافى أو مريضاً وعندما يقول الواحد للآخر : «طيبين » يجيب الآخر عادة : « الله يبارك فيك» ، أو « الله يسلمك » . وعندما يتقابل صديقان لم يلتقيا عدة أيام أو وقتاً طويلا يقول أحدهما بعد السلام : « أوحشتنا » فيجيبه الآخر : « الله لا يوحش منك». وقد يشغل ذكر التهنئات العديدة التى يستعملها المصريون عادة صفحات من هذا الكتاب .

ولا يدخل الرجل منزل غيره بدون استئذان ، لأن القرآن حرم ذلك صراحة(١) ، وعلى الأخص إذا كان يريد أن يصعد إلى إحدى الغرف العليا ، فلا بد فى هذه الحالة أن يصيح طالباً الإذن ، أو يعلن قدومه عندما يصعد السلم ، بالطريقة التى وصفتها سابقاً(٢) . وإذا لم يجد أحداً أسفل المنزل يصفق بيديه عند الباب أو فى الفناء ، وينتظر نزول الخادم إليه ، أو الإذن له بالجلوس فى حجرة سفلى ، أو بالصعود إلى غرفة عليا . ثم يحيى رب الدار عندما يدخل الغرفة التى يجلس فيها ، فيرد عليه رب الدار ويرحب به بأدب

---

(١) سورة النور آية ٢٧ .
(٢) الفصل السادس .

وبشاشة . ويقف رب الدار لمن كان أعظم منه(١) ولأقرانه على العموم . ويتقدم لاستقبال من هم أعلى منه مركزاً إلى الفناء ، أو بين الفناء وغرفة الاستقبال ، أو فى مدخل الغرفة أو وسطها ، أو على بعد خطوة من مكان جلوسه . وكثيراً ما يكتفى عند استقبال أقرانه بأن يتحرك حركة خفيفة ، كما لو كان يهم بالوقوف . ولا يتحرك لمن دونه مقاماً . ويقدم رب الدار إلى الرفيع القدر ، وإلى أقرانه غالباً ، أفضل مكان ، فى ركن من الديوان ، على يمين من يواجه « صدر » الغرفة ، أى طرفها الأعلى . ويعتبر المجلس الممتد بطول « الصدر » أكثر إجلالا من المجلسين الممتدين على الجانبين ، ويسمى كل منهما « جنباً » . ولا يجلس من هم دون رب الدار فى الصدر أبداً ، إلا إذا دعاهم إلى ذلك . وكثيراً ما يرفضون هذا الشرف . ويجلس أقران رب الدار فى استرخاء واضعين رجلا على رجل ، أو رافعين ركبتهم ، ومستندين على المساند . وكثيراً ما يجلس من دونه ، بادىء الأمر على الأقل ، على أعقابهم أو على حافة الديوان ، أو على الحصير أو البساط إذا كان فرق المكانة بينهما كبيراً . وتقتضى دقة الآداب ألا يظهر الزائر يديه عند دخول الغرفة أو عند الجلوس ، ويجب أن يسبل كميه عليهما ، وألا يمد رجليه عندما يجلس على الديوان ، وألا يترك قدميه مكشوفتين . ولكن هذه القواعد لا تراعى إلا فى منازل العظماء . وتردد التهانى والتحيات بعد السلام ، وعلى الأخص عبارتا « طيبين » و « إيش حالكم » ، مرات عديدة أثناء المحادثة .

وقد يقوم أحياناً خادم الزائر نفسه بتقديم الشبك . فيخرج السيد كيس التبغ من عبه ويناول الخادم إياه ، فيملأ الشبك منه ثم يطويه ويعيده بعد ذلك ، أو عند انتهاء الزيارة . وفى غير هذه الحالة ، يقدم خادم المضيف شبكاً إلى الزائر ، وآخر إلى سيده . ثم يناول القهوة(٢) ، لأن التدخين بدون قهوة كالطعام بلا ملح ، كما يقول العرب . ويحيى الزائر رب الدار ، عندما يتناول الشبك والقهوة ، بالتيمينه ، فيردها الأخير إليه ، وكذلك الأمر عندما يعيد الفنجان إلى الخادم . كما أن رب الدار يحيى ضيفه بالطريقة نفسها إذا لم يكن الفرق بينهما كبيراً . وكثيراً ما يلبث

---

(١) أى لمن فاقه فى المكانة أو الغنى أو فى الشهرة الدينية أو الأدبية .
(٢) ويتناول الزائر الشبك والقهوة قبل رب الدار إذا كان عظيماً أو لا يقل مركزه كثيراً .

الخدم فى الغـرفة مدة الزيارة ، واقفين باحترام ، عند طرف الغـرفة الأسفل ، ضامين اليـدين (اليسرى فى اليمنى) فوق الحـزام . وينادى على الخدم عادة بالتصفيق بأصابع اليمنى على راحة اليسرى ، ويسمع صوت التصفيق فى المنزل لأن النـوافذ من الخشب المشبك . ويدور الحـديث على الأخبار اليومية ، وحال التجـارة ، وأسعار المؤن ، والدين والعـلوم أحياناً . وتروى الحكايات الفكاهية ، ويحدث كثيراً أن تسرد القصص والأمثال البذيئة فى خير المجتمعات . وقلما يتحدث الناس فى المجتمعات الطيبة عن نسائهم ، ولكن كثيراً ما يفعل ذلك الأصدقاء الخلص ، ومن لا يراعى بدقة قواعـد الأدب ، بطريقة لا تكون لطيفة دائماً . ويستفسر المهذبون كل عن « منزل » الآخر للاطمئنان على الزوجة والعائلة . وكثيراً ما تشغل الزيارات وقتاً طويلا ، وقد تستمر أحياناً طول اليوم ، وعلى الأخص زيارات الحريم . ويتكرر حشو الشبك ، أو تبدل بغيرها ، كلما اقتضت الضرورة ذلك ، لأن الزائر لا ينقطع عن التـدخين مدة بقائه . ويعاد تقديم القهوة والأشربة أحياناً . وقد سبق وصف طريقة تقديمها . وتقدم التهانى نفسها إلى الزائر بعد الشراب وكذلك بعد جرعة ماء(١) .

وجرت العادة فى منازل الأثرياء أن يرش الضيوف قبل انصرافهم بماء الورد وماء الزهر ، ويطيبون ببخور بعض المواد العطرية . وقد أصبحت هذه العادة غير شائعة فى السنوات الأخيرة . وتكون قارورة العطر ، المسماة « قمقماً » ، من الفضة الساذجة أو المذهبة ، أو من النحاس الدقيق ، أو من الفخار الصينى أو من الزجاج ، ولها غطاء به ثقب صغير . أما أداة البخور ، المسماة « مبخرة » ، فتكون من أحـد المعـادن المذكورة سابقاً . ويجهز وعاء الجمر بالجص أو يملأ نصفه ، ويكون بغطائه عدة ثقوب لصعود الدخان (أنظر شكل ٥٧) . وتستعمل المبخرة بعد القمقم . ويقدمها الخـادم إلى الزائر أو السـيد ، فيحول البخـور نحو وجهه ولحيته الخ ، بيمناه . وتفتح

شكل ٥٧ (القمقم والمبخرة)
ارتفاع كل منهما ثمانى بوصات تقريباً

(١) أنظر الفصل الخامس .

المبخرة أحياناً لإرسال البخور بلا عائق. وأكثر المواد استعمالا : العود والجاوى وقشر العنبر. ويبلل الخشب العطرى قبل أن يوضع على الجمر. ويستعمل العنبر للغرض نفسه ، ولكن يندر استعماله إلا فى منازل الأثرياء لغلو ثمنه. وينصرف الزائر بعد أن يُعطّر ، ولكنه لا يخرج قبل أن يستأذن ، ثم يقرأ السلام ويقدم غير ذلك من التحيات والتمنيات التى يرد عليها رداً موافقاً. ويجب على رب الدار ، إذا كان الزائر يفضله مركزاً ، ألا يقوم له فحسب ، بل يرافقه إلى أعلى السلم أو إلى باب الغرفة ثم يودعه فى أمان الله.

ومن المعتاد أن يعطى الزائر ، قبل انصرافه من الزيارات العظيمة ، هدية صغيرة (قرشين أو ثلاثة قروش أو أكثر حسب الظروف) إلى أحد الخدم أو بعضهم. ويرافق الزائرَ أحد الخدم ، إذا كانت مطيته على الباب أو فى الفناء ، ليساعده على الركوب. وينتظر هذا الخادم الحسن الالتفات ، على الأخص ، عطية. وعندما يعطى الزائر الخدم نقوداً فعلى السيد أن يرد المثل تماماً عند رده الزيارة.

وكثيراً ما يتبادل الأصدقاء الهدايا تبعاً للعادة العامة. ويقدم الأصدقاء الهدايا عند أى حفل خاص. والقاعدة العامة أن يرد إلى مقدم الهدية واحدة مماثلة ، أو فى قيمتها ، عند مناسبة مماثلة. والشائع أن يعبر المهدى إليه ، فى مثل هذا الحفل ، عن رجائه استطاعة رد الهدية فى مناسبة مشابهة. ويعتبر هذا الشكر المصحوب بالإشارة إلى وفاء دين الهدية أدباً وتلطفاً فى هذا البلد ، وإن كان الأوربى الكريم يراه إهانة له. وتُلفّ الهدية فى منديل مطرز يعاد إلى الرسول مع منحة مالية صغيرة. ومن الهدايا الشائعة الفاكهة تقدم على أوراق الشجر ، والحلوى فى طبق أو على صينية ، تغطى بمنديل ثمين أو بمفرش. وكثيراً ما تقدم الهدية إلى العظيم لأجل الحصول على هدية أثمن. ويفعل هذا غالباً الخادم. وقلما يرفض السيد الهدية ، ولكنه يدفع فى الحال نقوداً تفوق قيمتها. ويتوقع ذلك عامة عندما يقدم عربى(١) هدية إلى أوربى. وليست عادة منح الخدم منحة بعد الزيارة شائعة الآن كما كانت منذ بضع سنوات. إلا أنه لا يزال أغلب الناس يراعون ذلك فى الزيارات الكبيرة وعلى الأخص فى العيدين ، كما يراعى ذلك المدعوون إلى الحفلات الخاصة(٢). وسنصف عادات أخرى مثل العادات الأولى

---

(١) يستعمل لين فى طبعة ١٨٣٦ لفظ (شرق Oriental). ثم استعمل فيما بعد لفظ Arab وإن إطلاق (لين) لفظ « عربى » دون تحديد يشوب الدقة التى اشتهر بها. ولعله يقصد به الكلام عن بعض أفراد عامة الشعب. (المترجم)

(٢) لا تزال تلك العادة قائمة. (المترجم)

يراعيها المصريون فى هـذه الحفلات فى الفصل السابع والعشرين . ويعتبر رفض الهدية إهانة لمقدمها ، وتعبيراً عن زوال الحظوة .

وهناك عادات كثيرة يراعيها المصريون ، لا فى الزيارات الكبيرة ، أو فى حضرة الغرباء ، أو عند مقابلة الأصدقاء العارضة فحسب ، بل فى العلاقات العادية . فعندما يعطس الرجل يقول : الحمد لله ، فيقول كل من الحاضرين حينئذ ، ما عدا الخدم : يرحمكم الله ، فيرد عليهم : يهدينا ويهديكم الله ، أو بعبارة مماثلة(١). وإذا تثاءب يضع ظهر يسراه على فمه، ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . ولا يقال له شىء فى هـذه الحالة ، لأن تجنب ذلك أجدر ، إذ المعتقد أن الشيطان يقفز إلى فم المتثائب . والعادة أن يستغفر الله من يخالف قواعد الآداب بدلا من الاعتذار للحاضرين . وهناك عدة عبارات تقال بعد الحلاقة أو الإستحمام أو الوضوء أو الصلاة ، أو أى فعل يستحق الثواب ، أو عند القيام من النوم، أو عندما تُشترى ملابس جديدة أو تُلبس ،وفى عدة مناسبات أخرى . ولتلك العبارات أجوبة خاصة(٢) .

والقاعدة أن يكرم المسلمون يمناهم يداً وقدماً ، فيستعملون اليد اليمنى للأغراض الجليلة ، واليسرى للأعمال التى تعتبر، على رغم ضرورتها ، حقيرة . ويلبسون الحذاء الأيمن ويخلعونه قبل الأيسر ، ويخطون عتبة الباب بالقدم اليمنى قبل اليسرى .

ويجامل المصريون بعضهم بعضاً إلى أقصى حد . ولتحيتهم وسلوكهم العام رقة ووقار خاصان ومهارة سلسة تبدو أنها فى طبيعتهم لملاحظتها فى الفلاحين أيضاً . ويتفاخر أهل المدن من الطبقتين الوسطى والعليا بحسن الأدب ورشاقة المنهج وقوة الذكاء وطلاقة اللسان . إلا أنهم ليسوا أقل خلاعة فى أحاديثهم من مواطنيهم الأقل تربية . ويمتاز المصرى على اختلاف طبقاته بالبشاشة والأنس .

---

(١) من العبارات الشائعة اليوم قولهم، عند الرد على عبارة (يرحمكم الله) : يرحمنا ويرحمكم أو يرحمنا جميعاً أو ما شابه . (المترجم)

(٢) مثل قولهم بعد الحلاقة أو الاستحمام : نعيماً . فيرد عليهم : أنعم الله عليكم . وقولهم بعد الصلاة : حرماً . (أى التمنى بزيارة المسجد الحرام) . فيرد عليهم : جمعاً إن شاء الله. وقولهم عند القيام من النوم : صح النوم . فيجيب القائم من النوم : صح بدنكم . وقولهم لمن يشترى ملابس جديدة أو يلبسها : مبروك . فيجيب : الله يبارك فيكم . (المترجم)

ومن المألوف أن ترى غريبين يتحدثان بحرية ، كما لو كانا صديقين قديمين ، فى أى مكان ، ويقدم أحدهما شبكه إلى الآخر . وليس من غير المعتاد ، ولا من سوء الأدب ، أن يستفسر الغريب ، فى أول مقابلة عرضية ، عن إسم الآخر وصناعته أو تجارته ومسكنه . وكثيراً ما تنشأ فى مثل هذه المناسبات صداقة دائمة بينهما(١) . وقلما يسمع فى مجتمعات الطبقتين العليا والوسطى ما يمس شعور الحاضرين . ولا يجرؤ الخليع مهما كانت خلاعته أن ينطق أى عبارة يقصد بها الهزؤ(٢) . ومع ذلك فأغلب الناس من جميع الطبقات خلعاء فى أحاديثهم يحبون الدعابة إلى أقصى حد . وحديث المصريين مؤثر حار ، ولكن أفراحهم تكون أبداً بلا جلبة تقريباً . وقلما يستسلمون للضحك العالى وإنما يعبرون عن سرورهم بالابتسام أو الهتاف(٣) .

(١) وكثيراً ما يتخاطب الناس بألفاظ القرابة مثل الأب والابن والعم وابن العم والأخ والأم والبنت والخالة وبنت الخالة والأخت الخ .

(٢) وعلى العكس من ذلك ، يسعى الخليع اليوم ليحول الأنظار إليه بطرق شتى ، وخاصة الهزؤ بالناس والاستخفاف بقواعد الأخلاق والقانون وأحدارها . (المترجم)

(٣) يعبر المصريون عن طربهم بجلبة شديدة . وهم على العموم يميلون فى مجتمعاتهم إلى رفع الصوت والقهقهة . (المترجم)

الفصل التاسع

اللغة والآداب والعلوم

احتفظت القاهرة بشهرتها النسبية التى امتازت بها عدة قرون ، أنها خير مدرسة للأدب العربى وعلم التوحيد والفقه الإسلامى . ولا جرم أن التعلم انحط كثيراً عند العرب عامة ، إلا أنه كان أقل انحطاطاً فى القاهرة . فشهرة علماء هذه المدينة لا تدانيها شهرة . ولا يزال مسجدها « الجامع الأزهر » يجذب إليه الطلاب من كافة العالم الإسلامى .

ويلاحظ أن اللهجة العربية التى يتكلمها أهل القاهرة من الطبقتين الوسطى والعليا أدنى من لهجات بدو الجزيرة العربية وسكان المدن المجاورة مباشرة من حيث النطق وقواعد الصرف والنحو ، إلا أنها تفضل اللهجات السورية كثيراً ، واللهجات المغربية أكثر. وأهم الخصائص التى تلاحظ فى نطق المصريين ما يأتى : ينطق القاهريون ومعظم المصريين حرف الجيم جامداً، بينما يعطشه عرب الجزيرة وسورية وغيرهما . ولكن يجدر أن نلاحظ أن حرف الجيم ينطق جامداً (١) فى بعض جنوب جزيرة العرب ، وهو منشأ اللغة العربية كما يقال . وينطق حرف القاف همزة حيث يسود نطق الجيم الأول ، غير أن المثقفين ينطقونه قافاً على حقيقته . وتنطق الجيم معطشة أو قريبة من ذلك فى بعض مناطق مصر ، كما تنطق القاف جيماً . وينطق المصريون جميعاً ، وكذلك أغلب الشعوب التى تتكلم العربية، حرف الثاء تاء ، والذال دالا ، والظاء ضاداً أو زاياً أحياناً . ومن أهم خصائص اللهجة العربية المصرية من حيث التركيب إضافة حرف الشين للدلالة على النفى ، مثل « ما يرضاش » بدلا من « ما يرضى » و « ماهوش طيب »

---

(١) ويبدو على الأرجح أن عرب مصر احتفظوا فى هذه الحالة بنطق كان مألوفاً ، إن لم يكن عاماً ، عند أسلافهم فى آسيا . أنظر Grammaire Arabe - De Sacy الطبعة الثانية الجزء الأول ص ١٧ و١٨ .

(ويقول العامة موش طيب) بدلا من « ما هو طيب » ، ووضع إسم الإشارة بعد المشار إليه مثل « البيت ده » ، وكثرة استعمال التصغير فى الصفات بلا مسوغ مثل « صغيّـر » بدلا من صغير و« قريّـب » بدلا من قريب .

ولا يوجد فرق كبير بين اللهجة الدارجة والفصحى(١) كما يفرض المستشرقون الأوربيون . . ويمكن وصف اللهجة الدارجـة أنها تبسيط اللهجة القـديمة ، بحذف حركات الكلام الأخيرة خاصة ، وبوجه آخر إهمال التفرقة بين أنواع إعراب الإسم المختلفة وبعض أشخاص الأفعال(٢) . كما أنه لا يوجد فرق كبير بين اللهجات العربية فى البلدان المختلفة كما يتصور بعض من لم يخالط أهل هذه البلاد . وتتشابه هـذه اللهجات أكثر مما تتشابه لهجـات بعض مناطق انجلترا المختلفة . وتفيض اللغة العربية بكلماتها المترادفة ، فتجد بعض الكلمات تستعمل فى بلد ما ، وما يرادفها فى بلد آخر . فيقول المصريون مثـلا « لبناً » ، بينما يقول السوريون « حليباً » ، ويطلق السوريون اللبن على الصريب (اللبن الحامض) . وكذلك الخبز يسميه المصريون « عيشاً »(٣) ، بينما يطلق عليه فى البلدان العربية

---

(١) والأمثلة فى ذلك لا تحصى وأذكر هنـا على سبيل المثـال بعض الألفاظ الدارجة وما يقابلها فى اللغـة الفصحى . وسوف يتبين أن الدارج يأتى محرفاً تحريفاً طفيفاً ، فى اللفظ أو المعنى ، إن لم يكن مطابقاً تماماً . هذا ويجب مراعاة نطق حرف القاف همزة فى الأمثلة التـالية .

فلان مرق : أى اجتـاز ومر . وهو تعبير دارج فى الريف خاصـة . وفى الفصحى ، مرق السهم من الرمية : نفذ فيها وخرج منها — وتقول العامة عند التهديد : حاشرّح وشك ، أى سأشرّح وجهك بمطواة أو خلافهـا . وفى الفصحى ، شرّح اللحم : قطعه قطعاً طوالا — ويقال : الموضوع ده باخ ، أى أصبح هذا الموضوع سخيفاً لقدمه . والفصحى ، باخ اللحم : فسد — ويقال : قطار قشاش ، يقف على جميع المحطات . والمعنى العربى الصحيح ، قشش : أكل من هنا ومن هنـا . والقشـاش : اللقاطة — والمداس ، هو الحـذاء ، فى الدارجة والفصحى — والمزنوق ، هو فى الدارجة الذى لا يقوى على حبس البول بعد . وفى الفصحى ، الذى احتبس بوله . إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التى تدعم هذا الرأى القـائل إنه لا فرق كبير بين اللهجة الدارجة والفصحى ، إلا ما كان ينتمى بطبيعة الحال إلى لغة أهل البلد القدماء ، كما هو الحال فى مصر ، عندما يستمد اللفظ من اللغة الفرعونية ويظل مستعملا إلى يومنا . (المترجم)

(٢) بدأ العرب يبسطون لغتهم فى القرن الأول للهجرة تبعاً لانتشارهم فى البلدان الأجنبية التى ما كانت تستطيع أن تتعلم لغة الفاتحين الصعبة . ولإثبات ذلك أنظر الأخبـار الإسلامية لأبى الفـداء عربى ولاتينى Abulfedae Annales Muslemici الجزء الأول ص ٤٣٢ و ٤٣٤ . ويمكن تقديم عدة أدلة أخرى إلا أن هذا الأمر معروف . وتؤكد العربية الحديثة بمشابهتها للعبرية دلائل الانحطاط الظاهر فى تلك اللغة الأخيرة .

(٣) لأنه عماد الحياة كما فسر ذلك (لين) فيما بعد ، فى الفصل الثالث عشر ، عند الكلام على اعتدال المصريين فى الطعام والشراب . (المترجم)

الأخرى خبزاً . إلى غير ذلك من الأمثلة العديدة من هذا النوع . ويلاحظ أن نطق المصريين ألطف وأعذب من نطق السوريين وأكثر البلدان التى تتكلم العربية .

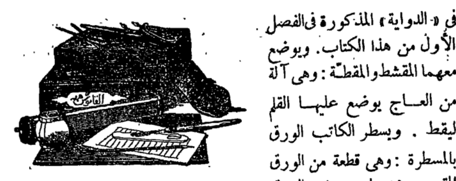
والأدب العربى غنى شامل ، وأهميته فى كمية كتبه أكثر مما هى فى كيفيتها . ويبلغ عدد الكتب التى تبحث فى الدين والفقه الربع تقريباً ، يتلو ذلك كتب النحو والصرف والمعانى والبيان والفروع المختلفة لعلم اللغة Philology . وتشغل كتب التاريخ (وعلى الأخص تاريخ الأمة العربية) والجغرافيا المرتبة الثالثة ، وأخيراً الشعر . أما المؤلفات الطبية والكيميائية والرياضية والجبرية وغيرها فقليلة جداً بالنسبة لغيرها .

ويوجد فى القاهرة عدة مكتبات كبرى ، ويلحق أغلبها بالمساجد ، ويتألف معظمها من كتب التوحيد والفقه ومعاجم اللغة . إلا أن هذه المكتبات مهملة إهمالا يرثى له ، وتفنى محتوياتها بسرعة وإلى حد بعيد لعدم أمانة القائمين بأمرها أو باستهمالها وإهمالهم ويقتنى بعض التجار الأثرياء وغيرهم مكتبات حسنة. ويبلغ عدد تجار الكتب فى القاهرة كما أخبرت ثمانية فقط(١) إلا أن حوانيتهم غير مجهزة تجهيزاً حسناً . ويدور الكتبى كلما عثر على كتاب نفيس على حرفائه وهو يكاد لا يثق بالحصول على مشتر . وقلما تخاط أوراق الكتاب معاً ، وإنما يدرج الكتاب عادة فى غطاء مجلد ، وكثيراً ما يكون له غلاف(٢) خارجى من الورق المقوى والجلد. وتتكون « الكراسة » من خمس ورقات مزدوجة كل منها فى الأخرى ، وترتب الأوراق ملازم صغيرة دون أن تخاط ، فيستطيع أكثر من قارىء استعمال الكتاب معاً ، فيتناول كل كراساً . وتوضع الكتب مسطوحة الواحد فوق الآخر. ويكتب عنوان الكتاب على واجهة الغلاف الخارجى أو طرف الأوراق. وورق الكتب غليظ لامع . ويستورد غالباً من البندقية ويلمع فى مصر . والحبر كثيف لزج . ويستعمل القلم للكتابة ، وهو أكثر ملاءمة للخط العربى . وعندما يكتب العربى يضع الورق فوق ركبته أو على راحته اليسرى ، أو على « مسندة » تتكون من بعض أوراق قد يزيد عددها عن دستجة وتشد معاً عند الأطراف الأربعة ، فتكون كالكتاب الرقيق ، ويضعها فوق ركبته . ويجعل الكاتب الحبر والأقلام

---

(١) وهم مصريون ، ويوجد أيضاً بعض الأتراك .
(٢) « ظرف » .

في « الدواية » المذكورة في الفصل الأول من هذا الكتاب. ويوضع معهما المقشط والمقطّة : وهي آلة من العـاج يوضع عليهـا القلم ليقط . ويسطر الكاتب الورق بالمسطرة : وهي قطعة من الورق المقوى يشد عليه بعرض الورق خيوط ملصقة بالغراء ، فيجعل المسطرة تحت الورقـة ويضغط على كل خيط بخفة. وتتضمن عدة



شكل ٥٨ (كتب وأدوات الكتابة)
والأخـيرة تتكون من القـلم والمقطـة والمقشط والدواية والمسطرة والمسنـدة (وقد وضعت عليهـا الآلات الخمس المذكورة سابقاً) والمقص وقد وضع وغمده فوق الكتاب الأعلى .

الكاتب مقصاً لقطع الورق ، إذ لا يليق أن يكون أطراف الورقة ممزقة. ويعيش الكثيرون في القاهرة على نسخ المخطوطات . ويبلغ أجر نسخ الكراسة ، وهي عشرون صفحة في كل صفحة خمسة وعشرون سطراً ، بالخط العادي ، ثلاثة قروش ، ويزيد المبلغ إذا حسّن الخط ، ويتضاعف إذا شكل الكلام .

ويتلقى الذين يعـدون أنفسهم لوظيفـة دينية أو علمية دروسهم في الأزهر غالباً . ويتعلمون قبل ذلك القـراءة فقط ، والكتـابة وتلاوة القرآن أحياناً . والأزهر ، جامعـة(١) الشرق عامة ، بنيان واسع الأرجاء ، يحيط بفنـاء مربع فسيح . ويوجد على أحد جوانب الفنـاء ، من جهة القبـلة ، مكان الصلاة الرئيسي ، وهو رواق فسيح . وعلى كل جانب من الجوانب الثلاثة الأخرى أروقة صغيرة مقسمة إلى عدة أقسام ، يخصص الواحـد منها لطلبة بلد معين أو مديرية خاصة من مديريات مصر . ويقع الأزهر في قلب القـاهرة . وعمارته لا تستحق الاعتبار ، وإحاطته بالمنـازل تخفي خارجه إلا قليـلا . ويسمى

---

(١) ولا يسمى الأزهر « جامعة » بالمعنى الدقيق ، إلا أن المسلمين يعتبرونه كذلك لأن كل ما يعدونه جديراً بحمل اسم العلم أو ضرورياً للمعرفة ، يدرس بين جـدرانه . وقد ترجم السياح الأوربيون اسم الأزهر بجامع الأزهار بدلا من الجامع الأزهر، الذي هو الاسم الصحيح ، ومعناه الجامع النير . وهذا الجـامع هو الأول من نوعه بالنسبة لجوامع القـاهرة القديمة من حيث عهد إنشائه وسعته . وظاهر الأمر أن ما تقدم في هذه الحـاشية (وكانت مدرجة في الطبعة الأولى من هذا الكتاب) لم يلتفت إليه البارون هامر برجشتال، إذ أنه كتب ملاحظاً (في Vienna Jahrbücher Literatur ٨١ ص ٧١) أنه كان يجب أن أكتب بدلا من « أزهر » كلمة « إزهر » إذ أن الأولى كما يقول تعني « أزهار » . واسم هذا الجامع ينطقه غالب المصريين والعرب على العمـوم كما كتبته « أزهـر » ، ثم أن جمع الزهرة « أزهار » إلا أن الترك ينطقون الكلمة السابقة « إزهر » .

من يتلقى العلم فى الأزهر « مجاوراً » . ولكل رواق مكتبة لاستعمال الطلبة ، ويتعلم الطلبة من الدروس التى يلقيها المدرسون ومن محتويات الكتب الموجودة بمكاتب الأروقة .

ويتكون برنامج الدراسة من علوم الصرف والنحو والمعانى والبيان والعروض والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث والفقه والحساب فى حدود المسائل الشرعية. وهناك دروس فى الجبر والمقابلة والميقات . ويجلس الشيخ على الأرض عند أسفل عمود من الأعمدة ، ويتحلق حوله الطلبة . ويقرأ طلبة المذاهب المختلفة كتباً مختلفة. وأغلب الطلبة قاهريون، وهم لذلك شافعيون. وشيخ الأزهر شافعى دائماً. ولا يدفع الطلبة للدراسة فى الأزهر أجراً ، إذ أن أغلبهم فقراء . ويتناول أغلب الأجانب ، الذين لهم أروقة خاصة ، راتباً من الطعام يومياً ، يصرف لهم من إيراد العقارات الموقوفة عليهم . والعادة أن يتناول طلبة القاهرة وما جاورها مثل هذا الراتب ، إلا أنهم لا يتمتعون بذلك طويلا ، خلا شهر رمضان ، لأن محمد على استولى على جميع الأراضى الزراعية الموقوفة على المساجد . ففقد الأزهر أكبر جزء مما وقف عليه . ولا تنفق الحكومة شيئاً غير نفقات الصيانة اللازمة وأجور المستخدمين الرئيسيين . ولا يتناول المدرسون أجراً ، وليس لهم وسيلة منظمة لكسب معيشتهم غير التدريس فى المنازل ونسخ الكتب الخ . إلا إذا ورثوا ملكاً أوكان لهم أقارب يعولونهم . وقد يتناول المدرس هدية من الأغنياء . ويستطيع أى طالب كفء أن يصبح مدرساً باجازة شيخ الجامع . ويتبع الطلبة غالباً طريقة المدرسين لكسب معاشهم ، أو يتلون القرآن فى المنازل أو على القبور أو فى مكان آخر . وعندما يتقدم الطلبة فى دروسهم التقدم الكافى ، يدخل بعضهم فى القضاء أو الافتاء أو إمامة المساجد أو التدريس ، فى قراهم أو مدنهم ، أو فى القاهرة . ويحترف البعض الآخر التجارة . وقد يستمر بعضهم طول حياته يلتقى العلم مبتغياً الوصول إلى مصاف كبار العلماء . وقد نقص عدد هؤلاء الطلبة الذين لا رواق لهم ، كثيراً ، منذ الاستيلاء على الأراضى الموقوفة على الأزهر . ويبلغ عدد طلبة الأزهر ، ما خلا العميان ، حوالى ألف خمسمائة(١) ، كما أخبرنى أحد المدرسين .

---

(١) ويقول الكثيرون إن عددهم لايقل عن ثلاثة آلاف ، ويقول الآخرون إنه لا يزيد على الألف . ويختلف الطلبة كثيراً باختلاف العصور .

يلحق بالأزهر ، فى ركنه الشرقى ، « زاوية العميان » ، ويعيش فيها الآن حوالى ثلاثمائة ضرير فقير ، وأغلبهم من الطلبة ، على الأوقاف المحبوسة عليهم . وقد عرف هؤلاء بسلوكهم طريق التمرد والعنف والتعصب . وقد حدث منذ زمن غير بعيد أن دخل سائح أوربى الأزهر ، وشاع أمر حضوره ، فأخذ العميان يبحثون عنه صائحين : أين الكافر ؟ سوف نقتله ! وجعلوا يتحسسون طريقهم إليه للقبض عليه . بينما لم يظهر غيرهم رغبة ما فى مهاجمة الدخيل . وكثيراً ما كانوا ينتهجون، قبل تولى محمد على الحكم ، مسلك الطيش والضجيج كلما حسبوا أنفسهم مظلومين ، أو كلما أنقص رواتبهم فى الطعام . فكانوا يخرجون إلى الشوارع ، مصطحبين بعض الأدلاء ، مسلحين بالعصى ، يخطفون عمائم العابرين ، وينهبون محتويات المتاجر . ولم يكد يعين الشيخ القويسنى(١) ، أشهر علماء الأزهر الحاليين ، شيخاً لزاوية العميان منذ بضع سنين، وكان كفيفاً ، حتى أوجب جلد كل ضرير هناك ، إلا أن العميان ثاروا عليه ، وقيدوه ، ثم جلدوه جلداً أشد بكثير مما قاسوه ، وأكرهوه أخيراً على ترك منصبه .

وكان التعليم مزدهراً ازدهاراً عظيماً فى القاهرة قبل دخول الجيش الفرنسى أكثر منه فى السنين الأخيرة . وقد عانى التعليم كثيراً مما أحدثه هذا الغزو من الرعب والهرج . وكان يكفى ، قبل ذلك العصر ، أن يقوم الشيخ المتخرج من الأزهر بالتدريس لولدين من أولاد الفلاحين المتوسطى الثروة ليعيش فى بحبوحة . إذ أن تلميذيه كانا يقومان على خدمته ونظافة منزله وتجهيز غذائه ، فكانا ، وإن شاركاه الطعام ، يعتبران خادمين له فى كل آن ، فيتبعانه أينما ذهب ، ويحملان نعليه (وكثيراً ما كانا يقبلان حذاءه بعد خلعه) عند دخوله المسجد ، ويعاملانه فى كل حين معاملة الأمراء . وكان الشيخ حينئذ يلبس الملابس الفضفاضة والمقلة العظيمة . وكثيراً ما كان المارة يسرعون إليه ، عندما يمر بالطريق ، راجلا أو راكباً ، طالبين منه الدعاء . ويعتقد من تحقق رجاؤه أن البركة حلت به . وإذا مر الشيخ بافرنجى راكب ، وجب على الإفرنجى أن يترجل . وإذا ذهب إلى الجزار لشراء اللحم (إذ يرى أن الذهاب بنفسه خير من إرسال غيره) ، رفض هذا أن يتناول الثمن ، وقبل يده معتبراً طلب الشيخ شرفاً وبركة . أما الآن فقد انحط شأن هؤلاء الشيوخ حتى يصعب

---

(١) وكان منذ كتابة هذا شيخاً للأزهر وهو الآن متوفى .

عليهم الحصول على معاشهم ، إذ لم تكن مواهبهم منقطعة النظير .

ولا جرم أن علماء المسلمين يعوقهم الدين(١) عن السير في بعض سبل العلم . وقد تفصل الخرافة في أمور اختلف فيها علماء الناس أجيالا طويلة . وهناك وسيلة غريبة لحسم النزاع في أى موضوع دينى أو علمى أو فى أى حادث ، أضرب لها مثلا . فقد قص عليّ إمام الشيخ المهدى المفتى السابق الحكاية التالية :كان الشيخ محمد البهائى ، وهو رجل مثقف يعتبره العامة ولياً من أولياء الله ، يستمع إلى درس الشيخ الأمير الكبير ، شيخ المالكية ، عندما قرأ هذا حديثاً للرسول ، من الجامع الصغير(٢) للسيوطى ، وهو أن « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة فى الجنة » ، وأخذ يشرح الحديث ، بعد أن لخص تاريخ الحسن والحسين ، ملاحظاً أن لا أساس للرأى القائل بوجود رأس الحسين فى مسجده بالقاهرة . وهنا قال محمد البهائى : فتملكنى غم شديد لهذه الملاحظة لمخالفتها ما أعتقد وما زلت أعتقد ، بوجود الرأس الشريف فى هذا المشهد . ولكنى ما كنت لأعارض الشيخ لشهرته وسعة علمه . وانتهى الدرس وخرجت أبكى . فلما جن الليل ، قمت أدعو الله وأبتهل إليه ، ولجأت إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم متوسلا أن أراه فى المنام ، ليخبرنى بحقيقة الأمر . فرأيتنى أسير إلى المشهد الحسينى . فلما دنوت من القبة ، أبصرت بها نوراً ساطعاً ، فدخلت فوجدت أحد الأشراف واقفاً بالباب . فحييته فرد التحية وقال : « سلم على رسول الله » . فأرسلت النظر نحو القبلة فرأيت الرسول صلى الله عليه وسلم جالساً على عرش ، وعلى جانبيه وقف رجلان . فرفعت صوتى قائلا : « الصلاة والسلام عليك يا رسول الله » عدة مرات وأنا أبكى . فسمعته صلى الله عليه وسلم يقول لى : « ادن يا بنى ، يا محمد » . فأخذ الرجل الأول بيدى وقدمنى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فحييته فرد التحية وقال : جزاك الله خيراً على زيارة رأس الحسين يا بنى » . فقلت : « يا رسول الله هل رأس الحسين هنا » ؟ » فأجاب : « نعم . إنه هنا » . ففارقنى الحزن وفرحت وثبت جنانى وقلت حينئذ : « يا رسول الله سأقص عليك ما أكده شيخى وأستاذى الأمير فى درسه » وأعدت عليه قول الشيخ . فأطرق صلى الله عليه وسلم ثم رفع رأسه وقال : « إن النقلة معذورون » . واستيقظت فرحاً سعيداً ولما ينقض الليل بعد . فعيل صبرى بطوله ، وجعلت أترقب طلوع النهار

---

(١) لعله يقصد بالدين بعض آراء أهله كرأيهم فى المنطق والفلسفة . (المترجم)

(٢) وهو مجموعة مختصرة مشهورة فى الأحاديث النبوية .

لأذهب إلى الشيخ فأقص عليه الرؤيا . فلما طلع الفجر ، أقمت صلاتى ، وخرجت إلى منزل الشيخ ، وأخذت أطرق الباب بشدة. فأسرع البواب فزعاً يسأل من الطارق فلما عرفنى فتح الباب ، ولو كنت غيرى لضربنى . ودخلت الفناء وأخذت أصيح : « سيدى ! يا سيدى ! » . فاستيقظ الشيخ صائحاً : « من هذا ؟ » فأجبته : « أنا تلميذك محمد البهانى » فتعجب الشيخ لحضورى فى هذا الوقت وقال : « يا ألله ؟ ماهذا ؟ ما الخبر ؟ » فقد ظن أن حادثاً عظيما نزل بالناس . ثم قال : « انتظر حتى أقيم الصلاة » . فظللت واقفاً حتى نزل الشيخ إلى الشرفة السفلى ودعانى إلى الصعود . فصعدت دون أن أحييه أو أقبل يده تحت تأثير الرؤيا : وإنما قلت : « إن رأس الحسين فى مشهده بمصر ، لا شك فى ذلك » . قال الشيخ : « وما دليلك على ذلك ؟ وإذا كان مستندك صحيحاً فأرنيه » فقلت : « ليس هذا فى كتاب » . فقال الشيخ : « هل رأيت رؤيا » . فرويت له الرؤيا ، وعرفته أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرنى أن الواقف بالباب هو على بن أبى طالب ، والواقف على يمين العرش أبو بكر ، وعلى يساره عمر بن الخطاب ، وأنهم حضروا لزيارة رأس الإمام الحسين . فوقف الشيخ وأخذ بيدى وقال : « هيا بنا نزور المشهد الحسينى » فلما دخل القبة قال : « السلام عليك يا ابن بنت رسول الله . آمنت أن رأسك الشريف هنا بعد الرؤيا التى رآها هذا الرجل ، لأن رؤية الرسول فى المنام حقيقية . فقد قال صلى الله عليه وسلم : من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً ، فان الشيطان لا يتمثل بى » . وحينئذ قال الشيخ : « لقد آمنت أنت وآمنت أنا ، ولا يمكن أن تكون هذه الأنوار خادعة » .

وقد أثار حديث الرسول السابق مناقشات أخرى بت فيها بالطريقة نفسها ، أى بالرؤيا . ولا يجرؤ أحد على مجادلة صاحب الرؤيا ، إذا كان ذائع الصيت فى العلم والورع .

يفيد ما أشرت إليه فى بدء هذا الفصل أن بالقاهرة عدة علماء فى وقتنا الحاضر ، وأن بغيرها من المدن المصرية بعض العلماء الآخرين. ويعتبر الشيخ حسن العطار ، وهو شيخ الأزهر الآن(١) ، أحد مشاهير العلماء المعاصرين. وهو وإن لم يبلغ فى التوحيد والفقه مبلغ بعض معاصريه كالشيخ القويسنى خاصة ، ضليع فى علم الأدب . وهو مؤلف كتاب « الإنشاء » ، الذى يعتبر مجموعة فائقة من الرسائل العربية فى مختلف الموضوعات ، وضعها نموذجاً للأسلوب الإنشائى. وقد طبع هذا الكتاب

(١) وقد توفى هذا الأديب الفاضل بعد كتابة هذا الكتاب .

فى مطبعة بولاق . وقد ذكرت اسم هذا المؤلف تنفيذاً لوعد قطعته على نفسى ، إذ طلب أن أنوه بمعرفتى له ، وأن أبين رأيى فى علمه ، ظناً أننى سأنشر فى بلدى أحاديث عن أهل القاهرة . وقد اشتهر بحق أيضاً الشيخ محمد شهاب بجودة أدبه ورقة شعره . وكان أنسه وذكاؤه يجذبان الأصدقاء إلى منزله كل مساء ، وكنت أحياناً أشترك فى مسراتهم . فكان الشيخ يستقبلنا فى غرفة صغيرة مريحة ، فيدخن كل منا شبكه ، وتقدم إلينا القهوة . وكان حديث الشيخ أعذب مايقدم لنا . — وفى القاهرة أيضاً علماء يتمتعون بشهرة عظيمة فى اللغة والشعر . — ويستحق الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وهو من مؤلفى القاهرة المتأخرين ، أن يشار إليه بصفة خاصة ، إذ أنه وضع تاريخاً جليلا لحوادث مصر منذ القرن الثانى عشر للهجرة(١) . وقد توفى عام ١٨٢٥ أو ١٨٢٦ عقب قدومى القاهرة لأول مرة . وتنتمى أسرة الشيخ الجبرتى إلى الجبرت ، فى جنوب شرق الحبشة ، على شاطىء المحيط . ويدين أهل جبرت بالإسلام . ولهم رواق فى الأزهر ، ومثل ذلك فى مكة ، وفى المدينة .

لم يكن الشعر الجاهلى يفهم على حقيقته فى القرنين أو الثلاثة الأولى للهجرة لغرابة ألفاظه . فمن باب أولى لا نجد الآن من يستطيع شرح هذه النصوص القديمة . غير أن هناك فى مصر من تضلع من علوم الصرف والنحو والبلاغة والأدب ، بالرغم من سيادة التوحيد والفقه فى هذا البلد . وقلما يعرف علماء مصر تاريخ بلادهم معرفة جيدة ، وأقل من ذلك معرفتهم بتاريخ الأمم الأخرى .
أما الذين لايحترفون الأدب من سواد الشعب فمحصولهم الأدبى منحط النوع . ويجيد الكثير من التجار الأغنياء فن القراءة والكتابة ، ولكن قل من يخصص أكثر وقته للدراسة الأدب . ويعتبر من حفظ القرآن جميعه أو أكثره ، واستطاع أن يتلو قصيدتين أو ثلاثاً ، أو يضمن الحديث بعض الأمثال ، رجلا كامل الثقافة . وهناك تجار من القاهرة أميون ، فيلجأون إلى أصدقائهم ليكتبوا لهم حساباتهم ورسائلهم . إلا أن هؤلاء التجار لا يهتمون بذلك على العموم ، فيقومون بعمليات حسابية ذهنية معقدة ، بسرعة فائقة ودقة مدهشة .

ويخطىء المسيحيون فى أوربا فى اعتقادهم أن المسلمين أعداء العلم على اختلاف أنواعه تقريباً . والحقيقة أن العلم فى الوقت الحاضر تحده حدود ضيقة .

---

(١) ويوافق بدء القرن الثانى عشر للهجرة اليوم السادس عشر أو السابع عشر من أكتوبر سنة ١٦٨٨ ميلادية .

فقبل من يدرس الطب والكيمياء (وندين بمعرفتنا بها للعرب) والرياضيات وعلم الفلك . وتجد أغلب الأطباء والجراحين المصريين حلاقين ، يجهلون العلم الذى يباشرونه جهلا مضراً ، وتنقصهم المهارة فيما يمارسونه . ويرجع بعض ذلك إلى تحريم الدين تشريح الجسد . إلا أن بعض المصريين الشبان يتلقون الآن دراسة أوربية فى الطب والتشريح والجراحة وعلوم أخرى لخدمة الحكومة . وكثيراً ما يرفض المرضى من المصريين كل مساعدة طبية ، متوكلين على العناية الإلهية أو معتمدين على السحر . ويدرس فى هذا البلد علم تحويل المعادن أكثر من دراسة علم الكيمياء الصرف ، وعلم التنجيم أكثر من علم الفلك . ولا يستعمل فى مصر من آلات الفلك غير الاسطرلاب والربع المقنطر Quadrant تقريباً . ويندر أن نشاهد مرصدة(١) (تلسكوب) هنا . وقلما تستعمل الإبرة المغناطيسية (البوصلة) إلا لمعرفة القبلة ، ويصنع لهذا الغرض ، فى دمياط ، بوصلة صغيرة ملائمة ، تسمى « قبلية » ، تبين اتجاه القبلة فى المدن الكبيرة للبلاد المختلفة . وأغلب المدن بها مزاول تبين الوقت ظهراً وعصراً فى أماكن متعددة وفصول مختلفة . ويجهل هؤلاء الذين يدعون علم الفلك الأصول العلمية الصحيحة ، ويعتبرون القول بدوران الأرض حول الشمس إلحاداً مطلقاً . ويستخدمون علم النجوم فى حساب التقويم السنوى .

تتألف السنة الهجرية من إثنى عشر شهراً قمرياً (٢) . ويتأخر التقويم القمرى عن التقويم الشمسى سنة فى كل ثلاث وثلاثين سنة ونصف تقريباً . ولذلك لا يستعمل هذا التقويم إلا فى تحديد الأعياد الدينية والمواسم السنوية ، فلا يستعمل فى حساب الفلك ولا فى تحديد الفصول . وإنما يستخدم فيها التقويم القبطى .

---

(١) هذا ما قرره المجمع اللغوى . أنظر مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية الجزء الرابع . (المترجم)

(٢) جرى المؤرخون الأوربيون على أن أول يوم فى الهجرة كان يوم الجمعة السادس عشر من يوليو سنة ٦٢٢ ميلادية . إلا أن كوسان دى پرسفال Caussin de Perceval فى كتابه : مقالة فى تاريخ العرب Essai sur l'Histoire des Arabes بين خطأ ذلك . فالعام الهجرى الأول كان العام الحادى عشر بعد المائة من عهد كان العرب يستعملون فيه حساباً قمرياً شمسياً ناقصاً ، جاعلين العام الثالث من كل ثلاثة أعوام ثلاثة عشر شهراً قمرياً . وقد حرم الرسول هذه الطريقة فى الشهر الثانى عشر من العام العاشر للهجرة وقت الحج . ومن هذا يتضح أن العام الأول للهجرة بدأ على الأرجح يوم الاثنين التاسع عشر من أبريل سنة ٦٢٢ ميلادية . وطبقاً لرأى كوسان دى پرسفال تبدأ السنين العشرة الأولى فى التواريخ التالية :
=

وقد ذكرت فيما يلى الشهــور القبطيــة بأسمائها الحديثة(١) مع ما يقابلها من التقويم الميلادى .

توت ويبدأ فى العــاشر أو الحــادى عشر من سبتمبر
بابــة ويبدأ فى العاشر او الحادى عشر من أكتوبر
هاتور ويبدأ فى التاسع أو العاشر من نوفمبر
كيهك ويبدأ فى التاسع أو العاشر من ديسمبر
طوبة ويبدأ فى الثامن أو التاسع من يناير
أمشير ويبدأ فى السابع أو الثامن من فبراير
برمهات ويبدأ فى التــاسع من مارس
برمودة ويبدأ فى الثــامن من إبريــل
بشنس ويبدأ فى الثــامن من مــايو
بؤونة ويبدأ فى الســابع من يونيــو
أبيب ويبدأ فى الســابع من يوليو
مسرى ويبدأ فى الــادس من أغسطس

ويلحق بالسنة القبطية خمسة أيام أو ستة تسمى أيام النسيء .والشهر القبطى ثلاثون يوماً . ويضاف إلى كل سنة من السنوات الثلاث المتتالية خمسة أيام ،

= العام الأول الإثنين ١٩ إبريل سنة ٦٢٢
العام الثانى السبت ٧ مايو سنة ٦٢٣
العام الثالث الخميس ٢٦ إبريل سنة ٦٢٤
العام الرابع الإثنين ١٥ إبريل سنة ٦٢٥
العام الخامس السبت ٣ مــايو سنة ٦٢٦
العام السادس الخميس ٢٣ إبريل سنة ٦٢٧
العام السابع الثلاثاء ١٢ إبريل سنة ٦٢٨
العام الثامن الإثنين أول مايو سنة ٦٢٩
العام التاسع الجمعة ٢٠ إبريل سنة ٦٣٠
العام العاشر الثلاثاء ٩ إبريل سنة ٦٣١

وهكذا يبدو أن الأعوام الأول والرابع والسابع كان يتألف كل منها من ثلاثة عشر شهراً قمرياً ، وأن العــام السابع كان آخر هذه الأعوام التى زيدت هكذا . وهكذا يبــدأ الحساب القمرى العادى بالعــام الثامن . ويمكننا أن نستخدم استناداً على هذا الرأى الجــداول التى تشير إلى بدء السنين الهجرية . ولكن لا ينبغى أن نعتمد عى دقة هــذه الجداول لأن بدء الشهر يحدد برؤية الهــلال ، ولذلك يختلف باختلاف الأماكن . ولم تبدأ الســنة الهجرية من يوم هجرة الرسول من مكة ، كما يفترض أغلب مؤرخينــا الذين بحثوا هــذا الموضوع ، وإنما تبتدىء من أول يوم للقمر أو من شهر محرم الســابق لهذا الحادث . ويقال إن محمداً بعد أن ظل مختفياً مع أبى بكر ثلاثة أيام فى غار قريب من مكه * بدأ هجرته من المــدينة فى التــاسع من الشهر الثالث أى ربيع الأول ، بعد ستة وثمانين يوماً من بدء هذا التاريخ .

* غار ثور (المترجم)

(١) وقد ذكرت الأسماء القبطية القديمة ، التى حرفت منها هذه ، فى كتاب Horae Aegyptiacae تأليف R.S.Poole ص ٧ - ٩ ، وقد أشير فيه أيضا إلى اشتقاقها من أسماء الآلهة المصرية القديمة فى ص ١٤ و ١٥ و ١٨ . *

* ريجنالد ســتوارت بول (١٨٣٢ - ١٨٩٥) ابن أخت ادوارد وليم لين . اتجه إلى دراســة الآثار المصرية القديمة ، عندما كان مع والدته وأخيــه ، ادوارد ستانلى بول (١٨٣٠-١٨٦٧) ، فى صحبه خاله فى رحلة هذا الأخير المرة الثالثة إلى مصر (١٨٤٢-١٨٤٩). كان ريجنالد بول بكيراً فى علمــه ، فكتب عام ١٨٤٢ هذه الرســالة فى تاريخ مصر القديم وأدرج بها أراء نظرية استبعـــدت فيما بعد ولكنها تشهد له بالثقــافة والاجتهاد فى هذا السن المبكر . (المترجم)

وإلى السنة الرابعة ستة أيام . والسنة القبطية الكبيسة تليها مباشرة سنة ميلادية كبيسة . فالسنة القبطية تبدأ فى الحادى عشر من سبتمبر فقط عندما يسبق هذا الشهر سنة قبطيسة كبيسة ، أو تلحقه سنة ميلادية كبيسة . ولذلك تتشابه الأيام المتقابلة فى التقويمين القبطى والميلادى بعد شهر فبراير التالى . ويبدأ القبط تأريخهم من عصر دقلديانوس سنة ٢٨٤ م .

ويقسم المصريون المحدثون السنة إلى ثلاثة فصول كما كان يقسمها أسلافهم وهى : الشتاء والصيف والنيل . ويستعمل الفلكيون تقويم الأبراج القمرية ، التى اعتاد أهل الجزيرة العربية تنظيم شؤونهم المتعلقة بالفصول عليها .

ويبدأ الوقت المدنى فى مصر ، وغيرها من البلدان الإسلامية ، من غروب الشمس إلى الغروب التالى ، فيحسب الليل السابق مع النهار التالى ، وتسمى الليلة السابقة ليوم الجمعة مثلا ليلة الجمعة . ويوافق غروب الشمس الساعة الثانية عشرة ، فتكون الساعة واحدة ، بعد غروب الشمس بساعة ، والساعة الثانية بعده بساعتين ، وعلى هذا المنوال يحسب الوقت حتى الثانية عشرة . وبعد الثانية عشرة صباحاً تبدأ الساعة واحدة مرة أخرى ، ثم الساعة الثانية وهكذا(١) . ويملأ المصريون ساعاتهم ويضبطونها عند الغروب ، عندما يسمعون أذان المغرب على العموم . وتضطرهم طريقة حسابهم الوقت من الغروب ، إلى ضبط ساعاتهم كل مساء ، إذ أن الأيام تختلف طولا وقصراً .

ويبين الجدول الآتى أوقات الصلاة عند المسلمين(٢) مع ما يقابلها من الوقت الأوربى الظاهر عند الغروب ، على خط عرض القاهرة ، فى بدء كل منطقة من مناطق البروج .

يطبع فى مطبعة الحكومة ببولاق(٣) تقويم صغير سنوى . ويشمل هذا

---

(١) وبالتالى إذا طرحنا ساعة الظهر العربية فى يوم معين من ١٢ نحصل على ساعات الغروب الأوربية فى هذا اليوم .

(٢) وقد ذكرنا هنا أوقات العشاء والفجر والعصر تبعاً للحساب الأكثر شيوعاً فى القاهرة . أنظر فصل الدين والشريعة .

(٣) وقد طبع فى هذه المطبعة أكثر من مائة كتاب مدة زيارتى الثانية لمصر ، وكان أكثر هذه الكتب لاستعمال الجيش والبحرية ومستخدمى الحكومة . وقد طبع منذ ذلك الوقت فى المطبعة نفسها كتاب ألف ليلة وليلة وخطط المقريزى وعدة كتب أخرى على نفقة بعض الأفراد .

التقويم السنة الشمسية ، منذ بدأ الاعتدال الربيعي إلى نهايته ، وأيام الأسبوع والشهور الإسلامية والقبطية والسريانية والإفرنجية ، مع الإشارة إلى حركات الشمس في منطقة البروج ، وأوقات الشروق والظهر والعصر . ويصدّر التقويم بنبذة في أهم المواسم والأعياد الإسلامية والقبطية وغيرهما ، وبعض الملاحظات والإرشادات المتعلقة بالفصول . ويلحق بالتقويم نتيجة طبيعية وزراعية لكل يوم من أيام السنة . ويشير التقويم إلى الخسوف والكسوف ، كما يشمل أموراً كثيرة تلائم خرافات الشعب ، وتتضمن آثاراً من التقويم المصري القديم . ويقوم بعمل هذا التقويم قسيس سوري مسيحي ، اعتنق الإسلام ، يسمى يحيي أفندي(١) .

	غروب				عشاء		فجر		ظهر		عصر	
	إسلامي		أوربي		إسلامي		إسلامي		إسلامي		إسلامي	
	س	ق	س	ق	س	ق	س	ق	س	ق	س	ق
يونيو ٢١	١٢	٠٠	٧	٤	١	٣٤	٨	٦	٤	٥٦	٨	٣١
يوليو ٢٢ مايو ٢١	١٢	٠٠	٦	٥٣	١	٣٠	٨	٣٠	٥	٧	٨	٤٣
أغسطس ٢٣ أبريل ٢٠	١٢	٠٠	٦	٣١	١	٢٢	٩	٢٤	٥	٢٩	٩	٤
سبتمبر ٢٣ مارس ٢٠	١٢	٠٠	٦	٤	١	١٨	١٠	٢٤	٥	٥٦	٩	٢٤
أكتوبر ٢٣ فبراير ١٨	١٢	٠٠	٥	٢٧	١	١٨	١١	١٨	٦	٢٣	٩	٣٥
نوفمبر ٢٢ يناير ٢٠	١٢	٠٠	٥	١٥	١	٢٢	١١	٥٩	٦	٤٥	٩	٤١
ديسمبر ٢١	١٢	٠٠	٥	٤	١	٢٤	١٢	١٥	٦	٥٦	٩	٤٣

وليس للمصريين معرفة بالجغرافيا إلا فئة قليلة أكثر ثقافة . ويكاد المصريون يجهلون موقع أكثر البلدان الأوربية الكبيرة جهلا تاماً لعدم وجود الخرائط الجيدة . وقلما يجرؤ بعض المتعلمين منهم على إعلان كروية الأرض ، إذ أن أكثر علمائهم على عكس هذا الرأي . والرأي السائد بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم أن الأرض مهاد يحيط به المحيط(٢) الذي يحده جبال (قاف) كما يزعمون . ويعتقد هؤلاء أن هذه الجبال هي ذروة الأرض السابعة ، كما يعتقدون أن السموات سبع طبقات تعلو إحداها الأخرى .

(١) وقد استبدل أثناء مقامي الأخير بمصر بتقويم يحيي أفندي تقويم آخر الله محمود أفندي ، وهذا التقويم الأخير مطابق للأغراض الفلكية وأحسن من السابق وهو مشرف لمؤلفه أيضاً .

(٢) كما كان يعتقد اليونان في عهد هوميروس وهزيودس Hesiod *

* هزيودس ، شاعر يوناني من القرن الثامن ق.م. وكان لشعره صفة تعليمية وأخلاقية . (المترجم)

فاذا كان هذا هو حال العلم عند المصريين المحدثين ، فلا يعجب القارىء إذا وجد بعد هذا الفصل فصلا ضافياً يصف خرافاتهم . والإلمام بهذه الخرافات لازم ليتبين القارىء أخطاءها ، وليستطيع أن يفهم طباع المصريين . وإنا لنتوقع لهذا الشعب تقدماً عظيماً من الناحية الفكرية والأخلاقية باقتباس العلوم الأوربية فى عهد محمد على ، ذلك الاقتباس الذى قوّم إلى حد ما سلطته الجائرة ، ولكن ليس من المحتمل أن يتحقق هذا الرجاء قريباً على مدى واسع (١) .

(١) لاحظ البارون هامر برجشتال بحق أن هذا الفصل ناقص . وكان بودى أن أزيد فيه لولا شعورى بواجب التقيد برغبة القارىء . وأخشى أن أكون قد استنفدت صبره بتسجيل موضوعات لا تهم غير المستشرقين ، فلم أدون ، بنساء على التعديل الأخير غير بعض ملاحظات قليلة سريعة نتيجة لما رأيته من أن العلوم الأوربية مقصورة على هؤلاء المستخدمين الذين أكرهوا على تلقى العلم من المدرسين الإفرنج ، ومن أن العادات الأوربية لم يجرؤ على اتباعها غير بعض الأتراك . وقد صرح لى بعض المصريين الذين تلقوا علومهم فى فرنسا أنهم ما كانوا يستطيعون أن يسيغوا شيئاً مما تعلموه هناك فى عقول مواطنيهم حتى الأقربين إليهم .

الفصل العاشر

الخرافات

يعتقد العرب بالخرافات اعتقاداً عظيماً ، ويعد عرب مصر أكثرهم تعلقاً بهذه الاعتقادات الباطلة . وأكثر هذه الخرافات اعتباراً الاعتقاد بالجن . ويقال إن الجن أصلهم سابق على آدم ، وإنهم في خصائصهم العامة طبقة من الكائنات تتوسط بين الملائكة والإنس ، وتقل عنهما فضلا ، وإنها خلقت من نار ، وتستطيع أن تتشكل بأشكال الأناس والبهائم والوحوش الخيالية ، وتختفي عن الأنظار كما تريد . والجن يشربون ويأكلون ، ويتناسلون مثل البشر أو معهم ، كما أنهم عرضة للموت ، وإن كانوا يعيشون أجيالا عديدة . ويسكن الجن سلسلة جبال قاف ، التي يزعمون أنها تحيط بالأرض جميعها ، كما ذكر في الفصل السابق . ويعتنق بعض الجن الإسلام ، والآخرون كفرة . ويسمى هؤلاء الكفرة أيضاً شياطين ، ويرأسهم إبليس ، إذ أنه ، تبعاً للرأي السائد ، جني مثل غيره من الشياطين ، لأنه خلق من نار ، بينما خلق الملائكة من نور معصومين من الخطأ .

ويخشى العرب الجن أخيارهم وأشرارهم كثيراً ، ويحفظون لأخيارهم احتراماً عظيماً . وقد جرت العادة عند هذا الشعب ، عندما يصب أحدهم ماء أو غيره على الأرض أن يصيح أو يدمدم : « دستور » ، مستأذناً أو مستغفراً الجني الذي قد يوجد هناك . ويظن أن الجن ينتشرون في طبقة الأرض الصلبة ، مثلما ينتشرون في السماء حيث يقتربون من حدود السماء الأولى ، فيسترقون السمع عن المستقبل ، ويستطيعون هكذا أن يساعدوا العرافين والسحرة . ويعتقدون أيضاً أن الجن يسكنون الأنهار والخرائب والآبار والحمامات(١) والأفران والمراحيض . ولذلك عندما يدخل أحد مرحاضاً

---

(١) العادة في مصر أن يرسم المسلمون والمسيحيون صليباً على مدخل الحمام إذ يعتقدون أن هذا يمنع الجن من دخوله (المؤلف)

ومثل هذا الاعتقاد ، برسم علامة على مدخل المكان ليقي الساكن شر قوة خفية ، ما ورد بالتوراة (سفر الخروج ١٢ /٢١ إلى ٢٣) حيث دعا موسى ، بأمر الرب ، شيوخ إسرائيل ، وطلب ذبح ذبيحة الفصح لتذكرهم بالنجاة من فرعون والخروج من مصر ، ووضع علامة من دم الذبيحة على أبواب بيوتهم لتحفظهم من ضربة المهلك حينما تصيب أبكار المصريين في أرض مصر . (المترجم)

أو يدلى دلواً فى بئر أو يوقد ناراً الخ . يقول : « دستور » أو « دستور يا مباركين » . ويتلو الداخل بيت الراحة هذه العبارة مبتهلا إلى الله أن يحميه من الأرواح الشريرة . إلا أن البعض لا يذكرون اسم الله باعتبار أنه لا يليق النطق به فى مثل هذا المكان، فيكتفون بقولهم : أعوذ بك من الشياطين ذكوراً وإناثاً » . وتفسر هذه العادات إحدى قصص ألف ليلة وليلة التى يحكى فيها أن تاجراً قتل جنياً بنواة تمرة كان يأكلها . ويظهر الجنى فى القصة نفسها وفى غيرها قادماً فى زوبعة من الرمل أو الغبار . والاعتقاد العام عند عرب مصر ، أن الزوبعة التى تثير الغبار أو الرمال ، وتكسح الحقول والصحارى ، يسببها تحليق هذه الكائنات(١) . ويفوه المصريون عادة ، عندما تبدو الزوبعة قريبة منهم ، بتعويذة لابتعادها ، فيهتف بعضهم : « حديد يا مشئوم » ، إذ يظنون أن الجن يخافون هذا المعدن كثيراً . ويصيح آخرون : « الله أكبر » . ويعتقدون أن الشهب سهم يقذف به الله الشياطين . ويصيح المصريون عندما يرون شهاباً ساقطاً : « سهم الله فى عدو الدين » . ويسمى العامة الشياطين عفاريت، وقد ورد ذلك فى القرآن بهذا النص« قال عِفريت من الجن». (سورة النمل ، آية ٣٩) . وقد ترجم سيل Sale هذا اللفظ : «A terrible genius answered : قال جن هائل» ويعتقدون أن العفاريت يختلفون عن الجن الآخرين بعظيم قدرتهم ودوام شرهم . ويسمى الشيطان الأقوى مارداً .

يرتبط تاريخ الجن بعدة أساطير لم يذكرها القرآن ، ولذلك لا يؤمن بها المسلمون العقلاء(٢) . ويتفق الجميع على أن الجن خلقوا قبل الإنسان ، إلا أن البعض يقولون بطبقة أخرى من الكائنات السابقة على آدم ذات طبيعة مشابهة . ويعتقد العامة أن الأرض كان يسكنها قبل آدم جنس من المخلوقات يختلف عن البشر شكلا وقوة ، وأن أربعين ملكاً من هؤلاء ، أو اثنين وسبعين تبعاً لقول آخر ،

---

(١) وقد قست ، بآلة السدس Sextant ، ارتفاع زوبعة فى مدينة طيبة فى ظروف ملائمة، فقد لاحظت ارتفاعها من مكان عال وقت مرورها بمجموعة من النخيل ، هزتها هزاً عنيفاً ، على بعد منى ، وقد بلغ ارتفاع الزوبعة سبعمائة وخمسين قدماً . وأظن أنى رأيت زوابع أكثر ارتفاعاً ، وقد قست زوابع أخرى فى المكان نفسه فبلغ ارتفاعها بين خمسمائة قدم وسبعمائة .

(٢) يتكون تاريخ الجن ، فى جملة المعتقدات والعادات التى تسود البلدان الإسلامية ، من عدة طبقات منضودة . منها ما هو آثار باقية من زمن الجاهلية ، ومنها ما أضافه الإسلام ومنها أخيراً ما يرجع ، فى البلد المنتشرة به ، إلى معتقدات خاصة بذلك البلد سابقة على الإسلام . أنظر وسترمارك ص ١٩ - ٢٠ . (المترجم)

سمى كل منهم سليمان ، حكموا هذا الشعب تباعاً . وكان آخر هؤلاء السليمانيين يسمى جان بن جان . ويتوهم البعض أن الجن ، ويسمون أيضاً جاناً(١) ، اشتقوا تسميتهم من اسم هذا الملك . ومن هنا يعتقد البعض أن الجن يشبهون هذا الجنس السابق ، ولكن البعض يؤكد أن الجن كانوا طبقة من الكائنات مختلفة أخضعها الجنس الآخر .

ويعتقدون أن الجن كثيراً أو دائماً يتشكلون بأشكال القطط والكلاب والحيوانات المفترسة . وقد روى الشيخ خليل المدابغي ، وهو من أشهر علماء مصر وقد ألف كتباً عديدة فى مختلف العلوم ، وتوفى فى سن متقدمة أثناء زيارتى الأولى لمصر ، الحكاية التالية : «كان له ، كما يقول ، قط أسود عزيز ينام عند ذيل كلته . ففى منتصف إحدى الليالى سمع طرقاً على باب داره ، فقام القط وفتح مصراع الشباك وهتف : « من ؟ » فأجابه صوت : « أنا فلان الجنى (وذكر اسماً غريباً) افتح الباب » فقال قط الشيخ : « إن المزلاج قرىء عليه اسم الله(٢) فقال الآخر : « إذن اقذف لى رغيفين من الخبز » فأجاب القط : إن سلة الخبز سمى عليها » فقال الغريب : « حسن ، أعطنى على الأقل جرعة ماء ». ولكنه رد عليه بأن وعاء الماء محفوظ بالطريقة نفسها. فسأل ماذا يستطيع أن يفعل وهو يوشك أن يموت جوعاً وعطشاً ؟ فأشار عليه القط أن يذهب إلى باب الدار التالية . وذهب هو بنفسه وفتح الباب ثم لم يلبث أن عاد . وفى الصباح التالى، غفل الشيخ عن عادة كان يراعيها دائماً ،فأعطى القط نصف الفطيرة التى كان يفطر بها ،بدلا من قطعة صغيرة اعتاد أن يعطيه إياها. ثم قال له : «يا قطى ،أنت تعلم أننى فقير، فجئنى إذن ببعض الذهب ».فاختفى القط فى الحال بعد هذا الكلام ، ولم يره الشيخ بعد ذلك . والحكايات من هذا النوع تستوجب السخرية ، لكن من المستحيل أن نقف على حقيقة عقلية الشعب الذى أحاول وصفه دون أن أسرد حكاية أو أكثر .

ويؤكد العامة أن أشرار الجن كثيراً ما يعتلون الأسطح والشبابيك، ويقذفون بالقراميد والحجارة فى الشوارع والأفنية . وقد أخبرت من أيام قليلة بحادثة من

---

(١) ويعتبر بعض الكتاب الجان أقل طبقات الجن قدرة .

(٢) وعادة الفقهاء (المتأدبين والأتقياء) أن يبسملوا عند قفل الباب بالمزلاج أو تغطية الخبز أو خلع الملابس ليلا أو فى مناسبات أخرى . وهذا كما يعتقدون يحفظ أموالهم من الجن. ويقال للشىء الذى ذكر عليه إسم الله « مسمى عليه » .

هذا النوع أفزعت سكان أهم شارع في القاهرة أسبوعاً بأكمله ، إذ كانت القراميد تقذف بكثرة من بعض المنازل كل يوم طول هذه المدة ، ولم يصب أحد . وقد ذهبت إلى مكان هذه الدعابة الجنية المزعومة للنظر والاستقصاء ، ولكن قيل لي عند وصولي إن الرجم انقطع . ولم أجد أحداً أنكر قذف القراميد ، أو شك في أنه من أعمال الجن. وكانت الملاحظة العامة عند ذكر هذا الموضوع قولهم : « الله يحفظنا من شر أعمالهم »(١) .

وقد أخبرني صديق، بهذه المناسبة ، أنه قابل بعض الانجليز لا يعتقدون بوجود الجن . وقد استدل بذلك على أنهم لم يشاهدوا أبداً تمثيلا عاماً، وإن كان منتشراً في بلدهم ، الذي سمع عنه منذ ذلك الحين باسم «كوميديا »، قاصداً بهذه العبارة التمثيل المسرحي. ثم قال بعد أن وجه الكلام إلى أحد مواطنيه، ودعاني لأصدق على حديثه : « منذ زمن قصير وصف لي جزائري منظراً من هذا النوع كان قد رآه في لندن » . فقاطعه مواطنه سائلا : « أليست انجلترا في لندن ؟ أم لندن مدينة في إنجلترا ؟ » فأجابه صديقي بتحفظ ، وهو ينظر إليّ ، أن لندن عاصمة إنجلترا ، ثم أوجز موضوع المسرح ، فقال : « لا يمكن وصف الدار التي عرض بها التمثيل . كانت الدار ، مستديرة، وصفت على أرضيتها مقاعد عديدة، وحولها مقصورات كثيرة، الواحدة تعلو الأخرى ، حيث جلس أفراد الطبقات العليا . وكان هناك فرجة مربعة كبيرة أستدل عليها ستار . وعندما غصت الدار بالمتفرجين ، الذين دفعوا مبالغ كبيرة للدخول ، أظلم المكان فجأة . وكان الوقت ليلا . وكانت الدار قد أضيئت بعدة مصابيح ، إلا أنها أطفئت كلها تقريباً في وقت واحد دون أن يمسها أحد ، ثم رفعت الستارة الكبيرة . فسمع المشاهدون هدير الموج وصفير الهواء ، ورأوا ، دون تمييز في الظلام ، الأمواج ترتفع وتزبد وتضرب الشاطىء . وسمع في الحال صوت رعد مرعب ، ثم أضاء البرق للمشاهدين البحر الهائج ، وسقط حينئذ سيل من المطر الحقيقي . بعد ذلك صفا الجو فظهر البحر بوضوح ، وشوهدت باخرتان على بعد اقتربتا ثم اشتبكتا في قتال أطلقت فيه نيران المدافع . وعرضت بعد ذلك مجموعة مختلفة من

---

(١) وقد مر لين بتجربة مماثلة في رحلته الثالثة ، عندما سكن ، هو وعائلته ، منزلا في درب الجمل ، وأجبر على إخلائه بعد الإقامة به شهرين ، وبعد أن غادره خدمه لإحساسهم بأن المنزل تسكنه العفاريت . وبالفعل كان يصدر من أرجاء ذلك المنزل أصوات غريبة ، وتظهر به مشاهد غير طبيعية لم يستطع لين أن يجد لها تفسيراً معقولا . وقد وصفت أخته مسز بول تلك الظواهر الغريبة في كتابها (انجليزيات في مصر) English women in Egypt أنظر المستشرق الكبير ادوارد وليم لين . ص ٩٦ ، ٩٧ . (المترجم)

المناظر الفريدة . وأضاف صديقى : « من الواضح الآن، أن مثل هذه العجائب لا بد أن تكون من أعمال الجن ، أو على الأقل عملت بمساعدتهم » . وقد شرحت له هذه الظواهر ، ولكنى لم أستطع إقناعه بخطأه .

ويقال إن الجن يسجنون أثناء شهر رمضان . ومن هنا نرى بعض المصريات يرششن ، فى وقفة عيد الفطر ، ملحاً على أرض الغرف ، مبسملات، لمنع هذه المفزعات من دخول منازلهن .

ويجب أن أشير هنا إلى بقية عجيبة من خرافة مصرية قديمة . إذ يعتقدون أن لكل حى من أحياء القاهرة حارساً خاصاً من الجن ذا شكل أفعى(١) Agathodaemon

ويعتقدون أن القبور المصرية القديمة والهياكل المظلمة تسكنها العفاريت . وقد استحال على أن أقنع أحد خدمى بدخول الهرم الأكبر معى ، لرسوخ هذه الفكرة فى ذهنه . وينسب الكثير من العرب بناء الأهرام ، والآثار المصرية المدهشة جميعها ، إلى جان بن جان وأتباعه الجن . فهم لا يتصورون أن تقيم هذه الآثار يد بشر .

تطلق عبارة عفريت بالحرى على الشيطان ، إلا أن أرواح الأموات تسمى أيضاً بهذا الإسم . وينسج من هذه حكايات لا يقبلها العقل ، كما أنها تلقى فى النفوس رعباً هائلا . إلا أن هناك من لا يخشاها إطلاقاً . وكان فى خدمتى طاه مضحك يتعاطى الحشيش أحياناً . وقد سمعته ذات ليلة، بعيد دخوله خدمتى، يدمدم ويهتف على السلم ، كما لو كان دهشاً لحادثة ما . ثم قال بأدب « ولكن لمَ تجلس فى تيار الهواء؟ تفضل بالصعود إلى المطبخ وسلّنى بحديثك قليلا » . ولما لم يرد على خطابه المؤدب . كرره عدة مرات حتى ناديت عليه وسألته إلى من يتحدث . فأجاب : « إنه عفريت جندى تركى صعد من البئر وجلس

---

(١) إن للأفعى فى أنحاء العالم أثراً بارزاً فى الدين والأساطير والآداب الشعبية . فنراها تحتل مقاماً مقدساً فى الهند وبابل وآشور ومصر واليونان ...

والأفعى Agathodaemon (أى الروح الطيبة) فى الأساطير اليونانية إله يحرس الزرع والكرم . وكان اليونان يشربون عقب الطعام كأساً من النبيذ الصافى نخب حارسهم .

وفى مصر القديمة نجد أفعى حارسة لكل رقعة إدارية .

وفى آشور وبابل كانت تعد رمز الخلود والبعث ...

Evolution de la religion (Bibliothèque Anthropologique) تأليف Ch. Letourneau
Encyclopaedia Britannica: Serpent Worship . Le Nil et la Civilisation
Egyptienne تأليف Moret - Religion de Babylonie et d'Assyrie
(Collection Mana) تأليف Dhorme (المترجم)

على السلم يدخن شبكه ويرفض أن يتحرك . تقدم من فضلك وانظر إليه » . ولما ذهبت إلى السلم وأخبرته أننى لا أرى شيئاً ، لاحظ أن سبب ذلك ضفاء العقل . وقد قيل له ، فيما بعد ، إن المنزل ظل مسكوناً طويلا . وقد قرر أنه لم يُخبر قبلا بهذا الموضوع المزعوم ، أن جندياً تركياً قتل هناك . وقد صرح لى أنه كثيراً ما يرى العفريت بعد ذلك .

ويعتقد المصريون وبعض الشرقيين بوجود الغيلان أيضاً . ويحسبون أن هذه الكائنات طبقة من الشياطين . ويقال إنهم يظهرون فى أشكال الحيوانات والوحوش ، وأنهم يسكنون المقابر وغيرها من الأماكن المنعزلة ، وأنهم يأكلون الجثث ويقتلون من يوقعه سوء الحظ فى طريقهم ويلتهمونه . ومن هنا يطلق عبارة الغول على آكلى لحم البشر(١) .

لا يجوز عقلا أن تثير هذه الأوهام التى توجد فى أذهان شعب جاهل دهشتنا . ولكن المصريين لا يظهرون احتراماً خرافياً للكائنات الوهمية فحسب، وإنما يجاوزون ذلك إلى بعض أفراد من البشر مثلهم . وكثيراً ما يكون ذلك التقديس إلى أقل الناس استحقاقاً له(٢) . فيعتبرون الأبله أو المجنون مخلوقاً عقله فى السماء وجسده يختلط بالبشر . ويعدونه لذلك ولياً . ومهما ارتكب الولى المشهور من الخطايا (وكثيراً منهم يخالفون الدين) فهى لا تؤثر على قداسته ، إذ تعتبر نتيجة تجرد عقله من الأشياء الدنيوية. فروحه أو قواه العقلية كلها مستغرقة فى التقوى، ولذلك تترك شهواته بلا رقيب. ويحبس المجانين الخطرون، أما هؤلاء الذين لا خطر منهم فيعتبرون أولياء . وأكثر أولياء مصر المشهورين معتوهون أو بله أو خداعون . ويسير بعضهم عراة تقريباً، ويتمتعون باحترام زائد، بحيث أن النساء، بدلا من تجنبهم، يتكبدن أحياناً الكثير من تصرفاتهم الشاذة فى الطريق العام . ولا يشعر العامة بأى عار من هذه الأعمال التى يندر مع ذلك حدوثها . ويُرى آخرون لابسين مرقّعة مختلفة الألوان ، تسمى « دلق »(٣) ، وهو مزين بالخرز، ومعممين بعمة بالية ، وحاملين عصا فى أعلاها سبائب نسج مختلفة الألوان . ويأكل بعضهم التبن ، أو خليطاً من التبن والزجاج المكسر ،

---

(١) وكثيراً ما استمتعنا فى طفولتنا ، فى أوائل هذا القرن ، بتلك (الحواديت) المليئة بالعفاريت والغيلان ، التى كانت تحدثنا بها مربيتنا (الدادا) ، فرسبت فى نفوس الكثير منا رهبة غامضة من المجهول. وقد بطلت هذه العادة ، فلم يعد يسرد مثل هذه القصص الخرافية على الأجيال اللاحقة . (المترجم)

(٢) كما هو الحال أيضاً فى سويسرا .

(٣) وتنطق أيضاً وعلى الأصح « دلق » (بفتح الدال وكسر اللام) إلا أن العامة ينطقونها كما سبق . (المؤلف)

دلق (بفتح الدال وتسكين اللام) كلمة فارسية تعنى: كساء للدراويش مرقع . جبة صوفية يلبسها الصوفيون . (المترجم)

ويلفتون النظر بأعمال غريبة مختلفة . وكثيراً ما قابلت، أثناء زيارتى الأولى ، فى شوارع القاهرة ، رجلا زرى الشكل عارى الجسم تقريباً ، مضفر الشعر طويله ، راكباً حماراً يقوده رجل آخر . فيوقف دائماً حماره أمامى مباشرة بحيث يقطع علىّ الطريق ، ويقرأ الفاتحة ، ثم يمد يده للسؤال . وقد حاولت أن أتجنبه فى أول مرة ، إلا أن أحد المارين حذرنى ملاحظاً أن الرجل ولى ، وأن علىّ أن أحترمه وأن أمنحه ما يريد حتى لا تصيبنى مصيبة . ويتعيش رجال هذه الطبقة على الصدقات التى كثيراً ما يتناولونها دون سؤال . ويسمى القديس المشهور « شيخ » أو « مرابط » أو « ولى » ، ويسمى أيضاً ، على الأصح ، إذا كان به بله أو جنون أو خبل ، « مجذوب » أو « مسلوب » . وتطلق عبارة « ولى » بدقة على القديس التقى السامى فقط ، ومعناها المختار . إلا أنها تطلق عامة على البُله أو المتباهين ، حتى أن بعض الأذكياء جعلوا لفظ الولى معادلا للفظ « بليد » ، ملاحظين أن تينك العبارتين متساويتا المعنى والقيمة العددية للحروف المكونة لكل منهما . إذ أن « ولى » مكونة من الواو واللام والياء ، وقيمة كل على التوالى ٦، ٣٠، ١٠ أى ٤٦ ، و « بليد » مكونة من الباء واللام والياء والدال ، وهى على التوالى ٢ ، ٣٠ ، ١٠ ، ٤، ومجموعها ٤٦ . وكثيراً ما يسمى الغبى ولياً للدعابة .

ويعتقد مسلمو مصر وغيرها من البلدان اعتقادات باطلة عجيبة بالأولياء . وقد حاولت أن أستفهم عن أكثر هذه الاعتقادات غموضاً، فكان الرد علىّ : « أنك تتدخل فى أمور (الطريقة) » ، أى منهج الدراويش الدينى . إلا أننى وقفت على كثير من الآراء العامة فى هذه الموضوعات . وأظن أن ذلك هو كل ما يطلب تقريره فى كتاب مثل هذا . وسأسرد مع ذلك أقوال بعض المتعلمين والدراويش فيما يتعلق ببيان إيمان العامة .

كل من يرتاب فى وجود الأولياء يُرمى بالمرموق. ويتلى للحكم عليه نص القرآن: « إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١) . ويعتبر هذا النص كافياً للدلالة على أن هناك طبقة من الأفراد متميزة على البشر العاديين . وقد يتساءل ، من هؤلاء الأشخاص أو ما حالهم ؟ والرد على ذلك ، أنهم أشخاص قصروا أنفسهم على عبادة الله واحتفظوا بإيمان صادق ، ومنّ الله عليهم بالقدرة على فعل الكرامات تبعاً لقوة إيمانهم(٢) .

---

(١) سورة يونس ، آية ٦٢ .
(٢) ويسمى ما يقوم به الولى من عجائب « كرامة » وما يأتيه الرسول « معجزة » .

يسمى أقدس الأولياء « قطباً » . ويحمل هـذا اللقب ، على رأى بعضهم ، رجلان ، ويقول البعض الآخر أربعـة . وتعنى عبارة « قطب » محوراً ، ومن ثم أطلقت هذه الكلمة على الولى الذى يثق به الناس ويتبعونه . ويطلق هذا اللفظ للسبب نفسه على الحكام الزمنيين أو السـادة الأجـلاء وقد أخبرت أن الرأى القائل بأربعة أقطاب خطأ شائع ، وأصله توالى ذكر عبارة (الأقطاب الأربعة) التى تشير إلى مؤسسى أشهر الطرق الصوفيـة (الرفاعيـة والقادرية والأحمدية والبراهمة) ، ويُعتقـد أن كلاً من هؤلاء كان قطب زمانه . وقيل لى أيضاً أن الرأى القائل بقطبين خطأ عام ، أساسه إسمان: (قطب الحقيقة) و(قطب الغوث) : لا يختص بهما على الأصوب غير شخص واحـد فقط . ويطلق الذين يعتقـدون بوجود قطب واحد عليه عبارة (القطب المتولى) ، وهو الحاكم الآن ، ويطلقها الذين يعتقدون بوجود قطبين ، على القطب العامل . ويحكم القطب الذى يراقب الأولياء جميعهم (سواء أكان هناك قطب آخر أم لم يكن ، لأنه إذا وجد يكون دون الأول) أولياء متفاوتى الرتب يقومون بأعمـال مختلفـة ، مثـل النقباء والأنجاب والأبدال الخ . وهم وحـدهم يعرفون وظائف بعضهم بعضاً ، وقد يعرف ذلك الأولياء الآخرون .

ويقال إن القطب كثيراً مايظهر ، ولكنه لا يعرف ، وكذلك أتباعه ذوو السلطة. وهو يظهر دائماً متواضعاً رث الثياب . ولا يشتد فى مؤاخـذة من يخالف الدين أو يتظاهر بالتقوى . ومع أن القطب يختفى دائماً فان أماكن وجوده معروفة ، ولكنه قليلا ما يظهر فيها . والمعتقد أن القطب يكون فوق الكعبة . وهو يصيح مرتين فى جوف الليل قائلا : « يا أرحم الراحمين » ، فيردد المؤذنون حينئذ ذلك الدعاء من مآذن الكعبة . وقد سألت حاجاً فاضلا فى هذا الموضوع ، فأقر لى أنه رأى بعينيه إماماً مرتباً ليصيح هـذه الصيحة . ولا يعرف ذلك غير القليل من الحجاج . ويعتقـد مع ذلك أن سطح الكعبـة مركز القطب الرئيسى . ويفضل هذا المجهول الموقر مركزاً آخر بباب القاهرة المسمى باب زويلة ، وهو فى الطرف الجنوبى من ذلك القسم الذى يكون المدينة القديمة ، وإن كان فى قلب البلد الآن ، فقد امتدت العاصمة كثيراً نحو الجنـوب والغرب . ويسمى العـامة باب زويلة « المتولى »(١) لاعتقـادهم أنه مركز هـذا الكائن المجهول . ومن وراء أحد مصراعى الباب العظيم ، الذى لا يقفل أبداً ، فضاء صغير يقال إنه مكان القطب.

---

(١) عوضاً من باب المتولى .

ويقرأ الكثير من المارين الفاتحة . ويتصدق البعض على سائل يجلس هناك ، ويعتبره الرعاع أحد خدام القطب . ويدق المصابون بالصداع مسماراً فى الباب لفك السحر. كما أن المصابين بوجع الأسنان يخلعون سناً ويولجونها فى أحد شقوق الباب ، أو يلصقونها به بأى حال آخر ، حتى يضمنوا عدم إصابتهم بالمرض نفسه. وكثيراً ما يحاول بعض الفضوليين الاختباء وراء الباب ، آملين عبثاً اختلاس النظر إلى القطب ، لعله يظهر هناك . وللقطب فى مصر مراكز أخرى أقل شهرة. أحدها فى قبر السيد أحمد البدوى بطنطا ، والآخر فى مدينة المحلة وغيرها . ويعتقد أن القطب ينتقل من مكة إلى القاهرة أو من مكان إلى آخر فى لحظة. ولا يقتصر القطب على سكنى أماكنه العديدة المفضلة ، وإنما ينتقل فى أنحاء العالم ، بين جميع البشر من مختلف الأديان ، متخذاً شكلهم وملبسهم ولغتهم ، ويوزع عليهم بواسطة أتباعه الأولياء أحكام القدر نعماً ونقماً . وحينما يموت قطب يتولى غيره مكانه فى الحال .

ويروى الكثير من المسلمين أن إلياس ، ويخلطه العامة بالخضر(١) ، كان قطب زمانه ، وأنه يولى الأقطاب المتعاقبين ، إذ يقررون أنه لم يمت ، ويزعمون أنه شرب من عين الحياة . ويبدو أن اعتقادهم فى القطب مأخوذ مما قص علينا فى التوراة عن إلياس ورفعه إلى السماء ، وانطلاقه من مكان لآخر تحمله روح الله ، ومنحه أليشع سلطته الخارقة للعادة وتقليده إياه وظائفه ، وخضوع الرسل الآخرين له ولوليه المباشر(٢). وينبذ بعض الأولياء لذات الدنيا وصحبة الإنسان ،

---

(١) لم يكن الخضر ، حسب رأى العلماء ، رسولا ، وإنما كان رجلا صالحاً ، وزيراً لذى القرنين الأول ، الذى أخضع العالم لحكمه ، ومستشاره . ولكنه على حد سواء رجل ما يبس فى أمره معاصر لسيدنا إبراهيم ، ويقال إن الخضر شرب من ينبوع الحياة وهو لذلك حى حتى يوم الحساب ، وإنه يظهر كثيراً للمسلمين فى حيرتهم ، ويلبس الخضر الملابس الخضراء ، ومن ذلك اشتق اسمه . (المؤلف)

وقد اختلف العلماء فى الخضر ، فمنهم من يعتبره ولياً من أولياء الله ، ومنهم من يعتبره نبياً. وقد نسجت الأساطير نفسها حول حياته ووجوده ، فقيل إنه لا يزال حياً إلى يوم القيامة ، وهى قضية لم ترد بها نصوص أو آثار يوثق فيها ، فلا نقول فيها إلا أنه مات كما يموت عباد الله — الأنبياء . أحمد بهجت . ص ٢٧٣ . (المترجم)

(٢) أنظر سفر الملوك الأول الإصحاح ١٨ آية ١٢ والملوك الثانى الإصحاح الثانى ٩–١٦ .

« ويكون إذا انطلقت من عندك أن روح الرب يحملك إلى حيث لا أعلم فإذا أتيت وأخبرت أخاب ولم يجدك فانه يقتلنى » .

« ولما عبرا قال ايليا لأليشع أطلب ماذا أفعل لك قبل أن أوخذ منك . فقال اليشع ليكن نصيب اثنين من روحك على » ... »

ويعكفون على التأمل فى السماء، وينقطعون للصلاة متوكلين على العناية الإلهية لسد حاجاتهم إلا أن خلوتهم تعرف، فيحضر العرب الطعام لهم يومياً . وهذا يذكرنا مرة أخرى بقصة إلياس، إذا وضعنا ، كما يرى بعض الناقدين، كلمة (عربان) بدلا من لفظة (غربان) فى الآيتين الرابعة والسادسة من الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثانى(١) : « وقد أمرت (الغربان) أن تعولك » ، وكانت (الغربان) تأتى إليه بخبز » .

ويقال إن القطب يكلف بعض الأولياء القيام ببعض الأعمال الشاقة ، حسب قول محدثى ، ويقال لهؤلاء الأولياء (أصحاب الدرك) . وقد فسرت لى هذه العبارة (ولا أعلم على أى أساس) بمعنى المراقبين(٢). وقد حكى لى الحكاية التالية لبيان وظائف هؤلاء: اشتدت رغبة أحد تجار المدينة الأتقياء فى أن يصير ولياً ، فتوجه إلى آخر ينتمى لهذه الطبقة المقدسة فتوسل إليه أن يساعده على التشرف بمقابلة القطب وبعد أن احتمل الطالب امتحاناً صارماً لمعرفة بواعثه، طلب منه أن يتوضأ مبكراً فى الصباح التالى ثم يقصد مسجد المؤيد، حيث يوجد بأحدى زواياه باب زويلة أو المتولى السابق ذكره ، فيقبض على أول من يراه خارجاً من الباب لهذا المسجد . وفعل الرجل ما قيل له . وكان أول من خرج رجل شيخ مهيب المنظر، ولكنه رث الثياب يلبس زعبوطاً من الصوف أسمر اللون ، وقد دل ذلك على أنه القطب . فقبل الطالب يده وتضرع إليه أن يقبله بين أصحاب الدرك . فقبل القطب التماسه بعد تردد طويل ثم قال : التزم القسم الذى يشمل الدرب الأحمر(٣) وما يجاوره » . وفى الحال وجد الطالب نفسه ولياً ، ولاحظ أنه يعرف أشياء تخفى على البشر العاديين ، إذ يقال إن الله يعلم الولى جميع الأسرار اللازم معرفتها . ويقال عادة إن الولى يعلم الغيب . ويبدو هذا مناقضاً لما نقرأه فى عدة مواضع من القرآن ، أنه لا يعلم الغيب غير الله . إلا أن المسلمين ، وهم قلما يرتبكون فى مناقشة ما ، يبينون أن عبارات القرآن يقصد بها معرفة الأسرار بمعناها المطلق ، وأن الله يطلع الأولياء على مثل هذه الأسرار كلما شاء ذلك .

---

(١) الصحيح هو : الملوك الأول . (المترجم)

(٢) ويوافق هذا التأويل تفسيراً ذكره كاترمير Quatremère لكلمة (درك) فى كتابه تاريخ السلاطين المماليك Histoire des Sultans Mamelouks الجزء الأول ص١٦٩ وقد استخرج هذا التفسير من مقابلة عدة عبارات جاءت بها هذه الكلمة .

(٣) وهو شارع يوصل من باب زويله إلى الجنوب الشرقى ويكون جزءاً من الشارع الكبير الذى يمتد إلى القلعة .

ولما تولى الولى السابق ذكره أعماله أخذ يتجول فى قسمه . فرأى بائع فول يبيع لحرفائه كالعادة ، فتناول حجراً وكسر بها قدر الفول . فقفز البائع إليه وتناول جريدة بالقرب منه وضرب الولى بها ضرباً مبرحاً . ولم يشكُ الولى ولم يصرخ وانصرف حين أذن له . وحاول بائع الفول بعد انصراف الرجل أن يلتقط بعض ما تناثر من القدر ، وكان قد بقى منها قطعة فى مكانها . فلما نظر فيها رأى ثعباناً ساماً ميتاً . فصاح مرتاعاً مما فعل : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! استغفر الله العظيم . ماذا فعلت ؟ هذا الرجل ولى وقد أتلف الفول الذى كاد يسمم حرفائى » . وجعل ينظر إلى كل مار طول هذا اليوم عسى أن يرى مرة أخرى الولى الذى أساء إليه ليستغفره . ولكنه لم يره لأن الولى كان مرضوض الجسم لا يستطيع أن يمشى . وفى اليوم التالى نهض الولى بالرغم من ورم أعضائه ، وأخذ يعرج خلال قسمه ، فكسر جرة لبن كبيرة فى دكان لا يبعد عن دكان بائع الفول كثيراً فعامله اللبان معاملة الفوال . وبينما كان يضربه ، أسرع بعض الناس إليه وأخبروه أن هذا الرجل الذى يضربه ولى ، ثم سردوا عليه قصة الحية التى كانت فى قدر الفول . وقالوا اذهب وانظر جرتك فسترى فيها شيئاً ساماً أو نجساً . ونظر الرجل فوجد فى بقية الجرة كلباً نافقاً . وفى اليوم الثالث سار الولى فى الدرب الأحمر يعرج على عصا متألماً ، فرأى خادماً يحمل على رأسه صينية عليها أطباق من اللحم والخضر والفاكهة ، أعدت لجماعة كانوا ذاهبين إلى النزهة فى الريف . فوضع الولى عصاه إذ ذاك بين رجلى الخادم فقلبه ، وتناثرت محتويات الأطباق فى الشارع . فأخذ الخادم يصب على الولى اللعنات ويضربه ضربا عنيفاً ، بالقدر الذى كان يتوقع أن يناله من سيده الغاضب . وتجمع الناس ، ولاحظ أحدهم كلباً يأكل من هذا الطعام ثم لم يلبث أن نفق . فسارع إلى منع الخادم من ضرب الرجل ، وأخبره بالحادث الذى أثبت ولايته . فجعل الخادم يعتذر للولى ويرجوه أن يصفح عنه . غير أن الرجل سئم وظيفته الجديدة فابتهل إلى الله وإلى القطب أن يعفى منها وأجيب إلى توسلاته واستردت قدرته الخارقة للعادة . فعاد إلى دكانه وهو أسعد من قبل .

هذه القصة يتقبلها القاهريون كأنها حقيقة ، ومن ثم أدرجتها هنا . لأننا عند الكلام على الخرافات نواجه الآراء أكثر مما نواجه الأفعال . ولست متأكدا أن القصة جميعها كاذبة . فقد يكون هذا الولى المزعوم قد استخدم من يدخل الثعبان أو الكلب فى الوعاءين اللذين كسرهما . وقد قيل لى إن أكثر من واحد قد اشتهر بالولاية بمثل هذه الحيل .

وفى مصر أولياء كثيرون يتقشفون تقشف النساك الهنود . وفى القاهرة الآن ولى طوّق عنقه بالحديد ، وشد نفسه إلى أحد جدران غرفته ، وظل على ذلك ثلاثين عاما ، كما يقال . ويزعم البعض أن هذا الولى كثيرا ما شوهد متدثراً كالنائم بملاءة، ثم بعد ذلك مباشرة تزاح الملاءة عنه ، فلا يجدونه تحتها . ويذكر هذه القصص ويؤمن بها قوم يتمتعون بالعقل الرشيد ، والضحك من هذه القصص أو عدم تصديقها يثير السخط الشديد . وقد حكى لى أخيراً أن ولياً قطع رأسه لجرم لم يرتكبه ، فتكلم بعد فصل رأسه عن جسده (١) وأن آخر حز عنقه فى أحوال مشابهة ، فخط دمه على الأرض إعلان براءته : أنا ولى من أولياء الله وقد مت شهيداً .

وهناك ظاهرة غريبة فى خلق المصريين وغيرهم من الشرقيين ، وهى أن المسلمين والمسيحيين واليهود يتخذون خرافات بعضهم بعضاً ، وبينما يمقتون العقائد الأصلية(٢) . وقد يستخدم المسلمون عند المرض قسس النصارى واليهود للدعاء لهم . وكذلك النصارى واليهود يدعون الأولياء المسلمين للغرض نفسه . ومن المألوف أن ترى المسيحيين يترددون على الأولياء ، فيقبلون أياديهم ويسألونهم الدعاء والنصح ، ويجزلون لهم المال والعطايا .

وينسب المسلمون إلى الرسول معجزات كثيرة لايقرها الاسلام. وهم يقولون إن هناك معجزات كثيرة لا تزال تتم إكراماً للنبى وشاهداً على رعاية الله له . ويروى الحجاج الذين زاروا المدينة أنهم يرون كل ليلة شعاعاً من النور الكامد يشع من قبة القبر النبوى إلى ارتفاع هائل ، إلا أن الشعاع يختفى عن الناظر عندما يقترب من القبر(٣) . وهذه معجزة من أكثر المعجزات اعتباراً ويروون أنها تشاهد للآن . وقد سألت أحد أصدقائى الحصفاء عن صحة هذا الزعم ، فأيده وجزم أنه كان يرى الشعاع كل ليلة مدة إقامته بالمدينة. وقال : إن ذلك دليل على رضا الله وإكرامه لسيدنا محمد . ولم أجرؤ أن أستفهم عن حقيقة ما يزعم رؤيته بعينه ، ولا الإشارة إلى أن أكثر الأنوار التى تضاء فى المسجد كل ليلة قد تحدث ذلك الأثر . غير أنى سألت صديقى أن يصف لى بناء القبر وقبته الخ،

---

(١) مثل رأس الحكيم « دوبان » فى قصص ألف ليلة وليلة .

(٢) وهى قائمة للآن ، فيشعل المسلم شمعة فى كنيسة مارجرجس بمصر القديمة ، أو سانت (القديسة) تريز بشبرا ، ويوزع المسيحى الفول النابت عند مسجد السيدة زينب ، وفاءاً لنذر . (المترجم)

(٣) يقال أيضاً أن هناك ظواهر مشابهة أقل بهاء تميز بعض قبور المدينة وغيرها .

فأجاب أنه لايدخل الضريح ولا الكعبة لاضطراب أعصابه، نتيجة لإعظامه هذه الأماكن المقدسة وخاصة قبر الرسول الذى يؤثر فيه تأثيراً شديداً ، ولأنه حنفى المذهب ، لايليق به أن يسير فوق هذه الأرض المقدسة ويتعرض كل حين لمكاره المشى حافياً . ومن ثم كان عليه فى هذه الحالة أن يلبس خفاً داخل الحذاء الخارجى وهذا ما لايقدر عليه . ويزعم الحجاج أيضاً أنهم يرون دائماً، على مسير ثلاثة أيام من المدينة، نوراً فى اتجاه المدينة المقدسة، ويعتقدون أنه ينبعث من قبر الرسول . ويقولون إنهم حيثما يتجهون يشاهدون هذا النور تجاه المدينة . ولهذه الروايات جمال يؤثر فى النفوس .

ويحمل المسلمون ، وبخاصة المصريون(١) ، على اختلاف مذاهبهم ، ما خلا الوهابيين ، للأولياء المتوفين احتراماً وتقديساً لا سند لها فى القرآن أو الأحاديث ، أكثر مما يحملون للأحياء منهم . ويشيدون فوق أغلب قبور الأولياء المشهورين مساجد كبيرة جميلة . وينصبون فوق قبور من هم أقل منهم شهرة (من هؤلاء الذين ذاع صيتهم ، اورع صادق أو كاذب ، بأنهم من الأولياء أو الشيوخ الأتقياء) بناء صغيراً مبيضاً بالكلس ومتوجاً بقبة . ويقام فوق القبر مباشرة نصب مستطيل من الحجر أو القراميد ، يسمى « تركيبة » ، أو من الخشب ، ويسمى « تابوتاً » . ويغطى النصب عادة بالحرير أو الكتان المطرز ببعض الآيات القرآنية ويحيط به قضبان أو ستر من الخشب ، يسمى « مقصورة » . وأكثر أضرحة الأولياء فى مصر مدافن ، إلا أن أكثرها يحتوى على آثار قليلة لهم ، وبعضها ليست إلا قبوراً فارغة أقيمت تذكاراً للميت . وأكثر هذه المقامات قدسية مقام الحسين ، إذ يقال إن رأس الحسين الشهيد مدفون به . ومنها أيضاً ، وهى دون الأول قدسية ، مسجد السيدة زينب ، ومسجد السيدة نفيسة ، ومسجد الإمام الشافعى الذى ينتمى إلى مذهبه أكثر القاهريين . وتوجد هذه الأبنية السابقة ، ما خلا الآخرين ، داخل العاصمة . أما مسجد السيدة نفيسة فهو فى إحدى الضواحى الجنوبية ، ومسجد الإمام الشافعى فى المقبرة الجنوبية الكبيرة .

---

(١) ويوجد عادات خرافية كثيرة ، يراعونها فى الكثير من أعمالهم العادية ، نتيجة لاحترامهم المفرط للرسول وللأولياء على العموم . كأن يقولون عادة عند إضاءة المصباح ، فى الدكان خاصة : « أذكر محمداً ولا تنس فضائل على ، الفاتحة للرسول ولكل ولى » . ثم يقرأون الفاتحة . ويقولون عادة عندما يرون الهلال الرؤية الأولى: «اللهم صل على سيدنا محمد، اللهم اجعلك شهراً مباركاً ».وعندما ينظرون أنفسهم فى المرآة: « اللهم بارك فى سيدنا محمد». وإذ كان هذا القول يصدر إبطالا للحسد،فالظاهر أن العربى يخشى أثر نظرة إعجابه بنفسه أيضاً.

ويزور المصريون هذه الأضرحة وغيرها أحياناً، إما إجلالا للميت ، وقياماً بأعمال تستحق الثواب لأجل هؤلاء المكرمين ، معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات ، وإما بقصد التماس البرء من مرض أو طلب النسل، مقتنعين أن فضائل الميت تكفل قبول دعواتهم قبولا مرضياً . ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله، ويقدمون لهم النذور . ويحيي الزائر عند وصوله الضريح الميت بالسلام ، ويسلم عليه أيضاً عند دخوله المدفن . ولكنى أعتقد أنه قلما تراعى هذه العادة الأخيرة . ويواجه الزائر رأس الميت ، ومن ثم يولى القبلة ظهره. ويطوف حول المقصورة من اليسار إلى اليمين ، ثم يقرأ الفاتحة بصوت لا يسمع أمام باب المقصورة أو أمام جوانبها الأربعة . وقد يتلو بعد ذلك سورة أطول من الفاتحة ، كما قد يتلو فى هذه الحالة (خاتمة) . ويقرأ هذه الأدعية لأجل الولى وإن كان يعتقد أيضاً أن الأجر ينعكس على الزائر الذى يتلو الصلاة . ويختم الزائر ذلك عادة بقوله : « سبح بربك رب العزة ، منزهاً مما يعزونه [أى الكفار] إليه تعالى (من أن يلد أو يكون له شريكاً) . والسلام على الرسل والحمد لله رب العالمين. اللهم إنى وهبت ماقرأت من القرآن الكريم إلى من نذر له هذا المكان» أو « إلى روح هذا الولى » . ويبقى ثواب ماقرىء للقارىء وحده إذا لم يبين ماسبق أو لم يقصده . ويبتهل الزائر بعد تلاوة هذا إلى الله لاستدرار النعم فيقول عادة : « اللهم أتوسل إليك بالرسول وبمن وقف له هذا المكان أن تهبنى هذه النعمة وتلك الأخرى » أو « حملى على الله وعليك يا من كُرِّس لك هذا المكان » . ويواجه البعض وهو يفعل ذلك جانباً من جوانب المقصورة . ويقال إن اللائق أن يواجه الإنسان المقصورة والقبلة ، ولكنى أعتقد أن القاعدة نفسها تراعى فى هذه الحالة كما تراعى فى السلام . وتوضع اليدان أثناء ذلك وضع الابتهال الخاص عقب الصلاة العادية ، ثم تسحبان بعد ذلك على الوجه . ويقبل الكثير من الزائرين عتبة باب المقام وجدرانه ونوافذه ومقصورته الخ . إلا أن الشديد المحافظة يستقبح هذا لاعتباره تقليداً لعادة مسيحية . ويوزع الأغنياء والميسورون عند زيارتهم قبور الأولياء المال أو الخبز على الفقراء . وكثيراً ما يمنحون السقائين نقوداً ليفرقوا الماء على الفقير والظمآن إكراماً للولى(١). وهناك أيام خاصة فى الأسبوع لزيارة بعض الأضرحة . فيزور الرجال مسجد الحسين على الأكثر يوم الثلاثاء ، والنساء يوم السبت . ويزورون مسجد السيدة زينب يوم الأربعاء ، ومسجد الإمام الشافعى يوم الجمعة . والعادة فى هذه الحالات أن يحمل الرجال معهم آساً يضعون بعضه

(١) أنظر الكلام على السقائين فى الفصل الرابع عشر .

على النصب أو فوق الأرضية داخل المقصورة ، ويأخذون الباقى ثانية لتوزيعه على الأصدقاء . ويضع الفقير أحياناً خوصاً ، كما يفعل أغلب الناس على قبور الأصدقاء والأقارب . وتضع نساء القاهرة بدل الآس والخوص ورداً وزهوراً وياسميناً الخ .

لا تكاد القرية المصرية تخلو من ضريح ولى يزوره الكثيرون ، ولا سيما النساء ، فى يوم خاص من الأسبوع . ويحمل بعض النساء إلى هنالك خبزاً للعابرين الفقراء وغيرهم . ويضع بعضهم أيضاً قطعاً نقدية صغيرة فوق القبر ، تقدمة للشيخ أو صدقة لأجله. وقد اعتاد الفلاحون كذلك أن ينذروا لأوليائهم ذبائح . مثال ذلك أن ينذر الرجل للشيخ فلان (المتوفى) ماعزاً أو ضأناً إذا أبل من مرض أو أنجب ولداً أو بلغ مراماً ، فيضحى بالذبيحة عند قبر الشيخ ، إذا قضى حاجته . ويولم بلحم النذر للفقراء . وثواب ذلك يبقى للولى . وكثيراً ما ينذر الجداء الصغيرة لتذبح فى المستقبل ، فيشرم أذنها اليمنى أو يعلمها بعلامة ما . وليس من النادر أن ينذر الفلاح نذراً لا يبتغى منه شيئاً غير البركة . وقد ينذر أحياناً عجلا يذبحه حين يكبر ويسمن. فيترك العجل طليقاً يرعى برضاء الجيران فى كل مكان ، حتى حقول القمح . ثم يذبح العجل ويؤدب بلحمه مأدبة عامة. وكثيراً ما ذبحت ثيران كبيرة بهذه الطريقة .

يكرم كل ولى مشهور تقريباً بالاحتفال بمولده . فيزور الناس قبره فى ذلك اليوم تبركاً ، ويستأجرون الفقهاء لتلاوة القرآن على روح الولى . ويقوم الدراويش بالذكر . ويعلق من يسكن بجوار الضريح مصابيح أمام أبوابهم ، ويقضون نصف ليلهم فى التدخين واحتساء القهوة والاستماع إلى رواة القصص فى المقاهى أو تلاوة القرآن والأذكار. وأمام بابى الآن عدة مصابيح علقت احتفالا بمولد شيخ يجاور ضريحه المنزل الذى أسكنه . وكثيراً ما يعلق المسيحيون المصريون كذلك المصابيح فى مثل تلك الأحوال . وتستمر هذه الأعياد بضعة أيام غالباً . وأشهر موالد القاهرة بعد المولد النبوى مولدا الحسين والسيدة زينب ، وقد وصفتهما فى فصل لاحق من الأعياد الدورية العامة فى مصر . ولا يواصل أكثر المصريين زيارة قبور الأولياء المشهورين للتبرك فحسب ، وإنما يواصلونها خشية نزول المصائب بهم إذا قصروا فى ذلك . وهكذا يقاسى الآن أحد معارفى مرضاً يعزوه إلى إهماله حضور مولد السيد أحمد البدوى فى العامين الأخيرين ، وقد جاء أوان الاحتفال بأحد موالده . ويكاد ضريح هذا الولى يجتذب زائرين

من العاصمة وأنحاء مصر السفلى أثناء الموالد السنوية الكبيرة بقدر ما تجتذب مكة حجاجاً من أنحاء العالم. ويقام للسيد البدوى ثلاثة موالد سنوية إكراماً له. ويقام أحدها حوالى اليوم العاشر من شهر طوبه (١٧ أو ١٨ يناير)، والثانى فى الاعتدال الربيعى(١) أو نحو ذلك، والثالث وهو المولد الكبير يقام بعد الإنقلاب الصيفى بشهر تقريباً (أو حوالى منتصف شهر أبيب)، عندما يزيد ارتفاع النيل ولم تقطع السدود بعد. ويستمر كل مولد ثمانية أيام، فيبدأ يوم جمعة وينتهى بعد ظهر الجمعة التالية. وتقام فى كل ليلة ألعاب نارية. ويحتفل بمولد السيد إبراهيم الدسوقى، بعد كل الموالد السابقة بأسبوع، فى دسوق على الضفة الشرقية من فرع النيل الغربى. وكان السيد إبراهيم ولياً ذائع الصيت يلى السيد البدوى فى الشهرة. وتعتبر موالد السيد البدوى والسيد إبراهيم الدسوقى أسواقاً عامة فضلا عن كونها أعياداً دينية. ويقيم أكثر زائرى مولد السيد إبراهيم فى مراكبهم. ويعرض بعض دراويش السعدية من أهل رشيد ألعابهم بالثعابين، ويحمل بعض هؤلاء ثعابين شد فمها بحلقة فضية وقاية من لدغها، ويأكل آخرون بعض هذه الثعابين حية. ولا يزيد الاحتفال الدينى فى الموالد جميعاً على إقامة الذكر (٢) وتلاوة القرآن. وقد جرت العادة أن يقوم المسلمون، كما كان يفعل اليهود، بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها وتغطية التركيبة أو التابوت أحياناً بغطاء جديد. وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعل اليهود (٣)

يكثر الدراويش فى مصر كثرة عظيمة. ويحترم المصريون، وخاصة الطبقات السفلى، هؤلاء الذين يعكفون على الرياضة الدينية ويعيشون على الصدقة، احتراماً كبيراً. ويستخدم بعض الدراويش الحيل المختلفة للاشتهار بقداسة فائقة وقدرة القيام بالكرامات. ويعتبر الكثير منهم أولياء.

ويحمل من ينحدر مباشرة من ذرية أبى بكر، أول الخلفاء، لقب «الشيخ البكرى»، ويعتبر ممثل ذلك الخليفة، ويسيطر على جميع طوائف الدراويش بمصر. ويعتبر الشيخ البكرى الحالى، وهو أيضا من سلالة النبى، نقيب الأشراف. ولعمر، ثانى الخلفاء، أيضا ممثل هو «شيخ العنانية» أو «أولاد عنان»، وهم طائفة من الدراويش سموا هكذا باسم «ابن عنان» أحد شيوخهم

(١) ويسمى (شمس الكبيرة).

(٢) سأصف الذكر وصفاً تاماً فى فصل آخر عن الأعياد الدورية العامة.

(٣) أنظر إنجيل متى ٢٣/٢٩ : ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين.

المشهورين . وليس لعثمان ممثل ، إذ أنه لم يترك خلفاً . ويسمى خليفة علىّ « شيخ السادات »(١) أو شيخ السادة ، أو الأشراف ، وهو لقب دون لقب « نقيب الأشراف » . ويُدعى كل شيخ من هؤلاء الثلاثة صاحب « سجادة » سلفه العظيم . وكذلك شيخ الطائفة من طوائف الدراويش يسمى صاحب « سجادة » مؤسس الطائفة . وتعتبر السجادة العرش الروحي . وفى مصر أربع سجاجيد كبيرة . وهى لتلك الطوائف الكبيرة التى سأذكرها الآن .

أشهر طوائف الدراويش فى مصر ما يأتى :

أولا : طائفة (الرفاعية) . أسسها السيد أحمد الرفاعى الكبير . وأعلام الرفاعية وعمائمهم سوداء ، وقد تكون العمائم من الصوف الحالك الزرقة أو الموصلى القاتم الخضرة . ويشتهر دراويش الرفاعية بأعمالهم العجيبة (٢) . ويدّعى (العلوانية) أو (أولاد علوان) ،وهم فرقة من الرفاعية بأنهم يغرزون المسامير الحديدية فى أعينهم وأجسامهم دون أن يقاسوا ألماً . والظاهر أنهم يفعلون ذلك بطريقة تخدع من يصدق مثل هذه الأعمال . وهم يحطمون أيضاً على صدورهم كتلا من الحجارة ويبتلعون الجمر والزجاج . ويقال إنهم يخترقون أجسامهم بالسيوف ، ويخدبهم بالمسلات دون ألم أو جرح . غير أنه قلما تشاهد هذه الألعاب الآن . وكانت العادة كما أخبرت أن يقوم الدرويش بتجويف قطعة من جذع النخل ويحشوها بخرق غمست فى الزيت والقطران ويشعلها ، ثم يحمل هذا الجسم الملتهب تحت ذراعه فى موكب دينى وليس على جسده غير سروال فينبعث اللهب على صدره وظهره ورأسه ولا يبدى ألماً . و (السعدية) فرقة أخرى من الرفاعية أشهر من الأولى أسسها الشيخ سعدالدين الجباوى . وأعلامها وعمائم أعضائها خضراء ، وقد تكون العمائم قاتمة . ويوجد فى هذه الطائفة دراويش يمسكون الثعابين السامة والعقارب بلا خوف ، ويلتهمون بعضها . إلا أنهم ينزعون أنياب الثعابين حتى يأمنوا شرها . ولاشك أنهم يعدمون العقارب سمها أيضاً . ويركب شيخ السعدية فى بعض المناسبات كمولد النبى حصاناً ويسير به على أجسام بعض دراويشه وغيرهم وهم راقدون على الأرض . ويقرر جميعهم أن وطء الحصان لم يؤذهم (٣) ويسمى هذا الموكب « الدوسة » . ويعيش الكثير من دراويش الرفاعية والسعدية على

---

(١) ويسمى خطأ الشيخ السادات .

(٢) ويعتبر دراويش مصر أقل مهارة من الهنود فى ألعاب الشعوذة .

(٣) سأصف هذا وغيره من أعمال الدراويش وصفاً كاملا فى الفصول المتعلقة بالأعياد الدورية العامة .

إخراج الثعابين من البيوت . وسأتكلم عن براعة هؤلاء المشعوذين فى فصل آخر .

ثانياً : (القادرية) . أسسها السيد عبد القادر الجيلانى النبيه الذكر . وبيارق القادرية وعمائمهم بيضاء . وأغلبهم صيادون ، فيحملون فى المواكب الدينية شباكاً مختلفة الألوان يرفعونها على دعائم تمييزاً لطائفتهم .

ثالثاً : (الأحمدية) . وهم طائفة السيد أحمد البدوى . وهذه الطائفة كثيرة العدد ومحل الاحترام . وراياتهم وعمائمهم حمراء . وتعتبر (البيومية) ، ومؤسسها السيد على البيومى ، و(الشعراوية) ، ومؤسسها الشيخ الشعراوى(١) ، و(الشناوية) ، ومؤسسها السيد على الشناوى ، والكثير غيرها ، فرقاً من الأحمدية . ويشترك الشناوية فى اليوم الأخير من مولد شفيعهم الكبير السيد أحمد البدوى فى طنطا بنصيب غريب ، إذ يجرون حماراً فى ذلك اليوم ويتركونه يدخل المسجد من تلقاء نفسه . فاذا دنا من الضريح حيث يحتشد الجماهير ، نتف كل من استطاع بعضاً من شعره كتعويذة ، حتى يصبح جلد الحيوان المسكين عارياً كراحة اليد . وهناك فرقة أحمدية أخرى ، تسمى (أولاد نوح) ، كلها شبان يلبسون « طراطير » تعلوها شرابة من قطع الجوخ المختلف الألوان ، ويحملون سيوفاً خشبية وسياطاً من الحبال السميكة المجدولة ، المسماة « فرقلة » ، ويلبسون عدة عقود من الخرز .

رابعاً : (البراهمة) أو (البرهامية) وهم طائفة السيد إبراهيم الدسوقى الذى سبق الكلام عن مولده . وأعلامهم وعمائمهم خضراء . — وهناك فرق أخرى ينتمى بعضها إلى الطوائف السابقة . ومن أشهرها (الحفناوية) و(العفيفية) و(الدمرداشية) و(النقشبندية) و(البكرية) و(الليثية) .

والإلمام بكل عقائد الدراويش وقوانينهم وشعائرهم مستحيل ، إذ أن أكثرها مثل عقائد الماسونية ، لا تذاع على غير المطلعين على أسرارها . وقد وصف لى درويش أعرفه كيف أخذ « العهد » ، أى ميثاق التعريف بالسر ، وهو يكاد يكون واحداً عند الطوائف جميعها . استقبل شيخ الدمرداشية صاحبى هذا ، فتوضأ أمامه وجلس على الأرض . ثم ضم كل من الشيخ والمريد يده اليمنى إلى يد الآخر بالطريقة السابق وصفها عند عقد الزواج . وبهذه الحالة واليدان

---

(١) تنطق هكذا بدلا من الشعرانى .

مغطاتان بكم الشيخ أخذ المريد العهد مردداً وراء الشيخ هذا الكلام التالى بادئاً بالتوبة: « أستغفر الله العظيم (ثلاث مرات) الذى لا إله إلا هو الحى القيوم. أتوب اليه وأستغفره وأسأله النجاة من النار » . ثم يسأله الشيخ هل يتوب إلى الله ؟ فيجيب المريد أنه يتوب إلى الله ، ويرجع إلى الله ، وأنه نادم على ما ارتكب من المعاصى ، ويقرر أنه لا يعود إلى غيه. ثم يردد بعد الشيخ أنه يستخير الله العظيم والرسول الكريم ، وأنه يولى عليه السيد عبد الرحيم الدمرداش الخلوتى الرفاعى النبوى ، محتذياً مثال شيخه ومرشده إلى الله تبارك اسمه وتعالى ، وأنه لا يحيد عن تعاليم الطريقة ولا ينفصل عنها ، ويشهد الله على ذلك مقسماً بالله العظيم ثلاث مرات . ثم يقرأ الشيخ ومريده الفاتحة معاً . ويختم المريد الحفل بتقبيل يد الشيخ .

وتقوم أعمال الدراويش الدينية على الذكر خاصة. فيصيحون أو ينشدون ، واقفين فى حلقة مستديرة أو مستطيلة ، أو فى صفين متقابلين ، أو جالسين : « لا إله إلا الله » أو « الله الله الله » ، أو يرددون أدعية أخرى ، ويكررونها حتى تخور قواهم . وهم أثناء ذلك يحركون الرأس أو الجسم جميعه أو الذراعين. ويستطيعون لدأبهم على ذلك أن يواصلوا هذه الحركة بلا انقطاع مدة تثير الدهشة. وكثيراً ما يصحبهم ، من وقت لآخر ، عازف أو أكثر على « النـاى » أو على « الأرغول » ، وآخرون ينشدون القصائد الدينية . ويستخدم بعض الدراويش أثناء الذكر طبلا صغيراً يسمى « بازاً »(١) أو دفاً . ويقوم البعض الآخر برقص غريب سأصفه مع أشكال مختلفة للذكر فى فصول قادمة .

هناك شعائر درويشية كأشكال الدعاء ، وطرق الذكر الخ ، لا يراعيها غير طوائف خاصة . كما توجد شعائر أخرى تقوم بها الطوائف المختلفة . ونذكر من هذه طقوس (الخلوتية) و(الشاذلية) ، وهما فرقتان كبيرتان لكل منهما شيخ . والفارق الرئيسى بينهما أن لكل منهما أسلوبه الخاص فى الأدعية التى يرددونها صباح كل يوم ، وأن السابقين يتميزون عن الآخرين بالخلوة أحياناً ، ومن ثم سموا « خلوتية » . وهؤلاء يتلون دعاءهم قبل الفجر . ويسمى « ورد السَّحر » . أما دعاء الشاذلية ، فيقرأونه بعد الفجر ، ويسمى حزب « الشاذلى » . وقديما يعتكف الخلوتى أربعين يوماً وليلة فى خلوته ، صائماً من بزوغ الفجر إلى غروب الشمس طول هذه المدة . ويعتكف جماعة منهم أحياناً فى خلوات مسجد الشيخ الدمرداش

(١) أنظر وصف هذه الآلات فى فصل الموسيقى .

شمال القاهرة ثلاثة أيام وليال بمناسبة مولد هذا الولى، ولا يتناولون أثناء ذلك غير قليل من الأرز وكوبة من الشراب عند المساء . ويشغلون أنفسهم بقراءة أدعية لا يعرفها غيرهم . ولا يخرجون من الخلوة إلا للصلاة جماعة فى المسجد ، ولا يجيبون أبداً من يكلمهم إلا بقولهم : « لا إله إلا الله » . ويتبع هذا النظام تقريباً أولئك الذين يعتكفون مدة الأربعين يوماً فيقضون الوقت مرددين الشهادة سائلين العفو حامدين الله .

يكاد دراويش مصر جميعهم أن يكونوا تجاراً أو صناعاً أو مزارعين . وهم لا يحضرون طقوس بعضهم إلا مصادفة . غير أن بعضهم لا عمل له غير الذكر فى الموالد والحفلات الخاصة والإنشاد فى الجنازات . ويطلق على هؤلاء لفظ « فقير » . ومعنى ذلك المعوز عامة ، إلا أنه يطلق على الأتقياء المساكين خاصة . ويعتاش البعض من تقديم الماء إلى المارة فى شوارع القاهرة وزوار الأعياد الدينية . فيحملون الماء على ظهورهم فى أباريق من الفخار أو من جلد الماعز . والقليل منهم يسلكون حياة التجول ، ويعيشون على الصدقات بلجاجة ووقاحة شديدتين . وبعض هؤلاء يميزون أنفسهم على طريقة الأولياء المشهورين بلبس « الدلق » أى السترة المرقعة ، وحمل العصا المعلق فى أعلاها قطع النسج المختلفة الألوان . ويلبس البعض الآخر ملابس غريبة مختلفة الألوان .

ويتخذ بعض الرفاعية ممن لا يحترفون إخراج الثعابين من المنازل ، حياة التجول فى بلاد القطر مستفيدين من خرافة مضحكة أذكرها الآن. كان سى(١) داود العزب وهو ولى مبجل من بلدة تفاهنة(٢) فى الوجه البحرى يملك عجلا يقوم على خدمته . فتعود بعض الرفاعية منذ وفاته تربية العجول فى بلدة هذا الولى أو مدفنه وتمرينها على صعود السلم والاضطجاع عندما تؤمر بذلك، ثم يذهب كل منهم وعجله متجولا فى البلاد لجمع الصدقات . ويسمى العجل « عجل العزب » . وقد دعوت مرة أحد هؤلاء الدراويش إلى منزلى . وكان العجل ، وهو الوحيد الذى رأيته ، جاموساً يتدلى منه جرسان ، أحدهما فى طوق حول عنقه ، والآخر فى حزام حول جسمه . وقد صعد السلم جيداً ، إلا أنه أظهر ضعف مرانه

---

(١) « سى » اختصار عامى لكلمة « سيدى » (بكسر السين) المختصرة من « سيدى » (بفتح السين وتشديد الياء) .
(٢) اسمها بلدة « تفهنا العزب » بمركز زفتى مديرية الغربية . (المترجم)

من كل الوجوه . ويعتقد العامة أن عجل العزب يجلب إلى المنزل بركة الولى الذى سمى هذا الحيوان باسمه .

وفى مصر دراويش جوالة من الترك والفرس(١) ، وإلى هؤلاء الدراويش تنسب صفة اللجاجة والوقاحة أكثر مما تنسب إلى القلائل من المصريين الذين يعيشون معيشتهم . ويحدث كثيراً فى شهر رمضان خاصة أن يذهب درويش أجنبى إلى مسجد الحسين ، الذى يتردد إليه كثير من الترك والفرس ، وقت صلاة الجمعة فيمر بين المصلين،عندما يخطب الخطيب،ويضع أمام كل امرىء قصاصة من الورق كتب عليها بعض كلمات تحث على الصدقة . وبهذه الطريقة يتناول من المصلين كلهم أو غالبهم قطعاً من ذوات الخمسة فضة أو العشرة فضة أو أكثر . ويحمل الكثير من دراويش الفرس فى مصر ملعقة خشبية ، وطاسة مستطيلة من جوز الهند أو من الخشب أو من المعدن ؛ حيث يتناولون الصدقات ويضعون الطعام . ويلبس أغلب دراويش الأجانب ملابس خاصة تبعاً لطوائفهم وأهم ما يميزهم لباس الرأس ، وأكثر أنواعه شيوعاً ما صنع من اللبد على شكل قالب السكر المخروطى . وتتكون ملابسهم الأخرى من صدرية وسروال واسع أو آخر ضيق أو قميص وحزام ، وعباءة غليظة . ويتظاهر الفرس هنا بأنهم سنيون . ويعتبر الأتراك أكثر الطائفتين إزعاجاً ولجاجة .

وأذكر هنا خرافة أخرى هى اعتقاد المصريين والعرب عامة بأن للطيور والحيوانات لغة تتفاهم بها وتسبح بحمد الله .

---

(١) لم يعد لهؤلاء وجود فى مصر اليوم . (المترجم)

الفصل الحادى عشر

تابع الخـــرافات

ومن أهم المميزات فى خرافات المصريين المحدثين اعتقادهم بالتمائم والأحجبة التى يستند أكثرها على السحر. ويشتغل بكتابة هذه التعاويذ أحياناً جميع معلمى الكتاتيب القروية تقريبـاً. على أنه قلما يدرس من يقوم بهذا العمـل شيئاً من السحر أكثر من الحصول على بعض صيغ من الأحجبة، يتألف معظمها عادة من آيات قرآنيـة وأسماء الله مع أسماء الملائكة والجن والرسـل أو الأولياء المشهورين، يختلط بها تركيبـات عددية وأشكال هنـدسية. ويتوهم الناس أن ذلك كله له خاصية خفية عظيمة.

وأكثر الأحجبة اعتباراً مصاحف القرآن. وقد جرت العادة أن يحمل أتراك الطبقتين الوسطى والعليا، وغيرهم من المسلمين، مصحفاً صغيراً فى غلاف من الجلد المزركش أو المخمل يعلقونه على الجـانب الأيمن بخيط من الحرير يمر فوق الكتف الأيسر. غير أن هذه العـادة لم تعد شـائعة كثيراً. وقد لاحظت أثناء زيارتى الأولى أنه قلما يرى تركى فاضـل من السلك الحربى لا يحمل الغلاف السابق ذكره، مع أنه كثيراً ما لا يحوى حجاباً. ولا يزال النساء يحملن المصحف وغيره من الأحجبـة، فيضعنها فى أغلفـة من الذهب أو الفضـة المذهبة أو الساذجة(١). ويعزو المسلمون إلى المصحف وأكثر الأحجبة قوة كبيرة، ويعتبرونها حافظة من المرض والسحر والحسد وغير ذلك من البلايا. وهناك كتاب أو دَرج يجىء بعد المصـحف مكانة به سور قرآنيـة تكون فى العادة سبعاً، كسوَر: الأنعام والكهف ويس والدخان والرحمن والملك والنبأ أو غيرها.

ويوجد حجـاب آخر يوضع عادة داخل غطـاء الرأس، ويعتقد أنه يقى حامله من الشيطان ومن كل روح شريرة ويؤمنه من الخوف. وهذا الحجاب

---

(١) لا تزال تلك العادة سارية. فيحمل النساء اليوم مصحفاً دقيقاً يعلقنه إلى العنق فى علبة صغيرة، من الذهب أو من الفضـة المذهبة أو الساذجة، بسلسلة من المعـدن نفسه. ويعمد الموسرات إلى إضـافة كلمة (الله) مرصعـة بألماس فوق غلاف العلبة. وجرت العادة أيضاً عند الشباب من الذكور أن يعلقوا، بالطريقة نفسها، آية الكرسى منقوشة على صفحة معدنية رقيقة تطلى بالميناء الزرقاء، أو تكون من الذهب أو من الفضـة المذهبة أو السـاذجة. وأغلب هؤلاء، ذكوراً وإناثاً، يفعلون ذلك بقصد الزينة أكثر مما يكون بدافع التقى. أما المسيحيون، رجالا ونساء، فيعلقون صليباً ذهبياً صغيراً.
ويكتفى الفقراء بحمل الأحجبة عندما يشعرون بالحاجة إليها. (المترجم)

قطعة ورق كتبت عليها الآيات التالية(١) : « ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » (سورة البقرة آية ٢٥٥) . فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين » (سورة يوسف آية ٦٤) . يحفظونه من أمر الله » (سورة الرعد آية ١١) . « وحفظناها من كلِّ شيطان رجيم » (سورة الحجر آية ١٧) . « وحفظاً من كلِّ شيطان مارد » . (سورة الصافات آية ٧) . « وحفظاً ذلك تقديرُ العزيز العليم » (سورة فصلت آية ١٢) . « والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآنٌ مجيد ، فى لوح محفوظ » . (سورة البروج الآيات ٢٠ ، ٢١، ٢٢) . وكثيراً ما تكتب أسماء الله التسعة والتسعين فى ورقة يحملها الشخص ، فتجعله كما يعتقد محلا خاصاً لرعاية هذه الصفات الكريمة جميعها . ويعتقد كذلك أن كتابة أسماء الرسول التسعة والتسعين على أى شىء ، وترديد قراءتها جميعاً ، تكون حجاباً ، كما روى الإمام على عن النبي ، يبعد كل مصيبة ووباء ، ويحفظ من الضعف والحسد والسحر والحريق والدمار والقلق والحزن والضيق . ويضيف المسلم ، بعد ذكر كل من هذه الأسماء ، قوله : اللهم صل وسلم عليه(٢) . وتنسب مثل هذه الخصائص إلى حجاب يتضمن أسماء أصحاب الكهف واسم كلبهم(٣) . وتنقش هذه الأسماء أحياناً فى قاع طاسات الشراب : وغالباً على صينية الطعام المستديرة من النحاس المبيض . وهناك حجاب آخر يظن أن له تأثيراً مماثلا .

ويتألف هذا الحجاب من أسماء مخلفات النبي ، وهى تتألف من سبحتين ومصحف ، فى أجزاء غير مرتبة ، ومكحلة وسجادتين ورحى وعصاً ومسواك وحلة(٤) والأبريق

---

(١) وتسمى « آيات الحفظ » .

(٢) كتب إلىَّ أحد الأصدقاء ، وكان أستاذى ، قبل أن أترك منزلى بالقاهرة للعودة إلى إنجلترا ، على قصاصة ورق : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ثم قطعها نصفين وأعطانى النصف المكتوب عليه ، محمد رسول الله : ثم أخفى النصف الآخر فى أعلى دولاب صغير فى غرفة الجلوس المعتادة ، وذلك لضمان عودتى إلى القاهرة ثانية ، إذ يعتقد أن الشهادة لا يمكن أن تبقى ناقصة ، فيعيدنى هكذا دوام الاحتفاظ بالنصف الآخر إلى النصف السابق . (المؤلف)

لا تزال هذه العادة سارية إلى الآن . (المترجم)

(٣) يقال إن هؤلاء كانوا فتية من نصارى أفسس Ephesus * لجأوا إلى كهف هرباً من اضطهاد الإمبراطور دقيوس Decius ** فناموا هناك تحت حراسة كلبهم مدة ٣٠٠ سنة شمسية أو ٣٠٩ قمرية . (أنظر سورة الكهف ، آية ١٨) .

* أفسس : مدينة قديمة من مدن أيونيا فى آسيا الصغرى . كان بها معبد أرتميس إحدى عجائب الدنيا السبع . وكانت فيما بعد مدينة مسيحية ذات شأن . وقد زارها القديس بولس .

** دقيوس : امبراطور رومانى من ٢٤٩ إلى ٢٥١ . كان عنيفاً فى اضطهاد المسيحيين . (المترجم)

(٤) يحتفظ فى مسجد الغورى بالقاهرة بقميص يقال إن النبى كان يلبسه . وقد صر هذا القميص فى شال كشميرى ولا يعرض اخير الظاهر .

الذى كان يستعمله النبي للوضوء ، ونعل وبردة(١) وثلاث حصر ودرع ورداء طويل من الصوف ، وبغله الأبيض (الدلدل) وناقته (العضباء) . وتكتب أيضاً بعض الآيات القرآنية على قصاصات من الورق يحمله الناس وقاية من الشرور واستشفاءً واكتساباً للحب والصداقة الخ . ويحمل الكثير من المصريين المحدثين ، رجالا ونساء وأطفالا ، هذه الأحجبة وغيرها فى أغلفة من الذهب أو الفضة أو القصدير أو الجلد أو الحرير الخ .

ومن الشائع أن ترى الأطفال المصريين يحملون أحجبة ضد الحسد(٢) داخل غلاف مثلث الشكل(٣) ، يعلق فى أعلى غطاء الرأس. وكثيراً ما يعلق على الجياد معلقات مماثلة . ويتقى المصريون الحسد بشتى الاحتياطات ، ويسعون قلقين لدفع نتائجه الوهمية عنهم . وقد يعبر البعض عن إعجابه بشىء إعجاباً يعتبر غير لائق ، فيعنفه من أزعجه هـذا بقوله : « صل على النبى » فاذا امتثل الحاسد وقال : « اللهم صل عليه » لايخشى شره . ومن غير اللائق أيضاً أن يعبر الشخص عن إعجابه بآخر أو بأى شىء لا يملكه بقوله : « ياسلام(٤) » أو « ما أجمله » . ويستحسن فى مثل هـذه الأحوال أن يقول : « ما شاء الله » ، التى تشير إلى الإعجاب والخضوع لإرادة الله أو الرضا بها . وكثيراً ما يكون الأجدر بالمبدى

---

(١) البردة التى يلبسها فلاحو مصر قطعة مستطيلة من الصوف السميك تشبه الحرام فيما عدا اللون ، إذ تكون على العموم سمراء أو قهباء . ويبدو أنها كانت فى الأزمنة الأولى مخططة دائماً . إلا أن بعض البرد الحديثة ساذج والبعض الآخر به خطوط متقاربة جداً بحيث تبدو للناظر القريب أنها ذات لون واحد . وتوصف بردة النبى أنها كانت حوالى سبع أقدام ونصف طولا ، وأربع ونصف عرضاً . وكان يستعملها كما تستعمل الآن للبسها نهاراً والتغطية ليلا . قد يغتفر لى أن ألفت النظر هنا (ويبدو أن المهتمين بالدراسات العربية يجهلون ذلك) إلى أن لفظى (أخضر) و (أحمر) ، اللذين يصف بهما المؤرخون بردة الرسول ، يستعملان عادة بمعنى (رمادى) و (أسمر) .

(٢) تبين هذه الخرافة عادات كثيرة كانت تبدو خلافاً لذلك غامضة .

(٣) من الملاحظ أن شعوب البحر الأبيض المتوسط يستعملون منذ القدم أشياء أو رسوماً ، تشبه العين إلى حد ما ، طلسماً يدفعون به شر العين . ومن ثم يمكننا أن نستنتج أن تلك الشعوب تستخدم تلك الأشياء بسبب هذا التشابه .

ويستخدم المثلث أيضاً ، وكثيراً ما يرمز إلى العين بهذا الشكل ، كحرز فى بلاد البحر الأبيض والجزيرة العربية والهند . ويذكر أحد الرحالة فى القرن السابع عشر L.D'Arvieux فى كتاب Travels in Arabia the Desert أن الأتراك والعرب كانوا يستخدمون الأحجبة المكتوبة يطوونها على شكل مثلث ويضعونها داخل كيس جلدى بالشكل ذاته ، ويعلقونها إلى أعناق الجياد اتقاء شر الحاسدين . أنظر وسترمارك الفصل الثانى . (المترجم)

(٤) أو « يا سلام سلم » ، ولفظة السلام من أسماء الله .

إعجابه أن يقول ما شاء الله ويصلى على الرسول. وقد بينت فى الفصل الثانى من هذا الكتاب خوف نساء مصر من أثر الحسد على أولادهن . والعادة فى هذا البلد أن يقول من يحمل ولد غيره بين ذراعيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صل على سيدنا محمد » ، ثم يقول : « ماشاء الله » . وقائع أيضاً أن يقول المصرى عندما يبدى إعجابه بصبى : « أعوذ برب الفاق لأجلك » ، مشيراً إلى سورة الفلق التى تنتهى بالتعوذ من شر الحسد . وقد ينظر بعض الناس إلى طفل ، أو يلوح أنه يحسده ، فيعمد الوالدان أحياناً إلى قطعة من أطراف ملابسه ، فيحرقانها مع قليل من الملح . ويضيف البعض إلى ذلك الكزبرة وحجر الشب الخ ، ويبخران الطفل بالدخان ويذران عليه الرماد . ويجب عمل هذا على ما يقال قبيل الغروب عندما يحمر قرص الشمس .

ويستعمل المصريون الشب كثيراً لمنع أثر الحسد ، فيضعون على الجمر قبيل الغروب قطعة منه بحجم الجوزة تقريباً حتى تنقطع عن الفوران . ويتلو من يقوم بهذا العمل، أثناء احتراق الشب، الفاتحة والسور الثلاث الأخيرة ثلاث مرات. ويبدو كما قيل أن الشب عندما ترفع من النار تتخذ شكل الحاسد . ثم يسحقها ويمزجها بقليل من الطعام يرميه إلى كلب أسود ليأكله . وقد شاهدت هذه العملية يقوم بها رجل ظن أن امرأته نظرت إليه نظرة حاسدة . وقد اتخذت قطعة الشب وقتئذ شكلا يشبه شكل النساء كثيراً ، فقرر الرجل أنه وضع خاص تعودت عليه امرأته . إلا أن الشكل الذى يتشكل به الشب يكاد يتوقف على ترتيب الجمر . ومن الصعب أن يكون هذا الشكل بحيث لا يرى فيه الخيال بعض الشبه بالإنسان . وهناك طريقة أخرى يتوهم الناس أنها تدفع تأثير الحسد ، وهى أن توخز قطعة من الورق بابرة ، ويقول الواخز هذه عين فلان الحاسد ، ثم تحرق الورقة . ويعتبر الشب حجاباً ناجعاً ضد الحسد . وقد يعلق الناس أحياناً قطعة من حجر الشب مسطوحة ومزينة بشراريب فى أعلى غطاء رأس الطفل . وتستعمل الأصداف والخرز بالطريقة نفسها وللغرض نفسه . وهناك أصداف صغيرة تعتبر واقية من الحسد خاصة ، وتعلق لذلك الغرض وللزينة فى عدد الجمال والجياد وغيرها من الحيوان وعلى غطاء رأس الأطفال أحياناً .

ولا شك أن هذه المعلقات يقصد بها جذب العين ، فتمنعها من رؤية الشيء المراد حفظه من الحسد .

يستعمل كثير من المصريين، والنساء غالباً، « الميعة المباركة » لإبطال الحسد . والميعة مزيج من عقاقير مختلفة ستذكر فيما بعد، وتجهز وتباع في الأيام العشرة الأولى من شهر محرم فقط. وكثيراً ما نرى حينئذ بائعي الميعة يتجولون في شوارع القاهرة صائحين: يا بركة عاشورا(١) المبارك ، أبرك السنين على المؤمنين يا ميعة مباركة » . ويحمل بائع الميعة فوق رأسه صينية مستديرة يغطيها بقصاصات من الورق المختلف الألوان، ويصع عليها المزيج الثمين. ويتوسط الصينية كوم كبير من ثقل مادة قاتمة الحمرة تستعمل للصبغة؛ وتمزج بقليل من الميعة(٢) والكزبرة والحبة السوداء(٣) . ويحيط بالكوم الكبير أكوام أصغر ، أولها من الملح الملون أزرق بالنيلج ، وثانيها من الملح الملون الأحمر، وثالثها من الملون الأصفر ، ورابعها من الشيح ، وخامسها من تراب اللبان . وتلك هي مواد الميعة المباركة. ويدعو المشترون عادة البائع داخل المنازل، فيضع الصينية أمامه، ويتناول صحناً أو قطعة ورق حيث يضع من الميعة بقدر رغبة المشترى . فيأخذ من كل صنف قليلا، ويضيف إليه مقداراً آخر المرة بعد المرة منشداً أثناء ذلك دوراً طويلا يبدأ هكذا: « باسم الله وبالله، ولا غالب إلا الله، رب المشارق والمغارب، كلنا عبيده، يلزمنا توحيده، وتوحيده جلاله ». وبعد أن يثني على فضائل الملح يقول: « أرقيك من عين البنت، أحمى من الخشت، ومن عين المره، أحمى من الشرشرة، ومن عين الولد، أحمى من الزرد ، ومن عين الراجل، أحد من المناجل .. الخ » . ثم يروى كيف أبطل سليمان حسد العين ، ويعدد بعد ذلك الأمتعة التي لا يخلو منها المنزل على الأرجح فيرقيها جميعاً من الحسد(٤). وأكثر عبارات هذه الرقية مضحكة جداً، إذ هي ألفاظ أدخلت للسجع فقط . ويحتفظ المشترى بالميعة المباركة ، التي تباع الحفنة منها بخمسة فضة ، طول العام التالي . فيحرق قليلا منها كلما خشى حسد العين بحيث يتصاعد الدخان إلى المحسود .

جرت العادة عند طبقات القاهرة العليا والوسطى ، أن يعلقوا، في احتفالهم بالعرس، القناديل في الطريق أمام منزل العريس(٥) . وكثيراً ما يحتشد الجمهور

---

(١) هذا هو اسم اليوم العاشر من محرم .

(٢) الميعة صمغ عطر يسيل من شجرة (أصطرك Styrax officinalis) ويتطيب به . (المترجم)

(٣) أو حبة البركة .

(٤) اختفى بائع الميعة المباركة من شوارع الأحياء القديمة تقريباً في الوقت الحاضر . (المترجم)

(٥) وجرت العادة حديثاً أن تزين واجهة منزل العرس بالأنوار الكهربائية في ألوان مختلفة . (المترجم)

حول قنديل كبير جميل لمشاهدته، فالعادة حينئذ أن يلهوا المشاهدين بكسر جرة كبيرة، أو بحيلة أخرى حتى لا تسبب عين حاسد سقوط القنديل. وكثيراً ما تحدث حوادث تؤيد إيمان المصريين بخرافاتهم المتعلقة بالحسد. ومثل ذلك ما رواه صديق لى: من مدة قصيرة رأى جملا يحمل جرتى زيت كبيرتين فصاحت امرأة أمام الجمل: يا سلام! يا لها من جرتين عظيمتين! ولم يقل الجمال: صل على النبى، فلم يلبث الجمل أن سقط وكسرت رجله وكسرت الجرتان. وقد أخبرنى أحد أصدقائى القاهريين بشكوى أسردها هنا توضيحاً لما قررت. قال صديقى: «لما عدل الباشا عن احتكار بيع اللحم منذ أيام أصبح الجزارون يذبحون الحيوانات ويبيعونها فى حوانيتهم. ومن المزعج تماماً أن ترى الخروف الجميل معلقاً أمام عين الجمهور كاملا بأليته(١) وأعضائه، فيشتهيه كل سائر يمر بجانبه فكأنما يتناول المرء سماً» وقد شكا إلىّ طباخى الشكوى نفسها، فكان يفضل أن يكلف نفسه مشقة الذهاب إلى دكان جزار لا يعرض اللحم على أنظار المارة ولو كان بعيداً(٢).

يضع الكثير من تجار العاصمة، وغيرها من المدن المصرية، على واجهة حوانيتهم ورقة كتب عليها اسم الله أو اسم الرسول أو الإسمان معاً أو الشهادة أو البسملة أو حديث نبوى أو آية قرآنية مثل: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» (سورة الفتح الآية الأولى) «نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين» (سورة الصف آية ١٣) أو ابتهال إلى الله مثل «يا فتاح يا عليم يا رزاق كريم». وكثيراً ما ينطق التاجر بهذا الابتهال عندما يشرع فى فتح حانوته صباحاً، وكذلك الباعة المتجولون كبائعى السلع الصغيرة والخبز والخضر الخ. عندما يخرجون لجولاتهم اليومية. والعادة أيضاً أن يضع الرجل من الطبقة السفلى أول نقد يتناوله على شفته وجبهته ثم فى جيبه(٣).

---

(١) يعتبر دهن الألية لذيذاً.

(٢) لم يذكر المؤلف إحدى الطرق المهمة لمنع الحسد، وهو «خمسة وخميسة» وتكون برفع اليد إلى وجه الحاسد. وتصنع أحجبة على شكل اليد لذلك الغرض، وتعرف عند الأجانب باسم (يد فاطمة).

ويجد القارىء فى الكتب التالية أبحاثاً وافية عن الحسد ومراجع وافرة:
للأستاذ (المرحوم) شارل بشتلى، فى Notes sur quelques amulettes égyptiennes
Bulletin de la Société de Géographie. d' Egypte T. 17
و Jean Marques Riviere فى Payot-Amulettes, Talismans et Pantacles
و Westermarck فى كتابه المشار إليه سابقاً. (المترجم)

(٣) لا تزال هذه العادة منتشرة. (المترجم)

وكثيراً ما نرى فى القاهرة غير الكتابات التى تعلق على الحوانيت، هذا الدعاء « يا ألله » ينقش على أبواب الدور الخاصة ، والعبارتين : « الخلاق هو الباقى » أو « هو الخلاق الباقى » ترسمان بأحرف كبيرة على الباب ، كحرز وتذكرة لرب الدار أنه بشر يتوفاه الله(١) . وكثيراً ما تكتب هذه الكلمات على الدار إذا كان صاحبه السابق أو أغلب سكانه السابقين أو جميعهم قد توفوا .

إن أفضل الوسائل لإبعاد العلل والأمراض كتابة آيات من القرآن(٢) فى وعاء من الفخار يصب فيه قليل من الماء، ويرج حتى تزول الكتابة، ثم يشرب المريض الماء المنقوع فيه هذا الكلام المقدس ، وهو ما يلى : « ويشف صدور قوم مؤمنين » (سورة التوبة آية ١٤) . « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور » (سورة يونس آية ٥٧) « فيه شفاء للناس » (سورة النحل آية ٦٩) « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » (سورة الإسراء آية ٨٢) . « وإذا مرضت فهو يشفين » (سورة الشعراء آية ٨٠) . « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » (سورة فصلت آية ٤٤) . ومن هذه الآيات أربع لا تشير إلى أمراض الجسم وإن استعملت لذلك ، بل تشير إلى أمراض العقل . وتشير الآية الثالثة إلى فضائل العسل . وقد سألت شيخى أن يبين لى موضع هذه الآيات من القرآن فرجانى عندئذ ألا أترجمها بلغتى ، لأن ترجمة القرآن بغير ذكر النص الأصلى محرمة، لا لأنه خجل من جريان العادة باستعمال هذا الكلام طلسماً فكره أن يعرف مواطنى ذلك . وقد أوضح لى اعتقاده التام فى تأثير هذه الآيات حتى على المريض الكافر وأظهر ثقته التامة بقوتها . وقال ملاحظاً : « إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال : لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير(٣) . وقد هدأت وسواسه فى ذلك الأمر الخاص بترجمة الآيات باخباره أن القرآن ترجمة إنجليزية .

ويعطى المريض أحياناً لشفاء الأمراض وإزالة أثر السموم ، جرعة ماء فى طاس معدنى نقش بداخله آيات قرآنية ورسوم وأشكال طلسمية . وقد أهدى

---

(١) أنظر الباب المنقوش فى مقدمة الكتاب .
(٢) وتسمى آيات الشفاء .
(٣) وبقية الحديث النبوى : تغدو خماصاً وتروح بطاناً . (المترجم)

إلى أخيراً فى القاهرة طاسة(١) مثل هذه أعجب بها أصدقائى المسلمون كثيراً . وينقش أيضاً خارج الطاسة كتابات تعدد فضائلها ، وتشير إلى خواصها من إبطال السموم والحسد وشفاء الأمراض والعلل ما عدا مرض الموت(٢) . وقد رأيت هنا طاسة أخرى كالسابق وصفها تماماً ، غير أن نقوشها زالت قليلا . ويعتقد أن أسرار القرآن » كثيرة جداً . وفى ذات يوم رفضت أن أتناول طعاماً خشية الضرر ، فنصحت بقراءة سورة قريش إلى آخر « الذى أطعمهم من جوع » وأن أردد هذه العبارة الأخيرة ثلاث مرات . وقد زعم لى أن فى هذا وقاية أكيدة من كل سوء أخشاه .

هناك أشياء مختلفة يعدها المسلمون كالأحجبة ، مثل تراب القبر النبوى وماء زمزم المقدس وستار الكعبة الأسود(٣) . ويقدر المسلمون ماء زمزم كثيراً لأنه يرش على الأكفان . وسمعنى أعرابى ، كنت أعطيته فى الصعيد أثناء زيارتى الأولى لمصر دواء أفاده ، أسأل عن قليل من ماء زمزم ، إذ أن الكثير من المراكب الغاصة بالحجاج العائدين من مكة كانت نازلة فى مجرى النيل . وربما ظن الرجل لسؤالى هذا أننى مسلم تقى ، ومن ثم منحنى ما كنت أحاول الحصول عليه ليعبر عن امتنانه . فذهب إلى منزل صديق له ، وعاد إلى مركبى حاملا ربطة صغيرة فتحها أمامى قائلا : ها هى ذى أشياء أعرف أنك ستقدرها تقديراً عظيماً . ها هما علبتان من القصدير ملآنتان بماء زمزم ، إحداهما لك تحتفظ بها لترشها على كفنك . وهذا سواك غمس فى ماء زمزم ، فتقبله منى ، ونظف به أسنانك فلن تؤلمك ولن تتلف أبداً » . وأضاف قائلا : (وهو يظهر لى ثلاث كعكات من التراب الأشهب صغيرة مستطيلة مسطحة طول كل منها قيراط تقريباً وقد طبع عليها : باسم الله : تراب من أرضنا ، بريق بعضنا) « وهذه صنعت من تراب فوق قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد اشتريتها بنفسى عند عودتى من الحج ، وإنى أعطيك إحداها ؛ وستجد فيها شفاء من كل داء ، وسأحتفظ بالثانية لى ، أما الثالثة فنأكلها معاً » . وعلى ذلك كسر إحدى الكعكات نصفين وأكل كل منا نصيبه . وقد وافقته على أنها لذيذة وقبلت هداياه مسروراً . وقد أمكننى فيما بعد أن أزيد ما عندى من تحف عن مكة ،

(١) أهداها إلى السيد روبرت هاى Robert Hay. وقد ابتاعها من أحد فلاحى مدينة طيبة .

(٢) الاسم المعروف هو : طاسة الخضة . ومن أشكال هذه الطاسة ما يشبه السابق وصفه عاليه ويضاف إليه حول حافة الطاسة قطع معدنية رقيقة . (المترجم)

(٣) يعلق على الكعبة سنوياً ستار جديد فى اليوم الأول من عيد الأضحى الذى يتبع الحج مباشرة . ويقطع الستار القديم قطعاً يباع أكثرها إلى الحجاج .

ومن ذلك قطعة من ستار الكعبة أحضرها الشيخ إبراهيم(١) (بركهارت) من مكة وأعطانى إياها وريثه عثمان(٢). وتوضع الكعكة أحياناً فى غلاف من الجلد وتحمل كتعويذة . وتصنع أحياناً أقراصاً على شكل الكمثرى الصغيرة وبحجمها، وتعلق على الستر المحيط بمقام الأولياء أو على المقام ذاته أو على نوافذ المقام أو بابه.

والأحجبة التى يستعملها المصريون لجلب السعادة أو منع الشقاء كثيرة ، والعادات الخرافية التى يمارسونها لهذه الأغراض مختلفة بحيث لا يكفى لوصفها مفصلة مجلد كبير . وتسمى هذه الأساليب التى لا يكون أساسها الدين أو السحر أو التنجيم « علم الركة » ، أو علم المغزل ، إشارة إلى سخافتها ، ولأن النساء يعتمدن عليها غالباً(٣) . ويعتبر البعض هذه الكلمة تحريفاً عامياً لعبارة « علم الرقية » أى علم السحر ، ويرى البعض الآخر أنها حلت محل العبارة الأخيرة بطريق التورية . وقد ذكرت عرضاً بعض العادات مما وصفته ، وسأذكر بعض أمثلة أخرى .

من الشائع كثيراً أن يعلق القاهريون عود الند فوق أبواب المنازل الجديدة خاصة ، ويعتبر هذا حجاباً يكفل للسكان عمراً مديداً وحياة سعيدة وللمنزل

---

(١) يوحنا لدفيج بركهارت رحالة ومستشرق سويسرى (١٧٨٤ — ١٨١٧) رحل إلى سوريا ومصر ، وأسلم ، أو ادعى الإسلام ، للحصول على معلومات أوفى عن الحياة فى الشرق ، وتسمى باسم ابراهيم بن عبد الله . وحج إلى مكة ، فكان أول أوربى أو مسيحى يدخل الأراضى المقدسة . توفى بالقاهرة ودفن فيها . وله عدة مؤلفات منها: رحلات إلى النوبة. رحلات إلى سوريا والأرض المقدسة . الأمثال العربية أو عادات المصريين المحدثين وشمائلهم . (المترجم)

(٢) يجد القارىء بياناً عنه فى الفصل التالى . (المترجم)

(٣) « إن الركة فى اصطلاح النساء العجائز قطعة من الخشب ينفض عليها الكتان ، وكانت هذه العملية تعهد إلى النساء فكن يجتمعن للقيام بما فرضه عليهن أزواجهن أو سادتهن من الأعمال ، فتدور المحادثة بينهن على الافتخار بنجاح (وصفه) جربتها إحداهن لبنت من بناتها ، ومن هنا نسبة هذه الوصفات للركه » .

أنظر كتاب طب الركه تأليف عبد الرحمن إسماعيل طبع بالقاهرة ١٣١٠ — ١٣١٢ هجرية « باسم مؤتمر المستشرقين العاشر الذى سيلتئم فى مدينة جنيفا فى سبتمبر سنة ١٨٩٤ ». وقد ظهر فى جزءين ولم يطبع الثالث .

وقد ترجم هذا الكتاب القيم إلى الإنجليزية : Folk Medicine in Modern Egypt By John Walker. London 1934 (المترجم)

بقاء طويلا(١) . ويعتقد النساء أيضاً أن الرسول يزور المنزل الذى يعلق فيه هذا النبات ويبقى العود معلقاً هكذا بدون طين أو ماء سنوات عديدة ، ويزهر أيضاً . وقد سمى لذلك « صبْراً » ، بمعنى الجلَد ، وعلى الأصح « صبَّارة » ، إذ أن كلمة « صبر » بتسكين الباء ، من صبر بكسر الباء ، تطلق عامة على العصير(٢) .

وجرت العادة عندما يخشى شر إنسان أن يكسر خلف ظهره وعاء من الفخار . ويفعل هذا أيضاً لقطع كل علاقة أخرى مع مثل هذا الشخص(٣) .

ويعمد الجهلاء فى مصر ، حيث ينتشر الرمد ، إلى الكثير من العادات الخرافية المضحكة لمعالجة هذا المرض . فيأخذ البعض قطعة طين من جسر النيل عند بولاق أو بالقرب منها ، ثم يعبرون النيل ويضعون القطعة على الجسر الآخر عند امبابه ، وحسبهم هذا لضمان الشفاء . ويعلق آخرون للغرض ذاته فى غطاء الرأس فوق الجبهة أو العين المريضة قطعة ذهبية (بندق) ذات وصف خاص متقابلة النقشين(٤) . غير أنه يعتقد أن دخول المرء ، حاملا فى جيبه بندقياً أو ريالا على المريض بالرمد أو بحمى مما يزيد المرض . والاعتقاد العام أيضاً أنه إذا دخل المرء جُنباً على مصاب بالرمد ، يشتد المرض عليه ، وتظهر نقطة فى إحدى عينيه أو فى كلتيهما . وأعرف رجلا أصيب بالرمد ، فحبس نفسه فى غرفته ثلاثة شهور مدة المرض خوفاً من ذلك ، فلم يسمح لأحد بالدخول عليه ، وكان خادمه يضع الطعام خارج الغرفة عند الباب . وأصيب مع ذلك بنقطة على إحدى عينيه(٥) .

---

(١) وقد روى أحد السياح أن هذا يكون فى منازل الحجاج فقط . ولكن الحال ليس كذلك على الأقل فى مصر . (المؤلف)

وهو أمر مألوف فى مصر . ومن الأشياء التى تلفت النظر فى البيوت القديمة وجود تمساح صغير محنط فوق أبوابها . (المترجم)

(٢) القاموس المحيط للفيروزابادى: الصبر (بفتح الصاد وكسر الباء) : عصارة شجر مر. (المترجم)

(٣) وقد اختفت العادة ، وبقى ضرب المثل بها ، كقولهم : اكسر وراءه قلة (حتى لا يعود) . (المترجم)

(٤) ويسمى هذا « بندق مشاهرة » . (المؤلف)

اشهرت المرأة : دخلت فى شهر ولادتها . (المنجد) . ولعل المقصود بهذه التسمية (مشاهرة) وصف هذا النوع من النقود الذى يجب أن تحمله الوالدة حتى لا تصاب بالعقم. أما كلمة (بندق) فاعتقد أنها تشير ما يسمى فى الفرنسية Séquin والاسبانية Cequí (من العربية: سكى ، بفتح السين أو كسرها وكسر الكاف المشددة ، وتعنى الدينار) وهو نقد ذهبى كان يستعمل قديماً فى الشرق وفى بعض الدويلات الإيطالية ، وقد يكون استعماله ساد فى مدينة البندقية ، فاشتهر النقد باسمها . (المترجم)

(٥) لم يعد المرء يرى مثل تلك العادات أو يسمع بها . ولكن هناك من لا يزال يعتقد أن دخول إنسان جنباً على امرأة والدة يصيرها عاقراً ، ويقال إنها (كيست) وكذلك الحال إذا دخل عليها من يحمل سمكاً أو لحماً » . وتتجنب ذلك بحمل البندق . (المترجم)

وكثيراً ما يقوم النساء بعادة أخرى شديدة الغرابة تتقزز منها النفس لعلاج الرمد وخاصة لمنع العقم . تعد ساحة الرميلة الكبرى غربى القلعة مسرحاً لإعدام المجرمين ، وكان فيما مضى يكاد يضرب عنق المحكوم عليهم بالإعدام فى العاصمة دائماً فى هذا المكان من المدينة . وجنوبى هذا المكان بناء يسمى « مغسل السلطان » ، حيث توضع جثة المضروب عنقه على مائدة حجرية لغسلها قبل الدفن . وتتجمع المياه فى حوض لا يفرَّغ أبداً ، فيظل ملوثاً بالدماء كريه الرائحة . فيذهب الكثير من النساء إلى ذلك المكان للبرء من الرمد أو للحصول على النسل أو لتعجيل الولادة فى حالة الحمل المتأخر . فتمر المرأة صامتة ، والصمت لازم إطلاقاً ، تحت المائدة الحجرية متقدمة بالقدم اليسرى ، ثم تمرّ فوق المائدة سبع مرات ، وتغسل بعد ذلك وجهها بالماء الدنس ، وتعطى كهلا وزوجه يلازمان هذا المكان خمس فضة أو عشرة ، ثم تنصرف وما زالت صامتة . وكثيراً ما يفعل ذلك المصابون بالرمد من الرجال. ويقال إن هذا المغسل بناه بيبرس الشهير قبل أن يصبح سلطاناً عندما لاحظ جثث المحكوم عليهم ترفس وتدفن دون أن تغسل . ويخطو بعض النساء جثة المعدم سبع مرات صامتات ليصبحن حبالى . ويغمس البعض الآخر ، مدفوعاً بالرغبة نفسها ، قطعة من القطن الزهر فى الدم ويستعملها فيما بعد بطريقة يجب ألا أذكرها(١) .

وهناك عادة مضحكة يمارسها المصريون لعلاج بثرة تظهر على حافة الجفن ، ويسمونها « شحاته » ، ومعنى هذه الكلمة الحرفى سائلة(٢) . فيذهب المصاب إلى سبع نساء تسمى كل منهن فاطمة فى سبعة بيوت مختلفة ، ويسأل كلاً منهن قطعة خبز . ويتكون الدواء من هذه القطع السبع . وأحياناً يخرج المصاب فى حالة مشابهة وللغرض نفسه قبل طلوع الشمس إلى المقابر ، ويدور حولها صامتاً من اليمين إلى اليسار بعكس الطريقة المعتادة. وهناك طريقة وهمية أخرى للعلاج ، وهى أن يثبت المصاب قطعة قطن على طرف عصا ، ثم يغمسها فى أحد الأحواض التى يشرب منها الكلاب فى شوارع القاهرة ، ويمسح العين بها. ويهتم المريض هكذا بوقاية يده من الماء الدنس عندما يوشك أن يضع منه على موضع آخر من جسمه(٣).

---

(١) لم يعد لتلك العادات ، القائمة على استخدام دم المحكوم عليهم بالإعدام ، وجود . وقد أصبح اعدام المجرمين يتم بالشنق داخل السجون . (المترجم)

(٢) وهى تحريف كلمة شحاذة .

(٣) ليس لهذا النوع من الأحواض وجود الآن . وكان يوجد فى بعض الأحياء القديمة أحواض لسقى الدواب إلى عهد غير بعيد ، ولكنى لم أسمع باستعمال مائها لمثل تلك العادة . (المترجم)

ويعلق بعض المصريات المسلمات فى رقابهن أصبعاً مجففة فصلت عن جثة مسيحى أو يهودى متوهمات أن ذلك يعالج الحمى المتقطعة (الملاريا)(١).وتدل هذه العادات دلالة تستحق الاعتبار على مفعول الخرافة المنحط وتأثيرها القوى على العقل ، إذ أن المسلمين على العموم يدققون فى مراعاة الفروض الدينية التى تأمرهم بالامتناع عن كل دنس أو قذر .

جرت العادة عندما يعجز الطفل عن المشى ، بعد أن يدرك السن المناسبة ، أن توثق أن قدميه بسعف تعقدها عقدات ثلاث وتضعه على باب مسجد أثناء صلاة الجمعة ، وتسأل بعد الصلاة أول الخارجين وثانيهم وثالثهم أن يحل كل عقدة من السعف : ثم تحمل الطفل إلى المنزل مؤمنة أن هذا العمل سوف ينتج الأثر المراد عاجلا(٢) .

من العقاقير من يزعمون أنه ترياق أو شاف لبعض الأمراض . وقد يكون لهذه الأدوية بعض التأثير ، ولكن الخرافة تنسب إليها فضائل لا تصدق . ويرى المصريون ، حتى غالبية المتعلمين والمهذبين، فى الخاصيات المفيدة أو المضرة لمختلف المواد النباتية والحيوانية أسخف الآراء ، إذ يؤيدها فى بعض الأحوال أحاديث تروى عن النبى ويدعمها اعتبار حكمائهم المشهورين . ويستعمل البادزهر(٣) ترياقاً بحكه مع قليل من الماء فى طاس تملأ بعد ذلك ويشربها المصاب. ويستعمل لذلك أيضاً وبالطريقة نفسها قدح من قرن الخرتيت يدعك بقطعة من المادة نفسها (القرن) . ويعالج الكثير من أهل القاهرة مرض اليرقان بالشرب من ماء « بئر اليرقان » . وهو بئر تمتلكه عجوز وتجنى منه فائدة كبيرة . فللبئر فوهتان ، أسفل إحداهما وعاء جاف للأشياء التى يقذف بها ، فتطلب العجوز ممن يرغب استعمال الماء الطبى أن يسقط خلال هذه الفوهة ما تحتاج إليه من سكر وبن الخ .

---

(١) ليس لهذه العادة أثر ، وخاصة أن أكثر الجهلاء أصبحوا يؤمنون بالطب الحديث ويلجأون إلى الأطباء . (المترجم)

(٢) لا يزال بعض عامة الشعب يقوم بهذه العادة . فتوثق الأم قدمى طفلها العاجز وتملأ حجره بالحمص وتذهب به إلى الجامع ، حيث تطلب من أول الخارجين أن يحل العقدة ويبعثر الحمص من حجر الطفل . (المترجم)

(٣) حجر البنزهير . (المؤلف)

الفارسيه باد زهر : ترياق . حجر يقاوم السموم . (المترجم)

يلجأ المسلمون إلى عادات خرافية شتى يستشيرونها عند التردد فى عمل ينتوون فعله أو تركه . فيستخدم البعض جدولا « يسمى « زائرجة » . وهناك جدول من هذا النوع ينسب إلى إدريس أو أخنوخ . ويقسم الجدول إلى مائة خانة صغيرة يكتب فى كل منهـا حرف . ويتلو من يستشير الجدول الفاتحة والآية التاسعة والخمسين من سورة الأنعام : « وعندهُ مفاتيحُ الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ثلاث مرات . ويضع بعد ذلك أصبعه على الجدول دون أن ينظر إليه ، ثم يعاين الحرف الذى يشير إليه أصبعه ويدونه ، ثم يدون الحرف الخامس اللاحق للأول ، فالخامس التابع للثانى ، وهكذا حتى يعود إلى الحرف الأول . ويكون من مجموع هذه الحروف الجواب(١) .

ويعمد البعض إلى القرآن لحل مشكلاتهم ، ويسمون هذا « استخارة » . فيرددون الفاتحة وسورة الإخلاص والآية السابقة ثلاثاً ، ثم يتركون المصحف يسقط مفتوحاً ، أو يفتحونه عرضاً ، ويستخرجون الجواب من السطر السابع فى الصفحة اليمنى . وكثيراً ما لا يحمل الكلام جواباً صريحاً ، إلا أنه يعتبر إيجابياً أو سلبياً حسبما يدل معناه على الخير أو الشر ، كأن يشير إلى وعد أو وعيد . ويعد البعض ، بدلا من قراءة السطر السابع ، عدد الحرفين الخاء والشين فى الصفحة كلها ، فاذا غلبت الخاءات كانت النتيجة مناسبة : فالخاء تمثل الخير والشين الشر .

هناك طريقة استخارة أخرى ، وهى أن يمسك المستخير حبتين من حبات السبحة بعد أن يتلو الفاتحة ثلاث مرات ، ثم يعد ما بينهما من الحبات قائلا عند الأولى : سبحان الله : وعند الثانية : الحمد لله ، والثالثة : لا إله إلا الله . ويردد هذه العبارات على التوالى حتى الحبة الأخيرة . فاذا وقعت العبارة الأولى على الحبة الأخيرة ، كان الجواب إيجابياً ومناسباً ، أما العبارة الثانية ، فلا تدل على شىء . والأخيرة نافية . ويمارس الكثيرون هذه الطريقة .

وكذلك يلتمس البعض عندما يرقدون ليلا ان يوجههم الله فى المنام ؛ فيجعلهم يرون شيئاً أبيض أو أخضر أو ماء ، إذا كان العمل المنتوى يستصوب ،

---

(١) أكثر الزائرجات استحساناً معقدة للغـاية . ويقتضى العمل بالزائرجة جملة حسابات فلكية معقدة .

أو إذا كانوا يتوقعون توفيقاً قريباً ، وإلا جعلهم يرون شيئاً أسـود أو أحمر أو ناراً . فيقرأون لذلك الفاتحـة عشر مرات ، ولا ينقطعون عن ترديد هـذه العبارة « اللهم صل على سيدنا محمد » حتى يغلبهم النعاس .

يؤمن المصريون بالأحلام إيماناً عظيماً ، وكثيراً ما ترشدهم الأحلام فى بعض أمور حياتهم المهمـة . ولديهم فى تفسير الأحـلام مؤلفان كبيران لإبن شاهين وابن سيرين ، والأخير تلميـذ السابق . ويستشير المصريون حتى المتعلمون منهم هذين الكتابين بثقة كاملة . وعندما يقول شخص لآخر : « لقد رأيت رؤيا » ، يجيبه الآخر « خير » ، أو « خير إن شاء الله » . وقد جرت العادة عنـدما يرى أحدهم رؤيا سيئة أن يقول : « اللهم صل على سيدنا محمد » . ويبصق من فوق كتفه اليسرى ثلاث مرات لمنع كل شر .

ويوجد فى مصر ، كما يوجد فى أكثر البلدان الأخرى ، خرافات تتعلق بأيام الأسبوع ، فيعتبر بعضها سعيداً والآخر نحساً . ويعتبر المصريون يوم الأحد مشئوماً بسبب الليلة التى تليه ، إذ يعتبر المسلمون ليلة الإثنين منحوسة لأنها ليلة وفاة الرسول . غير أن البعض يراها سعيدة للدخول بالعروس خاصة ، وإن لم تعتبر موافقة لهذا الأمر بقدر ليلة الجمعة . ويعتبر البعض أيضاً اليوم التالى يوماً سعيداً ، والبعض الآخر يراه مشئوماً . أما الثـلاثاء فيعتقـدون أنه منحوس ، ويسمى « يوم الدم » ، إذ يقال إن عدة شهداء أفاضـل قتلوا فى هـذا اليوم ، ولذلك يعتبرونه يوماً مناسباً للفصـد . والأربعاء لا يدل على شىء . ويسمى الخميس « المبارك » ، ويستمد بركته خاصة من الليلة واليوم التاليين . ويعتبرون مساء الجمعة سعيداً جداً وخاصة للدخول بالزوجة . والجمعة أبرك الأيام إذ هو يوم الراحة عند المسلمين ، ويسمى « الفضيلة » . أما السبت فهو أنحس الأيام . ويرون أن من الخطأ العظيم أن يسافر المرء فى ذلك اليوم(١) ، ويمتنع أكثرهم عن حلق اللحية أو تقليم الأظافر فيه . وكان أحد أصدقائى متردداً فى رفع قضية على خصمين فى مثل ذلك اليوم المنحوس ، وقرر أخيراً أن ذلك اليوم هو خير أيام الأسبوع لرفع القضية ، لأن النحس لا بد واقع على أحد طرفى الخصومة

---

(١) يتشاءم البعض من السفر يوم الجمعة . ويقولون إن ذلك اليوم يحمـل إلى موعد صلاة الجمعة ساعة نحس . (المترجم)

فقط ، ولا شك أنه سيقع على خصميه لأنهما إثنان وهو واحد . وهناك أيام من السنة تعتبر ذات حظ كبير من اليمن ، مثل أيام العيدين الفطر والأضحى ، والبعض الآخر يعتبر يوم الأربعاء من الأسبوع الأخير من شهر صفر نحساً ، فيعمد الكثيرون إلى البقاء فى منازلهم لاعتقادهم أن المصائب تقع على الإنسان فى ذلك اليوم(١) . ويستدل بعض الناس على الخير والشر من الأشياء التى يرونها عند خروجهم من المنزل صباحاً ، فعلى حسبها يكون اليوم سعيداً أو نحساً . ويعتبرون الأعور علامة سوء ، وخاصة من فقد عينه اليسرى .

(١) مع أن رسول الله استنكر هذه الخرافة .

الفصل الثانى عشر

السحر والتنجيم والكيمياء

لو صدقنا ما يقصونه فى مصر عادة لظهر لنا أن بهذا البلد فى هذه الأيام سحرة لا يقلون مهارة عن حكماء فرعون وسحرته الذين تتحدث عنهم التوراة .

ويميز عقلاء المصريين بين نوعين من السحر: « الروحانى » و « السيميا » والضرب الأول سحر روحى يعتقدون أنه يحدث عجائبه بفعل الملائكة والجن وأسرار بعض أسماء الله ووسائل أخرى خارقة للعادة . والضرب الآخر سحر احتيالى غير موحى به . ويعتقد أقل المسلمين تصديقاً أن أهم عامل فى ذلك هو تأثير بعض العطور والعقاقير فى البصر والمخيلة تأثير الأفيون تقريباً . ويظن البعض أن الأفيون يستخدم فى أعمال هذا السحر الأخير .

وينقسم السحر الروحانى ، الذى يعتبره المصريون عموماً سحراً صادقاً ، إلى « علوى » و « سفلى » ، أو « رحمانى » ، نسبة إلى الرحمن إحدى صفات الله ، « وشيطانى » . ويقال إن السحر العلوى أو الرحمانى ، علم يعتمد على عون الله وملائكته والجن الصالحين ، وعلى أسرار شرعية أخرى ، وأنه يستخدم دائماً لأغراض طيبة ، وأنه لا يدركه ويمارسه غير الصادقين الذين يتعلمون من الحديث ، أو القراءة ، أسماء هؤلاء العاملين الذين يفوقون الطبيعة البشرية ، وأدعية تكفل إجابة رغباتهم . وتتصل كتابة الأحجبة لغرض صالح بهذا الفرع من السحر وبالتنجيم وبعلم أسرار الأعداد . وأقصى ما يدرك فى السحر العلوى هو معرفة « الإسم الأعظم » . وهذا هو أعظم أسماء الله الذى يعتقد المتعلمون أنه لايعرفه إلا الأنبياء والرسل . ويقال إن من يعرف هذا الإسم يستطيع ، بمجرد النطق به ، أن يحيى الميت ، ويميت الحى ، وينتقل على الفور حيثما يشاء ، ويأتى بأى معجزة أخرى ، ويظن البعض أن أفاضل الأولياء يعرفون هذا الإسم. ويعتقدون أن السحر السفلى يقوم على عمل الشيطان وأشرار الجن ، وأن أشرار الرجال يستعملونه لأغراض خبيثة . وإلى هذا الفرع ينسب علم « السحر » الذى

يطلقه العرب على الرقية الشريرة فقط . — ويعمد هؤلاء الذين يمارسون « ضرب المندل » ، وسأسرد أمثلة له ، إلى تنفيذه بواسطة الجن ، أى باستخدام علم الروحانى . إلا أن هناك رأياً آخر فى هذا الموضوع سأذكره توا . وقد بينت إحدى الوسائل التى يعتقد أن الجن يساعدون بها السحرة فى الفقرة الثانية من الفصل العاشر .

ويرى المتعلمون أن « السيميا » علم كاذب وفن احتيالى ينتج آثاره المدهشة بتلك الوسائل التى ذكرت سابقاً . ويعتبرون أن « ضرب المندل » تابع للسيميا بسبب استعمال البخور فى إجرائه .

ويدرس الكثيرون فى مصر علم النجوم أو التنجيم ، ويستخدمونه على الأخص لحساب المواليد وتعيين أوقات السعد الخ . ولمعرفة أى البروج يخضع له الشخص . ويتم ذلك بحساب القيم العددية لحروف إسم الشخص وإسم أمه . وكثيراً مايكون ذلك فى حالة إقدام إثنين على الزواج للتحقق من توافقهما . وقد أخبرت أن علم « ضرب الرمل » يستند غالباً على التنجيم(١) . ويزعم القائمون به أنه يكشف الماضى والحاضر والمستقبل ، بواسطة علامات يرسمونها عرضاً على الورق أو الرمل ومن هنا سمى هذا العلم .

يدرس الكثيرون فى مصر « الكيميا » أيضاً . وهنالك فئة تنعم بمواهب يستطيعون أن يبلغوا بها شهرة أفضل مما يدركونه من هذه المهنة . ويواصل هؤلاء جهدهم العقيم حتى يبلغوا الكبر ، بالرغم مما يلاقون من سخرية بعض حصفاء الرأى ، وذم الذين يغررون بهم عن غير قصد . ومع ذلك فقد يحصلون على معلومات كيميائية وافرة بدراسة هذا العلم الكاذب . والاهتمام بالكيميا فى حالة الانحطاط العلمى الموجودة الآن بمصر يبرهن على العقلية المصرية الرفيعة .

---

(١) إن (ضرب الرمل) ، ومثله (ضرب الودع) ، حرفة يقوم بها الغجريات . فيسرن فى الشوارع حاملات فوق رؤوسهن قفة تضم الودع والرمل والحصى وغير ذلك ، صائحات : نبين زين وندق (وينطقن القاف جيماً) ونطاهر . فيعلن هكذا قدرتهن على كشف الغيب وعمل الوشم والختان . وتستند هذه الحرفة على الفراسة والكلام العام الذى يشمل كل أمر .

وفى (المنجد) : علم الرمل : البحث عن المجهولات بخطوط تخط على الرمل . وهو من الخرافات .

وقد تكلم (لين) عن هؤلاء الغجريات فى الفصل العشرين من هذا الكتاب . (المترجم)

وهناك ، أو كان هناك(١) مصرى يدعى الشيخ إسماعيل أبو رؤوس من مدينة دسوق ذاع صيته فى السحر الروحانى. ويتحدث المصريون حتى أكثرهم علماً ورزانة عن مهارته السحرية أحاديث لا تصدق . فيتحدث بعضهم مؤكداً زواجه بجنية ، وآخرون ، عن استخدامه جنياً يستشيره ويأمره فى الباطن ، دون أن يستعمل طلسماً ما مثل مصباح علاء الدين . ويقال إن الشيخ كان يستخدم دائماً قوته الخارقة فى أغراض طيبة أو بريئة ، وأن محمد على ، كما يقول البعض ، كان يكرمه ويستشيره كثيراً . وقد أخبرنى أحد أصدقائى المسلمين الأذكياء فى القاهرة أنه زار أبا رؤوس فى دسوق بصحبة الشيخ الأمير بن الشيخ الأمير الكبير شيخ المالكية . فسأل صاحب صديقى مضيفهما أن يبين لهما بعض ما يدل على براعته فى السحر ، فأجابه إلى طلبه . فقال الشيخ الأمير : « قدم إلينا القهوة فى فناجين أبى الموجودة فى القاهرة » . وانتظرا قليلا ، ثم أحضرت القهوة ، فنظر الشيخ الأمير إلى الفناجين وظروفها وصرح أنها طقم أبيه بلا شك . وبعد ذلك قدم الشراب فى قلل أبيه . ثم كتب رسالة إلى أبيه وأعطاها لأبى رؤوس طالباً الحصول على الرد . فأخذها الساحر ووضعها وراء وسادة الديوان ، وبعد قليل رفع الوسادة وأراه أن رسالته اختفت وحلت محلها أخرى. فأخذها الشيخ الأمير وقرأها ، فوجد فيها رداً كاملا على ما كتبه بخط صرح بأنه خط أبيه ، وأخباراً عن عائلته تبين له صحتها التامة بعيد عودته إلى القاهرة(٢) .

وقد وقع أثناء زيارتى الأخيرة لمصر حادث سحرى عجيب تدخلت فيه الحكومة وكان محل حديث الناس وتعجبهم فى العاصمة كلها . وسأروى هذه الواقعة تماماً كما قصها علىّ الكثيرون فى القاهرة ، دون أن أحذف منها المبالغات التى دبجوا بها حديثهم ، لا لأننى جاهل مبلغ صحتها فحسب ، بل لأبين إلى أى حد عظيم يؤمن المصريون بالسحر .

عزل مصطفى الدجوى كبير الكتاب فى مجلس القاضى من وظيفته ، وحل مكانه آخر يسمى مصطفى كان صيرفياً . فأرسل الأول إلى الباشا التماساً لإعادته ثانية ، إلا أنه مرض مرضاً شديداً قبل أن يصله رد . فاعتقد أن ذلك نتيجة سحر استخدمه مصطفى الصيرفى بكتابة تعويذة تسبب موته ، ولذلك أرسل إلى الباشا مرة أخرى يتهم الصيرفى بهذه الجريمة . فأحضر المتهم أمام الباشا ،

---

(١) علمت أنه توفى أثناء زيارتى الثانية لمصر .

(٢) وقد تحدثت فى ترجمتى لألف ليلة وليلة الفصل الأول هامش ١٥ عن ساحر أكثر شهرة هو الشيخ أحمد صادومة ذاع صيته فى مصر فى النصف الثانى من القرن الأخير .

فاعترف بفعله ودل على الساحر الذى استخدمه . ولما قبض على الساحر لم يستطع إنكار التهمة ، فسجن حتى ينجو الدجوى أو يموت . وأودع حجرة صغيرة يتناوب حراستها حارسان . وهنا يبدأ القسم العجيب فى القصة : عندما جن الليل ، وبعد أن نام أحد الحارسين ، سمع الآخر صوت همهمة غريبة ، فنظر من خصاص باب الحجرة ، فرأى الساحر جالساً وسط الغرفة يدمدم ببعض كلمات لم يستطع فهمها . وفى الحال انطفأت الشمعة التى كانت أمامه ، وظهر فى الوقت نفسه أربع شمعات أخرى فى كل ركن من أركان الغرفة . ثم وقف الساحر تجاه أحد الحوائط ، وضربه بجبهته ثلاثاً ، وفى كل مرة كان الحائط ينفرج عن رجل يبدو أنه يخرج منها . ولم يلبث هؤلاء أن اختفوا بعد أن حدثهم الساحر قليلا ، وكذلك اختفت الشمعات الأربع ، وعادت الشمعة الأولى وسط الغرفة مضيئة كما كانت قبلا ، ورجع الساحر إلى جلسته ، وساد السكون . وهكذا أبطلت التعويذة التى كانت معدة لقتل الدجوى . فى الصباح التالى ، شعر المريض بتحسن كبير بحيث توضأ وأقام صلاته ، ومنذ ذلك الوقت تم شفاؤه سريعاً ، وأعيد إلى وظيفته السابقة . ونفى الساحر من مصر . وقد نفى ساحر آخر ، بعد أيام قليلة ، لكتابته حجاباً جعل بنتاً مسلمة تصاب بحب قبطى حباً جامحاً .

وقد أثار فضولى فى موضوع السحر ، بعيد قدومى إلى مصر ، حادث قصه علىّ مستر صولت Salt قنصلنا العام . فقد سُرقت من منزله أمتعة اتهم بسرقتها أحد خدمه . فاستدعى ساحراً مغربياً شهيراً ليحمل المذنب ، إذا كان أحدهم مذنباً ، على الاعتراف بذنبه . وحضر الساحر وقال إنه سيبين صورة اللص بحيث تبدو كاملة لأى صبى لم يبلغ سن المراهقة ، وطلب من رب الدار أن يحضر أى ولد يختاره . وكان هناك عدة أولاد يعملون فى حديقة مجاورة للمنزل ، فلدعى أحدهم لهذا الغرض ، فرسم الساحر بالقلم على راحة يد الولد اليمنى شكلا هندسياً صب فى وسطه قليلا من الحبر ، وطلب من الولد أن ينظر فى الحبر بعزم . ثم أحرق بعض البخور وعدة قصاصات من الورق كتب عليها تعاويذ ، واستدعى فى الوقت نفسه أشياء مختلفة تظهر فى الحبر . وأعلن الولد أنه رأى هذه الأشياء وصورة المتهم أخيراً . فوصفه بقامته وهيئته وملبسه ، وقال إنه عرفه ، ونزل مباشرة إلى الحديقة ، وقبض على أحد العمال الذى اعترف أمام السيد بجرمه .

وقد شوّقنى الحديث السابق إلى مشاهدة حادث كهذا . ولكن لجهلى إسم الساحر ومكانه كنت عاجزاً عن الوصول إليه . على أننى علمت ، بعيد عودتى إلى إنجلترا ، أن هـذا الساحر اشتهر بين السياح المتأخرين فى مصر ، وأنه يقيم فى القـاهرة وأنه يسمى الشيخ عبـد القادر المغربى . وقد أحضره جارى عثمان مترجم القنصلية البريطانية(١) ، بعيد قدومى الثانى إلى مصر . فضربت له موعداً ليثبت مهارته التى اشتهر بها . وحضر الساحر فى الموعـد المعين ، قبـل الظهر بساعتين تقريباً ، ولـكن كان يلوح عليه القلق ، وتطلع إلى السماء مراراً ، ثم لاحظ أن الجو غير موافق . وكان اليوم عابساً كثير الضباب عاصف الهواء . وكانت التجربة قد عملت مع ثلاثة صبيان على التوالى، ولكنها لم تنجح تماماً مع أولهم ، وفشلت مع الآخرين . فقال الساحر إنه لا يستطيع أن يقوم اليوم بأكثر من ذلك ، وأنه سيحضر مساء يوم آخر . وقد حافظ على وعده وقرر أن الوقت ملائم . وأخـذنا ندخن الشبك ونحتسى القهـوة وهو يحدثنى أحاديث مختلفـة منتظرين جارى عثمان ليشاهد التجربة . والساحر جميل الشكل ، طويل القامة ، قوىّ البنية ، وجهه أقرب إلى البياض ، ولحيته شديدة السواد ، رث الثياب ، أخضر العمة كبيرها لانتسابه إلى النبى لطيف الحديث بلا تكلف . وقد أخبرنى أنه يباشر أعماله العجيبة بواسطة الأرواح الطيبة ، ولكنه قال لآخرين إن سحره شيطانى .

وطلب الساحر أولا قلماً وحبراً وقطعة ورق ومقصاً ليعد تجربة مرآة الحبر السحرية التى تسمى ، مثل بعض الأعمال المشابهة الآخرى، « ضرب المندل »(٢). ثم قطع قصاصة ضيقة كتب عليها بعض أدعية ، علاوة على تعويذة أخرى يعتقد أن التجربة تتم بها . ولم يحاول أن يخفى ذلك . ولما طلبت نسخة منها قبل بسهولة وكتبها فى الحال موضحاً لى فى الوقت نفسه أنه يبلغ غايته بفعل الكلمتين الأوليين « طرشٌ » و « طريوشٌ » وهما إسما تابعيـه الجنيين . وقد قارنت النسخـة بالأصل فوجدتها مطابقة تماماً . وهذا نصها :

---

(١) وهو اسكتلندى كان جنـدياً فى حملة فريزر على الأسكندرية . وقد أسر ثم أسلم وعمل فى جيش محمد على فى حربه ضد الوهابيين فى الجـزيرة . ثم عمل عند بركهـارت السويسرى (الحـاج ابراهيم) ، ثم فى القنصلية الإنجليزية . وقد أصبح فيما بعد أخلص صديق إلى لين وخير جار له . (المترجم)

(٢) فى المنجد : ضرب المنـدل عند أصحـاب التعزيم : نوع من الرقى وهو أن يخط المعزم دائرة على الأرض يجلسون داخلها إذا أرادوا دعوة الأرواح واستعلامها أمراً من الأمور .

ويقول أحمد أمين فى قاموس العادات والتقاليد : شاهدت مرة مندلا لإظهار سارق شيئاً . فأتى صاحب المنزل بطفل فى نحو السابعة أو الثامنة واختاره بواسطة رسم كفه . فهم يعتقدون أنهم إذا كان رسم كفهم يقرأ ٧١ و١٧ كان الأطفال أقرب إلى نجاح المندل. وبعد أن أحضر صاحب المنزل الطفل صب فى يده اليمنى نقطاً من زيت مع إطلاق البخور ... (المترجم)

« طرش طريوش انزلوا انزلوا ، احضروا إلى مذهب الأمير وجنوده ، إلى الأحمر الأمير وجنوده . احضروا يا خدام هذه الأسماء » .

« وهذا الكشف فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد صحيح صح » .

وبعد أن كتب هذه الكلمات ، فصل الأدعية عن التعويذة وقطع الأولى إلى ست جذاذات. ثم شرح لى أن القصد من التعويذة التى تتضمن جزءاً من الآية الحادية والعشرين من سورة الكهف ، هو فتح عين الصبى بطريقة غير عادية وجعل بصره حاداً ترى ما لا نراه .

شكل ٥٩ (أدعية وتعويذة)

وكنت قد أعددت بإرشاد الساحر قليلا من اللبان والكزبرة(١) ومجمرة بها جمر . فوضعت كل هذا فى الغرفة مع الصبى الذى أعد لإجراء التجربة . وكانوا قد دعوه من الشارع ، بناء على طلبى ، من بين بعض الصبيان حين عودتهم من أحد المصانع . وكان الصبى يبلغ من العمر ثمانى سنوات أو تسعاً . وعندما سألت الساحر أن يبين لى من يستطيع النظر فى مرآة الحبر السحرية أجابنى : الصبى دون البلوغ ، والبنت العذراء ، والجارية السوداء ، والمرأة الحامل . ووضع الساحر المجمرة أمامه ، ثم أجلس الصبى على كرسى ، وأمر خادمى أن يضع فى المجمرة بعض لبان وكزبرة . ثم أمسك يد الصبى اليمنى ، ورسم على راحته مربعاً سحرياً نقلت نسخة منه هنا (شكل رقم ٦٠) ويتضمن

شكل ٦٠ (المربع السحرى ومرآة الحبر)

---

(١) ويضيف الساحر على العموم إلى ذلك بخوراً جاوياً .

هـذا الشكل أرقاماً عربية(١) . ثم صب فى وسطه قليـلا من الحبر ، وطلب من الصبى أن ينظر فيـه ويخبره إذا كان يمكنـه رؤية وجهـه معكوساً فيه . فأجاب الصبى أنه يرى وجهه جلياً . فقال الساحر ، وهو يمسك بيد الصبى طول الوقت(٢) ، أن يظل محدِّق النظر وألا يرفع رأسه .

ثم أخذ الساحر إحدى قصاصات الورقة المكتوب عليها الأدعية ، وألقاها فى المجمرة على الجمر والبخور الذى كان قدملأ الغرفـة بدخانه. وبينما كان يفعل ذلك أخذ يدمدم دمدمة لم تنقطع طول العملية إلا حينما كان يوجه للصبى سؤالا أو يعرفه ما يجب قوله . ووضع فى مقـدمة طاقية الصبى الورقة المكتوب فيهـا الآية القرآنية . وسـأله عند ذلك إذا كان يرى شيئـاً فى الحبر ، فأجابه بالنفى ، ولكنه لم يلبث أن قال ، وهو يرتعش ويبدو أكثر خوفاً: « أرى رجلا يكنس الأرض » . فقال الساحر « إخبرنى بعـد أن ينتهى من الكنس » . فقـال الصبى فى الحال « لقد فعل » . فقطع الساحر إذ ذاك دمدمته مرة أخرى ليسأل الصبى إذا كان يعرف ما هو البيرق ، فلما رد بالإيجاب أمره أن يقول : « هات بيرقاً » . ففعل الصبى ذلك ولم يلبث أن قال : « لقد أحضروا بيرقاً » . فسأله الساحر : « على أى لون هو ؟ » . فأجـاب الصبى « أحمر » . فقـال له أطلب بيرقاً آخر . فلم يلبث أن قال إنه رأى بيرقاً آخر ، وإنه أسود اللون . وبالطريقة نفسها قال الساحر للصبى أن يطلب ثالثاً ورابعاً وخامساً وسـادساً وسابعاً . فقال الصبى إنها أحضرت على التوالى وإنها أبيض وأخضر وأسود وأحمر وأزرق . فسأله الساحر حينئذ : « كم بيرقاً أمامك الآن ؟ » فأجـابه « سبعة » ووضع السـاحر أثناء ذلك ثانية القصاصات المكتوبة عليها الأدعيـة وثالثتها فى المجمـرة . وإذ كان يضيف لباناً وكزبرة مراراً فقد أصبح الدخان يؤلم العين . وعندما أخبره الصبى أن البيارق السبعة ظهرت له أمره أن يقول : « أحضر خيمة السلطان وانصبها » . ففعل ذلك وقال بعد لحظة : « أحضر بعض الرجال الخيمة ، وهى خيمة كبيرة خضراء ، وهم ينصبونها » ثم أضاف توا : « لقد نصبوها » فقال الساحر : « الآن مر الجنود بالحضور وبنصب معسكرهم حول خيمة السلطان » . ففعـل الصبى كما أمره وقال على الفور : « أرى عدداً عظيماً من الجنود بخيمهم . لقد نصبوا خيمهم » .

---

(١) يلاحظ إذا جمعنا الأرقام عـمودياً أو أفقياً أو بالورب نحصل على المجموع نفسه أى ١٥ .

(٢) وهذا يذكرنا بالمغناطيسية الحيوانية .

فقال له حينئذ أن يأمر الجنود بالاصطفاف . ولم يكد يأمرهم حتى قال إنهم اصطفوا . ووضع الساحر رابع القصاصات فى الجمر ، وسريعاً ما ألحق بها الخامسة . وقال توا : « قل للبعض أن يحضروا ثوراً » . فأصدر الصبى الأمر وقال : « أرى ثوراً أحمر يسحبه رجال أربعة ويضربه ثلاثة » . فقال له أن يأمرهم بذبحه وتقطيعه ووضع لحمه فى أوعية وطهيه . ففعل كما أمره ، ووصف هذه العمليات كما تمت حسب الظاهر أمام عينه . فقال الساحر : « قل للجنود يأكلون » ففعل الولد وقال : « إنهم يأكلون . لقد أكلوا . وهم يغسلون أيديهم » . فقال الساحر إذ ذاك أن يدعو السلطان ففعل الولد وقال : « أرى السلطان ممتطياً جواداً أشهب وعلى رأسه قلنسوة مرتفعة حمراء . لقد ترجل عند خيمته وجلس داخلها » . فقال الساحر : « مرهم بتقديم القهوة للسلطان وبتأليف المجلس » . فأصدر الصبى هذه الأوامر وقال إنها نفذت. وكان الساحر قد وضع آخر القصاصات الست فى المجمرة . ولم أميز من همهمته شيئاً غير ألفاظ الدعاء المكتوب التى رددها مراراً ، ما عدا مرتين أو ثلاثاً سمعته يقول : « إذا استعلموا أخبرهم . وكونوا أنتم صادقين » . إلا أن أكثر ما ردده كان غير مسموع . ولما لم أسأله أن يعلمنى علمه فلا أدعى الجزم بأننى أعرف تماماً أدعيته .

تحدث الساحر إلى وسألنى إذا كنت أرغب فى أن يرى الصبى شخصاً ما غائباً أو متوفى . فذكرت اللورد نلسون ، ومن الواضح أن الصبى لم يسمع عنه أبداً ، لأنه نطق اسمه بصعوبة كبيرة بعد محاولات . وأمر الساحر الصبى أن يقول للسلطان : « إن سيدى يحييك ويطلب منك إحضار اللورد نلسون ، أمام عينى حتى يمكننى رؤيته سريعاً » . فقال الصبى ذلك وأضاف فى الحال : « لقد ذهب رسول وعاد وأحضر رجلا يلبس ملابس أوربية سوداء(١) ، والرجل فقد ذراعه اليسرى » ، ثم وقف لحظة وقال وهو ينعم النظر عن قرب فى الحبر : « لا ، إنه لم يفقد ذراعه اليسرى وإنما وضعها على صدره » . وقد جعل هذا الاستدراك بيان الصبى أكثر تأثيراً مما لو كان بدونه ، لأن اللورد نلسون كان يعلق كمه الخالى إلى صدر سترته ، ولكنه فقد ذراعه اليمنى لا اليسرى . فسألت الساحر ، دون أن أبين أننى أتهم الصبى بالخطأ ، إذا كانت الأشياء تبدو فى الحبر كما لو كانت أمام العين

---

(١) يسمى المصريون المحدثون الأزرق القاتم أسود .

فعلا أو كما لو كانت تنعكس فى المرآة التى تظهر اليمين يساراً . فأجابنى إنها تبدو كما فى المرآة ، فجعل هذا وصف الصبى صحيحاً(١) .

وكان ثانى من دعوتهم مصرياً أقام فى انجلترا بضع سنوات فاتخذ الملابس الأوربية ، وكان المرض قد ألزمه الفراش طويلا قبل إبحارى لمصر . فرأيت أن اسمه ، وهو شائع فى مصر ، قد يحمل الصبى على الخطأ فى وصفه ، مع أنه حدث فى زيارتى السابقة للساحر أن وصف صبى آخر هذا الرجل ذاته بأنه يلبس ملبساً أوربياً مثل ذلك الذى رأيته به آخر مرة . أما الآن فقد قال الصبى « ها هو ذا رجل لف فى ملاءة وجىء به على نعش » . ويدل هذا الوصف على أن الشخص المذكور لا يزال ملازماً فراشه أو أنه مات(٢) . وقال الصبى إن وجهه مغطى ، فقال له الساحر أن يأمر برفع الغطاء . ففعل ثم قال « إن وجهه شاحب ، وله شاربان ولا لحية له » . وهذا صحيح .

وقد استدعيت عدة أشخاص آخرين على التوالى ، ولكن أوصاف الولد لهم كانت ناقصة وإن لم تكن جميعها غير صحيحة . فكان كل وصف يبدو أقل وضوحاً عن السابق كما لو كان بصره يغشى شيئاً فشيئاً . فكان يلبث برهة أو أكثر قبل أن يستطيع أن يصف من يراهم . فقال الساحر إن من العبث إجراء التجربة معه . فجىء بصبى آخر ورُسم المربع السحرى على يده إلا أنه لم يستطع رؤية شىء . فقال الساحر إنه فوق السن المناسبة .

أدهشتنى هذه الأعمال تماماً ، غير أنها خيبت ظنى قليلا لفشلها مرات فى حضور بعض أصدقائى ومواطنى . وقد سخر منها فى إحدى هذه المناسبات إنجليزى من الحاضرين ، وقال إن لا شىء يقنعه غير وصف صحيح لهيئة أبيه ، إذ كان على يقين من أن أحداً من الجالسين لا يعرف عنه شيئاً . فدعا الصبى والد

(١) كنت كلما طلبت من الصبى أن يدعو أحداً انتبه بدقة إلى الساحر وعثمان معاً . فلم يوجه الأخير كلمة أو إشارة ما ، ولقد كان حقاً يجهل مظهر الشخص المطلوب . وقد عنيت بألا يتصل من قبل بالصبيان ، وقد رأيت التجربة تفشل عندما كان يستطيع إرشادهم أو إرشاد الساحر . وقصارى القول أن من الصعب أن يتصور احتياطاً لم أتخذه . ومن المهم أن أضيف أن لغة الساحر كانت أكثر وضوحاً لى منها الصبى ، فبينما كنت أفهمه فوراً كان يضطر أحياناً إلى تغيير كلامه ليجعل الصبى يدرك ما يقول .

(٢) وقد سرنى أن أسمع ، بعد كتابة هذا بشهور قليلة ، أن الرجل المشار إليه هنا قد تعافى . ولم أستطع أن أحقق ما إذا كان ملازماً فراشه وقت إجراء هذه التجربة .

الإنجليزى باسمه ، ثم بين أنه يلبس الملابس الإفرنجية ويضع يده على رأسه ، ويلبس منظاراً. ويقف على قدم واحدة. ويقيم الأخرى وراءه على نحو ما يفعل النازل من المقعد . وكان الوصف دقيقاً من كل الوجوه ، فقد كان وضع اليد على الرأس ناشئاً من صداع دائم ، ووضع القدم من تصلب الركبة لسقوط الرجل عن ظهر حصانه أثناء الصيد . وقد أكد لى الحاضرون فى هذه الجلسة أن الصبى أحكم الوصف فى كل دعوة . ووصف الصبى مرة أخرى شكسبير شخصه وملبسه وصفاً دقيقاً . ويمكننى أن أضيف إلى ذلك عدة أحوال أخرى أثار فيها الساحر ذاته دهشة معارفى الرزناء من الإنجليز. وفى يوم آخر جهز الساحر، بعد أن قام بالتجربة بواسطة الصبى كالعادة ، المرآة السحرية فى يد إنجليزية شابة ، فلم تكد تنظر فيها لحظة حتى قالت إنها ترى مكنسة تكنس الأرض دون أن يمسكها أحد ، وتملكها الفزع فرفضت استئناف النظر .

قررت هذه الوقائع بعضها من تجاربى الذاتية ، والبعض الآخر مما وصل إلى علمى عن قوم محترمين . وقد يظن القارىء أن الصبى كان يرى فى كل مرة صوراً تنعكس فى الحبر ، ولكن ذلك لم يكن ، أو أنه كان متفقاً مع الساحر ، أو أنه يرشد بطريق الأسئلة. أما أنه لم يكن هناك اتفاق فقد تحققت من ذلك تحققاً مرضياً باختيار الصبى الذى قام بالعمل من بين المارين بالشارع ، علاوة على رفضه رشوة عرضتها عليه فيما بعد لحثه على الاعتراف بأنه لم ير حقاً ما كان يقرر رؤيته . وقد امتحنت صدق صبى آخر فى مناسبة لاحقة وبالطريقة نفسها ، فكانت النتيجة واحدة . وكثيراً ما تخيب التجربة تماماً . ولكن عندما يصيب الصبى القائم بالعمل مرة يستمر فى النجاح على العموم . وعندما يخطىء بادىء الأمر يصرفه الساحر تواً قائلا إنه كبير السن. وقد يفترض البعض أن البخور أو الخيال المتأثر أو الخوف يؤثر فى نظر الصبى ، ولكن لو كان الأمر كذلك لما أبصر تماماً ما كان يطلب من أمور لا يمكن أن يكون عنها معلومات خاصة سابقة .

ولم أستطع أنا ولا غيرى اكتشاف طريق ما ينفذ بنا إلى السر . ورجائى من القارىء ، إذا كان مثلنا عاجزاً عن إيجاد الحل ، ألا يدع البيان السابق

يثير فى ذهنه ريبة فيما يتعلق بأجزاء الكتاب الأخرى(١) .

---

(١) لقد طيب خاطرى أن أرى رجائى يتحقق. وأود أن أستطيع القول أن الحادث فسر الآن . فقد أشار بعضهم فى العدد ١١٧ من مجلة Quarterly Review ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ إلى أن هذه الأعمال كانت تتم بواسطة انعكاس الصور على سطح مرآة مقعرة وإرسالها إلى نظر الصبى على سحب الدخان . على أننى لا أستطيع التسليم بذلك ، لأن مثل هذه الطريقة لا يمكن أن تكون قد استعملت دون أن أراها . ولا الصورة تنقلب (ما لم تكن الصورة هكذا) بانعكاسها على سطح المرآة واستقبالها على سطح آخر ، لأن الصبى كان مطرق الرأس يتفرس فى راحة يده ، فلا يمكن أن تتكون الصورة فوق الدخان ، الذى كان كثيراً وليس كثيفاً ، بين عين الصبى والمرآة المزعومة . والصعوبة الكبرى هى وصف الهيئة الصحيحة لأفراد من عامة الناس غير مشهورين ، كما لاحظت المجلة المذكورة فى مقال ألحق به حاشية غريبة تقدم بعض صور جديدة لهذه الصعوبة . وقد كنت عارفاً لأهم الوقائع المذكورة هناك ، ولكن كان ينقصنى الأقدام على نشرها . غير أنه يمكننى الآن أن أذكرها هنا . فقد روى أن سائحين أحدهما مسيوليون دى لابورد Leon De Laborde، والآخر إنجليزى لم أستطع معرفته ، تدربا على يد الساحر عبد القادر ونجحا فى إجراء أعمال مماثلة . وقد أنكر الأخير قطعاً كل مؤامرة للخداع . وأكد أنه لم يفعل شيئاً غير ترديد ما علمه الساحر . ومنذ كتابة الملاحظة السابقة شاهدت مرتين أعمالا يجريها هذا الساحر الحديث الشهرة ، وكانت جميعها فاشلة تماماً . وهكذا كانت جميع تجاربه الأخيرة كما أخبرنى البعض. ومن هنا ، ومن ملاحظة أبداها لى فى حضور المرحوم اللورد نوجنت Nugent (أنه كان ينجح على العموم إذا كان الوسيط عثمان مترجمه ، وقد توفى بعد زيارتى الثانية لمصر) يصعب على أن أستنتج أن الأسئلة المرشدة التى كان يلقيها فى أغلب الأحوال عثمان وغيره ، وهم قوم متعلمون أذكياء ، بدون وعى ، وأن التخمينات الحاذقة فى أحوال أخرى هى أسباب نجاحه الرئيسية . ولا أستطيع بافتراض الأسئلة المرشدة ، أن أحصى نجاحه فى الأحوال التى كنت أراقبها بنفسى . ولكن هذه كما سبق القول فشلت كثيراً فى حضور بعض الأصدقاء والمواطنين .

الفصل الثالث عشر

الأخلاق

إن طباع المصريين المحدثين تتأثر إلى درجة كبيرة بالدين والشرع والحكومة، كما تتأثر بالمناخ وأسباب أخرى . ومن ثم يصعب جداً أن نكون رأياً صحيحاً عنها. غير أنه يمكننا أن نقرر بثقة أن المصريين يمتازون أكثر من الشعوب الأخرى ببعض الصفات الذهنية العظيمة، وبخاصة سرعة الإدراك وحضور الذهن وقوة الحافظة(١) . وهم فى حداثتهم موهوبون على العموم بهذه الصفات وبقوى عقلية أخرى ، غير أن العلل السابقة الذكر تحط منها تدريجاً .

وليس فى أخلاق المصريين الأصلية ما يستحق الاعتبار مثل الكبرياء الدينية . فهم يعتبرون كل من خالفهم فى الدين هالكين . وبالتالى ، يلقن المسلم فى حداثة سنه احتقارهم(٢) . وقد ذكر القرآن فى سورة المائدة فى الآية الحادية والخمسين : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم(٣) » .

ومن بواعث الأدب أو الصالح الذاتى أن يتحدث المسلم أحياناً إلى المسيحى ، وخاصة الأوربى ، بلهجة كريمة ، وقد يصرح بصداقته وهو يضمر الازدراء له . ولما كان المصريون المسلمون يحكمون على الفرنج بمقتضى ما يظهر من الذين يسكنون مدنهم ، وأكثرهم من شذاذ الآفاق ونفاية البلاد ، فمن الصعب لومهم على ازدرائهم . ويعامل أهل مصر المسيحيين مع ذلك بلطف ، فالمسلمون قد عرفوا بالتسامح كما اشتهروا باحتقار الكفار .

---

(١) وتظهر هذه الصفات فى أجلى صورها فى أعماله الفردية ، ولكنها تبدو هزيلة عندما يعمل ضمن الجماعة . ولا تزال روح التعاون فى العمل تنقصه عامة لعدم تعوده النظام بعد . (المترجم)

(٢) وقد أخبرت على نحو جدير بالثقة أن كثيراً ما يلقن الأطفال المصريون فى المدرسة مجموعة من الأدعية ليحل الهلاك واللعنة على المسيحيين واليهود وكل من كفر بالإسلام ، أشخاصهم وأموالهم . أنظر ملحق د .

(٣) وقد فسرت الآيتان السابعة والخمسون والثامنة والخمسون من السورة نفسها سبب هذه الوصية بقولها : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار [المشركين] أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . [والذين] إذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها [الصلاة] هزواً ولعباً ذلك [الاتخاذ] بأنهم قوم لا يعقلون » . (الكلمات بين المعقوفتين من تفسير الجلالين) .

ويعتقد المسلم أن التقى يرفع صاحبه ، إلا أن رغبة الظهور بالتقوى تفضى بالكثيرين إلى الرياء ، وكثيراً ما يلهج المسلم ببعض الأدعية إذا لم يكن مشغولا بعمل أو تسلية أو حديث . وإذا أقلقته فكرة أثيمة أو ذكرى شر ارتكبه يصيح متنهداً « أستغفر الله العظيم » . وكثيراً ما يشغل التاجر نفسه فى حانوته بتلاوة القرآن أو بالتسبيح ، على مرأى من المارة وسمعهم كما يؤدى صلاته بتلك الطريقة العلنية ، إذا فرغ من مساومة حرفائه أو من تدخين شبكه .

كثيراً ما يقسم المسلم بالله وبالرسول وبرأس مخاطبه ولحيته . وعندما يخبَر أحدٌ بخبر يثير دهشته وعدم تصديقه يصيح : والله ؟ فيجيبه الآخر : والله . وكما أن العادة أن يبسمل المسلم قبل الطعام والشراب ، يفعل ذلك أيضاً عندما يتناول دواء أو يكتب شيئاً أو يبدأ مشروعاً مهماً ، ثم يحمد الله بعد البسملة .

وعندما يتعاقد إثنان يتلوان الفاتحة معاً . والعادة عندما يتجادل البعض فى عمل أو رأى ، أن يصيح أحد الطرفين ، أو آخر يود فض النزاع أو تهدئة المتخاصمين : « الصلاة على النبى » ، أو « صلوا على النبى » فيقولان بصوت منخفض : « اللهم صل عليه » ثم يستأنفان المجادلة ولكن باعتدال على العموم .

كثيراً ما يُسمع فى المجتمع المصرى العبارات الدينية تعترض الحديث فى الأمور الحقيرة والخليعة أيضاً . وقد يكون ذلك أحياناً بطريقة تحمل من يجهل أخلاق هذا الشعب على أن يظنه هزؤاً بالدين . ويكرر المصريون إسم الله فى الكثير من أغانيهم الماجنة ، من غير قصد للاهانة طبعاً ، وإنما يفعلون ذلك لاعتيادهم إقحامَ إسم الله فى كل ما يدعو إلى الدهشة أو العجب . فيعبر الماجن (فى أغنية بذيئة لم ترعينى أو تسمع أدنى مثلها فى اللغة العربية) عن انفعاله بالجمال عند رؤيته فتاة فاتنة بقوله : « تبارك الذى خلقك يا بدر » . ومن المألوف أن يسمع المرء هذا القول وما يماثله فى الكثير من الأغانى والقصائد . غير أن الجدير بالملاحظة فى الأغنية المشار إليها سابقاً أن يوازن سياق الكلام القبيح بنهاية الأغنية .

وسأورد المقطوعات الأخيرة من أحد الموشحات عن الحب والخمر مثالا للطريقة الغريبة التى يختلط بها الفجور والدين فى الأدب العامى المصرى :

قابلنى الرشيق بعد البعد والاحتجاب . فقبلت ثناياه وخده ، ورن الكأس فى يده . وفاح المسك والعنبر من محبوب أرشق قواماً من غصن البان . وبسط سريراً سندسياً ، وقضيت الوقت فى سعادة متصلة . لقد استعبدنى ظبى تركى .

والآن استغفر الله ربى من كل خطاياى ومن كل ما هجس فى نفسى . إنه

أعضائى تشهد على . ومتى قهرنى الحزن فأنت أملى يا ربى فى كل ما يحزننى . أنت تعلم ما أقول وما أنوى . أنت الكريم الغفور . إنى ألوذ بحماك فاغفر لى . . .(١) .

وقد زارنى أحد أصدقائى المسلمين بعد كتابة الملاحظات السابقة تواً ، فقرأت عليه القصيدة . وسألته أيليق أن يمزج الدين بالخلاعة هكذا ؟ فأجاب : « نعم ، يليق كل اللياقة . فهذا رجل يذكر خطاياه ثم يستغفر الله ويصلى على الرسول » . فقلت : « ولكن هذه قصيدة قيلت لتسلية هؤلاء الذين ينهمكون فى الملذات المحرمة . ثم لاحظ أن الصفحة التى تصف الفسق تقابل التى تذكر أسماء الله عندما أطوى الكتاب فيكون وصف الملذات الأثيمة فوق ذكر الاستغفار » . فأجاب صديقى : « ذلك عبث . اقلب الكتاب جاعلا أسفله أعلاه ينعكس الحال فيغطى الغفران المعصية . وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز : قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » (الآية ٥٢ من سورة الزمر) . وقد ذكرتنى إجابته ما لاحظته كثيراً من أن غالبية العرب ، وهم شعب كثير التناقض ، يستمرون فى مخالفة الشرع اعتماداً على أن عبارة : « أستغفر الله » تمحو كل خطيئة . وكان بين يدى صديقى نسخة من القرآن ، فوجدت فيها بحثى عن الآية المقتبسة ورقة عليها كلمات من الكتاب الكريم ، وكان الرجل على وشك أن يحرقها لئلا تسقط فتداس . فسألته : أيجوز ذلك ؟ فأجاب : إما أن تحرق وإما أن تلقى فى مجرى ماء . والأفضل حرقها ، إذ أن الكلمات تصعد مع اللهب فتحملها الملائكة إلى السماء . ويستشهد المسلمون حتى أشدهم تقى بالقرآن عند المزاح . وقد حدث مرة أن طلب أحدهم أن أهدى إليه ساعة ، فأوعز إلى بهذه العبارة الملتبسة : إن الساعة آتية أكاد أخفيها (الآية ١٥ من سورة طه) .

وكثيراً ما يشاهد المرء ، فى المجتمع المصرى ، ناساً يتلون آيات وأحاديث تناسب المقام مهما كان الموضوع . ولا يعتبر مثل هذا الاقتباس ، كما هو الحال فى مجتمعنا ، نفاقاً أو مملا ، وإنما يثير إعجاب المستمعين ويصرفهم عن تافه الحديث إلى جده . ويشغف مسلمو مصر وغيرها من البلدان ، على ما أعتقد ، بالحديث الدينى . وتحيى أكثر الحفلات عند الطبقتين الوسطى والعليا فى القاهرة بتلاوة (ختمة)

---

(١) لم أجد النص العربى الأصلى فاكتفيت بتقديم ترجمة عربية لما يماثله فى النص الإنجليزى .

أو إقامة (ذكر) . وقلما يجرؤ أحـدهم على التصريح بتفضـيل الموسيقى على الخاتمة أو الذكر اللذين لا جرم يبتهجون بهما . والحق أن الطريقة التى يرتل بها القرآن أحياناً حسنة جداً ، ولو أن سماع الخاتمة كلها قد يمل غير المسلمين . ويدهشنى شـدة تمسك المسـلمين بدينهم على الدوام ، غير أننى أعجب لقلة محاولتهم دعوة الغير إلى الإسلام.وكثيراً ما عبرت عن دهشتى لتغافلهم عن نشر دينهم ، مخالفين أسـلافهم فى صدر الإسـلام ، فكانوا يجيبوننى : « أى فائدة فى هـداية ألف كافر ؟ هل يزيد ذلك عـدد المؤمنين ؟ أبداً . لقد قدر الله عدد المؤمنين ولا يستطيع الإنسان أن يزيده ولا أن ينقصه ».ولم أخاطر بالرد خشية أن يؤدى اعتراضى إلى جـدال لا حد له . وقد سمعتهم يدافعون عن إهمالهم إدخال الناس فى دينهم بذكر الآية السادسة والأربعين من سورة العنكبوت : « ولا تجـادلوا أهـل الكتاب » ، دون أن يذكروا العبارة التالية مباشرة : « إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ،وقولوا آمنـا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنـا وإلهكم واحـد(١) . ولو كان المسلمون عملوا بهذه الوصية لأدى جدالهم إلى تحرير أفكارهم وترقية معارفهم .

يقدس المسلمون المحدثون الرسول غاية القداسة ، ويقسمون كثيراً باسمه . ويلتمس شفاعته المتعلمون والجاهلون على السواء.ويتأثر الحجاج من زيارة القبر النبوى أكثر مما يتأثرون بقيـامهم بالشعـائر الأخرى . وهناك فئة لا تأتى عملاً لم يتقرر قيام الرسول به ، فيمتنعون خاصة عن أكل ما لم يأكله ولو ثبت إباحة تناوله.وما كان الإمام أحمد بن حنبل يأكل البطيخ لأنه ،مع علمه أن الرسول أكله ، لم يستطع أن يعرف ما إذا كان يتنـاوله بقشره أوبدونه ، أو إذا كان يكسره أو ينهشه أو يقطعـه . كما أنه نهى امرأة جاءت تستفهمه عن الغـزل ليلاً على ضوء مشاعل الغير أثناء مرورهم فى الشارع ،لأن الرسول لم يذكر شرعيتها، ولم يُعرف عنه أنه انتفع من ضوء غيره بدون إذن . وقد أعجبتُ مرة بحجر شبك بلغ غاية الجمال ، فسألت صـانعها لماذا لا يسمها باسمـه ؟ فأجاب : « معاذ الله ! إن اسمى أحمد (وهو أحد أسماء الرسول) فهل تريد أن أضعه فى النـار ؟ » وقد سمعت شكوى الناس من الباشـا لأنه وسم جمال الحكومة

---

(١) أضيف هنا ، إلى ما كتبت فى الطبعـة الأولى من هذا الكتـاب على حذو سيل Sale الذى لم يقدم سنداً ما لذلك الموضوع ، العبارة التالية: « ومع ذلك يعتقد عامة أن هذه الوصية تنسخها قاعدة السيف » وقد يدفع ذلك الكلام القارىء إلى الخطأ ، كما بينت فى حديثى عن الحرب فى فصل الدين والشريعة .

وجيادها باسمه (محمــد على) . وقال الذى ذكر لى هذا الحــادث : « إن الميسم الذى نقش عليه هذان الاسمان الواجب احترامهما ، اسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) واسم ابن عمه (رضى الله عنه) ، يوضع فى النار وهذا منكر. ثم يوضع على رقبة الجمــل ، فيسيل الدم النجس ، فيدنس الاسمين المقدسين على الحديد وعلى جلد الحيوان. والمحتمل عندما يندمل الجرح ، بل المحتم ، أن يضع الجمل ، وهو راقد ، رقبته على شىء قذر » .

ويبعث مثل هذا الشعور المسلمين على أن يعترضوا على طبع كتبهم . ويندر أن يكون لهم كتاب لا يتضمن اسم الله، ولا أذكر أنى رأيت كتاباً خلا منه . فالقاعدة أن يصدر الكتاب بالبسملة ، وتبدأ المقدمة بحمد الله والصلاة على الرسول. ويخشى المسلمون أن يدنس المداد الذى يطبع به اسم الله، أو الورقة التى يطبع عليها ذلك الاسم المقدس، أو أقوال من القرآن. ويخشون أيضاً أن تصبح كتبهم عند طبعها رخيصة الثمن فتقع بين أيدى من لا يصونها . وفكرة استعمال فرجون من شعر الخنزير ، وكانت تستعمل أولا هنا ، لوضع الحبر على اسم الله أو على كلامــه ، تكــدرهم كثيراً . ومن ثم لم يطبع الكتب فى مصر حتى الآن إلا الحكومة . غير أن اثنين أو ثلاثة استأذنوها فى طبع بعض الكتب فى مطبعتها فأذنت لهم . وأعرف كتبياً هنا رغب طويلا فى طبع كتب كان يثق بعظيم ربحها ، ولكنه لم يستطع أن يتغلب على تردده فى شرعية هذا العمل .

يثير احترام المسلمين للقرآن الدهشة . فهم يحرصون على ألا يكون المصحف أدنى الصدر ، سواء أكان محمولا أم معلقاً . ويودعونه مكاناً مرتفعاً طاهراً، ولا يضعون فوقه كتــاباً ولا شيئــاً آخر . ويقولون عادة عند الاقتباس منه : « قال الله تعالى فى كتابه العزيز » . ويعتبرون من غير اللائق أن يامس المصحف نصرانى أو يهودى ، أو غير مؤمن بتعاليمه ، ولكن البعض يدفعه الجشع ، وإن ندر ذلك ، إلى بيعه إلى هؤلاء . ومن المحرم أيضاً أن يلمس المسلم القرآن ما لم يكن على طهر شرعى ، ولهذا كثيراً ما يطبع قوله تعالى : (لا يمسه إلا المطهرون) (١) فوق الغلاف . وتنطبق هذه الملاحظــات عينها على أى كلام من القرآن . ومما يستحق الاعتبار ، مع ذلك ، أن ينقش على أكثر النقود العربية القديمة كلمات قرآنية أو الشهادة ، مع أنها سكت ليستعملهــا اليهود والنصــارى مثل المسلمين . ولكنى سمعت أن هذا الإجراء ملوم عليه بشدة .

---

(١) سورة الواقعة آية ٧٩ .

وقد سألت مرة صديقاً مسلماً هل يعتبر التين موافقاً للصحة فى مصر ، فأجاب : ألم يذكر التين فى القرآن ؟ إن الله أقسم به فى قوله : والتين والزيتون . (سورة التين ، الآية الأولى) .

لا شك أن المسلمين المحدثين أتقياء إلى حد الحماسة(١) ، وإنما يعوزهم الثبات ونبذ الخرافات . ويندر ، على ما أعتقد ، أن يوجد فيهم ملحدون حقاً ، وهؤلاء لا يجرأون على إظهار إلحادهم خوفاً على حياتهم . وقد سمعت عن إثنين أو ثلاثة منهم ارتدوا عن دينهم بمخالطتهم الأوربيين مخالطة طويلة وثيقة ، وقابلت ملحداً واحداً كانت له معى مناقشات طويلة . وقد ذكرت عرضاً فى الفصول السابقة عادات كثيرة تبين الشعور الدينى السائد بين مسلمى مصر . ويستعمل المتسولون فى هذا البلد نداءات دينية سأذكر أمثلة منها فيما بعد . ويشبه هذه النداءات صياح باعة الخضر وغيرها . وقد أدهشنى هتاف حارس الليل ، فى الحى الذى سكنته أثناء زيارتى الأولى بجماله وسموه : « سبحان الملك الحى الذى لا ينام ولا يموت » . ويصيح الحارس الحالى فى الحى ذاته : « يارب يا دائم » . ويمكننى أن أضيف أمثلة كثيرة أخرى توضح تدين الشعب الذى أحاول وصفه . إلا أن ينبغى أن أقرر هنا أن التدين ضعف كثيراً بين المسلمين . فانك لا تنفك تسمع منهم أثناء الحديث معهم مثل قولهم : « إنها نهاية الدنيا ! لقد تردى العالم فى الكفر » . ويعتقدون أن حالة المسلمين الآن تدل على قرب النهاية . ويبين ما ذكرت فى بعض عقائد الوهابيين ، على أنها عقائد المسلمين الأولين ، إلى أى حد كبير حاد المسلمون عن تعاليم القرآن كما بلغت أولا .

يظهر الرجال ، تحت تأثير إيمانهم بالقضاء والقدر ، فى أوقات الابتلاء ، صبراً مثالياً ، وبعد الحوادث المفجعة ، استسلاماً وتجلداً عجيبين يكادان يقربان من البلادة(٢) . ويعبرون عن أسفهم بقولهم متنهدين « الله كريم » . أما النساء ، فهن على النقيض ، يبدين حزنهن بالإسراف فى البكاء والصراخ . وبينما يلوم المسيحى نفسه بحق على كل حادث مكدر يظن أنه جلبه على نفسه ، أوكان

---

(١) كان ذوق العصر السائد فى بعض الطبقات المثقفة ، إلى وقت قريب ، أن يتظاهر أفرادها بعدم التمسك بالدين ويعتبرون الغير جهلاء متأخرين . وكان ذلك يظهر على الأكثر بين الفتيات . ويرجع هذا السخف بطبيعة الحال إلى سلوك الأبوين فى تربية الطفل نظاماً مغايراً أو إهمالها التربية المنزلية على الإطلاق . وقد حدث فى السنوات الثلاث الأخيرة رد فعل عند الشباب مظهره إقامة الصلاة بالمساجد ، ولبس بعض الفتيات الطرحة بشكل معين . (المترجم)

(٢) وليس المسلمون مع ذلك بلداء كما يرى بعض السياح ، إذ أنه ليس من غير الشائع أن تراهم يبكون . ولا يعتبرون إظهار الشعور هكذا تخنثاً ، بل يصورون أبطالهم ، فى قصائدهم وأقاصيصهم ، يبكون عند الحزن الشديد .

يمكنه تجنبه، يتمتع المسلم عند تقلبات الزمان وصروف الدهر بهدوء بالعجيب . ولا ينفك مستسلماً عند دنو أجله فيصيح : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ويجيب من يستفسر عن حاله : « الحمد لله . ربنا كريم » . ولا يمنع الإيمان بالقضاء والقدر المسلم مع ذلك من السعى إلى تحقيق غايته ، فإيمانه بالقدر ليس مطلقاً ، ولا هو يجعله يهمل تجنب الخطر ، إذ حرّم القرآن بقوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (سورة البقرة آية ١٩٥) . غير أنه فى بعض الأحوال كانتشار الطاعون وغيره من الأوبئة أمر الرسول المسلمين ألا يدخلوا مدينة موبوءة وألا يخرجوا منها . ويختلف المسلمون فى جواز الحجر الصحى ، إلا أن عمومهم يرونه غير ملائم .

ويجعل الإيمان بالقدر المسلم مجرداً من الإدعاء بمعرفة أعماله المستقبلة أو أى حادثة آتية . فلا يتحدث أبداً عما ينوى عمله أو يتوقع حدوثه دون أن يقول : « إنشاء الله » . وكذلك عندما يروى واقعة سابقة غير محققة ، يقدم كلامه أو يختمه بقوله : « الله أعلم » .

يتمتع المصريون بفضيلتى الجود والإحسان ، اللتين يبثهما الدين فى قلوبهم ، إلى درجة عالية . ولكن يبدو من تصريحهم أن انتظار الثواب فى الآخرة يحرضهم على الصدقة ، بقدر ما تحرضهم الشفقة ببنى جنسهم ، أو الرغبة المنزهة فى القيام بما يأمر الله . ويمكن من بعض الوجوه أن نعزو كثرة المتسولين فى القاهرة إلى ميل السكان إلى الإحسان . ومن آثار هذه الفضيلة أيضاً إقامة السبل الجميلة ، التى نراها فى هذه المدينة ، والسبل الوضيعة فى القرى والحقول(١) .

كان يسرنى كثيراً ، أول اختلاطى بالمصريين ، أن أشاهد شفقتهم فى معاملة الحيوان ، وأن أرى البعض يجمع أطراف ثيابه المرسلة ليتحاشى لمس كلب ، ثم يقذف للحيوان الدنس قطعة من الخبز الذى يأكله . وكانت جرائم القتل والسرقة وغيرها نادرة حينئذ . ولكنى أجد اليوم أغلب المصريين قد انقلبوا إلى الأسوأ فى شفقتهم نحو الحيوان(٢) وبنى جنسهم . ويبدو لأول وهلة أن شدة الحكومة المفرطة قد أوجدت فى الشعب البغى والميل إلى الإجرام ، إلا أننى أميل إلى الظن بأن سلوك الأوربيين أفضى كثيراً إلى هذه النتيجة ، إذ لا أتذكر أننى

(١) وأكبر السبل فى القاهرة ما أقيم فى عهد الترك والمماليك .
(٢) ولا تزال هذه الظاهرة منتشرة إلى يومنا وخاصة فى الريف وبين الأطفال . (المترجم)

رأيت قسوة فى معاملة الحيوان إلا حيث يسكن الفرنج أو حيث يترددون مثل الإسكندرية والقاهرة وطيبة. ويتقزز المرء من رؤية حمير النقل التعسة فى القاهرة، فأكثرها مصاب بجروح قرمزية كالياقوت الجمرى ، وتعقرها على الدوام حبال غليظة من مسد تربط بظهر البرذعة. وكثيراً ما يضرب الأطفال والرجال الكلاب فى الشوارع لمجرد اللهو. وكثيراً ما رأيت أطفالا يلهون بمضايقة القطط التى كانت محبوبة كثيراً قبلا(١) . وكانت جرائم السرقة والقتل تحدث أسبوعياً تقريباً أثناء الشهرين أو الثلاثة التالية لقدومى الثانى. وكان الحكام الترك يجورون على الفلاحين، ولكن بعض هؤلاء ، حين خلفوهم على الحكم ، فاقوهم فى الطغيان . والرأى العام أنهم ألعن من الأتراك(٢) .

ومع أنى أشاهد الآن على التوالى الكلاب الشريدة تُضرب فى شوارع القاهرة ، وهى هادئة لا تضر ، فلا أزال أرى بعضهم يطعمونها ، وأغلبهم فقراء . وفى كل حى من أحياء المدينة أحواض صغيرة تملأ يومياً للكلاب . ويؤجر أصحاب الحوانيت فى شارع واحد سقاء لرش الشارع وملء أحواض الكلاب . ويوجد أيضاً حوض للكلاب عند كل دكان لبيع الشراب . ويمكن أن نذكر هنا أن كلاب القاهرة ، وقلما يكون لها صاحب ، تكون جماعات منظمة مختلفة تقصر كل منها نفسها على حى تطرد منه كل كلب دخيل. وهذه الحيوانات تكثر جداً فى القاهرة. وهى تحرص على العموم أن تتجنب الإنسان، كما لو كانت تعلم أن أغلبية السكان تنبذها . ولكنها كثيراً ما تنبح عندما ترى أحداً يلبس الملابس الأفرنجية ، وتضايق المارة ليلا. وهذه الكلاب مفيدة لأنها تأكل سقط الذبائح التى يرمى بها من حوانيت الجزارة والبيوت . كما أن الكثير منها يتردد على أكوام الزبالة حول العاصمة، فنقتات، مع الصقور، من رمم الجمال والحمير التى تنفق فى المدينة. وأغلب الكلاب صهب اللون، والظاهر أنها تماثل بنات آوى شكلا وميولا .

---

(١) أعتقد أن من المناسب أن أذكر هنا أن لدى باعثاً قوياً على الاعتقاد بأن بركهاردت أنبىء خطأ حينما ذكر (« فى الأمثال العربية » رقم ٣٩٣) أن الأطفال الشرقيين فى مصر وغيرها يعذبون الثعابين بوضعها فى كيس من الجلد. ثم يلقون عليها جيراً يطفئونه بعد ذلك بالماء . ولم أجد واحداً سمع بهذه القسوة ، وليس من الممكن أن يجرؤ الأولاد فى هذا البلد على وضع ثعبان فى كيس ، لأنهم يخشونه كثيراً ، أو أنهم يغرمون قروشاً كثيرة فى شراء كيس يتلفونه بهذه الطريقة. وربما يشير المثل الذى بنيت عليه هذه الرواية إلى طريقة لقتل الثعابين لا اللهو بها.

(٢) وكثيراً ما يسمع الفلاح العرى يقول هذا المثل : « ظلم الترك ولا عدل العرب » ويطلقون لفظ « العرب » هنا على طبقتهم بدلا من لفظ البدو الذين يطلق عليهم الآن عادة اللفظ السابق . أنظر بركهاردت « الأمثال العربية » رقم ١٧٦ .

ولا يمنع رأى المسلمين فى الكلاب من الاحتفاظ بها للحراسة ، وأحياناً للتدليل. وقد حدث منذ زمن قصير حادث غريب من النوع الأخير. فقد اتخذت امرأة وحيدة فى هذه المدينة ، كلباً يؤانسها فى وحدتها . فاختطف الموت هذا الأنيس الوحيد ، فعزمت المرأة ، لحزنها وعطفها عليه ، أن تدفنه كأى مسلم فى قبر لائق فى مدافن الإمام الشافعى المقدسة . فغسلت الكلب طبقاً للقواعد المرعية عند وفاة المسلم وكفنته فى كفن جميل ووضعته فى نعش ، واستأجرت نادبات وأقامت عليه مأتماً حقيقياً . ولم يتم ذلك دون أن يثير عجب الجيران الذين لم يستطيعوا معرفة المتوفى ولم يتدخلوا لأنه لم يكن بينهم وبينها ألفة قط. ثم استأجرت المرأة مرتلين ليتقدموا الجنازة ، وتلاميذ لينشدوا ، ويحملوا المصاحف أمام النعش . وسار الموكب فى نظام مهيب ، وتبعت المرأة والنائحات النعش ، وهن يملأن الجو بصراخهن(١) غير أن الموكب لم يسر كثيراً إذا جترأت إحدى الجارات وسألت السيدة الحزينة من المتوفى . فأجابتها : « إنه ابنى المسكين » . فكذبتها السائلة ، فاعترفت الثكلى بأنه كلبها ، ورجت جارتها الفضولية أن تكتم السر . إلا أن احتفاظ المرأة المصرية بالسر ، وبسر مثل هذا ، مستحيل . فأذيع الخبر فى الحال ، وسرعان ما تجمع جمهور غاضب أوقف الجنازة . وصب المرتلون والمنشدون غضبهم على مستخدمهم بعدما استخلصوا منه نقودهم ، لأنه مكر بهم . ولو لم يتدخل الشرطة ، لذهبت المرأة على الأرجح ضحية هياج الشعب(٢) .

---

(١) وتذكرنى هذه الصورة بالمثل العامى « الجنازة حارة والميت كلب » الذى يقال للإشارة إلى تفاهة الموضوع فى مناقشة حارة . (المترجم)

(٢) يشير دربلو D'Herbelot إلى حالة مشابهة نوعاً . وهى أن تركياً احتفل بدفن كلبه العزيز فى حديقته ، فاتهم أمام القاضى بأنه دفن الحيوان طبقاً للشعائر الإسلامية . وتفادى التركى العقاب ، ولعله كان شديداً ، بأخبار القاضى أن الكلب أوصى إليه بقدر من المال . أنظر قاموس "Bibliothèque Orientale" مادة . Cadhi (المؤلف)

وبرتلمى دربلو دملنفيل Barthélemy d'Herbelot de Molainville (١٦٢٥ — ١٦٩٥) مستشرق فرنسى تلقى علومه فى جامعة باريس واهتم بدراسة اللغات الشرقية فسافر إلى موانى إيطاليا للتحدث مع الشرقيين الوافدين إليها استكمالا لدراسته وعاد إلى فرنسا ولم يلبث أن عين تاموساً شرقياً للملك ، وفى ١٦٩٢ عين مدرساً للغة السريانيــة فى Collège de France ، وأهم مؤلفاته القاموس العام عن شعوب الشرق المسمى Bibliothèque Orientale ، وقد أتمه جالان Galland فى سنة ١٦٩٧ وله قاموس آخر فى اللغات التركية والفارسية والعربية واللاتينية لم يطبع . (المترجم)

العجيب أن القطط الشريدة ، فى القاهرة ، تطعم على نفقة القاضى . فيوضع فى الساحة الكبرى أمام المحكمة عصر كل يوم مقدار من سقط الذبائح ، وتدعى القطط معاً لتأكل . وقد وقف السلطان الظاهر بيبرس على القطط ، كما علمت من كبير كتاب القاضى ، حديقة تسمى « غيط القطة » بجانب مسجده شمالى القاهرة . ولكن هذه الحديقة باعها الأمناء عليها ومشتروها ، على التوالى . وقد باعها السابقون بحجة أنها خربة ، فلا تصلح للإنتاج إلا بعد نفقات كثيرة . وتستغل الحديقة الآن حكراً بخمسة عشر قرشاً سنوياً ، تنفق فى إطعام القطط المتروكة . ومن ثم ألقيت نفقة القطط كلها على القاضى بحكم منصبه الذى يجعله حارساً على الأوقاف الخيرية ، فعليه أن يتحمل إهمال سلفه . ومع ذلك أهمل واجب إطعام القطط أخيراً . ويتخلص الكثيرون فى القاهرة من القطط ، بارسالها إلى بيت القاضى وإطلاقها فى الساحة الكبرى .

ذكرتُ قبلا مؤانسة المصريين بعضهم لبعض . وهم يخاطبون الأجانب الذين لا يوافقونهم فى الشمائل والعادات ، ولا يذهبون مذهبهم فى التفكير ، بأدب يشوبه الجفاء والحذر . وكثيراً ما يظهر المصريون نحو الأجانب وفيما بينهم أيضاً فضولا وقحاً . وهم يخشون كثيراً أن يجعلوا لهم أعداء ، فيدفعهم خوفهم هذا إلى أن يؤيد كل منهم الآخر ، ولو كان فى ذلك جرم .

ويعتبر المرح صفة ظاهرة فى الشعب المصرى . ويظهر البعض احتقاراً كبيراً للتسلية التافهة . ولكن الكثيرين يجدون فيها بهجة . ومن المدهش أن ترى المصريين يتسلون بأقل شىء ، فهم يبتهجون حيثما يوجد حشد وضجة وحركة(١) . وتخلو حفلاتهم العامة مما يسلى الرجل المثقف . ويبدو أن الطبقات السفلى تسعد كثيراً بالجلوس فى المقهى للتدخين وشرب القهوة بعد العمل اليومى(٢) .

إن الضيافة فضيلة فى الشرقيين تثير الإعجاب الحق للغاية . ويستحق المصريون من أجلها كل ثناء . ويطلق عادة على الزائر أو الضيف فى مصر كلمة

---

(١) والمصرى صخاب بطبعه . (المترجم)

(٢) وهى عادة سائدة إلى اليوم وتشمل أكثر أفراد الطبقات المتوسطة أيضا . وقد ادى انتشار النوادى الاجتماعية والأندية الخاصة إلى جذب الكثير من أفراد الطبقات المثقفة . (المترجم)

«مسافر»(١). وقل فى مصر من يفكر فى تناول طعامه وفى بيته غريب دون أن يدعوه إلى مؤاكلته ، إلا إذا كان المدعو من طبقة دنيا فيدعى إلى مائدة الخدم . ويعتبر امتناع المسلم عن الأمر باعداد المائدة فى الوقت المعتاد ، لأن زائراً دخل عرضاً مخالفة فاضحة للآداب(٢) . ويتناول أفراد الطبقة الوسطى عشاءهم أحياناً أمام أبواب دورهم ، عندما يعيشون منفردين ، فيدعون كل عابر جليل الهيئة ليأكل معهم. ويفعل هذا عادة أفراد الطبقة الدنيا . والاستضافة فى المدن نادرة ، لأن فيها وكالات أو خانات يستطيع الغرباء المبيت فيها ، كما أن الحصول على الطعام فيها أمر هين . أما فى القرى فكثيراً ما يضيف المسافرين شيخ القرية أو غيره من السكان . وفى العادة أن يقدم الضيف من الطبقتين العليا والوسطى ، عطية إلى خدم المضيف ، أو إلى المضيف نفسه . ولكن يندر أن تقبل عطية الضيف فى البادية . وللمسافر أن يستقرى ، بموجب السنة ، من يستطيع أن يقريه ثلاثة أيام . وتقدم لنا التوراة فى قصة إبراهيم وإضافته الملائكة الثلاثة ، صورة كاملة للطريقة التى يستقبل بها الشيخ البدوى الآن الوافدين على مخيمه . فهو يأمر زوجه أو نساءه بعمل الخبز فى الحال ، ثم يذبح نعجة أو غيرها ، ويطهيها على عجل ، ثم يحضر لبناً وأى طعام آخر مهيأ فيقدمهما لضيوفه مع الخبز واللحم الذى أعده . ويقف البدوى بين أيدى عظماء الضيوف أثناء تناولهم الطعام ، كما فعل إبراهيم فى القصة المشار إليها . ويكاد أغلب البدو يؤثرون الضيم على أن يرضوا بالإساءة إلى ضيوفهم مدة الضيافة . وهناك بدو يهدرون عفة زوجاتهم إكراماً لضيوفهم(٣). وقد تحققت من ذلك فى إحدى مخيمات قبيلة البشاريين الكبيرة التى يسكن أفرادها الصحراء بين النيل والبحر الأحمر ، حيث يقدم الكثير منهم بناتهم العذارى لحسن الضيافة فحسب(٤) .

---

(١) ظلت عبارة (أوضة المسافرين) تطلق إلى عهد غير بعيد على البهو المعد لاستقبال الزائرين . ولا يزال البعض يستعمل إلى اليوم هذه العبارة التى استبدل بها الكلمة المعربة (صالون) . وكان يلحق بمنازل العظماء مبنى صغير يقام منفصلا فى الحديقة ، ويعد لاستقبال الضيوف من الرجال . وكان يطلق عليه (السلاملك) وقد ظل قائماً إلى ما بعد الربع الأول من القرن الحالى بقليل . (المترجم)

(٢) أثر الوضع الاقتصادى فى ممارسة المصريين لتلك العادة، فانكمشت فى المدن إلى الزوال، وأصابها الهزال فى الريف. غير أن المصرى لايزال يتمسك بها شكلا، فيطلب من الضيف البقاء لتناول الطعام عندما يحين وقته ، وهو لا يقصد ذلك فى الواقع . (المترجم)

(٣) أنظر مذكرات بركهارت عن البدو الخ . الجزء الأول ، صفحتى ١٧٩، ١٨٠ .

(٤) يصف لين هذه العادة عند البشاريين فى رحلته إلى النوبة. أنظر المستشرق الكبير ادوارد وليم لين . (المترجم)

كان من المعتاد أن ترى فى القاهرة طوائف من « الطفيليين » الذين يستفيدون من ضيافة مواطنيهم ، فيعيشون على التطفل . إلا أن هذه الطائفة نقص عددها أخيراً . وكان من المؤكد تقريباً أن يوجد بعض هؤلاء الأبطال حيث تولم وليمة ، ولا يمكن التخلص منهم إلا بنفحة من النقود . وهم يتجولون أيضاً فى البلاد دون أن يملكوا فلساً واحداً ، فيتطفلون على المنازل الخاصة ، كلما احتاجوا إلى طعام ، ويسعون إلى ذلك بمختلف الحيل . وحُكى لى أن طفيليين عزما على الذهاب إلى مولد السيد البدوى فى طنطا ، وهى على مسيرة يومين ونصف يوم من القاهرة سفراً هيناً . فسار الطفيليان الهوينا حتى بلغا قليوب فى نهاية اليوم الأول ، وتحيرا فى الحصول على عشاء . فذهب أحدهما إلى القاضى ، وبعد أن حيّاه قال : « يا مولانا القاضى . أنا فى طريقى من الشرقية إلى مصر ، ومعى رفيق فى ذمته لى خمسون كيساً ، يحملها معه ويرفض أن يعطينى إياها ، وأنا فى حاجة إليها الآن » . فقال القاضى : « أين رفيقك؟ » فأجاب المدعى : « هنا فى هذه المدينة » . فأرسل القاضى من يحضر المتهم ، وأمر فى أثناء ذلك باعداد عشاء طيب ، إذ كان يتوقع رسماً كبيراً فى قضية كهذه . وهذا ما كان يفعله قضاة الأرياف فى مثل هذه الظروف . ودعا القاضى الخصمين إلى العشاء ، والمبيت قبل النظر فى القضية . ونُظرت الدعوى فى الصباح ، فسلم المتهم بوجود الخمسين كيساً معه وقال : « إنه مستعد لردها لأنه تتعبه ، فهى ليست سوى أكياس الورق التى يباع فيها البن » . ثم قال : « نحن طفيليان » . فطردهما القاضى غاضباً .

يعوزنا عند المصريين عامة ، وعرب البلدان الأخرى أيضاً ، العرفان بالجميل . وهو جرم نعتبره عظيماً (١) وإنى لأميل إلى اعتبار هذا الأمر أثراً من آثار الخلق البدوى يصدر من تعود البدو حسن الضيافة والكرم ، وشعورهم السائد بأن هذه الفضائل واجب يفرض عليهم إطلاقاً ، ومن العار إهمال القيام به .

إن اعتدال المصريين فى الطعام والشراب مثالى . فقلما رأيت ، منذ قدومى الأول مصرياً فى حالة سكر ما لم يكن عازفاً فى سامر ، أو راقصة ، أو عاهرة

(١) والملاحظ تناقض هذا الأمر وعرفان العربى بالجميل نحو الله ، وهو شعور لا شك فيه. وهم يردون على ذلك بقولهم إن الشرع يخول لهم حق الانتفاع من إخوانهم من البشر ولكن ليس من حقهم أن يجبروا خالقهم على إعانتهم . وقد حدث أن استجار بى بدوى خوفاً على حياته . ولم يشكرنى على ذلك عند انصرافه لأن قيامه بالشكر يفترض اعتبارى شخصاً حقيراً ينظر إلى ما فرضته التقاليد كأنه عمل يقتضى الاعتراف بالمنة . والعادة أن يعبر العربى عن شكره لما يقدم له من عون بطول العمر وما شابه ذلك فحسب .

من السفلة . ويبدى المصريون احتراماً عظيماً للخبز باعتباره سند الحياة(١) . ولا يجيزون البتة التبذير فى أصغر قطعة منه إذا استطاعوا تجنب ذلك . وكثيراً ما لاحظت بعضهم يرفع قطعة الخبز إذا سقطت عرضاً فى الطريق إلى فمه وجبهته ثلاث مرات ، ويفضلون وضعها على جنب لكى يأكلها كلب على أن يدوسها المارة(٢) . وقد روى لى كثيرون الحادث التالى الذى يدل على احترام المصريين للخبز إلى حد غير معقول ، ولكن ينبغى القول أن هذه الرواية يصعب تصديقها : كان خادمان يتناولان طعامهما جالسين لدى باب سيدهما عندما أبصرا مملوكاً يتجه نحوهما راكباً فى جمع من رجاله . فقام أحد الخادمين احتراماً للقادم العظيم . فصاح القادم غاضباً : « أيهما أحق بالاحترام، الخبز أم أنا ؟ » ثم أشار بيده إلى المذنب إشارة معلومة دون أن ينتظر منه جواباً ، فضرب عنقه فى الحال .

يراعى المسلمون المصريون من الطبقتين العليا والوسطى النظافة بدقة. وتعتبر الطبقة الدنيا فى مصر أكثر اعتناء بالنظافة من غيرها فى أغلب البلدان الأخرى(٣) . ولعل المسلمين ما كانوا يهتمون بالنظافة إلى هذه الدرجة لو لم يأمر بها الدين . ويبدو مما سبق ذكره فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، أن الواجب ألا نحكم على المسلمين ، نظراً لنظافتهم ، من تركهم أطفالهم فى حالة قذرة . ولا شك أن الوضوء أمر حكيم . فالصحة لا تكون فى البلاد الحارة إلا بالنظافة. ويحرص المصريون حرصاً خاصاً على تجنب كل ما قرر الدين قذارته ونجاسته ، فيمتنع المسلمون عن شرب النبيذ لعدة أسباب ، أحدها أنه نجس . وأعتقد أنه يندر حمل مسلم على تناول قطعة من لحم الخنزير ، ما عدا فلاحى البحيرة ، فأكثرهم يأكلون لحم الخنزير البرى والفيران(٤) . وقد تحدثت مرة مع مسلم فى موضوع

---

(١) ويطلقون على الخبز لفظ « عيش » ومعناه الحياة .

(٢) وعادة رفع قطعة خبز من الطريق ووضعها على جنب لا تزال قائمة . (المترجم)

(٣) من المؤسف ألا يراعى المصريون ذلك الأمر فى أيامنا ، فيهملونه فى أشخاصهم وفى منازلهم . (المترجم)

(٤) والكلاب أيضاً يأكلها الكثير من المغاربة المستوطنين الاسكندرية . وقد استقر بعض هؤلاء فى حى طولون بالقاهرة . (المؤلف)

ويقول عبد اللطيف البغدادى ، الذى وصف مصر حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد ، « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » : « ... ومنهم أصناف يأكلون الفأر المتولد فى الصحارى والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سمانى الغيط » . غير أننا لا نرى مثل تلك الصور الآن . (المترجم)

الخنزير ، فقال إن الفرنج شعب يفترى الناس عليه كثيراً . فلا شك أن المعروف عنهم أنهم يأكلون الخنزير ، ولكن بعض المفترين هنا يؤكدون أنهم لا يأكلون لحم هذا الحيوان النجس فحسب ، بل يأكلون جلده وأحشاءه والدم ذاته أيضاً . فلما اعترفت له بصدق التهمة ، انفجر يلعن الكفار ويدعو عليهم بالدرك الأسفل من النار .

يدين أكثر القصابين الذين يبيعون اللحم إلى أهل القاهرة المسلمين باليهودية . وقد اشتكى ، منذ سنوات مضت ، أحد العلماء الكبار إلى الباشا من هذا الأمر والتمس وقفه. وسمع بذلك عالم آخر فتبعه وألح أمام الباشا فى أن هذا العمل لا يخالف الشرع . فقال المشتكى: « قدم دليلك » . فأجاب الآخر : « دليلى قوله تعالى : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » (سورة الأنعام، آية ١١٨) . فاستدعى حينئذ رئيس القصابين اليهود وسأله هل يقول شيئاً قبل ذبح الحيوان ؟ فأجاب : « نعم . نحن نقول دائماً مثل المسلمين: باسم الله . الله أكبر . ولا نذبح الحيوان إلا بجز نحره » فصرف المشتكى حينئذ .

ذهب رجل منذ أيام قليلة إلى خباز ليشترى فطيرة ، فرآه يسحب من الفرن طبقاً به لحم خنزير كان يشويه لأفرنجى ، فاستدعى الرجل فى الحال شرطياً من أقرب قسم لأنه يعتقد أن من الممكن أن تكون الأشياء الأخرى لامست اللحم النجس فتلوثت . وألزم الشرطى أن يقود الخباز إلى الضابط . فلم يجزع الخباز واحتج بجهله أن اللحم كان خنزيراً . واعتبر الضابط الحادث مهماً يستدعى رفعه إلى ديوان الباشا . فرأى رئيس الديوان أن الأمر خطير يصعب الحكم فيه فأرسل المتهم إلى المحكمة . فاستفتى القاضى المفتى ، فأفتى أن كل طعام ، لا يكون نجساً فى أصله ، تطهره النار مما يلوثه . فيعتبر طاهراً كل طعام أنضج فى الفرن ولو لامس الخنزير .

واستقدم الباشا من أوربا ، منذ مدة قصيرة ، لديوان حريمه طقماً من الحشايا والوسائد حشيت بشعر الخيل . ففتحت السيدات إحدى الوسائد ليتحققن من المادة التى تجعلها وثيرة على هذا الشكل اللطيف . فلما رأينها من شعر الخنزير ، كما اعتقدن ، تقززن أشد التقزز ، وأصررن على طرح الديوان بأكمله .

واستخدم الباشا منذ سنوات قليلة رجلا فرنسياً لتكرير السكر ، فاستعمل الدم لهذا الغرض . ومنذ ذلك اليوم قل من يجرؤ من المصريين على استهلاك

السكر الذى يصنعه هـذا الإفرنجى(١) . فاضطر الباشا إلى تحريم استعمال الدم فى مصانعه واستبـدل به زلال البيض . وقد رأى بعض المصريين أن السكر الأوربى يفضل السكر المصرى ، فاستعملوا الأول على اعتبار أن ماكان طاهراً فى الأصـل يمكن أن يطهر مرة أخرى بعد تلوثه . ولـكنى مضطر إلى استعمال السكر المصرى غير المـكرر فى عمل الشراب لضيوفى ، إذ أن البعض يناقشنى طويلا فى هذا الموضوع .

جرت العادة أن يصب المصريون على ملابسهم بعد غسلها ماء نقياً ناطقين بالشهادتين(٢) . وقد ذكرت عنـد الكلام على الدين عادات أخرى فى النظافة يراعى المصريون أغلبها . ولـكن المصريين بالرغم من هـذه العادات والمبادىء فى الطهارة وتعودهم الاستحمام، لا يغيرون ملابسهم الداخلية كثيراً بقدر ماتفعل بعض الشعوب التى تعيش فى أقصى الشمال والتى لا تحتاج إلى ذلك كثيراً . ويذهب المصريون إلى الحمام مراراً فى ملابس قذرة يلبسونها بعينها ثانيـة بعـد استحمام تام .

يشتهر المصريون بفضيلة الحب البنوى . وقد سبق أن ذكرت الإحـترام الظاهر الذى يؤديه الولد إلى والديه . ويظهـر المصريون أيضاً احتراماً زائداً للمسنين(٣) ، وبخاصة المشهورين بالتقى والعلم . ويعتبر حب المصريين لوطنهم ، وعلى الأخص مسكنهم ، صـفة بارزة أخرى فى طباعهم . ويخشى المصريون على العمـوم هجر مسقط رأسهم . وقد سمعت الـكثيرين يقررون السفر إلى الخارج بغيـة كسب عظيم ، ولكن عزمهم يفتر عنـدما يقترب موعد السفر . وقد خفف أخيراً من حدة هذا الشعور مايعانيه البعض من شدة الظلم . ولا شك أن هذا الشعور نشأ إلى درجـة عظيمة من جهل الناس لحالة البلاد الأجنبيـة وسكانها . ويحتمل أن يكون هذا الشعور ذاته السائد بين العرب السابقين قد حث محمداً على الوعـد بمثل تلك المكافأة الجليلة لمن يهجر بلده فى سبيـل

---

(١) ويذكرنى ذلك بحادث مشابه وقع بعد أن عرفت مصر لأول مرة الشراب الغازى الأمريكى المسمى كوكاكولا ، ولحق به نوع آخر يسمى بيبسى كولا . فسرت إشاعة قد يكون مصدرها منافس ماهر، أن مادة البيبسين التى تستخدم فى صناعة هذا الشراب تستخرج من معدة الخنزير . فأوقفت هذه الاشـاعة حركة البيع وقتاً غير قصير . وقد حاول الفرنسـيون أن يمنعوا دخول الكوكاكولا فى بلدهم فأعلنـوا فى كل مكان أنها تسبب السرطـان ولكن الأمريكان تغلبوا عليهم ودخل هذا الشراب وساد السوق .

(٢) ويعبرون عن ذلك بقولهم : إن فلاناً « شاهد الحوايج » بدلا من « غسـل الحوايج وتشهد عليها » .

(٣) أنظر لاويين ١٩ – ٣٢ : « من أمام الأشيب تقوم وتحترم وجه الشيخ وتخشى إلهك . أنا الرب » .

الدين(١) . وقد سمعت البعض يدلل على حب المصريين العجيب لمسقط رأسهم ، بأنه يندر أن ترضى امرأة أو فتاة ، أو يسمح والدها ، بالاقتران بمن لا يعد بالبقاء فى مدينتها أو بلدتها . ولكنى أظن أن الإحجام عن ترك الموطن فى هذه الحالة ينتج من خوف المرأة أن تفتقر إلى حماية أهلها . ويتعلق البدو بصحراواتهم ، ويحتقرون الحضريين والفلاحين ، إلى درجة تجعل المرء يعجب من أن يُدفع الكثيرون منهم إلى الاستقرار على شواطىء النيل الخصبة أيضاً . ومع أن المصريين من نسل البدو إلى حد كبير ، فهم لا يشابهونهم فى حب الصحراء، وإن شابهوهم فى حب الوطن . وتزود الرحلة إلى الصحراء من يقوم بها من المصريين بقصص مطنبة فى المتاعب والمجازفات والعجائب ، التى يغرمون بروايتها إلى مواطنيهم ذوى الخبرة القليلة .

يعم الكسل جميع طبقات المصريين(٢)، ما عدا الذين يضطرون إلى كسب حياتهم بالأشغال اليدوية الشاقة. وهذا الكسل نتيجة المناخ وخصوبة الأرض . ويبذل العامل بالآلات أيضاً ، بالرغم من شدة طمعه فى الربح ،يومين فى عمل يستطيع بسهولة إنجازه فى يوم ، ويهمل أكثر الأعمال ربحاً ليصرف وقته فى التدخين . غير أن البواب ، والسائس الذى يجرى أمام جواد سيده ، والنوتية الذين يستخدمون فى جر المراكب صاعدين فى النهر وقت سكون الجو واشتداد حرارته ، يقاسون ، مثل الكثير من الفعلة الآخرين ، تعباً شديداً .

يعرف المصريون أيضاً بصلابة الرأى إلى حد الإفراط . ولقد ذكرت ، فى فصل سابق ، أن المصريين اشتهروا ، منذ عصر الرومان ، بامتناعهم عن دفع الضرائب حتى يضربوا ضرباً موجعاً ، وأنهم كثيراً ما يفتخرون بمقدار الجلدات التى ينالونها قبل أن يتخلوا عن نقودهم . وهم لا يرون غرابة فى مثل هذا التصرف.وقد حكى لى مرة أن فلاحاً فرض عليه الحاكم ما قيمته خمسة شلنات تقريباً ، ففضل أن يقاسى الجلد على أن يدفع هذا المبلغ الزهيد ، وقرر أنه لا يملكه ، فأمره الحاكم بالانصراف . وقبل أن ينصرف لطمه على وجهه ، فسقطت من فمه قطعة ذهبية بقدر المبلغ المطلوب تماماً،فكأن الضرب مع قسوته عجز عن حمله على الدفع . وتبدو هذه الحال غريبة فى طباع المصريين . ولكن يسهل تبريرها بأن المصريين يعلمون تماماً أنه كلما دفعوا عن طيب خاطر طمع

---

(١) فات لين أن العرب كانوا بطبعهم يميلون إلى الارتحال والتجوال . (المترجم)

(٢) والمصرى يميل دائماً إلى تأجيل عمله إلى الغد . ومن المألوف أن يسمع المرء هذه العبارة رداً على من يستعجل أمراً: ليه هى الدنيا انهدت . أو : الصباح رباح . (المترجم)

الحاكم فى أموالهم . على أن المصريين بوجه آخر يمتازون بشدة العناد وصعوبة المقادة ، بالرغم من امتثالهم الشديد فى طباعهم ومهنهم . ويندر أن يحمل المرء الصانع المصرى على أن يصنع شيئاً حسب الطلب تماماً . فلا بد أن يفضل رأيه على رأى مستخدمه ، ويصعب أبداً أن ينجز عمله فى الميعاد المضروب. ولا يعوز فلاحى مصر ، مع خضوعهم الشديد لحكامهم ، الشجاعة عندما ينهضون لخصومة بينهم . وهم يبرعون فى الجندية .

ولا شك أن المصريين مثل شعوب الأقاليم الحارة يفوقون الشعوب الشمالية فى الاستسلام للشهوات . على أن هذا الإفراط لا ينسب إلى المناخ فقط ، ولكن ينسب على الأخص إلى نظام تعدد الزوجات، وسهولة الطلاق كلما اشتهى الرجل زوجة جديدة(١)، وإلى عادة التسرى. ويقال أيضاً كما أعتقد حقاً إن المصريين، فيما يختص ذلك ، يسبقون الشعوب المجاورة التى تماثلهم فى الدين والنظم المدنية(٢)، وإن بلدهم لا يزال يستحق تسمية « دار الفاسقين » التى أطلقها القرآن، فى سورة الأعراف، آية ١٤٥ ، على مصر القديمة، طبقاً لرأى خير المفسرين. وقد أشاع المماليك الفاحشة فى مصر ، فأصبح الفسق هنا أكثر انتشاراً منه فى البلدان الشرقية . ولكنه على حد القول قل كثيراً فى السنوات الأخيرة .

يستبيح المصريون من الجنسين وفى كل طبقة ، البذاءة المفرطة فى الحديث ، حتى أعف النساء وأوقرهن ، عدا القليل منهن ، يستعملن الكلام الغليظ ، ولكن دون بذاءة . وكثيراً ما ينطق المثقفون عبارات فاحشة ، لا تلائم غير أحط المواخير . ويذكر أرق النساء ، فى حضرة الرجال ، أشياء وأحاديث ، قد تعف العاهرات فى بلادنا عن ذكرها ، دون أن يدركن مخالفة ذلك للآداب .

توصف نساء مصر بأنهن ، فى أهوائهن ، أفسد النساء اللاتى ينتمين إلى أمة متحضرة . ويخلع مواطنوهن من الرجال هذه الصفة عليهن بسخاء حتى فى أحاديثهم مع الأجانب . ولا شك أن فى المصريات كثيرات يشذذن عن ذلك . ويسرنى أن أسوق هنا تعليقاً لصديقى الشيخ محمد عياد الطنطاوى على عبارة

(١) تحد القيود الاقتصادية من قدرة المصرى على التمتع بنظام تعدد الزوجات . ويرجع الاستسلام للشهوات أكثر ما يرجع ، علاوة على مناخ البلد ، إلى ما يصيب المجتمع فى عصره من انحراف . (المترجم)

(٢) وليس معنى ذلك أنه يقع على الأتراك أو عرب الصحراء .

فى ألف ليلة وليلة ، قال : « يعد الكثيرون الزواج مرة ثانية من الأعمال الشائنة . ويسود هذا الرأى مدن الريف وقراه . ويمتاز أخوالى بهذا ، حتى أن المرأة عندهم ، إذا توفى زوجها أو طلقها فى شبابها ، تترمل ما بقيت فلا تتزوج مرة أخرى أبداً ». ولكنى أخشى أنه ينبغى التسليم ، نظراً إلى غالبية المصريات ، بأنهن جد فاجرات . وقد اشتط أكثرهن ، كما يقال ، فى استعمال الحرية . ولا يعتبر أغلبهن مصونات إلا إذا أغلقت عليهن الدار ، وقل منهن من يخضعن لهذا القصر . ومن المعتقد أن المصريات يملكن شيئاً من الدهاء فى تدبير الحيل التى يعجز الزوج عن تجنبها مهما كانت فطنته وحرصه ، وأنه قلما تخيب لذلك حيلهن مهما عظم الخطر الظاهر لما يباشرنه . وقد يكون الزوج نفسه أحياناً وسيلة لإشباع ميول زوجه الإجرامية بدون علمه . وتعرض لنا بعض قصص ألف ليلة وليلة فى مكائد النساء صوراً صادقة عن حوادث لا يندر وقوعها فى عاصمة مصر الحديثة . ويرى كثيرون فى القاهرة أن جميع النساء تقريباً على استعداد أن يدبرن الدسائس متى استطعن ذلك بدون خطر ، وأن الكثيرات يباشرن ذلك فعلا . ويؤلمنى أن يكون الرأى السابق صحيحاً ، وأكاد أكون مقتنعاً أن الحكم الأخير شديد القسوة ، إذ يبدو من التقاليد السائدة المتعلقة بالمرأة أنه لابد مكذوب . ويصعب على من لا يعرف العادات والطباع الشرقية معرفة كافية أن يدرك مشقة الاختلاط بالمرأة فى هذا البلد . فلا يصعب على المرأة من الطبقة الوسطى أو العليا إدخال عشيقها فى مسكنها فحسب ، بل يستحيل عليها تقريباً أن تلقى رجلا ذا حريم على انفراد فى منزله الخاص ، أو تدخل منزل رجل أعزب دون أن تثير ملاحظات الجيران وتَدَخُّلهم المباشر . وإذا لم يكن بُد من التسليم باقدام الكثيرات من المصريات على المكائد مع وجود مثل هذه المخاطر ، فقد يكون صحيحاً أن الصعوبات التى تعترضهن هى العائق الرئيسى لكثير من المكائد . أما عند نساء الطبقة السفلى ، فالمكائد أكثر وقوعاً وأسهل إنجازاً .

يمكن أن نعزو ميل المصريات إلى اللذات الشهوانية ، وفساد أخلاق الكثيرات منهن إلى عدة أسباب ينسب بعضها إلى المناخ ، والبعض الآخر إلى حاجتهن إلى التعليم المناسب ، والتسلية البريئة والاشتغال بعمل(١) . ولكن ذلك

(١) ذكرت فى الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، ضمن ما قدمت من هذه الأسباب ، ما افترضته مدى القيد المفروض على النساء وعزلهن عن الاختلاط بالجنس الآخر . ولم يدفعنى إلى افتراض ذلك أن القيد قد يجعل المرأة تشعر بالاضطهاد كما قد تكون فى الغرب لمعارضته العادات السارية ولكن لأن جزم المصريين بأن المرأة الشرقية تميل إلى الانحراف أكثر من الرجل يبدو حجة تخالف القاعدة الرئيسية التى يقوم عليها المجتمع الشرقى . وإنى لأجد أن هذه الحجة توافق على الأقل ما ذكرت من قبل ، أن أكثر النساء فسقاً (أى المصريات) فى الشرق هن أكثرهن حرية .

يرجع على الأكثر إلى سلوك الأزواج أنفسهم ، وهو سلوك أكثر خزياً لهم من الصرامة الشديدة التى يستعملونها فى تنظيم الحريم . فجميع الأزواج فى مصر يسعون إلى تحريك شهوة نسائهم بكافة الوسائل التى فى قدرتهم ، مع أنهم فى الوقت ذاته ، يكدون ويثابرون لمنع زوجاتهم من إشباع هذه الشهوة بطريق يخالف الشرع . وهم يسمحون للنساء بالإصغاء من وراء الشبابيك إلى الأغانى الخليعة والروايات الفاحشة التى ينشدها فى الشارع رجال يؤجرون لذلك . كما يسمحون لهن بمشاهدة رقص « الغوازى » الشهوانى « والخولات » المخنثين . ويأذنون للغوازى ، وحرفتهن الدعارة ، بدخول حريم الأغنياء ، لا لتسلية السيدات بالرقص فحسب بل لتعليمهن الفنون الشهوانية . وقد يجلب أحياناً لتسلية الحريم دمى لا حشمة فيها .

روى لى عن كيد المصريات حكايات لا حصر لها. أذكر نموذجاً منها القصة التالية ، وقد حدثت أخيراً : تزوج نخاس شابة جميلة من هذه المدينة ، وكان يملك مالاً يهيء له عيشاً رغداً ، ولكنه فقد أكثره ، فكان له من ثروة امرأته عوض. ولم يلبث الرجل مع ذلك أن أهمل زوجه . ولكنه كان قضى عهد الشباب ، فلم تكترث زوجه لذلك ، ومالت إلى رجل آخر يعمل زبالاً ، وكان قد تعود الحضور إلى منزلها . فاشترت لهذا الزبال دكاناً بجانب المنزل ، ونفحته مبلغاً من المال يصلح به شأنه ببيع الحبوب والعلف . ثم أخبرته أنها ابتكرت طريقة لزورها فى اطمئنان تام . وكان لحريمها شباك بمصراعين قامت أمامه على قرب منه نخلة تعلو المنزل . فلاحظت أن الشجرة تقدم لعشيقها وسيلة للوصول إلى غرفتها والهرب منها وقت الخطر ، وكان لها خادمة واحدة تعهدت بمساعدتها على تحقيق رغباتها . وفى اليوم السابق لأول زيارة لعشيقها أمرت خادمتها أن تخبر الزوج بما سيحدث فى الليلة التالية . فعزم الزوج على مراقبة زوجه ، وأخبرها أنه لن يعود إلى المنزل تلك الليلة ، ثم اختبأ فى غرفة سفلى . ولما جن الليل جاءته الخادمة تخبره بحضور الزائر إلى الحريم . فصعد إلى أعلى ولكنه وجد باب الحريم مقفلا . وعندما حاول فتحه صرخت زوجه ، وحينئذ هرب عشيقها من الشباك عن طريق النخلة . واستغاثت الزوجة بجيرانها وأخبرتهم أن لصاً فى دارها . ولم يلبث أن حضر كثيرون منهم ، فوجدوها قد أوصدت باب غرفتها على نفسها ، وزوجها فى الخارج ، فأخبروها أن ليس بالبيت غير زوجها وخادمتها . فقالت إن من يدعونه زوجها هو اللص لأن زوجها يبيت خارج المنزل.

فأخبرهم الزوج حينئذ بما حدث ، وأكد أن رجلا معها . وكسر الباب وبحث فى الغرفة ، ولكنه لم يجد أحداً . فلامه الجيران ، وشتمته زوجته لافترائه عليها . واصطحبت فى اليوم التالى إثنين من جيرانها ، الذين حضروا على صراخهـا ليشهدا أن زوجها قذفها فى عرضها ، واتهمته فى المحكمة أنه رمى امرأة عفيفة دون رؤية أو شهود . فحكم عليه بثمانين جلدة تبعاً لما جاء فى القرآن : « والذينَ يرمونَ المحصنات ثمَّ لم يأتوا بأربعةِ شُهداء فاجلدوُهمْ ثمانينَ جلدة » (سورة النور ، آية ٤) . وطلبت الزوجة بعد ذلك من زوجها أن يطلقها فرفض. وعاشا معاً ثلاثة أيام بعد هذا الحادث فى سلام . وفى الليلة الثالثة، دعت الزوجة عشيقها ليزورها ، وقيدت زوجها يديه ورجليه أثناء نومه وشدته إلى حشيته . وجاء عشيقها ، فأيقظ الزوج وهدده بالموت العاجل إن صاح . ومكث مع الزوجة ساعات فى حضوره . ولما خرج المعتدى ، فكت الزوجة وثاق زوجها ، فنادى الجيران ، وأخذ يضربها بقسوة وهى تستغيث . وحضر الجيران ورأوه هائجاً ، فلم يشكوا فى قولها أن الرجل مجنون . فخلصوها من قبضته ، وهم يحاولون تهدئته بالكلام اللطيف ، ويدعون الله أن يشفيه . وأسرعت الزوجة باستدعاء رسول القاضى ، وذهبت معه هى وزوجها وكثير من الجيران الذين شاهدوا الحادث إلى القاضى . وأجمع الجيران على أن الزوج مجنون ، فأمر القاضى بوجوب إرساله إلى المارِستان(١) . ولكن الزوجة تكلفت الشفقة والتمست السماح لها بتقييده فى غرفة من غرف منزلها ، حتى يمكنها أن تخفف من آلامه بالاعتناء به . فوافق القاضى مثنياً على عطف المرأة ، داعياً الله أن يكافئها . وحصلت الزوجة بعد ذلك على طوق من حديد وسلسلة من المارستان ، وقيدت زوجها فى حجرة سفلى من المنزل . وجعل عشيقها يزورها كل ليلة فى حضور الزوج ، ثم تلح عليه بعد ذلك أن يطلقها بلا جدوى . وكان الجيران يحضرون يومياً للسؤال عنه ، فيشكو لهم من امرأته ويتهمها ، فلا يجيبونه بغير قولهم « شفاك الله ! شفاك الله ! » . واستمر هكذا شهراً ، فلما تبين للزوجة إصراره على الرفض أرسلت فى طلب حارس من المارستان لينقله إليه . والتف الجيران حوله عند خروجه من المنزل ، وصاح أحدهم : « لا حول ولا قوة إلا بالله !

---

(١) وينطقها العامة مرستان بضم الميم وكسر الراء . (المؤلف)

ذكر المؤلف كلمة مارستان بكسر الراء والمعروف فتح الراء . وهذه الكلمة فارسية أصلها بيمارستان مركبة من بيمار بمعنى مريض وستان بمعنى مكان ثم اختصرت فصارت مارستان. أنظر المعرب من الكلام الأعجمى لأبى منصور الجواليقى طبعة دار الكتب سنة ١٣٦١ هـ .

(المترجم)

شفاك الله ! » وقال آخر : « يا خسارة ! كان رجلا فاضلا حقا » وقال ثالث ملاحظاً : « حقاً ، إن الباذنجان(١) كثير الآن » . وأخذت الزوجة تزور زوجها كل يوم فى المارستان ملحة فى طلب الطلاق ، وهو يرفض . فتقول له : « ستظل إذن مقيداً حتى تموت ، وسيأتى عشيقى عندى على الدوام » . وأخيراً رضى الزوج بالطلاق ، بعد أن حبس سبعة أشهر . فأخرجته من المارستان ونفذ وعده . وكان عشيق الزوجة من طبقة دون طبقتها ، فلا يمكن أن يكون زوجاً لها ، فبقيت عزبة ، وظلت تستقبله متى تشاء . غير أن الخادمة كشفت عن حقيقة الأمر . ولم يلبث الحادث أن أصبح حديث الناس .

تتعرض الزانية إذا كانت زوجة لثرى أو لذى منصب ، كما يتعرض عشيقها لأهوال عظيمة(٢) . وقد حدث أخيراً أن انتهزت زوجة أحد ضباط الجيش الكبار فرصة غياب زوجها عن العاصمة ، فدعت لزيارتها تاجراً مسيحياً اعتادت أن تشترى منه الحرائر . فذهب التاجر إلى منزلها فى الوقت المعين ، فوجد عند الباب أحد الأغوات قاده إلى منزل آخر ، وجعله يتنكر فى ملابس سيدة . ثم عاد به وأدخله على سيدته . وقضى التاجر الليل كله تقريباً فى بيت المرأة ، ثم نهض قبل أن تستيقظ ، وأخذ فى جيبه كيس نقود كان قد أعطاه إياها . ونزل إلى الأغا ليقوده مع أخرى إلى المنزل الذى تنكر فيه ، فاسترد ملابسه ، وقصد دكانه . ولم تلبث السيدة التى افتقدت الكيس أن ذهبت إليه ، واتهمته بأخذه . ثم أخبرته أنها لا تريد نقود ولكنها تبغى رفقته فقط . ورجته أن يعود إليها فى الليلة التالية فوعد بالحضور . غير أن إحدى خادمات السيدة ذهبت إلى دكان التاجر عصراً ، وأخبرته أن سيدتها مزجت بعض السم فى الماء لتقدمه إليه . ويقال إن المرأة كثيراً ما تختار هذه الطريقة لتنتقم من عشيقها لأقل إهانة .

يندر أن ترتكب الزوجة المسلمة الزنا دون أن تعاقب بالموت إذا شهد على الواقعة أربعة شهود . ويرفع الشهود أو الزوج دعوى الزنا . وقلما تنجو الزانية من العقاب إذا ضبطها أحد الضباط . فلا يلزم فى هذه الحالة شهود أربعة ، وإنما تعدم المرأة سراً ، إذا كانت من عائلة محترمة ، تحت سلطة الحكومة

---

(١) يقال إن الجنون ينتشر ويشتد فى موسم الباذنجان الأسود ، أى فى الجو الحار .

(٢) وقال لى أحد الأصدقاء : كم رجل فقد حياته بسبب النساء ! لقد كان يعيش فى هذا المنزل الذى تسكنه الآن شاب خليع جميل الصورة . وقد قطع رأسه هنا فى الطريق أمام باب منزله لعلاقة أثيمة مع زوجة أحد البكوات . وقد بكته نساء مصر جميعاً .

الاستبدادية . غير أن الرشوة قد تخلصها أحياناً، لأنها تُقبل دائماً إذ لم يكن هناك خطر . وتكاد عقوبة إغراق الزانية تحل الآن محل الرجم فى القاهرة وغيرها من مدن مصر الكبيرة .

ويحكى أن امرأة فقيرة من هذه المدينة تزوجت من بائع طيور . وبينما هى تعيش مع زوجها وأمها فى سكن ، اتخذت ثلاثة مساكن أخرى ، وتزوجت ثلاثة أزواج آخرين كانوا جميعاً يتغيبون عن القاهرة . وحسبت هكذا أنه يسهل عليها إذا جاء أحد الثلاثة إلى المدينة لبعض أيام ، أن تجد عذراً للذهاب إليه . ولكن حدث لسوء حظها ، أن قدم الثلاثة فى اليوم نفسه ، وذهبوا فى مساء ذلك اليوم يسألون عنها فى منزل أمها . فارتبكت لحضورهم معاً ولوجود زوجها الأول أيضاً . فتظاهرت بالمرض ، وسرعان ما تصنعت الإغماء ، فحملتها أمها إلى غرفة داخلية . واقترح أحد الأزواج إعطاءها شيئاً يقويها ، وأراد آخر تجربة دواء مختلف . وأخذ الجميع يتناقشون فى أى الأدوية أفضل . وقال أحدهم : سأعطيها ما يحلو لى . أليست امرأتى ؟ فصاح الآخرون فى صوت واحد : « امرأتك ! إنها امرأتى » وأثبت كل واحد زواجه . فقدمت الزوجة إلى المحكمة وحكم بأدانتها ، وقُذف بها فى النيل . وقد حدث حادث مشابه لهذا أثناء زيارتى الأولى ، فقد تزوجت امرأة ثلاثة من جنود النظام ، فدفنت فى حفرة إلى صدرها وأعدمت بالرصاص .

قد تعتمد المرأة أحياناً على الظروف المخففة ، أو على معونة أصدقاء أقوياء ، لتنجو من عقوبة الإعدام إذا ضبطت فى معاشرة أثيمة ، وذلك كالحادث التالى : زوّج الباشا إحدى جواريه من نخاس غنى ، كان الباشا قد اشترى منه كثيراً من مماليكه وجواريه . ولم يكن الرجل يخون زوجه فحسب ، بل كان يهملها تماماً . فصاحبت تاجراً كانت تعامله صحبة غير لائقة . وحدث ذات يوم فى غيبة الزوج أن رأى أحد عبيده السود رجلا فى شباك الحريم . فذهب تواً إلى غرفة الزوجة ليبحث عن الرجل . وسمعته الزوجة قادماً ، فأدخلت عشيقها فى غرفة ملحقة وأغلقتها عليه . ففتح العبد الباب عنوة . فهجم عليه الرجل بخنجر كان يحمله فى حزامه ، ولكن العبد قبض على النصل بيده . وعاقته الزوجة حتى هرب عشيقها ، ثم قبلت يده وتوسلت إليه ألا يخبر زوجها فيسبب قتلها . غير أنها وجدته صُلباً لا يلين . فذهب العبد فى الحال إلى سيده وأراه يده الدامية وأخبره بالحادث . وهربت المرأة فى أثناء ذلك تنشد الحماية

فى حريم الباشا . وطلب الزوج من الباشا أن يرد زوجته عليه ليقتلها. فاستدعاها الباشا وسألها عن جريمتها ، فرمت بنفسها عند قدميه وقبلت طرف ثوبه ، وأخبرته بسوء أخلاق زوجها وإهماله الشديد لها . فبصق الباشا فى وجه النخاس ، لأنه اعتبر أن سلوكه إهانة له ، وأعاد الزوجة إلى حريمه . ولم يعش عشيقها طويلا بعد ذلك . فقد خنق فى منزل بعض البغايا ، ولم تعاقب البغى لعدم ثبوت التهمة عليها .

يؤخذ على المصريين والمسلمين عامة القسوة الشديدة فى معاملة النساء . حقاً أنهم لا يعتبرون استشارة الفتاة القاصر قبل زواجها ضرورياً ، ولكن الغالب أن الرجل فى الطبقتين الوسطى والعليا ، يكاد يختار زوجه على السماع دون أن يراها ، إذ لا حيلة له فى رؤيتها قبل أن يعقد وتنقل إلى منزله . فيستحيل لذلك أن يكون هناك محبة متبادلة قبل الزواج . والحقيقة أن الجنسين معاً تثقل عليهما القوانين والعادات الجائرة، ولكنهما من حسن الحظ يعتبران هذه القيود ملائمة مشرفة ، وقد يشعران بالعار فى التخلص من هذه العادات. وقد لاحظت أن الحجاب الواقع على النساء يكون باختيارهن إلى حد كبير . وأعتقد أنه أقل صرامة فى مصر منه فى أى بلد آخر من بلاد الدولة العثمانية . ومن المؤكد أن هذا الحجاب أقل جداً مما صوره لى الكثيرون . وينظر النساء إلى هذا الاحتجاب بفخر من حيث أنه يدل على عناية الزوج بهن ، كما أنهن يقدرن أنفسهن بقدر حجبهن كالكنوز(١) . ولا يليق فى المجتمعات الطيبة ، أن يستفسر المرء بطريقة مباشرة عن حال زوجة الصديق ، أو امرأة ما فى منزله إلا إذا كانت قريبة له. وسأل أحد معارفى المصريين آخر كان فى باريس عن أغرب الأشياء التى رآها فى بلاد الكفار، فأجابه الآخر وهو يظن أن كل ما شاهده حرى أن يثير إعجاب العاقل البعيد عن التعصب : لم أر شيئاً يستحق الاعتبار مثل هذه الحال: جرت العادة ، فى باريس وغيرها من مدن فرنسا ، أن يدعو كل من الأغنياء والعظماء أصدقاءهم ومعارفهم، رجالا ونساءاً معاً إلى حفل فى منزله . ويستقبل الضيوف فى غرف تضاء بعدة شموع وقناديل . وهناك يختلط الرجال بالنساء، وأولئك كما تعلم سافرات . ويستطيع الرجل أن يجالس زوجة رجل آخر ، وهو لم يرها

---

(١) وتخاطب السيدة المحترمة فى رسالة كما يأتى : السيدة المصونة والجوهرة المكنونة .

من قبل ، ويستطيع أن يسايرها ، ويحادثها ، ويراقصها أيضاً ، فى حضور زوجها ، الذى لا يغضب ولا يغير لمثل هذا السلوك المخزى » .

يشتهر المصريون أيضاً بكرمهم وجشعهم على السواء . وإن اجتماع مثل هاتين الصفتين المتناقضتين فى ضمير واحد يدهش ، ولكن هذا هو الحال مع هذا الشعب. ويعتبر الغش والمكر فى التجارة ، ويوجد فى جميع الشعوب ، إحدى نقائص المصريين الذائعة . وقلما يتردد المصرى فى مثل هذه الأحوال عن الكذب ليكسب . ويميل الشعب الذى يئن تحت نير الجور والجشع ، الذى امتازت به حكومات مصر طويلا ، إلى الشح دائماً . لأن المرء بالطبع يتمسك بما هو أكثر عرضة للضياع . ولذلك يعمد المصرى المضيم ، إذا ملك مبلغاً من المال لا يلزمه حالا إلى شراء مصاغ لامرأته أو لنسائه ، إذ يسهل عليه تحويل المصاغ ثانية إلى نقود . ومن ثم أيضاً جرت العادة فى هذا البلد ، وفى أكثر البلدان التى تخضع لهذه الظروف السياسية ، أن يخبىء الرجل أمواله فى منزله تحت البلاط أو فى أى موضع آخر . ولما كان الكثيرون من هؤلاء يموتون فجأة ، دون أن يطلعوا أسرهم على مكان « المخبأ » ، فان من المألوف أن تكتشف نقود عند هدم المنازل . وهناك رذيلة تقرب من الجشع وهى الحسد . وأعتقد أنها تكثر بين المصريين المحدثين ، والشعوب العربية بأجمعها على السواء . ويعترف الكثيرون مدفوعين بسلامة النية أن هذا الميل الكريه يكاد يتركز فى أذهان شعوبهم تماماً .

والمصريون أمناء فى الوفاء بديونهم . وقد بين الرسول أن لا شىء ، حتى الاستشهاد ، يكفر عن دين لم يوف . وقل من المصريين من يقبل فائدة على قرض أقرضه ، إذ أن الشرع يشتد فى تحريم ذلك .

إن دوام الصدق فضيلة نادرة للغاية فى مصر الحديثة . وقد ترخص الرسول فى الكذب إذا وفق بين الناس فى منازعة ، أو أرضى زوجة ، أو أفاد فى حرب على أعداء الدين . غير أن الكذب فى أحوال أخرى محظور بشدة . ويبرر ذلك بعض التبرير عادة الكذب السائدة بين العرب المحدثين ، إذ أن السماح لشعب بالكذب فى أحوال يعوده بالتدريج الكذب فى غيرها . ومع أن أكثر المصريين يكذبون عمداً ، فقلما تسمعهم يرجعون عن تحريف غير مقصود دون أن يقولوا :

« لا . أستغفر الله. إنه كذا وكذا ». كما يقولون عندما يقررون شيئاً لا يتأكدون منه تماماً : الله أعلم .

ويمكنني أن أذكر هنا ، وأنا أشعر بالفخر ، الحادث التالي : كان في القاهرة صائغ أرمني اشتهر بالصدق إلى درجة أن عملاءه قرروا تسميته اسماً يدل على تمتعه بفضيلة قلما توجد فيهم ، فلقبوه بالإنجليزي ، وصار من بعد ذلك لقباً لعائلته . والمعتاد أن تسمع التجار هنا يقولون عندما يطلبون ثمناً لا ينوون إنقاصه : كلمة واحدة ، « كلمة الإنجليز » . وكثيراً ما يقولون أيضاً في هذا المعنى : « كلمة الفرنج » . ولكني لم أسمع أبداً بأمة كرمت هذا التكريم غير الإنجليز والمغاربة . وقد اشتهر هؤلاء دون أغلب العرب الآخرين بالصدق في القول .

أشرت سابقاً إلى عادة القسم بالله السائدة بين المصريين وينبغي أن أضيف هنا أن الكثيرين منهم لا يترددون عن القسم ليدرأوا عن أنفسهم تهمة الكذب . وقد يقولون في هذه الحالة أحياناً : والله (بكسر الهاء) أو عادة : والله (بالتسكين). كأنهم يزعمون أن الصيغة الأخيرة يجوز استعمالها في الدعاء . أما « والله » (بالكسر) فهو قسم صريح ، والنطق به كذباً إثم كبير . ويكفر عن هذه اليمين بإطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، أو صيام ثلاثة أيام(١) . على أن هذه الكفارة رخص القرآن بها لقسم طائش فقط . ولكن المصريين المحدثين يراعونها أحياناً ليحرروا أنفسهم من وزر قسم كاذب مقصود. ويفضلوا الصوم على الكفارات الأخرى . وهناك إيمان أعتقد أن بعض المسلمين لا يترددون في القسم بها كذباً مثل قولهم ثلاثاً : « والله العظيم » ، أو القسم على المصحف بقولهم : « بما يحتوى هذا من كلام الله » ، ولكن القسم الذى لا يزال يعتمدون عليه هو قولهم : « عليّ الطلاق » أو « عليّ الحرام » أو « عليّ الطلاق بالثلاثة »(٢) فاذا كذب الرجل في أحد هذه الأقسام الثلاثة ، تصبح امرأته طالقة إذا ثبت حنثه . وإذا كان للرجل أكثر من زوجة ، وجب عليه أن يختار

---

(١) سورة المائدة ، آية ٨٩ .

(٢) وعادة القسم بالله وبالمصحف لاتزال منتشرة انتشاراً عاماً . وكذلك القسم بالطلاق ينتشر خاصة بين أهل الريف وأفراد الطبقات السفلى أو الجاهلة.. (المترجم)

إحداهن فيخصص بها الطلاق . غير أن هناك كاذبين فاسدين يقسمون زوراً بأشد الإيمان إلزاماً (١). وقد قال الشاعر يصف هذا الخلق .

وأكذب ما يكون أبو المعلىّ   إذا آلى يميناً بالطلاق

ويسهل تحريض المصريين على المشاجرة ، وخاصة السفلة الذين يتشاتمون فى ثورتهم بسب الآباء والأمهات واللحى الخ ، ويسرفون فى نعت كل من الآخر بأحط النعوت كأن يقول : يا ابن الكلب، أو يا قواد، أو يا خنزير . وهناك تسمية أخرى يرونها أشد الشتائم على الدوام، وهى قولهم : يا يهودى. وعندما يسب أحد المتخاصمين الآخر ، يجاوبه هذا بلعن أبيه وأمه، وأحياناً بلعن العائلة جميعها . ويهدد كل منهما الآخر ، ولكن قلما يبادران إلى الضرب . غير أننى رأيت ، فى أحوال قليلة ، بعض السفلة ثائرين إلى درجة أن كلا من المتشاجرين كان بعض الآخر ويقبض عليه من حلقه . وشاهدت أيضاً عدة مرات أفراداً من الطبقتين الوسطى والسفلى يتحملون السب الغليظ . وكثيراً ما سمعت المصرى يقول عندما يضربه نـد له : « الله يبارك فيك . الله يجازيك خيراً . اضربنى مرة أخرى » . وتنتهى المشاجرة عادة بأن يقول أحد الطرفين أو كلبهما : « الحق علىّ » وكثيراً ما يقرآن الفاتحة بعد ذلك ، ثم يتعانقان ويقبل كل منهما الآخر أحياناً .

ويميل المصريون خاصة إلى الهجاء . وكثيراً ما يظهرون ذكاء فى تهكمهم ومرحهم . وتساعدهم اللغة العربية على استعمال التورية والحديث المبهم الذى يتهكمون فيه بكثرة . وتهجو الطبقات السفلى أحياناً حكامها فى الأغانى ويسخرون من هذه القوانين التى يقاسونها كثيراً . وقد تسليت مرة بأغنية شائعة فى أسوان وإقليمها . وكانت هذه الأغنية دعاء صادقاً بأن يبيد الطاعون حاكمهم المستبد وكاتبه القبطى(٢). وكانت فى مصر كلها أغنية ذائعة أثناء زيارتى

---

(١) ويصدق ذلك على أهل الريف. فلا يتردد الريفى فى الإسراع إلى القسم على المصحف وهو كاذب وكأنه يرى فى ذلك القسم خلاصاً له باعتبار الأمر ينتهى بهذا القسم .   (المترجم)

(٢) وقد اشتهر هذا الحاكم بقسوته الفائقة وطريقته فى تأديب أفراد الشعب بنفسه باستخدام قضيباً من الحديد واشتهر أيضاً بكنيته (أبو طربوش) لتعوده لبس الطربوش بدون عمامة. وكان أهل البلد يحملون الكراهية له وللمعلم ، الكاتب القبطى، الذى يجبى الضرائب =

الأولى ألفت لزيادة ضريبة « الفـرْدة » وكانت تبدأ هكذا : « ياللى عندك لبده، بعْها وادفع الفرده » . واللبدة كما ذكرت قبلا غطاء رأس من اللبد يلبس تحت العمامة أو بدلها . ويعتبر من ليس له غطاء رأس غير اللبدة فقيراً جداً .

= أيضاً ، فألفت أغنية يدور كلامها حولها وكان المراكبية لا يترددون فى ترديد هذه الأغنية على مسمع من جنود الأغا (فصـل ٤ مجلد ٣ من كتـاب لين Description of Egypt أنظر المستشرق الكبير وليم لين ص ١٣٦ . (المترجم)

والمصرى نكات لاذع بطبعـه وهو يفوق الكثير من الشعوب فى مقدرة أفراده على إرسال (النكت) للتهكم على تصرفات الحكام التى لا تناسب أحواله . ويجد القارىء فى قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية مقالا طويلا فى النكت المصرية تحت عنوان ابن نكتة . (المترجم)

الفصل الرابع عشر

الصناعة

من المحزن أن يوازن المرء بين فقر مصر الآن وبين رخائها قديماً، حينما كان اختلاف الصناعات وأناقتها وإتقانها تثير إعجاب الأمم المجاورة، وكان المصريون في غنى عن التجارة الخارجية لتنمية الثروة أو زيادة الرفاهية. وقد دل الكشف عن الآثار على أن المصريين انفردوا إلى حد كبير في السمو بالفنون في عهد موسى وقبل ذلك أيضاً. ولم يكن الفراعنة والكهنة وقواد الجيش في تلك الأزمنة الغابرة يعيشون وحدهم في ترف رفيع، ويلبسون أرق الأنسجة الكتانية، ويجلسون على سرر وكراسي نستخدمها نماذج لأثاث أبهائنا الحديثة، بل كان الكثير من أغنياء المزارعين وغيرهم من الأفراد كأولئك. ولا تزال الطبيعة تجود بنعمها على سكان وادي النيل كما كانت في قديم الزمن. غير أن المصريين لم يعودوا ينعمون لعدة أجيال بحكومة مستقرة، فكان كل من الولاة المتعاقبين في هذه المدة الطويلة يعمد إلى تنمية ثروته الخاصة لعدم توطد ولايته. وهكذا هلك بالتدريج كثير من المصريين، وقضى على الباقين أن يعيشوا في عوز أليم. وإذ كان الذكور من السكان يكاد عددهم يزيد على القدر اللازم لزراعة الأراضي التي يغمرها الفيضان، أو يسهل ريها بالوسائل الصناعية، كان عدد هؤلاء الذين يحترفون الصناعة في هذا البلد شديد القلة نسبياً. ولا تتم أعمال المصريين عن براعة كبيرة لقلة التنافس وعدم تشجيع الأغنياء. غير أن انحطاط الصناعات اليدوية يرجع، إلى حد بعيد، إلى سبب آخر وهو أن السلطان سليم التركي بعد أن غزا مصر نقل على ما قال الجبرتي(1)

---

(1) في ابتداء كتابه (المؤلف).

قال الجبرتي في الجزء الأول من تاريخه عند ذكر ملوك الجراكسة «وأخذ (أي السلطان سليم) صحبته ما انتقاه من أرباب الصنائع التي لا توجد في بلاده بحيث أنه فقد من مصر نيف وخمسون صنعة». (المترجم)

عدداً كبيراً من البارعين فى الحرف التى لا تمارس فى تركيا ، فقضى بذلك على أكثر من خمسين صناعة يدوية فى مصر .

حرم الإسلام، كما سبق أن بينت، استخدام التصوير والنحت فى رسم الأحياء. غير أن بعض المسلمين المصريين يحاول رسم الرجال والأسود والجمال وغيرها من الحيوان والزهور والقوارب، وذلك على الأخص لزخرفة واجهات الحوانيت وأبواب الحجاج كما يقولون، وإن كانت محاولاتهم هذه تفوقها رسوم صغار الأطفال عندنا(١) . ولكن الدين الإسلامى يسَّر الصناعة خاصة ، باستلزامه أن يعرف كل امرىء فناً أو عملاً يمكنه، وقت الضرورة ، من سد حاجته وإعالة من يتولى أمرهم ، والقيام بواجباته الدينية والأدبية . ويبرع المصريون على الأكثر فى فن العمارة . فتجد أجمل نماذج العمارة العربية فى العاصمة المصرية وضواحيها ، وليست المساجد والأبنية العامة الأخرى وحدها هى التى تستحق الاعتبار لعظمتها وجمالها، ولكن الكثير من المساجد الخاصة أيضاً تثير الإعجاب، ولا سيما هيئتها الداخلية وزخرفها . على أن هذا الفن كأغلب الفنون الأخرى انحط كثيراً فى السنوات الأخيرة. فقد أخذ المصريون عن الأتراك طرازاً جديداً ساذج الشكل ، بعضه شرقى وبعضه أوربى وفضلوه على العربى . وتنم الأبنية ذات الطراز القديم ، أبوابها وسقوفها وبلاطها التى سبق وصفها ، عن ذوق فريد . وكذلك أكثر الصناعات المصرية تنم عن الذوق وإن كان الكثير منها ينقصه الإتقان . وكان الخراطون، وشغلهم الأول عمل الشبابيك، كثيرى العدد، وكان عملهم حينذاك أكثر إتقاناً . أما الآن فقد قلت أعمالهم ، لأن نوافذ المنازل الحديثة تصنع من الزجاج. ولا يظهر المصريون المحدثون فى صناعة الزجاج التى اشتهروا بها قديماً مهارة كبيرة ، فقد انحط عندهم فن الزجاج الملون. غير أنهم لا يزالون موضع الإعجاب فى صناعة النوافذ الزجاجية ، وإن لم يكن ذلك بقدر ما كان فى السنوات الماضية ، قبل أن ينقص تفضيل الطراز الجديد من أعمالهم. والصناعة الخزفية فى مصر غليظة ، وهى تشمل عمل القلل والجرار، لحفظ المياه وتبريدها . ويستحق المصريون الشهرة التى نالوها فى مهارة إعدادهم السختيان. ويستعمل المصريون السعف وأوراق النخيل فى صناعات مختلفة ، فيصنعون من السعف الأقفاص والكراسى والصناديق والسرر الخ. ، ومن الأوراق، السلال

---

(١) لم يعد المسلمون يتمسكون بهذا التحريم على الإطلاق . وقد أطلق المصريون العنان لطاقاتهم الفنيـة الكامنة فى أعماقهم ، فقدموا فى مجال النحت والرسم والتصـوير العديد من الروائع . (المترجم)

والقفف والحصر والمكانس والمذبات ، وغير ذلك من الآلات . ويفتلون من ألياف النخيل أكثر الحبال المصرية . ويصنعون أحسن الحصر ، التى يستخدمونها صيفاً بدل البسط ، من السمار . وقد فقدت مصر الشهرة التى نعمت بها قديماً فى صناعة الكتان الرقيق ، فالملابس الكتانية والقطنية والصوفية التى تغزل فى هذا البلد غليظة الصنف حقيرته(١) .

اشتهر المصريون طويلا فى صناعة التفريخ . ويبدو أن هذه الصناعة كانت شائعة فى مصر فى سالف الأزمنة ، وإن وصفها الكتاب الأولون وصفاً غامضاً . وهم يطلقون ، فى الوجه البحرى ، على البناء الذى يتم فيه التفريخ « معمل الفراخ » ، وفى الصعيد ، « معمل الفروج » . وفى الوجه البحرى أكثر من مائة معمل ، وفى الصعيد أكثر من نصف ذلك العدد . ويكون أغلب مراقبى هذه المعامل ، إن لم يكن جميعهم ، من الأقباط . وتفرض الحكومة على هذه المعامل ضريبة . ويبنى المعمل بالآجر أو اللبن ، ويتكون من أفران ومواقد صغيرة للنار ، على صفين متوازيين ، يفصل بينهما دهليز معقود ضيق . ويبلغ حجم كل من الأفران ، تسع أقدام أو عشراً طولا تقريباً ، وثمانى أقدام عرضاً ، وخمساً أو ستاً ارتفاعاً . ويعلو كلا منهما موقد مقبو ، لا يختلف عنها حجماً ، والأفضل أن يكون أقل ارتفاعاً . ويتصل الفرن بالدهليز ، بواسطة فتحة تسمح للإنسان بالدخول ، كما يتصل بالموقد بفتحة مماثلة . وتتصل المواقد ، فى الصف نفسه ، بعضها ببعض أيضاً ، ولكل كوة فى قبوه لمرور الدخان ، ولا تفتح إلا عرضاً . وكذلك الدهليز يوجد به عدة كوى كالسابقة فى سقفه المعقود . ويوضع البيض فى الأفران ، فوق الحصر أو على القش ، عادة على طبقات ثلاث يعلو بعضها بعضاً . ويحرقون السرقين (الجلة) فى المواقد التى تعلو الأفران . ثم يقفلون مدخل المعمل باحكام . ويتقدم المعمل ، حجرتان أو ثلاث حجرات صغيرة ، للمراقب وللوقود ، وللفراخ الناقفة حديثاً . ويجرى هذا العمل شهرين أو ثلاثة ، فى صيف كل عام . ويبدأ التفريخ مبكراً فى الصعيد . ويشمل كل معمل بين إثنى عشر وأربعة وعشرين قرناً ،

---

(١) ظلت الصناعات اليدوية ، على اختلاف أنواعها ، تمتاز بدقة الإتقان وحسن الذوق حيث لا يزال المسرء يشاهد فى خان الخليلى منتجات تنطق بآيات الجمال . غير أن الصناع ، وهم من الجيل القديم ، آخذون فى الانقراض ، وسوف يحكم بالتالى على تلك الصناعات بالاندثار ، ما لم يكون جيل جديد يتلقى أصول المهنة من القدامى القليلين . (المترجم)

ويتلقى حوالى مائة وخمسين ألف بيضة فى الموسم السنوى ، يخيب منها ربعها أو ثلثها . ويورد الفلاح البيض ، فيفحصه المراقب ، ويناول الفلاح عادة مقابل كل بيضتين فرخة صغيرة . ويستعمل نصف الأفران فى الأيام العشرة الأولى ، وتوقد النار فى المواقد العشرة التى تعلوها . ثم تطفأ فى اليوم الحادى عشر ، وتوقد المواقد الأخرى ، ويوضع البيض الطازج فى أسفل الأفران . وفى اليوم التالى ، ينقل بعض البيض من الأفران السابقة ، ويوضع فى رماد مواقدها . وتظل الحرارة أثناء العملية بين مائة ومائة وثلاث درجات ، بقياس فارنهايت . ويعرف القائم بهذا العمل ، من تجاربه الطويلة ، الحرارة اللازمة لنجاح العملية دون الاستعانة بآلة ترشده ، لتعوده هذا العمل من صغره . وفى اليوم العشرين ينقف بعض البيض الموضوع أولا ، ولكن أغلبه يفرخ فى اليوم الحادى والعشرين . وتوضع الفراريج الضعيفة فى الدهليز ، وما بقى يوضع فى أقصى الغرف الداخلية ، حيث تبقى يوماً أو يومين قبل أن تسلم إلى مستحقيها . وعندما تنقف البيضات الأولى ونصف الثانية تتلقى الأفران التى كانت فيها دفعة ثالثة ، ثم توضع دفعة رابعة ، بالطريقة نفسها ، عندما تفرخ الدفعة الثانية .
ولا يقل الدجاج الذى نقف بهذه الطريقة طعماً عن دجاج البيض الذى يحتضن طبيعياً . ويقل دجاج مصر وبيضه فى كلتا الحالتين حجماً وطعماً عن دجاج بلادنا وبيضه . وقد وجدت فى إحدى الجرائد المصرية ، التى تنشر بأمر الحكومة (العدد ٢٤٨ : ١٨ رمضان سنة ١٢٤٦ ، ٣ مارس سنة ١٨٣١) الإحصاء التالى :

	الوجه البحرى	الوجه القبلى
عدد معامل التفريخ فى العام الحالى	١٠٥	٥٩
عدد البيض المستخدم	١٩٫٣٢٥٫٦٠٠	٦٫٨٧٨٫٩٠٠
عدد البيض المعطوب	٦٫٢٥٥٫٨٦٧	٢٫٥٢٩٫٦٦٠
عدد المفقس	١٣٫٠٦٩٫٧٣٣	٤٫٣٤٩٫٢٤٠

ولا تزال تجارة مصر عظيمة ، وإن انحط شأنها كثيراً منذ اكتشاف طريق الرجاء الصالح بين أوروبا والهند ، ونتيجة لسياسة محمد على وخلفائه باحتكار التجارة والاستيلاء على البضائع . وقد تقدمت التجارة كثيراً فى السنوات القليلة الأخيرة لاستخدام البواخر الكثيرة بين الأسكندرية وانجلترا ، وفرنسا ،

والنمسا من ناحية ، وبين السويس والهند من ناحية أخرى ، وبانشاء السكك الحديدية فى الوجه البحرى .

تستورد مصر من أوربا : الأقمشة الصوفية من فرنسا خاصة ، والشيت ، والموصلى الساذج ، والمصور للعمائم من اسكتلندة ، والحرائر والمخمل ، والكريشة والشيلان المقلدة عن الكشميرى من اسكوتلندة ، وانجلترا ، وفرنسا ، وورق الكتابة من البندقية خاصة ، والأسلحة النارية ، والنصال المستقيمة من ألمانيا ، وتستورد هذه للنوبيين الخ . ، والساعات ، والفناجين ، والأوانى الخزفية والزجاجية المختلفة ، وأغلبها من ألمانيا ، والخردة ، والألواح الخشبية ، والمعادن ، والخرز ، والنبيذ ، وغيره من الأشربة . وكذلك يستوردون الرقيق الأبيض ، والحرائر ، والمناديل والفوط المطرزة ، ومباسم الشبك ، والبوابيج ، وضروباً من السلع المصنوعة ، والأدوات النحاسية والبرنزية الخ . من الأستانة . ويستوردون من آسيا الصغرى ، البسط وسجاجيد الصلاة ، والتين الخ . ومن سورية الدخان والحرائر المخططة ، والعباءات ، والصابون . ومن جزيرة العرب البن ، والتوابل ، وعقاقير عديدة ، والسلع الهندية كالشيلان والحرائر الموصلية الخ . ومن الحبشة وسنار والبلدان المجاورة ، الجوارى ، والذهب ، والعاج ، وريش النعام ، والكرابيج ، وأقراص التمر الهندى ، والصموغ ، والسنا . ومن الغرب ، أى شمال أفريقية غرب مصر ، الطرابيش ، والبرانس ، والأحرمة ، وأحذية السختيان الأصفر .

وأهم ما يصدر إلى أوربا القمح ، والذرة ، والأرز ، والفول ، والقطن ، والقنب ، والنيلج ، والبن ، والتوابل المختلفة ، والصموغ ، والسنا ، والعاج ، وريش النعام . وإلى تركيا ، العبيد السود والأحباش ذكوراً وأناثاً ، والأغاوات ، والأرز والبن والتوابل والحناء الخ . وإلى سوريا العبيد ، والأرز الخ . ، وإلى جزيرة العرب الحبوب خاصة . وإلى سنار والبلدان المجاورة أقمشة من القطن والكتان والصوف ، وبعض الحرائر المخططة السورية والمصرية ، والأبسطة الصغيرة ، والخرز وحلى أخرى ، والصابون ، والسيوف المستقيمة السابق ذكرها ، والأسلحة النارية ، والأدوات النحاسية ، وورق الكتابة .

ليتبين القارىء قيمة النقود فى القاهرة أثناء السنوات الأخيرة أقدم فيما يلى قائمة أسعار بعض الأطعمة العادية أثناء زيارتى الثانية . ومنذ أن أصبحت مصر مرة ثانية طريق الهند ، ومجمع السائحين الذين زاد عددهم عن السنوات السابقة ،

زادت أسعار السلع المختلفة زيادة عظيمة. وتقل الأسعار فى مدن الأرياف وقراها عنها فى العاصمة ، فيكون سعر اللحم والطيور والحمام نصف الأسعار المذكورة هنا تقريباً ، وسعر القمح والخبز يكون من ثلثها إلى نصفها :

		فضة	قرش
	صـ		
القمح	: الأردب من ٥٠ إلى	٠٠	٦٣
الأرز	: « حوالى	٠٠	٢٤٠
الضأن	: الرطـل	٠٠	١
لحم البقر	: «	٣٥	٠٠
الطيـور	: الواحد من قرش وعشر فضة إلى	٢٠	١
الحمام	: الزوج « « « « «	٢٠	١
البيض	: الثـلاث بيضـات	٥	٠٠
الزبـد	: الرطـل	٠٠	٢
السـمن	: « من قرشين إلى	١٠	٢
الـبن	: « من سـتة قـروش إلى	٠٠	٧
التبغ الجبلى	: الأقة من ١٥ قرشاً إلى	٠٠	١٨
التبغ السورى	: « من خمسة قروش إلى	٠٠	١٠
السكر المصرى المخروط	: الرطـل	٠٠	٢
السكر الأوربى	: الرطل	١٠	٢
العنب فى موسمه	: «	١٠	٠٠
العنب المتأخر	: « من ٢٠ فضـة إلى	٣٠	٠٠
البسـكويت	: القنطـار	٠٠	١٦٠
المـاء	: القربة من ١٠ فضة إلى	٢٠	٠٠
خشب الوقود	: حمـل الحمار	٠٠	١١
الفحـم	: الأقة من ٢٠ فضة إلى	٣٠	٠٠
الصـابون	: الرطـل	٣٠	١
الشمع المصنوع من الشحم	: الأقة	٢٠	٨
الشمع الجيد	: الأقة	٠٠	٢٥

وفى القاهرة أبنية عديدة تسمى الواحـدة منها « وكالة(١) » تخصص لإيواء

(١) ويقال « الوكالة » (وينطقها الفرنج occaleh ، occal الخ) بدلا من «دارالوكالة» . وتعنى دار وكلاء التجار .

التجار ، وخزن بضائعهم . والوكالة بناء يحيط بساحة مربعة أو مستطيلة . وتتكون طبقتها السفلى من مخازن مقببة للبضائع ، تواجه الساحة ، وتستعمل أحياناً حوانيت . ويعلو هذه المخازن مساكن يدخل إليها من رواق يمتد على طول جوانب الساحة الأربعة . وقد يعلو هذه المخازن بدلا من المساكن مخازن أخرى . وتستعمل الغرف المعدة للسكنى فى أكثر الوكالات مخازن . ولا يكون للوكالة غير باب عام واحد ، يقفل ليلا ، ويحرسه بواب . وفى القاهرة من هذا النوع حوالى مائتى وكالة . ويقع ثلاثة أرباعها فى نطاق المدينة الأصلية .



شكل ٦١
(دكاكين فى إحدى شوارع القاهرة)
وموضوع هذا الشكل دكان العطار ويبيع العقاقير والعطور والشمع الخ .. ويرى على الدرفة جلة (يا فتاح) أنظر الفصل الحادى عشر

ذكرت قبلا فى مقدمة هذا الكتاب ، أن شوارع القاهرة الكبرى ، يقوم على جانبيها صفان من الدكاكين ، لا تتصل بالبناء الأعلى . ويلاحظ ذلك فى أكثر الشوارع الفرعية . وتخصص الدكاكين (شكل ٦١) عادة فى الشارع الواحد ، بعضه أو كله لتجارة واحدة(١) ، فيسمى سوق كذا باسم هذه التجارة ، أو باسم المسجد المقام هناك . ويطلقون على أحد أقسام الشارع الرئيسى فى هذه المدينة : « سوق النحاسين » ، أو « النحاسين » فقط ، لأنهم يسقطون عادة لفظة « سوق » . والأقسام الأخرى : « الجوهرية » ، و « الخردجية » ، و« الغورية » ، وهذا القسم الأخير باسم المسجد المقام فيه . وهذه هى بعض أسواق المدينة المهمة . ويطلقون على السوق التركى الرئيسى :

(١) وقد ظل الأمر كذلك طويلا فى البلدان الشرقية الأخرى . أنظر أرميا ٢١/٣٧ : « فأمر الملك صدقيا أن يضعوا إرميا فى دار السجن وأن يعطى رغيف خبز كل يوم من سوق الخبازين حتى ينفذ كل الخبز من المدينة » .

« خان الخليلي » . ويبطون بعض الأسواق بحصر ، أو ألواح ، تحملها عوارض تمتد فى الشوارع أعلى الدكاكين قليلا ، أو فوق المنازل(١) .

يتكون الدكان من كوة مربعة الشكل ، أو حجرة صغيرة (شكل ٦٢) ارتفاعها ست أقدام أو سبع تقريباً ، وعرضها بين ثلاثة أقدام وأربع . وقد يتألف الدكان من حجرتين ، تتقدم الواحدة الأخرى ، وتستعمل الأخيرة مخزناً (٢) . ويقام أمام الدكان مصطبة(٣) بالحجر أو الآجر يستوى سطحها بأرضية الدكان . وترتفع المصطبة عادة حوالى قدمين ونصف أو ثلاثة أقدام ، ويكون عرضها كارتفاعها . وتجهز واجهة الدكان بمصاريع ثلاثة سهلة الطى يعلو بعضها بعضاً ، فيثنى أعلاها إلى فوق ، ويطوى الآخران إلى أسفل فوق المصطبة ، فتكون مقعداً مستوياً يفرش بالحصر أو البسط وبالوسائد أحياناً . وتستبدل بعض الدكاكين بالمصاريع السابق ذكرها أبواباً منثنية .

شكل ٦٢
(دكان تاجر تركى فى سوق « خان الخليلى »)

ويجلس التاجر غالباً على المصطبة ، ما لم يضطر إلى الانسحاب قليلا داخل الدكان ليخلى المكان لمن يصعد إليه من حرفائه ، الذين يخلعون أحذيتهم قبل أن يطأوا الحصيرة أو البساط بأقدامهم . ويقدم التاجر الشبك إلى حرفائه الدائمين ، أو من يشترى بضاعة كثيرة ، إلا إذا كان هؤلاء يحملون شبكهم . ثم يرسل إلى أقرب مقهى فى طلب القهوة ، التى تقدم فى فناجين صغيرة من الخزف

---

(١) وقد علمت عندما تركت مصر نهائياً أن أغلب هذه الأغطية يوشك أن يزال .
(٢) يحتفظ التاجر ببضائعه الزائدة فى هذا المخزن أو فى مسكنه أو فى وكالته .
(٣) أزالت الحكومة المصاطب من أغلب الشوارع .

الصينى ، داخل ظروف من النحاس الأحمر . ولا يستطيع أكثر من شخصين أن يجلسوا براحة على مصطبة الدكان ، ما لم تكن هذه أوسع من المعتاد . غير أن بعض المصاطب تمتد إلى ثلاثة أقدام أو أربع ، فيكون عرض الدكان حينئذ خمس أقدام أو ستاً ، فيفسح المجال لأربعة أشخاص ، أو أكثر ، يجلسون الجلسة الشرقية . ويقيم التاجر صلاته على المصطبة على مرأى من المارة . وقد يترك التاجر دكانه وقتاً ، فيطلب من جاره أن يخفره له ، أو يعلق شبكة على بابه . ويندر أن يفكر التاجر فى ضرورة إغلاق دكانه قبل الانصراف إلى منزله ليلا ، أو الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة . أما الغرف التى تعلو الدكاكين فقد وصفتها فى مقدمة الكتاب .

إن طرق المساومة التى يتبعها المصريون فى معاملاتهم تضايق كثيراً من لم يتعودها(١) فعندما يستفهم العميل عن ثمن سلعة ، يطلب منه التاجر أكثر مما يرجو كسبه ، فيستكثر المشترى السعر ويعرض على البائع نصف المبلغ أو ثلاثة أرباعه . فيرفض التاجر ، غير أنه يخفض سعره ، فيعرض العميل بدوره مبلغاً زائداً نوعاً . وتستمر المساومة هكذا حتى يصلا إلى سعر وسط ، فتتم المبايعة . وأعتقد أن السائحين الأوربيين يذمون التجار المصريين بغير حق ، وذلك بعد أن تحققت أن أكثرهم لا يكسبون أكثر من واحد فى المائة . ويعمد من يجد سلعة توافقه ، ويبغى اقتناءها بثمن زهيد ، إلى المساومة مع التاجر طويلا . فيصعد إلى مصطبة الدكان ويستريح ، ثم يحشو شبكه ويشعله ، ثم يبدأ النقاش الذى يستمر طويلا . وقد يقطع التاجر أو العميل المبايعة بأحاديث غير مناسبة ، كأنه عزم على ألا يناقش فى الأمر أكثر من ذلك . ولا تلبث المساومة أن تعود . ويتناول خادم العميل من التاجر ، بعد إتمام الصفقة وانصراف سيده ، نفحة صغيرة من المال . ولا يتردد الخادم فى طلب هذه النفحة إذا لم يقدمها التاجر من تلقاء نفسه . ويقام فى أغلب أسواق القاهرة مزايدات فى أيام محددة ، مرة أو مرتين فى كل أسبوع . ويتولى هذه المزايدات دلالون يستأجرهم أصحاب الشأن من الأفراد أو التجار ، ويرفع الدلال البضاعة فى يده معلناً الأسعار ويصيح : « حراج »(١) (بتعطش الجيم أو بدون تعطيشها) . وكثيراً ما يعمد

---

(١) لا يزال المصريون يولعون بالمساومة فى البيع والشراء . (المترجم)

(١) حرجت (بتشديد الراء) البضاعة فى يد الدلال : بلغت منتهى الزيادة فى ثمنها . — الحراج (بفتح الحاء) : وقوف البضاعة مع الدلال عند ثمن لا مزيد عليه . (المنجد) (المترجم)

أفراد الطبقة السفلى عند إتمام صفقات بأبخس الأثمان إلى الصياح والإشارات ، فيظن من يجهل اللغة العربية أن طرفى المساومة يتشاجران ، وأن الغضب قد بلغ منهما أشده . وقد يستفهم المرء عن ثمن ما يبيعه الفلاحون ، فيقولون : « تقبله هدية »(١) ، واثقين أن المستفهم لن يستفيد من قولهم هذا الذى أصبح من لغو الحديث . ويكرر الفلاحون قولهم هذا عند الاستفهام مرة أخرى ، غير أنهم يطلبون على العموم أسعاراً باهظة .

من الممل أن أذكر جميع الحرف الشائعة هنا . وأصحاب أهم هذه الحرف : بائع الأجواخ وهو يبيع أقمشة الملابس ، وبائع الملابس الجاهزة والأسلحة الخ . ، ويطلق عليه فى كلتا الحالتين إسم (التاجر) فقط ، و (الجوهرجى) و (الصايغ) ، وهو لا يشغل إلا حسب طلب عملائه ، وبائع الخردوات (الخردجى) و (النحّاس) و (الخياط) و (الصبّاغ) و (الرفّا) و (الحبّاك) ، صانع الشريط الحريرى الخ . ، و (العقاد) ، صانع الحبال الحريرية ، وبائع الشبك (الشبكشى) و (العطار) وهو يبيع الشمع أيضاً ، و (الدخاخنى) و (الفكهانى) و (النقلى) ، بائع الفاكهة المجففة ، وبائع الشراب (الشربتلى) و (الزيّات) ، ويبيع مع الزيت الزبد والجبن والعسل الخ . و (الخضرى) و (الجزّار) و (الفرّان) ، ويرسل إليه الخبز واللحم للشى . ويوجد فى القاهرة مطاعم عديدة يطهى فيها الكباب وأصناف مختلفة أخرى ، ولكن قلما يتناول الناس طعامهم فى هذه المطابخ ، وإنما يرسلون فى طلب ما يلزمهم حين لا يستطيعون إعداد الطعام فى منازلهم . وكثيراً ما يتناول التجار غداءهم وعشاءهم من هذه المطابخ . ويوجد أيضاً عدة دكاكين لصنع الفطير وغيره وبيع الفول المدمس . وقد وصفت هذين الطعامين فى فصل سابق . ويتناول أفراد الطبقة السفلى طعامهم عند (الفطاطرى) أو (الفوّال) .

يباع الخبز والخضر وغير ذلك من الأطعمة فى الشوارع . وينادى الباعة المتجولون نداءات غريبة تستحق الذكر . فيصيح بائع الترمس(٢) : « مدد يا امبابى » . ويعنى بهذا القول إما الاستعانة بالشيخ الامبابى ، وهو ولى مشهور

---

(١) كما فعل عفرون مع ابراهيم عندما صرح الأخير برغبته فى شراء مغارة المكفلية وحقله . أنظر سفر التكوين ٢٣ - ١١ : لا ياسيدى اسمعنى ، الحقل وهبتك إياه . والمغارة التى فيه لك وهبتها لدى عيون بنى شعبى وهبتك إياها أدفن ميتك » ويقال هذا عادة منعاً للحسد .

(٢) وهو أكثر الباعة المتجولين ظهوراً فى بعض شوارع القاهرة الآن . فيشاهد يدفع عربة يد فوقها كرمة من الترمس ، وأحياناً بعض الفول المتبل بالشطة ، ويحيط بها قلل الماء فى فوهتها الريحان أو الزهور ، حسب موسمها ، ويقيم فى إحدى زوايا العربة عموداً فى قمته كوز =

مدفون فى بلدة امبابة ، على الشاطىء الغربى من النيل تجاه القاهرة ، وينبت بجوار هذه البلدة أجود الترمس ، وإما الإشارة إلى أن ترمس امبابة لذيذ الطعم بفضل مدد الامبابى . ويصيح بائع الترمس أيضاً : « ترمس امبابه يغلب اللوز » . أو يقول : « ياما أحلى بُنَىّ البحر » . ويشير هذا النداء الذى قلما يسمع فى غير الأرياف إلى طريقة إعداد الترمس للأكل . إذ أنه ينقع فى الماء يومين أو ثلاثة لتزول مرارته ثم يغلى ويوضع بعد ذلك فى قفة من الخوص تسمى : « فَرد » يخاط عليه ويقذف به فى النيل ، حيث يترك يومين آخرين أو ثلاثة ينقع مرة ثانية ، وبعد ذلك يجفف ويؤكل بارداً بعد أن يضاف إليه بعض الملح . ويصيح بائع الليمون : « الله يهونها ياليمون » . وكثيراً ما ينادى على اللب ، لب « عبد اللاوى » والبطيخ : « يا مسلى الغلبان يا لب » أو عادة : « اللب المحمص » . وينادى بائع « الحلاوة » وتصنع من تفل السكر الممزوج ببعض عقاقير نداء غريباً : « بمسمار يا حلاوة » . ويقال إن بائع الحلاوة يكاد يكون لصاً ، إذ أن الأطفال والخدم يعمدون إلى سرقة الأدوات الحديدية ، من المساكن التى يسكنونها ، ليستبدلوا بها الحلوى . ويصيح بائع البرتقال : « عسل يا برتقال عسل» . ويستعمل بائع الخضر والفاكهة نداء مشابهاً . ويصعب على المرء أحياناً معرفة ما يباع ، ما لم يتبع قاعدة أن ما يباع هو الأقل جودة ، فقولهم « جميز يا عنب » إنما يشير إلى بيع الجميز الذى يقل عن العنب جودة . ويستعمل بائع الورد نداء فريداً : « الورد كان شوك من عرق النبى فتح » ، ويشير هذا إلى معجزة تنسب إلى الرسول . وتباع زهور الحناء الزكية بقولهم : « روايح الجنة يا تمر حنه » . و هناك نوع من الأنسجة القطنية تصنع على آلة يحركها ثور . وتباع بقولهم : « شغل التور يا بنات » .

مياه الآبار فى القاهرة مشربة بالملوحة ، فيجلب السقاءون الماء من النيل للسكان متعيشين من هذه المهنة . وكذلك يجلبون الماء من الخليج الذى يشق العاصمة أثناء الفيضان ، أو بالحرى مدة الشهور الأربعة التى تعقب فتح هذا

= بداخله شريط يشعله ليلا . والنداء المألوف للترمس : الوز ! ومن هؤلاء أيضاً بائع (السميط). وهو يحمله ، فى سبت مدور ، مرصوصاً فى خشبات قائمة على دائرته . ويقدم معه الملح والدقة . وكثيراً ما يبيع مع (السميط) البيض المسلوق والجبنة الرومى . ومنهم أيضاً باعة اللب والفول السودانى والحمص . وأغلبهم يحملون بضاعتهم فى صينية خشبية مستديرة أو فى سبت. ونداؤهم المألوف : المحمص ! وكذلك باعة البطاطا المشوية وكيزان الذرة المشوية وعيدان القصب. ويشاهد هؤلاء جميعاً ، فى الصيف خاصة ، فى الشوارع الرئيسية على شاطىء النيل ، وكذلك فى الحدائق العامة ، حيث يخرج أهل القاهرة لترويح أنفسهم . (المترجم)

الخليج . ويجلبونه من النيـل فى غير ذلك الوقت . وهم ينقـلون الماء فى مزادات من الجلد على الجمال والحمير ،وقد يحملونه على ظهورهم ،فى قرب صغيرة ، لمسافة قريبة (أنظر شكل ٦٣) . ويطلق على المزادة التى يحملها الجمل لفظ « رى » ، والرى زقان واسعان من جلد البقر . ويسمى ما يحمله الحمار « قربة »، وتكون



شكل ٦٣ (سقاءون)

من جلد الماعز . ويحمل السقاء كذلك قربة من جلد الماعز إذا لم يملك حماراً . ويسع الرى ثلاث قرب أو أربعاً . ويصيح السقاء عادة : « يعوض الله » ، فيدل هذا الهتاف على مروره. ويكاد أجر السقاء على القربة ، التى يحملها ميلا ونصف ميل أو ميلين ، لا يتجاوز أكثر من مليمين(١) .

ويوجـد أيضاً سقاءون يزودون المارة بالماء. ويسمى بعضهم (سقا شربة) شكل ٦٤ ويحمـل هؤلاء قربة ذات أنبوبة نحاسية طويلة ، ويصبون الماء للظمآن فى طاس نحاسى ، أو قلة من الفخار . وهناك طبقة



شكل ٦٤ (سقا شربة)

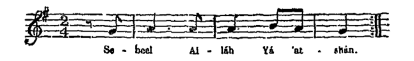
(١) زالت مهنة السقاء بعد تزويد القاهرة عامة بالمياه الجارية فى المنازل . ومع ذلك فهناك قلة من أحيائها القديمة يتزود أهلها بالماء الجارى من (الحنفية العمومية) المقامة فى أحد الشوارع ، فيتوجه النساء إليها بأوعيتهن المختلفة ، كما يحـدث تماماً فى الريف ، الذى تزودت قراه بحنفية بكل منها أخيراً ، فيجرى حولها الحديث فى أخبار الحى أو القرية وغير ذلك من ثرثرة النساء .

كثيرة العدد تمتهن الحرفة نفسها ويسمى الواحد منها (حِمَليّاً) (شكل ٦٥) وأغلب هؤلاء دراويش من الرفاعية أو البيومية ، وهم معفون من ضريبة الفردة . ويحمل الحملى على ظهره إبريقاً من فخار رمادى يبرد الماء . ويحمل أحياناً قلة من الماء المعطر بماء الزهرا ، المقطر من زهر النارنج ، ليقدمه إلى أفضل عملائه . وكثيراً ما يضع فى فوهة الأبريق غصناً من النارنج . ويتناول الحملى من أفراد الطبقتين العليا والوسطى قطعة فضة إلى خمس فضة . ولا يتناول من الفقراء شيئاً ، أو يتناول منهم قطعة خبز ، أو أى طعام آخر يضعه فى جراب يعلقه على جانبه . ويصادف المرء كثيراً من الحمليين وبعض السقائين فى ساحات الحفلات الدينية ، كالموالد وغيرها ، التى تقام فى القاهرة وضواحيها. وكثيراً ما ينفحهم زائرو قبور الأولياء نقوداً



شكل ٦٥ (حملى)

فى مناسبات كهذه ليوزعوا الماء على الراغبين من المارة . وتسمى هذه الصدقة « تسبيل » ، وتكون إكراماً للولى ، أو فى مناسبات أخرى غير الموالد . ويسمح لهؤلاء السقائين فى هذه الأحوال أن يملأوا الأبريق أو القربة من « سبيل » عام ، لأنهم لا يتناولون شيئاً من المارة . وهم ينشدون لهذه المناسبة لحناً قصيراً ، داعين الظمآن ليتناول من هذه الصدقة المقدمة باسم الله، فيقولون غالباً على اللحن التالى هذه العبارة : « سبيل الله يا عطشان » .



ويدعون لمن قدم الإحسان أن تكون الجنة والمغفرة من نصيبه فيقولون « الجنة والمغفرة لك يا صاحب السبيل » ، هكذا :



ويوجد آخرون تماثل مهنتهم مهنة الحملي . ومن هؤلاء، بائع العرق سوس المذكور في فصل سابق . ويحمل العرقسوسي جرة حمراء من الفخار على جانبه الأيسر، ويربطها بسير من جلد أو غيره، ويسندها بيده اليسرى (شكل ٦٦)، كما يحشو فوهة الجرة بليف النخل . ويحمل طاسين من النحاس أو قدحين من الصيني أو أكثر يقرعهما معاً . ويتجول كثير من بائعي الشراب بالطريقة نفسها(١) . ويحمل بائع الشراب (الشربتلي) عادة وعاء « الشيشة » الزجاجي، ملآن بمنقوع الزبيب ، في يده اليسرى ، وأبريقاً كبيراً من القصدير أو النحاس الأحمر، وأقداحاً زجاجيـة (قلل) في يده اليمنى . ويحمل بعضهم على الرأس صينية مستديرة من النحاس المبيض وعليها (قلل) ملآى من « التين المبلول » أو « البلح المبلول » ، و « سطلة » نحاسية أو طاسا من الفخار الصيني . ويباع السحلب (وهو مشروب هلامى القوام في غير كثافة من نشاء القمح والسكر يغليان في الماء، ويرش عليه بعض القرفة أو الزنجبيـل . وقد يشرب بدون نشاء) أيضاً بالطريقـة نفسها ، والسوبيا كذلك (وهي تصنع من لب عبد اللاوي، يبل ويدق ثم ينقع في الماء ثم يصفى ، ويحلى بالسكر ، وقد تصنع من الأرز بدلا من اللب) وتحمل في أوعيـة كأوعيـة الزبيب ، غير أن (القلل) هنا توضع في وعاء من القصدير يشده البائع بحزام إلى وسطه .



شكل ٦٦ (عرقسوسي)

ذكرت قبلا أن كثيراً من فقراء القاهرة يتعيشون من تنظيف الشبك . ويحمـل (المسلكاتي) ، أي منظف الشبك ، سلوكاً طويلة لهذا الغرض ، يضعها في عصى مجوفة ثلاث أو أربع أو في أنابيب من القصدير ، يشـدها معاً ويعلقها على كتفه (شكل ٦٧) . ويعلق مع العصى أو الأنابيب حقيبـة صغيرة من الجلد بها ألياف من القنب يلفها على السلك لتنظيف الشبك . ولا يتناول المسلكاتي على تنظيف الشبك الواحـد أكثر من نصف فضة .

(١) اختفى بائعو الشراب من شوارع القـاهرة . وكان آخر من يتجول منهم ، ويميزهم قرع الطاستين النحاسيتين ، هم بائعـو العرقسوس والخروب . وهؤلاء يندر أن يشاهد أحدهم الآن. وقد قضى على هؤلاء إنشاء الدكاكين المخصصة لبيع عصير الفواكه المختلفة . (المترجم)

يتعيش الكثيرون من الطبقة السفلى رجالا ونساء، فى القاهرة وغيرها من مدن مصر ، من التسول . والكثير من هؤلاء ، كما هو المتوقع ، دجالون كريهون . فبعضهم يشق مظهره على المرء ، ولكنه يجمع أموالا وافرة . وقد حدث منذ شهور قليلة حادث من هذا النوع شاع أمره فى القاهرة . ذلك أنه كان هناك فلاح ضرير تقوده ابنته فى شوارع القاهرة ، وهما يكادان يسيران عاريين دائماً ، وقد تعود هذا الفلاح أن يدعو كل يوم إلى منزله سائلا تركياً ضريراً ، فيتناول العشاء معه . وفى ذات ليلة غاب الفلاح عن منزله ، ولكن ابنته أعدت العشاء للصديق التركى الذى جلس يأكل وحده . وحدث أثناء ذلك أن مد يده إلى جانبه ، فوقعت على جرة ملأى نقوداً ، فلم يتردد فى حملها وهو منصرف . وكان فى الجرة مائة كيس وعشرة من قطع الخيرية ، وهى قطع ذهبية صغيرة ذات تسعة قروش ، أى ما يساوى حينئذ أكثر من خمسمائة وخمسين جنيهاً . فذهب المجنى عليه إلى القلعة يطلب إنصافه ، فاستعاد ماله ، ما عدا أربعين خيرية كان اللص قد أنفقها ، وقد حرم التسول على الفلاح بعد ذلك . وكثيراً ما يشاهد المرء فى القاهرة الأطفال عراة تماماً . وقد رأيت كثيراً فتيات بين سن الإثنى عشر والعشرين عاماً يتسولن فى الطرق دون أن يسترهن


شكل ٦٧ (مسلكاتى)

غير قطعة رثة حول الكشح . وقلما يتأثر هؤلاء من برد الشتاء أو حر الصيف لتعودهم ذلك من الطفولة . ويستطيع الرجال أن يناموا فى بعض المساجد . وليست حال المتسولين، من وجوه أخرى، سيئة جداً كما قد يرى الأجنبى من مظهرهم . ويكاد المتسولون بلا ريب أن يحصلوا على طعام أو نقود تكفى لسد حاجاتهم الضرورية ، وذلك لميل المصريين إلى الإحسان ، وتعود التجار تناول الطعام فى دكاكينهم وإعطاء السائلين شيئاً منه . وهناك متسولون ينفقون جانباً كبيراً مما يجمعونه صباحاً فى التمتع بتدخين الحشيش ليلا ، فيتخيلون أنهم أسعد الناس .

ولا تخرج صيحات المتسولين فى القاهرة عن دعاء الله . ومن أكثر الأدعية شيوعاً قولهم : (يا محنن يارب) (لله يا محسنين) (أنا طالب من عند ربى

رغيف عيش) (ياما انت كريم يا رب) (أنا ضيف الله والنبي) . وقولهم مساء: (عشاى عليك يا رب) . وفى ليلة الجمعة : (ليلة الجمعة الفضيلة) . وفى يوم الجمعة : (يوم الجمعة الفضيلة) . وكان هناك متسول ، تعود أن يمر بدارى يومياً ، يقول : (توكل على الله ! لا إله إلا الله) وإنى أسمع الآن متسولة تصيح : (عشاى عليك يا رب . من إيد مؤمن كريم موحد بالله . يا أسيادى !) . ويرد الناس المتسولين عادة ، إذ أنهم كثيرون بحيث لا يمكن المرء أن يعطى كل من يسأله ، بقولهم : (الله يساعدك) . (الله يرزق) . (الله يعطيك) . (الله يغنيك) . ولا يرضى السائل برفض لا يتضمن ما سبق ذكره أو ما يماثله . ومن المعتاد أن يرى المرء فى أشد الشوارع ازدحاماً ، سائلا يطلب ثمن رغيف عيش يمسكه فى يده بينما يتبعه بائع الخبز . ويتجول بعض السائلين ، ولاسيما الدراويش ، وهم ينشدون قصائد فى مدح النبى ، أو يدقون الصنوج أو طبلة صغيرة . ويتجول الدراويش بين قرى الريف للتسول . وقد رأيتهم يمتطون الجياد . كما شاهدت أخيراً أحدهم ، يتنقل بين الأكواخ على جواد ، يستجدى الخبز ، ويصحبه رجلان يحمل كل منهما بيرقاً ، وثالث يقرع طبلا .

تعتبر الزراعة أهم أعمال المصريين ، ويباشرها ، كما سبق أن ذكرت ، جميع السكان ما عدا القليل منهم.

ويخصب النيل الجزء الأكبر من الأراضى القابلة للزراعة بفيضانه السنوى . ولكن الحقول التى تجاور النهر والقنوات الكبيرة يحفر فيها جور للماء وتروى بآلات مختلفة الأنواع. و« الشادوف » أكثر هذه الآلات شيوعاً ، وهو يتكون من عمودين من الخشب ، أو من الطين والعصى ، أو من الطين والسمار ، يرتفعان إلى خمس أقدام تقريباً ، ويبلغ ما بينهما أقل من ثلاث أقدام ، ويعلوها قطعة خشبية أفقية تمتد من قمة إلى أخرى ، ويعلق بها عتلة رفيعة تتكون من فرع شجرة ، وينتهى أحد طرفيها بثقل



شكل ٦٨ (الشادوف)

من الطين ، والطرف الآخر بوعاء يعلق بواسطة قضيبين طويلين من النخيل ، ويصنع الوعاء على شكل طاس من السلال أو من طوق ونسيج من الصوف أو الجلد . ويرفع الماء فى هذا الوعاء إلى علو ثمانى أقدام تقريباً ويقذف به فى حوض معد لذلك . ويلزم لرفع المياه إلى الحقول فى أعالى الصعيد ، عندما ينخفض النيل ، أربعة شواديف أو خمسة . وهناك شواديف كثيرة ذات عتلتين يحركها رجلان . ويعتبر الرى بالشادوف عملا شاقاً للغاية . وتوجد آلة أخرى للرى وهى « الساقية » ، وتكاد تكون وحدها المستعملة لرى الحدائق فى مصر . وتتكون الساقية خاصة من عجلة عمودية ، ترفع المياه فى مجموعة متتابعة من أوعية فخارية مشدودة بحبال ، وعجلة عمودية ثانية ذات تروس مثبتة إلى المحور ذاته ، وعجلة كبيرة أفقية ذات ضروس ، يديرها ثوران أو بقرتان أو حيوان واحد ، فتحرك العجلتين السابقتين . وتصنع الآلة صناعة غليظة ، ويحدث تحريكها طقطقة كريهة . وهناك آلة ثالثة تسمى « تابوت » ، يستعملها المصريون لرى الأراضى شمال مصر ، حيث لا يلزم رفع المياه إلا لارتفاع قليل . ويشبه التابوت الساقية نوعاً ، والفرق الرئيسى بينهما أن للتابوت بدلا من عجلة الساقية ذات الأوعية ، عجلة كبيرة مجوفة الدائرة ترفع فيها المياه . وتستعمل « القطوة » فى الأقاليم نفسها ، وهى وعاء مثل وعاء الشادوف يشد إلى حبال أربعة ، ويستعمل كثيراً لرفع المياه إلى جرة التابوت . ويحرك القطوة رجلان يمسك كل منهما بحبلين . وتقسم الأرض فى نظام الرى الصناعى إلى مربعات صغيرة ، يحدها ارتفاع من التراب ، أو إلى أخاديد ، فيسيل الماء من الآلة فى قناة ضيقة إلى المربعات أو الأخاديد الواحد تلو الآخر .

لا تزرع الأراضى « الرى » ، أى التى يغمرها الفيضان ، ما عدا القليل منها ، إلا مرة واحدة فى السنة . فيبذر القمح والشعير والعدس والفول والترمس والحمص الخ ، بعد انسحاب المياه ، فى آخر أكتوبر أو ابتداء نوفمبر تقريباً . ويسمى هذا الموسم « الشتوى » . أما الأراضى « الشراقى » ، وهى التى لا يصل إليها الفيضان لعلوها ، وبعض الأراضى « الرى » ، فتنتج ثلاث غلات سنوياً بفضل الرى الصناعى ، وإن لم تكن الأراضى الشراقى جميعها تزرع هكذا . وتنتج الأراضى التى تروى صناعياً ، أولا المحصول الشتوى ، إذ هى تبذر مع الأراضى الرى فى وقت واحد ، بالقمح أو الشعير على العموم . وعقب ذلك تبدأ زراعة الصيفى ، أو مايسمونه فى الصعيد « القيضى » أو « الجيضى » ، وتكون عند الاعتدال الربيعى تقريباً أو بعد ذلك ، فيزرع الذرة الصيفى أو النيلج أو القطن الخ . وأخيراً تأتى الزراعة

« الدميرى » مدة ارتفاع النيل ، وتبدأ عند الانقلاب الصيفى أوبعده بقليل ، فتبذر الذرة الصيفى مرة أخرى أو الذرة الشامى الخ . وهكذا تجود الأرض بمحصول ثالث . ويزرع القصب على مساحة كبيرة فى الصعيد . ويزرع الأرز فى الأراضى المنخفضة قرب البحر الأبيض المتوسط .

يستعمل المصريون « النورج » لفصل حبوب القمح والشعير وقطع القش للعلف . والنورج آلة على هيئة مقعد ، تسير على عجلات حديدية صغيرة ، أو صفائح مستديرة دقيقة ، عددها على العموم إحدى عشرة عجلة مثبتة إلى ثلاثة محاور ، أربع عجلات فى المحور الأمامى ، وأربع فى المحور الخلفى ، وثلاث فى المحور الأوسط . ويجر النورج بقرتان أو ثوران يدوران فى حلقة فوق الحبوب . أما المحراث وآلات الفلاحة الأخرى فهى ذات نوع بدائى .

تشغل الملاحة النيلية عدداً كبيراً من المصريين . وأغلب نوتية النيل أقوياء بارزو العضلات . وهم يقاسون مشقة شديدة فى التجديف وسحب المراكب ودفعها بالمدرة ، ولكنهم كثيرو الجذل . ويزيد سرورهم كلما كثر عملهم ، إذ هم يسلون أنفسهم بالغناء . ويتعرض أكثر الربابنة خبرة إلى جنوح سفنهم ، نتيجة للتغيرات المتواصلة التى تحدث فى مجرى النيل ، ويلزم حينئذ أن ينزل البحارة إلى الماء لدفع المراكب بظهورهم وأكتافهم . وتصنع المراكب النيلية بطريقة تمنعها من الاصطدام بحيث يغوص مقدمها فى الماء عن مؤخرها ، ومن ثم يلزم أن تكون الدفة كبيرة جداً . وتكون أحسن أنواع المراكب النيلية ، وهى كثيرة العدد ، بسيطة الشكل رشيقة . وتكون غالباً على طول بين ثلاثين وأربعين قدماً ، ويكون لها ساريتان وشراعان مثلثان كبيران ، وقمرة تتلو المؤخرة وترتفع إلى أربع أقدام تقريباً (١) ، وتشغل ربع المراكب أو ثلثها طولا ، وتقسم القمرة فى أكثر المراكب إلى غرفتين أو أكثر . ويستخدم عادة ملاح ليمسك حبل الشراع الرئيسى ، إذ أن الزوابع الفجائية تكثر على النيل ، فيستطيع أن يترك الشراع يخفق عند أقل إشارة . ويجب أن يكون المسافر حذراً بصفة خاصة مهما اعتدل الجو .

---

(١) وأصبحت قمرات المراكب أخيراً أكثر ارتفاعاً ، لتلائم حاجات السياح الأوربيين . (المؤلف)

أصبح هذا النوع من المراكب المسمى « دهبية » يستخدم مسكناً ثابتاً ، مثل المنازل تماماً ، فيربط دائماً إلى الشاطىء . و« العوامة » نوع آخر من المنازل العائمة أكثر انتشاراً ويتألف من طابقين قائمين على صناديق معدنية مجوفة شد بعضه إلى بعض . وأكثر هذه يقوم على شاطىء (امبابة) . (المترجم)

الفصل الخامس عشر

استعمال التبغ والبن والحشيش والأفيون الخ

إن تحريم الخمر بأنواعها ، وفى التشريع الإسلامى ، جعل المسلمين يلجأون إلى وسائل أخرى تسبب لهم نشوة خفيفة أو ضروباً مختلفة من الطرب الشديد .

وأكثر هذه الوسائل انتشاراً ، فى أغلب البلدان الإسلامية ، ما يسميه العرب «كيفاً» ، وهو تدخين التبغ ، ولا يمكننى أن أترجم هذا اللفظ بأكثر من « لذة لطيفة » . ويبدو أن هذا التبغ أدخل إلى تركيا وجزيرة العرب وغيرهما من بلاد الشرق قبيل القرن السابع عشر من الميلاد(١) ، أى بعد سنوات قليلة من انتظام تصديره كسلعة تجارية من أمريكا إلى أوربا الغربية . وكثيراً ما اشتد الجدل حول إباحة التدخين للمسلم(٢) ، غير أن ذلك جائز الآن . وقد غير التبغ من طباع المدمنين عليه من الترك والعرب ، وجعلهم على الأخص أكثر كسلا مما كانوا عليه قبلا ، فهم يضيعون فى تدخين شبكهم وقتاً طويلا . إلا أنه كان ذا أثر آخر حسن ، فقد أغنى إلى حد كبير عن استعمال النبيذ الذى يضر على الأقل بصحة سكان الأقاليم الحارة. وتقدم قصص ألف ليلة وليلة ، التى كتبت

---

(١) يقول الاسحاق أن عادة التدخين بدأت تنتشر فى مصر فى عامى ١٠١٠ و١٠١٢ هجرية (١٦٠١ – ١٦٠٣ ميلادية) » .

(٢) يروى الجبرتى أنه كثيراً ما كان يحدث فى عهد محمد على باشا اليدكشى الذى ولى مصر ١١٥٦ إلى ١١٥٨ هجرية أن يجبر كل من يحمل شبكاً على أكل حجر الشبك ومحتوياته الملتهبة . وقد يبدو هذا غير معقول ولكن الأسنان القوية تستطيع أن تهشم حجر الشبك.

(المؤلف)

« وفى أيامه (أيام محمد باشا اليدكشى) كتب فرمان بتحريم شرب الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت، ونزل الأغا والوالى فنادوا بذلك وشددوا فى الإنكار والتنكيل بمن يفعل ذلك من عال أو دون ، وصار الأغا يشق البلد فى التبديل كل يوم ثلاث مرات ، وكل من رأى فى يده آلة الدخان عاقبه وربما أطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بالنار » . أنظر تاريخ الجبرتى الفصل الثانى فى ذكر حوادث مصر وولاتها. الفقرة الخاصة بتولية محمد باشا اليدكشى مصر . (المترجم)

قبل استعمال التبغ فى الشرق، والتى تصور لنا بلا ريب عادات العرب وشمائلهم فى ذلك الوقت تصويراً صادقاً ، تقدم هذه القصص أدلة وافرة على أن المسلمين وقتئذ أو فى العصر السابق مباشرة كانوا يشربون النبيذ علانية . ويمكن أن نقول دفاعاً عن الشبك ، كما يستعمله العرب والترك ، إن أنواع التبغ الخفيفة التى يستعملونها عادة لها تأثير لطيف، فهى تهدىء الجهاز العصبى، وترهف الذهن بدلا من أن تبلده . ولا شك أن الشبك يتضمن كثيراً من ملذات الشرقيين ، ويقدم إلى الفلاح منعشاً رخيصاً زهيداً ويبعده فى الغالب عن الملذات المضرة .

وتعتبر القهوة نعيما مماثلا للتبغ وتؤخذ معه ، وقد ساعدا على جعل النبيذ أقل انتشاراً بين العرب . ويؤيد هذا الافتراض لفظ « القهوة » ، وهى تسمية عربية قديمة للنبيذ . ويقال إن هذا الشراب المنعش اكتشفه فى الجزء الأخير من القرن السابع للهجرة ، أو الثالث عشر من الميلاد ، متعبد يسمى الشيخ عمر ، دفعه الاضطهاد إلى أحد جبال اليمن مع بعض أتباعه ، وحمله الجوع على أن يشرب منقوع البن الذى ينبت هناك بالطبيعة. غير أن استعمال البن لم ينتشر فى اليمن إلا بعد هذا الزمن بجيلين . وقد استوردت مصر البن بين سنتى ٩٠٠ و٩١٠ هجرية ، أى فى أواخر القرن الخامس عشر أو ابتداء القرن السادس عشر من الميلاد ، أو قبل إدخال التبغ إلى الشرق بجيل تقريباً . وكان يشربه حينئذ فى جامع الأزهر فقراء اليمن ومكة والمدينة، الذين وجدوا فيه منشطاً على العبادة والتسبيح ، وكانوا يعكفون على شربه بكثرة . وأدخل البن إلى الأستانة بعد ذلك بنصف قرن تقريباً(١). وقد أثارت القهوة منازعات حادة بين المتعبدين والمتعلمين فى جزيرة العرب ومصر والأستانة . فكان كثير من العلماء يؤكد أن القهوة لها خصائص مسكرة، فتحرم على المسلمين(٢)، بينما كان آخرون

---

(١) أنظر دساسى De Sacy فى : مختارات من الأدب العربى Chrestomathie Arabe الجزء الأول ص ٤١٢ — ٤٨٣ الطبعة الثانية .

(٢) وقد نسب بعضهم إلى القهوة الإضرار بالعقل والبدن إلى غير ذلك من الدعاوى والتعصبات المؤدية إلى الجدال والفتن وحصول ما أدى إلى منع بيعها وكسر أوانيها بل وإلى تعزير باعتها بالضرب وغيره . أنظر الباب الأول من كتاب : « عمدة الصفوة فى حل القهوة » للشيخ عبد القادر محمد الأنصارى الجزيرى .

ومما قيل فى عادة شرب الماء قبل تناول القهوة فى الكتاب ذاته : (فائدة) «قال قاضى القضاة علامة زمانه تاج الدين عبد الوهاب بن يعقوب المكى المالكى فى ليالى اجتماعى به زمن الموسم بداره بالسويقة بمكة المشرفة، إن شرب الماء البارد قبل القهوة مما يفيدها رطوبة المزاج ويقل يبسها ولا يكون السهر حينئذ شديداً . وكنت أراه يفعل ذلك دائماً لهذا المعنى ، وهو من ذوى المعرفة والتجارب » . (المترجم)

يقررون أن للقهوة فضائل ، إحداها مقاومة النوم ، فتكون عوناً قوياً للأتقياء على عبادتهم ليلا . وكثيراً ما كان بيع البن حينئذ يحرم ويحلل حسب رأى الحاكم. أما الآن فيقول جميع المسلمين تقريباً بحل القهوة ، ويفرطون فى استعمالها ، حتى الوهابيون الذين هم أشد المسلمين صرامة فى الحكم على التبغ والتمسك بأحكام القرآن و الحديث . وكانت القهوة تجهز قبلا من حب البن وقشره معاً ، ولا تزال تعد فى جزيرة العرب منهما معاً ، أو من القشر فقط . وتحضر فى البلاد الشرقية الأخرى من الحب وحده يقلى ويطحن أولا فأولا .

فى القاهرة أكثر من ألف « قهوة »(١). والمقهى غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود(٢) . ويقوم على طول الواجهة ، ما عدا المدخل ، مصطبة من الحجر أو الآجر تفرش بالحصر ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثاً وعرضها كذلك تقريباً ، وفى داخل المقهى مقاعد متشابهة على جانبين أو ثلاثة . ويرتاد المقاهى أفراد الطبقة السفلى والتجار ، وتزدحم بهم عصراً ومساء . وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ويحمل كل منهم شبكه الخاص وتبغه . ويقدم « القهوجى » القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد ، أو عشر فضة « للبكرج » الصغير الذى يسع ثلاثة فناجين أو أربعة(٣) ويحتفظ القهوجى أيضاً بعدد من آلات التدخين من نرجيلة وشيشة وجوزة(٤) . وتستعمل هذه الأخيرة فى تدخين التمباك والحشيش الذى يباع فى بعض المقاهى . ويتردد الموسيقيون والمحدثون على بعض المقاهى ، فى الأعياد الدينية خاصة .

يسمى المصريون أوراق القنب وحقاقه حشيشاً . وكان القنب يستخدم قديماً فى بعض البلدان الشرقية مخدراً مبهجاً . ويخبرنا هيرودوت فى كتابه الرابع ، فى الفصل الخامس والسبعين ، أن الإسكيثيون(٥) كانوا يحرقون بذور القنب فى احتفال دينى فيخدرهم دخانه . ويذكر جالينوس أيضاً خصائص القنب المخدرة . وقد انتشر مضغ أوراق القنب لإحداث النشوة فى الهند منذ العصور

---

(١) يطلق لفظ القهوة ، وهو اسم الشراب ، على المكان الذى تباع فيه .

(٢) أنظر الرسم الموجود فى الفصل الحادى والعشرين .

(٣) وكثيراً ما يباع فى المقهى أيضاً فى ليالى الأعياد خاصة شراب الزنجبيل المحلى بالسكر.

(٤) وصفت هذه الآلات فى فصل سابق .

(٥) الإسكيثيون Scyths قبائل بربرية انحدرت من آسيا الشمالية إلى شمال البحر الأسود حوالى القرن السابع قبل الميلاد . (المترجم)

الأولى . ومن ثم دخلت فارس . وقد انتقلت هذه العادة المضرة المذلة إلى مصر منذ ستة قرون تقريباً أى قبل منتصف القرن الثالث عشر من الميلاد . فأولع بها على الأخص أفراد من الطبقة الدنيا . على أن كثيراً من أفاضل رجال الأدب والدين ، ومن « الفقراء » استسلموا لإغرائها وأيدوا جوازها للمسلمين . وقد انتشرت هذه العادة الآن بين الطبقات السفلى فى العاصمة وفى غيرها من مدن مصر(١) . ولإعداد الحشيش وسائل مختلفة يطلق على كل منها إسم مختلف نحو : « شيره »(٢)، « بَسْت » ... الخ . ويُقال إن الشائع هو استعمال أوراق القنب الغضة ، وحدها ، أو مخلوطة بالتبغ ، للتدخين ، وسحق الحقاق، دون البذور، ومزجها بمواد عطرية ، لصنع معجون مخدر . والحوامض تُفسد فعل الحشيش . ويُثير الحشيش المعدّ للتدخين طرباً شديداً . وهو يدخن فى الجوزة ، فيسحب المدخن أنفاساً سريعة ، ثم نفساً طويلا يخرجه من الفم والأنف ويتبعه بنوبة سعال ، وبصاق دام ينشأ من امتلاء الرئتين بالدخان . ويباع الحشيش فى بعض المقاهى ، وفى محال أصغر حجماً وأكثر عزلة خصصها أصحابها لبيع الحشيش وغيره من المخدرات ، ويُطلق على الواحد منها « محششة » . ومن المسلى أحياناً ، أن يُشاهد المرء مهازل من يترددون على هذه الأماكن ، وكلهم من الطبقة الدنيا ، ويستمع إلى أحاديثهم . وتستعمل كلمة « حشاش » ومعناها مدخن الحشيش أو آكله ، للازدراء . وكثيراً ما يسمى المشاغبون حشاشين . ويعتبر لفظ « حشاشين (بالجمع) أصلا لكلمة Assassin ، التى أطلقت أولا فى الحروب الصليبية على الفدائيين العرب فى سوريا ، وكانوا يستعملون العقاقير المخدرة ، لكى يسلبوا أعداءهم الشعور(٣) .

ليس استعمال الأفيون وغيره من العقاقير المخدرة شائعاً فى مصر بقدر شيوعه فى كثير من البلدان الشرقية الأخرى . ولا شك أن نسبة المصريين الذين تردوا

---

(١) وقد أدى ازدياد انتشارها إلى تدخل القانون وتوقيع أقصى العقوبات على تجار الحشيش والحشاشين . (المترجم)

(٢) نسبة إلى شيراز بفارس . أنظر ص ١٦٦ Aegyptiaca (مصريات) تأليف Dr Abbate . (المترجم)

(٣) أنظر نهاية الفصل الثانى والعشرين . ويبدو أن أحد الناقدين عزا إلى من الملاحظة السابقة إنى أنسب إلى نفسى اكتشاف هذا الاشتقاق . وتوضح إشارتى إلى كلمتى « Assassin » و « De Sacy » فى كشاف الكتاب أن الأمر ليس كذلك وكنت أظن أن ملاحظة دساسى الجليل المتعلقة بهذا اللفظ معروفة عموماً بحيث لا تستلزم منى أن أذكرها فى موضعين . (المؤلف) =

فى هذه الرذيلة إلى مجموع السكان ليست كبيرة بقدر نسبة الإنجليز المولعين بالسكر .
ويسمى آكل الأفيون « أفيونياً » . ويعتبر هذا اللفظ أقل مهانة من كلمة
« حشاش » ، إذ أن هناك كثيراً من أفراد الطبقتين الوسطى والعليا تصدق عليهم
هذه التسمية . ويتعاطى من لم يدمن الأفيون هذا المخدر خاماً ، بقدر ثلاث
حبات أو أربع . غير أن الأفيونى يزيد المقدار تدريجاً . ويصنع المصريون معاجين
من الخربق والقنب والأفيون ، وعقاقير عطرية أخرى ، يتناولونها أكثر من
الأفيون وحده عادة . ويسمى صانع المعجون أو بائعه « معجونجياً » . وأكثر تلك
الأنواع شيوعاً يسمى « برْشاً »(١) . ويقال إن من الأنواع ما يميل بمتناوله إلى
الغناء أو المزاح أو الرقص ، أو يثير فيه أحلاماً لذيذة ، وقد يسكن فقط .
وتباع تلك الأنواع جميعاً فى « المحششة » .

أشرت قبلا إلى شراب « البوظة » المخمر ، الذى يشربه كثير من ملاحى
النيل وآخرون من الطبقات السفلى فى مصر . وقد شاهدت فى مقابر طيبة جراراً
كبيرة تحوى ثمالة جعة من ذلك النوع المصنوع من الشعير .

= طائفة الحشاشين هى إحدى شعب الحركة الاسماعيلية التى كان يرأسها أغا خان وكان
بصفته سليل أمراء الحشاشين يزعم أنه ينتسب إلى أحد فروع الدولة الفاطمية .

وقد أنشأ هذه الطائفة حسن بن الصباح بفارس وسورية . وقد قوى نفوذ الحشاشين
بسورية خاصة حيث عرفهم الصليبيون . ويقال إن شيخ الطائفة كان يخدر مريديه ثم يرسلهم
إلى مكان معد لينعموا فيه بكل مايلذ حواسهم، ثم يعيدهم إليه ويزعم أن هذا لون من ألوان
النعيم الذى ينتظرهم بعد الموت . فيدينون له بالطاعة العمياء . وهؤلاء هم الفدائيون الذين يقع
عليهم اختياره لقتل أعدائه . وأصل كلمة Assassin من ذلك .

أنظر كتاب العقيدة والشريعة لجولد تسيهر ص ٢١٢ وما بعدها . الترجمة العربية . دار
الكاتب المصرى . وكتاب Les Sociétés Secrétes (الجمعيات السرية) تأليف . Heron
Lepper الفصل التاسع .Payot (المترجم)

(١) يقول د . أبات فى كتابه (المصريات) السابق ذكره إن البرش يخلط من عقاقير
مختلفة : جوز الطيب والقرفة والقرنفل والحبهان والأفيون . ويقول إن أحد الأشخاص
ويسمى شعثه ، ويحتمل أن يكون فارسياً ، كان مريضاً فتناول من هذه الأخلاط وشفى .
فأطلق عليها بره شعث . وحرفت إلى برشع . (المترجم)

الفصل السادس عشر

الحمـــام

يعد الاستحمام ترفاً عظيمـاً ينعم به المصريون . وكثيراً ما يستحم فى النيل سكان الريف وفقراء المدن المعدمين. ولا يندر أن ترى الفتيات والشابات يستحممن صيفاً ، عاريات الجسد، فى الأماكن المنعزلة من النيل . وللأغنياء، كما أشرت سابقــاً ، حمامات فى منـــازلهم الخاصة . غير أنهم كثيراً ما يذهبون إلى الحمام العمومى . وكذلك نساؤهم اللائى يدعون ، فى مناسبات عديدة ، إلى مصاحبة صديقاتهن(١) .

بالقاهرة ما بين ستين وسبعين حماماً(٢)، يدخلها الجمهور مقابل مبلغ صغير من المال. وبعض الحمامات تخصص للرجال والبعض الآخر للنساء والأطفال ، وهناك حمامات للجنسين على التوالى : فتكون للرجال قبل الظهر ، وللنساء بعده ويعلق حينئذ على مدخل الحمام منشفة ، أو قطعة من الكتان أو الجوخ ، تحذيراً للرجال من الدخول . وينصرف الخدم قبيل الظهر ، وتحل الخادمات مكانهم . وتزين واجهة الحمام، وخاصة مدخله، أعلاه وحوله، كما تزين به المساجد، بالأحمر والأبيض وبألوان أخرى أحياناً ، ولكن على نسق أكثر زخرفة عادة . ويتكون الحمام من غرف مبلطة بالرخام الأبيض يضم إليه ، فى بعض المواضع،

---

(١) كان للحمام العمومى ، فى القرن التاسع عشر ، شأن كبير فى حياة القاهرة الاجتماعية . فما كان القاهرى يذهب للاستحمام فحسب ، بل كان يذهب ليقابل أصدقاءه أيضاً . فكان الحمام أشبه « بالأنـدية » ، إذ كان المترددون إليه يتحدثون فى السياسة والأدب ، ويعقدون الصفقـات الخ ... وكان الحمام يلعب فى حياة النسـاء أيضاً دوراً مهماً ، إذ كان وسيلتهن للخروج .
أنظر ص (٤) من كتـاب **Hammams du Caire** (حمـامات القاهرة) تأليف **Edmond Pauty** . مطبعة المعهد العلمى الفرنسى — القاهرة (المترجم)

(٢) ما يوجد بالقاهرة الآن يعد على الأصـابع . وهو فى طريقه إلى الزوال . وقد أخذ صورة جديدة متطورة ، فنجده ملحقاً بالفنادق الكبيرة أو بالأماكن المخصصة للرياضة البدنية حيث يطلق عليه كلمـة (سونا) (بفتح السين وتسكين الواو) **Sauna** الواردة من فنلندا للتعبير عن حمام البخار . (المترجم)

رخام أسود وقطع صغيرة من القرميد الأحمر الدقيق ، على نظام الدرقاعة بالمنازل الخاصة ، المبين رسمها فى مقدمة الكتاب . ويعلو الغرف الداخلية قباب ذوات كوى صغيرة مستديرة مغطاة بالزجاج لدخول النور . ويستخدم غالباً ، فى بناء الجدران والقباب ، الآجر والملاط . وهما ، لتعرضهما لبخار الحمام ، يؤولان إلى التشقق والسقوط ، إذا توقفت الحرارة أياماً قليلة . ويقام ، فوق مستوى أعلى مكان بالحمام ، ساقية يديرها بقرة أو ثور لرفع المياه من بئر أو صهريج إلى المرجل (القزان) .

يعتقد المصريون أن الحمام مكان مختار للجن ، ولذلك يتلو الداخل إليه دعاء يقيه الأرواح الشريرة ، ويدخل بقدمه اليسرى أولا . وللسبب نفسه لا يتلى القرآن داخل الحمام(١) . ويستودع الداخل ما لديه من ساعة ونقود « المعلم » ، أى حارس الحمام ، فيضعه فى صندوق مقفل . ويسلم شبكه وسيفه ، إن كان يحمله ، إلى أحد خدم الحمام ، الذى ينزع من رجليه الحذاء ويقدم إليه القبقاب. وتسمى الغرفة الأولى «مسلخاً » وبها ليوانان أو ثلاثة أو أربعة ، تكون كالمصاطب أو أكثر منها سعة ، وتكسى بالرخام . ويتوسط هذه الغرفة « فسقية » يرتفع ماؤها البارد من طبقة حجرية سفلى مثمنة الأضلاع مغطاة بالرخام ، تشبه تلك التى بالغرفة الداخلية . وتجهز أحد تلك اللواوين بالحشايا والوسائد ، وتخصص لراحة الطبقتين العليا والوسطى . أما اللواوين المخصصة للطبقة الدنيا ، فتجهز بالحصر عادة . ويشتمل « المسلخ » أيضاً ، فى كثير من الحمامات ، على دكة صغيرة لإعداد القهوة .

يفضل المستحمون غالباً خلع ملابسهم فى « المسلخ » صيفاً ، وفى الشتاء يخلعونها فى غرفة داخلية مغلقة تسمى « بيت أول » ، يصل بينها وبين الغرفة الأولى ممر قصير ، على أحد جانبيه مرحاضان أو ثلاثة . ويطلق اسم « بيت أول » على هذه الغرفة لأنها أولى الغرف الدافئة . ولكنها أقل دفئاً من الغرفة الرئيسية ، وتعتبر مدخلا لها . ولغرفة «بيت أول » مصطبتان ، ترتفع إحداهما عن الأخرى ، وتكسوان بالرخام . ولا تتسع المصطبة المرتفعة لأكثر من شخص واحد وتعد لأفراد الطبقة العليا . بينما تتسع الأخرى لشخصين . وعندما تشغل

---

(١) كثيراً ما يهمل التحريم المشار إليه هنا والكثير غيره بالرغم من كثرة الأحاديث المشهورة التى تفرضه .

المصطبة الأولى ويحتاج لمقعد مرتفع آخر ، توضع حشيتان أو ثلاث ، الواحدة فوق الأخرى ، على المصطبة الواطئة أو على الديوان . ويبسط لأفراد الطبقة العليا سجادة على المصطبة . ويتناول المستحم فوطه يصر فيها ملابسه ، وثانية يضعها حول وسطه ، وتصل هذه إلى الركبتين أو دونها قليلا وتسمى « مَحْزَماً » . ويحضر له عند اللزوم فوطة ثالثة يتعمم بها ، وتاركاً أعلى رأسه عارياً ، ورابعة يضعها فوق صدره ، وخامسة يغطى بها ظهره . ويساعد المستحم على خلع ملابسه ولبس « المحزم » الخ . ، ولد أو شاب أمرد ، يسمى « لاونجيا » . وهذه التسمية تحريف لكلمة « ليوانجى » أى خادم الليوان(١) .

عندما يتجرد المستحم من ملابسه ، ويرتدى ما سبق ذكره ، يفتح له « اللاونجى » باب الغرفة الداخلية الرئيسية المسماة « حرارة »(٢) . وبهذه الغرفة أربعة لواوين منخفضة ، مثل التى توجد فى المنازل الخاصة ، تكون على شكل صليب . ويتوسطها فسقية بها ماء ساخن ، يرتفع من حوض صغير قليل الغور يتوسط قاعدة مرتفعة مثمنة الأضلاع ، مكسوة بالرخام الأبيض والأسود وقطع القراميد الحمراء . ويمكن



شكل ٦٩ (قطاع الحرارة)

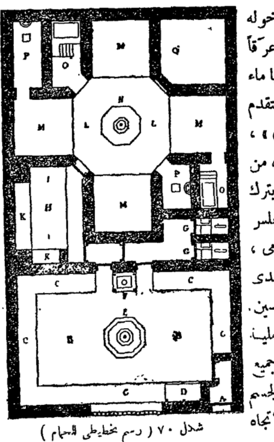
القول أن « بيت الحرارة » يكوّن والغرفة المتصلة به مربعاً كاملا يشغل إحدى زواياه « البيت أول » ويشغل الزاوية الثانية غرفتان صغيرتان متصلتان ، تحوى إحداهما « مغطساً » به ماء ساخن ، يصعد إليه ببعض درجات ، والأخرى « حنفية » تشتمل على صنبورين فى الحائط ، أحدهما للماء الساخن ، والآخر للماء البارد ، يصبان فى حوض صغير أمامه مقعد . ولا يطلق إسم « حنفية » عادة على الصنابير وحدها ، بل على الغرفة التى تحويها أيضاً . ويشغل الزاوية الثالثة

---

(١) أنظر الرسم التخطيطى للحمام وبيانه كما يلى :
A ، المدخل العمومى والردهة . B. B ، مسلخ . C. C. C. C. C ، لواوين . D ، مكان المعلم . E ، فسقية F ، موضع القهوة . G. G ، مراحيض . H ، بيت أول . I. I ، ليوانان . K. K ، مصطبتان L. L ، حرارتان . M. M. M. M ، لواوين . N ، فسقية . O. O ، غرفتان ، يحوى كل منهما مغطس ، P. P ، حنفيتان . Q ، موقد يعلوه المرجل .

(٢) بدلا من « بيت الحرارة » .

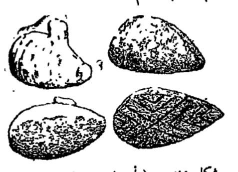
غرفتان صغيرتان أخريان كالسابقتين ، تشمل إحداهما مغطساً آخر ، ماؤه أقل حرارة من السابق ، والأخرى « حنفية » أخرى . ويملأ كل مغطس مجرى ماء يتدفق من قبة الغرفة . وتشغل الزاوية الأخيرة غرفة لا تتصل « ببيت الحرارة » يوقد فيها النار تحت القزان . ويعلو « بيت الحرارة » ، فى جزئه الأوسط ولواوينه والغرف الصغيرة المتصلة به ، قباب بها فتحات صغيرة مغطاة بالزجاج .



شكل ٧٠ (رسم تخطيطى للحمام)

ولا يلبث المستحم بعد دخوله « بيت الحرارة » أن يتصبب جسده عرقاً بسبب الحرارة الرطبة التى يحدثها ماء المغطسين والفسقية والقزان . ويتقدم عامل الحمام ، المسمى « مكيساتى » ، على الفور إلى المستحم ، فيجرده من الفوط ويعطيه « محزماً » مبللا أو يترك « المحزم » السابق عليه ويبلله . ويجلس المستحم على مقعد الفسقية الرخامى ، أو يتمدد على منشفة فوق إحدى اللواوين ، أو على حافة إحدى المغطسين ، مذعناً لأولى العمليات ، عملية « الطقطقة » . فيطقطق العامل جميع مفاصل الجسم تقريباً ، فيلوى الجسم فى اتجاه واحد أولا ثم فى الاتجاه الآخر حتى يطقطق العامود الفقرى . ويطقطق الرقبة أيضاً مرتين بأن يلوى الرأس فى الاتجاهين ، وتفزع تلك الحركة غير المتعود ، والأذنان كذلك يطقطقهما . ويلوى الأطراف بعنف ظاهر ولكن ببراعة ، فلم يسمع بحادث مكدر أثناء هذه العملية . والقصد من هذه العملية تليين المفاصل . ويدلك « المكيساتى » جسم المستحم أيضاً . ثم يدلك بطن قدمه بعد ذلك ، أو قبله ،

بمحك من الطين المحروق(١) . والمحك نوعان: أحدهما ذو مسام خشن الملمس مخطط السطح والآخر من الصلصال المحكم المسام الناعم الملمس ، ما عدا الناحية المستعملة فتخشن . وكلا الحجرين قاتم يضرب إلى السواد . وتستعمل النساء أحجار تكسى بالفضة الرقيقة المنقوشة ، ما عدا السطح الأسفل الذى يحك به . والمحك الخشن لازم لمن لا يلبس الجوارب ، وذلك حال أغلب المصريين . أما المحك الآخر فيستعمله من هو أكثر رقة . وكثيراً ما يستعمل فى دلك الأطراف لتنعيم الجلد . أما العملية الثانية فهى دلك الجسم بكيس صغير من الصوف الخشن(٢). بعد ذلك يغطس المستحم إذا شاء فى أحد المغطسين . ثم يذهب إلى « الحنفية » حيث يعلق « المكيساتى » على مدخلها منشفة ، ويغسل المستحم بالليف والصابون والماء العذب الذى يجلبه فى وعاء نحاسى ويسخنه فى أحد المغطسين ، لأن ماء « الحنفية » يصدر من بئر مالحة ، فلا يصلح للاغتسال بالصابون . ويستعمل المصريون الليف كما يستعمل الأوربيون الأسفنج . ولا يستعمل ليف النخيل الأسمر اللون للاستحمام ، وإنما يستعمل ليف أبيض اللون ، يجلب من الحجاز(٣) . ويزيل « المكيساتى » رغوة الصابون بماء « الحنفية » ، ويحلق إذا لزم الأمر إبطى المستحم ، ثم ينصرف تاركاً إياه يتمم حمامه . ويطلب المستحم بعد ذلك مجموعة من المناشف(٤) يغطى بها جسمه ، بالطريقة السابق ذكرها ، ويعود إلى غرفة « بيت أول » . ويعتاد أفراد الطبقات الغنية أن ينفحوا « المكيساتى » نصف قرش أو قرشاً ، وإن لم يطلب منهم شيئاً .



شكل ٧١ (أحجار من الطين المحروق)

ويمد للمستحم فوق مصطبة « بيت أول » حشية تغطى بالمناشف ، ويجهز أحد طرفيها بوسادة أو وسادتين يتكىء عليها ، وهو يحتسى القهوة ، وينعم

---

(١) ويسمى « حجر الحمام » .

(٢) ويسمى هذا العمل « تكييساً » ، ويسمى الكيس « كيس الحمام » ، ويسمى العامل لذلك « مكيساتياً » أو على الأصح « مكيساً » .

(٣) تنتشر فى مصر زراعة اللوف Lufa من فصيلة القرعيات cucurbitacées المتسلقة لاستخراج النسيج الليفى وإعداده للحمام خاصة . (المترجم)

(٤) وتسمى « العدة » .

بالتدخين ، بينما يدلك لاونجى ، أو لاونجيان ، قدميه ويدلك جسمه وأطرافه . وينفح المستحم كل لاونجى خمس فضة أو عشرة أو أكثر. ويظل يدخن شبكه أو شيشته وقتاً ، ثم يرتدى ملابسه ويخرج . فيقدم له الحارس مرآة ومشطاً ، ما لم يكن حليق الشاربين واللحية . ثم يطلب المستحم ماله ، ويضع قرشاً إلى أربعة قروش على المرآة وينصرف . ويعتبر الحارس رئيس الخدم ، وعمله أن يجفف المناشف فى « المسلخ » ويقوم بالحراسة . ويدفع المستحم عادة قرشاً واحداً لجميع الأعمال المذكورة سابقاً .

يذهب كثير من الناس إلى الحمام مرتين فى الأسبوع . ويذهب آخرون مرة واحدة أو أقل . ويكتفى البعض بالاغتسال بالصابون والماء ثم يغطس فى أحد المغطسين ، فيدفع طبعاً أجراً قليلا .

وكثيراً مايذهب النساء إلى الحمام ، ولكن لا بمقدار مايذهب الرجال . ويفتح الحمام لنساء الطبقات المختلفة ما لم يؤجر خصيصاً لعائلة أو جماعة من السيدات . ويذهب إلى الحمام عادة نساء المنزل الواحد جميعاً وصغار الفتيان. ويأخذ النساء معهن السجاجيد ، وما يحتجن إليه من مناشف وطسوت الخ ، وماء عذب للاغتسال بالصابون وللشرب . ويحضر بعضهن الفاكهة والحلوى ومرطبات أخرى . وكثيراً ماتصطحب السيدة الغنية « بلانتها »(١) (بتشديد اللام) أو «ماشطتها »(٢) (بتسكين الشين وفتح الطاء) . ولا يرتدى الكثيرات من نساء الطبقة السفلى رداء فى الحمام ، ولا منشفة حول الوسط أيضاً . ويأتزر أخريات بالمنشفة وينتعلن القبقاب دائماً . وقلما توجد تسلية ينعم بها نساء مصر بقدر تمتعهن بالذهاب إلى الحمام ، حيث يلهون كثيراً مبديات سرورهن فى ضجه . وينتهز النساء فرصة وجودهن بالحمام ليعرض حليهن وأجمل ملابسهن ، وليتحدثن

---

(١) ويقول أحمد أمين : البلانة امرأة تغشى البيوت ، ويكون عملها مساعدة ربة البيت أو بنتها فيما يلزمهما فى الحمام ، من نزع الشعر من على الوجه والعانة بحلاوة السكر المعقود أو نحوها . وهى التى تتولى شئون الفتاة عند زواجها ، فهى التى تدخل مع العروس فى الحمام ، وتهيئها وتنظفها . وهى التى تحنى الفتاة فى ليلة الحناء وتجملها فى ليلة الزفاف .

وفى المنجد : البلان (بتشديد اللام) : المغسل (بضم الميم وكسر السين المشددة) فى الحمام . وبلان ج بلانات : الحمام . (يونانية) . (المترجم)

(٢) تنطق هكذا عادة بدلا من « ماشطة » (بكسر الشين) . (المؤلف)

ومن الأمثلة الدارجة التى تقال فى المرأة الكريهة المنظر ، (إيش تعمل الماشطة فى الوش العكر) . (المترجم)

بلا تكلف مع من يقابلهن هناك من صديقات وغيرهن . وقد تختار الأم لإبنها عروساً من الفتيات أو النساء اللائى تصادفهن فى الحمام . ويؤجر الحمام فى مناسبات عديدة ، عند الاحتفال بعرس مثلا ، لعائلتين أو أكثر من صفوة النساء ، فلا يسمح لغيرهن بالدخول . غير أن المعتاد أن تؤجر السيدة « خلوة » لها ولصديقاتها وللخادمات . ويطلق لفظ « الخلوة » على حجرة « الحنيفة ». ويسود الاضطراب الكثير الجماعة المكونة من طبقات مختلفة . ولكن حيث يجتمع الصديقات تستسلم الفتيات للبهجة واللعب . ويصرف النساء ساعة أو أكثر تحت يدى « البلانة » ، فتدلكهن وتحميهن وتضفر شعورهن وتنتف شعر البدن(١) الخ. وتتوجه المستحميات بعد ذلك إلى « البيت أول » أو « المسلخ » حيث يرتدين بعض ملابسهن ، أو قميصاً مرسلا وينعمن بالمرطبات المختلفة التى يحملنها معهن ، أو يرسلن فى شرائها من السوق وتحمل من تدخن منهن شبكها الخاص معها . ويتسلى النساء فى الأعياد بالاستماع إلى الغناء ، فيؤجرن عالمتين أو أكثر لمرافقتهن إلى الحمام .

---

(١) قيل لى إن « النـورة » * وهى مادة تزيل الشعر تستخدم كثيراً فى الحمام لتفضيلها على الصمغ الشائع الاستعمال وهى تتكون من الجير ونسبة قليلة لا تتعدى الثمن من الوهج الأصفر (كبريتور الزرنيخ) . فيعجن هذا المركب بالماء قبل استعماله . ويزول الشعر بعد دقيقتين تقريباً بعد غسل المكان – أنظر كتاب Russel (رسل) ، Aleppo (حلب) ، الجزء الأول ص ١٣٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ الطبعة الثانية . (المؤلف)

* فى الطبعة الأولى : دوا نورة . (المترجم)

الفصل السابع عشر

الألعاب

إن أكثر ألعاب المصريين تلائم طباعهم الهادئة . وهم يجدون لذة كبيرة فى لعب الشطرنج ، ويسمونه « سطرنج » (بالسين) ، « والضامة » ، والنرد « الطاولة » . وتكون بيادق الشطرنج على شكل ساذج جداً ، إذ أن الدين يحرم على المسلمين تمثيل الكائنات الحية . ومع ذلك قلما ينتهى مسلمو مصر عن الميسر . فالألعاب القائمة على الحظ ، بعضها أو كلها ، تنتشر بين طبقات المصريين جميعاً ، وإن اعتبر البعض لعبتى الشطرنج والضامة محرمتين أيضاً . ولا يكاد لعب الورق يقل شيوعاً عن الألعاب السابقة ، ويسمى خاصة ، على سبيل التمييز ، « لعب القُمار »(١) ، إذ يلعبونه غالباً بنقود أو برهان آخر . وكثيراً ما نشاهد أفراد الطبقة الدنيا بمصر يقامرون فى المقاهى . وكثيراً ما يتعدى الرهان بعض فناجين من القهوة .

تعد « المنقلة » من الألعاب الذائعة الصيت عند المصريين ، ويلعبها اثنان على لوحة ، أو لوحتين تجمعهما مفاصل ، ذات تجاويف نصف كروية ، تسمى « بيوتاً » ، عددها إثنا عشر تجويفاً ، على صفين متساويين . ويلعبونها باثنتين وسبعين ودعة أو حصوة ، وجميعها « حَصَى » . ويختص كل من اللاعبين بصف من الصفين . وتلعب هذه اللعبة على طريقتين . أولاهما ، وهى الطريقة العادية ، يعمد أحد اللاعبين إلى توزيع جميع الحصى فى البيوت بغير تساو ، واضعاً فى كل بيت أربعاً على الأقل . ولو وزع الحصى بالتساوى لكان فى كل بيت ست حصوات ، غير أنه يندر أن يتم ذلك ، إذ لا شك فى أن من يبدأ اللعب على هذه الحالة يخسر . ويسمى توزيع الحصى « تبويظاً » . ولأحد اللاعبين ، إن لم يرضه توزيع الآخر ، أن يدير اللوحة . فيبدأ خصمه اللعب حينئذ على خلاف

---

(١) بدلا من قمار (بكسر القاف) .

العادة . وإذا فرضنا أن أحد اللاعبين بدأ اللعب ، فانه يأخذ الحصى من البيت الأول من يمين صفه ، ويوزعها على بيوت خصمه ، واحدة فى كل بيت من اليمين (يمين اللاعب) إلى الشمال ، وما زاد يفرقه بالطريقة نفسها على بيوته الخاصة من الشمال إلى اليمين . فان تبقى حصى بعد ذلك ، عاد إلى توزيعها على بيوت الآخر كما سبق وهكذا . ويكف اللاعب عن اللعب ويبدأ ملاعبه ، إذا كان آخر بيت وضع فيه حصاه لا يحوى غيرها ، لخلوه من قبل ، إذ يجوز أن يترك البيت خالياً فى أول اللعب . ولكن إذا كان هذا البيت الأخير يحوى حصاتين أو أربعاً ، فأنه يأخذها علاوة على حصى البيت المقابل . وإذا كان البيت الأخير يحوى حصاتين أو أربعاً ، وكان أحد البيوت السابقة ، أو أكثر من واحد ، يحوى أيضاً أحد هذين العددين دون أن يتوسطها بيت ما به عدد آخر ، فان اللاعب يأخذ ما تحويه هذه البيوت السابقة علاوة على حصى البيوت المقابلة . أما إذا كان بالبيت الأخير ، علاوة على الحصاة الموضوعة ثلاث حصوات أو خمس أو أكثر ، فانه يخرجها منه ، ويستمر فى توزيعها بالطريقة السابقة . ومثال ذلك أن يكون آخر بيت وضع فيه حصاة هو البيت الثالث من يمين صفه ، فيضع حصاة من حصى هذا البيت فى البيت الثانى من يمين صفه ، ثم حصاة ثانية فى البيت الأول ، ثم ثالثة فى البيت السادس من صف خصمه المقابل للبيت الأول من يمين صفه وهكذا ... ويظل على هذا المنوال حتى يعترضه بيت ، أصبح بلعبه يحوى حصاة واحدة فيوقفه ، أو حصاتين أو أربعاً ، فيأخذها له . ثم ينتقل اللعب إلى الآخر . ويبدأ اللاعب دائماً من البيت الأول فى صف خصمه على يمين الأخير ، فاذا كان خالياً فمن أقرب بيت إليه فى صفه الخاص يكون به حصاة أو أكثر . وإذا كان أحد اللاعبين عنده أكثر من حصاة واحدة فى بيت أو أكثر من بيوته ، وكان الآخر لا يملك شيئاً ، فيلزم الأول بوضع إحدى حصيه فى أول بيت من بيوت خصمه . وإذا بقيت حصاة واحدة فى جانب واحد ، ولا شىء فى الجانب الآخر ، فتصبح الحصاة ملكاً لمن توجد فى جانبه . ويحصى كل من الطرفين ، عندما تفرغ اللوحة تماماً ، ما أخذه من الحصى . ويحسب من يملك الأكثر ما زاد على حصى الآخر ربحاً له . ويبدأ الرابح اللعب فى الدور التالى بعد أن يوزع خصمه الحصى . ويربح اللعب نهائياً من يستمر ربحه حتى يبلغ الستين . ويلعب الشبان المنقلة بتلك الطريقة. ومن ثم سميت « لعب الغشيم » . أما الطريقة الأخرى فيلعبها الكبار المهرة ، وتسمى « لعب العاقل » وتكون كما يلى :

يوزع الحصى على بيت أو أكثر فى جانب واحد، وعلى ما يقابله فى الجانب الآخر. ويوزع عادة على أربعة بيوت من كل جانب، فيترك البيتان الأقصيان من كل جانب خاليين، أو يوزع بأى طريقة أخرى يتفق عليها. كأن يوزع نصف الحصى تقريباً فى البيت السادس من يمين صف، والباقى فى البيت السادس من يسار الصف الآخر. ولا يعد موزع الحصى ما يضعه فى بيت ما. وله الخيار فى أن يضع الحصى فى بيت واحد من كل جانب أو فى جميع البيوت. وللاعب الآخر أن يدير اللوحة إذا اعترض على التوزيع، ولكنه يفقد بذلك حقه فى بدء اللعب. ولمن يلعب أولا أن يبدأ من أى بيت من بيوته حسبما يقدر أنه أكثر جلباً للحظ، ثم يستمر فى اللعب على الطريقة السابق وصفها، فيضع حصاة فى كل بيت كما يأخذ الحصى فى الأحوال نفسها من الطريقة الأولى، ثم يلعب الآخر. ويحصى اللاعب بعد الربح الأول ما يوجد فى كل من بيوته ليلعب من البيت الذى يأتى له بأكبر فائدة. ولأى اللاعبين أن يوقف الآخر ليعد الحصى التى أخرجها من بيت ما للتوزيع، حتى يضمن توزيعها بدقة. ويحسب ربح كل من الطرفين بعد انتهاء الدور الواحد مثل الطريقة السابقة. ويكسب اللعب من تتوالى أرباحه حتى تبلغ الستين.

وتفيد هذه اللعبة اللاعبين بتمرينهم على الحساب. ويلعبها المصريون عادة فى المقاهى، فيتفق اللاعبان، مخالفين الشرع فى ذلك، على أن يدفع الخاسر ثمن ما يتناوله هو وخصمه والمتفرجون من فناجين القهوة أو عدد معين منها. وهناك لعبة ذائعة أخرى بين الطبقات الدنيا تسمى «طابا» وهى تسمى فى بلدان شرقية أخرى «طاب وَدُك». ولكنى لم أسمع بهذه التسمية فى مصر أبداً. وطريقة هذه اللعبة أن يجهز أربع عصى صغيرة من الجريد، طولها شبر تقريباً، أى ثمانى بوصات، وعرضها ثلثا بوصة. فيقطع جانب منها مستوياً أملس فيكون أبيض اللون. ويبقى الجانب الآخر على اللون الطبيعى للجريد. ويسمى الجانب الأول «أبيض»، والآخر «أسود» وتسمى هذه العصى «الطاب». ويجب أن يعد اللاعبان بعد ذلك «سيجة»، وهى لوحة مقسمة إلى مربعات تسمى «بيوتاً» أو «دوراً»، وعرض كل منها بوصتان، مرتبة على صفوف أربعة. وقد تكون حفراً فى الأرض أو فى حجر مستو. وتكون البيوت عادة سبعة أو تسعة أو أحد عشر أو ثلاثة عشر أو خمسة عشر فى كل صف. ولبيان اللعبة نختار هنا سيجة ذات تسعة بيوت فى كل صف فيوضع عادة فى كل بيت من الصف الأول فى أحد الجانبين قطعة صغيرة من الحجر أو الآجر الأسمر بحجم الجوزة تقريباً. وفى كل بيت من

الصف الأول فى الجانب الآخر قطعة من الآجر الأحمر أو القرميد . وقد توضع القطع فى عدد معين من بيوت هذين الصفين ، كأن توضع فى البيوت الأربعة الأولى . ويجب تمييز القطع فى صف واحد من القطع فى صف آخر وتسمى القطع «كلاباً» ، والواحدة «كلب» . ويلعب هذه اللعبة اثنان . فيرمى أحدهما عصى الجريد الأربع على عصا مغرزة فى الأرض أو ممسكة باليد ، وطرفها الآخر مسندا على الأرض ، أو يرميها على حائط ، أو على عصا مائلة على الحائط . فاذا سقطت العصى وجانبها الأسود إلى أسفل ما عدا واحدة يقال إن اللاعب أتى «بطاب» وجمعه «طيب» ، أو «بولد» وجمعه «ولاد» ويحسب له واحد . وإذا سقط عصوان بيضاوان والأخريان سوداوان فيحسب إثنين . وإذا وقعت ثلاث بيض وواحدة سوداء يحسب ثلاثة . وإذا جاءت جميعاً بيض يحسب أربعة ، أو سود يحسب ستة . وعندما يأتى اللاعب بطاب أو أربعة أو ستة يرمى العصى مرة أخرى . ولكن عندما يأتى بط بين أو ثلاثة ينتقل اللعب إلى الآخر . ولكل من اللاعبين صف . ويرمى اللاعبان العصى بالتناوب حتى يأتى أحدهما بطاب ، فيلعب هذا الأخير على التوالى حتى يأتى بطابين أو ثلاثة . وإذا فرضنا أن اللاعب أتى ، فى أول اللعب ، بطاب وأربعة وطابين فأنه يحرك الكلب من أول بيت على اليمين فى الصف الخارجى إلى البيت السابع (ابتداء من البيت السابق) فى الصف الثانى الأوسط ، ويبدأ كل لاعب من البيت الأول فى الصف الخارجى على اليمين . ولا يستطيع اللاعبين تحريك كلب من بيته الأصلى دون أن يأتى بطاب من قبل . وتسمى الكلاب قبل نقلها من مكانها الأول «نصارى» . وتسمى بعد نقلها ، عندما يكون لها حق بدء اللعب ، «مسلمين» . ويقال لمن توصل من اللاعبين إلى جعل كلبه «مسلماً» إنه «سلم» كلباً ، وإن الكلب «أسلم» . وكلما أتى لاعب بطاب يسلم كلباً حتى يجعل كلابه كلها مسلمة ، فيعدها هكذا للجولان فى البيوت . ولكل لاعب أن يعد كلبين أو أكثر للدوران فى وقت واحد. ولنبسط الوصف نفرض أن أحد اللاعبين يحرك كلباً واحداً . فهو يحركه فى بيوت الصفين الأوسطين ، من اليمين إلى الشمال ، فى الصف الأول منهما ، ثم من الشمال إلى اليمين فى الصف الآخر . ويستطيع إذاً أن يعيد الدورة نفسها أو يدخل فى صف خصمه ، إذا وجد كلب ما فى ذلك الصف . غير أن اللاعب فى الحالة الأخيرة ، لا يستمر فى تحريك الكلب ذاته إلا فى أحوال ستذكر فيما بعد . ويأخذ اللاعب كلب ملاعبه كلما استطاع أن ينقل كلبه ، بعد رمية أو رميتين أو أكثر ، إلى بيت يشغله كلب خصمه هذا .

ومثل ذلك أن يكون لأحد الطرفين كاب فى البيت الثالث من شمال الصف الأوسط من ناحية خصمه ، والآخر كلب فى البيت الخامس وآخر فى البيت التاسع من الصف ذاته ، ويأتى الأول بطاب ثم بأربعة ثم بطابين ، فيمكنه أن يأخذ كلب البيت الخامس بالطابين ، وكلب التاسع بالأربعة ، ثم ينتقل بطاب إلى البيت الأول فى صف خصمه الخارجى من اليسار ويأخذ كلباً ثالثاً ، إذا كان هناك كاب ، ويستطيع اللاعب برمية ملائمة أو برميتين أو أكثر أن يحرك أحد كلابه إلى بيت مشغول بكاب آخر له ، وأن يضيف الكلبين معاً إلى كلب ثالث أو كلباً ثالثاً إليهما ، وهكذا يستطيع أن يجمع أى عدد من كلابه ويحركها معاً كأنها كلب واحد . غير أن اللاعب لا يستطيع أن يفصل هذه الكلاب ويلعب بها متفرقة إلا إذا أتى بطاب . وإذا استفاد اللاعب برمية تعيد هذه الكلاب إلى صف كانت قد مرت به ، متفرقة أو مجتمعة ، ترد إلى قيمة الكلب الواحد . غير أن لا حاجة إلى الانتفاع بمثل هذه الرمية ، إذ يستطيع أن ينتظر حتى يأتى بطاب ، وتسمى الكلاب مجتمعة هكذا « عجّة » . والقصد من جمعها هو المبادرة إلى وضعها فى أمان ، كما سيتبين حالا . ويستطيع أحد الطرفين إذا أدخل أحد كلابه فى صف خصمه ، أن يتركه فى أمان ما دام لا يريد أن يستمر فى اللعب به ، ولا يستطيع الطرف الآخر أن يعيد كاباً إلى صفه الخاص. على أن الأول لا يمكنه أن يستمر فى تحريك كلبه الذى دخل صف خصمه إلى أن يفرغ صفه من الكلاب ، أو إلا إذا كان فى صفه « عجة » فقط ولم يأت بطاب . والطاب وحده يجيز له أن يقسم « العجة » . ويتقدم اللاعب فى سيره داخل بيوت خصمه حسب الترتيب السابق ، وهو لا يستطيع أن يدخل الكاب نفسه فى صف خصمه مرة أخرى . فلا يحركه ، بعد أن يمر بذلك الصف ، فى غير الصفين المتوسطين بالطريقة المذكورة سابقاً — وكثيراً ما يلعب تلك اللعبة أربعة أشخاص أو أكثر بدون « سيجة » . فيسمى من يأتى بأربعة طيب « السلطان » فيمسك بمقرعة مكونة من قحف جريدة سميكة ، تشق شقين أو ثلاثة . ويسمى من يأتى بستة « الوزير » ، ويمسك العصا التى يقذف عليها الطاب . ويضرب السلطان بالمقرعة كل من أتى بطابين ضربة واحدة أو ضربتين أو أكثر ، حسب رأى الوزير ، على بطن قدمه أو قدميه معاً . وعندما يأتى أحد بستة مرتين يصبح السلطان والوزير معاً .

وكثيراً ما يتسلى الفلاحون أيضاً بلعبة « السيجة » . وهى تختلف هنا عن سيجة الطاب ، فهى تتكون من عدة حفر فى الأرض على خمسة صفوف ذات

خمس حفر كل، أو سبعة صفوف بسبع حفر كل،أو تسعة صفوف بتسع حفر . وتسمى على التوالى : « الخمساوى سيجة » ، « السبعاوى » ، « التسعاوى » . وتسمى الحفر « عيوناً » . وتستلزم كل سيجة عدداً كافياً من الكلاب يشغل العيون جميعاً ما عدا عيناً واحدة . ويضع أحد اللاعبين كلبين من كلابه فى العينين الوسطيين من الصفين الخارجين أفقياً، ويضع الآخر كلبين فى العينين الوسطيين عامودياً ثم يضعان على التعاقب كلبين فى أى عين يختارانها عدا العين الوسطى فى السيجة . ويضع اللاعبان أكثر الكلاب بغير ترتيب مقصود ويبدأ اللعب بشغل العيون جميعها ما عدا العين الوسطى . ويحرك البادىء أحد كلابه من عين قريبة إلى الوسط . ويطلب الآخر منه ، إذا كانت العين التى خلت حالا لا تتلو عيناً يشغلها كلابه ، أن يفتح له طريقاً، فيلتزم الأول بتحريك أحد كلابه ويخسرها هكذا. ويتم ذلك كلما اقتضاه ظروف مماثلة . وقصد كل لاعب، بعد ترتيب كلابه أول اللعب، أن يحرك كلباً له بحيث يجعل أحد كلاب خصمه بين كلبين له، فيستولى عليه . فيغنم كلاب خصمه بهذه الوسيلة كلما استطاع ذلك فوراً دون أن يسمح له بالتحرك . تلك هى قواعد اللعب . ويلاحظ أنه ، بالرغم من توزيع أكثر الكلاب مصادفة ، يجب التبصر فى ترتيب الكلاب الباقية . ويشاهد فوق قمة الهرم الأكبر رسوم عديدة للسيجة نقشها الأدلاء العرب على الحجر .

يندر أن يمارس المصريون الألعاب البدنية ، ومع ذلك فهم يمتازن بالقوة الجسمانية . فالملاحون مثلا يعانون مشقة كبيرة فى التجذيف وسحب المراكب، والحمالون يرفعون أثقالا تحير العقل . وقد يتضارب فلاحان بالنبوت للتسلية أو مقابل رهان أو جزاء زهيدين . ويحاول كل أن يصيب خصمه فى رأسه . والنبوت سلاح هائل، ويحمله الفلاح عادة فى أسفاره وخاصة فى جولاته الليلية، وإن ندرت . وقد يشاهد المرء أيضاً مباريات فى المصارعة . فيخلع المصارعون ملابسهم ، عدا السروال ، ويدهنون أجسامهم بالزيت . ولا تستحق ألعابهم الذكر . وقلما يقومون بها لغير أجر فى الأعياد والمواكب الخ . ولا يندر أن ترى ، فى مثل هذه المناسبات أيضاً ، معارك صورية يقوم بها رجلان ، لا يلبسان غير السراويل وقد تسلح كل منهما بسيف وترس صغير . ولا يحاول أى منهما أن يجرح خصمه ، فكل ضربة تقع على الترس .

كثيراً ما وُصف لعب المماليك وجنود الأتراك للجريد. غير أن طريقة فلاحى الصعيد فى لعبه حرّية بالوصف إلى حد بعيد . وهم كثيراً ما يلعبونه فى حفلات

زواج ذوى النفوذ ، كشيخ القبيلة أو شيخ البلد ، أو فى حفلات الختان ، أو عندما يضحى بثور منذور - ويترك حينئذ يرعى أينما يكون برضا الكل — على قبر ولى ويؤدب بلحمه مأدبة عامة . وينقسم المتبارون عادة إلى فريقين مختلفين باختلاف القرى أو القبائل أو البطون . ويتألف كل فريق من أثنى عشر رجلا أو عشرين تقريباً أو أكثر يركبون الخيول . ويقف كل فريق على بعد خمسمائة قدم أو أكثر من الآخر . ثم يركض فارس من أحد الفريقين نحو الفريق الآخر ويدعوهم إلى النزال . فيطارده فارس من الفريق الآخر بأقصى سرعة ، وبيده اليسرى أربع جريدات أو أكثر ، طول كل منها ستة أقدام أو أطول ببوصة أو بوصتين أو أقل من ذلك . ويكون الجريد على العموم بطول الرجل الطويل . ويكون ثقيلا جداً لأنه يقطع حديثاً من أسفل جريد النخل ، فيكون مفعماً بالعصارة . ويقترب المطارد من الفارس الأول بقدر الإمكان ، على مدى طول الذراع فى أكثر الأحيان ، ويقذف رأسه أو ظهره بالجريد الواحدة تلو الأخرى مصوباً طرفه الصغير إلى الأمام. والجريد يثلم طرفاه . وقد يحدث المطارد بالآخر جراحاً هائلة بل ومميتة(١) . ويجتهد الفارس الأول أن يمسك الجريد أو يرده بذراعه أو بسيف مغمد ، أو يتحاشاها بسرعة جواده الفائقة . ثم يحاول ، بعد هذا الهجوم ووصوله إلى مكان فريقه ، أن يظهر براعته أمام مطارده بالطريقة التى أتبعها معه الأخير . ويدوم هذا اللعب عدة ساعات ، وهو يذكرنا بمباريات الأقدمين(٢) ، وكان من ألعاب البدو الأولين . وينتشر لعب الجريد عند تلك القبائل التى لم تستوطن شواطىء النيل طويلا بعد ، فحافظت على شمائل وعادات بدوية كثيرة . وقد قتل أثناء زيارتى السابقة لمصر ثلاثة رجال وفرس خلال ساعة بلعب الجريد فى وادى طيبة الغربى . غير أنه يندر أن يفقد اللاعب حياته بممارسة هذه الرياضة . فلم أسمع على الأقل فى العهد الأخير بمثل هذه الحوادث . ويستعمل فلاحو الوجه البحرى جريداً بنصف طول الجريد السابق أو ما يزيد قليلا .

وهناك ألعاب أخرى أقل شيوعاً سأصفها فيما بعد . وهى تقام فى الحفلات لتسلية المشاهدين فقط .

---

(١) حدث أثناء إقامتى الأخيرة بطيبة أن أصيب رجل قوى البنية جميل الهيئة ، وكان خير لاعب للجريد فى المدينة ، بجرح بليغ أثناء اللعب . وكنت قد جعلته فى خدمتى كحارس ليل . فلاقيت صعوبة فى علاجه ، إذ أصابه هذيان إستمر عدة ساعات كان فيها بين الحياة والموت . وكان الجريد قد أصابه بالقرب من أذنه وغرز أسفل عنقه .

(٢) يقصد المؤلف مبارزات القرون الوسطى بأوربا المسماة (Tournoi) وهى تشبه ألعاب الجريد . وكانت مباريات صورية للتمرين وعرض البراعة والشجاعة . ويبدو أن أول ظهورها بفرنسا وكانت قاصرة على النبلاء . (المترجم)

الفصل الثامن عشر

الموسيقى

إن ولع المصريين بالموسيقى لعظيم ، غير أنهم يعتبرون هذا الفن الساحر (مثل الرقص) لا يليق بالعاقل أن يشغل وقته بدراسته، وأنه يؤثر فى العواطف تأثيراً قوياً، ويدفع الرجل إلى المرح واللهو والرذيلة. ومن ثم استنكرها الرسول . ولكنهم ، والدراويش على الأخص ، يستخدمونها مع ذلك فى الحفلات الدينية أيضاً . وللمصريين مؤلفات قليلة جداً فى الموسيقى ، لا يفهمها المحدثون منهم . ويظهر ميل المصريين الفطرى إلى الموسيقى فى تنسيق حركاتهم ، والتخفيف من عبء أعمالهم المختلفة ، بالأغانى والأناشيد . فالملاح يغنى وهو يجذف ، والفلاح يغنى وهو يرفع المياه ، والحمال يغنى وهو يحمل الأثقال ، والفعلة من رجال وصبية وبنات ، يغنون وهم ينقلون الآجر والملاط ويزيلون الأنقاض ، وكذلك النشار والحصاد وكثير من العمال الآخرين . ويدرك أطفال المصريين موسيقاهم فى سن مبكرة وبسهولة فائقة ، بينما يصعب على الأجنبى أن يفهم أسلوبها أو يقلده . ويساعد ترتيل القرآن ، فى المدارس ، على تنمية ميلهم الفطرى للموسيقى .

ولا يخفى على أحد كيف كان العرب ينشرون العلم ، وقت أن كانت أوربا تتخبط فى ظلام الجهل ، وإلى أى حد انتفعوا بمؤلفات الإغريق . ويبدو أن العرب وضعوا القانون الموسيقى ، الذى ساد بينهم أجيالا عديدة ، بمعونة من نظريات الإغريق والفرس والهنود(١) . ويشتق لفظ « موسيقى » العربى ، وأسماء

---

(١) إن الموسيقى العربية ترجع إلى أصل سامى قديم ، كان ذا أثر عظيم فى الموسيقى اليونانية ، إن لم يكن أساساً لها . ولا شك أن الموسيقى العربية تأثرت بالموسيقى الفارسية والبيزنطية ، كما أن الفرس والبيزنطيين استعاروا بدورهم من العرب ، غير أن القوانين الموسيقية المنقولة من الخارج ، لم تحل محل الموسيقى الوطنية العربية . ولكنها دخلت عليها =

بعض الآلات الموسيقية العربيـة ، من اللغة الإغريقيـة . غير أن أغلب الاصطلاحات الفنيـة التى استعملها الموسيقيون العرب ، أخـذت من اللغتين الفارسية والهندية . وهناك تشابه عجيب بين كثير من الأنغام التى سمعتها فى مصر وبعض الألحان الشعبية فى أسبانيا(١) . وليس فى ذلك ما يدهش ، فقـد كان عرب أسبانيا يتقنون الموسيقى اتقاناً فائقاً . وتحوى مكتبة الاسكوريال فى هـذا الفن ، مؤلفات عربية كثيرة .

إن أهم خصائص النظام الموسيقى العربى تقسيم الأصوات إلى أبعاد ثلاثيـة . ومن ثم سمعت بعض الموسـيقيين المصريين ينتقدون نظم الموسـيقى الأوربيـة لنقصها فى عدد المقامات . وتكسب سلالم المقامات الدقيقة الرقيقة هـذه عزف الموسيقيين العرب ، الذى يشبه النواح ، عذوبة خاصة . غير أنه يصعب تمييزها بدقة ، ولذلك قلما يراعيها ، فى الغناء أو العزف ، من لم يدرس هذا الفن دراسة منتظمة . وتعتبر أغلب الألحان الشعبية المصرية ، وإن شابهت فى أكثر الوجوه موسيقى العازفين المحترفين ، ساذجـة جداً ، إذ أنها تتألف من نغمات قليلة ، تكرر فى كل سطر أو سطرين من الأنشودة . ويجب أن أعترف أن الموسيقى الرفيعة التى سمعتها فى مصر أحيـاناً تطربنى كثيراً ، ويزيد طربى كلما تعودت أسلوبها . ولكنى أقرر فى الوقت نفسه أننى لم أجد أوربيين كثيرين سروا بها بقدر سرورى . ويطرب أهل مصر على العموم عند سماع مغنيهم وعازفيهم ، ويصفقون هاتفين على التواتر :

= وتلقحت بأصولها التى كانت لها ميزات خاصة . » وإن إدراك هذه الحقيقة لعلى غاية من الأهمية خشية أن يتسرب إلى الأذهان أن الموسيقى العربية من أصل فارسى أو رومى » .

أنظر بحث الدكتور هنرى فارمر عن الموسيقى العربية فى كتابى :

مؤتمر الموسيقى العربى المنعقد فى القاهرة ١٩٣٢ ص ٣٨٣ المطبعة الأميرية .

Legacy of Islam (تراث الإسلام) ص ٣٥١ طبعة ١٩٤٣ . (المترجم)

(١) ويلاحظ ذلك على الأكثر فى الموسـيقى المصرية الرفيعة ، وفى ألحان بعض الأغانى والأناشيد الشعبية أيضاً . (المؤلف)

ومن آثار العادات العربية بأسبانيا سلوك السامعين أثناء العزف ومقاطعتهم المغنين والعازفين بصياحهم ole ! ole (الله !) وكذلك كان عازف القيثارة يبدأ وحده أولا ، فيعزف مقدمة طويلة ليهيىء نفوس السامعين وأفراد الفرقة ، ثم يبدأ المغنى بصيحة طويلة : آى ! ay ، أو كما كان الحال إلى سنة ١٩٢٢ ، بنواح : ليلى ! ليلى Leli ! Leli ! .

أنظر Legacy of Islam ص ١٧ . (المترجم)

« الله »(١) ، « الله يرضى عليك » ، « الله يحمى صوتك » . وما شاكل ذلك .

يسمى محترفو الموسيقى « آلاتية » ، ومفردها « آلاتى » ، أى العازف على آلة . وهم على العموم يحترفون الغناء علاوة على العزف . والآلاتية قوم فسدت أخلاقهم ، ولا تكاد سمعتهم تقل سوءاً عن سمعة محترفى الرقص . ومع ذلك يستأجرهم الأغنياء فى أغلب المسامرات الفاخرة ، التى يقيمونها لتسلية الأصحاب . ويقدم إليهم حينئذ الأشربة الروحية ، فيحتسونها حتى يعجزوا أحياناً عن الغناء أو العزف . ويبلغ مايتناوله كل منهم ، فى ليلة من تلك الليالى ، ما يساوى شلنين ، أو ثلاثة شلنات تقريباً ، وكثيراً ما يتناولون أكثر من ذلك . ويشترك الضيوف فى نفحهم الأجر .

يحترف الغناء أيضاً نساء يسمين « عوالم » ، والواحدة « عالمة » ، بتسكين اللام أو كسرها . ومعنى هذا اللفظ فى اللغة الفصحى « امرأة متصفة بالعلم » ، ولكن من الواضح ، على ما أرى ، أنه ، باطلاقه على أولئك المغنيات ، يشتق من الكلمة العبرية أو الفينيقية « علماه »، ومعناها فتاة أو عذراء ، وعلى الأخص مغنية . ولا شك أن عبارتىّ « على عـلاموث شـير » ، وهى عنوان المزمور السادس والأربعين من سفر المزامير ، و« نباليم على علاموث » ، سفر الأيام الأول ١٥/٢٠ ، ينبغى أن تعنيا : « ترنيمة » و« رباب » ، أو ما يشابه ذلك ، بتطبيقها على العوالم ، أى « مغنيات »(٢) . ويحتمل ، كما قال جيروم(٣) إن لفظ « ألما » معناه فى اللغة القرطاجنية « عذراء » ، أن يكون أشهر مغنيات مصر قديماً من الفينيقيات . وكثيراً ما يستأجر الأغنياء العوالم عند إقامة حفل فى الحريم . ويحتجب المغنيات عن نظر رب الدار ، إذا كان مع نسائه ، فى غرفة صغيرة مرتفعة ، تسمى « تقيسـة » (بضم التاء وفتح القاف والسين وتسكين الياء) أو «مغنى» (بضم الميم وفتح الغين وتشديد النون بالفتح) ، ملحقة ببهو الحريم الرئيسى ، لا يفصلها عنه غير ستر من خشب المشربية ، أو فى مكان ملائم

---

(١) وكثيراً ما ينطقونها حينئذ بطريقة طويلة غير عادية ، فيمدون آخر اللفظ .

(٢) وجدت بالرجوع إلى النسخة العربية للكتاب المقدس ، ترجمة العبارتين العبريتين هكذا : « على الجـواب . ترنيمة » . و« بالرباب على الجواب » فيتضح لنا ، بتطبيق الترجمة العربية على الأصل العبرى ، أن لفظ « علاموث » يعنى « الجواب » . ولعله يقصد بالجواب ضد القرار . وعلى أى حال ، فلفظ « علاموث » العبرى يعنى فتيات . (المترجم)

(٣) القديس جيروم St Jerome من رجـال الكنيسة اللاتينية (٣٤٠ – ٤٢٠) اشتهر بكثرة أسفاره وسعة اطلاعه وقد ترجم التوراه إلى اللاتينية . (المترجم)

آخر. وإذا كان هناك ضيوف من الرجال يجلسون فى الفناء، أو فى غرفة سفلى، بينما يجلس العوالم عادة حينئذ وراء شباك من شبابيك الحريم تحجبهن المشربيات. وبعض العوالم يعزف على الآلات أيضاً. وقد سمعت أشهر عوالم القاهرة، فأطربتنى أغانيهن أكثر من أجود عزف عزفه الآلاتية، بل (وأستطيع أن أضيف بحق) ومن أى موسيقى أخرى تمتعت بها. وكثيراً ما تنال العوالم مبالغ كبيرة. وقد عرفت أحوالا نفح الضيوف فيها عالمة واحدة ما يزيد على خمسين جنيهاً فى دار أحد التجار، ولم يكن أحدهم ذا يسار. ويؤثر غناء العالمة البارعة فى السامعين تأثيراً قوياً يدفعهم إلى بذل أموال يصعب عليهم تحمل خسارتها. ومن عوالم القاهرة فئة يتمتعن ببعض المناقب الأدبية، فهن جديرات بأن يسمين عالمات بالمعنى الصحيح. ومنهن كثيرات من طبقة دنيا يرقصن فى الحريم أحياناً. ومن ثم أطلق السياح خطأ لفظ «عالمة» على أولئك الراقصات، اللائى يرد ذكرهن فى فصل لاحق. وقد يكون سبب ذلك الخطأ أن تلك الفتيات أنفسهن يتسمين كذلك أحياناً. ويلجأن إلى ذلك على العموم عندما تحرم الحكومة عليهن، كما حدث كثيراً، احتراف الرقص.

وللمصريين ضروب عديدة من آلات الموسيقى، تستعمل منها فى الحفلات الخاصة، «الكمنجة»، و«القانون»، و«العود»، و«الناى».

و«الكمنجة»(١) لفظ فارسى. ويكتب على الأصح «كمانجه»(٢) ويعنى قوساً. وقد رسمت هذه الآلة، وجميع الآلات الأخرى، المدرج رسمها هنا، بواسطة آلة التصوير Camera - lucida (٣). ويبلغ طول الكمنجة المبينة هنا ثمانيا وثلاثين بوصة. ويتكون جسمها الرنان، ويسمى «حقة»، من جوزة نزع ربعها تقريباً، وثقبت عدة ثقوب صغيرة. ويشد على مقدمها قطعة من جلد سمك «البياض» يوضع فوقها الجسر «الغزال». ويصنع العنق،

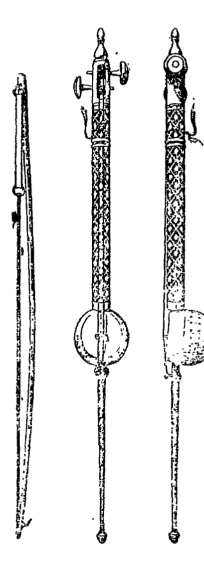
---

(١) نبهنى صديق مصرى بعد ظهور الطبعة الأولى لهذا الكتاب إلى أن الأصوب إطلاق اسم الرباب على هذه الآلة، إذ أنه الاسم الشائع الكمان، ولكنى لم أسمع أبداً فى مصر بغير اسم الكمنجة، وهى تسمى كذلك أيضاً فى سوريا.

(٢) الفارسية كمان تعنى قوس، وكمانجة: مصغر كمان، واسم لآلة موسيقية من نوع الرباب. (المترجم)

(٣) Camera - lucida آلة ينعكس بواسطتها الضوء الصادر من الشىء المراد رسمه، خلال منشور له شكل خاص، فتنتقل صورة هذا الشىء على ورقة توضع مباشرة تحت تلك الآلة. وكان يستعين بها فى رحلاته لرسومه — المستشرق الكبير ادوارد وليم لين ص٥٤. (المترجم)

ويسمى « الساعد » ، من الأبنوس المطعم بالسن ، وهو مستدير الشكل. وينتهى أسفله بقطعة من السن . ويتكون الرأس، وتسمى« الخزنة »» ، من السن أيضاً ، ويولج فيها « الملاوى » . وتكون « الملوى » من الزان ، ورأسها من السن . ويتكون أسفل الكمنجة ، ويسمى « سيخاً » ، من الحديد . ويمر السيخ خلال الحقة ، ويدخل فى الساعد إلى عمق أربع بوصات أو خمس. ويشمل كل من وترى الكمنجة حوالى ستين شعرة من شعر الخيل ، ويربطان أسفل الخزنة تماماً، إلى حلقة حديدية . ويمد كل منهما إلى الطرف الآخر بقطعة من أمعاء الخراف تشد إلى الملوى الخاص بكل منهما . ويعقد حول الساعد ، فوق الوترين، أسفل اتصالها بالأمعاء قليلا رباط جلدى مزدوج . ويبلغ القوس أربع وثلاثين بوصة ونصف طولا . ويوضح الرسم هيئته . وتتكون عصاه من الدردار . ويدخل شعر الخيل فى ثقب بأعلى العصا ويعقد ، ثم يشد إلى الطرف الآخر إلى حلقة حديدية ، يصلها إلى حلقة أخرى أسفل العصا ، رباط جلدى يشد ويرخى . وتجد هنا رسماً لعازف على الكمنجة يبين طريقة العزف (شكل ٧٣) ويدير العازف الكمنجة ستين درجة تقريباً وهو يمر بالقوس من وتر إلى آخر . وقد رسمت هذا الشكل

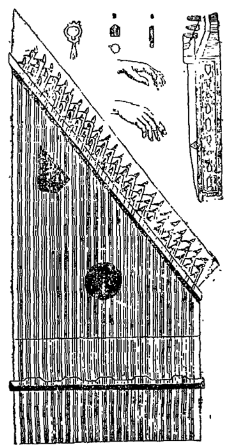


شكل ٧٢ (كمنجة)



شكل ٧٣ (عازف على الكمنجة)

والأشكال الأخرى (العازفين على القانون والعود والناى) لأبرع الموسيقيين ما عدا الأخير . وهؤلاء العـــازفون يكونون معاً فرقة مصرية عادية كما تراها فى الحفلات الخاصة . ويجلس عازف الكمنجة عادة على يمين عازف القانون ، أو فى مواجهتــه ، ويجلس عازف العود على يسار الأخير ، ثم عازف الناى . وقد يوجد عازفون آخرون سأذكر آلاتهم فيما بعد . وكثيراً ما يوجد مغنيان .



شكل ٧٤ (القانون)
أعلى الرسم المفتاح والكشتوان والريشة

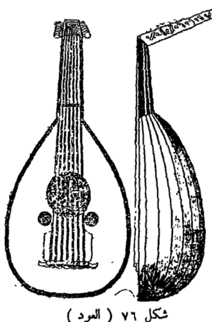
القانون نوع من السنطير. واسمه مشتق من اليونانية (Kanon)، وله نفس المعنى ، أى قاعدة ، شريعة ، عادة . ويزيد طول الآلة ، المبين رسمها هنا (شكل ٧٤) ، بوصة أو بوصتين على طول البعض الآخر الذى رأيته . وأقصى طول للقانون تسع وثلاثون بوصة وثلاثة أرباع البوصة ، وعرضه ستة عشرة بوصة ، وعمقه بوصستان وعشر بوصة . وقد يصنع القانون كله من خشب الجوز عداً بعض أجزاء مزخرفة . ويتكون وجه القانون وظهره(١) ، فى الرسم المدرج هنا ، من ألواح الصـنوبر الجميل والجوانب « السور » ، من الزان . وكذلك « المسطـرة » ، وهى الجزء الذى يولج فيـه الملاوى ، والأنف أيضاً ، بطول حـافته الداخلية حيث تمر الأوتار خـلاله ، يكونان من الزان . والملاوى من خشب الحور . والجسر « الفرس » من الصنوبر . ويتوسط وجه القانون قطعة خشبية مستديرة ، « شمسه » ، ذات لون يميل إلى الاحمرار وبها عدة ثقوب . وعند زاوية الوجه الحادة قطعة أخرى من الخشب نفسه ،

(١) وش وضهر .

ذات ثقوب أيضاً. ويوجد فى موضع الفرس على الوجه خمس فتحات مستطيلة، مقابلة لأقدام الفرس الخمس ، يلصق عليها قطعة من جلد السمك «رقمة» عرضها تسع بوصات . فتستقر أقدام الفرس الخمس على الفتحات الخمس السابقة ، وتضغط على الجلد ضغطاً خفيفاً ، وتكون أوتار القانون من أمعاء الخراف ، ولكل صوت ثلاثة أوتار . وعدد الأوتار جميعاً أربعة وعشرون وتراً ثلاثياً . ويغشى الجانب الأقصر من القانون ، ويسمى « قبلة » بالجوز المطعم بالصدف . ويعزف على القانون بريشتين ، تشد كل منهما إلى سبابة اليدين . والريشة قطعة صغيرة رقيقة من قرن الجاموس . وهى توضع، بالطريقة المبينة فى الشكل ٧٤، بين الأصبع وخاتم ، يسمى «كشتوان »(١) وهى قطعة مستوية من النحاس أو الفضة . ويضع العازف الآلة فوق ركبتيه (شكل ٧٥). والقانون يطربنى، عند العزف البارع أكثر من أى آلة مصرية أخرى . ويعد القانون للفرقة ذا عون كبير .


شكل ٧٥ (عازف على القانون)

ظل العود عدة أجيال أكثر الآلات استعمالا ، وكان يستعمله أمهر الموسيقيين العرب ، ويشيد بذكره كثير من الشعراء . والعود معناه أصلا الخشب ، واللفظ مع أداة التعريف مصدر لكلمة liuto الإيطالية ، وluth الفرنسية وlute الإنجليزية. ويبلغ طول العود، المصور هنا (شكل٧٦) ، من زاوية الساعد ، خمس وعشرين بوصة ونصف . ويتكون جسم العود من الصنوبر يحده طرف من الأبنوس . ويركب الساعد بالأبنوس بينما يكسى وجهه بالبقس بحد من الأبنوس . ويلصق بوجه الجسم، وبه شمسة كبيرة


شكل ٧٦ (العود)

(١) قد تكون من الفارسية ، انكشت : أصبع — واللاحقة ، بان : حارس — وهو مثل الكشتبان تقريباً . (المترجم)

وشمستان صغيرتان من الأبنوس، قطعة من جلد السمك « رقة » ، تحت ذلك الموضع من الأوتار حيث تعمل الريشة ، حتى لا يبلى الخشب . وللعود سبعة أوتار مزدوجة ، لكل نغمة وتران . والأوتار من أمعاء الخراف . وترتيب الأوتار فريد: فالوتر الأدنى يوافق الوتر الأعلى فى الكمان الغربى، الخ. يتلوذلك فى السلم ، على اعتبار أن السابق هو النغمة الأولى ، النغمة الخامسة فالسابعة فالثانية فالرابعة فالسادسة فالثالثة . وريشة العود من ريش العقاب . وطريقة مسك العود يبينها الشكل رقم ٧٧ .



شكل ٧٧ (عازف على العود)

الناى أنواع كثيرة ، يختلف كل منها عن الآخر حجماً ، وقلما تختلف فى غير ذلك. وأكثر الأنواع شيوعاً (شكل ٧٨) ما يسمى « ناى الدراويش » . ويسمى هكذا لكثرة استعماله فى حفلات الذكر، مع أغانى «المنشدين» وهذا الناى قصبة ساذجة طولها ثمانى عشرة بوصة تقريباً، وقطرها سبعة أثمان البوصة فى طرفها الأعلى ، وثلاثة أرباع فى أسفلها . وبها ستة ثقوب



شكل ٧٨ (الناى)

فى الصدر ، وثقب واحد فى الخلف على العموم . ويبين الرسم المدرج هنا لعازف على الناى (شكل ٧٩) طريقة العزف عادة . ولكن قد توضع اليد اليسرى إلى أعلى ، ويمال الناى إلى يمين العازف بدلا من اليسار . ويصدر الصوت من النفخ ، خلال ثقبة الشفتين ، على حافة القصبة ، وتوجيه الهواء داخلها على الأخص . وتحدث الأصوات العالية والواطئة تبعاً للنفخ الشديد أو الضعيف . ويحدث الناى بين يدى العازف الماهر نغماً رقيقاً ، ولكن ذلك يستوجب

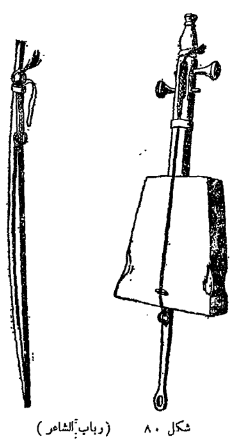
شكل ٧٩ (عازف على الناى)

مراناً طويلا . ويصنع الناى أحياناً من أنبوبة بندقية .

وهناك آلة تستعمل كثيراً فى الحفلات الخاصة ، تسمى « رقاً » وهى تشبه « الطار » ، ولكنها أصغر قليلا . ويبينها الشكل ٨١ .

ويستعمل أيضاً فى الحفلات المصرية آلة ، تسمى « طمبوراً » . ولكن غالباً ما يستعملها اليونانيون وغيرهم من الأجانب . وهؤلاء يستعملون أيضاً « صنطيراً » ، وهى آلة تشبه القانون، غير أن لها جانبين مائلين بدلا من جانب واحد، وأوتارها سلكية مزدوجة عوضاً عن أوتار الخراف الثلاثية ، وتضرب بعصوين بدلا من الريشة .

ويوجد نوع غريب من الكمان ، يسمى « ربابا » ، كثيراً ما يستعمله المغنون الفقراء لمصاحبة الغناء . والرباب نوعان : « رباب المغنى » ، « رباب الشاعر » . ويختلف النوعان فى أن الأول ذو وترين والآخر ذو وتر واحد . وقد أدرجت رسماً لرباب الشاعر (شكل ٨٠) ، ويلاحظ أنه يسهل تحويل النوع الثانى إلى النوع الأول ، إذ أن له ملويين . ويبلغ طوله اثنتين وثلاثين بوصة . وجسمه إطار من الخشب ، ويغطى صدره ، دون ظهره ، برق . . « والسيخ » من حديد ، والوتر من شعر الخيل مثل أوتار الكمنجة . وقوس الرباب ، وطوله ثمان وعشرون بوصة، يشبه قوس الكمنجة. والرباب يستعمله دائماً رواة قصص أبى زيد الهلالى وهم ينشدون الشعر . وراوى تلك القصص يسمى « شاعراً ». ومن ثم سميت الآلة « رباب الشاعر »، و « الرباب الأبو زيدى » .



شكل ٨٠ (رباب الشاعر)

ويستعمل الشاعر نفسه هذه الآلة ، بينما يصاحبه عازف آخر على رباب مماثل .

إن الآلات التى تستعمل فى مواكب العرس والدراويش الخ . تكون على الأخص « الزمر » ، وعدة أنواع من الطبول ، أكثرها شيوعاً « الطبل البلدى » ، أى الطبل المصرى ، و« الطبل الشامى» . ويشبه الأول الطبل الحربى العادى ، ولكنه ليس بعمقه . وهو يعلق منحرفاً . والآخر من النحاس المبيض ، وأعلاه من الرق . وقطره ست عشرة بوصة تقريباً ، ولا يزيد عمقه فى الوسط على أربع بوصات . ويضرب بعصوين دقيقتين . ويعلقه الضارب فى عنقه بخيط يربط إلى حلقتين مثبتتين فى طرف الآلة . وقد سبق أن رسمت هذه الطبول فى شكلى « زفة العروس » و « زفة الختان » .

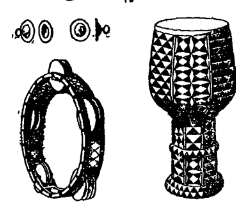
يشاهد المرء فى أكثر المواكب الدينية العظيمة ، أيام الحج وغيرها بالقاهرة ، زوجين من الطبل الكبير المسمى « نقّارة » . وهما من النحاس الأحمر ، ولا يختلفان فى الشكل ، فهما على هيئة ثلثى دائرة تقريباً ، ولكنهما يختلفان فى السعة. فالأكبر قطره عند السطح المستوى قدمان تقريباً ، والآخر قدم ونصف. وهما يحملان على جمل ، ويربطان فى مقدم السرج حيث يجلس الضارب . والطبل الأكبر يوضع على اليمين .

وكثيراً ما يستعمل الدراويش فى المواكب الدينية ، وعند الاستجداء ، طبلا صغيراً ، يسمى « بازا » ، قطره ست بوصات أو سبع . ويمسك الباز باليسرى من نتوء صغير وسط الظهر . ويضرب باليمنى بسير من جلد قصير أو بعصا . ويستعمل الدراويش أيضاً ، فى مناسبات مماثلة ، صنوجاً يسمى الواحد منها « كأساً » . ويستعمل « المسحر » الباز ليوقظ النائمين إلى السحور فى ليالى رمضان . ويستعمل الراقصون العموميون ، نساء ورجالا ، صنوجاً من النحاس تسمى « ساجات »(١). ويشد الراقص زوجين من الصنوج بأنشوطة من الخيط إلى الإبهام والسبابة من كل يد . وللصنوج النحاسية صوت أبهج من الصنوج الخشبية أو العاجية .

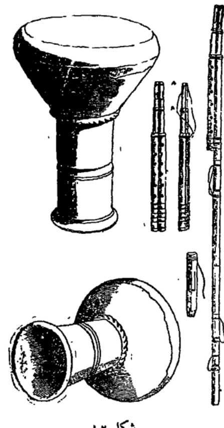
---

(١) يكتبها لين بالسين . وتنطق عامة بالصاد . والصاج (فارسية) : طبق من المعدن مقعر يخبز عليها . ولعل لفظة الصاجات التى تطلق على آلات الطرب هذه مأخوذة من الصاج لما بينهما من تشابه . وينطبق ذلك أيضاً على: الصحن: القصعة الصغيرة . والصحنان : طسيتان (بضم الطاء) صغيران يضرب (بضم الياء) أحدهما على الآخر للطرب . (المترجم)

وهناك آلتـان كثيراً ما يستعملها النساء فى حريم المتوسطى الثروة للتسلية وأولاهما « الطار » (شكل ٨١)وقطره إحدى عشرة بوصــة . ويرصع طوقه ، فى الداخل والخــارج ، بالصدف والبـاغة والعظم الأبيض أو العاج ، وبه عشرة أزواج من الصفائح النحاسية المسـتديرة ، كل زوجين يعلق بســلك يمر وسطهما . ويمسك الطار بأحدى اليدين ، ويقرع بأصابع اليد التى تمسك به وباليد الأخرى . وتنقر أصابع اليد على جانب الطوق فقط ، ويحدث ذلك صوتاً أعلى من صوت اليد الأخرى التى تقرع الوسط . ويستعمل أفراد الطبقة السفلى طبلا أكبر من الأول وأكثر سذاجة وليس به صفائح معدنية. أما الآلة الأخرى المشار إليها فى أول هذه الفقرة فهى طبـل ، يسمى « درابكة » . وأحسن أنواعهـا ما صنع من الخشب ورصع بالصدف والباغة الخ . ، كما ترى فى شكل ٨١، ويبلغ طولها خمس عشر بوصة . ويغطى طرفها الأكبر بقطعة من جلد السمك . ويترك الطرف الأصغر مفتوحاً . والدرابـكة توضع تحت الذراع اليسرى ، وتعلق على العموم إلى الكتف اليسرى بخيط ، وتضرب باليدين معاً . وهى مثل الطار ، تحدث أصواتاً



شكل ٨١ (الساجات و الطار و الدرابكه)



شكل ٨٢
(درابكه من الفخار ، زمارة ، فم الزمارة ، أرغول)

مختلفة عندما يضرب عليها بقرب الحافة أو فى الوسط. ويصنع أكثر أنواع الدرابكة شيوعاً من الفخار. ويختلف قليلا، فى الشكل، عن السابق وصفه. أنظر شكل ٨٢.

كثيراً ما يستعمل نوتية النيل درابكة من الفخار تزيد على تلك التى تستعمل فى الحريم، وتبلغ عامة قدماً ونصف قدم إلى قدمين طولا. ويستعملها أيضاً بعض القاصين الأدنياء وغيرهم. ويستعمل النوتى علاوة على الدرابكة قصبة مزدوجة تسمى « زمارة »(١). وهناك نوع آخر من القصبة المزدوجة يسمى «أرغولا »(٢)، وإحدى قصبتيه أطول من الأخرى، وتستعمل للدندنة أو لأحداث قرار متواصل(٣). والأرغول يستعمله النوتية أيضاً، وقد يستبدل بالناى فى حفلات الذكر. وتحدث القصبة المزدوجة بنوعيها أصواتاً غليظة، ويشبه صوت الأخيرة صوت مزمار القربة كثيراً. وهناك نوع بدائى من مزمار القربة، يسمى « زمارة بِسُعْن »(٤) يندر أن يرى بمصر، وزقه من جلد الماعز.

وأختم الآن هذا الفصل بعرض بعض نماذج من الموسيقى المصرية والأغانى الشعبية خاصة، أدونها طبقاً للطريقة التى تغنى بها عادة، بدون أية تحلية مما يضيف الآلاتية. وألحان هذه النماذج لا تؤدى دائماً مع الألفاظ نفسها. غير أن أسلوب الأغانى يماثل عامة تلك الألفاظ المدرجة هنا، أو على الأقل، يماثلها سخافة. وهى مع ذلك تفيض باستعارات غير لائقة وبذاءة صرفة. ومن الواجب القول إن النطق المتميز والصوت المتهدج من خصائص الغناء المصرى.

---

(١) ويبلغ طولها ١٤ بوصة. وفم الزمارة غير ثابت.

(٢) ويبلغ طوله ٣ أقدام و٢ ونصف بوصة.

(٣) للأرغول ثلاث قطع تضاف إلى القصبة الطويلة. فيستعمل الأرغول بدونها أو يضاف إليه قطعة واحدة أو أكثر. وفم الأرغول مثل فم الزمارة منفصل.

(٤) السعن : قربة تقطع من نصفها كالدلو. (المنجد)

(المترجم)

الأغـانى

— ١ —



دوس (١) يا ليلى(٢) دوس يا ليلى (ويغنى هذا الشطر ثلاثاً) عشق محبوبى فتنى
(ويكرر ما سبق بعد كل دور من الأدوار اللاحقة ويغنى جماعة أحياناً)

ما كل من نامت عيونه يحسب العاشــق ينـام
والله أنا مغـرم صبابة لم على العاشــق مـلام

يا شيخ العرب يا سيد(٣) تجمعنى ع الخـل ليـله
وإن جانى حبيب قلبى لعملُ ٱلكشمير ضلّيله

كامـل الأوصـاف فتنى والعيـون السـود رمونى
من هواهم صرت أغنى والهـوى(٤) زود جنـونى

---

(١) إن القاعدة المتبعة فى أغلب الأغانى العربية الحديثة أن يطلق المذكر على المحبوب الذى هو مع ذلك أنثى كمـا ترى فى الأشعار اللاحقة . وترد بعض الكلمات بمعنين فلم أقم بتفسيرها . وقد ذكرت ألفاظ الأغانى كما تنطق فى القاهرة عدا حرف القاف فقد أدرجته كما ينطقه المتعلمون قافاً بدلا من همزة . (المؤلف)

ويقول لين ، فى مخطوطه (وصف مصر) ، الفصـل الأول من المجلد الثانى ، إن سبب هذه العادة هو أن يتفادى المصريون من ذكر المرأة فيما يوضع من أغان لتسلية الرجال فى مقام يسوده احتشام قليل . (المترجم)

(٢) يا ليلى صيحة دارجة تدل على السرور وقيل أنها ترادف يا فرحتى . ومن الصعب أن تترجم هذه العبارة وغيرها من العبارات الخاصة .

(٣) وهو الولى المشهور السيد أحمد البدوى المدفون فى طنطا .

(٤) يرى لين لكلمة (الهوى) معنى مختلفاً حيث يترجم عبارتها هكذا : and the air increased my madness وردفها بهذا التفسير لكلمة air : air of the song ، أى لحن الأغنية . ولا شك أن الهوى هو العشق . (المترجم)

جمعم جمع العوازل عن حبيبى يمنعونى
والله أنا ما أفوت هواهم بسّيوف لو قطّعونى

قم بنا ياخل لسكر(١) تحت ضل الياسمينه
نقطف الخوخ من على أمه والعوازل غافلين

يابنات مُجو المدينة(٢) عندكم أشيا تمينه
تلبسو شاطح(٣) باللولى والقلاده(٤) ع نهد زينه

يا بنات اسكندريه مشيكم ع الفرش(٥) غيه
تلبسو الكشمير بتلى(٦) والشفايف سكريه

يا ملاح خافو من الله وارحموا العاشق لله
حبكم مكتوب من الله قدّر المولى علىّ

-٢-



يا بو الجلف يا بو الجلف راح المحبوب ما عاد ولفى
(وتكرر بعد كل من الدورين اللاحقين)

راح المرسال ولم جاش وعين الحب بتراشى
يابوالجالف(٧) يابوالجلف يا ريتنا ما نشبكناش
يابو الجلف الخ

---

(١) والسكر هنا نشوة الحب وهذا هو معنى السكر على العموم فى الأغانى العربية .
(٢) القاهرة .
(٣) حلية وصفت فى الملحق تشبه عقداً من اللؤلؤ وتعلق على جانبى العمامة .
(٤) عقد طويل يصل إلى الوسط .
(٥) ما يفرش على الأرض من أبسطة وغيرها .
(٦) تحريف للكلمة التركية (تل) وتطلق فى مصر على الأسلاك الذهبية أو الفضية المستعملة فى التطريز .
(٧) خصلة الشعر التى تسقط على الصدغ المسماة (مقصوص) . (المؤلف) =

وليـه يا عين شبكتينا   وبالألحـاظ جرحتينـا
يا بو الجالف يا بو الجلف   بالله رق واشـفينا
يا بو الجلف الخ

أسـقمتنى يا حبيـبى   وما قصـدى إلا طبك
عسـاك يا بدر ترحمنى   فانّ قلـبى يحبـك
يا بو الورد يا بو الورد   حبيب قلبى خليك عندى

دالحب جانى يتمايـل   وسُـكر حالى جفونُه
مديت إيدى آخد الكاس   سكرت أنا من عيـونه
يا بو الورد يا بو الورد   حبيب قلبى خليك عندى

-٣-

No. 3.



ما مر وسقانى حبيبى سكر   نصف الليالى ع المدامة نسكر
ندر علىّ وان أتى محبـوبى   لأعمل عمايل ما عملهاش عنتر

يا بنت ملسك داب وبـنت أيدك   وأخاف عليك من سواد عينيك
قصدى أنا أسكر وابوس خديك   واعمل عمايل ما عملهاش عنتر

فايتـه علىّ ماليه الأرجيـله   ومية المـورد فى الأرجيـله
أتانى البنيه عامـلاها حيـله   متى تقوللى تعالى يا جدع نسكر

طول الليـالى لم ينقطع نوحى   على غـزال مفرد وخد روحى
ندر على وان أتى محبـوبى   لاعمل عمايل ما عملهاش عنتر

يا دمع عينى على الخديد من حلك   قال لى بزيدك شوق على بعادى خلك
إرحم متيم يا جميل مشغول بك   تعمى عيون اللى ما يحبك يا سمر

=وهى تحريف لكلمة السالفة وجمعها سوالف وفى العراق ينطقونها (زلف) . و(الجلف) ، هند لين ، اليلك الطويل الكم . واليلك من ملابس النساء . (المترجم)

أسمر وحاوى الوردتين البيض(١)   حـــى تخلّق(٢) فى ليالى العيد
ندر علىّ وإن أتانى سيـــدى   لاعمل عمايل ما عملهـــاش عنتر

– ٤ –



عاشق رأى مبتلى . قال له أنت رايح فين
وقف قرا قصته . بكـُم سوا لتنين .
راحـُم لقاضى الهوى لتنين سوا يشكم .
بكيوا تـّلاته وقالوا حبنا راح فين .
الليل الليل . يا حلو الأيادى . حاوى الخوخ النادى .
انتم منين واحنا منين لمـــا شبكتونا .
عاشق يقول للحمام هات لى جناحك يوم .
قال الحمام أمرك باطل . قلت غير اليوم .
حتى أطير فى الجـُو وانظر وجه المحبوب .
آخذ وداد عام وارجع يا حمام فى يوم .
الليل الليل الخ .

الأذان

ذكرت قبلا فى فصل الدين والشريعة ، الأذان وترديده من المآذن وكثيراً ما سمعت الأذان فى القاهرة ، يؤدى بالطريقة التالية ويردده أغلب مؤذنى هذه المدينة فى أسلوب مشابه تقريباً .

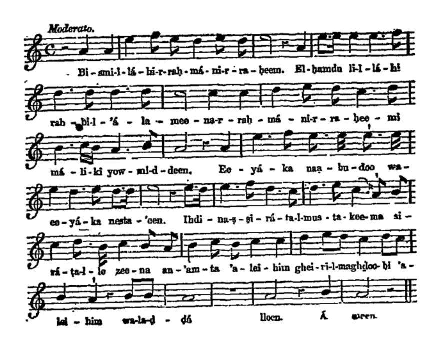
---

(١) سمراء على خديها وردتان بيضاوان بدلا من وردتين حمراوين .
(٢) تطيب بالخلوق . (المترجم)


Al - lá - hu ak - bar. Al - lá - - hu ak - bar.
Al - lá - hu ak - bar. Al - lá - - - - - -
- - - - - - hu ak - bar. Ash - hadu an lá i -
- lá - ha il-la - l - láh. Ash - hadu an lá i -
lá - ha il - la-l - lá - - - - - - - - - - - - -
- h. Ash - hadu an - na Mo - ḥam - ma - dar ra - soolu - l -
láh. Ash - hadu an - na Mo - ḥam - ma - dar ra - soolu - l -
- lá - - - - - - - h Ḥei - ya 'a - la-ṣ - ṣa - láh.
Hei - ya 'a - la-ṣ - ṣa - lá - - - - - - - - - - - - -
- h. Ḥei - ya 'a - la - l - fe - láḥ. Ḥei - ya 'a - la - l - fe -
- lá - - - - - - - - h.
Al - lá - hu ak - bar. Al -
- lá - - hu ak - bar. Lá i - lá - ha i - l - la-l - láh.

ترتيل القرآن

قصدت بادراج سورة الفاتحة ــ لكثرة ترديدها ــ أن أقدم بعض البيان لطريقة ترتيل القرآن المألوفة فى مصر .



الفصل التاسع عشر

الراقصون العموميون

اشتهرت مصر طويلا براقصاتها العموميات ، وأشهر أولئك الراقصات ينتمين إلى قبيلة متميزة ، تسمى « غوازى(١) . والمرأة من هذه القبيلة تسمى « غازية » ، والرجل « غازياً » ، غير أن المعروف على العموم أن لفظ الجمع : « غوازى » يطلق على نسائها . وقد سبق أن أشرت إلى الخطأ فى إطلاق تسمية « عوالم » على عامة الراقصات فى مصر . والغوازى يرقصن ، سافرات ، فى الطرق العامة ، ولتسلية أخلاط الناس أيضاً . ولا يخلو رقصهن من الرشاقة ، وأهم خصائصه هز الأرداف هزاً سريعاً ، من جانب إلى آخر . ويأخذ الغوازى فى الرقص بقدر من الحشمة ، ولكن سرعان ما تبرق نظراتهن ، ويسرع تلاطم الصنوج ، وتشتد حركة الجسم ، فيعرضن رقصاً مطابقاً لرقص القادسيات(٢) ، كما وصفه مارسيال وجوفينال(٣) . وتشبه ملابس الرقص مايلبسه نساء الطبقات الوسطى داخل الحريم ، فتشمل : اليلك ، أو العنترى ، والشنتيان ، الخ . ، من نسيج جميل . وهن يتحلين أيضاً بحلى مختلفة ، ويتكحلن ، ويتخضبن ، تبعاً

---

(١) منذ كتابة هذا ، حرمت الحكومة احتراف الدعارة والرقص العام ، فى أوائل يونية ١٨٣٤ . وعقوبة من يخالف هذا القانون خمسون جلدة ، وللعائدة ، علاوة على الجلد ، الأشغال الشاقة سنة أو أكثر . أما الرجل الشريك فهو عرضة للجلد . غير أن هناك طريقة سهلة لتجنب العقوبة ، قد يتبعها الكثيرون . فالرجل يستطيع أن يتزوج بغياً زواجاً شرعياً ، ثم يطلقها فى اليوم التالى : يسألها الزواج به فتقبل ، ثم يسألها عن قيمة المهر فتحددها ، فيعطيها إياه . فتصبح له زوجة شرعية . وفى اليوم التالى يطلقها دون أن يخشى أن تطالبه بنفقة العدة . إذ أن الزواج ، الذى تم وانقضى ، ما هو إلا وسيلة لتجنب العقوبة ، إذا ما اكتشفت البغى مع الرجل ، وفيما عدا ذلك يبقى الأمر سراً . وما تستطيع البغى أن تطلبه لنفقتها مدة العدة لا يوازى ما قد تتناوله بالتزوج بزوج جديد كل يومين أو ثلاثة أيام .

(٢) كانت مدينة قادس ، فى القرن الأول للميلاد ، مشهورة بترفها ومرحها ، وكانت تسمى « قادس البهجة » كما كان صيت الراقصات القادسيات ذائعاً فى العالم الرومانى. (المترجم)

(٣) شاعران رومانيان فى القرن الأول الميلاد . (المترجم)

للعادة السارية بين نساء الطبقتين الوسطى والعليا . ويصحبهن على العموم ، عازفون (من القبيلة نفسها غالباً) على الكمان أو على الرباب مع الطار (الدف) ، أو الدرابكة مع الزمارة أو الزمر . والعادة أن يضرب الطار امرأة عجوز .

كثيراً ما يرقص الغوازى ، عندما يحتفل فى الحريم بعرس أو بميلاد طفل الخ ، فى فناء الدار ، أو فى الطريق ، أمام الباب . ولا يدعون إلى حريم محترم أبداً ، غير أنه لا يندر أن يستأجرن لتسلية جمع من الرجال فى منزل بعض الخلعاء . ويتوقع فى هذه الحالة أن يزيد رقصهن فجراً . وبعضهن لا يلبسن ، عند الرقص أمام جمع خاص من الرجال ، غير الشنتيان



شكل ٨٣ (الغوازى)

وثوب شف ملون ، شق صدره إلى منتصفه تقريباً . ويقدم إليهن خمر وافر لإزالة ماقد يبدين من مظاهر الخجل الأخيرة . وما يتبع ذلك أمسك عن وصفه .

ويكاد الأمر يحتاج أن أضيف أن أولئك النسوة هن أكثر عاهرات مصر فساداً . والكثير منهن جميلات للغاية ، وأغلبهن فاخرات الملبس . وهن على ما أظن ألطف نساء مصر جملة . والكثير منهن ذوات أنف يميل إلى القنا . غير أنهن ، من أكثر الوجوه ، يشبهن بقية نساء مصر . ويبتهج المصريون ، النساء مثل الرجال ، بمشاهدة رقص الغوازى . ولكن الكثير من أفراد الطبقات العليا والمتدينين ، يستقبحونه .

وإذا كان الغوازى يميزون على العموم بهيئة تختلف ، ولو قليلا ، عن سائر المصريين ، فمن الصعب أن نشك فى أنهم ، كما يدعون ، جنس مختلف . غير أن أصلهم يكتنفه غموض كثير . وهم يسمون أنفسهم « برامكة » ، ويعتزون بانتسابهم إلى أسرة البرامكة المشهورة ، التى كانت موضع رعاية هارون الرشيد ثم طغيانه العارم ، والتى نقرأ عنها فى قصص ألف ليلة وليلة . ولكن ، وقد نبهنى

إلى ذلك أحد الأصدقاء فيما بعد ، يحتمل أن حقهم فى الانتساب إلى البرامكة لا يتعدى مشابهتهم تلك العائلة فى السخاء ، وإن كان سخاء من ضرب مختلف . وكثيراً ما نرى فى قبور المصريين القدماء رسوماً للنساء يرقصن فى حفلات خاصة ، على نغم آلات متنوعة ، بطريقة تشبه رقص الغوازى ، بل وتفوقه خلاعة . فنرى واحدة أو أكثر ترقص عارية تماماً (١) ، بالرغم من وجودها أمام جمع من علية القوم ، رجالا ونساء . ونرى ، من تلك الآثار الثابتة التاريخ ، بذكر أسماء الملوك عليها ، أن أسلوب الرقص ذلك كان شائعاً فى مصر منذ سالف الأزمنة ، وقبل خروج اليهود أيضاً . ولذلك يحتمل أن يكون قد ظل مستمراً إلى يومنا هذا . وقد يكون الغوازى المعاصرات منحدرات من طبقة الراقصات اللائى كن يسلين المصريين فى عصر الفراعنة الأولين . وكان يمكن أن نستنتج ، من مماثلة الرقص الأسبانى Fandango (٢) لرقص الغوازى ، أن العرب الفاتحين أدخلوه إلى أسبانيا ، لو لم نخبر أن القادسيات كن مشهورات بذلك الرقص فى عصر أباطرة الرومان السابقين . ومع ذلك فهذا الرقص الخليع ، وإن بدا أنه كان يمارس مدة طويلة فى أسبانيا ، لا يبعد أن يكون قد أدخل اولا إلى قادس من الشرق ، وربما دخل بواسطة الفينيقيين(٣) .

ولا يختلط الغوازى بالطبقات الأخرى ، فلا يتزوجن بغير أفراد القبيلة . غير أن الغازية قد تعاهد نفسها على التوبة ، فتتزوج بعربى فاضل . ومثل ذلك الزواج لا يحقر من شأن الزوج . ويلقن الغوازى منذ الحداثة ألا يتقيدن فى سبيل المال بقيود الخلق ، ولا يحترفن جميعاً الرقص . والغازية ترحب بأحقر فلاح لتحصل على أقل مال . وأغلبهن يتزوجن ، ولا بد أن يباشرن أولا مهنة نفعية . ويخضع الزوج لزوجته ، فيكون لها خادماً وقواداً وعازفاً ، إذا كانت تحترف الرقص .

---

(١) يذكر ولكنسن **Wilkinson** فى كتابه **Ancient Egyptians** (قدماء المصريين) الجزء الأول ص ١٣٨ أن الراقصات المصريات كن يلبس ثوباً شفافاً ، يكشف عن أجزاء الجسم وحركاته ، وأنهن قد يبدون فى النقوش عاريات تماماً ، ولكن ذلك يرجع إلى إخراج الرسم . (المترجم)

(٢) رقصة أسبانية قديمة ترقص بالصحنين (**Castanets**) على نغم القيثار . تبدأ بطيئة وتتدرج إلى الشدة . (المترجم)

(٣) ويحتمل، من الأثر الذى أحدثه ، أن الرقص الذى قامت به إبنة هيروديا كان من النوع الموصوف هنا . أنظر متى ١٤/٦ ، ٧ ومرقص ٢٢/٦ ، ٢٣ .

(فقد سر هيرودس من رقص ابنة هيروديا فأقسم أن يعطيها ما تطلب. اطلبت رأس المعمدان على طبق) .

غير أن بعض الرجال يتعيشون من الحدادة وتبييض النحاس . ويتمتع بعض الغوازى بخفض من العيش ، ويتحلين بأنفس الحلى ، ومع ذلك نرى كثيراً من عاداتهن تماثل عادات النوَر . ويظن البعض أن الآخرين من أصل مصرى(١) . ومما يستحق الذكر ادعاء بعض النوَر ، أنهم ينحدرون من أحد فروع العائلة المنتسبة إليها الغوازى . غير أن دعواهم ما برحت أقل اعتباراً من دعوى الآخرين ، إذ أنهم لا يجمعون على ذلك الرأى . وسأتكلم عنهم على الأخص فى الفصل التالى
ولا تختلف لغة الغوازى العادية عن لغة المصريين الآخرين ، غير أنهم يستعملون أحياناً بعض كلمات خاصة فيستغلق الحديث على الغير . ويدين الغوازى بالإسلام ، وكثيراً ما يرافق بعضهم قافلة الحجاج إلى مكة . وقلما تخلو مدينة كبيرة من الغوازى فيسكنون على العموم جانباً منفصلا من حى البغاء . ويرتحل الغوازى من مدينة إلى أخرى ، فتكون مساكنهم أكواخاً حقيرة أو خصاصاً غير ثابتة أو خياماً . غير أن البعض يقيمون بالمنازل الكبيرة . ويقتنى بعض الغوازى جوارى سوداً يدفعهن إلى البغاء فينمين ثروتهن ، ويتاجرن بالمواشى . وهن يحضرن الحفلات الدينية الكبيرة وغيرها ، حيث ترى خيمهن العديدة ، ويعتبر رقصهن أهم تسلية فى تلك الحفلات . ويضيف بعض أولئك النسوة إلى مباهجهن الأخرى فن الغناء فيماثلن العوالم العاديات . ويلبس الطبقة الدنيا منهن ملابس البغايا . ويلبس بعضهن ثوباً رقيق النسج فوق قميص آخر ، وشنتيان وطرحة من الكريشة أو الموصلى ، ويتحلين بحلى كثيرة من عقود وأسورة وخلاخيل ونقود ذهبية ، تصف فوق الجبهة ، وقد يضعن خزاماً فى الأنف . وهن جميعاً يتكحلن ويتخضبن . وهناك بعض آخر من الراقصات والعاهرات يتسمين غوازى ، الواقع أنهن لا ينتسبن إلى تلك القبيلة(٢) .

---

(١) ليس للنور تاريخ ثابت ولا يزال الكثير من أخبارهم مجهولا . وليس هناك ما يثبت أن هؤلاء الذين يطلق عليهم لفظ Egyptian (فى إنجلترا ، Gypsies فى أسبانيا gitano ، فى رومانيا faraon . . .) من أصل مصرى . والرأى الغالب أن النور أصلهم من الهند . وقد يكون سبب تلك التسمية تلك العادة التى سادت أوروبا وقتاً وقوامها وصف الشعب الذى يشتهر بممارسة السحر بأنه من أصل مصرى . أو لعل السبب غير ذلك . (المترجم)

(٢) تحفل مدن مصر جميعاً فى أغلب الأوقات بعاهرات من طبقات أخرى . غير أن أولئك ومن سبق ذكرهن يكثرن بصفة خاصة فى العاصمة وضواحيها . وتكاد بعض الأحياء تكون قاصرة عليهن . وكثيراً ما كان أولئك النسوة يسلكن ، وقت إباحة الدعارة ، مسلك الوقاحة والجسارة . وكانت ملابسهن كملابس الغوازى ، أو تختلف عن ملابس المحترمات من النساء =

ويتظاهر كثير من القاهريين أو يقنعون بأن رقص الغوازى لا يعيبه سوى أنه من النساء اللائى يجب ألا يعرضن أنفسهن هكذا ، فيستخدمون رجالا يحلون محلهن . غير أن هؤلاء وهم مصريون مسلمون ، وجلهم من الشبان ، ويسمون « خولات »(١) ، قليلون جداً . وإذ كان هؤلاء يقومون بدور النساء فهم يرقصون رقص الغوازى تماماً ، كما أنهم يستعملون الصنوج . ولكنهم ، كأنهم يدفعون فكرة كونهم من النساء حقاً ، يرتدون ما يناسب حرفتهن غير الطبيعية ، إذ هم يجمعون بين صفتى الذكر والأنثى ،فيلبسون على الأخص سترة ضيقة وحزاماً وجبة . والأنوثة تغلب على هيئتهم العامة . فهم يرسلون شعورهم ويضفرونها ، وينتفون شعر الوجه ، ويتكحلون ويتخضبون . وكثيراً ما يتنقبون عندما يسيرون فى الشوارع فى غير وقت الرقص . وهم لا يفعلون ذلك خجلا ، وإنما يفعلونه تقليداً للنساء فقط . وكثيراً ما يفضلون على الغوازى ، فيستخدمون للرقص فى الحفلات الخاصة . وكثيراً ما يرقصون أيضاً فى الحفلات العامة .

ويوجد فى القاهرة طبقة أخرى من الراقصين الذكور ، يشبهون « الخولات » فى الرقص والملبس والهيئة العامة ، ويميزهم تسمية مختلفة « چنك » . وهى تعبير تركى ذو معنى دارج يعبر تماماً عن خلقهم . وهم على العموم من اليهود والأرمن والأروام والترك .

= فى زهاء الألوان وقلة التستر وكان بعض النساء ممن يهمهن المال لا يفرقن فى ملبسهن عن النساء المحتشمات ، فلا تعرفها إلا حينما ترغب فى الكشف عن شخصيتها لك . ولا تخلو منهن أحياء العاصمة . وأكثرهن مطلقات أو أرامل ، وكثيرات كن زوجات لرجال تضطرهم أعمالهم إلى التغيب كثيراً . ويفرض على العاهرات المعروفات ضريبة « الفردة » . وقد بلغ ما دفعته عاهرات القاهرة أخيراً ثمانمائة كيس ، وذلك يوازى أربعة آلاف جنيه استرلينى ، ولا يقل ذلك عن عشر ما يفرض على السكان جميعاً . ويبين لنا ذلك بعض البيان نسبة أولئك إلى من يشتغل بعمل شريف .

(١) ويطلق على الفرد من تلك الطبقة أيضاً لفظ « غايش » .

الفصل العشرون

الراقون والحواة وغيرهم

روى كثير من الكتاب المحدثين فى وصف مصر قصصاً مدهشة عن فئة من المصريين يظن أنهم ، مثل قبائل Psylli(١) التى كانت تسكن شمال أفريقيا قديماً ، يملكون فناً خفياً ، أشير إليه فى التوراة(٢) ، يقيهم سم الثعابين . وقد صادفت كثيراً من أذكياء المصريين حكموا على أولئك بالدجل ، غير أنى لم أصادف أحداً استطاع أن يقدم إلىّ شرحاً مرضياً عن عمل من أعمالهم ، هو أكثرها شيوعاً وأجدره بالالتفات وهاءنذا أصفه .

يتعيش كثير من دراويش الرفاعية والسعدية ، كما ذكرت فى فصل سابق ، بالطواف فى البلاد لرقى الثعابين وإخراجها من البيوت . ويحترف الفن نفسه بعض آخرون ليسوا على شهرة الأولين ، الذين يجولون بأنحاء مصر فيجدون عملا وافراً ، غير أن أرباحهم تكاد تكفل لهم معاشاً زهيداً . ويزعم الراقى أنه يكشف عن الثعابين التى تسكن المنازل ، ويجتذب ما يوجد منها ، كما يجتذب الصائد الطائر إلى شبكه بسحر صوته ، دون الاستعانة بحاسة النظر . وقد يكون ذلك بواسطة رائحة خاصة . ولما كان الثعبان يطلب المكان المظلم ليختبىء فيه ، فان الراقى كثيراً ما يمارس مهارته فى غرفة مظلمة ، حيث يسهل عليه أن يتناول ثعباناً من حجره ويحمله إلى الواقفين بالخارج ، مؤكداً أنه كان بالغرفة ، وما كان أحد ليجسر على الدخول بعد أن أكد له وجود إحدى تلك الحيات بالداخل . غير أنه

---

(١) شعب قديم كان أفراده يزعمون أنهم مصونون من لدغ الثعبان وأنهم يشفون الملدوغ . (المترجم)

(٢) المزامير ٥٨/٤ ، ٥ : لهم حمة مثل حمة الحية . مثل الصل الأصم يسد أذنه الذى لا يستمع إلى صوت الحواة الراقين رقى حكيم – الجامعة ١٠/١١ : لدغت الحية بلا رقية فلا منفعة للراقى – إرميا ١٧/٨ : لأنى هاءنذا مرسل عليكم حيات أفاعى لا ترقى فتلدغكم يقول الرب .

كثيراً ما يطلب من الراقى أن يعمل فى وضح النهار يحيط به المشاهدون، بعد أن يفتشه المنكرون ويجردوه من ملابسه . ومع ذلك كان ينجح تمام النجاح . ويتخذ الراقى أثناء عمله هيئة الغموض ويضرب الحائط بجريدة قصيرة ويصفّر ، وينقّ بلسانه ، ويبصق على الأرض ، ويقول على العموم : « استحلفك بالله ، إذا كنت فوق ، أو إذا كنت تحت ، أن تتقدم . أستحلفك بالإسم الأعظم ، إذا كنت طائعاً ، تقدم . وإذا كنت عاصياً ، مت ! مت ! مت ! » ويخرج الراقى الثعبان بعصاه عادة من شق بالحائط ، أو يسقطه من سقف الغرفة . وكثيراً ما أكدّ لى أن الراقى يتفق مع أحد خدم المنزل ليدخل فيه ثعباناً أو أكثر قبلاً . غير أننى علمت بوقائع ليس الحال فيها كذلك . وإنى أميل إلى الاعتقاد أن هؤلاء الدراويش ملمون بوسائل طبيعية ثابتة يكشفون بها عن الثعابين فى مخابئها ويجذبونها منها . غير أنه من المحقق أن أمهرهم لا يجرؤ على حمل الثعابين السامة قبل أن يقتلع نابها . ويحمل كثير منهم أيضاً عقارب تحت غطاء رؤوسهم الحليقة . ولاشك أنهم يجردونها أولا من قدرتها على الأذى، وقد يثلمون الزبانى فقط . وقد سبق أن ذكرت شهرة الدراويش بأكل الثعابين السامة الحية . وسأصف ذلك خاصة فى فصل آخر(١) .

فى القاهرة فئة كبيرة يقوم أفرادها بأعمال قوامها خفة اليد ، ويسمون « حواة » لاستخدامهم الثعابين فى ألعابهم . ويعمل الحاوى عادة فى الأماكن العامة ، يصحبه ولدان يساعدانه . فيلتف حوله حلقة من المشاهدين يتناول من بعضهم منحة صغيرة أثناء اللعب وعقبه . وهو أكثر ما يظهر فى الأعياد العامة ، وكثيراً ما يرى أيضاً فى أوقات أخرى . ويقوم الحاوى بأعمال وقحة وفكاهات ماجنة ينال عليها الثناء بقدر ما ينال على وسائله الأخرى . ويأتى بحيل مختلفة أذكر أكثرها شيوعاً . فهو يتناول من جراب جلدى كبير أربع حيات ضخمة أو خمس ، فيضع إحداها على الأرض ويجعلها ترفع رأسها وبعض جسمها ، ثم يعمم أحد صبييه بحية ثانية ، ويطوق عنقه باثنتين آخريين . ثم ينزعها ويفتح فم الولد ويدخل ، حسب الظاهر ، لسان قفل فى خده ويقفله ، ثم يدفع فى حلقه مسماراً حديدياً . ويقوم أيضاً بحيلة مماثلة أخرى . فيضع سكيناً على أنف الولد، بعد أن يجلسه أرضاً، ويقرع النصل حتى يبدو نصفه مغروزاً . وهناك عدة حيل فاحشة يقوم بها بمصاحبة الولد ،

---

(١) عند الكلام على مولد النبى فى أول فصل من فصول الأعياد الدورية العامة .

ومن الواجب ألا أصفها، فبعضها تتقزز له النفس. أما الحيل التى يقوم بها منفرداً فهى أكثر تسلية . فهو يسحب من فمه قدراً عظيماً من الحرير المختلف الألوان، ويلفه حول ذراعه. ويدخل فى فمه قطناً ثم ينفث ناراً، ويخرج منه قطعاً من القصدير مستديرة كالدولارات . ومن أنفه حجر شيك من الفخار . ويستعمل الحاوى أحياناً فى أكثر ألعابه صدفة كبيرة تسمى « زمارة الحاوى » ينفخ فيها فتحدث أصواتاً كأصوات الصور . وتكاد أغلب حيله تشبه تلك التى يقوم بها أمثاله فى انجلترا وغيرها . وقد يأخذ الحاوى من أحد المشاهدين خاتماً فضياً يضعه فى صندوق صغير وينفخ فى صدفته، ويقول : « يا عفريت ابدله » . ثم يفتح الصندوق، فيظهر بداخله خاتم مختلفاً، ويغلق الصندوق ثانياً، ثم يفتحه ويظهر الخاتم الأول. ويقفله مرة ثالثة ويفتحه ، فيظهر سبيكة من الفضة يقرر أنها الخاتم مذاب ، ويقدمها إلى صاحب الخاتم . فيصر الأخير على أن يرد إليه خاتمه بحالته الأولى . فيطلب الحاوى حينئذ خمسة فضة أو عشر فضة ليصيغه ثانياً. وبعد أن يتناول النقود ، يغلق الصندوق وينفخ فى الصدفة ، ثم يفتحه ويخرج الخاتم صحيحاً . بعد ذلك يحضر صندوقاً مغطى أكبر حجماً ، ويضع فيه طاقية أحد الولدين ، وينفخ فى صدفته، ويفتح الصندوق ، ويخرج منه أرنباً ، ولا يبدو للطاقية أثراً . ويعيد الحاوى الأرنب ، ويغطي الصندوق، ثم يكشفه فيخرج منه كتكوتان ، يعيدهما ثانياً وينفخ فى الصدفة ، ثم يكشف الصندوق ، ويعرضه ملآن بالفطير والكنافة ويطلب من صبيه أن يأكلا ما احتواه، فيرفضا أكله بدون عسل . فيأخذ أبريقاً صغيراً ويقلبه ليبين خلوه ، وينفخ فى صدفته ، ثم يدور على الحاضرين بالأبريق ملآن بالعسل . ويطلب الولدان بعد الأكل ماء ليغسلا يديهما . فيأخذ الحاوى الأبريق نفسه ويسلمهما إياه ملآناً بالماء ، بالطريقة نفسها . ويأخذ الصندوق ويطلب الطاقية، ثم ينفخ فى الصدفة ويكشف الصندوق، ويفرغ منه، فى حجر الولد، أربع حيات صغيرة أو خمساً. فيقذفها الولد بخوف ظاهر، ويطالب بطاقيته. فيعيد الحاوى الحيات إلى الصندوق ويكشفه بعد أن ينفخ فى الصدفة ويخرج الطاقية. وأحد حيله الشائعة أن يضع عدداً من قصاصات الورق الأبيض فى وعاء من النحاس المبيض (طست بائع الشراب)، ويخرجها مصبوغة بألوان شتى. ويصب فى الوعاء ماء ويضع قطعة من الكتان ، ثم يناول المشاهدين الوعاء ليشربوا منه شراباً من السكر . ويقطع أحياناً حسب الظاهر شالا من الموصلى نصفين ، أو يحرقه من الوسط ، ثم يعيده كاملا . وكثيراً ما يتجرد من ملابسه جميعاً ، عدا لباسه ، ويطلب من رجلين أن يوثقا يديه وقدميه وأن يضعاه فى عدل . وبعد ذلك يطلب قرشاً ، فيقول له شخص ما أنه سيناله إذا حل وثاقه . فيمد

بديه محلولتين ، ويعيدهما ، ثم يرفع من العدل موثقاً كما كان أولا . ويعاد إلى العدل مرة أخرى فيخرج منه طليقاً مقدماً إلى المشاهدين صينية عليها أربعة صحون أو خمسة بها مأكولات مختلفة يحيط بها شموع صغيرة مضاءة إذا كان الوقت ليلا . ويأكل المشاهدون الطعام .

فى القاهرة طبقة أخرى من المشعوذين يسمون « قيم » . وكثيراً ما يصطحب القيم مساعداً فى ألعابه . فنى أحدهما مثلا يجلس الأخير على الأرض ، ويضع أمامه تسعاً وعشرين قطعة صغيرة من الحجر مرتبة ، ويطلب من أحد الحاضرين ، بعد أن يبتعد القيم ، أن يضع قطعة من النقود تحت حجر من الأحجار . ثم يدعو القيم إلى الكشف عن موضع النقد المخبأ ، فيكشف عنه فى الحال . وسر هذه الحيلة سهل جداً . فان الأحجار التسعة والعشرين تمثل الحروف الأبجدية العربية ، فيخاطب المساعد القيم ، عندما يطلب منه أن يبين مكان النقد ، مبتدئاً بالحرف الذى يمثله الحجر الذى يغطى النقد . ويستطيع القيم بالطريقة نفسها ، أو بواسطة إشارات يقوم بها المساعد ، أن يعرف اسم شخص موجود أو كلام أغنية ردداً فى غيابه ، إذ أن الإسم أو الأغنية يسر إلى المساعد .

يمارس العرافة قبيلة من النور غالباً . والنور فى مصر قبائل صغيرة عديدة ، ويسمونهم إجمالا « غجراً » ، وهو اسم لإحدى قبائلهم . والنور ، مثل الغوازى ، يزعمون أنهم من نسل البرامكة ، ولكن من فرع آخر . وكثيراً ما تشاهد الغجريات العرافات يسرن سافرات فى شوارع القاهرة ، ويرتدين ملابس الطبقة الدنيا ، والتوب والطرحة . ويحملن عادة أدوات العرافة فى رق غزال ، وهن يستخدمن فى عرافتهن مقداراً من الأصداف وقطعاً من الزجاج الملون والنقود الخ . يلقينها على الأرض ، ويستخلصن تنبؤاتهن من وضعها العرضى . وتمثل الصدفة الكبرى مستطلع الحظ ، وتمثل الصدفات الأخرى وغيرها حوادث مختلفة ، نكبات وخيرات ، يقدر حدوثها لذلك الشخص ، قريباً أو بعيداً ، أو عدم وقوعها أبداً ، حسب قربها أو بعدها من الصدفة الأولى . ويصيح العرافات عادة بما يدل على أنهن يكشفن عن الغائب ويخبرن عن الحاضر . ويصيح بعضهن أيضاً : « ندق ونطاهر »(١) . وأكثر غجر مصر حدادون

---

(١) فهن يقمن بعمليتى الوشم والختان وقد وصفتهما على التوالى فى الفصلين الأول والثانى . ويذكر الكابتن نيوبولد فى مقال غريب عن نور (بفتح الواو) مصر وبعض البلدان الشرقية ، نشر فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، فى المجلد الرابع عشر ، ص ٢٨٥ - ٣١٢ ، أن العرافين فى مصر ليسوا ، حسب قولهم أنفسهم ، من قبيلة الغجر كما أخبرت ، بل من قبيلة أعلى طبقة ، يسميها « هلبى Helebi » ، مختلفة عنها وإن كان هؤلاء يتزوجون من الغجريات .

ونحاسون ، أو متجولون يبيعون السلع التى يصنعها غيرهم من طبقتهم ، وعلى الأخص مصاغ من النحاس لا قيمة له .

يقوم بعض النوَر أيضاً بحرفة « البهلوان » . وتطلق هذه التسمية فى الواقع على من يمارس الألعاب الرياضية أو المبارزة أو أعمال البطولة. وكان أمثال هؤلاء يعرضون قبلا قوتهم ومهارتهم ، بصفتهم تلك ، فى القاهرة . أما الآن فأعمال البهلوان تكاد تُحصر فى الرقص على الحبل . ويزاول هذا الفن أفراد من قبيلة الغجر . وقد يربط الحبل فى مأذنة مسجد على ارتفاع عظيم من الأرض ، ويمتد مئات الأقدام مستنداً فى عدة مواضع على سوار مثبتة فى الأرض . ويستعمل الراقص دائماً مدرة طويلة للتوازن . وقد يرقص على الحبل أو يسير عليه منتعلا قبقاباً ، أو مثبتاً قطعة من الصابون فى أسفل كل قدم من قدميه ، أو معلقاً طفلا بواسطة حبل على كل كعب من كعبيه ، أو شاداً والداً إلى كل من طرفى المدرة ، ويجلس فوق صينية مستديرة توضع على الحبل. وقد شاهدت ثلاثة من هؤلاء ، ولم تكن ألعابهم من النوع الصعب الذى وصفته سابقاً ، وكانت أقل مهارة من ألعاب البهلوان العادى فى انجلترا. وكثيراً ما يقوم بتلك الألعاب نساء وبنات وصبية . ويقوم الرجال والفتيان بأعمال أخرى ، مثل التدحرج وغيره من الحركات ، والقفز فى وسط طوق .

وكثيراً ما يتسلى الطبقات الدنيا فى القاهرة بألعاب « القرداتى » المختلفة ، ويقوم بها قرد وحمار وكلب وجدى(1) . ويتبارز القرداتى والقرد بالعصا . ويتوخى القرداتى الغرابة فى رداء القرد ، فيلبسه ملابس عروس أو امرأة منتقبة ، ويضعه على ظهر حمار ، ويعرضه داخل حلقة المشاهدين ، وهو يتقدمه ضارباً على دف . ويدفع القرد أيضاً على الرقص والقيام بأعمال هزلية مختلفة. ويطلب من الحمار أن يختار أجمل بنت فى الحلقة ، فيتقدم إليها وأنفه إلى وجهها ، فيُضحك الفتاة والمشاهدين . ويأمر الكلب أن يقلد اللص فيتقدم زاحفاً على بطنه . وأحسن الألعاب ما يقوم به الجدى . فهو يؤمر بالوقوف على قطعة خشبية صغيرة ، ويبلغ طولها شبراً وعرضها بوصة ونصف بوصة ، عند القمة والقاعدة ، فتكون سيقان الجدى الأربع متلاصقة ، ثم ترفع القطعة الخشبية والجدى فوقها وتوضع تحتها قطعة ثانية مثلها ثم ثالثة ورابعة وخامسة على التوالى .

---

(1) والقرداتية قليلون اليوم . ولا يتحتم وجود حيوان آخر غير القرد . وهم يستخدمون فى ألعابهم هذا النوع من القرود المعروفة بالقرد الكلبى الرأس Cynocephalus .

ومن العبارات الدارجة المشهورة قولهم (إحنا حنقرد) عندما يرى المرء أنه يكلف بعمل غير لائق به . (المترجم)

كذلك كثيراً ما يسلى « المحبظون » . وهم ممثلون يضحكون الناس بنكات مضحكة حقيرة . وكثر ما يرون أثناء الحفلات السابقة الممهدة للزواج والطهور فى منازل العظماء ، وأحياناً فى ميادين القاهرة العامة ، حيث يجمعون حولهم حلقة من المشاهدين . وألعابهم لا تستحق الذكر كثيراً . وهم على الأخص يلهون الجمهور وينالون ثناءه بفكاهات عامية وأعمال فاحشة . ولا يوجد نساء فى فرق « المحبظين » فيقوم بدورهن رجل أو صبى فى ثياب امرأة . وإنى أورد نموذجاً من تمثيلهم : قطعة صغيرة من رواية مثلت أمام الباشا ، أثناء الاحتفال بختان ولد من أولاده . والعادة فى تلك المناسبة أن يختن كثير من أولاد العظماء . وكان أشخاص الرواية : ناظراً أى مدير إقليم ، وشيخ بلد وخادمه ، وكاتباً قبطياً ، وفلاحاً مديناً للحكومة وزوجه ، وخمسة أشخاص آخرين يظهرون أولا فى هيئة موسيقيين وراقصين . وبعد قليل من الطبل والزمر والرقص يظهر الناظر وبقية الممثلين ، فيقل الأول : « كم قرشاً دين عوض بن رجب ؟ » فيجيب العازفون والراقصان ، الذين يقومون الآن بأدوار فلاحين : « مر النصرانى بالبحث فى السجل » . ويحمل الكاتب النصرانى دواة كبيرة فى حزامه ، ويلبس لباس الأقباط ويعتم بالعمامة السوداء . فيسأله شيخ البلد : « كم على عوض بن رجب ؟ » فيجيبه : « ألف قرش » فيسأله كم دفع ؟ فيقول : خمسة قروش . فيخاطب الفلاح قائلا : « يارجل ، لماذا لم تحضر النقود ؟ » فيجيبه : « ليس عندى نقود » فيصيح الشيخ : ليس عندك فقود ؟ إطرحوه . » فيأتون بجزء من معى منفوخ على شكل سوط ويضربونه به . فيستغيث الفلاح بالناظر قائلا : « وشرف ذيل حصانك يا بك ! وشرف سروال زوجك يا بك ! وشرف عصابة رأس امرأتك يا بك ! » وينتهى الضرب بعد عدة صيحات ، ثم يقاد إلى السجن . وتحضر امرأته تواً لتطمئن عليه ، فيرجو منها أن تأخذ قليلا من الكشك والبيض والشعرية وتذهب إلى منزل الكاتب ، وتستعطفه ليخلصه . فتذهب الزوجة بالهدية إلى منزل الكاتب ، وتسأل من هناك عن المعلم حنا الكاتب ، فيدلونها عليه . فتقول له : « يا معلم حنا ، تفضل بقبول هذه الهدية وأنقذ زوجى ، الفلاح المدين بألف قرش » فيقول : « أحضرى عشرين قرشاً أو ثلاثين رشوة لشيخ البلد » . فتنصرف وسرعان ما تعود بالنقود ، وتسلمها إلى شيخ البلد ، فيأخذها ويقول : « حسن جداً . إذهبى إلى الناظر » . فتنسحب وقتاً لتتكحل وتتخضب ، ثم تقصد الناظر وتحييه . فيسألها عما تريد فتخبره أنها زوجة عوض المدين بألف قرش . فيقول : « وماذا تريدين ؟ » فتجيب : « إن زوجى مسجون وأستنجد بمروءتك لتخلصه » . وتبتسم ، وهى تلح فى طلبها ، وتظهر أنها راغبة فى مكافأته على هذا المعروف . فيقبل ذلك ، ويقوم بالدفاع عن

الزوج ، ويخرجه من السجن . وقد مثلت تلك الهزلية أمام الباشا لتنبهه إلى سلوك القائمين على أمر الضرائب .

أدخل الأتراك « القراجوز »(١) مصر وكانت لغة الدمى التركية . ويبتهج أتراك القاهرة بالعاب تلك الدمى الفاحشة ، غير أنها لا تجتذب من لا يفهم اللغة التركية ، وهي تحرك على طريقة الظلال الصينية «Chinese Shadows» ولذلك تعرض ليلا فقط .

---

(١) ويسمى ذلك العرض بالعربية « خيال الظل » . (المؤلف)

وهذا هو رأى يبين لنا أن خيال الظل كان موجوداً بمصر قبل دخول الأتراك : « كان هذا النوع من التسلية قاصراً فى القرن الأخير على الطبقة الفقيرة ، ولم يكن الأمر كذلك دائماً . فلهذا النوع من التسلية تاريخ طويل وقد كان يدور فى القطر المصرى كلاهى الطبقات العليا . فنسمع مثلا أن صلاح الدين الأيوبى حضر مشهداً من خيال الظل حوالى ١١٧١م . وكثيراً ما ذكر ابن إياس فى تاريخه تلك الروايات ، وهو يحكى أن السلطان التركى سليم بعد أن تم له فتح القطر المصرى أراد أن يرفه عن نفسه بمشاهدة خيال الظل . فرأى فيها إعدام طومان بك وهو معلق بباب زويله . ويقال إن طربه لمشاهدة هذه الرواية كان عظيماً حتى أنه اصطحب الممثل معه إلى اسطنبول ليقدم ألاعيبه أمام ولده وولى عهده المشهور السلطان سليمان ... » من مقال لبول كاله بمجلة الأدب والفن الصادرة فى لندن السنة الأولى (١٩٤٤) الجزء الرابع ص ٦٥ .

و« الأراجوز » الذى نعرفه نوع من مسرح العرائس (Marionnette) يتسع للاعب واحد وتشغل أعلى واجهته نافذة تطل منها الدمى وقت التمثيل . وهو يطوى ويحمل على الظهر ، ويدور به صاحبه فى الشوارع حتى يستوقفه الأطفال . فيقيمه ويقف داخله حيث يحرك الدمى دون أن يظهر هو . ويضع فى فمه آلة صغيرة مثل الزمارة ، ويستطيع بواسطتها أن يتكلم بأصوات مختلفة . وقد اختفى « الأراجوز » ، ولم يبق ما يدل عليه غير عبارات السخرية التى تشبه العابث به . (المترجم)

الفصل الحادى والعشرين

رواية القصص العامة

ليس ما وصفت فى الفصل السابق هو خير تسلية للمصريين ، فالقصاص يغشون مقاهى القاهرة وغيرها من المدن ، فى ليالى الأعياد الدينية خاصة ، ويسامرون الناس ببراعة تجذب القلوب . يجلس القاص فوق مقعد صغير فى أعلى المصطبة ، المقامة بطول واجهة المقهى(أنظر شكل ٨٤). ويجلس بعض السامعين إلى جانبه ، بينما يجلس البعض الآخر على مصاطب المنازل المقابلة فى الشارع الضيق ، والباقون على مقاعد من الجريد . وأكثرهم يدخن الشبك ، وبعضهم يرتشف القهوة ، وهم جميعاً



شكل ٨٤

(الشاعر وبصحبته عازف الرباب وبعض السامعين)

يبتهجون أعظم الابتهاج بسماع القاص لقوة تمثيله ، ولموضوع القصة . ويمنح صاحب المقهى الحاكى مبلغاً زهيداً من المال لجذبه المتفرجين الذين لا يعطونه .

شيئاً محتوماً . فأكثرهم لا يعطى شيئاً ، وقل من يدفع منهم أكثر من خمسة فضة أو عشرة(١) .

و« الشعراء » أكثر طبقات الرواة عدداً وهم يسمون أيضاً « أبو زيديه » ، نسبة إلى موضوع روايتهم « سيرة أبو زيد »(٢) . وهم فى القاهرة خمسون تقريباً . ولا تخرج روايتهم عن سرد وقائع أبى زيد الهلالى .

ويقال إن قصة أبى زيد تستند إلى حوادث وقعت فى منتصف القرن الثالث للهجرة . والمعتقد أنها دونت بعد ذلك العصر ، ولكن من المؤكد أنها وضعت بعد ذلك بكثير ، إن لم تكن حرفت عند النسخ . والقصة عادة عشرة أجزاء أو أكثر من الحجم المربع الصغير . والقصة أسلوب من النثر والشعر ، على نمط الرواية والتمثيل . وهى ، فى ثوبها الحالى ، ذات قيمة أدبية قليلة ، وأهميتها فى تصوير عادات البدو وشمائلهم . وأغلب أبطال القصة ، رجالا ونساء ، من قلب الجزيرة العربية ومن اليمن ، وبعضهم من الغرب (أى شمالى أفريقيا ، لوقوعها غرب الجزيرة) . وهم يعبرون عن عواطفهم القوية ، وأحاديثهم ، فى شعر غير موزون . غير أن بعض أدباء القاهرة يرون أن ذلك الشعر كان جارياً على الأوزان العروضية ، ولكن الناسخين حرفوه . ومع ذلك فالقصة بالطريقة التى تروى بها ، وباللهجة الدارجة ، ممتعة بنغمها وبمادتها . وتكاد كل قطعة شعرية تبدأ بالصلاة على النبى وتنتهى بها .

ويروى الشاعر دائماً من الذاكرة ، فلا يستعين بكتاب . وهو ينشد الشعر ، ويعزف بعد كل بيت بعض نغمات على رباب الشاعر ، أو « الرباب الأبوزيدى » . ويسمى هكذا لاستعماله فى هذه المناسبة فقط . وقد سبق أن وصفته فى فصل سابق . ويصحب الراوى على العموم عازف على رباب آخر من النوع نفسه . ويكتفى العازف أحياناً بنغمة واحدة مقدمة وفاصلا . ولأبين الأسلوب الموسيقى للشاعر أدرج بعض ألحان من صدر أغنية :

---

(١) ويربح الراوى من المقاهى أكثر مما يتناول من أجر فى حفل خاص ، إذ أن ربحه فى الحالة الأولى يناسب ما يظهر من مهارة وحذق .

(٢) وينطقها العامة هكذا بدلا من سيرة أبى زيد .

مقالات خضرة عندما قد تفكرت لما قد جرى ما بين نجع أهلال(١) .



ويتميز بعض الرواة بتسمية خاصة : الهلالية ، والزغبية ، والزناتية ، تبعاً لما يختصون به من سرد وقائع الأبطال المختلفين من قبائل الهلالى والزغبى والزناتى ، المذكورة فى القصة .

وسأعرض هنا نموذجاً لقصة أبى زيد الهلالى ملخصاً من الجزء الأول منها ، وقد عنيت بقراءته لهذا الغرض .

كان أبو زيد ، أو بركات كما كان يسمى أولا على العموم ، عربياً من قبيلة بنى هلال أو الهلالية . وكان أبوه الأمير رزق (ابن نائل ، عم سرحان ، ملك بنى هلال) قد تزوج ، قبل مولده ، من عشر نساء لم ينجب منهن ، لشدة أسفه ، غير بنتين : شيحة وعتيمة . وقد حز فى نفسه أن إحدى نسائه ، وهى الأميرة جلاس ، وقد وضعت ولداً ليس له ذراعان ولا ساقان . ولما كان الأمير رزق لا يستطيع أن يتزوج بأكثر من أربع معاً ، فقد طلق من لا تروقه من زوجاته ، واحتفظ بثلاث منهن ، ثم تزوج بزوجته الحادية عشرة الأميرة خضرة ، ابنة قرضة ، شريف مكة . وسرعان ما ظهر على خضرة علامات الحمل ، فابتهج الأمير وانتعش أمله . فدعا الأمير غانم ، زعيم قبيلة الزغبية ، وجمعا غفيراً من أسرته ليشرفوا الحفل المزمع إقامته . وقبل أصدقاؤه الدعوة ، ونزلوا ضيوفاً عليه فى انتظار مولد الطفل .

وحدث أثناء ذلك أن كانت الأميرة خضرة تتريض مع الأميرة شمَّة ، إحدى زوجات الملك سرحان ، وجمع من النساء . فرأت طائراً يهاجم سرباً من

---

(١) مطلع قصيدة أدرجت ترجمتها فى هذا الفصل .

الطيور المختلفة الجنس واللون ويقتلها . فتعجبت لهذا المنظر ، وتضرعت إلى الله أن يمن عليها بولد مثل هـذا الطائر ، ولو يكون أسود . فاستجاب الله دعاءها ووضعت غلاماً أسود . ولم يستطع الأمير رزق أن يصدق أن هذا الطفل ابنه ، ولكنه أبى أن يطلق زوجه لشدة حبه إياها ، وكان قد سمع وصف الطفل من النساء ولم يرد أن يراه ، أو يسمح لأى رجل أن يراه قبل اليوم السابع لميلاده . وفى اليوم السابع ، « أى يوم السبوع » ، أدب لضيوفه مأدبة فاخرة ، ثم أحضر الطفـل بعد ذلك أمامهم حسب العادة . فحملته جارية وهو مغطى بمنديل على صينية من الفضة . ونقطه الضيوف بالنقود الذهبية والفضية ، حسب العادة المتبعة ، ثم رفع أحدهم المنديل ، فظهر أن الولد أسود . وكان الأمير رزق طول الاحتفال خارج الخيمة ، يساوره الهم والحزن فأقبل عليه أصدقاؤه يلومونه لوماً عنيفاً على محاولته إخفاء هذا الخزى الذى يتصورونه ، ولإبقائه على امرأة غير عفيفة مثل زوجته ، وأكرهوه على تطليقها حتى لا يجر العار بسببها على قبيلته . فأرسلها هى وابنها وبعضاً من جواريه ، اللائى استأذن فى البقاء معها ، فى حراسة شيخ يسمى منيعاً ، إلى أبيها بمكة .

وضربت الجماعة خيامها فى واد أثناء السفر . فتوسلت الأميرة خضرة ، إلى الشيخ منيع أن يسمح لها بالبقاء فى هـذا المكان ، لأنها تخشى العودة إلى منزل أبيها فى مثل هذه الظروف . وحدث أن مر بهم أثناء ذلك الأمير فضل بن بيسم ، زعيم قبيلة الزحلان ، وسمع قصتها ، فقرر حمايتها . ثم انصرف إلى خيمته ، وأرسل زوجته الأميرة لعج البهية لتحضر الأميرة خضرة وابنها وجواريها . وتبنى الأمير فضـل الولد ، ورباه مع ولديه ، وتعهـده بالرعاية الأبوية . ولم يلبث بركات الصغير أن بدت عليه شمائل الفتوة . فقد قتل مدرسه ، بالضرب المبرح ، لأنه حاول أن يعاقب أحد أخويه بالتبنى . وأصبح وجوده يرعب زملاءه ، فيعجزون عن الإصغاء إلى المدرس الجديد ، فاضطر إلى تلقى الدرس وحده . وفى الحادية عشرة من عمره ، بلغ شأواً بعيداً فى جميع العلوم المعروفة حينئذ فى الجزيرة ، بما فيها الفلك والسحر والكيمياء وفروع مختلفة .

وانتصح بركات بنصيحة مؤدِّبه ، فذهب إلى متبنيه يطلب منه أن يهبه جواداً . وبدأه بالتحيـة فرد عليه قائلا : « صباح الخير يا بنى ، يا أعز من بنى » . وتعجب الشاب لهذا الكلام ، وتوجه إلى أمه يستجليها الأمر . فأخبرته أن الأمير فضل خاله ، وأن أباه قتله عربى من بنى هلال ، يسمى رزق بن نائل . وهاجها

ذكر آلامها وألمها ، فطفقت تروى قصتها كاملة لإبنها فى مجموعة من الشعر . وسوف أغامر بترجمة هذه القصيدة ، بيتاً بيتاً ، مع إهمال الوزن العروضى كما ورد فى الأصل ، الذى لازمته أيضاً بالتزام السجع فى القصيدة جميعها ، طبقاً للأسلوب الشائع عند الشعراء العرب(١) .

وتأثر بركات لهذه القصة ، وأصبح كل همه وشغله أن يقتل أباه رزق بن نائل ، معتقداً أنه قاتل أبيه .

ومنح الأمير فضل بركات خير جياده ، ولقنه فنون الحرب والصيد ، وكل ما يمارسه الرجال . وسرعان ما امتاز فى الفروسية ، وفاق رجال القبيلة بمهارته فى لعب البرجاس (ويشبه لعب الجريد) حيث ينازل الفرسان ، الواحدُ الآخرَ ، أو يلاحقه بقذف الجريد(٢) ، وأثار غيرتهم . وهزم جماعة من قبيلة تيدمة أغاروا على قومه مرتين ، وقتل زعيمهم عتوان بن داغر فى أول موقعة . فاستنجدوا بالصليدى ملك مدينتهم ، فأوصى عليهم جسار بن جاسر ، أحد أمراء بنى حمير ، الذى أرسل إلى قبيلة الزحلان يطالبها بجزية خمسة عشر عاماً متأخرة كانت تدفعها إلى قبيلته ، وأمرهم أن يرسلوا بركات العبد (إذ كان يعتقد أنه عبد) مقيداً ليقتل . فكتب بركات باسم الأمير فضل رداً بالأذعان ، وأحضر عبداً يقاربه شكلا وسناً وشده إلى ظهر جمل ، وذهب هو والأمير فضل وقبيلته لمقابلة جسار وقومه وعرب تيدمة . وقدم فضل العبد على أنه بركات إلى جسار الذى سر لامتثاله لأوامره ، فأضاف قبيلة الزحلان . غير أن بركات بقى على جواده ، ورفض أن يؤاكل أعداءه خشية أن تمنعه قواعد الضيافة من تنفيذ المكيدة التى دبرها . فنظر إليه جسار ، واستفهم الأمير فضل عنه ، فأجابه أنه عبد مجنون يسمى مسعوداً . وجذب بركات جساراً بعيداً عن قومه ، وكشف له عن نفسه ، ودعاه للنزال ، وبارزه وقتله واستولى على خيمته . ثم عفا عن بقية أعدائه ، ولكنه فرض عليهم الجزية التى كانت قبيلة زحلان تؤديها من قبل . ومن ثم أضيف اسم مسعود إلى اسمه السابق . وتغلب مراراً على مساعى بنى حمير

---

(١) لا أرى فائدة ، وقد عجزت عن الحصول على الأصل العربى ، أن أعيد النص المترجم إلى العربية . هذا علاوة على أن القصيدة تعيد سرد الحوادث المذكورة سابقاً فى أسلوب شعرى . وتختم الأميرة خضرة قصيدتها بحث إبنها على الثأر من بنى هلال وبطلبها إليه أن يحتفظ بالقصة لنفسه فلا يجهر بها لأحد حتى لا يرهق خاله بالأسى . (المترجم)

(٢) هكذا تصف السيرة هذا النزال . وكان فيما سبق يستخدم به أحياناً رمح بلا رأس بدلا من الجريد .

لاسترداد استقلالهم . وحاز شهرة عظيمة ، لا عند الأمير فضل وقبيلة الزحلان فحسب ، بل عند القبائل المجاورة أيضاً .

ولنعد الآن إلى الأمير رزق وقبيلته . لم يلبث الأمير رزق عقب رحيل زوجته أن اعتزل قبيلته حزناً على فقدها واشمئزازاً من سلوك عشيرته نحوه بسبب ما يتوهمونه عاراً . وانفرد بعبد واحد ، واتخذ سكنه خيمة من شعر الماعز الأسود ، بالقرب من المكان الذى كانت زوجته قد رأت فيه موقعة الطيور . ولم يلبث بنو هلال بعد هذا الحادث أن أصابهم قحط ماحق اضطر القوم ، وملكهم سرحان إلى الرحيل إلى أرض قبيلة الزحلان للانتجاع . غير أن الجعفرية وبعض القبائل الصغيرة من بنى هلال لحقوا بالأمير رزق ، وكان رئيسهم سابقاً ، وبقوا معه. وهاجم بركات سرحان وقومه ، وهزمهم وسمح لهم بالبقاء بعد أن أخضعهم خضوعاً ذليلا . وكان بنو هلال يكنون الكراهية لبنى الزحلان الذين كانوا يدفعون لهم جزية قبلا . وأرسل سرحان إلى رزق يتوسل إليه أن يسعى ليخلصهم من ذلهم . فلبى رزق دعاءهم . وفى طريقه إلى عرب الزحلان ، كاد الرسول ، الذى كان قد جاء ليرشده ، يقنعه أن بركات ابنه . ولكنه تحير فى سبب تسميته بهذا الإسم ، لأنه كان قد سماه أبا زيد . وعندما بلغ غايته ، دعا بركات إلى النزال . وتقدم الأب لمنازلة الإبن وهو يشك فى أنه ولده ، بينما كان الأخير يجهل أنه على وشك أن يرفع يده فى وجه أبيه ، ظناً منه أن خصمه هو قاتل أبيه . وتعلل الأمير رزق لتأجيل المبارزة يوماً بعد يوم . ولكنه عجز عن الاستمرار فى ذلك ، فرضى بالنزال . وتغلب عليه ابنه ورماه عن فرسه ، ولم يقتله لأن أمه أوصته بالامتناع عن ذلك . ولم تلبث الأميرة خضرة أن كشفت له عن الحقيقة . فأرغم زعماء بنى هلال على الاعتراف به إبناً شرعياً للأمير رزق ، جديراً به ، وعلى استغفارهم عن الأضرار التى كابدها هو وأمه منهم . وصفح عنهم الأمير أبو زيد بركات . وقد زاد هذا فى سرور الأمير رزق لرجوع زوجته وابنه .

أما الحوادث التالية فى قصة أبى زيد فكثيرة معقدة . وأشهر أجزائها قصة الريادة . ونرى فيها أبا زيد وثلاثة من أبناء أخته ، فى زى الشعراء ، وهو فى زى عبد من عبيدهم ، يرتادون بلاد المغرب ويمتازون بعدة وقائع مثيرة مع قبيلة الزناتية .

الفصل الثانى والعشرين

تابع رواية القصص العامة

من رواة القصص أيضاً طبقة تتميز بتسمية خاصة: « المحدثين »، (المحدثون). وهم، من حيث العدد، يتلون « الشعراء »، فى القاهرة ما يقرب من الثلاثين منهم. والمحدثون يقصرون أنفسهم على رواية « سيرة الظاهر » أو « السيرة الظاهرية »، ومن ثم يسمون « الظاهرية ». وهم لا يستعينون فى روايتهم بكتاب.

وقوام السيرة الظاهرية تاريخ السلطان الظاهر بيبرس الشهير وكثير من معاصريه. وقد اعتلى هذا الأمير عرش مصر فى ذى الحجة من عام ٦٥٨ للهجرة، وتوفى فى محرم من عام ٦٧٦، فحكم منذ عام ١٢٦٠م إلى ١٢٧٧. ويندر أن تجد بمصر نسخة كاملة من سيرة الظاهر، وقد علمت بوجود واحدة منها فاشتريتها. وهى تتألف من ستة أجزاء مربعة الشكل، مقسمة إلى عشرة أقسام، وأجزاؤها من نسخ مختلفة. ولا يُعرف واضع السيرة ولا عصره. وقد وضعت السيرة فى الأسلوب الدارج من العربية المصرية الحديثة. وإذ كان القصد من وضعها روايتها للعامة، فيحتمل أن يكون الناسخون قد حرفوها وصاغوها فى أسلوب حديث. ومن الواضح أن لغة السيرة لم تكن أبداً قديمة فى أسلوبها ولا فى تاريخها. قد كتب أقدم أجزاء المجموعة التى امتلكها من جيل مضى أكثر أو أقل. ولأعرف القارىء بشىء من هذه القصة، أذكر هنا بعض حوادث من الجزأين الأولين.

يحكى أن الملك الصالح (أحد سلاطين مصر المشهورين والأولياء المعروفين) عهد إلى من يدعى على بن الورّاقة أن يشترى بعض المماليك من البلدان الأجنبية. فاشترى خمسة وسبعين مملوكاً من سورية، وألحق بهم شاباً يسمى محموداً (بيبرس فيما بعد) كان ولداً لشاه جقماق، ملك خوارزم، وأسر. غير أن علياً ما لبث أن باع محموداً إلى أحد دائنيه بدمشق، مقابل دين عليه، فقدم هذا الأخير المملوك إلى زوجه ليقوم على خدمة ابنها، وكان معتوهاً مشوهاً.

ولم يبق محمود على هذه الحال طويلا . فقد كان لسيده الجديد أخت جاءت يوماً تزور زوجة أخيها ، فوجدتها على وشك أن تضرب المملوك الفتى ، لأنه أهمل مراقبة المعتوه فسقط من المقعد . وقد أذهلها ما فى هذا المملوك من شبه كبير بابن لها فقدته ، فأشفقت عليه ، واشترته من أخيها ، وتبنته ، وسمته بيبرساً ، وكان اسم ابنها المتوفى ، وأقامته ولياً على أملاكها الكثيرة . وكانت هذه السيدة تسمى الست فاطمة بنت الأقواسى (صانع الأقواس) . وأظهر بيبرس نفسه أهلا لهذا الكرم ، فأبدى ما يثبت خلقه الكريم ، وتميز بعدة أفعال نادرة أثارت إعجاب الناس وحسد عيسى الناصرى ، حاكم سورية ، فدبر له المكائد ليوقع به ويقتله . وحدث بعد ذلك أن قدم نجم الدين ، وزير الملك الصالح ، فى بعثة إلى دمشق ولزيارة الست فاطمة أخت زوجته . فلما عاد إلى مصر صحب بيبرس معه . فرفعه الصالح إلى أعلى المناصب ، وأصبح نديماً لكبير الوزراء ، شاهين الأفرم . أما الحوادث التالية فقد وقعت عقب وفاة الصالح مباشرة(١) .

بعد وفاة الملك الصالح أيوب ، طلب الوزير أيبك الاجتماع بمنزله وأحضر الأمير قلاوون وأصحابه إلى هناك . وقال الوزير أيبك إلى الأمير قلاوون : غداً نصعد إلى الديوان على رأس جنودنا ، ويعتلى أحدنا عرش مصر . فأجابه الأمير قلاوون : ليكن . واجتمع كذلك الوزير شاهين الأفرم بالأمير أيدمر البهلوان وجنده وبأصحاب الأمير بيبرس وحلفائه ، وقال لهم : غداً ، تسلحوا واصعدوا إلى الديوان ، لأننا نرغب فى مبايعة الأمير بيبرس بالسلطنة ، إذ أن الملك الصالح أيوب كتب براءة بذلك . فأجابوا : على العين والرأس . وأمضوا الليل ، ونهضوا فى الصباح ، وصعدوا إلى الديوان . وإلى هناك ذهب أيضاً أيبك التركمانى والأمير قلاوون الألفى والأمير علاء الدين البيسرى مسلحين على رأس جنودهم . وبالمثل صعد الأمير بيبرس مع جنده إلى الديوان الذى اكتظ بالعسكر . وحينئذ قال الوزير شاهين : قم يا بيبرس واجلس على العرش ، فأنت سلطان ، وعندك براءة بذلك . غير أنه رفض ذلك وأشار إلى الوزير أيبك والأمير قلاوون ليعتلى أحدهما العرش . وبينما كان الفريقان يتناقشان ، أخبرهم الأمير عز الدين الحلّى أن للملك الصالح إبناً على قيد الحياة . وقال الأكراد(٢) : نعم ، واسمه عيسى . وهو يقيم بالكرك . ونحن لم ننشد بذكره

---

(١) ترجم المؤلف ما يلى من نص الكتاب . وأرانى مضطراً لعدم وجود النص تحت يدى إلى بعض التلخيص . (المترجم)

(٢) كان الصالح من أسرة أيوب ، وهم من الأكراد .

لإدمانه شرب الخمر . فقال بيبرس : لعله يتوب . فقرر الجند حينئذ الذهاب إليه والمجيء به ليولوه سلطاناً . وطلب الوزير شاهين أن يذهب الأمير بيبرس معهم . ولكن أيبك وقلاوون قررا أن يرحلا قبله ، وأن ينتظرا قدومه هناك .

وعندئذ نزل الوزير أيبك وقلاوون وعلاى الدين البيمرى من الديوان ليرتبوا أمورهم . وفى اليوم التالى أمروا الجنود بحمل المؤن ونصب الخيم خارج العادلية(١) استعداداً للرحيل . وأدرك الوزير شاهين أن غاية الجند بذر الشقاق بين الملك عيسى والأمير بيبرس ، فنزل من الديوان واستصحب الأمير بيبرس إلى منزله ، وقال له : ماذا تفهم من رحيلهم قبلك ؟ فأجاب : إن هؤلاء يكرهوننى . ولكن سبحان علاّم الغيب . فكشف له عن قصدهم ، وأظهر له رغبته فى أن يسبق عثمان بن الحبلى(٢) ومحمد بن كامل العيّار الجندَ ليزوداه بالأخبار . وطلب منه أن يرحل إلى الشام(٣) ، ويقيم بمنزل الست فاطمة بنت الأقواسى فلا يغادره حتى يرسل إليه عثمان .

ووصل عثمان بن الحبلى ومحمد بن كامل إلى قلعة الكرك ، وتوجها إلى قصر الملك عيسى حيث قابلا الكخيا الذى نقل إلى الملك رغبتهما فى مقابلته ، فسمح بادخال عثمان. وكان الملك جالساً بالقرب من نافورة تحيط بها الأشجار ، وهو يحتسى النبيذ ، وأمامه شمعدان ومملوك وسيم يقوم على خدمته . ونظر عثمان إليه وقال : لتكن فى رعاية الله أيها الملك عيسى . فرحب به الملك وطلب منه الجلوس ومشاركته الشرب . فصاح عثمان : أستغفر الله . إنى تائب . فأمره الملك ألا يخالفه ، قائلا إن باب التوبة مفتوح . وجلس عثمان وأخذ فى الشرب إلى أن ثمل .

ووصل أيبك وقلاوون وعلاى الدين وجنودهم إلى مدينة الكرك، ونصبوا خيامهم ، ودخلوا المدينة وتوجهوا إلى قصر الملك . وأعلن الكخيا قدومهم إلى الملك الذى خرج إليهم . فنهضوا وقبلوا يده ، وأخبروه أنهم قدموا من

---

(١) العادلية اسم مسجد أقامه الملك العادل طومان باى عام ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م) خارج أسوار القاهرة بالقرب من باب النصر . ويطلق الاسم نفسه على الحى المجاور للمسجد .

(٢) كان عثمان (وينطق باللغة الدارجة عثمان – بالتاء مع ضم العين أو كسرها) ابن الحبلى متشرداً ألحقه بيبرس بخدمته بعد أن جعله يأخذ على نفسه عهداً بالتوبة ، عند مقصورة السيدة نفيسة (ابنة حفيد الإمام الحسين) . وما لبث أن أصبح « مقدم » خدمه .

(٣) ويقصد بالشام هنا دمشق .

مصر لمبايعته خلفاً لوالده الذى ذهب ضحية العدوان . وذكروا أن بيبرس دس للصالح السم ، وأنه فى طريقه إلى القصر . وأمضوا الليل هناك . ثم غادروا القصر فى الصباح ، وعادوا إلى خيمهم قبل أن يراهم الوزير شاهين أو بيبرس فيفطنا إلى مكيدتهم .

وأقبل بعدهم الوزير شاهين فى جنده ، ودخل على الملك الذى سأله إذا كان هو الذى وضع السم لوالده . فأجابه أن والده مات ميتة طبيعية ، وأن بيبرس بالشام ، وأنه يستطيع أن يذهب إلى هناك فيقدمه بهذه التهمة إلى الديوان إذا أثبت ما يدعى . وانصرف الوزير شاهين ، ولقى محمد بن كامل الذى أخبره أنه لا يعلم شيئاً عن عثمان . وعرف عثمان من الملك عيسى أن الوزير قدم فى جنده ، فخرج إليه وهو يترنح . وأدرك الوزير أنه ثمل ، فأمسك به وأقام عليه الحد بجلده ثمانين جلدة . وكتب رسالة إلى بيبرس ينبئه فيها بالمكيدة ويوصيه بتوخى الحذر ، فلا يخرج من المنزل حتى يرسل إليه بذلك . ويعلنه أخيراً أن عثمان احتسى الخمر وثمل فى قلعة الكرك . ثم طلب من عثمان أن يذهب بالرسالة إلى الشام ليقدمها إلى سيده . فاغتاظ بيبرس من عثمان لعدم التمسك بنذره ، وأمسك به لإقامة الحد عليه مرة ثانية . وقال عثمان : وكيف يكون أن أرى الملك الذى ستنصبونه سلطاناً يحتسى الخمر ؟ فأجاب بيبرس : وهل يجب أن تخطىء إذا أخطأ آخر ؟ فقال عثمان . إذاً فان الحد الذى أقامه أبو فرمه(١) علىّ دين لا بد أن يرده إلىّ . وطلب بيبرس بعد ذلك من عثمان أن يجمع السوّاس ويسلحهم ويقيمهم بطريق المنزل فلا يمكنوا الجند من الدخول . وسلح الأمير بيبرس جنوده كذلك وأقامهم فى فناء المنزل .

ورحل الملك عيسى فى جنده إلى الشام ، وذهب إلى الديوان واعتلى العرش . ثم سأل ملك(٢) سوريا عن بيبرس . فأخبره أنه بمنزل والدته . فأرسل الأمير علاى الدين فى طلبه . فلما رآه عثمان صاح : ألا تذكر يا ابن القذرة الدجاجة التى أكلتها(٣) . ثم قذفه بقضيب أسقطه من حصانه ، وقام بقرعه . وعاد الأمير

---

(١) يدل عثمان اسم الوزير شاهين (الأقرم) ، بقصد المزاح البذىء ، إلى تسمية بلغت من الفظاظة ما يمنع من ترجمتها .
(٢) ويسمى أحياناً ، فى سيرة الظاهر « باشا » سورية .
(٣) وهى إشارة أن علاى الدين أكل طبقاً كان معداً لبيبرس عند دخوله فى خدمة السلطان الصالح .

إلى الملك وأخبره بما كان . فقال الوزير أيبك : لا يستطيع أحد أن يأتى به غير الوزير شاهين . فأرسل إليه الوزير شاهين الذى أخذ على الملك عهداً بمحاكمة بيبرس طبقاً للقانون ، بعد أن أشار إلى شجاعة الأخير وقوة جنده .

ونزل الوزير شاهين من الديوان وتوجه إلى منزل بيبرس . فرآه عثمان وقال : وقعت فى الفخ يا بو فرمه . وحان وقت الدفع ورد الدين إلى صاحبه . ألم تقم بجلدى ؟ فقال الوزير : لقد تحققت رؤياى . فسأله عثمان : وماذا كانت رؤياك ؟ فقال الوزير : رأيت فى الليلة الماضية إننى كنت مسافراً فهاجمنى بعض العرب وأحاطوا بى وقيدونى . ورأيت سيدى الأمير بيبرس واقفاً فوق تل . فاستنجدت به : إلىّ يا أمير بيبرس . وكان الوزير يصيح بأعلى صوته ، فسمعه الأمير بيبرس وأسرع إليه وسيفه بيده . فوجد عثمان والسواس يحيطون بالوزير . فأنب الأمير بيبرس عثمان على ذلك بشدة . وأخبر الوزير الأمير بقرار الملك توجيه التهمة إليه ، بأنه وضع السم لأبيه ، فى ديوان الشام .

وذهب بيبرس إلى الديوان على رأس جنده ، وقبّل يدى الملك ، وطلب منه أن يثبت التهمة أمام القاضى . فأشار الملك إلى أيبك وقلاوون وعلاى الدين ، فسألهم بيبرس هل رآنى أحد أدس السم ؟ فأجابوا بالنفى . وحينما علم القاضى أن ليس هناك شهود غير هؤلاء ، اتهمهم بالكيد لبيبرس . وقرب الملك عيسى الأمير بيبرس منه وخلع عليه قفطاناً وعينه رئيساً لجنده . ولم يقبل بيبرس ذلك إلا بعد أن قطع الملك على نفسه عهداً بالتوبة عن شرب الخمر ، وقبل أن يقام عليه الحد إذا رجع فى توبته . وأقام الملك بالشام ثلاثة أيام ثم مر بالرحيل . وفى اليوم الثانى وصل الركب إلى وادٍ كثير الشجر والجداول ، تغرد فيه الطيور بحمد الملك ، الجبار ، الغفار . فأمر الملك عيسى بنصب الخيم فى هذا المكان لقضاء الليل به . وكان القمر بدراً . وتاق الملك إلى شرب النبيذ وسط هذا المرج بالقرب من الغدير . فنادى خادمه (أبو الخير) وأطلعه على تشوقه إلى النبيذ . فذكره الخادم بعهد التوبة ، غير أنه قال إن باب التوبة مفتوح ، وناول الخادم عشر قطع ذهبية ، وألزمه بالطاعة . فذهب إلى أحد الأديرة ، وأتى من هناك بقنينة كبيرة ، ملأ منها قدحاً للملك الذى طلب منه أن ينبهه عند قدوم الأمير بيبرس . وفى ذلك الوقت ، كان عثمان يمر بالمخيم ، فرأى الملك

عيسى جالساً فى سرادقه يحتسى النبيـذ ، فأسرع إلى سيده الأمير بيبرس يخبره بالأمر . ولمح أبو الخير الأمير قادماً ، فنبه الملك الذى بادر بقـذف الـكأس فى الجـدول ، والقيام إلى الصـلاة ، بينما أخفى الخادم الزجاجة . وختم الملك الصلاة بالقاء السلام ، ثم نظر إلى الأمير بيبرس وسأله أين كان إلى هذه الساعة المتأخرة وطلب منه أن ينصرف لينام . فأخبره الأمير أنه جاء ليتأكد من متابعة السفر فى تلك الليلة أو إرجاءه إلى الغـد . ثم عاد حانقاً على عثمان لأنه افترى على السلطان . وأمر الملك عيسى بالرحيل إلى مصر فى الصباح التالى . وعنـدما وصلوا إلى العادلية ونصبوا الخيام ، رغب الملك فى زيارة الإمام الشافعى وقبر أبيـه الملك الصالح أيوب . وقام بذلك فى اليوم التالى ، ثم صعـد فى أبهة إلى القلعة حيث قابل العلماء الذين حضروا لمبايعته ، ثم قادوه إلى مستودع الأسلحة حيث سحب سيفاً كتب عليه : الملك المعظم . وقد سمى من أجل ذلك ، عيسى المعظم . وسكّت النقود باسمه ، وأقيمت الصلوات والأدعيـة فى المساجـد ، وخلع القفاطين على الجنود والأمير بيبرس . ثم كتب للأخـير براءة بتوليـة العرش خلفاً له فاغتـاظ أيبك وحلفـاؤه وابتهج أصحـاب بيبرس . وانصرف الجند ، ونزل الأمير بيبرس فى احتفال كبير إلى منزله بالقرب من قنـاطر السباع(١) .

وأرسلت الملكة شجرة الدر إلى الملك عيسى المعظم ، فذهب إلى قصرها ، وقبل يدها . وعلم أنها الملـكة فاطمة شجرة الدر زوجـة أبيه الملك الصالح ، فرحّب بها وطلب منها أن تصلى لأجله . فدعت له بالتوبة . ثم حدثتـه عن الأمير بيبرس وحب أبيـه له ، وتعاهدهما أمام الله ، وقيامها هى أيضاً بذلك فأجابها أنه كتب له براءة بتولية العرش خلفاً له . وبقيا بعد ذلك يتحدثان وقتاً قصيراً . ثم انصرف إلى غرفته حيث أمضى ليلته .

وكان الملك قد عاد أثناء رحلته من الشام إلى مصر إلى ديدنه من الشرب . فأمر خادمه أن يضع النبيذ فى زجاجة ماء فيقدمها إليه ، أثناء انعقاد المجلس ، كلما طلب منـه ذلك . ولما عقـد المجلس فى اليوم التالى ، وكان يغص بالأمراء والجند ، أشار الملك إلى خادمه قائلا : إسقنى . فقدم إليه الزجاجة . وبعد قليل

---

(١) قنطرتان فوق قنال القاهرة جنوب غربى المدينة .

أعاد الكرة ، ثم لم يلبث أن طلب الزجاجة مرة ثالثة . فلفت ذلك نظر الأمراء ، وقال أحدهم : يبدو أن الملك أفطر « كوارع » وتقدم الوزير شاهين إلى الملك يستفسر عن حاله ، وسرعان ما تبين له أنه يشرب النبيذ . فذهب بعد انفضاض المجلس إلى بيبرس وأخبره بما حدث . وفي صباح اليوم التالي حضر بيبرس المجلس ، وشاهد الملك يشرب النبيذ بالطريقة السابقة . فتقدم وأمسك بالزجاجة ، فادعى الخادم أنه ماء طبي ، فطلب طستاً وأفرغ الزجاجة فيه أمام الجند ، ثم قال للملك : ألم تعاهدني على الإقلاع عن الشرب ، ورضيت أن أقيم الحد عليك إذا حنثت ذلك ؟ ثم قام إليه وجلده .

أما الجزء الثاني فيعرض لنا ماصادف بيبرس من شدائد أثارها سخط الملك عليه عقب الحادث السابق ، وما وقع له من حوادث في عهد السلاطين اللاحقين ، خليل الأشرف وصالح الصبي وأيبك عدوه الألد والمظفر ، وأخيراً اعتلاءه هو نفسه العرش . أما الأجزاء التالية فتقص علينا حروب بيبرس في سورية وغيرها من البلدان ، وتفصل لنا أعمالا خيالية مختلفة ، ووقائع فدائي عصره . ولفظ « فداوى »، ويفهمه العامة حالياً بمعنى المحارب ذي الشجاعة والمهارة الخارقتين، يعني لغوياً وعلى الأصح من يضحي، أو يكون مستعداً لأن يضحي حياته فداء إخوانه ، أو في قضيتهم . ويطلق هنا على طبقة من المحاربين لا يخضعون لغير زعيم يختارونه . وتلك الطبقة هي الطبقة نفسها المسماة في تاريخ الحروب الصليبية assassins وقد ذكر المستشرق العلامة De Sacy بحق أن تلك التسمية تحريف لكلمة « حشاشين » . وقد أطلق على طبقة الحشاشين تلك التسمية لاستخدامهم الحشيش . وتؤكد سيرة الظاهر قول دساسي ولكنها توحي بشرح مختلف : فالقصة تكاد توصف الفدائيين بأنهم يستخدمون « البنج » ليوقعوا بخصم من أعدائهم الأقوياء في الأسر . فيتنكرون ويدعونه إلى تناول الطعام ثم يدسون له البنج في الطعام أو الشراب فيستسلم للنوم ويصبح في قبضة يدهم(١) : وزعيم هؤلاء المحاربين « شيحه » ، ويسمى « سلطان القلاع والحصون » . وتصوره القصة دائم السعي الناجح إلى إخضاع الفدائيين له ولبيبرس وقد أصبح إسمه ، لمهارته في التنكر وابتداع

---

(١) بعد كتابة الملاحظة السابقة وجدت أن الأدريسي يطلق لفظ حشيشية، وهو يرادف تماماً لفظ « حشاشين » ، على طبقة Assassins وهذا يفصل في الأمر .

الحيل علماً يطلق على من يتحلى بصفاته تلك . وهناك شخص آخر يستحق الذكر وهو جوان (حنا) المسيحى الأوربى ، وقد درس الشريعة الإسلامية دراسة عميقة ، ونجح في الحصول على وظيفة قاضى العاصمة المصرية والاحتفاظ بها بضع سنين : وزاه في القصة دائم التآمر على بيبرس وشيحة وغيرهما من الزعماء المسلمين .

ويرجع الكثير من التسلية المستمدة من رواية هذه القصة إلى ذكاء المحدث ، الذى يحسن الحديث بحركاته وبما يبدعه سرعة ذهنه .

الفصل الثالث والعشرين

تابع رواية القصص العامة

فى القاهرة طبقة ثالثة من الرواة، يسمون « عنانرة » أو « عنترية » (المفرد « عنترى ») ، غير أنهم أقل عدداً بكثير من أى طبقة من الطبقتين السابق ذكرهما . وعددهم الآن، إذا صح ما أخبرت به ، لايزيد على ستة. وهم يسمون هكذا تبعاً لموضوع رواياتهم ، « سيرة عنتر » . وإذ كان القارىء الإنجليزى يعرف الكثير عن هذه القصة من ترجمة Terrick Hamilton ، فلا داعى لسرد شيء منها . ويستعين العنانرة بالكتاب ، فلا يروون من الذاكرة . وهم ينشدون الشعر ، ولكنهم يقرأون النثر بالطريقة الدارجة ، ولا يستعملون الرباب . وإذ كان العامة لا يفهمون الشعر تماماً ، فان أكثر المستمعين إليه على درجة من الثقافة .

والعنانرة لا يقصرون رواياتهم على سيرة عنتر. فقد قيل لى إنهم جميعاً ينقلون القصص أحياناً من « سيرة المجاهدين » ، وتسمى عادة « سيرة دَلْهَمَة » أو « ذو الهمة »(١) ، وهو إسم لبطلة القصة . ومنذ سنوات مضت ، كثرت رواية هؤلاء لقصة « سيف ذو اليزن » (ويسميها العامة « سيف اليزن » و « سيف اليزل ») وهو كتاب جامع لقصص مدهشة . كما أنهم يقصون قصص ألف ليلة وليلة . وأعتقد أن ترك الرواة لهذين الكتابين يرجع إلى ندرة النسخ ، التى يصعب الحصول على أجزاء منها أيضاً . فالنسخة الكاملة من ألف ليلة وليلة ، إذا وجدت ، تباع بثمن باهظ ، وليس فى طاقة الراوى أن يدفعه . وأشك أن يكون اختيار الرواة لقصص أبى زيد والظاهر وعنتر وذى الهمة

---

(١) من الراضح أن هذا الاسم ، لكونه مذكراً ، تحريف للاسم السابق . وتذكر أقدم الأقسام من الأجزاء التى أملكها هذا الاسم هكذا : دلهمة . ويبدو أن أحد هذه الأقسام يرجع إلى ثلاثة قرون على الأقل . أما الأجزاء الحديثة فتذكره هكذا : ذو الهمة .

لأنها أفضل من ألف ليلة وليلة ، ولكن من المؤكد أن المصريين المحدثين لايزال فيهم شعور بدوى ، فيبتهجون لسماع قصص الحرب .

وإنى أسرد للقارىء وصفاً مختصراً لبعض وقائع قصة دلهمة، لأعطيه صورة من الكتب التى يستمد منها رواة القاهرة المحترفون مادتهم لتسلية جمهور المستمعين الآن . وهذا الكتاب أندر من أى كتاب سابق . وقد قيل لى أنه كان ينسخ دائماً فى خمسة وخمسين جزءاً . وبعد البحث الطويل ، لم أنجح فى الحصول على غير قسم يشمل الأجزاء الثلاثة الأولى (ومجموعها ٣٠٢ صفحة) ، وقسم آخر يشمل الجزء السادس والأربعين والجزء السابع والأربعين . ولو لم يكن القسم السابق يقرأ أغلبه بصعوبة، لقدم لنا نموذجاً حسناً للكتاب . ولذلك، ولانشغالى الآن بأبحاث كثيرة أخرى ، لم أقرأ غير الجزء الأول . وأهم موضوعات هذا الكتاب حسب المقدمة ، وقائع البدو الحربية فى عهد الأمويين والعباسيين . وهو جامع لقصص وضعها مؤلفون مختلفون ، يذكر تسعة منهم . غير أن أحداً منهم لا يعرف فى الوقت الحاضر ، وكذلك تاريخهم وعصرهم مجهولان . ولكن أسلوب القصص يبين أنهم ليسوا من المتأخرين . ويتحدث العنترة والمحدثون عن هذا الكتاب فيقولون على العموم : عندما وضع الأصمعى (ويسمونه بالدارج الأصمعى) تاريخ عنتر(١)، أو جمعه، أصبح كتابه ذلك مشهوراً للغاية ، وأثار ذكره لوقائع المحاربين العرب حماساً عظيماً أدى إلى الجد فى البحث عن قصص مماثلة . ومن هنا جمعت « سيرة المجاهدين » أو « دلهمة » ، وجامعها مجهول الآن . وإذا كان الأخير لا يستطيع ان يجارى مؤلف سيرة عنتر فى الفصاحة ، فقد قرر أن يفوقه فى الإطالة . ولما كانت سيرة عنتر فى خمسة وأربعين جزءاً ، فقد جعل كتابه فى خمسة وخمسين جزءاً . وتحفل قصة دلهمة بالشعر . ونظمها لا ينقصه الجمال ، ولا الأغلاظ . غير أن الأغلاط تنسب غالباً إلى الناسخين . وإنى أورد هنا جزءاً مما قرأت يقدم لنا أحد أبطال القصة .

تبدأ القصة بذكر قبيلة بنى كلاب ، وكانت تسكن الحجاز ، أنها فى عهد بنى أمية ، فاقت قبائل العرب فى القوة والشجاعة والقِرى وغير ذلك من الفضائل البدوية . غير أن ولاية البادية كانت لبنى سُليم ، الذين كانوا يفخرون بهذا

---

(١) وينظر العلماء على العموم إلى قصة عنتر نظرة ازدراء ، ويسخرون من قولهم إن الأصمعى مؤلفها .

الامتياز ، ويتباهون بثروتهم . وكان الحارث زعيم بنى كلاب ، فارس عصره ، وكثيراً ما كان يغير على القبائل الأخرى للسلب . وفى إحدى غزواته أسر فتاة جميلة ، تسمى « الرباب » ، وتزوج بها . فحملت منه ، وفى أثناء الحمل ، رأت فى المنام ناراً تخرج منها ، وتحرق ملابسها . فاضطربت لهذه الرؤيا ، فقصتها على زوجها . فتحير وتضايق وقام تواً يبحث عن معبر لتلك الرؤيا . وسرعان ما وجد شيخاً مسناً أخبره أن زوجه ستلد ولداً يحسن ذكره ويرزق بدوره ولداً يفوقه شهرة ، وإنها تكون عرضة للخطر عند ولادته . وأعاد الشيخ على الرباب ذكر النبوءة ، وكتب لها ، حسب طلبها ، حجاباً يربط إلى ذراع الولد اليمنى ، حالما يولد ، وسجل الشيخ على الحجاب نسب الطفل : ابن الحارث بن خالد بن عامر بن صعصعة بن كلاب . ولم يلبث الحارث أن مرض بعيد ذلك ، وسرعان ما توفى . فابتهج لوفاته عرب القبائل المجاورة ، الذين أخضعهم وأثار رعبهم ، وعزموا على سلب أملاكه تعويضاً لهم . وسمعت الرباب بذلك ، فقررت العودة إلى أهلها ، وحملت أحد عبيد زوجها على مرافقتها ، ورحلا ليلا دون أن يعلم أحد بعزمها .

وعند انتصاف الليل قربا من مخيم الأمير دارم . وهنا وسوس الشيطان للعبد ، فحاد بها عن الطريق ، وراودها بوقاحة عن نفسها . فرفضت غاضبة ، غير أن الرعب تملكها ، فأتاها الطلق فى التو ، وفى هذه الحالة البائسة وضعت طفلها . فقامت إلى جدول قريب ، وغسلت الطفل ، ثم هيأت له من ذيل ثوبها لفافة ، وشدت الحجاب إلى ذراعه ، وضمته إلى صدرها . وكان العبد قد أثارت الخيبة غضبه ، فما كادت تقوم بذلك ، حتى استل سيفه وأطاح رأسها . ثم فر هارباً بعد أن ثأر لنفسه .

وقدرت الأقدار ، فحدث فى ذلك الوقت أن زوجة الأمير دارم كانت قد وضعت طفلا ميتاً . وفى الصباح ، خرج الأمير للصيد ، فى حشد من قومه ، ليخفف من حزنه . فوصل إلى حيث كانت جثة الرباب ملقاة ، فلمحها . وكان الولد لا يزال على صدرها يرضع ، وقد أرسلت العناية الإلهية سرباً من الجراد ، من فصيلة الجندب ، لتظلله . وعجب الأمير لهذا المشهد ، فقال لوزيره : « أنظر إلى هذه الصبية المقتولة ، وإلى هذا الولد فى حجرها ، وإلى تلك الجنادب تظله ، وإلى الأم الميتة لا تزال تغذيه بلبنها ! وأيمان العرب ، إن لم تأتنى بخبر تلك الفتاة ، وسبب قتلها ، لأضربن عنقك مثلها . » فأجاب الوزير : « يا ملك ، لا يعلم الغيب إلا الله تعالى ! أكنت معها ؟ أو هل أعرفها ؟ ولكن عدنى بالأمان ، فأخبرك بما أرى . » فأعطاه الملك الأمان . فقال : اعلم يا ملك ، والله أعلم ، إن هذه الفتاة

ابنة أحد الملوك ، فلما شبت عاشرها أحد العبيد ، فحملت منه هذا الطفل. وعلم ذووها بالحادث ، فقتلوها . هـذا هو رأيي . » فصاح الملك : « أنت يا كلب العرب ! ما هـذا الذى تقول مجحفاً بهذه الصبية ؟ بالله ! لو لم أعدك بالأمان ، لقتلتك بحـد السيف ! فلو كانت الفتاة اقترفت هذه الجريمة ، لما غذت الطفـل بلبنها بعد موتها ، ولما أرسل الله هذه الحشرات الطائرة تظلل الولد . » ثم أرسل فى طلب امرأة لتغسل الجثة ، وتلفها فى كفن ، ثم دفنها باحترام .

وأطلق على الولد ، بعد حادث الجراد ، اسم « الجندبة » . وأرسـل الأمير دارم الولد إلى زوجـه ، وأقنعها أن تربيه مثـل ابنها . فظل فى كنفها حتى بلغ سبع سنوات ، فأرسـل إلى المدرسـة ، وبقى بها حتى حفظ القرآن . وبلغ الولد مبلغ الرجال ، وأصبح فارساً لا يجارى : كان مثـل الحنظل المر ، والحية ، والداهيـة(١) .

وفى أحد الأيام ، رحل الأمير دارم ، بصحبة مائة فارس ، فى غزوة للسلب ، حسب عادته . ولم يصادفه غنيمة طول رحلتـه ، فتقـدم إلى أن وصل بلاد « الشمطاء » . وكانت امرأة ذات سعة وقوة وشجاعة ، يخشاها أبطال زمانها . فعزم دارم على غزوها . وعلمت الشمطاء بقدومه فسارعت إلى فرسها ، وتقدمت إلى لقائه هو وقومه . وظلت تقاتلهم ساعـة ، فقتلت أكثرهم ، وحملت الباقين على الفرار ، ما عدا الأمير دارم ، فقد أسرته ، وقادته فى قيوده ، ذليلا مهاناً ، إلى حصنها . وعاد الفارون إلى قبائلهم ، وأخبروا قومهم بما حدث ، فاغتموا لذلك . وكان للأمير دارم عشرة أولاد . فخرجوا لنجـدته معاً فى جمـع من تابعيهم ، غير أن الشمطاء أسرتهم كلهم ، وقتلت أغلب تابعيهم . فلم ير الجندبة بدأ من ملاقاة هـذه البطلة . فذهب بمفرده ، وماكان أحـد من القبيلة غير حاضنتـه يعرفه . وكانت الشمطاء فى أعلى حصنها ، فرأت فارساً يقترب ، وأدركت قوته من طريقة ركوبه . فأسرعت إلى فرسها ، وخرجت إلى الجندبة ، وزعقت عليه زعقة رددتها الصحراء ، غير أنه لم يبال بذلك . وتحدى كل منهما الآخر ، والتحما فى قتال دام ساعة . وأخيراً نفذ رمح الجندبة فى صدر الشمطاء ، وظهر طرفه اللامع من ظهـرها ، فسقطت تتخبط فى دمائها . ورأى عبيـدها الأربعون سيدتهم مقتولة ، فهجموا هجمة واحـدة على قاهرها . ولكنه قذف

(١) وليست تلك الألفاظ قذفاً ، بل يعدها العرب ثناء .

بهم عن جيادهم ، ثم لامهم على خدمتهم امرأة ، وهم جميعاً رجال أقوياء ، ونصحهم بالاستسلام ، فاعترفوا به سيداً . وقسم الجندبة عليهم أملاك الشمطاء ، وأفرج عن متبنيه وإخوته بالتبنى ، وعاد معهم إلى القبيلة .

أذاع هذا العمل الباسل صيت الجندبة بين قبائل الصحراء جميعاً ، غير أنه أثار حسد الأمير دارم ، الذى لم يلبث أن طلب منه أن يرحل إلى ديار أخرى . فعاداه الجندبة عبثاً . وعندما أوشك الجندبة على الرحيل ، استأذنه الأمير دارم بفتح الحجاب المشدود إلى ذراعه ، وقراءة ما به . فأذن له بذلك . وما كاد يقرأه ، حتى صرخ صرخة مدوية ، وأقبل قومه مستفسرين ، فقال لهم : « هذا الفتى هو ابن خصمكم الحارث الكلابى ، خذوه فاقتلوه » . غير أن الجندبة صمم أن يحاربوه واحداً واحداً . وكان الأمير دارم أول من دعاه للمبارزة ، فوجه إليه خطاباً منظوماً (١) وأخذ يحقر من شأنه . ويذكر خصومة أبيه لقبيلته ، وينذره بأخذ الثأر . فقال الجندبة : « يا عمى » لقد عاملتنى معاملة طيبة ، فلا تندم عليها ، بل اتركنى أرحل بسلام ، ولا تضيع خيراً فعلته . » غير أن دارماً رد قائلا : « لا تلجأ إلى الإطالة ، فقد عزمت على قتلك . » وعاد الجندبة ينصحه ، ويلاطفه ، ويذكره بفك أسره ، ثم أشهد الله عليه . وما كاد ينتهى من كلامه حتى حمل الأمير عليه . وأخذا يقاتلان ساعة ، ونفذ رمح الجندبة أخيراً فى صدر دارم ، وخرج طرفه يلمع من ظهره . وعندما رأى أولاد دارم أباهم مقتولا . هجموا على الجندبة ، فاستقبلهم كما تستقبل الأرض الجدباء المطر الرذاذ . فقتل اثنين منهم ، وهرب الباقون ، وأخبروا أمهم بما حدث . فجاءت مكشوفة الرأس ، عارية الصدر ، تبكى إلى الجندبة . ورجته أن يعفو عن أولادها ، رحمة بها ، وتذكره بحضانتها وحبها له . فأصاخ إليها ، وأجابها وهو يقسم بمن نعبد جميعاً وبالمصطفى طه (٢) أنه فعل ذلك مجبراً ، وأنه يعفو لأجل خاطرها .

---

(١) عندما يضمن القصاص أحدوثته شعراً ، فهو يطلب من سامعيه عامة أن يصلوا على النبى . ويقول غالباً : « صلوا على الرسول » ، فحسب .

وقد قمت بترجمة الشعر الوارد فى هذه السيرة بيتاً بيتاً على نمط السجع الذى يسير عليه الأصل . (المؤلف)

لأن الأصل يعوزنى ، فقد اكتفيت هنا ، وكلما ورد منظوم فيما بعد ، بتقديم موجزاً للوقائع التى يرد ذكرها بالمقطوعات المنظومة . (المترجم)

(٢) يعتبر لفظ (طه) - وهو عنوان السورة العشرين - اسماً للنبى العربى ، وهو كثيراً ما يستعمل كذلك . ومن أسماء النبى محمد أيضاً ، مصطفى وأحمد . وكذلك يٰس ، وهو عنوان السورة السادسة والثلاثون .

بعد ذلك ترك الجندبة حاضنته ، وانصرف بمفرده إلى حصن الشمطاء . فرآه العبيد ، فزحفوا لاستقباله . فأخبرهم بما حدث . وطلب منهم أن يرافقه بعضهم للبحث عن موطن أوفق ، حيث يستطيعون مهاجمة القوافل وسلبها . فأعلنوا جميعاً تأهبهم لمرافقته ، فاختار منهم نفراً ، وترك الباقين فى الحصن . وسافروا إلى أن هبطوا أرضاً قفراً ، لا زرع فيها ولا ماء ، وخشى العبيد أن يموتوا ظمأ ، فتآمروا على قتل الجندبة . ولكنه تنبه إلى تذمرهم ، وفطن إلى قصدهم ، فعجل بالذهاب إلى بقعة تغص بالماء والمرعى ، فأقاموا بها للراحة . وراقبهم الجندبة حتى غلبهم النعاس ، فذبحهم جميعاً بسيفه ، ثم تابع سفره . وفى الصباح ورد وادياً نضر الحواشى ، كثير المرعى ، ملآن بالأشجار الشاهقة ، والجداول المتحدرة ، والطيور المغردة تسبح بحمد الله رب القدرة والخلود . ولمح وسط الوادى خيمة بدوى ، وإلى جانبها رمح غرز فى الأرض ، وجواد شد إلى وتد . وشخص الأمير جندبة إلى الخيمة ، وفيما هو ينظر إليها ، خرج منها شخص أنيق الهيئة ، كامل السلاح ، قفز على حصانه ، وركض نحوه ، دون أن يفوه بكلمة ، لينازله . فصاح الجندبة : « يا أخى ! إبدأ بالسلام قبل أن تضرب بالحسام ، فتلك شيم الكرام . » فلم يرد عليه . وتعاركا حتى كسرت حرابهما ، وفلت سيوفهما . وفى النهاية أمسك الجندبة بخصمه ورفعه عن جواده إلى الأرض . ولم يكد يرفع سيفه ، حتى سمع خصمه يقول بصوت رقيق يشفى العليل : « رحمة بأسيرك ، يا بطل الدهر ! » فقال الجندبة : « أأنت رجل أم امرأة ؟ » فأجابت : « إننى عذراء . » ثم نزعت لثامها(١) ، وكشفت عن وجه مثل البدر . وعندما شاهد الجندبة جمال وجهها ، ورشاقة شكلها ، اعتراه الدهش وقهره الحب . فصاح : « يا سيدة الجميلات ، ونجم الصباح ، وحياة النفوس ! عرفينى بسرك ، وأخبرينى بحقيقة أمرك . » فأجابت : « يا بطل زماننا ! يا بطل الدهر والعصر ! هل أقص قصتى نثراً أم نظماً ؟ » فقال : « يا حسن دهرك ، ويا فريدة عصرك ! إننى لن أسمع منك غير الشعر . » فأنشدت تروى ما حدث لها . فأخبرته أنها ابنة الملك(٢) قابوس ، وأنها مارست ضروب النزال حتى طبقت شهرتها الآفاق ، وسارع إليها الخطاب ، فلم يفز بحبها أحد ، فأقسمت ألا يتزوجها غير بطل شجاع ينازلها ويقهرها . فبارزت

---

(١) اللثام قطعة من الجوخ يغطى العربى بها أسفل وجهه . وكثيراً ما يحول اللثام دون أن يعرفه عربى آخر يطلب ثأراً .

(٢) كانت العادة أن يلقب رئيس القبيلة القوية بالملك .

الرجال وصرعتهم ، وسميت بحق « قتالة الشجعان » غير أنها خشيت أخيراً أن يجبرها أبوها على الزواج بمن لا تحب ، فهربت إلى هذا المكان ، فى صحبة من الفرسان ، تهاجم القوافل وتتعيش من السلب . ثم جاء هو فأسرها وعفا عنها . وسألته أخيراً أن يرحل معها إلى دارها . فذهب معها ، وسر أهلها بقدومهم ، وأضافوا الأمير جندبة ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع ، جمعت قتالة الشجعان فى دارها أهل قبيلتها مع الجندبة ، وأعدت لهم مأدبة حضرها الكبير والصغير . وبعد تناول الطعام ، أخذ القوم فى الحديث . فطلبوا من الجندبة أن يروى لهم قصته . فقص عليهم ما حدث له مع الأمير دارم . وكان المجلس يضم عشرة ، فروى تسعة منهم وقائعه الحربية . ثم طلبوا من العاشر ، وكان عبداً ، أن يروى قصته . فذكر لهم أنه كان يخدم الأمير الحارث ، وأنه قتل أرملته . ولم يكد ينتهى من قصته ، حتى كان الأمير جندبة قد نفد صبره ، فاستل سيفه ، وأطاح برأس العبد صائحاً : « لقد ثأرت من هذا العبد الخائن ! » وسحب الحاضرون سيوفهم ، وحدث هرج شديد . ولم تكن قتالة الشجعان موجودة حينئذ ، ولكنها سمعت الجلبة ، فجاءت تستفسر عن السبب ، فذكروا لها ما حدث ، وطلبوا أن تسلمهم الجندبة ليقتلوه . فأنتحت بهم جانباً ، وقالت لهم إن الجندبة أكل من طعامها ، فلا يمكنها أن تسلمه ، ولو سلبها شرفها ، ولكنها ستنصحه بالرحيل فى الغد ، وعندما يغادر دارها ، يفعلون به ما يشاءون . ثم ذهبت إليه وحذرته . ثم قالت : « لنتزوج الآن ، ولنرحل عن هؤلاء القوم . » فقبل فرحاً .

وتزوجا تواً أمام الله ، ورحلا ليلا ، وتابعا السفر حتى الصباح ، فحمدا الله على توفيقهما . وظلا على سفر أربعة أيام ، وفى اليوم الخامس وصلا إلى واد حافل بالشجر والفاكهة والطيور والجداول . وكان الليل قد انتصف . فلمحا شيئاً أبيض بين الأشجار ، فاذا به جواد أبيض مثل الكافور . وعندما أصبح الصباح رأيا مخيماً به جياد ، وجمال ، وخيم منصوبة ، وحراب مغروزة فى الأرض ، وسرادق مقامة ، وبينهم قوم كثيرون ، وفتيات يضربن على الدفوف . كان المكان يغص بالترف . وسار الجندبة وعروسه خلال هذا الوادى ، وقد زاد حبه لها . وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث ، وكان حديثها بهجه . وفى هذا الوقت ، اجترأت لأول مرة على سؤاله عن سبب قتله العبد ، وقد كان ضيفاً عليها . فقص عليها جريمته الحقيرة . ثم انتقلا إلى الحديث عن جمال الوادى ، ولم يلبثا أن رأيا غباراً كثيراً ثم فرساناً يركضون . فاستنتج الجندبة فى الحال أن هؤلاء من قبيلة

زوجه جاءوا يلاحقونه، ولكنه كان مخطئاً. فقد قسم القوم أنفسهم أربعة أقسام وهاجموا المخيم من جهات مختلفة فى وقت واحد. ولم يلبث عرب المخيم أن ملأوا الجو بنحيبهم وصياحهم مستنجدين. « يا عامر! يا كلاب. » وعندما سمع الجندبة صراخهم صاح قائلا: « هؤلاء القوم أولاد عمى! » وهبّ فى التو لنجدتهم. وقامت زوجه إلى جانبه، وانقضا معاً على العدو، فيقتلان كل من يصادفهما من الفرسان، ويسددان حرابهما إلى صدر المشاة. وأثار غضبتهما ونجاحهما حمية القبيلة المغلوبة. فضموا صفوفهم، وطردوا مهاجميهم، وأعادوا ما غنم منهم. ثم رجعوا إلى الجندبة وسألوه من هو. فأجابهم ليس هذا وقت الأسئلة، بل الراحة بعد القتال. فصحبوه معهم وانصرفوا للاستراحة. وبعد أن أخذوا قسطهم من الراحة والطعام، روى لهم قصته. فطربوا لحديثه وصاحوا جميعاً: « لقد ظهر الحق، وزهق الباطل، ورد العدل إلى أهله والسيف إلى غمده. » واعترفوا به فى الحال رئيسهم الشرعى. غير أنهم كانوا قد بايعوا الأمير جابر بالأمارة بعد وفاة الحارث. وكان الأمير جابر يكره الحارث ويسميه اللص، فعارض فى قرار قومه، وطلب أن يفصل فى الأمر بالمبارزة. والتقى الخصمان، وانتهى النزاع بقتل جابر بالرغم من كونه فارساً شجاعاً. واستولى الجندبة على فرسه، وقسم ما بقى على قبيلته. غير أنه كان لجابر حلفاء، فلما رأوه مقتولا، تألبوا عليه، ولكنه، بمساعدة فريقه، هزمهم وشردهم. ثم عاد إلى قومه وأقاربه، وجلس بينهم. وقدم شيوخ القبيلة وبطونها إليه وإلى زوجه الهدايا المختلفة. ونادت به القبيلة جميعاً، منذ ذلك اليوم، أمير بنى كلاب.

الفصل الرابع والعشرين

الأعياد الدورية العامة ، الخ

يشاهد المرء ، فى الأعياد الدورية العامة ، عادات شتى من أكثر عادات المصريين المحدثين اعتباراً ، وسأصف هنا أهم تلك العادات . ويقام أكثر الأعياد وغيرها من الموالد فى أوقات خاصة من السنة الهجرية .

تعتبر الأيام العشرة الأوائل من شهر المحرم مباركة للغاية ، ويحتفل بها احتفال بهيج ، ويقدس اليوم العاشر خاصة . ويسمى العامة تلك الأيام « العَشر » ، وسأبين اشتقاق هذا اللفظ فيما بعد . وقد سبق أن ذكرت فى الفصل الثانى من فصلى الخرافات عادة بيع الميعة المباركة أثناء الأيام العشرة ، فتستعمل فى العام التالى لمنع الحسد كلما لزم الأمر . كما ذكرت أن المصريين يتشاءمون من عقد الزواج فى شهر المحرم .

وفى العادات الشائعة أن يتصدق المصريون المسلمون بما فى طاقتهم طول شهر المحرم ، وهم يتصدقون خاصة فى الأيام العشرة ، وعلى الأخص فى اليوم العاشر . (١) ويدعى كثير منهم أنهم يؤدون الزكاة فى هذا الموسم ، وقل من يفعل ذلك حقاً . فهم لا يتقيدون بغير إرادتهم ، يعطون من يشاءون ما يشاءون. ويعمد كثير من نساء القاهرة ، ومن هن من طبقة متوسطة أيضاً ، فى الأيام العشرة ، وعلى الأخص فى اليوم العاشر ، إلى حمل أطفالهن على الكتف ، أو استخدام امرأة أخرى لذلك ، والسير فى الشوارع يستجدين من يصادفن من المهندمين . وتسأل الأم أو حاملة الطفل تارة ، والطفل نفسه تارة أخرى ،

---

(١) يبدو أن تلك العادة نقلت عن اليهود الذين تعودوا التصدق وعمل الخير أثناء الأيام العشرة ، التى تبدأ برأس السنة الجديدة وتنتهى بيوم الاستغفار ، أكثر من أى يوم آخر . — أنظر Old Paths لمؤلفه Dr. M'Caul ص ١٢٥ ، ١٢٩ .

بهذا القول : « يا سيدى ، زكاة العشر . ». ويعنى لفظ « العَشر » عند العامة « الأيام العشرة » ، غير أنى أظن أنه يعنى « الليالى العشر » ، ولو أنى أخبرت أنه تحريف لكلمة « العُشر » ، وتستعمل هنا استعمالا غير دقيق للدلالة على « ربع العشر » (واحد على أربعين) ، وهذا ما يفرضه الشرع على المسلم زكاة على أمواله من النقد وبعض المتاع . ويمنح الطفل عادة فى الحالة السابقة قطعة خمس فضة . فيشترى بما يناله حلوى أحياناً ، غير أن المعتاد أن تعتبر تلك النقود حرزاً ، فتخاط فى طاقية الطفل ، ويحملها هكذا إلى المحرم التالى . وتكرر تلك العادة سنوياً حتى يبلغ الطفل سناً كبيرة .

يراعى المصريات ، وخاصة القاهريات ، خرافات غريبة خاصة بالأيام العشرة من المحرم . فيعتقدن أن الجن يزورون بعض الناس ليلا ، فيظهرون لهم على هيئة سقاء أحياناً ، وعلى شكل بغل أحياناً أخرى . ويطلق عليه فى الحالة الأولى « سقا العشر » وفى الحالة الأخرى « بغلة العشر » . وعندما يحضر الجنى فى زى السقاء ، يطرق باب غرفة النائم ، فيسأل هذا : « من بالباب » فيجيبه الجنى : « أنا السقاء . أين أفرغ القربة ؟ » وإذ كان السقاء لا يحضر ليلا ، فانه يعرف شخص زائره ، فيقول : « افرغ فى الجرة » وعندما يخرج بعد ذلك ، يجد الجرة ملأى بالذهب . أما الجنى الذى يأتى فى صورة البغل فيوصف بطريقة تستحق الذكر . يحمل على ظهره خرجاً ملآن بالذهب وجمجمة ، ويعلق فى عنقه خيطاً به أجراس صغيرة مستديرة يحركها عند باب غرفة الشخص الذى قدم ليغنيه . فيخرج هذا ويأخذ الجمجمة ، ويفرغ الخرج ، ثم يملأه تبناً أو نخالة أو غير ذلك ، ثم يضعهما ثانياً على ظهر البغلة ، ويقول : « اذهب يا مبارك . » — تلك هى الطرق التى يتبعها خيار الجن لدفع الزكاة . وكثيراً ما تسمع النساء الجاهلات يصحن : يا رب « ابعث لى سقاء العشر » أو « ابعث لى بغلة العشر » . ويسخر الرجال على العموم من هذه الخرافات .

ويقول بعض القاهريين إن هناك جماعة من الجن يظهرون فى هيئة الأنس وبملابسهم ، ويقيمون فى منتصف الليل ، طول الأيام العشرة ، سوقاً فى شارع الصليبة جنوب العاصمة ، أمام ناووس قديم ، يسمى « الحوض المرصود » . وكان هذا الناووس فى كوة تحت درجات تصعد إلى باب مسجد يجاور القصر القديم المسمى قلعة الكبش . وقد نقله الفرنسيون أثناء احتلالهم مصر ، وهو الآن بالمتحف البريطانى . ويقال إن سوق الجن لم يعد يقام منذ أن نقل الناووس .

وقيل لى إنه لم يكن يعلم بتلك العادة غير نفر قليل. وكان كل من يصادفه الحظ فيمر بسوق الجن ويشترى شيئاً من الفاكهة أو الكعك أو الخبز الخ ، يرى ما اشتراه قد تحول إلى ذهب فى الحال .

يسمى اليوم العاشر من المحرم « يوم عاشوراء » . ويقدس المسلمون هذا اليوم لعدة اعتبارات ، منها أنهم يعتقدون أنه اليوم الذى تقابل فيه آدم وحواء لأول مرة بعد طردهما من الجنة ، والذى خرج فيه نوح من سفينته ، ولأن أحداثاً عظيمة أخرى وقت فى ذلك اليوم حسب قولهم ، ولأن عرب الجاهلية كانوا يصومون فيه . غير أن الذى يخلع على يوم عاشوراء قدسيته العظيمة ، فى رأى المسلمين المحدثين ، والفرس خاصة ، هو أنه استشهاد الحسين فى موقعة كربلاء . ويصوم كثير من المسلمين ذلك اليوم ، ويصوم البعض اليوم السابق أيضاً .

ولما كنت أكتب اليوم فى يوم عاشوراء ، فانى أذكر العادات الخاصة به التى شاهدتها فى هذه المناسبة . كان على أن أزود نفسى بقطع من الخمس فضة قبل أن أخرج هذا اليوم لإعطاء صدقة العشر السابق ذكرها . وقد رأيت فى شوارع القاهرة ، الأطفال ، بين سن الثالثة والسابعة ، وأكثرهم فتيات ، يسيرون فرادى أو اثنين أو ثلاثة ، أو يحملهم نساء ، ويسألون الناس صدقة العشر . فى غضون النهار وقف أمام دارى بعض الفقراء الضرار، وحمل أحدهم علماً أحمر ،طرز عليه بالأبيض أسماء الحسين وآخرين من أهل الفضل ، وأنشدوا دعاء للصدقة فبدأ أحدهم قائلا: « يا صاحب الصدقة تمنحها يوم عاشوراء المبارك» فيتمم الآخرون قائلين معاً: « حبتين قمح احبتين أرز ! يا حسن ! يا حسين ! » يكررون الكلام نفسه مراراً . وحينما يتناولون قطعة نقدية صغيرة ينصرفون إلى دور أخرى عليها مظاهر الثراء، فينشدون أمامها الدعاء نفسه. ويتجول فرق كثيرة من الفقراء فى أحياء المدينة المختلفة، أثناء هذا اليوم، متسولين بالطريقة نفسها.

كنت فى زيارة صديق لى ، قبيل الظهر ، فقدم إلى طبقاً يجهز عادة فى يوم عاشوراء ، ويسمى « حبوباً » . ويعد « الحبوب » من القمح الذى ينقع فى الماء يومين أو ثلاثة أيام ، ثم يقشر ، ويغلى ، ويحلى فوق النار بالعسل ، وقد يستبدل الأرز بالقمح . ويضاف إليه على العموم الجوز واللوز والزبيب الخ . ويهيأ هذا الطبق ، أو بقتنى حلوى مختلفة الأصناف ، تبعاً لسنة الرسول ، فى قوله : إن من أجزل العطاء لأهل بيته ، يوم عاشوراء ، يمنحه الله الوفير بقية العام .

وبعد آذان الظهر ، ذهبت إلى مسجد الحسين ، وهو المدفن المشهور لرأس الحسين ، وهو لذلك مسرح لأكثر الاحتفالات اعتباراً التى تميز يوم عاشوراء فى القاهرة . وتغص السبل المؤدية إلى هذا المسجد بالناس ، بالقرب من بيت القاضى . وقد رأيت جماعات كثيرة من الغوازى ، يرقص بعضهن ، ويجلس غيرهن حلقة يتناولن الغداء فى الشارع ، ويدعون كل وجيه إلى مشاركتهن الطعام ، بقولهن : باسم الله . وقد اعترضت إحداهن طريقى لأعطيها منحة . وأولئك يتوخين الإغراء باعداد ملابسهن لتبرز محاسن أجسامهن . وما كان رؤية هؤلاء الفتيات السافرات ، وبعضهن جميلات جداً ، غير سوء تقدير لتهيئة من يمر بهن من الرجال لمشاهدة الحفلات الدينية . وفى طريقى إلى المسجد ، سنحت لى الفرصة لأتخلص من بعض النقود الصغيرة التى حملتها معى لأوزعها على الأطفال . وكانت الفرصة التالية عند وصولى إلى المسجد ، فقد أحاط بى جمع من السقائين من تلك الطبقة التى توزع الماء على عابرى السبيل . فأعطيت اثنين منهم عشرين فضة ليوزع كل منهما ما يحملان من ماء على المارين الفقراء ، كراماً لسيدنا الحسين . وقد ذكرت هذه العادة فى الفصل الخاص بالصناعة .

ولما دخلت المسجد دهشت كثيراً للمنظر القائم بالرواق الكبير . فقد كان مزدحماً بالزائرين ، وأغلبهن نساء من الطبقتين الوسطى والدنيا ، يصحبهن أطفال كثيرون ، وكان يسوده لغط يشبه ما نسمع فى المدارس حين يأخذ مئات الأولاد فى اللعب . وكنت ترى ، وسط هذا الضجيج ، بين صراخ الأطفال وبكائهم ، ونداء الرجال والنساء بعضهم بعضاً ، النساء وأطفالهن يلحون على الرجال المحترمين سائلين صدقة العشر . وقلما شاهدت منظراً يخالف ما يحدث داخل مسجد على العموم ، وقد زادت دهشتى فى ذلك اليوم ، إذ أن مسجد الحسين أقدس مساجد القاهرة . وكانت الحصر التى تفرش فوق البلاط عادة مرفوعة ، واستبدل بها حصر قديمة لا تغطى الأرضية جميعاً ، فعلاها الغبار والوسخ العالق بأقدام كثير من الحفاة . ولما كانت الصلاة يستحيل إقامتها فى هذه المناسبة ، فقد كان الناس يدخلون المسجد بلا وضوء ، وبدون أن يمروا بالميضأة أولاً ، مع أن كل من دخل المسجد كان يخلع حذاءه حسب العادة ، والكثير منهم كان يتركه عند الحارس . وكان هناك أطفال لا يدركون لصغر سنهم قدسية المكان ، فبللت مواضع كثيرة من أرضية المسجد . ومع أنى تحاشيت هذه الأماكن ، لم تلبث قدماى أن اسودتا من الوسخ الذى دست عليه ومن أقدام الذين داسوا على . وكان الحر علاوة على ذلك مرهقاً ، يزيد على حرارة الحمامات البخارية ثقلا ،

بالرغم من وجود ملقف كبير فى السقف . وكان المسجد بأرجائه يغص بالنساء، ولست أدرى لذلك سبباً غير أنهن أكثر تمسكاً بالخرافات ، وأنهن يحملن احتراماً عظيماً ليوم عاشوراء ورغبة شديدة فى تكريم الحسين بزيارة مقامه فى هذا اليوم .

ويقول أهل القاهرة عادة : إنه ما من رجل يذهب إلى مسجد الحسين يوم عاشوراء إلا لأجل النساء فيُدفع فى حشدهن ، وينعم بذلك إلى أقصى رغباته ، وقد عرفت ذلك التجربة عندما تقدمت لمشاهدة الحفلات الدينية التى تكون ، علاوة على قداسة اليوم ، عاملا فى جذب مثل هؤلاء الأسراب من الناس . كان هناك ما يقرب من خمسين درويشاً من فرق مختلفة يجلسون على صفين متقابلين جانب الحائط الخلفى على يمين المنبر ، ولم يكن أحد يقوم بالذكر غير درويش مسن يقف بين الصفين. فتقدمت إلى الأمام لمشاهدتهم ، فوجدت نفسى فى موقف يبدو غريباً فى بلد يعتبر لمس الرجل امرأة غير زوجه أو جاريته أو قريبته غير لائق . وكنت محصوراً بين نساء أربع حتى أننى ظللت بضع دقائق عاجزاً عن الحركة فى أى اتجاه . وكان الحشد يدفعنى بشدة نحو امرأة شابة ، فكادت وجناتنا تتماس لولا النقاب . وكان يبدو من لهثها أن موقفها لم يكن سهلا ، وإن بدت عيناها النجلاوان تبتسمان معبرتين عن تسليتها . ولكنها لم تتحمل ذلك طويلا ، فما لبثت أن صاحت : « يا عينى(١) ! لا تكبس علىّ بشدة هكذا » . بينما صاحت امرأة أخرى تقول لى : « يا أفندى ! ورأسك ! تقدم إلى الإمام ، وافسح لى طريقاً فأتبعك » . وبعد لأى توصلت إلى المكان المقصود ، غير أنى كدت أفقد سيفى وكمّى سترتى المتدليين ، فقد علق مقبض سيفى بملابس البعض ، فشد النصل من غمده تقريباً قبل أن أستطيع أن أمسك به . وكنت أتصبب عرقاً مثل جميع من كانوا حولى .

وقد تبين لى أن الدراويش الموجودين ينتمون إلى بلدان ونحل مختلفة . كان بعضهم يلبس العمامة والملابس المصرية العادية ، ويلبس آخرون القاووق التركى ، وآخرون عمائم عالية ، أو طراطير على هيئة قالب السكر . وكان أحدهم يلبس طرطوراً أبيض ، قد طرز عليه بحروف سوداء أدعية للخلفاء الراشدين ، وللحسن

---

(١) وهو تعبير دارج يدل على المحبة ويعنى : أنت يا من تعز على مثل عينى .

والحسين ولغيرهم من الأولياء المشهورين مؤسسى طوائف الدراويش(١) . وكان أكثر الدراويش مصريين ، ولكن كان بينهم كثير من الأتراك والفرس . ولم ألبث طويلا حتى بدأوا رياضتهم.قام كثير منهم أولا بدفع الجمهور المحتشد إلى الوراء ، غير أنى لم أتحرك من مكانى إذ لم يقترب منى أحد . وقبل أن أعلم بما يوشك الدراويش أن يفعلوا،وجدت نفسى وسط حلقة كبيرةمن أربعين منهم وشعرت لحظة أنى أكاد أميل إلى البقاء حيث كنت والقيام بالذكر معهم . غير أنى فكرت فيما أعرّض له إذا اكتشفوا أنى لست منهم ، فقررت الخروج من الحلقة . وأخذ الدراويش فى الذكر فكانوا يرددون اسم الله على التواتر ، ويحنون فى كل مرة رءوسهم وأجسامهم ويخطون خطوة على اليمين فتلف الحلقة كلها بسرعة . وحالما أخذوا فى الذكر ، بدأ درويش تركى من طائفة المولوية يدور حول نفسه وسط الحلقة ، وهو يعمل برجليه معاً ، ويداه ممدودتان ، ويسرع فى حركته حتى تنتشر ملابسه مثل المظلة (شكل ٨٥).وظل يدور هكذا حوالى عشر دقائق ، ثم انحنى أمام شيخه



شكل ٨٥ (درويش من طائفة المولوية)

الجالس داخل الحلقة الكبيرة ، ثم انضم إلى الدراويش، الذين كانوا قد بدأوا يذكرون اسم الله بقوة متزايدة ، ويقفزون إلى اليمين بدلا من الخطو ، دون أن يُظهر أى تعب أو ترنح . بعد ذلك قام ستة دراويش بعمل حلقة داخل الحلقة الكبيرة ، وكل منهم قد وضع ذراعه على كتفىْ جاريْه ، ثم أخذوا فى الذكر بسرعة أشد . وقد ظلوا هكذا حوالى عشر دقائق ثم جلسوا للراحة . وبعد ربع ساعة نهضوا للذكر مرة ثانية . ولم أر بعد ذلك شيئاً يستحق الذكر غير فقيرين يرقصان ، ويرددان اسم الله،ويضرب كل منهما طاراً . وقد أخبرنى أحد الواقفين بجانبى أنهما من المجاذيب .

(١) وكانت هذه الكلمات : يا أبو بكر ، يا عمر ، يا عثمان . يا على ، يا حسن ، يا حسين ، يا سيد أحمد رفاعة ، يا سيد عبد القادر الجيلانى ، يا سيد أحمد البدوى ، يا سيد ابراهيم الدسوق .

كانت رغبتي أن أزور مشهد الحسين في هـذا اليوم ، وأن أتبين ما يجرى هناك من احتفالات لهذه المناسبة ، فشققت لنفسي طريقاً وسط الحشد إلى باب المقصورة ، فما وجدت هناك غير جماعة قليلة نسبياً . وعند دخولى قادنى أحد خدم المسجد إلى ركن غير مشغول من الستر البرونزى المحيط بالمقام ، فوق المكان الذى يقال إن رأس الشهيد به ، ليمكننى أن أقرأ الفاتحة . وبعد أن انتهيت من ذلك لقننى الدعاء التالى ، وكان يتوقف بعد كل كلمتين أو ثلاث كلمات لأرددها بعده ، وقد تظاهرت بعمل ذلك ، بينما كان جارى إلى اليسار يقول عند كل وقفة : آمين. وهذا هو دعاؤه : يا رب ! اقبل زيارتى ، وحقق مطلبى ، واجعلنى أبلغ مرامى . فقد جئت عن رغبة وقصد ، وإنى أسوق إليك السيدة زينب والإمام الشافعى والسلطان أبا سعود(١) . وأضاف بعد ذلك كلاماً مماثلا بالتركية ، ظناً أننى تركى وأنى قد أكون جاهلا اللغة العربية . وكثيراً ما لقنت هذا الدعاء القصير عند قبور الأولياء بالقاهرة فى أيام الأعياد . وقبل أن أقوم بالدوران حول المقصورة المحيطة بالمقام أعطيت من لقننى الدعاء قطعة صغيرة من النقد ، فأهدى إلى بدوره أربع كرات صغيرة من الخبز ، كل منها فى حجم البندقة تقريباً . وكان من الخبز المنذور المجهز من الدقيق الناعم عند قبر السيد أحمد البدوى ، وأحضر إلى هذا المكان ، كما يحضر إلى عدة مقامات للأولياء بالقاهرة عند إقامة الأعياد العامة ، ليقـدم إلى افاضـل الزائرين . ويسمى « عيش السيد البدوى » . ويحتفظ كثير من المصريين بكرة من ذلك الخبز فى جيـوبهم حرزاً ، ويأكله الغـير دواء ناجعاً يقى من الأمراض .

تصـل قافلة الحجاج المصريين القـاهرة فى أواخر شهر صفر على العموم . ولذلك يسمى العامة هـذا الشهر « نزلة الحجاج » . ويصـل كثير من الحجاج قبل القافلة عن طريق البحـر الأحمر . وتصـل قافلة الحجاج التجـار بعـد كل هؤلاء .

ويصل « جاويش الحج » قبل القافلة بأربعة أيام أو خمسة راكباً هجيناً سريعاً

---

(١) كان أبو سعـود ولياً مشهوراً وكان يعتبر أقـدس أهل أيامه فأطلقوا عليه لقب « سلطان » الذى يطلق على أولياء كثيرين غيره . ويعنى هنا « ملك الأوليـاء » . وتقع مقبرة أبى سعود بين تلال المقطم جنوب القاهرة .

ويصحبه عربيان ، وهو يسرع ليعلن نبأ قرب « الحج »(١) واليوم المنتظر لوصولهم العاصمة ، وليحمل رسائل الحجاج إلى أصدقائهم . ويصيح الجاويش وزميلاه طول الطريق : « الصلاة على النبي ! » أو « صل على النبي ! » فيرد من يسمعه من المسلمين : « اللهم صل عليه ! » ، ويتقدمون مباشرة إلى القلعة لحمل الأخبار إلى الباشا أو نائبه . ويقسم الجاويش الرسائل إلى رزم يبيعها إلى نفر يتولون توزيعها ، فيتناولون الهدايا من المرسل إليهم ، وقد يخسر هؤلاء في هذه الصفقة . أما الرسائل الموجهة إلى العظماء والأغنياء فيحتفظ الجاويش بتوزيعها لنفسه ، فيحصل منهم على منحة نقدية أو شال الخ .

ويخرج بعض الناس إلى مقابلة أصدقائهم العائدين من الحج على مسيرة يومين أو ثلاثة ، فيحملون معهم مؤناً طازجة وفاكهة الخ ، وملابس للحجاج المتعبين . ويندر أن يذهب الفقراء إلى أبعد من بركة الحاج (على بعد أحد عشر ميلا تقريباً من العاصمة) حيث تمضي القافلة الليلة السابقة على ليلة دخولها العاصمة . وقد يذهبون إلى آخر محط للقافلة فحسب . ويأخذ هؤلاء للحجاج عادة طعاماً ، وملابس نظيفة ، إن لم تكن جديدة ، ويحضرون لهم الحمير عوضاً عن الجمال المنهكة(٢) ؛ ويخرج كثيرون لتكريم أصدقائهم بالموسيقى . ومن المؤثر أن تشاهد ، عند اقتراب القافلة ، الجماعات العديدة تخرج بالطبول والزمامير للترحيب بأصدقائهم القادمين من الأماكن المقدسة ، ولمرافقتهم إلى المدينة . وكم منهم خرج يحدوه الأمل فيعود باكياً وقد زايله البهجة والطرب . فالسفر الشاق خلال الصحراء يهلك كثيراً من الحجاج الذين يعجزون عن وسائل الراحة اللازمة . ويبلغ كثيراً من النساء اللائي يذهبن لاستقبال أزواجهن أو أولادهن أخبار محزنة بهلاكهم جوعاً وإعياء . فيملأن الجو عند أوبتهن بصراخهن النافذ الذي يعلو على صوت الطبول وألحان المزمار الحادة المعبرة عن فرح الآخرين . وكثيراً ما يدنو بعض

---

(١) ويستعمل لفظ « الحج » للجمع والمفرد معاً فيطلق على القافلة جميعاً وعلى الشخص بمفرده .

(٢) يجهل الكثير ، ممن لم يدرسوا التاريخ الطبيعي ، هذه الحقيقة الجديرة بالذكر أن الجمل يحمل زاداً يقيه الجوع علاوة على ما عرف عن تحمله العطش . فهو يستمد قوته ، عندما يحرم غذاءه المعتاد عدة أيام متوالية ، من شحم سنامه ، الذي يذوب في هذه الحالة تدريجاً قبل أن يبين هزاله بأوصاله . ويوضح بتفسير النفع الحدبة – التي قد تبدو على غير ذلك عائقاً مربكاً – قدر تهيئة الجمل بهذه الطريقة العجيبة لمثل تلك الظروف الخاصة التي قدر له أن يعيش بها . وقد ينطبق ذلك بالملاءمة نفسها على حدبة البقر وبعض الحيوانات الأخرى التي تعيش في الأجواء الجافة الحارة .

العائدين من الحجاج عند عودتهم متوسلين الدعاء لهم بالمغفرة ، فيدعون لهم . وترجع هـذه العادة إلى قول الرسول إن الله يغفر للحاج ولمن يدعو له الحاج بالمغفرة .

وإنى أكتب ما يلى من نزلة الحاج عقب مشاهدته مباشرة فى عام ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) — وصلت القافلة إلى آخر محط لها : الحصوة ، وهو موضع من الصحراء كثير الحصو ، بالقرب من ضاحية القاهرة الشمالية ، فى الليلة السابقة ، عشية الرابع من ربيع الأول ، وغادر بعض الحجاج القافلة إلى العاصمة بعد غروب الشمس . ودخلت القافلة هذا الصباح ، الرابع من الشهر . وكنت خارج الأسوار بعيد الشروق وقبل أن تقترب القافلة ، غير أنى قابلت نفراً من الحجاج لم يطيقوا الانتظار ، وقد ركبوا الحمير يتقدمهم الموسيقيون أو حاملو البيارق ، ويتبعهم نساء يغنين . وصادفت أيضاً جماعات عديدة من النساء كن خرجن يستخبرن عن أقاربهن ، وكن عائدات بالصراخ والنحيب . ويبدو بكاء أولئك أقرب إلى الطبيعة وأعمق شعوراً مما يسمع فى الجنائز . وربما كان النحيب هـذا العام أكثر منه فى العادة ، إذ أنه علاوة على كثرة الأموات ، قد جند للجيش ألف رجل . وبعد الشروق بساعتين ونصف تقريباً ، أخـذت القافلة تقترب من أبواب العاصمة فى صفوف ثلاثة ، اتجه أحدها إلى باب النصر ، والثانى إلى باب الفتوح ، والثالث إلى باب العدوى . وكانت القافلة هذا العام أكثر عدداً (مع أن كثيراً من الحجاج سافر بطريق البحر) ، وكانت تتضمن نسبة غير عادية من النساء ، بسبب تجنيد كثير من الرجال . وكانت القافلة بصفوفها الثلاثة تسير قطاراً متصلا من الجمال ، متقدمة واحداً واحداً ، وأحياناً اثنين معاً ، وقلما كان يقطع هذا النسق فى بعض مواضع . وكان كثير من الحجاج قد نزلوا عن الجمال ، استبدلوا بها الحمير المريحة سائرين إلى جانب جمالهم . وكان الكثير من هؤلاء يرافقهم موسيقيون ، ويصحب البعض حاملو البيارق .

يسمى أكثر أنواع الهوادج شيوعاً فى الحج « مسطح » أو « حمل مسطح » وهو يشبه الخيمة المربعة الصغيرة ، ويتكون على الأخص من صندوقين طويلين ، لكل منهما ظهر مرتفع . ويوضع الصندوقان فوق الجمل ، واحد فى كل ناحية ، ويسند ظهرا الصندوقين ، وموضعهما إلى الخارج ، مع قضيب صغير مستقر على عدة الجمل ، غطاء الهودج . وتتسع هذه الركوبة لشخصين . وتفتح من الأمام على العموم وقد تفتح من الخلف أيضاً . وقد تبدو وسيلة النقل تلك مريحة ،

غير أن الحركة لا تريح المسافر ، وخاصة إذا كان الجمل يستخدم عادة لنقل الأحمال الثقيلة، فيترجح فى مشيته. غير أنه يختار للهوادج على العموم جمال ذوات خطوات مريحة. وهناك نوع من السرر يسمى « شِبرية » يتكون من سطح مربع صغير وغطاء مقوس. وهو لا يتسع لأكثر من شخص واحد. وهو يوضع على ظهر الجمل مستنداً على «سحارتين» (صندوقان مربعان) على جانبى الجمل. وأكثر أنواع الهوادج راحة « التختروان » ويحمله عادة جملان، أحدهما فى المقدمة والآخر فى الخلف. وتثنى رأس الأخير بطريقة مؤلمة تحت التختروان. وقد يحمل هذا السرير أربعة بغال، فتكون حركته فى هذه الحالة هينة. ويستطيع شخصان خفيفان السفر فيه. وللتختروان على العموم مشربية بارزة صغيرة من الخشب المشبك فى الصدر والخلف ، حيث يوضع قلة ماء أو أكثر.

تقدمت إلى الميدان الذى نزلت به القافلة الليلة الماضية. وقد مر بى فى الطريق نصف القافلة تقريباً. وقد استغرقت المسافة من الضاحية إلى هذا المكان ما يزيد على نصف ساعة سيراً بطيئاً. وبعد نصف ساعة أخرى كانت القافلة جميعاً تقريباً قد غادرت المعسكر(١). وقد اهتممت كثيراً بمنظر لقاء الزوجات والإخوة والأخوات والأطفال للحجاج ، غير أننى كرهت أحد الحجاج ، كان يلبس اسمالا ، ويجلس على قطعة من سجادة قديمة، حينما قدمت زوجته أو أخته تتصبب عرقاً تحت حمل صرة ملابس كبيرة ، وقبلته بحرارة على وجنتيه ، فلم ينهض للقائها ، وألقى عليها بعض أسئلة جافة فقط. — وكان أمير الحج وضباطه وجنوده الخ. معسكرين بعيداً عن بقية القافلة. وكان بالقرب من خيمة أمير الحج رمح طويل مغروز فى الأرض ، كما كان بجانبها أيضاً « المحمَل » أو « المحمِل »(٢) قائماً بسترة السفر المصنوعة من نسيج القلاع والمدبجة ببعض النقوش.

ويجلب كثير من الحجاج هدايا من « الأرض المقدسة » : ماء بئر زمزم المقدس فى قوارير من الصينى أو قنانى من القصدير أو النحاس ، وقطعاً من « كسوة » الكعبة التى تجدد فى موسم الحج ، وتراباً من قبر الرسول على هيئة كعك جاف ، و« لباناً » ، و« ليفاً » من النخيل للاستحمام، كما نستعمل نحن

---

(١) ولو كنت وقفت مكانى لاقتضى أكثر من ساعتين قبل أن يمر بى الحجاج جميعاً.

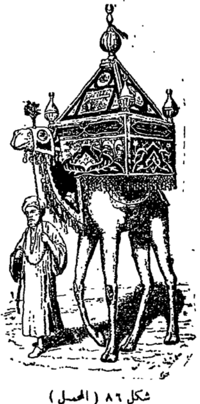
(٢) واللفظ الأخير هو الأصح ، ولكنه يسمى عادة محملا (بفتح الميم الثانية) ، واللفظ محمل (بكسر الميم الأولى وفتح الثانية) صحيح أيضاً ولكنه غير مستعمل.

الأسفنج وأمشاطاً من عود الند ، و« سبحاً » من المادة نفسها أو من غيرها ، و« مساويك » غمست فى ماء زمزم لتكون مقبولة ، وكحلا ، وشيلاناً ، الخ ، من صنع الحجاز وأشياء مختلفة من الهند .

والعادة أن يزين مدخل بيت الحاج قبل قدومه بيوم أو أكثر ، فيصبغ الباب وتطلى واجهة البيت بالمغرة والكلس على التعاقب ، أو بطريقة مشابهة ، بخطوط أفقية عريضة بالأحمر والأبيض ، إذا كانت من الآجر . وكثيراً ما يرسم أيضاً أشجار وجمال الخ . بطريقة بدائية ، بالأخضر والأسود والأحمر وألوان أخرى . وقد يكتب الحاج موصياً بعمل ذلك . ويولم الحاج لأصدقائه ، مساء قدومه « وليمة النزلة » . ويحضر كثير من الضيوف للترحيب به ، ولسؤاله الدعاء لهم بالغفران . ويمكث الحاج بمنزله أسبوعاً بعد وصوله على العموم . وفى اليوم السابع يولم وليمة أخرى تسمى « وليمة السبوع » . ويظل السمر اليوم بأكمله ، ويقام فى المساء عادة خاتمة أو حفلة ذكر .

وفى صباح اليوم التالى لدخول القافلة العاصمة ، يشاهد المرء منظراً آخر ، هو عودة المحمل . فينقل المحمل فى موكب من الحصوة إلى القلعة ، مخترقاً العاصمة . ولا ينظم هذا الموكب دائماً بالنظام نفسه تماماً . وسأصفه كما شاهدته فى هذا اليوم .

أبدأ بوصف المحمل نفسه . فهو طار مربع من الخشب ، هرمى القمة ، له ستر من الديباج الأسود ، عليه كتابة وزخارف مطرزة تطريزاً فاخراً بالذهب ، على أرضية من الحرير الأخضر أو الأحمر فى بعض الأجزاء ، ويحده هدبة حريرية ، وشراريب يعلوها كرات فضية . وزخرفة الستر لا تكون دائماً على النموذج نفسه . غير أنى لاحظت أن كل ستر رأيته يحمل فى قسمه الأعلى من الصدر منظراً لمسجد مكة مطرزاً بالذهب ، ويعلوه طغراء السلطان . والمحمل لا يحوى شيئاً ، غير أن هناك مصحفين صغيرين ، أحدهما قرطاس ملفوف ، والآخر كتاب عادى ، داخل صندوقين من الفضة المذهبة ، يعلقان



شكل ٨٦ (المحمل)

خارج المحمل فى القمة . ويبين الرسم الذى نشرته هنا هذا الوصف (شكل٨٦). وتكون الكرات الخمس وأهلتها ، التى تزين المحمل ، من الفضة المذهبة . ويحمل المحمل على جمل طويل جميل . وينعم هذا الجمل على العموم باعفائه من العمل بقية حياته .

ويحكى أن السلطان الظاهر بيبرس ، ملك مصر ، كان أول من أرسل محملا مع قافلة الحجاج إلى مكة عام ٦٧٠ هـ (١٢٧٢ م) أو ٦٧٥ ، غير أن هذه العادة ، كما يقال على العموم ، ترجع إلى بعض سنوات قبل اعتلائه العرش . فقد أدت « شجرة الدر » الحج فى هودج فاخر يحمله جمل . وظل هودجها يرسل خالياً مع القافلة عدة سنوات متوالية للأبهة فحسب . وكانت « شجرة الدر » جارية تركية حسناء ، فأصبحت الزوجة المحظية للسلطان الصالح نجم الدين ، وجعلت نفسها عند وفاة ولده ، آخر سلالة الأيوبيين ، معترفاً بها ملكة على مصر . ومن ذلك الحين أرسل ملوك مصر على التعاقب مع قافلة الحجاج سنوياً هودجاً يسمى « محملا » رمزاً للملكية . ونهج نهجهم غيرهم من الملوك(١) . وحرم الوهابيون المحمل لاعتبارهم إياه أبهة كاذبة ، وقد سوغ لهم ذلك حجز القافلة .

وقد دخل موكب عودة المحمل المدينة من باب النصر بعد شروق الشمس بساعة . وكان يتقدم المحمل فرقة كبيرة من المشاة النظاميين . ويتبعه حسب العادة رجل غريب ، مرسل الشعر ، قوى العضل ، أسمر اللون ، يسمى « شيخ الجمل » ويكاد يكون عارياً تماماً ، لا يستره غير سروال رث ، وكان يركب جملا ، ولا ينفك عن تدوير رأسه . وقد تبع هذا الشيخ المحمل ، وصحب القافلة فى رحلتها إلى مكة ومنها ، عدة سنوات متوالية . ويزعم الناس أنه لا ينقطع عن تدوير رأسه مدة السفر كلها . وتقدم له الحكومة جملين ومؤن السفر. وكان هناك منذ سنوات قليلة عجوز تعودت أيضاً اقتفاء المحمل ، سافرة ، لا يسترها غير قميص . وكانت تسمى « أم القطط » ، إذ كانت تصحب دائماً خمسة قطط أو ستة بجانبها على الجمل. — وكان يتبع ذلك نفر من الفرسان الترك ، ثم عشرون

---

(١) أورد كثير من السياح بيانات مخطئة عن المحمل . فقد زعم البعض أن غطاء المحمل يعد لقبر الرسول ، ويدعى آخرون أن المحمل يحوى الستر الذى يخصص لتعليقه حول الكعبة . ويصفه بركهارت بدقته العادية أنه رمز الملكية .

جملا تقريباً ، عليها أسرجة محشوة ومزخرفة ومغطاة بالجوخ الأحمر والأخضر غالباً . وكان السرج مزيناً بأعلام صغيرة تنحرف من المقدمة إلى الأمام ، وبريشة نعام صغيرة مثبتة بعصا قائمة على الجزء المتقدم . وتجهز بعض الأسرجة بجرسين كبيرين يعلقان على الناحيتين . وكان الغطاء مزخرفاً بالصدف الصغير على الأخص. وقد لاحظت على ما أظن أن تلك الجمال كانت مخضبة بالحناء تخضيباً حقيقاً ، كما تخضب فى مناسبات مشابهة أخرى . وكان يتبع الجمال جماعة من الفرسان البدو . وبهم ختم الموكب .

ولما كنت قد أخبرت خطأ بموعد دخول المحمل ، فقد وجدت نفسى ، عند وصولى إلى طريق المدينة الرئيسى ، وسط الموكب وقد فاتنى المحمل . فاكتريت حماراً ، واجتهدت فى اللحاق بالمحمل ، غير أنه صعب على أن أتقدم . فأسرعت بالانتفاع بسلوك بعض الأزقة إلى طريق الموكب ثانياً . فتبين لى أننى لم أتقدم كثيراً ، فترجلت . وقد لحته أخيراً بعد أن سرت تارة وجريت تارة أخرى ، منسلا بين خيول البدو حوالى نصف ساعة . وسرعان ما لحقت به ، بعد لأى ، وسط زحم كثير ، قبل أن يدخل ميدان الرميلة الواسع ، أمام القلعة ، بربع ساعة تقريباً . وبعد أن لمسته ثلاثاً ، وقبلت يدى ، أمسكت بالهدبة ، وسرت بجانبه . ورآنى حارس المحمل المقدس ، الذى كان يسير خلفه ، فحملنى على النطق بدعاء صالح ، لعله كان المانع من تنحيتى عنه ، ويحتمل أن يكون قد تأثر بمظهرى ، إذ أنه كان يسمح للآخرين بالاقتراب من المحمل ولمسه واحداً واحداً ، ثم يدفعهم إلى الخلف . وظللت سائراً بجانب المحمل ممسكاً بستره إلى ما يقرب من مدخل الرميلة . وقد أخبرت أحد أصدقائى المسلمين بما فعلت ، فدهش دهشة كبيرة ، وقال إنه لم يسمع بأحد قام بذلك من قبل ، وإن الرسول لا شك قد حبانى بحبه ، وإلا لم قدر لى ذلك . وأضاف إلى قوله أننى قد حصلت على بركة لا تقدر ، وأن من الحكمة ألا أخبر أحداً من أصدقائى المسلمين الآخرين بهذا الحادث لئلا أثير حسدهم وسخطهم. ولا أستطيع أن أعلل تقديس المحمل إلى هذا الحد . ويبدى كثيرون شوقاً شديداً إلى لمسه . وكانت الشوارع التى يمر بها المحمل مزدحمة ازدحاماً كثيفاً وكانت الحوانيت مقفلة ، والمصاطب مشغولة بالنظار . ووصل المحمل إلى الرميلة بعد ساعة ونصف تقريباً من دخوله العاصمة . وقد عبر هذا الميدان الفسيح إلى أول الفضاء المسمى « قراميدان » ، ثم أخذ يدخل بينما كانت مدافع القلعة تحييه بنيرانها . ثم عاد إلى الرميلة ، واجتازها إلى باب القلعة الشمالى المسمى باب الوزير .

وهناك عادة غريبة يسمح بممارستها بمناسبة موكبي المحمل والكسوة . وسأصف فيما بعد الموكب الأخير وكذلك سفر المحمل إلى مكة ، وهو أكثر فخامة . يطوف جماعة من الأولاد شوارع القاهرة ، وقد تسلح كل منهم بقطعة قصيرة من رءوس السعف الغليظ ، تشق شقين أو ثلاثة من طرفها الأكبر إلى نصف طولها، وتسمى « مقرعة » . فاذا دنوا من مسيحي أو يهودي طلبوا منه أن يمنحهم خمس فضة أو ستاً قائلين : « هات العادة » . فاذا رفض انهالوا عليه بمقارعهم . وفي العام الماضي ضرب بعض أولاد أفرنجياً ، جرياً على هذه العادة ، فلجأ إلى وكالة كبيرة ، غير أن بعض الأولاد تبعوه، وضربوه مرة ثانية . فاشتكى إلى الباشا الذي أمر بتوقيع الجلد على شيخ الوكالة لعدم حمايته إياه .

في غرة ربيع الأول تعد العدة للاحتفال بمولد النبي . ويقع أهم مشهد لهذا العيد في القسم الجنوبي الغربي من الفضاء الواسع المسمى بركة الأزبكية ، الذي يصبح أغلبه بحيرة مدة الفيضان . وقد ظل الحال كذلك عدة سنوات ، وقت الاحتفال بمولد الرسول ، فيقام حينئذ على حافة البحيرة . أما الآن فهو يقام في مجرى البحيرة الجاف(١) . وفي هذا القسم المذكور تضرب خيم كبيرة ، تسمى الواحدة منها « صيواناً » فيجتمع الدراويش للذكر في أغلبها ، كل ليلة ، طول الاحتفال . ويرفع وسط هذه الخيم « صاري » يشد بحبال شداً متيناً ، ويعلق بين اثنا عشر قنديلا أو أكثر. ويقوم بالذكر حول «الصاري» خمسون من الدراويش أو ستون تقريباً في حلقة . ويقام بالقرب من المكان نفسه « قائم » يتكون من أربع صواري ترفع صفاً ، تبعد بعض ياردات على جانب ، ويمتد منها ، من صارية إلى أخرى ، وإلى الأرض ، حبال عديدة يعلق بها قناديل كثيرة ، على هيئة زهور ، وأسود ، الخ . أحياناً ، وكلمات ، مثل أسماء الله ومحمد والشهادة الخ . أحياناً أخرى . وقد تعد بطريقة زخرفية تصويرية فقط . ويتم إعداد الاحتفال على العموم في اليوم الثاني من الشهر ، وفي اليوم التالي تبدأ الأفراح والاحتفالات . وتستمر ليلا ونهاراً ، إلى الليلة الثانية عشر من الشهر ،

---

(١) وقد ردمت هذه البحيرة وزرعت حديقة منذ كتابة هذا ، وأصبح القسم الذي في الجانب الغربي من الفضاء الذي كانت تشغله البحيرة مكان الاحتفال الرئيسي الآن .

وهى حسب التقويم الإسلامى ، الليلة السابقة لليوم الثانى عشر من الشهر . وتلك الليلة هى ليلة المولد(١) . ويحتشد كثير من سكان العاصمة فى الأزبكية مدة الأيام التسعة ولياليها تلك — وإنى أكتب هذا الوصف أثناء المولد ، وسأصف مولد هذا العام (١٢٥٠ هـ — ١٨٣٤ م) ذاكراً بعض الخواص التى يختلف بها عن مولد السنين السابقة .

يتسلى المجتمعون فى المكان الرئيسى للاحتفال ، أثناء النهار ، بالاستماع إلى الشعراء وبمشاهدة المشعوذين والهزليين الخ . وقد خلا الحفل الآن من الغوازى ، إذ أجبرن أخيراً على التوبة واعتزال حرفة الرقص . وكان أولئك الفتيات يعتبرن من أكثر اللاعبين فتنة . وتنصب فى بعض الجوانب من الشوارع المجاورة أراجيح وألعاب أخرى ، وعدة دكاكين لبيع الحلويات ، الخ . ويقوم الراقصون على الحبل أحياناً باللعب فى هذا الاحتفال ، وهم من الغجر ، ولكن لا يوجد أحد منهم هذا العام . وتضاء الشوارع المذكورة سابقاً بالقناديل العديدة ليلا . وتفتح الدكاكين الزاخرة بالمأكولات ، والحلوى خاصة ، طول الليل تقريباً ، وكذلك المقاهى أيضاً . وفى بعض هذه المقاهى وفى غيرها من الأماكن يسلى الشعراء أو المحدثون جمهور الواقفين للاستماع إلى رواياتهم . وتمر مواكب الدراويش كل ليلة خلال هذا القسم ، بعد منتصف الليل بساعة أو أكثر . ويستبدل الدراويش بالأعلام التى يحملونها نهاراً عصياً طويلة يشد إلى أعلاها مصابيح عديدة ، تسمى « مناور » . ويسمى موكب الجماعة من الدراويش ، سواء كانوا يحملون الأعلام نهاراً ، أو المناور ليلا ، موكب « إشارة » الطائفة ، أى « البيرق » أو ، بالحرى ، يطلق لفظ إشارة على الموكب نفسه . وأغلب هؤلاء الدراويش من الطبقة الدنيا ، وليس لهم ملابس مميزة . وسوادهم يلبسون عمامة عادية ، وبعضهم طربوشاً فقط ، أو لبدة . وأكثرهم يلبس القميص العادى من الكتان أو القطن الأزرق ، أو الصوف الأسمر ، الذى يلبسونه فى مناسبات أخرى فى أعمالهم اليومية أو فى حوانيتهم .

ويشتد الإقبال على الاحتفال فى الليلتين الأخيرتين عنه فى الليالى السابقة ، وتزداد المباهج . وسأصف ما شاهدته فى أولى الليلتين :

---

(١) واليوم الثانى عشر من ربيع الأول هو يوم وفاة الرسول أيضاً . ومن الغريب أن يقال عن مولد الرسول ووفاته أنهما حدثا فى اليوم نفسه من الشهر نفسه ، وفى اليوم نفسه من الأسبوع ، أى الإثنين .

كان القمر ، فى الليلة الحادية عشرة مرتفعاً يبهج مناظر العيد . وكنت فى طريقى إلى شارع سوق البكرى ، جنوبى بركة الأزبكية ، لأشاهد ذكراً ، قيل إنه أحسن ذكر يقام . وكانت الشوارع التى مررت بها مزدحمة ، وكان يرخص للمارة ، بهذه المناسبة ، بالتجول بلا فوانيس . ولم أكن أرى امرأة إلا نادراً ، كما هو الحال عادة ليلا . وكان بميدان الذكر بسوق البكرى ، وكان أكثر الأماكن ازدحاماً ، « نجفة » كبيرة معلقة ، تتكون من مائتى قنديل أو ثلاثمائة تقريباً . وكان حولها عدة مصابيح خشبية يتدلى أسفل كل منها عدة قناديل . ولم تكن هذه الأنوار معلقة لتكريم الرسول فحسب ، فقد كانت هذه الليلة مولد الشيخ درويش العشماوى ، الذى دفن « بزاوية » (أى مسجد صغير) بالقرب من هذا المكان . ويقام هنا كل ليلة جمعة (وتوافق ما نسميه مساء الخميس) ذكر لا يبلغ مبلغ ما أقيم للمناسبة الحالية . وقد شاهدت كثيراً من المسيحيين معتمين بالأسود ، ولما كنت لم أر أحداً فى مكان آخر هذه الليلة إلا نادراً ، وسمعت هذا القول : « ملحة فى عين اللى ما يصلى على النبى » الذى يصيح به بائعو الحلوى وغيرهم ، والذى يبين ، حسب الظاهر ، أن المسيحيين واليهود كانوا على الأقل معرضين للإهانة ، فى وقت بلغ فيه الحماس الدينى حداً غير عادى ، استفهمت عن سبب تجمع كثير من الأقباط فى ميدان الذكر ، فأخبرت أن أحد الأقباط ، وكان قد أسلم ، يتبرع بتكاليف مولد الشيخ الدرويش كلها . وكان هذا الشيخ يجله الناس . وكان مختل العقل ، أو كان يدعى الجنون ، فكثيراً ما كان يتناول الخبز والمأكولات ويدوسها ، أو يقذف بها فى القذر ، ويقوم بأعمال أخرى يحرمها الدين تحريماً مباشراً . ومع ذلك فقد اعتبر ولياً فاضلا . وتعتبر مثل هذه الأعمال ، كما لاحظت فى مناسبة سابقة ، نتيجة انشغال الروح بالعبادة . وقد توفى الشيخ درويش منذ ثمانى سنوات .

وجلس ثلاثون من الدراويش الأحمدية تقريباً ، متربعين على حصر ممتدة بجانب المنازل على ناحية واحدة من الشارع ، فى حلقة بيضاوية وكانوا جميعاً من طبقة دنيا ، يرتدون ملابس رثة وعمائم خضراء . وكان وسط الحلقة ثلاث شمعات كبيرة ، ارتفاعها أربع أقدام ، وضعت فى شمعدان قصير . وجلس بأحد طرفى الحلقة أربعة منشدين ، وعازف على الناى . وحصلت على مقعد صغير من الجريد من مقهى قريب ، وجلست مع المنشدين بعد مزاحمة الحشد ، وبمساعدة خادمى ، لأستمع إلى « مجلس ذكر » . وسأحاول أن أصفه وصفاً تاماً ، لأبين

أكثر أنواع الذكر شيوعاً وأكثرها قبولا فى القاهرة . وقد بدأ الذكر فى الساعة الثالثة تقريباً (أى بعد ثلاث ساعات من الغروب) ، واستمر ساعتين .

بدأ القائمون بالذكر بقراءة الفاتحة معاً ، بعد أن صاح شيخهم أولا : الفاتحة. ثم أنشدوا الكلمات التالية : « اللهم صل على سيدنا محمد فى الأولين ، وصل على سيدنا محمد فى الآخرين ، وصل على سيدنا محمد فى كل وقت وحين ، وصل على سيدنا محمد فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين . وصل على جميع الأنبياء والمرسلين من أهل السموات والأرض . ورضى الله تبارك وتعالى عن سادتنا أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وعن جميع أصفياء الله الآخرين . حسبنا الله ، ونعم الوكيل . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اللهم يا ربنا ، يا واسع المغفرة ، يا أرحم الراحمين . اللهم آمين » . ثم صمتوا لحظة ، وعادوا ثانياً إلى قراءة الفاتحة بسكون . ويتقدم عادة جميع طوائف الدراويش بمصر تقريباً « باستفتاح الذكر » هذا .

وبعد هذه المقدمة أخذوا فى الذكر . فأنشدوا وهم جلوس بالطريقة السابق ذكرها ، ببطء : « لا إله إلا الله » . باللحن التالى :



منحنين ، رأساً وجسداً ، مرتين كلما ردردا قولهم السابق . وظلوا هكذا ربع ساعة تقريباً . ثم أعادوا الكلام نفسه بالنغمة نفسها ، فى مدة مساوية ، ولكن على قياس أسرع . وأنشد المنشدون مرات أثناء ذلك ، أجزاء من قصيدة ، أو من موشح ، على النغم نفسه ، أو على تغاير منه . والقصيدة تماثل نشيد الأناشيد ، وتشير على العموم إلى الرسول مقصوداً بالحب والمديح .

سأورد هنا ترجمة لموشح من تلك الموشحات العديدة كنموذج للأسلوب الذى ترد به فى كتاب يضم الكثير منها . وقد اشتريت هذا الكتاب ، أثناء المولد

الحالى ، من درويش اعتاد أن يرأس الكثير من مجالس الذكر . وقد لفت الأخير نظرى إلى الموشح التالى على اعتبار أنه أكثر الموشحات شيوعاً فى الذكر ، وواحد مما ينشد حالياً . وإنى أترجم هذا الموشح بيتاً بيتاً ، ملتزماً بالوزن والقافية الواردين فى الأصل ، مع اختلاف واحد فى أن السطور ، الأول والثالث والخامس فى كل مقطع تتفق قافيتها فى الأصل ، الأمر الذى لا يوجد فى ترجمتى(١).

بالحب انشغل قلبى   وجفنى جفاه النوم
قواى أصابها الهزال   وأنا أبكى بدمع فياض
وصيلى يبدو قصياً   أيلتى أبداً هواى عينى
واحسرتاه ! لولا الغربة   تستدر دموعى لما تنهدت

فى ليالىّ الحزينة أنا ضائع   البعد يبدد أملى
دموعى كالدر تنحدر   وقلبى تطوقه النار
من يكون فى مثل حالى   وأنا أكاد أعرف الدواء
واحسرتاه! لولا الغربة   تستدر دموعى لما تنهدت

يا يمام ! أخبرنى   لماذا تنتحب هكذا ؟
أيوخزك أيضاً البعد   ومن جناحيك حرمت وأسرت
قال : إن بليتنا مماثلة   وبقيت من الهوى ذاوياً
واحسرتاه ! لولا الغربة   تستدر دموعى لما تنهدت

يا أول والسرمدى الأوحد   منّ علىّ بفضلك
على عبدك أحمد البكرى(٢)   فلا إله إلا أنت
وطه النبى العظيم   ألاّ تخيب رجاءه
واحسرتاه ! لولا الغربة   تستدر دموعى لما تنهدت

ويجب علىّ أن أقدم المزيد من الترجمة لأوضح التشابه القائم بين هذه الموشحات ونشيد الأناشيد . وخشية الظن أننى قمت بتغيير العبارة ، فلن أقدم على وضعها فى أسلوب منظوم . وتتضمن مجموعة القصائد نفسها التى تنشد فى الذكر واحدة تبدأ هكذا :

---

(١) لن يجد القارىء هنا النص الأصلى لعجزى عن الحصول عليه . (المترجم)
(٢) مؤلف القصيدة . ويضع المنشد أحياناً اسمه بدلا من اسم المؤلف .

يا غــزال بين غــزلان اليمن
أنا عبــــدك بــــلا ثمن
أنت يا دون البلوغ يا غض الإهاب
أنت يا من كدت تفوت سن الرضاع

وعندما نقارن أول بيت من هذه الأبيات بالآية الأخيرة من نشيد الأناشيد نجد مشابهة تامة . فنجــد التوراة تســتخدم لفظ (الظبي) فيما يرد هنا بلفظ (الغزال) ، ونجد جبال اليمن يقابلها فى التوراة (جبال الأطياب) . — وتنتهى الأنشودة كما يأتى :

زارنى طيفك فى منــامى — فقلت يا طيف المنام من أرسلك ؟
قال : أرسلنى من تعرف — مَن هواه يشغلك
زارنى حبيب قلبى فى ظلمة الليل — فوقفت إجلالا حتى يجلس .
قلت أنت يا مطلبى وكل مناى — هل قدمت فى منتصف الليل ولم تخش الحارس
قال لى ، خشيت ولكن ، مع ذلك — حبى نزع منى روحى ونفسى

ولنقارن ما سبق بالآيات الثانيــة إلى السابعـة من الاصحاح الخامس من نشيد الأناشيد(١) .

ولما كانت الأغانى من هــذا النوع كثيرة وتكاد تكون الوحيــدة التى تنشد فى حفلات الذكر ، ولما كانت تنظم لهذا الغرض ، ولا يقصــد بها إلا المعنى الروحى (وإن كان العوام لا ريب لا يفهمونها بمثــل هــذا المعنى(٢) ، فلا أستطيع أن أشك فى المعنى المقصود من نشيد الأناشيد .

لم أقم باختيــار النماذج التى قدمتها حالا عن أغانى العشق الدينى بالتفضيل على غيرها على اعتبار أنها تطابق نشيد الأناشيد ، ولكن لأنها شائعة فى حفلات

---

(١) أنا نائمة وقلبى مستيقظ . صــوت حبيبى قارعاً . افتحى لى يا أختى يا حبيبتى يا حمامتى يا كاملتى لأن رأسى امتلأ من الطل وقصصى من ندى الليل — وقد خلعت ثوبى فكيف ألبسه . وقد غسلت رجلى فكيف أوسخهما — حبيبى مد يده من الكوة فأنت عليه أحشائى — قت لأفتح لحبيبى ويدان تقطران مراً وأصابعى مرٌ قاطر على مقبض القفل . فتحت لحبيبى لكن حبيبى تحول وعبر . نفسى خرجت عندما أدبر . طلبته فما وجدته دعوته فما أجابنى . وجدنى الحرس الطائف فى المدينة . ضربونى جرجونى . حفظة الأســوار رفعوا ازارى عنى .

(٢) ودليل ذلك أنى وجدت ، منذ كتابة ما سبق ، جزءاً من إحدى تلك القصائد مدرجاً ، بتحريف قليل ، فى قسم من ألف ليلة وليلة ، . طبعة كلكتا جزء أول ص ٢٤٥ ، باعتباره أغنية حب دارجة .

الذكر . وقدمت أولى الأنشودتين على اعتبار أنها كانت تنشد في الذكر الذى أخذت فى وصفه . ويجب أن أستأنف الآن وصف هذا الذكر .

وفى فترات متكررة (كما هى العادة فى حفلات الذكر) يصيح أحد المنشدين مغنياً : مدد ، مفخماً كل مقطع . ويعنى لفظ « مدد » هنا ، عوناً روحياً أو خارقاً للعادة ، ويتضمن استدعاء مثل هذا العون .

وبعد أن قام الذاكرون بما سبق وصفه، ردّدوا الكلام نفسه على نغم مختلف فى مدة مماثلة ، ببطء شديد أولا ، ثم بسرعة . وكان اللحن كما يلى :



ثم يرددون تلك الكلمات ثانياً باللحن التالى على الطريقة نفسها



ونهضوا بعد ذلك واقفين بالنظام الذى جلسوا به ، ورددوا الكلام نفسه بنغم آخر . وكان قد انضم إليهم ، أثناء ذلك ، عبد أسود حسن الملبس ، دفعتنى هيئته إلى السؤال عن شخصه . فأخبرت أنه أحد أغوات الباشا . وردد الذاكرون بعد ذلك ، وهم لا يزالون واقفين ، الكلام نفسه فى صوت عميق أجش ، مشددين الصوت عند لفظة « لا » ، وما قبل المقطع الأخير من الكلام اللاحق ، وينطقونه ، حسب الظاهر ، بجهد عظيم . والصوت كثير الشبه بصوت الدف يضرب على حافته . ودوّر كل من الذاكرين رأسه يميناً وشمالا على التعاقب عند قوله : لا إله إلا الله . وأصبح الأغا المذكور آنفاً ، فى هذا الوقت من الذكر ، ما يسمونه « ملبوساً » . فأخذ يلقى بذراعيه ، وينظر إلى أعلى متجهم الوجه ، وصاح بصوت مرتفع ، وبحدة وسرعة فائقتين : الله ! الله ... لا لا لا ... لاه ! يا عمى ، يا عمى ! يا عمى عشماوى ! يا عشماوى ! يا عشماوى ! يا عشماوى ! وأخذ صوته يضعف تدريجاً ، ثم سقط على الأرض ،

مع أن أحد الدراويش كان خلفه يسنده ، وكان فمه مزبداً ، وعيناه مقفلتين ، وأطرافه متشنجة . كان ذلك نوبة صرع ، وما كان أحد يستطيع أن يدرك ذلك ويعتقد أنه نتيجة انفعال متصنع ، ولا جدال أنه كان نتيجة لحالة هياج ديني شديد . ولم يدهش أحد لذلك ، فمثل تلك الحوادث شائعة أثناء الذكر . وبدأ الذاكرون أكثر هياجاً ، مرددين كلامهم بسرعة متزايدة ، ومديرين رؤوسهم بعنف ، ومحنين أجسامهم جميعاً فى الوقت نفسه ، وكان بعضهم يقفز . وعاد الأغا إلى حالته الأولى عدة مرات . وقد لاحظت أن نوباته تحدث بعد إنشاد أحد المنشدين بيتاً أو بيتين ، واجتهاده النادر فى إثارة سامعيه . وحقاً كان الغناء حسب ذوق حسناً جداً . وقبيل انتهاء الذكر بدا أيضاً جندى خاص كان حاضراً من أول الذكر ، ملبوساً أكثر من مرة ، فكان يهمهم بطريقة مخيفة ، ويهز رأسه من جانب إلى آخر بعنف . وكان التباين الظاهر بين جهد الذاكرين الشاق فى ختام الذكر ووقارهم وخشوعهم عند بدءه عجيباً بصفة خاصة. وكانت النقود تجمع أثناء الذكر لأجل المنشدين(١) . أما الذاكرون فلا يدفع لهم شىء .

ومرت « إشارة » أثناء « مجلس الذكر » السابق وصفه . واستمر الذكر طول الليل ، إلى آذان الفجر . وما كان الذاكرون يستريحون إلا بين مجلسين ، فيتناولون القهوة جميعاً ، ويدخن بعضهم .

وكان الليل قد انتصف قبل أن أعود من هذا المكان إلى بركة الأزبكية . وهنا ، كان ضوء القمر والمصابيح تحدث معاً أثراً غريباً . ومع ذلك كان كثير من مصابيح « القائم » و « الصارى » والخيم قد أطفىء . وكان كثير من الناس مستلقين على الأرض نياماً . وكان ذكر الدراويش حول الصارى قد انتهى . وسأصفه بعد مشاهدتى إياه فى الليلة التالية . وبعد أن شاهدت عدة حلقات ذكر عدت إلى منزلى للنوم .

وفى اليوم التالى ، وهو السابق مباشرة لما يسمى ليلة المولد ، ذهبت ثانياً إلى الأزبكية قبل الظهر بساعة . ولم يكن هناك كثير من الناس فى ذلك الوقت ، ولا مباهج كثيرة لتسلية المجتمعين . ولم أر غير إثنين أو ثلاثة من المشعوذين والمهرجين والشعراء ، وقد جمع كل منهم حوله حلقة صغيرة من المشاهدين . غير

---

(١) وقد أعطى قليل من الحاضرين ما يربو على عشرة فضة ، أما الفقراء فلم يعطوا شيئاً ، ولم يطلب منهم بالفعل شىء .

ان الازدحام اشتد تدريجاً ، فقد كان هناك منظر عجيب على وشك أن يظهر ، وهو مشهد يجذب هذا اليوم من كل عام جمهوراً من المشاهدين المتحيرين . وهو يسمى « الدوسة » . وسأصفه الآن :

قصد شيخ الدراويش السعدية ، السيد محمد المنزلاوى ، خطيب مسجد الحسنين إلى ذلك المسجد ، هذا اليوم (يوم الجمعة) ، ليقوم بواجبه المعتاد ، بعد أن قضى جزءاً من الليلة السابقة فى عزلة مردداً بعض الصلوات والأدعية الخفية ، كما يقولون . وبعد أن أدى صلاة الجمعة والخطبة ، ركب من هناك إلى منزل الشيخ البكرى الذى يرأس جميع طوائف الصوفية بمصر . ويقع هذا المنزل فى الناحية الجنوبية من بركة الأزبكية ، تالياً للمنزل القائم بالزاوية الجنوبية الغربية . وفى طريقه من المسجد ، لحق به عدة طوائف من الدراويش السعدية من أقسام مختلفة من العاصمة ، وكان لكل قسم رايتان . وشيخ السعدية كهل ، أشهب اللحية ، وسيم المحيا ، جميل الهيئة ، أبيض الوجه . وكان يلبس ، هذا اليوم ، بنشاً وقاووقاً أبيضين ، وعمامة من الموصلى الزيتى اللون القريب من الأسود ، تعبر مقدمها منحرفة قطعة من الموصلى الأبيض . وكان يركب جواداً متوسط الارتفاع والوزن . وإنى أذكر ذلك لسبب يتبينه القارىء الآن . ودخل الشيخ بركة الأزبكية يتقدمه موكب عظيم من الدراويش وأتباعه .



شكل ٨٧ (الدوسة)

وفى طريقه من هذا الميدان ، وقف الموكب على مسافة قصيرة من منزل الشيخ البكرى ، حيث انبطح عدد كبير من الدراويش وغيرهم . (وإنى أؤكد أنهم

كانوا يزيدون على الستين ، غير أنى لم أستطع إحصاء عددهم(١))انبطحوا جنباً إلى جنب متلاصقين بقدر الإمكان وأرجلهم ممدودة وأذرعهم تحت جباههم (شكل ٨٧) وكانوا يهمسون على الدوام باسم الله . ثم جرى إثنا عشر درويشاً تقريباً ، حفاة أغلبهم ، على ظهور رفقائهم المستلقين ، وكان بعضهم يضرب « الباز » ، ويصيحون الله ! ثم دنا الشيخ ، فتردد حصانه ، دقائق عديدة ، قبل أن يدوس ظهر أول الساجدين ، ولكنه خطا أخيراً ، بالدفع والحث من الخلف ، ثم مشى بدون خوف ظاهر ، بخطوة عالية ، على ظهورهم جميعاً ، يقوده شخصان . وكان أحدهما يطأ الساجدين فوق أرجلهم أحياناً ، والآخر فوق رؤوسهم . وهتف المشاهدون فى الحال بصوت ممدود : الله ! ولم يظهر على أحد ممن داسهم الحصان أنه أصيب بسوء ، بل وثب كل منهم واقفاً بعدما مر الحصان عليه وتبع الشيخ . ويقال إن هؤلاء والشيخ أيضاً ، يستعملون بعض كلمات(٢) (أى يرددون صلوات وأدعية) فى اليوم السابق ، ليمكنهم احتمال خطى الحصان دون ضرر ، وإن بعضاً لم يهيأوا كالسابقين ، اجترأوا على الانبطاح ليمر الحصان عليهم ، فلقوا حتفهم ، أو أصيبوا بضرر بالغ ، فى أكثر من مناسبة . ويعتبر هذا العمل كرامة أحدثتها قوة غير طبيعية منحت كل شيخ من شيوخ السعدية المتتابعين(٣). ويزعم البعض أن الحصان لاينعل لهذه المناسبة، غير أنى استطعت ، على ما أظن ، ملاحظة أن هذا لم يكن الحال . ويقولون أيضاً إن الحيوان درب لهذا الغرض . ولكن إذا كان الأمر كذلك، أعتبر هذا بالنسبة لأقل الوقائع إدهاشاً فحسب ، أعنى واقعة دوس الحصان الآدميين وهو عمل ينفر منه الحيوان بشدة كما هو معروف . وقد رفض شيخ السعدية الحالى عمل الدوسة ، عدة سنوات . وبعد توسل شديد حُمل على تفويض القيام بها إلى شيخ آخر نجح فى أدائها وكان ضريراً . ولكنه سريعاً ما توفى بعد . فاستجاب شيخ السعدية إلى التماس دراويشه وأصبح منذ ذلك الوقت يقوم بعمل الدوسة بنفسه دائماً(٤) .

وبعد أن قام الشيخ بهذا العمل الفذ ، بدون أدنى مظهر لأى حادث شاق ، ركب إلى صديقه الشيخ البكرى ، ودخل المنزل يصحبه بعض الدراويش .

(١) أعتقد أنه كان هناك ضعف هذا العدد. وأظن إننى أستطيع القول دون خطأ إننى رأيت الضعف فى مناسبة لاحقة ، عند الاحتفال بالمعراج ، الذى سأصفه فيما بعد .

(٢) « يستعملوا أسما » .

(٣) ويقال إن شيخ السعدية الثانى (التالى مباشرة لمؤسس الطائفة) كان يركب الحصان فوق حشد من الزجاجات دون أن يكسر إحداها .

(٤) أعتقد أن عمل الدوسة قد زال اليوم تماماً . (المترجم)

وقدمت نفسى عند الباب ، فأدخلنى خادم ، وانضممت إلى المجلس بالداخل . وجلس الشيخ ، بعد أن ترجل ، على سجادة فرشت على البلاط تجاه حائط التختبوش . وجلس مقوس الظهر ، كئيب الهيئة ، دامع العين ، لاينقطع عن الهمهمة . ووقفت بالقرب منه تقريباً . وقد جلس معه ثمانية آخرون . ووقف الدراويش الذين دخلوا مع الشيخ ، وكانوا عشرين تقريباً ، فى نصف دائرة أمامه ، فوق حصر فرشت لهم ، وكان يحيط بهم ما يقرب من خمسين شخصاً أو ستين آخرين . وتقدم ستة من الدراويش نحو الشيخ ، على ياردتين من نصف الدائرة ، وبدأوا يذكرون . وكانوا يصيحون معاً : « الله حى ! » ، ويضرب كل منهم ، عند كل صيحة ، بسير جلدى ، بازاً يمسكونه باليسرى من نتوء فى قاعدته . ودام ذلك بضع دقائق . واندفع حينئذ عبد أسود ، كان قد أصبح « ملبوساً » ، وسط الدراويش ، محركاً ذراعيه حوله ، وصائحاً: « الله لا لا لا لا لاه ! » وأمسك به شخص ، وسرعان ما بدا أنه استفاق . ثم قام الدراويش بالذكر مرة ثانية ، وهم واقفون كما سبق . وكان بعضهم يصيح بالتناوب : « الله حى ! » ، والآخرون : « يا حى ! » ، وينحنون جميعاً ، فى كل مرة ، يميناً وشمالا على التعاقب ، وظلوا كذلك عشر دقائق تقريباً . ثم صاحوا : « دايم ! » ، و « يا دايم ! » ، على النسق نفسه من الزمن والطريقة والحركة . وتملكنى شعور جامح يدفعنى إلى محاولة القيام بالذكر مثلهم دون أن يتبين أمرى . فانضممت إلى الجماعة ، وقد نجحت فى ذلك إلى حد لا يثير الشبهة ، غير أنى أحدثت لنفسى آلاماً متعبة . — وبعد الذكر السابق وصفه ، أخذ شخص يرتل ما تيسر من القرآن ، غير أن الذكر لم يلبث أن أعيد ، واستمر حوالى ربع ساعة . وبعد ذلك قبل أغلب الدراويش الحاضرين يد الشيخ ، فانسحب إلى غرفة علوية .

جرت عادة بعض الدراويش بهذه المناسبة ، بعد الدوسة ، أن يظهروا براعتهم المشهورة فى أكل الثعابين الحية ، أمام نخبة من القوم ، فى منزل الشيخ البكرى . غير أن شيخهم الحالى وضع أخيراً حداً لهذه العادة فى العاصمة ، معلناً حقاً أنها كريهة ومخالفة لأحكام الدين الذى يحرم أكل الثعابين ، ولم يكن أكل السعدية للثعابين والعقارب قليل الحدوث أثناء زيارتى السابقة لمصر . وكانوا ينزعون من الثعابين نابها السام ، أو يجعلونها غير مؤذية بثقب شفتيها ، وربطهما معاً فى كل جانب بخيط حريرى ، لمنع لدغها . وقد كان أحياناً لتلك الثعابين التى تحمل فى المواكب حلقتان من الفضة بدلا من الخيطين الحريرين . وكلما أكل

درويش سعدى ثعباناً حياً ، كان يحركه إلى ذلك نوع من الجنـون ، أو كان يتظاهر بذلك . كان يضغط بشدة بطرف سبابته على ظهر الثعبان ، ويمسك به على بعد بوصتين من رأسـه . وكان كل ما يأكل من الثعبان ، الرأس وما بينـه وبين موضع الضغط ، وقد جعل منه ثلاث لقمات أو أربعاً ، ثم يقذف بالباقى . غير أن الثعابين لا تؤكل دائماً بدون جزاء حتى من السعدية . فقـد حدث منـذ سنوات أن درويشاً من هذه الطائفة ، وكان يسمى « الفيـل » لضخامة بنيته ، وقوة عضله ، وشـدة عزمه ، وكان أشهر آكلى الثعابين فى عصره ، وفى أى عصر تقريباً ، رغب فى تربية ثعبان من نوع شديد كان ولده قد أحضره ضمن ثعابين أخرى جمعهـا من الصحراء ، فوضعه فى سلة ، واحتفظ به عـدة أيام بدون غذاء ، ليضعفه . وبعد ذلك وضع يده فى السلة ليخرجه ، وليقتلع نابه ، ولـكن الثعبان لدغـه فى الحال . فصرخ مستنجـداً ، ولـكن لم يـكن فى المنزل أحـد غير النساء اللائى خفن القـدوم إليـه ، فانقضت عدة دقائق قبـل أن يسعف . وقد وجـد حينئذ منتفخ الذراع أسوده ، ومات بعـد ساعات قليلة .

ولم يقم احتفال آخر يستحق الاعتبـار فى يوم الدوسـة . وقد جعلت غيبة الغوازى الحفل أقل بهجة من المعتاد .

وفى الليلة التاليـة ، التى تسمى على الأصح ليلة المولد ، عدت إلى ميـدان الاحتفال الرئيسى . وشاهدت هنا ذكراً حول الصـارى يقوم به ستون درويشاً تقريباً . وكان القمر كافياً لإضاءة المكان بدون مصابيح . وكان هؤلاء الدراويش من طوائف مختلفة ، ولكن الذكر الذى قاموا به كان من نوع شائع عند البيومية فقط . وفى أحد وجوه هذا الذكر صاح القائمون به : « يا ألله ! » ، وحنوا أولا رؤوسهم وشبكوا أيديهم أمام صـدورهم فى الوقت نفسه عند كل صيحـة ، ثم رفعوا رؤوسهم وصفقوا بأيديهم أمام وجوههم . وكان داخل الحلقة أشخاص جالسون على الأرض . واستمر الذكر نصف ساعـة على الوصـف المذكور سابقاً . وبعد ذلك ، كوّن الدراويش فرقاً من خمسة ، أو ستة ، أو أكثر معاً ، ولكن على شكل حلقة كبيرة أيضاً . وكان أفراد تلك الفرق العديدة متماسكين ، كل واحد يضع ذراعـه اليسرى خلف ظهر جاره يساراً ، ويده على كتفـه الأخير . وكانوا جميعاً فى مواجهـة المشاهدين خارج الحلقـة ، وصاحوا :

« الله ! » بصوت شديد العمق أجش(١) . وخطوا خطوة عند كل صيحة ، إلى الأمام مرة ، وإلى الخلف مرة أخرى ، ولكن كان كل منهم يتقدم قيلا إلى اليسار عند كل خطوة إلى الأمام ، بحيث تدور الحركة بأكملها ، ولو ببطء شديد . ويمد كل منهم يده اليمنى لتحية المشاهدين خارج الحلقة ، ويمسك أغلب هؤلاء إذا كانوا قريبين ، كل يد ممدودة ، ويقبلونها أحياناً عندما تصبح أمامهم .

وكلما قام ذكر حول الصارى ، كف الذكر فى الخيام . وقد شاهدت ذكراً آخر هذه الليلة ، وكان ترديداً لذكر الليلة السابقة بسوق البكرى ، ولم يكن هناك شيء آخر ، ما عدا سماع القصص ، يجذب المشاهدين أو السامعين .

انتهى العيد عند آذان الفجر ، وكفت جميع حلقات الذكر ، ما عدا سوق البكرى ، فقد انتهى الذكر به بعد منتصف الليل بثلاث ساعات . وفى غضون اليوم التالى ، رفع القائم ، والصارى ، والخيام الخ .

(١) وكان السائحون المختلفون يسمون القائمين بالذكر من هذا النوع : « الدراويش المعوية أو النابحة » .

الفصل الخامس والعشرين

تابع الأعياد الدورية العامة ، الخ .

لولا أن كثيراً من العادات المشاهدة فى هذه المناسبات تنسخ بمرور الزمن ، ولن توصف وصفاً صحيحاً كاملا ، لاعتبر الاستمرار فى وصف الأعياد الدورية العامة والموالد وصفاً تفصيلياً أمراً غير لازم .

يظل مسجد (الحسنين) ، خمس عشرة ليلة وأربعة عشر يوماً فى شهر ربيع الآخر ، مسرحاً لعيد مولد الحسين . ويعتبر هذا المولد أشهر الموالد المحتفل بها فى القاهرة بعد مولد النبى . ويكون اليوم الكبير « لمولد الحسنين » يوم ثلاثاء دائماً ، وليلة المولد هى الليلة التالية ، ليلة الأربعاء . ويقع هذا اليوم على العموم بعد مولد النبى بخمسة أسابيع أو ستة تقريباً ، ويختم العيد به . وقد حددت ليلة الواحد والعشرين من شهر ربيع الأول ، هذا العام (عام ١٢٥٠هـ — ١٨٣٤م) ، ليلة المولد ، إذ أن العيد بدأ ليلة السابع(١) منه . وكان المسجد ، فى الليلتين السابقتين على ليلة السابع ، مضاء ببعض مصابيح تزيد على المعتاد ، وهذا هو المألوف فى سنوات أخرى . غير أن هاتين الليلتين لا تميزان مثل الليالى التالية .

فى كل ليلة من الليالى الخمس عشرة الكبيرة ، السابق ذكرها ، يضاء المسجد بمصابيح ، وشموع جد غليظة ، يبلغ ارتفاع بعضها خمس أقدام أو ستاً . ويتولى هذه الإنارة ، فى الليلة الأولى ، « ناظر » المسجد ، من أموال المسجد . وفى الليلة الثانية ، حاكم العاصمة (وهو اليوم حبيب أفندى) . وفى الليالى

---

(١) لاحظت فى الطبعة الأولى مخالفة فى إحصائى الخاص بمدة هذا المولد ، فتصورت أن الخطأ كان فى هذه الفقرة . غير أنى اكتشفت منذ ذلك الوقت فى مذكراتى المخطوطة أن الأمر غير ذلك ، وأنه كان يجب أن أكتب فى مكان آخر (كما فعلت الآن) خمس عشرة ليلة بدلا من أربع عشرة .

التالية ، مشايخ بعض طوائف الدراويش ، وبعض كبار القائمين على أمر المسجد ، وبعض الأثرياء . وتظل دكاكين المأكولات والمشروبات ، والمقاهى المجاورة للمسجد ، والكثير منها فى الأحياء الأخرى أيضاً ، مفتوحة إلى الصباح فى تلك الليالى جميعاً . وتزدحم الشوارع المجاورة بالمتسكعين ، أو المستمعين إلى الموسيقيين والمغنين والقاصين . ويزدحم المسجد أيضاً على العموم . وهنا نجد ، فى قسم من الرواق الكبير ، جماعة من الناس ، جالسين على الأرض فى صفين متقابلين ، يقرأون معاً بعض سور من القرآن ، ويسمى هذا « مقرى » . وقد يستخدم لهذا الغرض جماعات . ونجد فى مكان آخر جماعة مماثلة تقرأ أدعية فى مدح الرسول ، من كتاب (دلائل الخيرات) . ونجد ، مرة أخرى ، فى أمكنة أخرى ، جماعة تقرأ نوعاً خاصاً من الدعاء ، وجماعة أخرى أو جماعات تقوم بالذكر . وهناك زائرون آخرون يدفعهم التقى ، أو الفضول ، أو حب التسلية ، إلى زيارة هذا المسجد المكرم ، فيدورون حول تلك الجماعات التى تقوم بأعمالها الدينية إكراماً للحسين ، أو يجلسون على الحصر . ويوجد على العموم جماعة من الدراويش فى مقصورة المقام (التى يعلوها القبة الكبيرة ، فتسمى لذلك « القبة ») يقرأون الدعاء وغيره . ويدخل الزائرون المقصورة عادة لقراءة الفاتحة والطواف حول المقام ، غير أن أكثر الناس يترددون على الرواق الكبير ، حيث يقام الذكر وأكثر الطقوس الأخرى .

فى كل ليلة من ليالى هذا المولد ، نرى « إشارات » ، أى مواكب دراويش ، لطائفة أو أكثر ، تمر فى الشوارع إلى مسجد الحسنين ، يتقدمها رجلان أو أكثر بالطبول والمزامير والصنوج أحياناً ، ويصحبهم حاملو المشاعل ، ويكون معهم عادة قنديل أو أكثر . وهم يجمعون إخوانهم فى الطريقة من منازلهم الخاصة . وكلما مروا بمقام ولى ، كف الموسيقيون عن العزف لحظة ، وقرأ الجمع الفاتحة ، أو مدحوا النبى ، على طريقة استفتاح الذكر الذى أشرت إليه فى مولد النبى . وهم يفعلون ذلك دون أن يقفوا . وعند بلوغهم المسجد يدخلونه ، وبأيدى بعضهم الشموع ، فيزورون المقام ، ثم ينصرفون ، ما عدا شيخهم وبعضاً من الآخرين ، يظلون أحياناً فى « القبة » ، ويشتركون فى قراءة الأدعية وغيرها .

تعتبر ليلة الجمعة ، السابقة لليلة المولد ، من أبهج الليالى . وقد تولى الشيخ الجوهرى ، وهو رجل ثرى ، إنارة المسجد هذه الليلة بهذه المناسبة ، بفيض من

الأنوار غير عادى . وقد ذهبت تلك الليلة إلى المسجد بعد الغروب بساعتين قبل أن يجرى احتفال ما . وقد وجدت الشوارع تزداد ازدحاماً كلما اقتربت من المسجد . وكان بأحد الأمكنة موسيقيون ، كما كان أمام مقهى كبير راقصان يونانيان من « الجنك » ، أنيقان فى الملبس ولكنهما مخنثان فى المظهر ، قد أرسلا شعرهما ، وأخذا يرقصان على نغم قيثارين يعزف عليهما يونانيان آخران ، ويحيط بهم حشد من المعجبين الأتراك وقليل من المصريين . وقد رقص هذان الراقصان هناك فى الليلة السابقة أيضاً . وقيل لى إنهما من الرعاية التى نالاها أصبحا وقحين إلى حد أنهما اغتصبا جهاراً سلة عنب فى الشارع .

وقد وجدت ، عند دخولى المسجد ، أنه أكثر ازدحاماً من المعتاد إلى حد بعيد ، ومن الليالى السابقة أيضاً . غير أن الأنوار كانت لا تزيد بكثير على الأنوار التى تشاهد أحياناً فى كنيسة انجليزية . وكانت الشماعد والمصابيح من أكثر الأنواع شيوعاً . وكان بين الزائرين عدد كبير من الأتراك ، وبعض من معارفى . جلست أولا أستريح مع صديق كتبى ، وكثير من رفقائه الدراويش الذين كانوا على وشك القيام بذكر يتصدره الأول . وقد أكرمونى بتقديم القهوة . وكان على أن أرد الإكرام باعطاء المنشدين قرشاً . ولم يلبثوا أن أخذوا فى الذكر وهو يشبه الذكر الذى وصفته فى مولد النبى ، فنهضت لزيارة المقام ، وللجولان حوله . وبعد الزيارة عدت من مقصورة المقام حيث كان جماعة كثيرة من الدراويش يقرأون الأدعية جالسين فى مربع بقدر ما تسع المقصورة ، ما عدا جانب المقام . وعند دخولى الرواق مرة أخرى أبصرت هرجاً عظيماً ونفراً من الناس يندفعون إلى جهة واحدة على مسافة قريبة منى . وسمعت رجلا يصيح : « نصرانى ! كافر ! » فاستنتجت أن أحد الزائرين المسيحيين اكتشف أمره ، وتوقعت فتنة عظيمة . ولكنى عندما سألت أحد الواقفين بجانبى عما حدث ، قال لى إن هذه الكلمات لم تكن غير سباب بين مسلمين أساء أحدهما إلى الآخر . وأسرع أحد القائمين بأمر المسجد فأقبل من « القبة » ممسكاً عصا ، فأعاد بين الناس النظام . ولم أستطع أن أعرف إذا كان المتشاجران قد طردا أحدهما أو كلاهما . ورأيت أن الحكمة تقتضى ألا أوجه أسئلة أخرى . وكان بالقرب من مدخل « القبة » جماعة يقرأون الدلائل السابق ذكرها بصوت جهورى . وبعد أن وقفت لحظة أستمع إليهم ، بالرغم من أنه استحال على أن أفهم كثيراً من كلامهم لاضطراب أصواتهم ، عدت إلى حلقة الذكر التى كنت بها أولا .

وبعيد ذلك سمعت من طرف الرواق الآخر أصوات الطبول العالية يضربها فريق من الدراويش العيسوية الذين تعتبر أعمالهم من أهم مباهج الليلة. فنهضت فى الحال وتوجهت إليهم. وترك صديقى الكتبى الذكر وتبعنى، ثم نادانى دون تبصر قائلا: «يا أفندى! إنتبه إلى نقودك!» وفى لحظة شعرت بسروالى يجذب مراراً، ثم وجدت به خرقاً كبيراً. ويظهر أن شخصاً قطعه بآلة حادة ليصل إلى جيبى. ويحدث على العموم عندما يزدحم المسجد فى مثل هذه المناسبة أن يدخل بعض اللصوص هذا المكان العظيم القداسة(١). وكنت على وشك أن أيأس من الاقتراب من العيسوية، عندما صاح خادمى بمن يحيط بى، وكنت قد جئت به ليحمل حذائى: «ألا تعرفون من تدفعون؟» وفى الحال وجدت الطريق خالصاً أمامى. وكانت الساعة حينذاك الثالثة بعد الغروب تقريباً.

وقبل أن أصف أعمال العيسوية يجب أن أذكر أنهم طبقة من الدراويش المغاربة، كلهم أو جلهم، وهم يستمدون تسميتهم من اسم شيخهم الأول سيدى محمد بن عيسى(٢)، وهو مغربى. وأعمالهم فذة، ومنها واحد يستحق الاعتبار بصفة خاصة. وكنت متلهفاً إلى رؤية ذلك العمل هذه الليلة. ولم يخب رجائى، مع أنه قيل لى إنهم لم يقوموا به فى القاهرة منذ سنوات.

رأيت حوالى عشرين من هؤلاء الدراويش مختلفى الملابس، يجلسون على الأرض متلاصقتين فى حلقة عند جدار واجهة البناء. وكان كل منهم، عدا اثنين، يضرب «طاراً» يزيد عرضه على قدم، ويختلف عن الطار الشائع فى عدم وجود القطع المعدنية الرنانة المعلقة بطوقه. وكان أحد الدرويشين المستثنين يضرب طاراً صغيراً من النوع الشائع، والآخر يضرب بازاً. وكان أمام حلقة الدراويش فضاء أوسع مما يشغلونه، تركه الجمهور لدراويش آخرين من الطائفة نفسها. وماكاد دراويش الحلقة الأولى يضربون دفوفهم، حتى أخذ دراويش

---

(١) وقد تحدث أيضاً سرقات فى هذا المسجد فى أوقات أخرى، كما حدث لأحد أصدقائى أخيراً، وقد قال لى: ذهبت هناك للصلاة، وبينما كنت منحنياً على الميضأة أتوضأ وقد وضعت حذائى خلفى، وكنت أقول: نويت فرض الوضوء. قال شخص من ورائى لنفسه: نويت أخذ هذا الحذاء الجميل. وعندما التفت حولى، وجدت حذاء بالياً مكان حذائى الجديد.

(٢) وعيسى هو الاسم المذكور فى القرآن، وهو شائع عند المسلمين، لأنهم يعترفون بالمسيح ويوقرونه. أما النصارى العرب فيسمونه «يسوع».

الحلقة الأخرى ، وكانوا ستة ، يقومون برقص غريب . ويصيحون أحياناً : « الله ! » ، وأحياناً أخرى : « الله مولانا » . ولم يكن هناك نظام فى رقصهم ولكن أخذ كل منهم يقوم بمهازل المجنون ، فيحرك جسمه أعلى وأسفل ، وفى اللحظة التالية يدور ، ثم يحرك ذراعيه باشارات غريبة ، وبعد ذلك يقفز ، وأحياناً يصرخ . وقصارى القول أن الأجنبى إذا شاهد هؤلاء ، ولم يعلم أنهم يمارسون رياضة دينية يغلب عليها هياج حماسى ، فلا جرم أن يظن أن رقص الدراويش هذا سعى إلى التفوق فى الهزل لا غير . وإن طريقة لبسهم تساعد على هذا الظن . كان أحدهم يلبس قفطاناً بغير أردان ولا حزام ، ولا يضع شيئاً على رأسه الذى لم يحلق منذ أسبوع تقريباً . وكان آخر يلبس قلنسوة قطنية بيضاء ، ولا يستر جسمه غير سروال مرسل . وكان هذان الدرويشان أعجب ما فى الحلقة . وبعد أن رقص أولهما ، وهو أسود ، نحيف ، متوسط العمر ، بهذه الطريقة الغريبة بضع دقائق ، وتدرج فى حركاته إلى التوحش والغرابة ، اندفع إلى حلقة الناقرين على الطار ، وكان بوسطها مجمرة صغيرة من النحاس المبيض ملآى بالجمر ، فأمسك الدرويش جمرة ووضعها فى فمه ، ثم أخذ غيرها على التوالى حتى امتلأ فمه ، وابتلعها بعد ثلاث دقائق تقريباً بعد أن مضغها بتأن ، فاتحاً فاه على سعته فى كل حين ، ليبين ما فيه . وقام بذلك دون أن يبدو عليه أى مظهر للألم ، بل كان يظهر أثناء العملية وبعدها ، نشاطاً أكثر من قبل . أما الدرويش الآخر فقد ظهر فى هيئة قوية جميلة إلى حد عجيب ، وكان يبدو عليه أنه فى عنفوان شبابه . وبعد أن رقص مالا يزيد كثيراً عن الأول ، اشتدت حركاته إلى درجة أن أحد إخوانه أمسك به ، غير أنه أفلت من قبضته وهجم على المجمرة ، وأخرج منها جمرة كبيرة وضعها فى فمه ، وظل فاتحاً فاه دقيقتين تقريباً . وكان ، طول هذه المدة ، كلما نشق الهواء بدت الجمرة بيضاء تتوقد وعند الزفير ، ينفث بعض الشرر . وبعد ذلك مضغ الجمرة وابتلعها ، ثم عاد إلى رقصه . وبعد نصف ساعة تقريباً سكن الدراويش للراحة .

وقبل أن يكف السابقون ، كان فريق آخر من الطائفة نفسها قد بدأ يعمل بالقرب من الرواق . وكانوا قد رتبوا أنفسهم مثل السابقين . وكانت حلقة الضاربين على الطار ، مثل الفريق الآخر تقريباً فى العدد ، غير أن الراقصين هنا كانوا حوالى اثنى عشر . وأحياناً يكونون أقل . وأخذ أحدهم ، وكان طويل القامة ، عارى الرأس حليقه ، جمرة لامعة من مجمرة كانت تقدم إلى الراقصين كما يقدم طبق من الكعك أو الحلوى ، ووضعها بين أسنانه لحظة

ثم سحبها على لسانه وفغر فاه أكثر من دقيقتين وشهق ثم زفر بشدة . وقد ظهر داخل فمه كأنه أتون ، وأخذ ينفث شرراً مثل الدرويش السابق ، ولكن مظهره كان أقل هياجاً . وبعد أن مضغ الجمرة وبلعها ، انضم إلى حلقة الضاربين وجلس بجانب قدمى تقريباً . ولاحظته عن قرب ، فلم أر منه أقل إشارة إلى أى ألم . وبعد أن شاهدت هذه الأعمال الغريبة حوالى ساعة سكن الفريقان للراحة ولم يكن هناك بعد ذلك شيء آخر يستحق الرؤية ، فغادرت المسجد(١) .

ويأكل العيسوية أحياناً ، فى هذه المناسبة ، الزجاج مثل مايلتهمون النار . وكان أحدهم ، وهو الحاج محمد السلاوى ، من أشهر آكلى الزجاج والنار ، واشتهر بأعمال أخرى . وكان رجلا عظيم القامة ، وكان يقوم باضاءة المصابيح ، وتوفى منذ سنوات قليلة . ويقال إنه عندما كانت تظهر عليه علامات الهياج الشديد ، يثب على العوارض الخشبية الممتدة بين الأقواس التى تعلو عمدان المسجد ويبلغ ارتفاعها من الأرض ست عشرة قدماً أو أكثر ، ثم يجرى فوقها متنقلا من عارضة إلى أخرى . ثم يبلل أصبعه بريقه ويضرب بها ذراعه إلى أن يدميها ، ثم يوقف النزيف بالطريقة نفسها .

ويستمر الذكر أثناء المولد الليل بطوله . ويقضى الكثيرون الليل بالمسجد فينامون على الحصر . وكثيراً مايحدث سرقات هناك . وعند عودتى إلى المنزل ، بعد مشاهدة العيسوية ، اكتشفت ما لا يقل عن ثمانى قلات على ثيابى .

لم أشاهد فى الليلة التالية شيئاً مسلياً ، عدا أن صديقى الكتبى الفضولى الذى رأس ذكراً مرة أخرى ، أراد أن يجعلنى مسلماً ورعاً(أو ربما ليعمل عملا طيباً) دون أن يستأذننى من قبل ، فعرض جهاراً على أربعة فقهاء أن يقرأوا « ختمة » على حسابى ، إكراماً لسيدنا الحسين . وإذ كان أفراد الطبقتين العليا والوسطى يعملون هذا عادة ، بمناسبة هذا العيد ، فان رفضى ذلك كان يثير الشك . فقام الفقهاء بقراءة الختمة بعد ظهر هذا اليوم ومساء اليوم التالى ، وكان كل فقيه يقرأ جزءاً من القرآن ، ثم يحل آخر محله . وقد

---

(١) يبدو أن أعمال ريتشاردسون Richardson المذكور فى كتاب Evelyn's Memoirs (٣٧٥ و٣٧٦) قد فاقت أعمال الدراويش المذكورة هنا .

دامت قراءة الخاتمة تسع ساعات تقريباً . وبعد إتمامهـا قدموها باسمى الشرقى الذى اتخذته لنفسى(١) ، وذكروا أننى صاحب هذا العمل الصالح . وتناول كل قارىء شمعة وبعض الخبز وقرشاً .

وفى يوم الاثنين طوى أكثر الحصر التى كان يجلس عليها جماعات من الفقهاء المستخدمين لتلاوة القرآن الكريم . وقصد المسجد هذا اليوم عدد وافر من الرجال والنساء ، وعلى الأخص من كان يرغب فى التبرك بالزيارة ، ويكره الحشد المتزايد والاضطراب السائد فى اليوم التالى ، أو يوم المولد . وفى المساء التالى ، كانت الشوارع المجاورة للمسجد مزدحمة ازدحاماً كثيفاً ، فكان من الصعب ، بعيد الغروب ، المرور فى بعض الجهات . وكان هناك عدة مصابيح معلقة فى الشوارع ، وعدة دكاكين مفتوحة .

وكانت الليلة أيضاً ليلة مولد السلطان الصالح أيوب المشهور الذى يعتقد العامة أنه من الأولياء . ويقول الجهلاء إنه كان يلبس « دلقاً » ، ويعيش على صناعة السلال وغيرها من الخوص ، دون أن يمس أموال الدولة لنفقته الخاصة ويقع ضريحه الملاصق لمسجده فى النحاسين ، وهو جزء من شارع المدينة الرئيسى ، ولا يبعد كثيراً عن مسجد الحسين . وكانت سوق النحاسين مضاءة بالمصابيح العديدة ، وكان أكثر الدكاكين مفتوحاً ، يجلس بكل منها صاحب الحانوت فى صحبة ثلاثة أشخاص أو أربعة أو أكثر . ومسجد الصالح ومدفنه كانا آيلين إلى السقوط لإهمالها إهمالا شديداً ، بالرغم من أن أهل القاهرة يبجلون هذا الأمير كثيراً . وعند اقترابى من باب المدفن أحاط بى جمع من « الحملية » والسقائين ، يتوسلون إلى أن أنقدهم شيئاً ليوزعوا ماء إبريق أو قربة إكراماً للصالح . ودخلت بحذائى إذ رأيت آخرين يفعلون ذلك ، غير أننى خلعته عند عتبة المقصورة . وهى غرفة مربعة يعلوها قبة ، ويتوسطها ضريح مستطيل فوق القبر ، يحيط به درابزون خشبى ، أى « مقصورة » . وعند رأس المقصورة أربع شمعات كبيرة ، وفى الطرف الآخر ثلاث . والشمعات جميعاً فى غلاف من الجص على شكل الأعمدة الحجرية المستديرة القمة ، وهى تلون بخطوط أفقية عريضة حمراء ، على طراز الأحجار المتعاقبة المكونة للجدران الخارجية فى أكثر مساجد القاهرة . والظاهر أن عدد الشموع كان فى الأصل متساوياً

---

(١) منصور أفندى . (المترجم)

فى الطـرفين ، إذ أن فى الطرف الآخر فراغاً يبدو أنه كان مشغولا بشمعة . ويقال إن هذه الشمعات أهداها أحد الباباوات ، أو أحد ملوك الفرنج ، إلى الصالح الذى اكتشف بفضل ولايته أنها ملآى بالبارود دون أن يفحصها ، فأمر بوضعها هكذا فى غلاف من الجص . وهناك قول آخر وهو أن الشمعات كانت مرسلة هـدية إلى المقـبرة ، بعد وفاة الصالح ببضع سنوات ، فظهر الصالح لحارس مـدفنه فى المنام وأخـبره بمكيدة البارود . وقد وجدت غرفة المقصورة قليلة الإضاءة وعليها مظهر الإهمال والقـدم . وكان البلاط غـير مغطى . وعند دخولى قادنى خادمان من خـدم المسجد إلى المقصورة وأملى أحدهما علىّ الفاتحة والدعاء السابق ذكره عند الكلام على يوم عاشوراء ، بينما كان الآخر يقول : آمين . ثم طلب منى الأول أن أقرأ معهما الفاتحة مرة ثانية، وأعطانى خمس كرات من خبز السيد البدوى ، وتناول كل منهما نصف قرش . وفتح لى خادم ثالث باب المقصورة لأدخلهـا ، وهو شرف اقتضى أن أعطيـه هو أيضاً عطية زهيدة .

وتوجهت من مدفن الصالح إلى مسجد الحسنين ، ماراً بشوارع شـديدة الازدحام (وإن لم تكن الليلة هى الـكبيرة) ، حسنة الإضاءة . ولم يـكن هناك فرق كبير بين منظرى الشوارع والمسجد . فقد رأيت بين جمهور المسجد كثيراً من الأطفـال ، وكان بعضهم يلعب ، ويجرى كل وراء الآخر ، ويصرخون . وكان هناك جماعات من الفقهاء يتلون القرآن ، وحلقة صغيرة من الدراويش ، وسط الرواق الـكبير ، يذكرون . وشققت طريقى بصعوبة وسط « القبة » ، وقمت بالطواف حول المقصـورة ، حيث كان فـريق كبـير يتلو القرآن . وبعد أن غادرت المسجد ، قضيت ساعة ونصفاً فى أحد الشوارع مستمعاً إلى أحد الشعراء .

وفى اليوم التالى ، آخر أيام المولد وأهمها ، كان مسجد الحسنين وما جاوره أكثر ازدحاماً من الأيام السابقـة . وكانت المصابيـح معلقة بأسواق المـدينة ووكالاتها ، وبأبواب كثير من منازلها الخاصة بالطبقتين الوسطى والعليا أيضاً ، لتضاء فى الليلة التالية ، ليلة المولد . وكان عدد المتسولين الذين يسألون الصدقة إكراماً لسيدنا الحسين فى الشوارع هذا اليوم مدهشاً . ولمـا كنت قد جلست فى أحد حوانيت الشارع الرئيسى بعد الظهـر ساعـة تقريباً ، فقد تعبت من ترديد : « الله يعينك » « الله يعطيك » الخ . وخيل إلى أن جميع سـكان القاهرة

تقريباً خرجوا إلى الشوارع . واجتمع جميع الأتراك المقيمين هنا تقريباً بجوار الحسنين . وكان هذا اليوم مخصصاً لزيارة مقصورة الحسين ، فان المعتقد أن الرسول يحضر هناك هذا اليوم كله والليلة التالية ، فيشاهد زيارة أتباعه الأتقياء لحفيده . ومع ذلك يفضل أغلب كبار الناس الذهاب فى اليوم السابق ، أو فى أى يوم من أيام العيد ، ما عدا اليوم الأخير ، لكثرة الازدحام فيه . إلا أنى ذهبت فى هذا الوقت للسبب نفسه الذى عاق هؤلاء . ودخلت « القبة » قبيل الغروب ، وقد أدهشنى أن أجد طريقاً أعد لى لأتقدم بسهولة إلى المقصورة . ولقننى أحد الخدم ما قيل يوم عاشوراء ، وأعطانى قبضة من خبز السيد البدوى وما كاد يتم ذلك حتى ضغطنى طالبو الصدقات فأوشك نفسى أن ينقطع . فقد طالبنى ملقن الدعاء بقرش ، وقال ثان : « لقد قرأت لك سورة يس ياأغا » . وقال ثالث : « يا أفندى ! أنا خادم المقصورة » . وكان أكثر الباقين متسولين عاديين . وأدركت تواً أن الأتراك كانوا محقين فى اختيار يوم آخر . وتبعنى أكثر المتسولين لحاجة ممن لا يستحقون شيئاً وسط ازدحام المساجد، وفى الشارع . وكنت قد فرقت كل مافى جيبى ، وكان ذلك أكثر من المألوف . ودعيت إلى الجلوس على مصطبة كانت مقابلة للمسجد لأخلص من زحمتهم . ولم أر فى المسجد شيئاً يلاحظ غير الاحتشاد والاضطراب ، وأسراب المتسولين رجالا ونساء وأطفالا . وفى المساء كان المسجد لا يزال مزدحماً جداً ، ولم يكن هناك طقوس تقام غير زيارة المقصورة ، وتلاوة القرآن والذكر . وكانت الشوارع حينئذ أكثر ازدحاماً إلى مابعد منتصف الليل بكثير ، وكانت الأنوار تكسبها مظهراً بهجاً . وكانت سوق « الجوهرجية » مضاءة بفيض عظيم من الشماعد ، وقد غطيت بالستائر . وكانت مآذن المساجد الكبيرة مضاءة أيضاً . وكان كثير من الحوانيت مفتوحاً علاوة على دكاكين المأكولات والقهوة والشراب . وكان يجلس بداخل بعضها فقهاء يقرأون « الختمة » كل اثنين أو أكثر معاً . وكان هناك شعراء ومحدثون وموسيقيون ومغنون ، فى أماكن مختلفة ، مثل الليالى السابقة .

يحتفل بمولد السيدة زينب ، ابنة الإمام على ، وحفيدة الرسول ، فى منتصف رجب(١) تقريباً ، فى ليلة أربعاء دائماً . ويبدأ الاحتفال على العموم قبل أسبوعين

---

(١) فى هذا الوقت تقريباً ، يأخذ الحجاج الأتراك فى القدوم إلى مصر ، فى طريقهم إلى مكة .

من اليوم الرئيسي وهو اليوم الأخير ، أو الثلاثاء . ويقع ميدان الاحتفال بجوار المسجد الذى يعتقد عامة الناس أن السيدة مدفونة به ، وهو بنيان كثير الزخرف غير فائق الجمال ، يقع فى الحى الجنوبى الغربى للعاصمة(١) . ويعلو المدفن المزعوم مقام مستطيل ، مغطى بحرير مطرز ، ويحيط به مقصورة برنزية عليها مظلة خشبية ، تشبه تلك التى توجد بمسجد الحسين . والمدفن فى غرفة صغيرة مرتفعة يتوجها قبة يدخلها الزوار وقت المولد للدعاء والطواف حول المقام . وقد زرت المقام فى اليوم الأخير ، أى اليوم الكبير من المولد . ورأيت فى أحد الشوارع القريبة من المسجد عدة رواة «أبوزيدية» ، وحواة ، و«قرداتية» ، وراقصين ، وبهلوانية وقد أملى على فى المسجد الدعاء الشائع فى مثل هذه المناسبات ، بعد الفاتحة ، وتناولت قرصين من خبز السيد البدوى . وكان باب المقصورة مفتوحاً ، غير أننى أخبرت أنه لا يسمح لغير النساء بالدخول ، لاعتبار المكان مقدساً كالحريم . ولذلك اكتفيت بالطواف حوله ، وقد صعب على إتمام ذلك لكثرة الزائرين ، ولضيق المسافة بين المقصورة وجدران الغرفة . وقد صاحت بى امرأة محترمة كان من الشاق عليها وجودها فى مثل ذلك الازدحام ، أن أخلى لها مكاناً ، فى لغة جافية خاصة بالنساء العربيات(٢) . وسألنى كثير من الحاضرين أن أكلفهم تلاوة سورة من القرآن لأجل السيدة . وكانوا يلحون فى سؤالهم بهذا الدعاء : « الله يبلغك مقصودك ! » ، إذ أن زائرى أضرحة الأولياء يقصدونها ليعرضوا بعض أدعية خاصة . وكان هناك فريق من الفقراء المكفوفين يجلسون على الأرض يسألون الصدقات . وكانت حصر الجامع مرفوعة ، ولم يكن يرى هناك غير المتعطلين الكسالى . وقد ضايقنى عند الخروج نفر من الحملية والسقائين لأعطيهم نقوداً فيوزعوا الماء إكراماً « لبنت الإمام » . والعادة أن يمنح خدم المقصورة ، واحد أو أكثر ، بعض نقود صغيرة ، وكذلك أحد الفقهاء ليتلو سورة من القرآن ، والمتسولون بالجامع ، وأحد الحملية أو السقائين . وكان أهم ما يقام بالمسجد مساء " الذكر . ويقصد دراويش طائفة أو أكثر المولد هناك كل مساء .

يحتفل فى ليلة السابع والعشرين من رجب « بليلة المعراج » ، وهى ليلة صعود الرسول إلى السماء(٣) ، فى جانب من ضاحية القاهرة الشمالية ، خارج باب العدوى .

---

(١) وقد شرع فى بناء هذا المسجد قبيل الحملة الفرنسية ، وأتم بعد خروجها من مصر .
(٢) « ما تزقنيش يا سيدى . بطنى مليان » .
(٣) وقد قيل إنه أسرى به من مكة إلى القدس ، وإنه رفع من هناك إلى السماء ، حيث كلم الله ، وإنه عاد إلى مكة ، فى ليلة واحدة .

ويضيف الشيخ البكرى نفراً كثيراً فى منزل له بهذا الحى ، حيث يقام الذكر ثلاثة أيام قبل الحفل . ويرى المرء بهذه المناسبة ، علاوة على الألعاب المشاهدة عادة فى الشوارع فى الأعياد المماثلة ، من الحواة والرواة الخ ، «الدوسة» العجيبة ، التى وصفتها عند الكلام على مولد النبى . وهى تقام فى شارع قصير واسع من الضاحية المذكورة سابقاً ، تجاه مسجد الطشطوشى ، فى اليوم السادس والعشرين ، آخر أيام العيد وأهمها . وقد كنت أحد المشاهدين . ولما كان اليوم يوم جمعة ، فقد كان على شيخ السعدية وهو الوحيد الذى يستطيع القيام بهذه الكرامة المشهورة ، كما قيل ، أن يقوم بفروض الصلاة والخطبة العادية فى مسجد الحسنين ظهراً . ثم يركب من المسجد إلى مكان الدوسة فى موكب يسبقه صف طويل من دراويشه يحملون أعلامهم وطبولهم الصغيرة التى يستعملونها كثيراً . وكنت بهذا المكان بعيد الظهر ، وجلست فوق مصطبة تمتد أسفل واجهة مسجد الطشطوشى.

وبينما كنت جالساً هنا أبتهج بمشاهدة الحشد الذى جذبه الفضول نفسه إلى هذا المكان ، مر بالقرب منى ولى مشهور كان قد سألنى منذ أيام بعض قروش ليطعم الفقراء بهذه المناسبة ، فلما رآنى جلس إلى جانبى وأخذ يروى لى ، قطعاً للوقت فى انتظار الدوسة ، قصة تتصل باحتفال هذا اليوم . فقال إن أحد السلاطين(١) كان قد سخر علناً بقصة المعراج ، مؤكداً أنه من المحال أن يكون الرسول قد أسرى به من فراشه بمكة إلى القدس ، ثم صعد مع جبريل إلى السماء السابعة ، ثم عاد إلى القدس ثم إلى مكة ، فوجد فراشه لا يزال دافئاً . وفى أحد الأيام كان يلعب الشطرنج مع وزيره حينما دخل عليه ولى الله الطشطوشى ، واستأذنه فى ملاعبته مشترطاً أن يقوم السلطان إذا غلبه بما يأمر . فقبل السلطان ذلك . وخسر اللعب ، فأمره الولى أن يغطس فى مغطس ماء . وغطس السلطان فوجد نفسه فى قصر فاخر وقد تحول امرأة بارعة الجمال ، ذات شعر مرسل ، وفتنة ساحرة ، وأنوثة وافرة . وتزوج ، أو تزوجت ، بابن أحد الملوك ، وأنجبت ثلاثة أطفال على التوالى ، ثم عاد إلى المغطس وخرج منه فأخبر الوزير بما حدث له . فلما ذكره الولى بانكاره موضوع المعراج ، أعلن إيمانه بالمعجزة ، وأصبح مسلماً حنيفاً . ولذلك يحتفل دائماً بالمعراج بجوار المسجد الذى دفن فيه الطشطوشى كما يحتفل بمولده فى الوقت نفسه .

ووصل موكب شيخ السعدية بعيد انتهاء القصة السابقة ، بعد الظهر بساعة

---

(١) هذه القصة تنطبق على الخليفة الحاكم . وقد سمعتها تروى ببعض اختلافات طفيفة .

وربع . وكان الأشخاص المتقدمون ، وخاصة دراويشه ، وعددهم حسب الظاهر يزيد على المائة (وقد وجدت إحصاءهم مستحيلا) ، منبطحين فى الشارع ، متلاصقين بقدر الإمكان ، على الطريقة نفسها فى مولد النبي . ولم ينفك هؤلاء عن ترديد اسم الله . وجرى فوق ظهورهم عدد من الدراويش حفاة ، يضرب الكثير منهم طبولهم الصغيرة ، ويحمل بعضهم أعلام طائفة الرفاعية السوداء (وهى الطائفة القريبة للسعدية) ، ويحمل اثنان « شاليشاً »(١) (وهو عمود طوله عشرون قدماً تقريباً ، يشبه سارية العلم الكبيرة ، وهو بيرق السعدية الرئيسى ، وبقمته حليه مخروطة من النحاس) ثم حضر الشيخ راكباً الجواد الرمادى نفسه الذى ركبه فى مولد النبي . وكان يلبس برنساً فاتح الزرقة ، مبطناً بالفرو ، ومقلة سوداء أو تميل إلى السواد . وتقدم فوق الساجدين ، وهو لا ينقطع عن الهمس . وقاد جواده شخصان يدوسان الساجدين أيضاً ، أرجلهم ، ورؤوسهم أحياناً . وقص الجواد مرة وشب ، وكاد يدوس رؤوس الدراويش . وقد مر فوقهم بخطى ثقيلة . ودخل الشيخ منزل الشيخ البكرى الملاصق للمسجد . ولم يبد على أى واحد من المنبطحين أنه جرح ، وقام كثير منهم يضحكون ، ولكن أحدهم قام « ملبوساً » ، كما بدا أنه كان على وشك الإغماء ، مع أنه لم يضع يده إلى ظهره ، كما لو كانت خطى الجواد قد أصابته . وقد يكون الرجل مع ذلك قد أصابه الحصان فاجتهد أن يخفى ذلك .

وبعد الدوسة ، ألح صديقى الولى فى حضورى أنا وثلاثة فقهاء إلى منزله القريب . وقادنا إلى غرفة صغيرة علوية ، مؤثثة بسجادة قديمة ومساند . وجلس الفقهاء معى ، وتلوا الفاتحة معاً بصوت مرتفع جداً . ثم رتل أحدهم نصف سورة البقرة تقريباً بصوت موسيقى ، وأتمها آخر . وأحضر مضيفنا بعد ذلك مقعداً ، ووضع فوقه صينية عليها ثلاثة أطباق كبيرة « عيش بلحم » . ويتكون هذا اللون من الطعام من اللحم المفروم يقلى ويتبل بالطحينة والخل والبصل المقطع ، ثم يوضع على أقراص من العجين المخمر ، ويسوى . وجلست أنا والفقهاء نتناول الطعام بينما كان مضيفنا يقوم على خدمتنا . ودخل فقيه رابع ، وانضم إلينا فى تناول الطعام . وبعد أن أكلنا ، قرأ الفقهاء الفاتحة للمضيف ، ثم لى ، وانصرفوا ولم ألبث أن تبعتهم .

---

(١) على الأصح « جاليش » أو « جالش » (بتعطيش الجيم) .

فى ليلة المعراج ، يعود الشيخ البكرى إلى منزله بالأزبكية ، بعد الغروب بساعة ونصف تقريباً ، فى موكب يتقدمه كثير من حملة المشاعل والدراويش . وفى هذه الليلة تضاء مآذن الجوامع .

يبدأ الاحتفال بمولد الإمام الشافعى فى الأربعاء الأول أو الثانى من شهر شعبان ، وعلى العموم فى الأربعاء الأول ، إلا إذا وقع فى اليوم الأول من الشهر أو فى الثانى منه . وينتهى فى ليلة الخميس من الأسبوع التالى . ويقام الاحتفال بالمقبرة الكبرى المسماة « القرافة » ، فى الجانب الصحراوى جنوبى العاصمة ، حيث مدفن الإمام ، وبالقسم الجنوبى من المدينة . ولما كان الإمام الشافعى هو مؤسس المذهب الذى ينتمى إليه أكثر القاهريين ، فان مولده يجتذب كثيراً من الزائرين . وتشبه احتفالات هذا المولد تلك التى تقام فى الموالد الكبرى الأخرى . وتقام الدوسة يوم السبت السابق على اليوم الأخير ، أو اليوم الرئيسى . وفى هذا اليوم الأخير ، يوم الأربعاء ، يكثر عدد الزوار . ويقام الذكر وغيره فى الأيام التالية فى مسجد الإمام . ويعلو قبة المسجد زورق معدنى مثبت فى الرأس ، يوضع فيه عادة ، بمناسبة المولد ، أردب قمح ، وحمل جمل من الماء ، للطيور . ويقال إن الزورق يدور أحياناً عندما لا يكون هناك هواء يحركه ، وحيثما يتجه يتنبأ بحوادث مختلفة حسنة أو سيئة : كالرخاء والشدة ، وموت رجل عظيم الخ .

ويتبع مولد الإمام موالد عديدة أخرى . غير أن الموالد السابق ذكرها هى أشهرها . وتكاد الاحتفالات تتشابه فيها جميعاً .

يعظم المسلمون ليلة النصف من شهر شعبان باعتبارها وقت تثبيت مصير الإنسان فى العام التالى . ويعتقد أن سدرة الجنة تحمل ورقات بقدر عدد الأحياء من الإنسان فى العالم . وتسمى تلك الشجرة عادة « شجرة المنتهى » لعدة أسباب على الأرجح ، وعلى الأخص لأنها ، حسب قولهم ، فى طرف الجنة(١) ، أو فى أعلى مكان منها . ويقال أن الورقات كتب عليها أسماء تلك الكائنات جميعاً فتحمل كل ورقة اسم شخص واحد ، واسم أبيه وأمه ، وأن الشجرة تهز ، فى الليلة السابق ذكرها ، بعيد الغروب ، فتقع ورقة من

---

(١) وفى تفسير الجلالين يشرح سدرة المنتهى (سورة النجم الآية ١٤) أنها « الشجرة التى لا يتجاوزها أحد من الملائكة وغيرهم » .

قدر له الوفاة فى العام التالى . وإذا كان موته حالا ، تذوى ورقته كلها تقريباً ، ولا يبقى مخضراً غير جزء صغير جداً . وإذا كان موته يحل متأخراً فى العام التالى يبقى جزء كبير من ورقته مخضراً . ويكون اخضرار جزء الورقة بنسبة الوقت الذى يعيشه . ومن ثم تكون تلك الليلة شاقة على المسلمين الذين يراعونها بالدعاء الشديد والخشوع . وهناك دعاء خاص يقرأ بهذه المناسبة ، عقب صلاة المغرب . ويقرأ الدعاء من استطاع فى المسجد أو فى غيره . ويجتمع الآخرون فى المساجد لهذا الغرض ، ويستأجرون فقيهاً ليعاونهم ، ولذلك يذهب كثير من الفقهاء إلى المساجد للقيام بهذا العمل . ويعمل كل فقيه لنفر من الناس. فيتلو أولا سورة يس ، ثم يقرأ الدعاء رافعاً يديه أمام وجهه ، كما فى الأدعية العادية ، ويفعل غيره من المتعبدين مثله ، ويقرأ الفقيه كلمة أو أكثر يرددها الآخرون بعده . والدعاء كما يلى : « اللهم ياذا المن ، ولا يمن عليه ، ياذا الجلال والإكرام ، ياذا الطول والإنعام ، لا إله إلا أنت ، ظهر اللاجئين وجار المستجيرين وأمان الخائفين . اللهم إن كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب (١) شقياً ، أو محروماً (٢) ، أو مقتراً على فى الرزق ، فامح اللهم بفضلك شقاوتى وحرمانى (٣) ، واقتار رزقى ، وأثبتنى عندك ، فى أم الكتاب ، سعيداً مرزوقاً ، موفقاً للخيرات . فانك قلت (وقولك الحق) فى كتابك المنزل على لسان نبيك المرسل : « يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب (٤) » إلهى بالتجلى الأعظم ، فى ليلة النصف من شهر شعبان المكرم ، التى يفرق فيها كل أمر حكيم (٥) ، ويبرم ، أن تكشف عنا من البلاء ما نعلم ، ومالا نعلم ، وما أنت به أعلم ، إنك أنت الأعز الأكرم . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى (٦) وعلى آله وصحبه وسلم » . وبعد ترديد ذلك يتلو المتعبدون دعاء خاص .

---

(١) ويفهم هنا أنه اللوح المحفوظ الذى يقال إن أم الكتاب وأوامر الله كتبا فيه غير انى أخبرت أن أم الكتاب هو علم الله أو علم الغيب .

(٢، ٣) لم يذكر المؤلف فى الجملتين على التوالى كلمتى « مطروداً » و« طردى » وهما تذكران عادة فى هذا الدعاء المعروف . (المترجم)

(٤) سورة الرعد آية ٣٩ .

(٥) سورة الدخان ، آية ٤ . وروى البعض أن هذه الكلمات تنطبق على ليلة القدر .

(٦) يجد النبى محمد فى أميته سند نزول الوحى عليه، وكان لذلك من التأثير على أمته مثل ما كان لكلام المسيح على اليهود الذين قالوا : كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم » إنجيل يوحنا ٧ – ١٦ . غير أن تفسير الأمية على رأى المسلمين بأنها عدم المعرفة يجب أن يصحح بأنها الوثنية كما قال الدكتور سبرنجر Sprenger فى كتابه عن حياة محمد .

تسمى الليلة التى يترقب فيها إهلال رمضان « ليلة الرؤية » فيذهب نفر من الناس عصر اليوم السابق أو قبل ذلك ، ليقضوا بضع ليال فى الصحراء، حيث يصفو الجو خاصة ، لرؤية الهلال الجديد . إذ أن الصيام يبدأ فى اليوم التالى لرؤية الهلال ، فاذا تعذرت رؤيته بسبب السحب ، بدأ الصوم عندما يتم شعبان ثلاثين يوماً . وتكفى شهادة المسلم الواحد أنه رأى الهلال لإعلان الصيام . وفى مساء ذلك اليوم يسير موكب المحتسب ، ومشايخ الحرف المتعددة : الطحانين ، والخبازين والجزارين ، والقصابين ، والبدالين ، وباعة الفاكهة ، ومعهم بعض أعضاء آخرين من هذه الحرف، وفرق من الموسيقيين ، وعدد من الفقراء ، يتقدمهم ، أو يتخللهم ، فرق من الجنود ، من القلعة إلى مجلس القاضى ، وينتظرون هناك عودة أحد المرسلين لرؤية الهلال أو شهادة أى مسلم آخر على أنه رآه . وتزدحم الشوارع التى يمر منها هذا الموكب بالمشاهدين على الجانبين . وجرت العادة فى هذا الموكب أن تقاد خيول مسرجة بأجمل السرج . غير أن الموكب المدنى والدينى استبدل بأكثره عرض عسكرى تافه . ويتكون موكب ليلة الرؤية الآن من مشاة النظام خاصة . ويتقدم حاملو المشاعل كل فرقة من الجنود ويتبعونها ، لينيروا لهم الطريق عند العودة ، ويتلوهم شيخ حرفة ما وآخرون من أتباعه وعدة فقراء يصيحون طوال الطريق : الصلاة ! الصلاة ! صلوا على النبى عليه السلام . ويفصل كل فرقتين أو ثلاث فاصل عدة دقائق . ويختم المحتسب وتابعوه الموكب . وعندما يصل خبر رؤية الهلال إلى مجلس القاضى ، يقسم الجنود والمجتمعون الآخرون أنفسهم إلى عدة فرق ، تعود إحداها إلى القلعة ، ويجول الآخرون فى الأحياء المختلفة صائحين : « يا أمة خير الأنام ! صيام صيام » . وعندما لا يرى القمر هذه الليلة ، يخبر الشعب بهذا القول : « غداً من شهر شعبان . فطار ! فطار ! » — ويقضى الناس على العموم شطراً كبيراً من الليل (عندما يعلن بدء الصيام فى الغد) فى الأكل والشرب والتدخين ، ويبتهجون كما يبتهجون عادة عندما يخلصون من شقاء صيام اليوم . ويضاء داخل المساجد هذه الليلة كما تضاء فى الليالى التالية . وتعلق المصابيح عند مداخل المساجد وفوق شرفات المآذن(١) .

---

(١) ويجوب الأطفال الشوارع ممسكين بالفوانيس يهزونها فى أيديهم صائحين : وحوى يا وحوى ، إياحا (أو ، ايوحا) رحت يا شعبان . جيت يا رمضان . الخ .

ويعترض بعض هؤلاء الأطفال المارة ، طمعاً فى نفحة صغيرة، مرددين : حالو يا حالو . رمضان كريم يا حالو . حل الكيس وادينا بقشيش . لنروح ما نجيش يا حالو ...

(المترجم)

لم بعد المرء يشاهد ، فى رمضان ، المارة يمسكون بشبكهم فى الشوارع ، كما كان يشاهد فى أوقات أخرى ، فيراهم بدلا من ذلك، إلى ماقبل الغروب، يحملون عصا أو مسبحة ، أو لا يحملون شيئاً . ولم يعد بعض المسيحيين الآن يخشون ، كما اعتادوا ذلك ، التدخين فى حوانيتهم على مرأى من المسلمين الصائمين . وتبدو الشوارع كئيبة فى الصباح ، إذ أن كثيراً من الحوانيت يغلق غير أنها تفتح جميعاً فى العصر وتزدحم كالمعتاد . ويعبس المسلمون فى حديثهم على العموم ، أثناء النهار ، عندما يصومون . وفى الليل ، بعد الإفطار ، يبشون ويمرحون بطريقة غير عادية . وعادة كبار الأتراك بالقاهرة وكثيرين غيرهم ، أن يقصدوا مسجد الحسنين ، عصر كل يوم فى رمضان للصلاة والاسترخاء . وفى هذا الوقت يعرض بعض التجار الأتراك الذين يسمون « تحفجية »(١) (بضم التاء وفتح الحاء وتسكين الفاء) ، على الناس ، فى ساحة الميضأة ، مجموعة من البضائع ذات ذوق وترف يلائمان رغبات مواطنيهم . ومن الشائع ، فى هذا الشهر أن تشاهد تجاراً فى حوانيتهم يتلون القرآن أو الأدعية ، أو يوزعون الخبز على الفقراء . وعند المساء ، وبعد الغروب بقليل ، يزداد المتسولون مضايقة وإلحاحاً أكثر من المعتاد(٢) . وفى هذه الأوقات تزدحم المقاهى بأخلاط الناس ، فأكثرهم يفضل الإفطار بتناول القهوة والشبك . وقل من لا يصومون من الفقراء . غير أن كثيراً من الطبقتين العليا والوسطى يفطرون سراً .

وفى رمضان ، على العموم ، يوضع كرسى صينية الطعام ، قبيل المغرب ، فى غرفة الاستقبال بمنازل الطبقتين العليا والوسطى . ويوضع فوقه صينية مدهونة باللك ، وفيها صحاف عديدة تحوى أصنافاً مختلفة من الفاكهة المجففة (تسمى نقلا) مثل البندق (المقلى على العموم) ، والزبيب ، والجوز واللوز بقشرهما ، والبلح والتين المجففين ، والبندق المسكر ، الخ ، والكعك . ويوضع

---

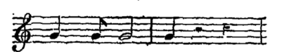
(١) لعلها تعنى بائعى التحف أى الأشياء الفاخرة الثمينة . وفى أحمد أمين (ص ١١٣) معنى مختلف ، تحفجى : كلمة يطلقها العامة على بائعى المعاجين والمنازيل ، وهى مواد يدخل فيها الحشيش والأفيون . (المترجم)

(٢) ويضيف لين فى مذكراته الخاصة بالرحلة الثانية (المستشرق الكبير ص ٧١) ، وكثيراً ما أسمع صيحاتهم : « فطورى عليك يارب ! أنا ضيف الله والنبى ! » وكذلك القول التالى ، الذى يجمع بين العربية الفصحى والدارجة، وهى طريقة شائعة فى مثل تلك العبارات : « من فطر صائم له أجر دائم » . (المترجم)

معها يضاً عدة « قلل » من الماء المحلى بالسكر ومعها عادة كوبة أو كوبتان زيادة على عدد الزائرين الحاضرين ، ليشترك فى الشرب كل من يقدم على غير انتظار . وكثيراً ما تضاف قطعة من الجبن الطازج وبعض الخبز . ويجهز الشبك أيضاً . والعادة أن تزود المنازل التى يكثر زوارها بشبكات من القصب . ويشرب رب الدار ومن يكون معه من أسرته أو من أصدقائه كوباً من الشراب ، بعد أذان المغرب مباشرة ، وهو يتلو الغروب بأربع دقائق ، ثم يقيمون الصلاة عادة . وبعد ذلك يتناولون بعض النقل ، ويدخنون الشبك . وبعد هذا الأكل الخفيف ، يجلسون لتناول طعام وافر من اللحم وغيره ، ويسمونه « فطوراً » . وبعد الفراغ من الطعام وشرب القهوة وتدخين الشبك ، يقيمون صلاة العشاء ويؤدون صلاة التراويح . وتتكون صلاة التراويح من عشرين ركعة ، وتردد بين صلاة العشاء والوتر . وقل من يقيم هذه الصلاة إلا فى المسجد ، حيث يوجد إمام يؤم المصلين ، فلا يفعلون أكثر من متابعة حركاته . وتقفل المساجد الصغيرة فى رمضان بعد صلاة التراويح . وتظل الجوامع الكبيرة مفتوحة إلى السحور ، أو إلى الإمساك . ويضاء داخلها ومداخلها مادامت مفتوحة ، وتضاء المآذن طوال الليل . ويختلف مدى الوقت الذى يسمح للمسلمين بالإفطار فيه (وهو يبدأ من المغرب ، كما سبق ذكره) من ١١ ساعة و ٥٥ دقيقة إلى ٧ ساعات و٤٦ دقيقة (عند خط طول القاهرة) ، تبعاً لطول الليل أو قصره ، إذ أن الإمساك يكون دائماً قبل صلاة الفجر بعشرين دقيقة . ومن ثم يصوم المسلم كل يوم من ١٢ ساعة وخمس دقائق إلى ١٦ ساعة و ١٤ دقيقة .

ويتناول المسلمون على العموم فطورهم بالمنزل فى شهر رمضان ، وبعد ذلك يمضون أحياناً ساعة أو ساعتين فى منزل أحد الأصدقاء . ويقصد الكثير منهم ؛ وخاصة أفراد الطبقة الدنيا المقاهى مساء ، إما للاجتماع بالناس ، وإما للاستماع إلى أحد القاصين الذين يسلون القوم فى عدة مقاهى كل ليلة من هذا الشهر . ويشاهد فى الشطر الأكبر من الليل كثيراً من المارة فى الشوارع . وتظل دكاكين المشروبات والمأكولات مفتوحة . وهكذا ينقلب الليل نهاراً ، وبخاصة عند الأغنياء ، الذين ينام أكثرهم معظم النهار . وجرت عادة بعض علماء القاهرة أن يقيموا ذكراً فى منازلهم كل ليلة من ليالى رمضان . وقد يدعو بعض الآخرين أيضاً أصدقاءهم ، ويسلونهم باقامة ذكر أو ختمة .

فى كل ليلة من ليالى رمضان يجول « المسحرون »(١) ليقولوا أولا كلمة ثناء أمام كل منزل يستطيع صاحبه أن يكافئهم ، وفى ساعة متأخرة يجولون ليعلنوا وقت السحور(٢) . ولكل « خط » ، أو قسم صغير ، فى القاهرة مسحر . ويبدأ المسحر جولاته بعد الغروب بساعتين تقريباً (أى بعيد أداء صلاة العشاء) ، ممسكاً بشماله طبلا صغيراً يسمى « بازا » أو « طبلة المسحر » ، وبيمينه عصا صغيرة أو سيراً ، يضربه به ، ويصحبه غلام يحمل قنديلين فى إطار من الجريد ويقفان أمام منزل كل مسلم غير فقير ، وفى كل مرة ، يضرب المسحر طبله ثلاث مرات بالنغم التالى :



ثم ينشد قائلا : « عز من يقول ، لا إله إلا الله » . ثم يضرب بالطريقة نفسها ويضيف قائلا : « محمد الهادى رسول الله » . ثم يعود إلى ضرب طبله ويواصل كلامه : « وأسعد لياليك ، يا فلان (مسمياً صاحب المنزل) » . إذ أنه يستفهم من قبل عن أسماء سكان كل منزل ، فيحيى كلا منهم ، ماعدا النساء ، بالطريقة نفسها ، فيسمى أخوة سيد المنزل وأولاده وبناته الأبكار ، قائلا فى الحالة الأخيرة ، «أسعد الليالى إلى ست العرايس(٣) فلانه» ، ويضرب طبله بعد كل تحية . وبعد أن يحيى الرجل (أو الرجال) يقول : « ليقبل الله منه صلواته وصيامه وطيباته » ويختم بقوله : الله يحفظك ، ياكريم ، كل عام » . وهو ينشد ، أمام منازل العظماء (كما فى أحوال أخرى أحياناً) ، بعد أن يقول : (عز من يقول : لا إله إلا الله ، محمد الهادى رسول الله) أغنية طويلة فى سجع غير موزون ، يبدأ فيها باستغفار الله ، ويصلى على الرسول ، ثم يأخذ فى رواية قصة المعراج وغيرها من قصص المعجزات المماثلة ، ضارباً طبله بعد كل قافية . ولايقف المسحر على منازل الحزانى . ويتناول المسحر على العموم من منزل المتوسط الطبقة قرشين أو ثلاثة قروش أو أربعة فى العيد الصغير . ويعطيه البعض مبلغاً زهيداً كل ليلة .

---

(١) يختفى نظام المسحراتى (وهى التسمية الدارجة حديثاً للمسحر) تدريجاً فى المدن . ولم يعد قائماً إلا فى الريف وبعض الأحياء القديمة . (المترجم)

(٢) وقد اشتقت تسمية (المسحر) من هذه الوظيفة .

(٣) كثيراً ما تسمى السيدات الحديثات السن « عرائس » .

قد يتأثر القارىء بما رويت قبلا عن وظيفة المسحر باعتبارها صورة لأخلاق المسلمين ، ولكنه سيزيد دهشة مما يلي : كثيراً ما يعمد نساء الطبقة المتوسطة إلى وضع نقد صغير (خمسة فضة ، أو من خمسة فضة إلى قرش ، أو أكثر) فى ورقة ، ويقذفن بها من النافذة إلى المسحر ، بعد أن يشعلن الورقة ليرى المسحر مكان سقوطها . فيقرأ الفاتحة بناء على طلبهن أحياناً ، أو من تلقاء نفسه ، ويروى لهن قصة قصيرة ، فى سجع غير موزون ، ليسليهن ، مثل قصة « الضرتين » . — وهى قصة مشاجرة امرأتين متزوجتين رجلا واحداً . وبعض ما يرويه فى هذه المناسبات بذىء . ويستمع إليه مع ذلك النساء فى المنازل الحسنة السمعة . وهو أمر يدل على شدة التناقض والتقلب فى الخلق .

ولا يقام فى هذا الشهر أذانا « الأولى » و « الأبد » ويستبدل بهما آخران . ويلقى أولهما ، ويسمى « الأبرار » ، بين ساعة ونصف ونصف ساعة قبل منتصف الليل ، حسب طول الليل أو قصره . ويتكون من الآيات التالية ، من سورة الإنسان : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً . يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً » . — ويسمى الأذان الثانى « السلام » وهو مجموعة من الصلوات على الرسول ، تشبه تلك التى تقرأ قبل صلاة الجمعة ، ولكنها لا تشبهها دائماً . ويلقى على العموم بعد منتصف الليل بنصف بساعة . ويلقى أذان الصباح أكثر تبكيراً من المعتاد ، لتنبيه المسلمين إلى تناول « السحور » ، فيؤذن قبل الإمساك بساعتين ونصف تقريباً ، فى الليالى الطويلة ، وبساعة ونصف تقريباً ، فى الليالى القصيرة . وهناك أذان آخر يلقى من « الدكك » فى الجوامع قبل الإمساك بعشرين دقيقة ، كتنبيه أخير لمن يكون قد أهمل تناول الطعام . ويصيح « الميقاتى » (الذى يعلن أوقات الصلاة الخ .) أو بعض آخر ، وقت الإمساك فى هذه الجوامع : « ارفعوا ! » [طعامكم الخ] . ويتجول المسحر ، قبل الإمساك بساعة ونصف ، ليوقظ من الناس من أمروه بالمناداة عليهم ، ليتناولوا الطعام ، أو ليذكرهم بذلك ، فيقرع الباب ، وينادى إلى أن يجاب . ويفعل مثله بواب كل حى عند كل منزل فى الحى . وبعض الناس يتناولون فطوراً خفيفاً ، ويجعلون السحور الوجبة الرئيسية . ويفعل آخرون العكس ، أو يجعلون الوجبتين مماثلتين . وينام أكثر الناس فى نصف الليل تقريباً .

يمضى بعض أتقياء المسلمين الأيام العشرة الأخيرة من رمضان ولياليها فى مسجد الحسين أو مسجد السيدة زينب . وتسمى إحدى تلك الليالى ، والمفروض على العموم أن تكون السابعة والعشرين(١) (أى الليلة السابقة على يوم السابع والعشرين) « ليلة القدر » . ويقال إن القرآن أنزل على محمد فى هذه الليلة ، وإنها « خير من ألف شهر » . ويعتقد أن الملائكة تنزل فى بدء تلك الليلة إلى الفجر لتحمل النعم إلى المؤمنين ، وأن الدعاء يجاب بلا ريب ، إذ أن أبواب السماء تفتح حينئذ . ويقال إن الماء المالح ينقلب فجأة عذباً فى هذه الليلة ولذلك يراعى بعض الأتقياء الليالى العشرة الأخيرة من رمضان بخشوع عظيم ، لجهلهم أيها ليلة القدر . ويبقون أمامهم وعاء من الماء المالح يتذوقونه أحياناً ، ليختبروا حلاوته فيتأكدوا من الليلة . ووجدت ، مع ذلك ، أن هناك سنة للرسول تحددها فى ليلة مفردة العدد ، فى ليلة ٢١ ، أو ٢٣ ، أو ٢٥ ، أو ٢٧ ، أو ٢٩ .

يحتفل فى الأيام الثلاثة الأول من شهر شوال بأصغر العيدين ، ويسمى عامة « العيد الصُغير » ، وعلى الأصح « العيد الصغير »(٢) . ويبدأ هذا العيد بانتهاء الصيام . وبعيد شروق شمس اليوم الأول ، يظهر الناس فى حللهم الجديدة أو فى أحسنها ، ويجتمع الرجال فى المساجد ، ويصلون ركعتين ، سنة العيد، ثم يلقى الخطيب الخطبة .ويتعانق الأصدقاء ، مهنئين بعضهم بعضاً ، حينما يتقابلون فى المسجد ، أو فى الشارع ، أو فى منازلهم . وهم يتزاورون لهذا الغرض على العموم . ويلبس البعض ، حتى من الطبقة الدنيا ، ملابس كاملة جديدة ، ويكاد الكل يلبسون شيئاً جديداً ، ولو حذاء فقط . ويقدم السيد لخادمه قطعة واحدة من الثياب على الأقل، جديدة، ويتناول الخادم بعض قروش من كل من أصدقاء السيد ، عند زيارتهم المنزل ، أو عندما يذهب إليهم ليهنئهم . وإذا كان الخادم قد خدم سيداً سابقاً ، فانه يذهب لزيارته أيضاً ، فيكافئه لهذه المشقة . وقد يهدى إليه طبقاً من الكعك ، فيتناول مقابل ذلك ضعف قيمته ، أو أكثر ، نقوداً . ويأكل أهل القاهرة فى هذا العيد « فسيخاً »(٣) ، « وكعكاً » و « فطيراً » و « شريكاً » ويجهز بعض العائلات أيضاً طبقاً يسمى

---

(١) وهى ليست الليلة القائل بها سيل Sale ، التى تقع بين يومى ٢٣ و ٢٤ . أنظر أحد هوامشه على سورة القدر .

(٢) ويسمى أيضاً عيد الفطر . ويسميه الأتراك « رمظان بيرام » .

(٣) الشائع اليوم أكل السمك المجفف المسمى « بكلاه » . (المترجم)

« ممزوزة » يتكون من اللحم والبصل ، والدبس ، والخل ، والدقيق الخشن . ويحضر رب المنزل لعائلته عادة « نقلا » ، كالبندق والزبيب الخ . وتقفل أغلب حوانيت العاصمة ، ما عدا حوانيت المأكولات والمشروبات ، غير أن الشوارع تظهر ، لحشد المارة فى ملابس العيد ، فى منظر بهيج .

يزور أفراد العائلة ، بعضهم أو جميعهم ، والنساء خاصة ، مقابر أقاربهم ، فى يوم من أيام هذا العيد أو أكثر . ويفعلون ذلك أيضاً فى العيد الكبير (الذى سأتكلم عنه فيما بعد) . ويحمل الزوار ، أو خدمهم ، السعف والريحان أحياناً ، لوضعه فوق القبور التى يزورونها . ويشق السعف إلى عدة قطع يضعونها جميعاً ، أو أوراقها فقط ، فوق القبر . ويشاهد فى هذا الوقت جماعات عديدة من النساء ، يحملن السعف فى طريقهن إلى المقابر بجوار العاصمة . وهن يزودن أيضاً ، حسب ظروفهن ، بالكعك والشريك والفطير والبلح ، أو بعض المأكولات الأخرى ، لتوزيعها على الفقراء الذين يقصدون المقابر فى هذه الأيام. وتنصب الخيم أحياناً لهن وتحيط الخيمة بالقبر ، موضع الزيارة(١) . ويتلو الزائرون الفاتحة ، أو إذا استطاعوا يستخدمون شخصاً لقراءة سورة يس أولا ، أو جزءاً أكبر من القرآن . وقد يستخدم عدة فقهاء لقراءة ختمة عند القبر ، أو فى المنزل . ويعود الرجال على العموم عقب القيام بهذه الطقوس مباشرة . ويذهب النساء عادة إلى القبر مبكرات فلا يعدن قبل العصر . وبعضهن (وأولئك لا يعتبرن على العموم حسنات السيرة) يمضين الليلة فى الخيمة ، ويبقين إلى نهاية العيد ، أو إلى عصر يوم الجمعة التالى . وكذلك يفعل نساء العائلة التى تملك مدفناً مسوراً خاصاً ومنزلا بداخله ، إذ أن هناك عدة مدافن مسورة مثل هذا ، يوجد بعدد غير قليل منها منازل لراحة النساء ، وسط مقابر القاهرة العامة . ويقال إن المكائد ليست غير شائعة فى النساء اللائى يمضين الليل فى الخيام بين المقابر . وتعرض مقبرة باب النصر الكبيرة ، فى القسم الصحراوى القائم شمال العاصمة مباشرة ، فى العيدين منظراً يستحق الاعتبار . وتقام فى جانب قريب من باب المدينة الذى تستمد منه المقبرة اسمها ، عدة أراجيح ، وخيم كبيرة يعمل بها الراقصون ، ورواة أبى زيد ، وغيرهم من اللاعبين ، وترى خلال المقابر عدة خيم لاستقبال زوار القبور .

---

(١) ولا بد من قراءة السلام عند الدخول إلى المقبرة ، وعند الوصول إلى القبر ، بالطريقة المذكورة فى الفصل العاشر ، عند الكلام على زيارة القبور وأضرحة الأولياء . والسلام فى الحالة الأولى عام ، وفى الأخرى خاص .

عقب العيد السابق ذكره بيومين أو ثلاثة أيام تقريباً تحمل الكسوة المرسلة سنوياً مع قافلة الحجاج الكبرى ، فى موكب يسير من القلعة ، حيث تصنع على نفقة السلطان ، إلى مسجد الحسين ، لتخاط أقسامها معاً ، وتبطن استعداداً للحج القريب . والكسوة ديباج أسود غليظ ، تغطيه نقوش(١) لآيات قرآنية الخ ، تنسج بالحرير من اللون نفسه ، ويعبر كل جانب شريط عريض ، مزين بنقوش مشابهة تشغل بالذهب(٢). وإنى أكتب الآن عن موكب الكسوة ، بعد عودتى من مشاهدته ، فى السادس من شهر شوال عام ١٢٤٩ (١٥ فبراير ١٨٣٤) .

أخذت مجلسى بعد شروق الشمس فى دكان كتبى الباشا(٣) فى شارع المدينة الرئيسى مقابل مدخل سوق خان الخليلى تقريباً،وكان هذا الدكان وكل دكاكين الشارع تقريباً مزدحمة بأشخاص جذبتهم الرغبة فى مشاهدة الموكب شيوخاً وشباناً. والمصريون من كل طبقة ومركز وسن يجدون لذة كبيرة فى رؤية المشاهدات العامة. ولكن الشوارع لم تكن مزدحمة الازدحام العادى فى مناسبات مواكب المحمل. وبعد الشروق بساعتين تقريباً كانت الأقسام الأربعة التى تكون كل منها جانباً من الكسوة قد مرت محمولة بالمكان الذى اتخذت فيه مركزى ؛ فوضع كل قسم من الحبال التى تربط بها على حمار. ولم تكن الحمير مزينة إطلاقاً،

---

(١) وكان أكثر أصدقائى المسلمين ينكرون هذا ، وقد ذكرته أمامهم عرضاً ، ولكن عندما قدمت قطعة من الكسوة ، أثبت حقيقة قولى . وقررت هذا لأبين أن الكاتب كثيراً ما يتهم بالأخطاء فى السند الذى لا يعتبره أحد مقنعاً إقناعاً تاماً .

(٢) والكعبة بناء يتوسط مسجد مكة ، ويبجلها المسلمون تبجيلا عظيماً . وهى على شكل مكعب تقريباً . وارتفاعها أكثر من ثلاثين قدماً تقريباً . وكل جانب عرضه مماثل للآخر ، أو أكثر قليلا . وهى ليست مستطيلة تماماً . ويرفع غطاؤها كل سنة تقريباً فى الخامس والعشرين من ذى القعدة ، فيقطع ، ويباع إلى الحجاج . ويبقى البناء عارياً خمسة عشر يوماً . وتوضع الكسوة الجديدة فى العاشر من ذى الحجة ، أول يوم العيد الكبير . ويعلق فى الداخل غطاء يجدد كلما اعتلى عرش تركيا سلطان جديد . ولا بد من تغيير الكسوة الخارجية سنوياً لتعرضها للمطر وغيره . ولما كان استعمال النسيج الحريرى ممنوعاً ، فإن كسوة الكعبة تبطن بالقطن ليكون ذلك مباحاً .

(٣) وهو شريك الشيخ أحمد اللى يتكلم عنه (لين) فى مقدمة هذا الكتاب . ويقول لين فى يومياته ، فى رحلته الثانية (أنظر المستشرق الكبير ص ٧٠) : وهو يعمل مع كتبى آخر ، أعلى منه منزلة ، بالوكالة فى بيع الكتب الصادرة من مطبعة بولاق فى دكان يقع بالشارع الرئيسى تجاه خان الخليلى تقريباً . وقد أصبح هذا الدكان المكان الملائم لى لأشاهد منه سير المواكب العامة . (المترجم)

ولا مسرجة باتقان ، وكان الحمارون فلاحين عاديين ، باللباس الأزرق العادى . ثم مضت ثلاثة أرباع الساعة تقريباً ، ولم يظهر شيء يخفف من ثقل هذه الوقفة الطويلة غير مرور بعض الدراويش ومهرجين وقفا اتفاقاً أمام دكان شاهدا به أشخاصاً حسنى الملبس وذلك لأجل الحصول على عطية ، فاشتبكا فى قتال مصطنع ، وشتم كل منهما الآخر بألفاظ غليظة مرتفعة ، وصفعه على وجهه بشدة .

بعد هذا قدم حوالى عشرين رجلا فى ثياب رثة يحملون على أكتافهم إطاراً طويلا من الخشب امتد عليه ربع « الحزام » (أى الشريط السابق ذكره) وهو قطع أربع تكون حينما تخاط معاً إلى الكسوة شريطاً متصلا يحيط بالكعبة جميعاً إلى ثلثى ارتفاعها تقريباً ، وهو من نسج الكسوة نفسها . وتشغل النقوش الذهبية خطوط جميلة متسعة . ويحيط بكل ربع حاشية ذهبية ، ويزين كل طرف ، حيث تتصل الحواشى العليا والسفلى ، بالحرير الأخضر والأحمر ، يخاط به ويزركش بالذهب . وكثيراً ما يتقدم أحد حاملى « الحزام » إلى بعض المشاهدين المحترمين ليسألهم عطية . ومضى نحو ربع ساعة بعد أن مر ربع الحزام الأول ، ثم مرت الثلاثة أرباع الأخرى متتالية مباشرة بالطريقة نفسها ، ثم فاصل آخر مدة نصف ساعة جاءت بعده عدة جمال مرتفعة مخضبة بالحناء الخفيفة ، وتعلوها سروج مرتفعة مزينة مثل ما وصفت فى عودة المحمل . وكان يركب كل منها ولد واحد أو بنت واحدة أو أكثر ، وكان على بعضها قطط . وكان يتبع ذلك جماعة من « البلطجية »(١) (أو فرقة الطليعة) ، وهم فرقة موسيقية عسكرية ممتازة (آلاتها مختلفة الأنواع ، ولكنها تتكون من الأبواق غالباً ، وجميع أفرادها أوربيون) وحرس الباشا ، وهم فرقة مشاة من الشبان المختارين يلبسون لباساً موحداً من الأحمر الضارب إلى الأزرق القاتم ، وأحذية حمراء جديدة ، وجوارب .

---

(١) البلطجى : هو من يسير مع العسكر لأجل تسهيل الطريق بقطع الأشجار وإقامة الحصون (تركية) . (المنجد) – وذلك باستعمال البلطة . – والبلطجى فى اللغة الدارجة يعنى الفتوة الذى يعتمد على قوته فى سلب مال الناس والاعتداء عليهم ، كما يطلق هذا اللفظ على الشخص الذى لا يهتم بأداء الحق إلى صاحبه . (المترجم)

وكان يحمل بعـد ذلك ، مثبتاً على ظهر جمل جميـل ، « البرقع »[1] ، وهو الستار الذى يعلق أمام باب الكعبـة ، ممدداً على إطار مرتفع من الخشب . وهو من الديباج الأسود، المزركش على طريقة الحزام، بنقوش من القرآن فى حروف من الذهب ، ولكنه أكثر فخامة وزينة ، وكان مبطناً بالحرير الأخضر . وكان وجه البرقع ممتداً على يمين الإطار ، والحرير الأخضر على اليسار . وكن يتبع ذلك فرق عـديدة من الدراويش بأعلامها ، وبينها « شواليش » كثيرة (مثـل التى وصفتها عند الكلام على الدوسة فى عيد المعراج) ، وهى أعلام طوائف الدراويش الرئيسية . وحمـل كثير من الدراويش أعلاماً عليهـا الشهادتين (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ، أو آيات من القرآن ، وأسماء الله ، والرسول ، ومؤسسى طوائفهم . وحمل كثير من دراويش القادرية شباكاً ، مختلفة الألوان ، يمتد كل منها على إطـار فوق عمـود[2] . وهؤلاء الدراويش صيادون . وبعضهـم كان يردد أسمـاء الله وصفاته ، كما فى الذكر العادى . واشتبك رجـلان ، مسلحين بالسيف والترس ، فى قتال مصطنع . وكان هناك رجـل آخر يركب حصاناً ، ويلبس لباساً غريباً من جلد الخراف ، وقلنسوة جلدية مرتفعـة ، وذقناً مقلدة مضحكة ، تتكون من قطع صغيرة من الفتل الصوفية ، حسب الظاهر ، وشاربين من ريشتين ممراوين طويلتين . وكان هـذا الرجل يتظاهر بكتابة « فتـاوى » ، فيتناول من المشاهدين ورقاً ، ويأخذ قطعة من الخشب ينخس بها جواده ، كأنه يضعها فى وعاء الحبر . غير أن أكثر الفرق اعتباراً ، فى هذا القسم من الموكب ، هم دراويش الرفاعية ، ويسمون أولاد علوان ، وقد حمل كل منهم مسمار حديدياً ، طوله قدم تقريباً ، ويعلو طرفه الغليظ كرة حديدية ، يعلق بها عدد من السلاسل القصيرة الدقيقـة . ودفع كثير من هؤلاء الدراويش ، حسب الظـاهر ، المسمار فى عيونهم بعنف ، ومحبوه دون أدنى مظهر لضرر ما . ويبدو المسمار مغروزاً إلى عمق بوصـة تقريباً . وقد أجادوا القيام بهذه الحيلة إجادة طيبة . ويكتفى باعطاء المشعوذ الدينى قطعة نقدية صغيرة ، أو حشوة شبك ، جزاء على هـذا العرض الخارق المزعوم . وبدا المشاهدون بجانبى لا يشكون فى خداع هذا العمل الغريب . وقد لامنى أحدهم ، وهو رجل ذو معرفة فائقة ، لتعبيرى عن رأيى فى هذا العمل

---

(1) كثيراً ما يسمى العامة هذا : « برقع ستنـا فاطمـة » . إذ يقال إن فاطمة شجرة الدر زوجة السلطان الصالح ، كانت أول من أرسل برقعاً من هذا النوع لتغطية باب الكعبة .

(2) « مدرة المراكبية » التى يدفعون بها المراكب فى المياه الضحلة . وقد تكون «مدرة» محرفة من لفظ (مدراً) ويعنى ما يدفع به .   (المترجم)

بأنه براعة فى الاحتيـال . وكان أغلب دراويش الموكب من الرفاعيـة ، وكان يتبعهم شيوخهم راكبين الجياد .

وجاء بعد ذلك المحمل ، وقد وصفته عند الكلام عن عودته إلى القاهرة ، وقد أضيف إلى موكب الكسوة لزيادة العـرض . أما موكب المحمـل العظيم السابق على سفر قافلة الحجاج الكبيرة فيكون بعد ذلك بمدة تتراوح بين أسبوعين وثلاثة أسابيـع . وتلا المحمـل غطاء أسود آخر ، مستطيـل الشكل مزركش بالذهب على الطريقة نفسها ، وهو يوضع على مقام ابراهيم ، فى مسجد مكة . وركب خلف هـذا ضابط تركى يحمل علبة صغيرة من الحرير الأخضر مزركشة بالذهب ، بها مفتاح الكعبة ، فوق منديل مطرز . وأخيراً ، تبع كل ذلك الشيخ النصف عارى المذكور فى عودة المحمل ، وهو يتبعه دائماً ، ويصحب القافلة إلى مكة ومنها ، راكباً جملا ، ولا ينفك عن تدوير رأسه(١) .

يخرج كبار الضباط وحرس قافلة الحجاج الكبيرة فى القسم الآخر من شوال وليس دائماً فى اليوم نفسه من الشهر ، ولكن على العموم فى الثالث والعشرين أو ما يقرب منـه ، مخترقين العاصمـة ، من القلعـة ، فى موكب عظيم متقدمين المحمل . ويسمى هـذا « موكب المحمـل » . ويجتمع الأشخاص المختلفـون الذين يشتركون فى الموكب . وأغلبهـم يسافرون مع القافلة ، فى قراميـدان والرميلة (وهما ميـدانان واسعان) أسفل القلعـة ، ويأخذون أماكنهم هناك بالنظـام الموضوع . ولما كان هـذا الموكب يقل فخامة فى كل عام على التوالى تقريباً ، فانى أصفه كما شاهدته أول مرة أثناء زيارتى الأولى لمصر . وكانت الشوارع التى يمر بها الموكب مزدحمـة الجانبين بالمشاهـدين ، جلوساً على مصاطب الدكاكين المقفلة ، ووقفين أسفلها على الأرض . وحصلت على مكان جيـد فى أحـد دكاكين الشارع الرئيسى الذى يمر الموكب فيه إلى باب النصر .

بدأ الموكب يتقدمه مدفع ميـدان صغير ، يستخدم لإطلاق إشارة رحيل القافلة بعد كل محط ، وكان قد مضى على شروق الشمس ثلاث ساعات تقريباً .

---

(١) ذهبت إلى مسجد الحسـنين ، بعـد ذلك بأيام قليلة ، لفحص الكسوة والأشياء الأخرى المذكورة سابقاً حتى أستطيع أن أجعل كلامى عنها أكثر صحة وتماماً . وقد سمح لى بمسكها حسب رغبتى . وقد أعطيت هدية صغيرة لهذا الامتياز ، ومقابل قطعة زائدة من الكسوة ، طولها شبر وعرضها كذلك تقريباً ، كنت قد طلبتها .

وتبع ذلك فرقتان من الفرسان الأتراك غير النظاميين (الدلى والتُفكجى) تتكونان من خمسمائة رجل ، أكثرهم فى ثياب رثة ، ويبدون معاً بمظهر قطاع الطرق . بعد ذلك ، بنصف ساعة تقريباً ، ظهر عدة رجال راكبين الجمال ، يضرب كل منهم زوجاً من النقارات(١) مربوطاً بمقدم السرج . وخلفهم جمال أخرى لا يركبها راكب ، ذات أسرجة محشوة كبيرة ، من النوع المذكور عند الكلام فى عودة المحمل . وكانت تلك الجمال جميعاً مصبوغة باللون البرتقالى المغبر بالحناء . وكان بعضها يحمل سعفاً أخضر مثبتاً عامودياً فوق أسرجتها كريش ضخم ، وغيرها مزينة بأعلام صغيرة على الطريقة المشار إليها سابقاً ، ويحمل الكثير منها جرساً كبيراً معلقاً على كل جانب . وكان بعضها أيضاً يحمل قرباً ، وأحدها يحمل « الخزنة » ، وهى صندوق مربع ، مغطى بالجوخ الأحمر ، يحوى المال اللازم للقيام بنفقات الحج التى تقع على عاتق الحكومة . ثم تبعت ذلك أمتعة أمير الحج ، والكسوة الجديدة ، تحملها الجمال . وبعد ذلك فاصل آخر .

وجاء بعد هؤلاء عدة دراويش ، يحركون رؤوسهم من جانب إلى آخر ، ويرددون اسم الله . وكان مع هؤلاء عدة حمالين وسقائين وكناسين وغيرهم ، وكان بعضهم يصيح « عرفات !(٢) يا الله ! » و « الله ! الله ! بالسلامة » . ثم جمال أخرى ، بعضها محمل بالسعف ، وأخرى بأجراس كبيرة ، كما سبق . وبعد ذلك ، « تختروان أمير الحج » ، مغطى بالجوخ الأحمر ويحمله جملان ، وقد زين سرج الجمل المتقدم بعدة أعلام صغيرة . وتبع التختروان بعض العرب و« دليل الحاج » . ثم عدة جمال ، وفرق من الدراويش وغيرهم . ثم جاء حوالى خمسين رجلا من أتباع الباشا ، راكبين فى أحسن ملابس ، ثم عدد من الضباط يحملون عصياً فضية الرأس ، وبنادق ، ثم رئيس فرقة الدلى ، وضباطه ، ثم فرقة أخرى من الأتباع ، راكبين مثل السابقين ، ولكنهم أقل درجة . وكان يتبع هؤلاء عدة ضباط آخرين من البلاط ، مترجلين ، ومتدثرين بقفاطين من القصب . وقدم بعد ذلك مبارزان ، عاريين إلى الوسط ، ويحمل كل منهما ترساً مستديراً صغيراً . وقد وقفا عدة مرات ليشتبكا فى مبارزة .

---

(١) وقد وصفتها فى فصل الموسيقى .
(٢) عرفات اسم الجبل الذى يعد أحد أهداف الحج الرئيسية .

وقد ناولها بعض المشاهدين عطايا . وجاءت خلفهم فرقة من الدراويش ، وجمالون ، وآخرون ، يرددون الكلام السابق .

وبعد مدة قصيرة ، كانت أصوات الطبول والصفافير تسمع ، وتقدمت فرقة عظيمة من النظاميين . وجاء بعد ذلك « الوالى » (رئيس الشرطة) فى نفر كثير من ضباطه . ثم اتباع أمير الحج ، ثم أمير الحج نفسه ، ثم ثلاثة من الكتبة ، ثم فرقة من فرسان المغاربة ، ثم ثلاثة من « مبلغى » الجبل ، يلبسون العباءة البيضاء المنسوجة بالقصب . ووظيفة « المبلغ » هى ترديد بعض كلمات الخطيب على جبل عرفات . ثم تخلل الموكب مرة أخرى فرق عديدة من الجمالين والكناسين والسقائين وآخرين ، ويردد الكثير منهم الكلام السابق . وقد ركب وسط هؤلاء أئمة المذاهب الأربعة . وتبعتهم فرق عديدة من الدراويش المنتمين إلى طوائف مختلفة ، بأعلامهم الطويلة وراياتهم المذكورة فى حديثى عن موكب الكسوة . وكان القادرية يحملون علاوة على ملدرهم ذات الشباك المختلفة الألوان ، جريداً طويلا كأنها عصى الصيد . وكان على رأس كل من هذه الفرق نقاقير ومزامير ، وآلات أخرى ، تحدث موسيقى غليظة . وكان يتبعهم أشخاص يمثلون الحرف المختلفة ، برأس كل فئة منهم شيخهم .

جاءت بعد ذلك جمال عديدة ثم المحمل . وتدافع الكثير من الجمهور فى الشوارع نحوه بعنف ، ليلمسوه بأيديهم ، ثم يقبلونها بعد ذلك . وأدلى كثير من النساء اللائى شاهدن المنظر من نوافذ المشربيات شيلانهن أو براقعهن ، ليلمسن بها المحمل المقدس . وكان يسير خلف المحمل مباشرة الشخص نفسه الذى تكلمت عنه عند وصف عودة المحمل إلى القاهرة وموكب الكسوة : وكان الشيخ نصف العارى جالساً على جمل يدور رأسه .

وفى السنوات السابقة ، كانت العادة أن يحمل المحمل ، بهذه المناسبة ، بفخامة فائقة ، وخاصة فى أيام المماليك ، الذين كان يحضرون الموكب فى أفخم ملابسهم ، عارضين أفخر الأسلحة وعدد الحرب . ويتسابقون ، على أى حال ، كل مع الآخر فى الفخامة . وكانت العادة على العموم أن يسبق المحمل فرقة من السعدية ، يأكلون الثعابين الحية .

ويظل المحمل ، ومتاع الأمير ، الخ . ، على العموم يومين أو ثلاثة أيام أو أكثر فى سهل الحصوة ، شمالى العاصمة ، ثم يتقدم إلى بركة الحاج ،

على بعد أحد عشر ميــلا من المدينة ، ويبقى هنــاك يومين . ويعد هذا المنزل الأخير ملتقى الحجاج . وترحل القـافلة من هناك فى السـابع والعشرين من شوال عادة . ويدوم السفر إلى مكة سبعة وثلاثين يوماً . ويمتـد الطريق فى صحراء صخرية ورمليـة ، نادرة الخضرة . وللتخفيف من شـدة السفر ، تسير القافلة ببطء ، ليلا غالباً ، وترحل قبل الغروب بساعتين تقريباً ، وتستريح فى الصباح التالى بعيـد الشروق . وقد وصفت أكثر هوادج الحجـاج استعمالا عند الكلام على عودة القافلة . ويفضل كثير من الحجاج الأتراك ، وكثير غيرهم ، الذهاب بطريق القصير أو السـويس والبحر الأحمر ، ويرحلون من القاهرة على العموم قبل القافلة الكبيرة بشهرين ونصف تقريباً .

يبدأ العيــد الكبير(١) فى العاشر من ذى الحجــة . ومدته ثلاثة أيام(٢) ، مثل العيد السابق ، أو أربعة ، وتراعى فيه العادات نفسها تقريباً . فيلبس الناس أحسن ملابسهم ، أو حلة جديدة ، ولكن الغالب لبس الملابس الجديدة فى العيد الصغير . وتقـام الصلوات فى المسـاجد فى اليوم الأول ، بعيد الشروق ، مثل العيد الصغير ، ويراعى أغلب الناس العادات نفسها الخاصة بالزيارات والتهانى والعطايا . وتنحر الضحـية فى اليـوم الأول ، الذى هو يوم ضحية الحجاج وقد ذكرتها فى الفصل الثالث . وهى واجب يراعيه أكثر الذين يستطيعون القيام به . وتقاد إلى القاهرة لعدة أيام سابقة قطعـان عديدة من الغنم ، وعـدة جواميس لتباع للتضحية . وتراعى كذلك زيارة القبور السابق ذكرها . ويحتفل على العموم بالعيد الصغير ببهجة تفوق بهجة العيـد الكبير . ويجهز أغلب النـاس فى العيد الكبير طبق « فتة » يتكون من لحم الخروف المسلوق ، أو لحم آخر (لحم الضحية) يقطع قطعـاً صغيرة ، ويوضع على خبز مكسر ، ويصب عليـه مرق اللحم ، وبعض الخل المتبـل بقليل من الثوم المقلى فى السمن ، ثم يرش عليـه بعض الفلفل .

---

(١) ويسمى أيضاً « عيد القربان » والأتراك يسمونه « قربان بيرام » .
(٢) يحدد العيد الكبير بأربعة أيام . (المترجم)

الفصل السادس والعشرون

تابع الأعياد الدورية العامة الخ

من العجيب أن يمارس المصريون المسلمون عادات دينية أو خرافية فى أوقات خاصة من التقويم القبطى ، بل ويحسبون تواريخ التغييرات الجويه طبقاً للنظام نفسه . فيحسبون زمن الخماسين ، الذى تكثر فيه الرياح الجنوبية الحارة ، أنه يبدأ فى اليوم التالى مباشرة لعيد الفصح القبطى ، وينتهى فى يوم العنصرة (أو سبت النقطة) ، فتكون مدته ٤٩ يوماً(١) .

ويسمى يوم الأربعاء السابق على هذه الفترة مباشرة «أربعاء أيوب» فيستحم كثيرون فى هذا اليوم بالماء البارد ، ويدلكون أنفسهم بالنبات الزاحف المسمى « رعرع أيوب » أو « غُبيره » (inula Arabica) و (٢) (inula andulata) تبعاً لأسطورة تقول إن أيوب فعل هكذا ليسترد صحته . وكانت هذه العادة

---

(١) أعتقد أن الكتاب الأوربيين جميعاً ما عداى ، يسمون هذا الوقت « الخمسين » غير أن العرب يسمونه دائماً « الخماسين » وهو جمع دارج لخمسين . وبالطريقة نفسها يسمى العرب الوقت المقابل فى التقويم العبرى تسمية موافقة تماماً مع « الخماسين »، وهى «الخمسينات» ويسمى اليوم الأخير « الخمسين » . أنظر دساسى De Sacy فى Chrestomathie Arabe الطبعة الثانية الجزء الأول ص ٩٨ من النص العربى ، وص ٢٩٢ و ٣٢٠ من الترجمة والهوامش . ومع ذلك يبدو أن هذا العالم الفاضل لم يكن عنده أى مرجع بالنسبة للاسم الأول فى التقويم القبطى غير ما قاله الأوربيون فكتب مثلهم « خمسين » .

(٢) ويقول أحمد أمين (ص ٢٩) « ... وقد اعتادوا أن يبيعوا نبتاً يقال له البرنوف. يدعون أنه إذا نقع فى الماء واغتسل به يوم الأربعاء شفى من الضر وأنه هو النبات الذى شفى به أيوب. وفى ذلك اليوم ينادى على نبت آخر ذى رائحة طيبة بقولهم يا رعرع أيوب » . — وفى معجم النباتات ، بديفيسان : رعراع أيوب pulicaria dysenterica . أما البرنوف فهو inula conyzoides ويظن أن اللفظ من القبطية ، معجم الألفاظ الزراعية للأمير الشهابى . (المترجم)

وغيرها من العادات التي سأذكرها حالا خاصة بالأقباط ، غير أن الكثير من المسلمين فى المدن وأكثر الريفيين يراعونها الآن . أما العادات الأخرى فهى أكل البيض المصبوغ بالأحمر أو الأصفر أو الأزرق ، أو بلون آخر ، فى اليوم التالى (الخميس) ، وأكل خلطة من الكشك »(١) والفول النابت والعدس والأرز والبصل الخ ، فى يوم (الجمعة الطيبة) وجرت العادة أن يتكحل الرجال والنساء يوم السبت ، المسمى « سبت النور » لأن نوراً خارقاً للعادة على حد القول ، ظهر أثناء الاحتفال الذى أقيم حينذاك عند القبر المقدس فى أورشليم .

يحتفل بـ « شم النسيم » فى اليوم الأول من الخماسين(٢) . فيقوم المصريون ، وخاصة النساء ، مبكرين فى هذا اليوم ، فيكسرون بصلة ويشمونها . ويبكرون بالذهاب إلى الريف المجاور ، راكبين أو راجلين ، أو يتنزهون فى النيل . ويتجهون إلى الشمال على العموم ليتنسموا النسيم أو كما يقولون ، ليشموا النسيم . وهم يعتقدون أن النسيم ، فى ذلك اليوم ، ذو تأثير مفيد عجيب . ويتناول أكثرهم الغذاء فى الريف أو فى النيل(٣) . وكان شم النسيم هذا العام (١٨٣٤) عاصف الجو حاراً مغبراً فلم يكن هناك نسيم ، ومع ذلك خرج كثير من الناس « ليشموه » . وللعلماء « شم نسيم » فى زمن محدد من السنة الشمسية : الأيام الثلاثة الأولى من فصل الصيف الموافقة « للنوروز Now—roz »(٤) الفارسى الذى يسميه العرب « نوروز Norooz (٥) » .

---

(١) الكشك kishk (كما ينطق عامة ، وعلى الأصح keshk) يجهز من القمح ، ويبل أولا ، ثم يجفف ، ويهرس فى وعاء لفصل الغلاف الخارجى ، ويطحن طحناً غليظاً بطاحونة يد . ويمزج الدقيق باللبن ، ويفرغ بملعقة بعد ست ساعات على قليل من التبن أو النخالة ويترك يومين أو ثلاثة ليجف . وعند الحاجة ، ينقع مقدار منه ، أو يطحن ، ويوضع فى منخل على وعاء ، ثم يصب عليه ماء يغلى . وما يتبقى فى المنخل يرمى ، وما يمر خلال المنخل فى الوعاء يصب على العموم فى قدر به لحم مسلوق أو دجاج ، فوق النار . ويضاف إلى كل طبق كشك عادة بعض أوراق سلق تقلى بالزبدة . (المؤلف)

المألوف حالياً وضع البصل قطعاً صغيرة مقلية فوق الكشك . — وفى الفارسية ، كشك (بفتح الكاف وتسكين الشين) : لبن ينشف بعد غليه أو اسم طعام يصنع من الدقيق . (المترجم)

(٢) وهو يقع دائماً فى يوم إثنين . (المترجم)

(٣) العادة الجاريه حالياً أكل البيض المسلوق الملون ، بيضتين على الأقل . والاعتقاد السائد أن تناول عدد مفرد من البيض يسبب وجع العين . ويكثر أكل الفسيخ فى هذا اليوم . (المترجم)

(٤) النوروز (بفتح النون وتسكين الواو الأولى) اليوم الجديد من السنة الإيرانية . نو : جديد . روز : يوم ، نهار . (المترجم)

(٥) تقول العرب كثيراً : نيروز (بفتح النون) . وفى القاموس المحيط : نيروز أول يوم من السنة . (فصل النون باب الزاى) . (المترجم)

وتسمى ليلة السابع عشر من يونيو ، التي توافق الحادية عشر من بؤونة ، « ليلة النقطة » ، إذ يعتقد أن نقطة عجيبة تسقط حينئذ فى النيل ، وتسبب ارتفاعه .ويحسب الفلكيون الوقت المضبوط لسقوط « النقطة » ، ويكون دائماً فى غضون الليلة السابق ذكرها . ويمضى كثير من سكان القاهرة وضواحيها ، ومن جهات أخرى بمصر ، هذه الليلة على ضفاف النيل . ويمضيها البعض فى منازل أصدقائهم ، وآخرون فى الهواء الطلق . ويراعى الكثيرون أيضاً ، وخاصة النساء ، عادة غريبة فى ليلة النقطة ، فيضعون فوق سطح المنزل ، بعد الغروب ، عجيناً بقدر عدد سكان المنزل ، فيعلم كل منهم قرصه . وفى فجر اليوم التالى ينظرون إلى الأقراص ، فيستدلون من تشقق أحدها على أن صاحبه تطول حياته ، أو لا تنقضى ذلك العام . ويستنتج العكس إن لم يكن القرص مشققاً . ويقول البعض : إن هذه العادة تراعى أيضاً لمعرفة ما إذا كان النيل يرتفع فى الموسم التالى . ويراعون عادة أخرى سخيفة فى الليلة الرابعة التالية ، « ليلة السرطان » ، عندما تدخل الشمس برج السرطان : وهى كتابة طلسم لإبادة البق ، أو لطرده ، ويتكون هذا الطلسم من الآية التالية : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا » (سورة التوبة ، آية ٢٢٤) تكتب بحروف منفصلة ، وتكتب الكلمة الأخيرة ثلاث مرات . ويقال إن الطلسم السابق يجب كتابته على ثلاث ورقات تعلق على جدران الغرفة المراد تنظيفها من البق وتوضع ورقة على كل حائط ماعدا حائط المدخل .

يرتفع النيل كما ذكرت فى مقدمة الكتاب ، عند الانتقال الصيفى ، أو بعيده ، ويعلن ارتفاع النيل فى شوارع العاصمة يومياً ، ابتداء من السابع والعشرين من بؤونة (الثالث من يوليو) ، أو ما يقرب من ذلك . وهناك عدة منادين يقومون بهذه الوظيفة ، فيختص كل منهم بقسم من أقسام القاهرة . ويجول « منادى النيل » على العموم فى قسمه مبكراً فى الصباح ، وقد يتأخر ، ويصحبه ولد . ويعلن المنادى فى اليوم السابق مباشرة على بدء إعلان ارتفاع النيل اليومى أن الله لطيف بالأراضى ، وأن اليوم يوم الأنباء الطيبة ، وغداً البشرى بالخير(١) .

يبدأ المنادى نداءه اليومى بالصلاة على النبى ، أو يبدأ بقوله : « يا من تدبيره عظيم » فيجيب الصبى : « مولاى مالى غيرك » . ثم يأخذان فى التسبيح بحمد الله

---

(١) لن أذكر غير النصوص التى استطعت الحصول عليها . (المترجم)

وذكر نعمه وفضائله تعالى إلى أن يقول المنادى : « والله يؤمننى على مى فلان (ذاكراً إسم رب الدار) وأهل بيته الطيبين، ياكريم ! يا ألله » ويجيب الصبى: « آى إن شاء الله » الخ . ثم يذكر إخوة رب الدار ، وأبناءه، وبناته العذارى، ويقول أخيراً : « يفيض عليهم بخيره العميم ، كما فاض النيل على البلاد ، ياكريم ! يا الله ! » — الصبى : « آى إن شاء الله » — المنادى : « خمسة أو ستة قراريط الخ) اليوم ، والرب كريم » . — الصبى: « صلوا على محمد ». وتضاف الجملة الأخيرة خوفاً من أن تؤثر رغبة حقود أو نظرة حسود فى ارتفاع النيل. فيزول هذا الأثر إذا صلى الحقود على الرسول(١) .

وقد يعطى أهل المنزل المنادى كسرة من الخبز يومياً ، وهذه عادة شائعة فى الطبقة الوسطى . غير أن أغلب الناس لا يعطونه شيئاً قبل اليوم السابق على فتح قناة القاهرة . ولا يعول على إعلان المنادى الخاص بارتفاع النهر ، إذ أن الملزمين باخباره لا يصدقون القول . ولكن الشعب يصغى باهتمام إلى إعلان المنادى . ويردده هذا الأخير وصبيه كل يوم إلى ما قبل قطع سد قناة القاهرة بيومين .

فى هذا اليوم (أى أول اليومين المذكورين الآن) يجول المنادى فى قسمه، ومعه نفر من صغار الأولاد، يحمل كل منهم راية صغيرة ملونة، ليعلنوا « وفاء النيل » . وهكذا تسمى حالة النيل عند ما يرتفع ارتفاعاً كافياً لتعلن الحكومة أنه بلغ ستة عشر ذراعاً عند المقياس. ومع ذلك يشعر الشعب دائماً بخيبة أمل، إذ أن هناك قانوناً قديماً ينص على أن ضريبة الأطيان لا تفرض ما لم يرتفع النيل إلى هذا الارتفاع. وترى الحكومة أنه من الملائم أن تجعل الشعب يعتقد، بأسرع ما يمكن، أن النيل بلغ هذا الارتفاع . ويعلن وفاء النيل حينما يرتفع فعلا إلى حوالى عشرين قدماً أو واحد وعشرين بالقرب من العاصمة ، ويكون هذا على العموم بين السادس والسادس عشر من أغسطس (الأول والحادى عشر من مسرى)(٢). هذا حينما لا يزال باقياً من مقياس الفيضان بجوار العاصمة، أربعة أقدام أو ثلاثة . وفى اليوم السابق ذكره (قبل فتح القناة بيومين) يقوم المنادى والصبيان المرافقون له براياتهم مبشرين الناس بهذا القول :

---

(١) ويكون مذنباً إذا لم يصل على النبى عندما يطلب منه ذلك .

(٢) وفى هذا العام (١٣٨٤) ارتفع النهر بسرعة غير عادية ، وقطع السد فى الخامس من أغسطس . ويتطير الناس من فيضان النيل فوق السد قبل قطعه .

المنادى : « البحـرفاض وزاد » . ــ الصبيان : « أوفاالله(١) » . ــ م . : « ودار النحاس امتلا(٢) » . ــ ص . : « أوفاالله » . (٣) ــ م . : « ده شىء من السنه للسنه » . ــ ص. : « أوفاالله » . ــ م . : « وتعيشوا إلى كل عام ». ــ ص. (يذكرون الكلام نفسه بعد كل جملة يقولها المنادى). ــ م. : « والكريم(٤) يحب الكريم » . « وله قصر فى الجنة عجب » . « وعمدانه جـواهر أيتام » . « والرطب إذا جنى » . « لا يشبه لصيص البلح » . « وله ألف طاقة تنفتح » . « فى كل طاقة سلسبيـل » . « والجنة مقام الكرام » . « والنار مقام البخيل » ويظل المنادى يردد هذا القول إلى أن يعطيه أحد أهل المنزل عطية نقدية من عشره فضة إلى قرش . وكثيراً ما يعطى قرشين ، ويعطيه العظاء « خـبرية » ، أى تسعة قروش .

وتعد العدة فى هذا اليوم لقطع السد . وتجذب هذه العملية حشداً كبيراً من المشاهدين للأهمية السياسية المتعلقة بها . ولكنها جعلت الآن بدون سبب قوى مناسبة لعيد عام ، إذ أنها تنفذ قبل الأوان .

ويقام السد قبل ارتفاع النيل أو بعيده. ويعبر « الخليج » على مسافة أربعمائة قدم من مدخله قنطرة حجرية ذات قوس واحـد . ويقام السد على بعـد ستين قدماً من القنطرة ومواجهاً لها . ويكون من التراب ، عريض القاعدة ، ضيق القمـة سطحهـا بعرض ثلاث ياردات . وترتفع قمة السـد إلى إثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين قدماً تقريباً فوق مستوى النيل عند انخفاضه . ولا يعلو مجرى الخليج بكثير ، إذ أن الأخير يزيد على قياس النهر المنخفض بعـدة أقدام ، فيجف مجراه عدة شهور عندما يكون النيل منخفضاً . وتعلو ضفاف الخليج قمة السد ببعض أقدام . ويقام على مسافة ستين قدماً فى مواجهـة السد عمود مستدير من التراب يقل اتساعاً نحو القمة ، على هيئة مخروط مقطوع ، ولا يرتفع ارتفاع السد ، ويسمى هـذا « العروسة » لسبب سأذكره فيما بعد . وتبـذر قمة العمود

---

(١) أى أوفى الله .

(٢) وهو بناء قديم بين قنطرة القناة ومصر العتيقة ، حيث اعتاد سلاطين مصر وحكامها النزول به ومراقبة حال النهر قبل قطع السد .

(٣) أورد المؤلف حـوالى ثلاثين جملة لم أوفق فى الحصـول على غير المذكور فيما بعد . (المترجم)

(٤) الشخص الذى يقف المنادى أمام منزله .

والسد بقليل من الذرة . وتجرف « العروسة » دائماً بقوة تيار الماء قبل أن يبلغ النهر الذروة، وعلى العموم قبل قطع السد بأكثر من أسبوع أو خمسة عشر يوماً .

والمعتقد أن عادة إقامة « العروسة » يرجع أصلها إلى عادة خرافية قديمة يذكرها كتاب العرب ، ومنهم المقريزى. ويروى هذا المؤرخ أنه فى سنة غزو العرب لمصر، قيل لعمرو بن العاص إن المصريين كانوا يراعون عادة، وقت ارتفاع النيل، فيجهزون عذراء جميلة فى زينة بهجة ، ويقذفون بها فى النهر ضحية ، لينالوا فيضاناً وافراً . ويقال إن عمرو أبطل هذه العادة البربرية فلم يرتفع النيل مدة ثلاثة شهور بعد الوقت المعتاد لبدء ارتفاعه . وقلق الشعب قلقاً عظيما خشية الجدب . فكتب عمرو إلى الخليفة يخبره بما فعل وبما تهدد به مصر من نكبة . فرد عمر يستحسن سلوكه ، وأرسل كلمة يلقى بها عمرو فى النيل . ونصها كما يلى : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى نيل مصر . أما بعد فان كنت تجرى من قبلك ، فلا تجر . وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فلسأل الله الواحد القهار أن يجريك » . وقذف عمرو بالكلمة إلى النيل فارتفع ، على حد القول ، ستة عشر ذراعاً فى الليلة التالية . ويصعب حقاً تصديق هذه الرواية ، حتى مجردة من المعجزة .

كان هناك بناء حجرى صغير، فى الجانب الشمالى للخليج، يشرف على السد، ويكاد يجاور القنطرة ، وكان عظماء القاهرة يشاهدون عادة قطع السد منه . وأصبح البناء خراباً ، يقام على أطلاله سرادق كبير لاستقبال هؤلاء الذين عليهم مشاهدة القطع ومراقبته . وتقام أيضاً خيم أخرى للزائرين الآخرين . وتقيم الحكومة عدداً كبيراً من الألعاب النارية ، لتكريم الحفل ، ولتسلية الجمهور ، فى الليلة السابقة على يوم قطع السد ، وأثناء تنفيذه فى الصباح المبكر . وتقام عدة خيم صغيرة كذلك لبيع الحلوى والفاكهة والمأكولات الأخرى ، والقهوة الخ .. ،بطول ضفة جزيرة الروضة ، مقابل مدخل الخليج . ويسمى يوم قطع السد « يوم جبر البحر » وتعنى كلمة « جبر » هنا « الكسر » وإن كان معناها الحقيقى هو العكس . ويطلق عليه أيضاً ، وعلى الأصح ، عبارة « يوم وفاء البحر » أو « وفاء النيل » السابق شرحها . ويسمى عيد الخليج أيضاً « موسم الخليج » .

وفى عصر اليوم السابق على قطع السد ، تقصد المراكب العديدة ، التى

يؤجرها جماعات خاصة للتسلية ، قريباً من مدخل الخليج . وبين هذه المراكب مركب ضخم ، يسمى العقبة(١) ، تصنع للمناسبة بشكل زخرفى غليظ ، وتحمل مدفعين صغيرين أو أكثر ، وتعلق إلى حبالها عدة مصابيح ، تكون رسوماً مختلفة ، كنجمة كبيرة الخ .. وبهذا المركب أيضاً ، فوق القمرة ، خيمة مقفلة كبيرة ، من الحرير وغيره ، تزين برايتين . ويعتقد العامة أن هذا المركب يمثل سفينة فاخرة ، تعود المصريون ، قبل غزو العرب لبلدهم ، أن يحملوا فيها العذراء ، التى يقذفونها فى النيل ، حسب قولهم . ويغادر المركب بولاق بعد الظهر بثلاث ساعات ، يحمل ركاباً ، من الرجال والنساء ، مقابل أجر . ويركب النساء عادة ، حسب رغبتهن ، فى الخيمة الكبيرة المذكورة سابقاً . ويربط المركب إلى ضفة جزيرة الروضة ، المقابلة مباشرة لمدخل الخليج . وتظل أغلب المراكب الأخرى أيضاً بجانب « العقبة » ، طول الليل ، على شاطىء الجزيرة ، غير أن بعضها تظل تتهادى فى النهر ، بالقلوع والمجاديف طول المساء والليل . ويتسلى الملاحون والراكبون بالغناء ، بمصاحبة الدربكة والزمارة فى كثير من الأحيان . ويؤجر بعض الجماعات الخاصة الموسيقيين المحترفين ليزيدوا فى تسليتهم على النهر . ويبتهج الحشد بالحفل ابتهاجاً شديداً وقل أن يوجد أجنبى يفكر فى أن يستطيع مشاركتهم تسليتهم . ويبدو أن لا شىء يعوزهم للسرور أكثر من الاحتشاد والضجة ، مع الشبك والقهوة . وكان العيد يحضره دائماً ، فى السنوات السابقة ، الغوازى (وحرم عليهن الرقص الآن) ، والمغنون ، والموسيقيون ، والقصاصون . ويبدأ فى المساء ، قبل الظلام ، استعراض الألعاب النارية . ويستمر هذا ، مع إطلاق المدافع من العقبة ، ومن مركبين مدفعيين أو أكثر ، كل ربع ساعة ، طول الليل ، ويطلق حوالى اثنى عشر مدفعاً فى كل من هذه الأوقات . وكان مجموع الطلقات ، ليلة الاحتفال فى العام الحالى ، ستمائة طلقة تقريباً . ويحتفظ بأحسن الألعاب النارية للصباح ، فتعرض فى ضوء النهار ، أثناء قطع السد . وفى الليل ، يظهر النهر وضفافه فى منظر جميل يستحق الاعتبار . فالمراكب العديدة تقطعه صعوداً ونزولا ، والمصابيح تعلق على العقبة وعلى المراكب الأخرى ، وعلى الشاطىء أيضاً ، حيث تثبت المشاعل فى الأرض (والكثير منها تثبت فوق السد وبجواره ، وأكثرها

---

(٢) « عقب » إسم جامع لأكبر أنواع المراكب التى تسير فى النيل . و « عقبة » (جمعها « عقبات ») إسم المركب الواحد من هذا النوع .

على شاطىء الجزيرة) . ولأنوار المصابيح تأثير شديد، تزيده بهجة طلقات المدافع ، وعرض الألعاب النارية . وشاطىء الجزيرة أكثر الجهات ازدحاماً فى مكان الاحتفال ليلا . ويسر كل شخض بالنوم هناك ، ولا يعوقهم عن ذلك ضجة المدافع وغيرها .

يبدأ العمال فى قطع السد قبل الشروق. ويقع هذا العمل على عاتق «التربيه» واليهود فى سنين متعاقبة . وتوفى الحكومة كلاهما أجراً . ويضطر اليهود عندما يقع العمل على عاتقهم ، فى يوم السبت ، إلى دفع مبلغ سخى للخلاص من إثم يجره عليهم إنتهاك حرمة يوم راحتهم ، بقيامهم بما تفرضه الحكومة . ويقطع السد من الخلف بجاروف حتى يدق تدريجاً (إذ ينقل التراب فى سلال ويقذف به فوق الشاطىء) ، ويصبح عرض القمة قدماً. ويتم ذلك بعد الشروق بساعة. وقبيل هذا الوقت،عندما تجتمع الحشود المكدسة بجوار السد على ضفتى الخليج، يقدم حاكم العاصمة،وينزل فى الخيمة الكبيرة المذكورة سابقاً بالقرب من السد. ويحضر أيضاً بعض كبار الموظفين الآخرين. ويحضر القاضى ويكتب الوثيقة(١) ليشهد أن النهر بلغ الارتفاع الكافى لفتح الخليج ، وأن هذا العمل قد تم ، ثم يعجل بارسال هذه الوثيقة المهمة إلى الأستانة . وأثناء ذلك يستمر إطلاق المدافع ، وعرض الألعاب النارية ، وعند الإنتهاء من ذلك تعرض أحسن الألعاب النارية ، التى يصعب رؤيتها فى وهج الشمس المشرقة . وعندما يكون السد قد قطع إلى الحد السابق، ويكون جميع الموظفين الكبار الواجب حضورهم قد وصلوا ، يقذف حاكم العاصمة كيساً من النقود الذهبية الصغيرة إلى العمال . ويُدفع بعد ذلك بمركب مأمور الوالى السابق إلى حرف التراب الضيق فيحطم الحاجز الرقيق ، ويمر خلاله فوق الشلال الذى أحدث . وهذا المأمور شيخ يسمى حموده، وكان « سرّاج باشى » الوالى . وكانت وظيفته السير أمام سيده مباشرة فى جولاته العادية ، يسبقه صف طويل من الضباط فى شوارع المدينة وضواحيها . وعند ما يقترب مركب المأمور من السد تماماً ، يقذف حاكم القاهرة داخله كيساً من الذهب عطية له. وسريعاً ما يجرف اندفاع الماء بقية السد إلى مجرى الخليج ، فتدخله مراكب عديدة أخرى ، تمر بطول القناة من أول المدينة إلى آخرها ، ويتوغل بعضها أميالا عديدة ثم تعود .

---

(١) حجة البحر .

وكان شيخ البلد ، أو الباشا ، مع موظفين كبار آخرين ، يرأس سابقاً هذا العيد ، الذى كان كثير الفخامة . وكانت النقود تقذف فى الخليج ، فيلقطها العامة ، وكان بعضهم يغوص فى الماء بالشباك . وكان الكثيرون يفقدون حياتهم فى التزاحم . وفى هذا العام (١٨٣٤) غرق ثلاثة أشخاص يوم فتح الخليج ، أحدهم فى الخليج نفسه ، والآخران فى بركة الأزبكية . وبعد أن دخلت منزلى على أثر عودتى من مشاهدة قطع السد واحتفالات الليلة السابقة (وقد أمضيت بعضها فى النهر ، والبعض الآخر فى جزيرة الروضة) مررت بالقرب من دارى إمرأة تلطخ وجهها السافر ، وبعض ملابسها ، بالطين ، وتندب فقد ولدها ، الذى كان أحد الغرقى الثلاثة . ودخلت المياه بركة الأزبكية بواسطة قناة جديدة فى اليوم السابق على قطع السد. واحتشدت الجموع حول البركة فى هذا اليوم ، كما يحتشدون فى عدة أيام تالية (أنى أكتب هذا بعد فتح الخليج بأيام قليلة) ، للتمتع بمنظر امتداد الماء الواسع الذى يريح النظر بالرغم من شدة عكارته ، فى منطقة جافة متربة مثل القاهرة ، وفى هذا الموسم الحار من السنة . ويقام بالقرب منها خيم عديدة حيث تقدم القهوة إلى الزائرين ، كما تقام خيمة لبيع الكحول . وتوضع هناك مقاعد ودكك من الجريد . ويعتبر المساء أفضل وقت للتردد على هذا المكان . ويظل كثير من الأشخاص هناك عدة ساعات بعد الغروب ، ويقضى البعض طول الليل . وهناك على العموم قاصان أو ثلاثة . ويشاهد المرء فى كل ساعة من النهار ، وأحياناً فى نصف الليل ، أناساً يستحمون فى البركة ، رجالا وأطفالا على الأخص ، وبعض البنات أيضاً ، وحتى النساء يستحممن وأولاء يعرضن أنفسهن أمام المارة ، والكسالى الجالسين على المقاعد ، بطريقة تثير الدهشة فى هذا المكان الذى يعنى النساء فيه عادة بتغطية أنفسهن ووجوههن أيضاً ، وإن كانت أغلب المستحميات يغطين عادة ما تحت الوسط . وكثيراً ما يغرق المستحمون فى هذا المكان(١) .

ويظل المنادى يردد نداءه السابق فى اليوم التالى لقطع السد ، ولكنه يستخدم صيغة أخرى عند ذكر ارتفاع النهر ، فيقول ، مثلا : « أربعة من الستة عشر » ، أى أن النهر زاد أربعة قراريط من الستة عشر ذراعاً . ويظل ينادى إلى يوم النوروز أو قبيله .

---

(١) ذكرت فى مناسبة سابقة أن بركة الأزبكية ملئت تماماً منذ زيارتى الثانية لمصر .

ويقصد المنادى فى يوم النوروز، أو رأس السنة القبطية (١٠ أو ١١ سبتمبر)، أو قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، كل منزل فى قسمه، يصحبه صبيه فى أحسن ملابسه وعازفان على الطبل والمزمار، ويردد النداء نفسه كما يردده فى يوم الوفاء، ويأخذ عطية أخرى. وبعد ذلك يواصل نداءه السابق.

وفى يوم «الصليب»، ١٧ توت، أو ٢٦ أو ٢٧ سبتمبر، حيث يبلغ النهر أقصى ارتفاعه، أو ما يقرب منه، يعود المنادى ثانياً إلى كل منزل فى قسمه، ويردد نداء مختلفاً (١) : — بالشك (٢) لن تستريح. ولا بالمقارنة (٣) سوف تستريح. يا لائمى (٤)، استرح. فلا شىء يدوم. ولا يبقى شىء [تنحسر عنه المياه] غير الشمام (٥) واللمّام (٦) والحقول المزروعة والشقار والقرطم والكتان. وليعش سيدى فلان [ويسمى رب الدار] ويرى النهر قد زاد. ويعطى صاحب البشارة حسبما يستحق. إن (أبو ردّاد) (٧) يستأهل أجراً من الحكومة، أجر (شرفى) (٨) عن كل ذراع يزيده النهر. فنحن نستأهل أجراً من أهل الكرم. ونأتى لتناوله بكل أدب. إن نهر النيل السعيد قد غادرنا فى رخاء، وروى البلاد بفيضانه.

ويقدم المنادى، فى هذه المناسبة، ليموناً، وفاكهة أخرى، إلى الأغنياء، أو المتوسطى الشأن، كما يقدم أقراصاً من طين النيل المجفف التى يأكلها النساء فى كثير من العائلات. ويتناول على العموم عطية نقدية من قرشين أو ثلاثة قروش، وينتهى عمله حينئذ إلى العام التالى.

---

(١) اكتفيت هنا بالترجمة لعدم إمكانى الحصول على النص الأصلى. (المترجم)

(٢) فى أن النيل سوف يوفى ارتفاعه.

(٣) أى بمقارنة ارتفاع النهر فى مدة معينة من السنة الحالية بارتفاعه فى المدة نفسها من السنين السابقة.

(٤) يا من قلت لى : لماذا لا تأتى بخير الأنباء ؟

(٥) Cucumis dudaim.

(٦) Mentha kahirina

(٧) شيخ المقياس.

(٨) نقد ذهبى يندر وجوده اليوم. وتبلغ قيمته، كما قيل لى، إلى ثلث جنيه استرلينى وقد تقل.

الفصل السابع والعشرين

الأعياد الخاصة الخ .

إن المصرى المحدث لا يصبح رب دار حتى يتزوج (وليس حتماً فى هذه الحالة أن يستقل ، فقد يعيش وزوجه فى بيت أهله) ، ولذلك فان زواجه الأول يعد على العموم أول حادث يهيء له ولزوجه مناسبة ليدعو كل منهما أصدقاءه إلى حفل خاص . وجرت العادة ، كلما أقيم حفل كبير بمناسبة ابتهاج ما ، أن يرسل المدعوون هدايا (مثل التى وصفتها فى حفلات الزواج) يوماً أو يومين من قبل . وللزوج دائماً فريقه الخاص ، يجتمعون فى الحجرات السفلى على العموم ، وتستقبل الزوجة قريباتها وصديقاتها فى الحريم ، أو الغرف العلوية . وجرت العادة أيضاً أن تستقبل الزوجة ضيفاتها (ولا يصرح لغير صغار الأولاد من الذكور بالدخول) أثناء النهار ، ويستقبل الزوج ضيوفه بعد ذلك ، عقب الغروب ، أو بعد صلاة العشاء . وقد يجتمع بهم أثناء انشغال زوجه بفريقها الخاص فى الحريم .

وكثيراً ما يؤجر العوالم ، بهذه المناسبات ، لتسلية الجماعة ، فيجلسن فى إحدى غرف الحريم ، عند نافذة تشرف على الحوش ، ووراء مشربية محكمة تحجبهن عن أنظار الضيوف الرجال ، ولا تحول دون سماعهن بجلاء ، وهم جالسون فى الفناء أو فى إحدى الغرف المتصلة بالفناء . ويوجد ، فى كثير من المنازل ، غرفة مرتفعة صغيرة ، وصفتها سابقاً ، تعد للعوالم ، وتلحق بالغرفة التى يجتمع فيها الضيوف الرجال (وتلحق أخرى بغرفة الحريم الرئيسية أيضاً) ، ويغطى واجهتها شباك من المشربية ليحجب أولئك المغنيات عن أنظار الرجال . وكثيراً ما تؤجر ، أو كانت تؤجر ، الغوازى لإحياء الحفلات الخاصة . وهن يرقصن سافرات أمام الرجال فى الفناء ، فيسهل على النساء رؤيتهن من شبابيك الحريم ، أو يرقصن فى غرفة يجتمع فيها الرجال ، أو فى الشارع ، أمام المنزل ، لتسلية النساء فقط . وعندما تقوم الغوازى أو العوالم بتسلية قوم ، يجمع أحد أصدقاء الضيف لهن من الضيوف مبالغ صغيرة على دف ،

أو فى منديل . غير أن المضيف لا يرضى أحيـاناً بمراعاة هذه العادة . وتسمى هذه الهبات « نقوطاً » . والعـادة أن يستأجر من يقيم الحفـل الغوازى مقابل مبلغ ما ، فيتناول النقوط ، الذى قد يقل عن المبلغ المتفق عليـه ، أو يزيد . ويدفع الفرق من ماله الخاص،فى الحالة الأولى . وكثيراً ما يستولى على الزائد ، فى الحالة الأخيرة . وقد يتفق معهن على أن يتناولن النقوط كله ، ويدفع علاوة عليه مبلغاً إضافياً من ماله ، أو لا يدفع شيئاً . وفى بعض الاجتماعات ،حيث لا تراعى حشمة يغازل الضيوف أولئك الراقصات ويمازحونهن بطريقة فاجرة. وقد ذكرت فى فصل سابق أن الخمر يقدم إلى الغوازى ، فى هذه المناسبات ، فيفرط أكثرهن فى تناوله . والعادة العامة أن يبلل الرجل بلسانه نقداً ذهبياً صغيراً ، ويلصقه على جبهة الغازية ، ووجنتيها ، وذقنها ، وشفتيها . وعندما تجمع النقوط الخاصة للعوالم ، يصيح خادمهن — ويسمى « خلبوصاً (١) » ، وكثيراً ما يقوم بعمل المهرج — عند كل عطيـة : « شـوبش (٢) عليك يا صاحب الفرج » (فى مناسبة مماثلة وبالطريقة نفسهـا) ثم يضيف إلى ذلك أن فلاناً أعطى كذا « محبوب » أو « خيرية » فيقلب بعض قروش إلى عدد أكبر من النقود الذهبية ذات قيمة أكبر ، أو إذا كانت العطية ذهباً ، يبالغ فى ذكر المبلغ بالطريقة نفسها . ويفعل الخلبوص هذا ليكرم المعطى ، وليثير كـرم الآخرين . وتجيب سيدته ، أو عالمة أخرى : « عقبـال عنده (٣) » . وكثيراً ما يسلى الضيوف أيضاً جماعة من الآلاتية يعزفون ويغنون فى الفنـاء ، أو فى الغرفة المجتمع فيها الضيوف . وكثيراً ما يوضع دكتان متقابلتين فى الفناء، وتجهز بالوسائد الخ ، . لتكون معزفاً للموسيقين . ويوضع عادة مصباح فى الوسط . ويتناول الآلاتية

---

(١) لعل (خلبوص) من خلبس أى فتن . والخلابس : الحـديث الرقيق . والأباطيل والأكاذيب — والخلبوص هو من يعمد إلى الكـلام الناعم القائم على الأباطيـل والأكاذيب ليفتن الناس . (المترجم)

(٢) (شوبش) ترادف (نقـوط) ، وهى تحـريف عربى لكلمة (شاباش) الفارسية التى تعنى أيضاً الإجادة وحسن الأداء . (المؤلف)

(شاباش) مخففة من (شـادباش) ، (شاد = مسرور ، باش = كن) وهى عبارة تقال فى التهنئة بمعنى : لتكن سعيداً . وهى،علاوة على أنها تلقى للاستحسان،تعنى ما ينثر من ذهب على رأس الحاضرين من العروسين والراقصين والمطربين . (المترجم)

(٣) وقد كتبها لى أحد الشيوخ هكذا وشرحها.غير أنى أشك فى أن تكون : « إقبال لعنده » ، وهو تعبير دارج بمعنى : الوصول إليه ، الدخول عليه . ويجب أن تعنى فى هذه الحالة : « لعلنا نصل إليه » و« إقبال (أو حظ) طيب له . (المؤلف)

فى المنجد ، مادة العقبى بضم العين) : آخر كل شىء . الآخـرة . ومن قول المهنئين للعزب فى الأعراس « عقبالك » (بفتح العين) ، أى العقبى لك ، يرجون له بذلك آخـرة حسنة بالزواج . (المترجم)

على العمــوم ، مثل العوالم ،عطايامن المجتمعين. ويصيح خلبوصهم بالطريقة نفسها بعد كل عطية.

وهناك مشاهد تختلف عن المشاهد السابق وصفها ، وتفوقها شيوعاً، وتعتبر أكثر موافقة لمناسبات الاحتفالات الخاصة . وهى قراءة ختمة ، يقوم بها ثلاثة فقهاء أو أكثر ،يؤجرون لهذا الغرض ،أو إقامة ذكر من فريق من الفقراء(١). ويريح كل من الفقهاء الآخر بدوره ،حتى لا تكون الخاتمة متعبة لهم ،فيتناوبون القراءة ويقرأ كل منهم عادة ُربعاً (٢) . ويحضر الفقهاء إلى المنزل بعيد العصر ، ويقومون بالقسم الأكبر مما عليهم قبل اجتماع الضيوف ، فيرتل حينئذ أحدهم على مهل وبنغم ، ثم يتبعه آخر بالطريقــة نفسها ، وهكذا . وقد تقــام خاتمة صباحاً ، يتلوها ذكر فى المساء . والقاعدة أن يقام الذكر بعد الغروب دائماً .

وفى مصر أشخاص يحيون عادة حياة متقشفة ، إلى أقصى حدود التقشف ويقومون باعداد ألوان مختلفة وافرة من الطعام ، للاحتفاء بأصدقائهم . غير أن الأكل لا يخصص له وقت طويل : فأكثر أوقات السرور يصرف فى التدخين وتناول القهــوة والشراب ، والحــديث . ومع ذلك يمتنع الأتراك على العموم عن التدخين أثناء تلاوة القرآن. وقد أدى احترامهم للقرآن فى كل وقت إلى القول بأن الله قد رفع آل عثمان فوق بقية المسلمين لأنهم يرفعون القرآن أكثر مما يفعل الآخرون . ولا يحاول أحد من الضيوف ، فى هذه الاجتماعات ، أن يسلى زميله أبداً بغير الحديث الفكه أو برواية قصة أحياناً ، وإن كان أكثرهم يجدون لذة عظيمة ، فى مشاهدة الراقصات والاستماع إلى الموسيقيين والمغنيين . وقلما يلعب المصريون لعبــة ما ، إلا عندما يتقابل شخصــان أو أكثر فقط ، أو يكونون فى خــلوة عائلية خاصة . والمصريون شـعب اجتماعى ، ومع ذلك قلما يقيمون حفلات عظيمة . ولا يحدث ذلك إلا فى أوقات خاصة تستدعى البهجة حقاً . ومن غير اللائق ، فيما عدا مثل هذه المناسبات ، أن تؤجر الراقصات للرقص فى المنازل .

---

(١) وتذكرنا هذه العادات بمشورة القــديس بولس فى رسالته إلى أهــل أفسس ١٩/٥ (مكلمين بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغانى روحيــة مترنمين ومرتلين فى قلوبكم للرب) التى تشير إلى قدم هــذا النوع من التسليــة الاجتماعية ، ويبتهج المصريون كثيراً بأغانى الحب الدينية التى ينشدها المنشدون فى الذكر .

(٢) ربع حزب ، والحزب ١/٦٠ من القرآن .

وقد وصفت حفلات الزواج فى فصل سابق ، ولذلك انتقل إلى الكلام عن الحفلات التالية للزواج تبعاً لترتيب إقامتها .

فى اليوم السابع (يوم السبوع)(١) التالى للزواج ، تستقبل الزوجة قريباتها وصديقاتها فى الصباح وبعد الظهر . ويستقبل الزوج أصدقاءه فى المساء أحياناً ، فيقيم خاتمة أو ذكراً . وجرت العادة فى مصر أن يحرم الأزواج أنفسهم حقوقهم الزوجية فى الأسبوع الأول من زواجهم ببكر ، ومن دواعى انتهاء هذه الفترة الابتهاج(٢). وفى « يوم الأربعين » بعد الزواج ، تذهب الزوجة ، مع جمع من صديقاتها إلى الحمام . ويعدن جميعاً إلى منزلها فى العصر تقريباً ، حيث يتناولن الطعام وينصرفن . وقد يستقبل الزوج أيضاً الزائرين عصر ذلك اليوم ويقيم مرة أخرى خاتمة أو ذكراً .

يعقب ذلك الاحتفال بمولد الطفل — تحمل « الداية » ، قبل الوقت المنتظر للولادة بيومين أو ثلاثة أيام أو أكثر ، إلى منزل المرأة المحتاجة إلى مساعدتها ، « كرسى الولادة » وهو كرسى ذو شكل خاص ، تجلس عليه المرأة أثناء الولادة(٣) . ويغطى هذا الكرسى بشال ، أو بمنشفة مطرزة ، ويشد بعض زهور الحناء ، أو الورود ، بمنديل مطرز إلى كل من زاويتى الظهر العلويين . ويحمل الكرسى (وتمتلكه الداية) ، وهو مزين هكذا ، أمامها إلى المنزل . وفى منازل الأثرياء ، وميسورى الحال ، تنتقل الوالدة ، بعد الولادة ، إلى السرير حيث تبقى عادة من ثلاثة أيام إلى ستة . غير أن النساء الفقيرات قلما يسترحن فى مثل هذه الحالة ، فيعدن إلى أشغالهن اليومية ، بعد يوم أو يومين ، إذا كانت لا تستلزم منهن كداً شديداً .

---

(١) يحتفل « بالسبوع » التالى لمولد الطفل ببهجة . ولذلك يفهم على العموم عند الكلام على يوم السبوع أنه اليوم السابع لمولد الطفل .

(٢) ولم يكن ما أشير إليه فى سفر التكوين ٢٩/٢٧ (أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التى تخدمنى أيضاً سبع سنين أخر) والقضاة ١٤/١٢ (فقال لهم شمشون لأحاجينكم أحجية . فإذا حللتموها لى فى سبعة أيام الوليمة وأصبتموها أعطيكم ثلاثين قميصاً ...) حفلا مثل هذا وحده . كان ، ولا يزال على ما أعتقد ، عادة أثرياء البدو (وهكذا كان لابن) بإضافة أصدقائهم سبعة أيام بعد الزواج (وكذلك بعد مولد الطفل الذكر) . ويمتنع كل رجل محترم ، إذا خاب ظنه فى زوجته ، بعد الزواج ، عن تطليقها مدة أسبوع تقريباً ، حتى لا تشان بالشبهة ، وخاصة إذا كان زواجها الأول .

(٣) أنظر سفر الخروج ١/١٦ (وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظر انهن على الكراسى . إن كان إبناً فاقتلاه وإن كان بنتاً فتحيا .

وفى الصباح التالى للولادة ، يرقص أمام المنزل ، أو فى الفناء «خولان» أو ثلاثة ، أو غازيتان أو ثلاث . ويفوق الاحتفال بمولد الذكر الاحتفال بمولد الأنثى دائماً . ولا يزال العرب يظهرون آثاراً من هذا الشعور الذى كثيراً ما دفع أسلافهم إلى إبادة بناتهم .

ويعد نساء المنزل ، وفى العائلات المتوسطة ، فى اليوم الرابع أو الخامس من الولادة على العموم ، أطباق «المفتقة» و «الكشك» و «اللبابة» و «الحلبة» عادة ، ويرسلنها إلى القريبات والصديقات . و «المفتقة» تتكون من العسل وبعض السمن و «السيرج» (زيت السمسم) ، وأنواع مختلفة من الأفاوية والتوابل المسحوقة معاً ، ويضاف إليها أيضاً البندق المقلى(١) . أما «الكشك» فقد وصفته قبلا . و «اللبابة» تتكون من كسرات العيش أو فتاته ، والعسل والسمن ، وقليل من ماء الورد . فيوضع السمن فى مقلاة فوق النار أولا ، ثم الكسرات ، وأخيراً العسل . وتجهز الحلبة بأن تغلى حباتها ، وتحلى بالعسل فوق النار .

وفى «يوم السبوع» تذهب صديقات الوالدة لزيارتها ، وتؤجر العائلات الراقية العوالم للغناء فى الحريم ، أو الآلاتية للعزف ، أو المقرئين لتلاوة ختمة فى الدور الأسفل ، وتجلس الوالدة بمساعدة القابلة ، على كرسى الولادة ، وهى تأمل العودة إليه قريباً مرة أخرى . ويحمل الطفل ملفوفاً فى شال جميل ، أو فى لفافة ثمينة . وليعتاد الطفل الضوضاء ، فلا تفزعه فيما بعد الموسيقى أو أصوات الفرح الأخرى ، تمسك امرأة بهون ، وتضربه بالمدق مراراً ، كأنها تدق شيئاً . وبعد ذلك يوضع الطفل فى منخل ، ويهز ظناً منهم أن هذه العملية تفيد معدته ، ثم يحمل إلى غرف الحريم جميعها ، فى صحبة كثير من النساء والبنات ، ويحمل كل منهن عدداً من الشمع ، مختلف الألوان أحياناً ، يشعلنه ويلصقنه فى قطع صغيرة من عجين الحناء ، على صينية مستديرة صغيرة . وفى الوقت نفسه ترش القابلة أو غيرها على أرض كل غرفة خليطاً من الملح والحبة السوداء ، أو ملحاً فقط ، كان قد سبق وضعه فى الليلة السابقة عند رأس الطفل . وتقول وهى تفعل ذلك «الملح فى عين اللى

---

(١) وتضيف بعض النساء إلى هذا اللون عنصراً آخر ، إذا كن يجهزنه لغرض خاص ليسمنهن ، لا لإرساله إلى الصديقات . فيحمصن بعض الخنافس فى السمن ويهرسنها ، ثم يضفن إليها العسل الخ . وكنت قد أشرت إلى ذلك فى فصل الحياة المنزلية الخاص بالنساء .

مايصلى على النبى » أو « الملح الفاسد فى عين الحاسد » . ويعتبر احتفال « رش الملح » وقاية للولد والأم من العين. ويجب على الحاضرات أن يقلن: «اللهم صل على سيدنا محمد ! » . ويعرض الطفل ملفوفاً ، عل حشية رقيقة ، فوق صينية فضية أحياناً ، على كل من الحاضرات ، فينظرن إلى وجهه قائلات : « اللهم صل على سيدنا محمد ! اللهم طول عمرك » الخ . ويضعن عادة على رأس الطفل ، أو بجانبه ، منديلا مطرزاً به قطعة ذهبية (يزيد تقديرها بقدر جمالها أو قدمها) ، معقودة باحدى زواياه ويعتبر إعطاء المنديل هذا تكليفاً بدين ، تدفعه الأم ، عندما تحين الفرصة نفسها بالنسبة للمعطية ، أو إبراء من دين لعطية مماثلة . وتستعمل هذه النقود على العموم بعض سنوات ، لتزين غطاء رأس الطفل . بعد ذلك تقدم النقوط للداية . ويوضع عند رأس الطفل أثناء نومه، فى الليلة السابقة على يوم السبوع ، إناء ماء (دورقاً للذكر ،وقلة للأنثى) يربط حول عنقه منديل مطرز. فتحمله القابلة فوق صينية وتقدمها إلى كل من الحاضرات، فيضعن النقوط لها فيها — وفى المساء يقيم الزوج حفلا لأصدقائه على طريقة الحفلات الخاصة الأخرى. (١)

وتعتبر الوالدة نجسة شرعاً (٢) زمناً بعد الولادة (فى أغلب الأحوال أربعين يوماً عند القاهريين ، وتختلف المدة باختلاف الظروف والمذاهب) وتسمى تلك المدة « نفاساً » . وتذهب المرأة بعدها إلى الحمام .

أصف بعد ذلك الإحتفال الخاص بالختان . — فى أغلب الأحوال ، يزف الولد قبل ختانه (ويسمى « مطاهراً ») فى الشوارع بالطريقة الموصوفة فى فصل سابق ، إذا كان أهله من الطبقتين العليا والوسطى ، غير أن أغلب المتعلمين

---

(١) لا تزال أغلب مراسم السبوع قائمة إلى اليوم كما وصفها لين وكما يصفها أحمد أمين:
« هو اليوم السابع من ولادة الطفل فالطبقة الوسطى والعليا يعتنون بذلك اليوم فيطبخون فيه كشكاً بالفراخ . ومن أمثالهم : هو فرخة بكشك، أى أنه عزيز كالمولود ... ويغنون : برجالاتك، برجالاتك ، حلقة ذهب فى أوداناتك — والرجالات جمع رجل . ويظهر أن الأغنية مأخوذة من أغانى البدو ، كما تدل عليه صيغة الغناء، أى برجالك تلبس الذهب . والبدو يجمعون الرجل على رجالات والوزن على الودانات .

وفى يوم السبوع وقبله وبعده يشرب المغات ... ويعتقدون أنه نافع للوالدة لأنه يشد أعصابها التى أنهكتها الولاد . » (المترجم)

(٢) وكذلك الشريعة الموسوية تعتبر المرأة نجسة أربعين يوماً بعد ولادة الذكر ، وثمانين يوماً بعد ولادة الأنثى : أنظر اللاويين ١٢/٢،٤، ٥ (كلم بنى إسرائيل قائلا . إذا حبلت مرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام. كما فى أيام طمث علتها تكون نجسة. ثم تقيم ثلثة وثلاثين يوماً فى دم تطهيرها ... — وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما فى طمثها . ثم تقيم ستة وستين يوماً فى دم تطهيرها) .

ورجال الدين والفقهاء ، وبعض الأغنياء فى القاهرة ، يفضلون إقامة «الصرافة» التى أبينها فيما بعد .

يقصد زملاء «المطاهر» أحد الجوامع الرئيسية ، مثل جامع الحسنين أو الأزهر ، أو جامع السيدة زينب ، قبيل الظهر . ويكونون فى أحسن ملابسهم أو فى ملابس مستعارة ، إن لم يكن لديهم ثياب ملائمة ، كما هو الحال على العموم . ويذهب إلى هناك أيضاً رجال العائلة ونساؤها وكثيراً من الصديقات ، و«المطاهر» نفسه ، وأحياناً ستة من « جاويشية » نقيب الأشراف . ويحضر أيضاً الحلاق الذى يقوم بالعملية ، ومعه خادم يحمل « الحمل » السابق وصفه فى أكثر مواكب الختان شيوعاً . ويجتمع كل هؤلاء ، وآخرون (سأذكرهم الآن) فى المسجد ، ويظلون هناك إلى ما بعد صلاة الظهر ، ثم يرحلون فى موكب إلى منزل أهل «المطاهر» . ويتقدم الموكب خادم الحلاق حاملا « الحمل » . ويتبعه خمسة فقهاء أو ستة أحياناً ينشدون موشحاً فى مدح الرسول . ثم التلاميذ يتقدمون كل إثنين أو ثلاثة أو أربعة جنباً إلى جنب . ويغنى المتقدمون منهم أو نصفهم ، وهم سائرين : « ياليالى الحظ ! ياليالى الفرح !(١) » . ويكمل الأولاد الآخرون النغم قائلين : « الحظ والمرام ، والأحباب مجتمعين » . ثم المتقدمون مرة أخرى : «صلى ، اللهم ، على النور الوضاح » . فيردد الآخرون : « أحمد المختار ، خير المرسلين ! » وهكذا يظل الأولاد يغنون طول الطريق . ويسير وراءهم اقارب « المطاهر » ويتبعهم ستة أولاد تقريباً ، يحمل ثلاثة منهم قماقم فضية ملآنة بماء الورد أو ماء الزهر ، يرشون به المشاهدين أحياناً . ويحمل الثلاثة الآخرون مباخر فضية يحترق بها العود واللبان ، أو بعض المواد العطرية الأخرى . ويسير مع هؤلاء الأولاد سقاء ، يحمل فوق ظهره قربة مغطاة بمنشفة مطرزة ، ويفرق الماء على المارة ، عفى أكواب نحاسية وبعد ذلك يتبع ثلاثة من الخدم ، يحمل أحدهم وعاء قهوة فضى ، فى «عازق» فضى . ويحمل الثانى صينية فضية عليها عشرة فناجين بظروف فضية ، أو أحد عشر . ولا يحمل الثالث شيئاً ، وعمله عندما يمر الموكب بشخص وجيه (جالس على مقهى مثلا) أن يملأ أحد الفناجين قهوة ويقدمه إليه ، ويتناول عطية مقابل ذلك . ويكتفى باعطاء نصف قرش على الأكثر . ويشغل

(١) لم أستطع الحصول على أصل النصوص المذكورة فى هذا الفصل فاكتفيت بالترجمة . (الترجمة)

الجاويشية المكان التالى فى نظام الموكب . وقد يتبعهم فريق آخر من الأولاد بالقماقم والمباخر . ثم يتبع هؤلاء ولد يحمل (لوح) « المطاهر » ، وقد زينه المدرس للمناسبة ، ويعلقه فى عنقه بمنديل . ويسير « المطاهر » بين ولدين آخرين ، خلف الولد السابق . وهو يلبس ثياب الزفة السابق ذكرها (أى ملابس أنثى - عدا العمامة - مزينة بحلى النساء) أو الثياب العادية ، ويمسك منديلا مطرزاً مطوياً أمام فمه . ويتبعه النساء وهن يزغردن . وتستخدم إحداهن لرش الملح باستمرار ، وقاية له من نظرة الحاسد . ويصل الموكب إلى المنزل فى هذا النظام وبهذه الطريقة . ويغنى المتقدمون من التلاميذ عند وقوف الموكب أمام المنزل : « أنت شمس ، أنت قمر ، أنت نور على نور » . ويضيف الآخرون : « يا محمد ! يا حبيبى ! يا أسود العين ! » ويدخلون المنزل وهم يرددون الخطاب إلى الرسول ويرددونه مرة أخرى بعد دخولهم . ويصعد صغار الأولاد إلى الطابق الأعلى ، ويبقى الآخرون بالدور الأسفل . ويقول السابقون أثناء صعودهم : « يا عمته ! يا خالته ! تعالى حضرى صرافته » . وعند دخولهم « القاعة » ، يعطون شالا كشميرياً فيمسكونه من جوانبه جميعاً ، ويوضع وسطه لوح الكتابة المزين . ثم ينشد « العريف » ، أى رئيس التلاميذ ، الذى يقف أثناء ذلك على جانب (مع المطاهر والنساء) ، ما يسمى « خطبة الصرافة » ، عبارة عبارة ، ويرددها الأولاد الآخرون بعده ، والخطبة ذات قافية غير موزونة :

الحمد لله ، الخالق الجبار . الواحد الغفور ، الحافظ . يعلم الماضى والمستقبل ، ويكشف ما خفى من الأمور . يعرف دبيب النمل الأسود ، وعمله وهو ساهر فى الظلام . شكل السماء ورفع قبتها ، وبسط الأرض فوق المحيط المالح . فليمنح هذا الصبى عمراً مديداً وليجعله سعيداً ، فيحسن قراءة القرآن ، ويتلو القرآن ، وصفحات التاريخ ، وقصص القديم والحديث . هذا الفتى تعلم الكتابة والقراءة ، والهجاء والحساب ، ولا يتمهل . فلا يجب أن يبخل أبوه عن نفحة نقد ، فضة وذهب . إن تعليمى يا أبى قد دفعت ثمنه ، وهبك الله مكاناً فى الجنة . وأنت يا أمى تقبلى شكرى ، فقد عنيت بى وقلقت على صباحاً ومساءاً . جعلنى الله أراك فى الجنة جالسة ، ومريم وزينب وفاطمة يحيينك . إن فقيهنا قد علمنا حروف الهجاء . فليتمتع بجميع صفات العرفان بالجميل . إن فقيهنا

قد علمنا إلى « النبأ »(١) ، فلا فقد نعمه الحاضرة أبداً . إن فقيهنا قد علمنا إلى « الملك » ، فلينعم بتقدير العالم دائماً . إن فقيهنا قد علمنا إلى « الرحمن » ، فليتمتع بما يليق من الجزاء . إن فقيهنا قد علمنا إلى « يس » ، فلتكن أيامه وسنينه صافية . إن فقيهنا قد علمنا إلى « الكهف » ، فلتحطه العناية الإلهية بنعمها دائماً . إن فقيهنا قد علمنا إلى « الأنعام » ، فلا وقع فى فضيحة أبداً . إن فقيهنا قد علمنا إلى « البقرة » فليكرم مستقبلا وحاضراً . إن فقيهنا يستأهل أن توفروا له كسوة من الأخضر ، وعمامة أيضاً . أيتها الأبكار حولنا ، استودعكن الله بكحل العين و « النظارات » (٢) . أيتها السيدات المجتمعات هنا ، أدعو بسورة الصافات أن يحميكن . أيتها العجائز الواقفات جوارنا ، أنتن تستحقن الضرب بالجزم القديمة والطرد . ومع ذلك الأفضل أن نقول للعجائز : عليكن بالطست والأبريق . اغتسلن وصلين(٣) .

وتضع النساء نقوطهن فوق لوح الكتابة المزين ، أثناء إنشاد هذه العبارات السخيفة ، فيجمعه الأولاد فى منديل ، ثم ينزلون إلى الدور الأسفل ، ويسلمونه إلى الفقية(٤) . — وهنا يجلس المطاهر على كرسى ، ويقف الحلاق بجانبه ، وخادمه على الجانب الآخر ، ويحط الحمل على الأرض ، ويوضع على قمته وعاء لنقوط الحلاق — ويتناول النساء العشاء فى الحريم ، ثم ينصرفن إلى منازلهن ، وكذلك الأولاد والرجال يتناولون العشاء فى الدور الأسفل ويغادرون المنزل جميعاً ، ما عدا رجال العائلة ، والحلاق وخادمه . ويقود الحلاق المطاهر ، مع أحد أقارب الأخير أو إثنين منهم ، إلى غرفة خاصة ، حيث يجرى العملية ، وقد يقوم بالعملية فى اليوم التالى . وبعد أسبوع تقريباً ، يأخذ الحلاق الولد إلى الحمام(٥) .

أما الحفل التالى (إن لم يكن زواج الإبن أو البنت) فيكون على العموم عند قبول الولد بإحدى طوائف التجار أو العمال . ويقام بهذه المناسبة احتفال فى بعض

---

(١) يقصد بذلك ، وبما يلى ، سور القرآن . وقد ذكرت فى مناسبة سابقة أن الأولاد يتعلمون بعد حفظ الفاتحة تبعاً للترتيب العكسى لسور القرآن .

(٢) ويقول هذا ليسلى السيدات .

(٣) قدمت هنا ، ترجمة لخطبة الصرافة لعدم وجود النص الأصلى تحت يدى . (المترجم)

(٤) ما يتلو ذلك وصف للاحتفالات المقامة بعد الصرافة والزفة العادية ، التى وصفتها فى فصل سابق .

(٥) ويتكلم أحمد أمين عن الختان فيقول : والختان عادة تشمل الذكور والاناث جميعاً ، فللأطفال حلاقون يتولون ذلك ، وللبنات دايات يقمن بهذه العملية . وقد يتولى الأطباء هذه العملية فى بيوت الأغنياء . وربما كان المصريون أحرص الناس على الختان . وقد ثبت =

الأحوال ، فلا يقام عند التحاقه بأى حرفة ، وإنما عند التحاقه عادة بطائفة النجارين ، أو الخراطين ، أو الحلاقين ، أو الترزية ، أو مجلدى الكتب ، أو بعض آخرين . وعندما يصبح الشاب ماهراً في الحرفة المقصودة ، يذهب والده إلى شيخ تلك الحرفة ، ويبدى رغبته في أن يصبح ولده عضواً بها فيرسل الشيخُ «النقيبَ» يدعو رؤساء الحرفة ، وبعض أصدقاء المرشح أحياناً ، لحضور حفل القبول . فيأخذ النقيب باقة من أى عشب أخضر ، أو من الزهور ، ويذهب إلى كل من هؤلاء ويقدم إليه عشباً ، أو «عود نياظ»(١) ، أو زهرة ، أو ورقة ، ويقول : «الفاتحة للنبى» ، ويضيف بعد قراءة الفاتحة : «فى يوم كذا والساعة كذا ، احضر إلى منزل فلان لتشرب فنجاناً من القهوة» ويتقابل المدعوون (فى منزل والد الشاب على العموم ، وفى الريف أحياناً) ويشربون القهوة ، ويتناولون العشاء . وبعد ذلك ، يقود النقيب الشاب أمام الشيخ ، ويعدد صفاته ، ثم يطلب من الحاضرين قراءة الفاتحة للرسول . وبعد ذلك يحزم الشاب بشال فوق ملابسه الخارجية ، ويعقده . ثم تقرأ الفاتحة مرة ثانية للسيد البدوى ، أو لولى كبير آخر ، ويعقد الشال عقدة ثانية . ثم تقرأ الفاتحة مرة ثالثة ، ويعقد عقدة . وهكذا يقبل الشاب قبولا تاماً . فيقبل يد الشيخ ، ويد كل من زملائه فى الحرفة . وينقد النقيب جعلا صغيراً — ويسمى هذا الحفل «شد الولد» . ويسمى المقبول «مشدوداً» .

لم يبق غير وصف الطقوس التى تقتضيها الوفاة . وسيكون ذلك موضوع الفصل التالى ، وبه يختم كتابى عن عادات المصريين المسلمين وشمائلهم .

= وقد ثبت أن قدماء المصريين كانوا يختتنون ، وربما كان هذا هو السبب فى حرص المحدثين منهم على ذلك ، وقد زعموا أنه ينجى الأطفال إذا ما كبروا من الأمراض . وقد جرت العادة أن يكون الختان فى نحو السابعة من العمر . وهم يحتفلون به ويؤلفون لهذا الغرض موكباً يجتمع فيه الأصدقاء والمحبون ... والمصريون يسمون الختان طهارة كأن الفتى والفتاة يتطهران بهذا العمل ... وقد جرت الطبقة الكبيرة و الوسطى على أن تلف القطعة التى فصلت من الولد فى منديل وتضع عليه ملحاً حتى لا تتعفن ويربط المنديل فى عنق الولد على شكل عقد حتى إذا شفى من هذه العملية رماها فى النيل أو فى الخليج . (المترجم)

(٢) قد يكون من الفارسية : نياز : رجاء . إظهار المحبة — فيعنى عود المحبة والرجاء . (المترجم)

الفصل الثامن والعشرين

الوفاة والطقوس الجنائزية

عندما يشعر المسلم الأديب أو التقى بدنو أجله ، يقوم بالوضوء العادى السابق على الصلاة ، ليرحل من الدنيا فى حالة طهارة جسمانية ، ويردد على العموم الشهادتين . والشائع أيضاً أن يحمل المسلم معه كفنه فى الحملات العسكرية ، أو فى السفر الطويل ، فى الصحراء خاصة . وليس من غير الشائع أن يضطر المسافر ، فى مثل هذه الظروف ، لأن يشق ضريحه عندما يغلبه التعب أو الحرمان ، أو يصاب بمرض مميت ، ولا يستطيع رفقاؤه انتظار إبلاله أو وفاته . فيتيمم (بالرمل أو بالتراب ، وهذا جائز فى حالة عدم وجود الماء) ثم يحفر قبره فى الرمال ، ويتمدد داخله ، بعد أن يلف نفسه فى كفنه ، ويغطى جسمه ما عدا وجهه بالرمال ، وينتظر هكذا إلى أن تريحه الوفاة ، ويركن إلى الهواء ليتم ضريحه .

وعندما يموت أحد أفاضل « العلماء » بالقاهرة ، تعلن وفاته من مآذن الأزهر ، وكثير من المساجد الأخرى ، بانشاد « الأبرار » ، الذى ذكرته فى الثانى من فصول الأعياد الدورية العامة .

وتكاد تكون الطقوس الخاصة بالوفاة والدفن واحدة بالنسبة للرجال والنساء . وعندما تظهر علامات الموت ، كالحشرجة وغيرها ، على الرجل ، يديره أحد الحاضرين (زوجه أو غيرها) بحيث يكون وجهه إلى مكة(١) ، ويغلق عينيه . ويصيح الرجال الحاضرون ، حتى قبل صعود الروح أو بعد ذلك ، « الله ! لا حول ولا قوة إلا بالله ! إن لله وإنا إليه راجعون . الله يرحمه » .

(١) يدير بعض المسلمين الرأس إلى ناحية مكة . وآخرون ، الجانب الأيمن ، والرأس تحنى إلى تلك الناحية . وأعتقد أن الوضع الأخير هو الوضع الشائع .

وفى الوقت نفسه، ترفع نساء العائلة أصوات الندب المسماة « ولولة » أو « ولوال » إلى أقصى حد، وينادين باسم الميت. وأكثر النداءات شيوعاً، عند وفاة رب العائلة، ما تقوله زوجه أو زوجاته، وأولاده: « يا سيدى! »، « يا جملى! » (أى يا من جلبت مؤنى، وحملت أعبائى)، « يا سبعى! »، « يا جمل البيت! »، « يا عزى! »، « يا حيلتى! »، « يا دحوتى! » (بدلا من يا دعوتى). — وحالما تصعد روح الميت تخلع ملابسه، ويلبس ملابس أخرى، ويوضع على سريره أو حشيته، ويغطى بملاءة. ويظل النساء يندبن، ويحضر كثير من نساء الجيران عند سماع الصراخ، لمشاركتهن فى هذا الواجب الحزين. وترسل عائلة المتوفى على العموم فى طلب « ندابتين »(١)، أو أكثر، أيضاً. ويستهجن البعض هذه العادة، ولا يوافق عليها كثير من الناس منعاً لتكاليف غير لازمة. وتحضر كل « ندابة » طاراً، بدون الصفائح المعدنية الرنانة المعلقة بطوقه. وتصيح الندابات عدة مرات، وهن يضربن الطار، « ياخسارته! ». ثم يمدحن فى المتوفى، شخصه الجميل، وعمامته، الخ. وتصيح قريباته، وخادماته الخ (مفككات الضفائر، ممزقات الثياب)، وهن يلطمن وجوههن، بالطريقة نفسها: « يا خسارته ». وتدوم هذه الولولة على العموم ساعة على الأقل.

ويدفن الميت فى اليوم نفسه، إذا حدثت الوفاة فى الصباح(٢)، وفى اليوم التالى، إذا حدثت عصراً أو ليلا. وتستمر الندابات فى هذه الحالة طول الليل فى الندب، ويشاركهن النساء الأخريات. ويحضر « فقى » إلى المنزل لتلاوة بعض آيات القرآن أثناء الليل، أو يستخدم عدة فقهاء لقراءة ختمة كاملة.

ولا يلبث « المغسل » أن يحضر، ومعه دكة، يضع جثمان الميت عليها، ونعش(٣). ويحضر أيضاً الفقهاء الذين يشتركون فى الجنازة (إذا كان المتوفى ينتمى إلى إحدى الطبقتين العليا أو الوسطى). ويجلس هؤلاء أثناء التغسيل

---

(١) أنظر أخبار الأيام الثانى ٣٥ — ٢٥ — وأرمياء ٩ — ١٧ — وإنجيل متى ٩ — ٢٣ (ورثى أرميا يوشيا. وكان جميع المغنين والمغنيات يندبون يوشيا فى مراثيهم إلى اليوم. وجعلوها فريضة على إسرائيل). (هكذا قال رب الجنود. تأملوا وادعوا النادبات فيأتين وأرسلوا إلى الحكيمات فيقبلن). (ولما جاء يسوع إلى بيت الرئيس ونظر المزمرين والجمع يضجون).

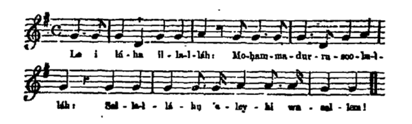
(٢) وهناك خرافة تجعل المصريين يعارضون فى إبقاء الجسد فى المنزل أثناء الليل، وفى دفن الميت بعد الغروب ولكنهم يدفنون فى ذلك الوقت أحياناً. وقد شاهدت ذلك مرة.

(٣) ليس من الضرورى القول أن جسد الأنثى تغسله امرأة دائماً.

فى غرفة مجاورة للغرفة التى بها المتوفى ، أو خارج باب الغرفة الأخيرة . ويتلو بعضهم ، أو بالأحرى يرتلون سورة الأنعام . وينشد آخرون جزءاً من البردة ، القصيدة المشهورة فى مدح النبى . ويخلع المغسل ملابس المتوفى ، وتكون له . ويربط فك الميت وتغلق عيناه . وبعد القيام بالوضوء على الجسد ، ما عدا غسل الفم والأنف(١) ، يغسل الجسد كله غسلا جيداً ، من الرأس إلى القدمين ، بالماء الساخن والصابون ، ويدلك باللوف ، أو على الأصح ، بالماء يغلى معه بعض أوراق « النبق » أو « السدر »(٢) . ويحشى الأنف والأذنان بالقطن ، ويرش الجسد بمزيج من الماء والكافور المسحوق وأوراق النبق الجافة المسحوقة وماء الورد . ويضاف أحياناً إلى أوراق النبق أوراق جافة مسحوقة أخرى . وتربط الركبتان معاً ، وتوضع اليدان فوق الصدر .

ويتكون كفن الفقير من قطعة أو قطعتين من القطن(٣) ، أو يكون مجرد نوع من الأكياس . ويلف جسد الغنى على العموم بالموصلى ، ثم بنسيج قطنى سميك ، ثم بقطعة من القماش المخطط من الحرير والقطن ، أو بقفطان من النسيج نفسه ، وأخيراً يلف فوق ذلك شال كشميرى . ويكسى جسد المرأة من الطبقة الوسطى بيلك عادة . وأكثر الألوان استحساناً للكفن هى الأبيض والأخضر . ويستعمل أى الألوان ما عدا الأزرق ، أو ما يقرب منه . ويوضع الجسد المعد للدفن كما سبق وصفه ، داخل النعش الذى يغطى عادة بشال كشميرى أحمر أو غير ذلك من الألوان . ثم يرتب من يشترك فى الجنازة أنفسهم — انتقل الآن إلى وصف أكثر الجنازات شيوعاً .

يتقدم الجنازة ستة من الفقراء تقريباً ، أو أكثر ، يسمون « يمنية » وأغلبهم عمى ، ويسيرون إثنين إثنين ، أو ثلاثة معاً ، بخطوة متوسطة ، أو بالأحرى ببطء . وينشدون الشهادتين ، بصوت حزين وبدون توقف ، على اللحن التالى غالباً :



(١) « إلا المضمضة والاستنشاق فإنهما لا يفعلان فى وضوء الميت لئلا يدخل الماء إلى جوفه فيسرع فساده ولوجود مشقة فى ذلك » . — كتاب الفقه على المذاهب الأربعة . قسم العبادات . كتاب الصلاة . (المترجم)

(٢) كثيراً ما يستعمل الفقراء أوراق النبق الجافة المسحوقة بدلا من الصابون .

(٣) كثيراً ما يرش الكفن بماء زمزم فى مسجد مكة .

أو كلمات أخرى أحياناً . ويتبعهم أقارب المتوفى وأصدقاؤه ، وفى أحوال كثيرة ، درويشان أو أكثر يحملان أعلام طوائفهم . وهذه عادة شائعة فى جنازات الدراويش . يتبع هؤلاء ثلاث تلاميذ ، أو أربعة ، أو أكثر ، ويحمل أحدهم مصحفاً ، أو جزءاً من أجزاء القرآن الثلاثين ، على حامل من الجريد ، ومغطى بمنديل مطرز . وينشد هؤلاء الأولاد عادة، فى صوت أعلى وأحد من أصوات اليمنية ، بعض عبارات قصيدة «الحشرية» التى تصف أحداث اليوم الأخير ويوم الحساب الخ . وتبدأ هكذا : سبحان من أنشأ الصور وعلى العباد بالموت قهر على اللحن التالى :

Sub - ḥá- na men an-sha-ṣ-ṣu-war Wa -'a-l - 'e-bád' bi-l-mót ka-har. =

ويتقدم التلاميذ النعش مباشرة ، ويحمل العش والرأس إلى الأمام . ويحمله ثلاثة من أصدقاء المتوفى عادة أو أربعة ، لمسافة قصيرة ، ثم ثلاثة أو أربعة آخرون لمسافة أخرى وهكذا . وكثيراً ما يشترك بعض المارة أيضاً فى حمل النعش ، ويعتبر ذلك عملا يستحق ثواباً عظيماً . وتسير من النادبات خلف النعش ما يزيد على إثنتى عشر أو عشرين نادبه مسدلات الشعر ، وإن غُطين بالنقاب على العموم ، نائحات كما سبق أن وصفت . وكثيراً ما تصحبهن «الندابات» المستأجرات ، شائدات بمدح المتوفى . وتميز قريبات المتوفى وخادماته بين النساء بقطعة من الكتان أو القطن أو الموصلى ، زرقاء اللون على العموم ، تلف حول الرأس وتعقد عقدة واحدة من الخلف ، ويتدلى أطرافها بضع بوصات(١) . وتحمل كل من أولئك أيضاً منديلا مصبوغاً بالأزرق عادة ، تمسكه بيديها فوق كتفيها أحياناً ، وتدوره فوق رأسها ، أو أمام وجهها ، أحياناً أخرى . ويكون صراخ النساء ، وغناء الأولاد الحاد ، وأنشاد اليمنية العميق ، نشازاً غريباً .

---

(١) كثيراً ما تشاهد على جدران المقابر الفرعونية فى مناظر الجنازات ، نساء يتعصبن بعصابة مشابهة .



شكل ٨٨ (جنـازة)

وكان الرسول يحرم ولولة النساء فى الجنـازات ، وكذلك الإشادة بفضائل المتوفى . وقال محمد إن الفضائل التى تنسب هكذا إلى الميت تكون سبباً لعقابه فيما بعد إذا لم تكن فيه(١) . والغريب أن تشاهد تعاليم الرسول ينقضها كل يوم طبقات المسلمين المحدثين جميعاً ، ما عدا الوهابيين . وقد رأيت أحيـاناً نادبات من الطبقات الدنيا ، يتبعن نعشاً ، وقد لطخن وجوههن السافرة، وطرحهن ، وصدورهن بالطين(٢) .

---

(١) « عن أبى هريرة رضى الله عنـه أن رسـول الله (صلعم) قال : لا تصلى الملائكة على نائحة ولا مرنة (بضم الميم وكسر الراء وفتح النون المشددة) » و« عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال النبى (صلعم) : الميت يعذب فى قبره بما نيح عليه » . — الترغيب والترهيب من الحديث الشريف . ج ٥ .

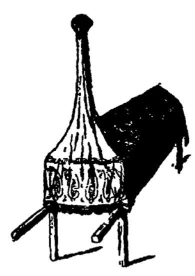
« هذا ولا يعذب الميت ببكاء أهله المحرم عليه إلا إذا أوصى به . وإذا علم أن أهله سيبكون عليه بعـد الموت وظن أنهم لو أوصـاهم بتركه امتثلوا ونفذوا وصيتـه وجب عليـه أن يوصيهم بتركه . فإذا لم يوص عـذب ببكائهم عليه بعـد الموت » . — الفقه على المذاهب الأربعة . قسم العبادات . كتاب الصلاة . (المترجم)

(٢) وهذه عادة من عادات قدماء المصريين . وقد وصفها هيرودوت فى كتابه الثـانى الفصل الخامس والثمانون . — وكثيراً ما يقول المارة فى الشوارع، عندمايرون نعشاً محمولا إلى المقابر: الله أكبر ! الله أكبر ! هذا ما وعد به الله ورسوله ، وقد قال الله ورسوله الحق . اللهم قوى إيماننا وإسلامنا — أما النساء فيشرن بالأصبع ، ويقلن : أشهد أن لا إله إلا الله .

وقد يتقدم أحياناً جنازة الرجل الثرى ، أو من الطبقة الوسطى ، ثلاثة جمال أو أكثر ، تحمل الخبز والماء ليوزع على الفقراء عند المقبرة ، كما تتكون من جماعات أكثر عدداً واختلافاً . ويتقدم « اليمنية » المشيعين ، ويرتلون الشهادتين كما سبق . ويتبعهم على العموم بعض أصدقاء المتوفى ، وبعض علماء الأزهر والأتقياء الذين دعوا لحضور الجنازة . ويتبع هؤلاء أربعة فقهاء ، أو أكثر ، يرتلون سورة الأنعام . وقد يرتل آخرون ، سورة يس . وآخرون ، سورة الكهف . وآخرون ، سورة الدخان . يأتى بعد ذلك بعض المنشدين ينشدون البردة . ويتبع هؤلاء « أصحاب الأحزاب » وهم أعضاء طوائف دينية أسسها شيوخ مشهورون . ويوجد على العموم أربعة أو أكثر من حزب السادات ، وفريق مماثل من حزب الشاذلى ، وثالث من حزب الشعراوى ، وينشد كل فريق نوعاً خاصاً من الدعاء . ويحمل بعد ذلك علمان مطويان بعض الطى ، أو أكثر ، وهى أعلام حزب أو أكثر من أحزاب الدراويش الرئيسية . ثم يتبع ذلك التلاميذ ، فالنعش ، فالنائحات ، كما فى الجنازة السابق وصفها . ويذبح جاموس أمام القبر ويوزع لحمه على الفقراء .

وعندما يتوفى شيخ أو أحد كبار « العلماء » ، يزيد عدد المشيعين . ولا يغطى النعش فى هذه الحالة بشال . وهناك عادة معتبرة يراعيها المصريون فى جنازة الولى المتوفى لتكريمه تكريماً عظيماً . يتبع النساء النعش ، غير أنهن لا يولولن ، كما يفعلن فى جنازة المتوفى العادى ، وإنما يزغردن بلا توقف ، وإلا احتج حاملو النعش بأنهم لا يستطيعون التقدم ، وبأن قوة خارقة تسمرهم فى مكانهم . ويقال إن الولى كثيراً مايدفع حاملى جثته إلى مكان خاص — وقد روى لى أن أحد أصدقائى القصة التالية . وهى تصف طريقة بارعة لربط ولى متوفى فى حالة من هذا النوع — كان بعض الرجال يحملون أخيراً جثمان ولى إلى قبر أعد له فى المقبرة الكبيرة شمال العاصمة . وعند وصولهم إلى باب النصر ، المؤدى إلى هذه المقبرة ، وجدوا أنفسهم عاجزين عن التقدم خطوة إلى الأمام للسبب المذكور سابقاً . وقال أحد حاملى النعش : « يبدو أن الشيخ مصمم على ألا يدفن فى مقبرة باب النصر . فماذا نفعل ؟ » . وتحيروا جميعاً ، ولكنهم عندوا مثل الولى ولم يذعنوا إلى بداته مباشرة ، وتقهقروا بعض خطوات ثم تقدموا بسرعة ظناً منهم أنهم ، بقوة اندفاعهم هذه ، يدفعون الجثة عن طريق الباب . غير أن مجهودهم ذهب سدى . وأعادوا الكرة مرات دون جدوى . ثم وضعوا النعش على الأرض للراحة والاستشارة . وقال أحدهم بعد أن أشار إلى زملائه بالابتعاد عن مسمع الولى المتوفى : لندفع النعش مرة أخرى ، وندير

عدة مرات بسرعة حتى يصاب الشيخ بالدوار ، وسوف لا يعرف فى أى جهة نسير فيسهل علينا حمله إلى البـاب » . وقاموا بذلك فعـلا . وتحير الولى كما توقعوا ، ودفن بهدوء فى المكان الذى يسعى فى تجنبه .



شكل ٨٩ (نعش امرأة أو ولد)

تختلف النعـوش المستعملة لنقل أجسادالنساءوالأولاد عن نعوش الرجال. وتجهز بغطاء خشبى يطرح عليه شال ، كما يطرح على نعش الرجال ، وبقطعة خشبية عمودية ، عنـد الرأس ، تسمى « شاهداً » . ويغطى الشاهد بشـال ، ويثبت بأعلاه ، عند نقـل جثـة امرأة من الطبقة الوسطى أو العليا ، عدة حلى من غطاء الرأس للمرأة.وكثيراً ما يوضع على قمة الشـاهد المبطوحـة والمستديرة « قرص »،ويعلق « الصفا » عند الظهر (أنظر ذيل ا) . ويميز نعش الولد بعمامة من شال كشميرى أحمر على العمـوم ، تلف حول قمة الشـاهد ، الذى كثيراً ما يزين أيضاً بالقرص والصفـا ، عندما يكون المتـوفى ولداً صغيراً . ويحمل جسد الولد الصغير إلى القبر بين يدى رجل ، ويغطى بشال فقط ، أو يوضع فى نعش صغير يحمله الرجل على رأسه .

يسبق النعش عادة ، فى جنائز النسـاء والأولاد ، فرقة « اليمنية » ينشدون الشهادتين،وبعض أقارب المتوفى فقط، وتتبعه النادبات ، إلا إذا كانت المتوفاة من عائلة ثرية أو ذات نفوذ ، فتميز الجنازة بعـرض إضافى . وسأورد وصفاً قصيراً لإحدى الجنائز من هذا النوع كنت قد شاهدتها . وكانت جنازة عذراء صغيرة السن ـــ تقدم الجنـازة رجلان يحمل كل منهمـا راية خضراء مطوية كبيرة ، يتبعهما حوالى ثمانية من فرقة اليمنية ، التى كان ينشد أفرادها بصوت منخفض مهيب على غير عادة . وكان يتبعهم فريق من الفقهاء يرتلون سورة من القرآن . وكان يتلوهم رجل يحمل فرعاً كبيراً من النبق ، رمز المتوفاة(١). وعلى كل جانب شخص يحمل عصا طويلة ،علق فى قمتها عدةأطر مزينة بقصاصات من الورق الملون تلويناً مختلفـاً . وكان يتبعهما جنـديان تركيان ، جنباً

(١) ويحمل هذا فى جنائز الصغار فقط .

إلى جنب ، يحمل أحدهما على صينيــة مستديرة صغيرة ، قمقمــاً من الفضة المذهبة به ماء ورد ، ويحمـل الآخر على صينيـة مماثلة ، مبخرة من الفضة المذهبة تحترق بها بعض المواد العطرية (مثل اللبـان والجـاوى) ، فينتشر عطرها فى الطريق ، وتستعمل فيما بعد لتعطير قبوة الضريح. وكان المارة يرشون أحياناً بماء الورد . ثم جاء أربعة رجال ، يحمل كل منهم ، على صينية صغيرة ، عدة شمعات رفيعة صغيرة مضاءة ألصقت بأقراص من عجين الحناء . وكان النعش مغطى بشيلان فاخرة ، وكان شاهده مزيناً بحلى رأس جميلة . وكان ، بجانب الصفا ، "قصبة الماس » (أنظر ذيل ١) ، ويعلو قمته المسطوحة قرص ماسى فاخر. هذه كانت حلى المتوفاة ، أو ربما كانت مقترضة لذلك ، كما هو الحال كثيراً . وتبعت النــادبات النعش ، وكن سبعاً أو ثمـانى تقريباً ، لابسات على طريقة السيدات المصريات (غطاء حريرياً أسود الخ .) ، وراكبات حميراً ذات أسرجة عالية ، خلافاً للعادة الشائعة فى جنائز هذا البلد . ولم يكن يولول منهن غير الأخيرتين أو الثلاث الأخريات ، ويحتمل أن تكون أولئك نادبات مؤجـرات - وفى جنازة امرأة أخرى ، إبنة أحـد الأمراء الأتراك العظماء ، كان يتبع اليمنية ستة عبيد سود يسيران اثنين اثنين . وحمل كل من الإثنين الأولين قمقمــاً فضياً به ماء ورد يرشانه على المارة . وقد كرمنى أحدهما تكريماً وافراً فبلل ثيابى بطريقة متعبة ، ثم صب مقداراً صغيراً فى يدى ، فبللت به وجهى تبعاً للعادة الشـائعة . وحمل كل من الإثنين التاليين مبخــرة فضية بها عطر . وحمل كل من الاثنين الأخيرين « عزقيـاً » فضياً به جمر ولبـان . وكانت حلى الشاهد ثمينة . وتبعتهم إحـــدى عشرة ســيدة ، على الحمير العالية ، وعدة « ندابات » معاً .

بقى أن أصف الطقوس الدينية التى تقام بالمسجد وعند القبر وبعد الجنازة - يحمل جسد المتوفى فى أحد الأحيـاء الشمالية من العاصمة ، إلى مسجد الحسنين عادة ، على الأفضل ، إلا إذ كان فقيراً ، لا يسكن بجوار هذا المسجد المقدس ، فيحمل أصدقاؤه جسده إلى أى مسجد مجاور ، اختصاراً فى الوقت والنفقات غير اللازمة . وعندما يتوفى أحد العلماء (ذو المهنة الأدبية ولو وضعت) يحمل إلى الجامع الأزهر . ويحمـل أهل الأحياء الجنوبية موتاهم إلى مسجـد السيدة زينب على العموم ، أو إلى أى مسجد ولى مشهور آخر . ويرجـع سبب تفضيل مثل هذه المساجد على الأخرى إلى الاعتقاد فى أن الصـلاة المقامة عند أضرحة الأولياء أكثر استجابة عند الله .

ويوضع النعش، بعد حمله إلى المسجد، فوق الأرض فى مكان الصلاة العادى ويمينه إلى القبلة . ويقف إمام المسجد على الجانب الأيسر تجاهه والقبلة . ويقف أحد خدم المسجد « مبلّغاً » عند القدم . ويرتب المشيّعون أنفسهم خلف الأمام . ويقف النساء على حدة خلف الرجال ، وقلما يبعد النساء من المسجد فى هذا الوقت . وبعد ذلك يبدأ الإمام الصلاة على الميت(١)، أو على الأموات ، إذ كثيراً ما يصلى على أكثر من ميت فى وقت واحد فينوى صلاة الجنازة أربع تكبيرات . ويكبّر الإمام (رافعاً يديه المبسوطتين ويلمس شحمتى أذنيه بطرف الإبهام) فيردد المبلغ قوله ، وكذلك الجماعة خلف الإمام . ويفعلون ذلك أيضاً فى كل تكبيرة . ويتلو الإمام الفاتحة بعد التكبيرة الأولى ، ثم يصلى على النبى الأمىّ(٢) وعلى آله وصحبه فى التكبيرة الثانية ، ويستغفر للميت ويشفع له فى الثالثة فيقول : اللهم هذا عبدك وابن عبدك خرج من روح الدنيا وسعتها ومحبوبيه وأحبائه فيها إلى ظلمة القبر وما هو لاقيه . كان يشهد أن لا إله أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك وأنت أعلم به . اللهم أنه نزل بك وأنت خير منزول به وأصبح فقيراً إلى رحمتك وأنت غنى عن عذابه وقد جئناك راغبين إليك شفعاء له . اللهم إن كان محسناً فزد فى إحسانه وإن كان سيئاً فتجاوز عنه ولقه برحمتك رضاك وقه فتنة القبر وعذابه وافسح له فى قبره وجاف الأرض عن جنبيه(٣) ولقه برحمتك الأمن من عذابك حتى تبعثه آمناً إلى جنتك برحمتك يا أرحم الراحمين ، ويتم الصلاة بالرابعة فيستغفر له وللمسلمين قائلا : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله وللمسلمين أجمعين يا رب العالمين . ثم يسلم كما فى الصلاة العادية . ثم يخاطب الحاضرين ويطلب الشهادة للميت فيجيب هؤلاء أنه كان من الصالحين . — ويحمل النعش بعد ذلك ، ويوضع أمام المقصورة ، إذا أقيمت الصلاة فى مسجد الحسنين ، أو مسجد أحد الأولياء المشهورين . وهنا يتلو بعض الفقهاء وغيرهم من مشيعى الجنازة الفاتحة والآيات الأخيرة من سورة البقرة ابتداء من : « لله ما فى السموات وما فى الأرض . . . » — وبعد ذلك ، تتقدم الجنازة إلى المقبرة(٤) بالترتيب نفسه .

---

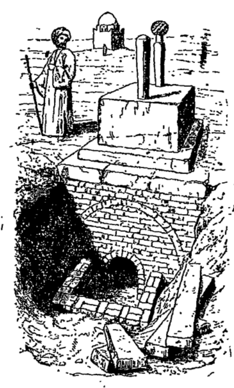
(١) طبقاً للمذهب الشافعى الشائع فى القاهرة . ولا تختلف تلك الصلاة عنها فى المذاهب الأخرى كثيراً .

(٢) المعنى الغالب بهذه الصفة هو جهل القراءة والكتابة . ويؤكد المسلمون أن جهل محمد هذا دليل نزول القرآن عليه . غير أنه يحتمل أن يكون المعنى الصحيح « وثنياً » .

(٣) ويعتقد أن بدن الشرير تضيق به الأرض على جنبيه فى القبر ، فيعذب . وإن كان القبر يجعل دائماً أجوف .

(٤) يقع أغلب مقابر القاهرة خارج المدينة فى الصحراء شمالا وشرقاً وجنوباً . والمقابر داخل المدينة قليلة ضيقة .

وهنا أصف القبر وصفاً سريعاً — فهو قبو مستطيل ذو سطح معقود ، يبنى بالآجر على العموم ، ويغطى بالجص . ويكون مجوفاً ليستطيع المدفون أن يقوم بسهولة عند سؤال الملكين « مُنكر » (عامة ناكر) « ونكير » . ويكون أحد جوانب القبر موجهاً لمكة ، أى جنوبى شرقى . ويكون المدخل شمالى شرقى وتبنى أمامه حجرة مربعة صغيرة ، تسقف بأحجار تمتد من جانب إلى آخر ، لتمنع التراب من النزول إلى القبو ، وتغطى الأحجار بالتراب . ويعد القبو على العموم ليسع أربعة أو أكثر . وعندما يدفن ذكور وأناث معاً فى قبو واحد ، والعادة لم تجر بذلك ، يبنى حاجز ليفصل بين الجنسين . ويقام فوق القبو ضريح مستطيل ، يسمى « تركيبه » ، من الحجر أو الآجر ، وعمود حجرى قائم ، يسمى « شاهداً » عند الطرفين . ويكون الشاهدان فى شكل ساذج غالباً ، غير أن بعض الشواهد تزين . وكثيراً ما ينقش على شاهد الرأس آية قرآنية(١) واسم المتوفى وتاريخ وفاته . وقد تُنحت قمة الشاهد أيضاً على هيئة عمامة أو غطاء رأس آخر لتبين مكانة المدفون أو طبقته . ويقام فوق قبر الشيخ الفاضل ، أو ذائع الصيت ، بنيان مربع صغير يتوج بقبة(٢) . ولكثير من قبور عظماء المماليك والأتراك « تركيبة » رخامية تظلها قبة على عمدان رخامية أربعة . وينقش شاهد الرأس بالذهب على أرضية ذات زرقة سماوية . وتحوى مقبرة القاهرة الجنوبية الكبيرة كثيراً من هذه القبور . وأغلب قبور السلاطين مساجد جميلة وبعضها داخل العاصمة ، والبعض الآخر فى المقابر المجاورة — وأعود الآن إلى وصف الجنازة .



شكل ٩٠ . (قبر ومدخله)

لا يتوانى فى دفن الميت عند

---

(١) حرم الرسول نقش اسم الله ، أو كلام القرآن ، على القبر . وأمر أيضاً أن تكون القبور منخفضة مبنية باللبن فقط .

(٢) مثل التى ترى فى أعلى شكل ٩٠ .

وصول الجسد إلى القبر ، الذى يفتح قبل وصول الجنازة . فيرفع الجسد من النعش ويوضع فى القبو . وتفك اللفائف ، ويمدد الجسد على الجانب الأيمن ، أو يوضع بحيث يتجه وجهه إلى مكة . ويسند فى هذا الوضع ببعض اللبن . ويمزق الغطاء الخارجى ، إذا كان شالا من الكشمير ، حتى لاتغرى قيمته على انتهاك القبر . ويوضع بعض التراب برفق فوق الجثة وبجانبها. وتعاد أحجار السقف إلى موضعها مع التراب ، فوق الحجرة الصغيرة المتقدمة لغلق القبر . غير أن هناك طقساً غريباً يجرى فى غير حالة الطفل غير المسئول عن أعماله . فيستخدم فقيه للقيام بعمل « ملقن »(١) (أى تلقين الميت) يجلس أمام القبر ليلقن الميت حين يحضر الملكان بأن عليه أن يجيب على أسئلتهما بأن الله ربه ، وأن محمداً رسول الله وأن الإسلام دينه ، وأن القرآن إمامه والمسلمين أخوانه ، وأن الكعبة قبلته ، وأنه عاش ومات معتقداً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ويختم تلقينه هذا بقوله : « نم يا عبدالله، فى حمى الله » .

ويعتقد أن الروح تلازم الجسد فى اليوم الأول من الدفن ، وأن الملكين يزورانه ليلا لسؤاله ، وقد يعذبانه — ويدفع إلى اليمنية وغيرهم من المؤجرين للسير فى الجنازة أجرهم فى المقبرة ، ويتناول كل من الأولين قرشاً عادة . ويحمل فى جنازة ذى المكانة أو الثراء قربتان ماء أو ثلاث ، وخبز حمل جملين أو ثلاثة ، إلى المقبرة ليوزع بعد الدفن ، على الفقراء الذين يحتشدون هناك فى مثل هذه المناسبة . وقد ذكرت أيضاً أنهم يذبحون جاموسة أحياناً ، ويوزعون لحمها بالطريقة نفسها . وتسمى هذه الذبيحة « الكفارة » إذ أنها تكفر عن بعض « صغائر » الميت ، ولا تكفر عن « الكبائر » . ويحيى كل من أهل الميت بعد الدفن بدعاء أن يعوضوا هذه الخسارة تعويضاً سعيداً ، أو يطيل الله بقاءهم .

وتسمى الليلة الأولى بعد الوفاة « ليلة الوحشة » ، إذ أن الميت ترك مكانه مقفراً . وفى هذه الليلة ، عند الغروب ، يحضر فقيهان أو ثلاثة إلى المنزل ، ويتناولون خبزاً ولبناً حيث مات المتوفى ، ثم يقرأون سورة الملك . ولما كان الاعتقاد أن الروح تلازم الجسد فى الليلة الأولى ، ثم تغادره إلى المكان المحدد لبقاء الأرواح الطيبة إلى يوم الحساب ، أو إلى السجن المحتوم حيث تنتظر

(١) ويستهجن المالكية عادة « تلقين الميت » .

الأرواح الشريرة القضاء الأخير(١) ، فان تلك الليلة تسمى « ليلة الوحدة » .

وهناك شعار آخر ، يسمى شعار « السبحة » ، يقام بهذه المناسبة ، ليسهل دخول الميت فى حالة سعيدة . وهو يشغل ثلاث ساعات أو أربع عادة . فيجتمع ما يقرب من خمسين فقيهاً أحياناً ، بعد العشاء ، فى المنزل أو فى فنائه ، أو أمام المنزل على حصر تمد لهم إن لم يكن بالمنزل غرفة تسعهم . ويحضر أحدهم سبحة من ألف خرزة بحجم بيض الحمام تقريباً . فيبدأون بقراءة سورة الملك ، ثم يقولون ثلاثاً « الله أحد » . ويتلون بعد ذلك سورة الفلك والفاتحة ، ثم يقولون ثلاثاً : « اللهم صل أفضل صلاة على أسعد مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى أصحابه وسلم » . ويضيفون : إن الذين يذكرونك هم النابهون ، والذين يغفلون ذكرك هم المقصرون . ويرددون بعد ذلك : « لا إله إلا الله » (ثلاثاً) ألف مرة . ويحسب أحدهم عدد ما قالوه بدفع خرزة من السبحة بين أصابعه ، فى كل مرة . ويستريحون أحياناً بعد كل ألف ، ويتناولون القهوة . وبعد إتمام الألف الأخيرة يستريحون وينتعشون ، ويقولون مائة مرة : سبحان الله وحمده . ثم مائة مرة : أستغفر الله العظيم . ثم خمسين مرة : سبحان الرب الدائم . سبحان الله الدائم . ثم يتلون من سورة الصافات الآيات الثلاث الأخيرة . وبعد ذلك يتلو فقيهان منهم أو أكثر « عشراً » أو آيتان من القرآن أو ثلاث ، كل على انفراد . ثم يسأل أحدهم رفقاءه : « هل وهبتم ما قرأتم إلى روح الميت ؟ » : فيجيبون « وهبناه » ، ويضيفون : « وسلام على المرسلين الخ ... » ويختم بها شعار السبحة ، الذى يردد أيضاً ، فى منازل الأغنياء ، فى الليلتين الثانية والثالثة . ويقام كذلك فى منزل العائلة عند وفاة أحد الأقارب .

ولا يلبس الرجال ملابس الحداد ، ولا النساء ، عند موت شيخ . ويلبسون الحداد فيما عدا ذلك . وفى تلك الأحوال تصبغ القمصان والطرح والأنقبة والمناديل بالأزرق ، أو بما يقرب من الأسود ، بالنيلج . ويصبغ بعضهن باللون

---

(١) ويقدم سيل Sale آراء الشارحين المسلمين فيما يخص أمر الروح فيما بين الموت ويوم الحساب ، (القسم الرابع من المقال التمهيدى) هكذا : « إنهم يميزون أرواح المؤمنين بثلاث طبقات . الأولى ، طبقة الأنبياء الذين تذهب أرواحهم إلى الجنة مباشرة . والثانية ، طبقة الشهداء الذين ، طبقاً لحديث شريف ، تسكن أرواحهم حوصلة طيور خضراء تقتات من فاكهة الجنة وتنهل من أنهارها . والثالثة ، طبقة من المؤمنين الآخرين . وتختلف الآراء فى أمر أرواحها قبل يوم القيامة :

نفسه أيديهن وأذرعتهن إلى المرفق ، ويطلين جدران الغرف . وعندما يموت رب الدار ، أو مالك الأثاث ، وفى أحوال أخرى أحياناً ، يقلبن السجاجيد والحصر والحشايا وأغطية الدواوين . ويرسل النساء شعورهن ، عند الحداد ، ويمتنعن عن لبس بعض الحلى ، ويدخن إن كن متعودات على التدخين ، فى شبك من البوص العادى .

وتعود نساء عائلة المتوفى ، وبعض الصديقات ، إلى الولولة ، فى منزلهن عند نهاية الخميس الأول بعد الوفاة ، أو مبكرات فى صباح هذا اليوم . ويزور أصدقاء المتوفى المنزل بعد ظهر هذا اليوم أو فى المساء . ويؤجر ثلاثة فقهاء أو أربعة لعمل ختمة. وفى صباح الجمعة يقصد النساء المقبرة حيث يراعين العادات نفسها التى وصفتها سابقاً فى الفصل الثانى من فصول الأعياد الدورية العامة ، ويحملن على العموم السعف يكسرنه ويضعنه على القبر ، ويوزعن الخبز على الفقراء . وتعاد هذه الطقوس فى هذين اليومين من الأسبوعين التاليين وكذلك فى يومى الخميس والجمعة ، حتى تتم فترة الأربعين يوماً(١) بعد الوفاة ، والتاليين لها . ومن هنا يسمى يوم الجمعة هذا « الأربعين » أو « جمعة الأربعين ».

= ١ – يقول البعض إنها تلزم القبر ، وإن لها حرية التجول أينما شاءت . ويستند أصحاب هذا الرأى على طريقة إلقاء محمد السلام عليها فى المقابر وجزمه أن الميت مثل الحى يسمع هذا السلام . ومن هنا نشأت عادة زيارة القبور عند المسلمين ، وذلك على وجه الاحتمال .

٢ – يعتقد البعض أن الروح تبقى مع آدم فى أدنى السموات ، ويدعمون رأيهم أيضاً بحديث للنبى أنه رأى عند نزوله السموات من العليا فى رحلة المعراج ، أرواح الذين مآلهم الجنة على يمين آدم ، والذين مآلهم النار على يساره .

٣ – يتخيل آخرون أرواح المؤمنين تمكث فى بئر زمزم ، وأرواح الكفار فى بئر برهوت – بفتح الباء والراء – [هكذا فى (القاموس) ولكن (سيل) يكتبه برهوت – بضم الباء وتسكين الراء] الواقع أقليم حضرموت . ويتسم هذا الرأى بأنه بدعة .

٤ – يقول آخرون إن الأرواح تلزم القبور سبعة أيام . ولا يعرف وجهتها بعد ذلك .

٥ – يقول آخرون إن الأرواح جميعاً تبقى داخل الصور حتى يبعث صوته الأموات .

٦ – ويقول آخرون إن الأرواح تكون فى شكل طيور بيضاء ساكنة تحت عرش الله .

أما أرواح الأشرار ، فيعتقد أكثر المعلقين رشداً ، علاوة ما تقدم من أمرها ، إن الملائكة تقدمها إلى السماء فتردها لنتانتها وقذارتها ، فتقدمها إلى الأرض ، فترفض إقامتها بها أيضاً فتحملها إلى أسفل الأرض السابعة ، وتلقى فى (زنزانة) ، يسمونها سجين – بكسر السين والجيم المعطشة والمشددة – ، تحت صخرة خضراء إلى أن تدعى لتضم إلى أجسادها ثانياً » . وأعتقد أن الرأى القائل ببئر برهوت هو السائد اليوم .

(١) أنظر سفر التكوين ٥٠ – ٣ (وكمل له أربعون يوماً ، لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين ، وبكى عليه المصريون سبعين يوماً) .

جرت العادة عند فلاحي الصعيد أن يجتمع قريبات المتوفى والصديقات معاً بالقرب من منزله فى كل من الأيام الثلاثة بعد الجنازة ، ويقمن هناك مناحة ، ونوعاً غريباً من الرقص . فيلطخن وجوههن وصدورهن وبعض ملابسهن بالطين . ويتحزمن[1] بحبل من « الحلفا » . وتهز كل منهن فى يدها جريدة أو نبوتاً أو حربة ، أو سيفاً مسلولا . ويرقصن ببطء ، وبطريقة غير منظمة . فيخطون ويقمن ويهبطن بأجسامهن . ويظل هذا الرقص ساعة أو أكثر . ويقام مرتين أو ثلاث مرات طول اليوم . وبعد اليوم الثالث يزور النساء القبر ويضعن عليه أحزمتهن . ويذبح هناك عادة جمل ، أو ماعز تفدية . وتقام مأدبة بهذه المناسبة .

الآن وقد وصفت عادات المصريين وشمائلهم فى أدوار حياتهم وظروفها المختلفة من الطفولة إلى الوفاة ، أختم حديثى عنهم ، كما يقول كتابهم فى مثل هذه الحالة ، « بالشكر والحمد لله الذى لا يموت » .

---

(١) كما كانت تفعل نساء قدماء المصريين فى الحالة نفسها . « أنظر هيرودوت فى الفصل الخامس والثمانين من الكتاب الثانى » . (المؤلف)

يقول هيرودوت : عندما يموت رجل ذو اعتبار ، يلطخ جميع نساء المنزل رؤوسهن أو وجوههن أيضاً بالطين . ثم يتركن الميت بالمنزل ويخرجن مع القريبات إلى شوارع المدينة ، ويلطمن عاريات الصدر وملابسهن مثبتة بحزام . والرجال كذلك ، من ناحية أخرى ، يلطمون وملابسهم مثبتة بحزام . ويحمل جسد الميت بعد هذه الطقوس ليحنط . (المترجم)

ملحق

١ — الأقباط

إن شهرة تلك الأمة العظيمة التى ينحدر منها الأقباط خاصة تجعل هذه الطائفة موضع الاهتمام الكبير، على الأخص لمن يبحث فى آثار قدماء المصريين العجيبة. غير أن نفورهم الشديد ممن لا ينتمى إلى جنسهم، (مثل ما كان ينفر أسلافهم الأمجاد)، وإحجامهم عن مخالطة الغرباء مخالطة أليفة، كادا يؤيسانى من التعرف على أحوالهم الدينية والأخلاقية والاجتماعية. ومع ذلك فقد وفقت أخيراً إلى معرفة شخص — كنت أشك فى وجوده — قبطى واسع العقل فطنه، وأنى أدين لفضله بمعرفة أكثر الوقائع التى أسردها فى الرسالة الموجزة التالية.

يكوّن الأقباط، فى الوقت الحاضر، أقل من ١/١٤ من المصريين، إذ أن عددهم لا يزيد على ما يقرب من مائة وخمسين ألف، يسكن عشرة آلاف منهم تقريباً فى العاصمة. وفى بعض أنحاء الصعيد قرى يسكنها الأقباط وحدهم، يكثرون خاصة فى الفيوم. وتبين آثار الأديرة والكنائس الكثيرة فى جوانب مصر المختلفة أن الأقباط كانوا أكثر عدداً منذ بعض أجيال. غير الكثير منهم كانوا يعتنقون الإسلام سنوياً، ويصاهرون إلى المسلمين بالزواج، فانخفض عدد الأقباط المسيحيين الخلص إلى هذا القدر القليل.

ولا شك أن الأقباط ينحدرون من قدماء المصريين، ولكنهم ليسوا جنساً صافياً. فقد تزاوج أسلافهم فى عصور المسيحية الأولى باليونانيين والنوبيين والأحباش وغيرهم من الأجانب. وهم يسمون على الأصح قُبط أو قِبط، ولكن الغالب: جُبط أو جِبط، وأُبط أو إبط (فى القاهرة وضواحيها، وبعض أنحاء أخرى من مصر) والمفرد: قبطى (بضم القاف أو كسرها)، جبطى (بضم الجيم أو كسرها)، أبطى (بضم الألف أو كسرها) وهذه الألفاظ جميعاً تشبه الإسم اليونانى القديم لمصر: «أغيبتوس». غير أن المعتقد على العموم أن لفظ «قُبط» يشتق من «كهنس Coptos» (وكانت مدينة عظيمة فى الصعيد)، وتسمى الآن: «ققط» أو، غالباً «جفط»، وقد حل

بها عدد كبير من المسيحيين المصريين أثناء اضطهاد أباطرة الرومان لهم . ولم يفقد الأقباط كلهم لغتهم القديمة إذ أن طقوسهم وكثيراً من كتبهم الدينية تكتب باللغة القديمة . غير أن اللغة القبطية أصبحت لغة ميتة لا يفهمها غير القليل ، واستبدلت بها اللغة العربية .

أما خواصهم الشخصية فنلاحظ أن بينهم وبين قدماء المصريين مشابهة كبيرة فى بعض المواضع ، وأيضاً اختلافاً كبيراً فى الجملة . وحكمنا على الفراعنة من الرسوم والنقوش الموجودة بمقابرهم وبمعابدهم . ومع ذلك، فمن السهل تعليل الاختلاف بينهما بفعل تزاوج أسلاف الأقباط المحدثين بالأجانب المذكورين سابقاً . وأقرب القوم إلى القدماء شبهاً فى الوقت الحاضر هم النوبيون ، ويتلوهم الأحباش والأقباط ، الذين يختلفون مع ذلك جد الاختلاف فيما بين بعضهم وبعض . ويختلف الأقباط اختلافاً قليلا عن أكثرية مواطنيهم المسلمين ، إذ أن المسلمين ينحدرون خاصة من العرب ومن الأقباط الداخلين فى الإسلام ، فأصبحوا هكذا يشاكلون الأقباط فى الهيئة . وقد وجدت أنه من الصعب أحياناً أن أدرك اختلافاً ما ، بين القبطى والمسلم المصرى ، خلاف ما يوسم به القبطى من سمات الكآبة والعناد . وكثيراً ما يُخدع المسلمون أنفسهم عندما يرون قبطياً يلبس العمامة البيضاء . ونلاحظ فى الأقباط لون الوجه نفسه فى مختلف الجهات من الشمال إلى الجنوب كما فى المسلمين ، وقد يختلف اللون من الشاحب إلى النحاسى أو إلى الأسمر . وعين القبطى على العموم واسعة طويلة ، تميل قليلا من الأنف إلى أعلى ، وتكون سوداء دائماً . وأنفه مستقيم ما عدا طرفه يستدير ويتسع ، شفتاه غليظتان ، وشعره أسود مجعد . والقبطى على العموم ربعة إلى القصر ، وكذلك كان قدماء المصريين كما يبدو من المومياوات . وتكحل القبطيات ، من الطبقتين العليا والوسطى على الأخص ، طرف الجفن . وتوشم الطبقة الدنيا منهن الوجه واليدين على طريقة المصريات الأخريات ، ولكنهن يضفن الصليب إلى أشكال الوشم المختلفة . وأكثر الأقباط يختنون أولادهم . وهم بلا استثناء يراعون عادة أخرى كانت سائدة فى أسلافهم الوثنيين ، وقد أشار إليها « سترابون » ، وأشرت إليها فى هامش الصفحة ٥٤ من هذا الكتاب .

وملابس الأقباط كملابس المسلمين ، ما عدا عمامة القبطى الخاصة به فتكون سوداء أو زرقاء ، أو ذات لون يضرب إلى الأشهب أو الأسمر . ويختار الأقباط فيما يتعلق بالملبس والألوان القاتمة ، وكثيراً ما يلبسون جبة قطنية سوداء أو قميصاً مسترسلا فوق ملابسهم الجوخية والحريرية . وهم فى المدن ، يعنون

عادة بتمييز أنفسهم هكذا من المسلمين ، ولكن أكثرهم يلبس فى القرى العمامة البيضاء أو الحمراء . ويميز المسيحيون الآخرون واليهود التابعون للباب العالى بالطريقة نفسها . ولا يميز المسيحيون جميعاً ، فالكثير من الأرمن واليونانيون والمسيحيون السوريون يتعممون بالأبيض . ويسمح للمسيحيين الأوربيين بالمثل وباختيار الزى التركى أيضاً . وسأذكر فيما بعد الأسباب التى بعثت أولا على تمييز الأقباط بالعمامة السوداء والزرقاء فى بعض الهوامش التاريخية الخاصة بهؤلاء القوم . وتنتقب القبطيات فى الخارج ، وفى المنزل أيضاً ، فى حضور رجل من غير الأقارب . وتتنقب السيدات غير المتزوجات ، ونساء الطبقة الدنيا ، فى الشارع بالأبيض ، ويلبس فضليات السيدات المتزوجات النقاب الأسود . غير أن الكثيرات يخترن الأبيض رغبة فى تقليد المسلمات .

ينتمي الأقباط ، ما عدا نسبة قليلة تسير على اعتقاد الرومان أو اليونان ، إلى الطائفة المسماة يعقوبيين Jacobites ، اتباع أوطاخى Eutychians ، اتباع الطبيعة الواحدة Monophysites ، واتباع المشيئة الواحدة Monothelites . وقد أدان المجمع الخلقدونى عقيدة هؤلاء ، فى حكم الامبراطور مارسيان . وقد سموا باليعاقبة أو اليعقوبيين ، ويعرفون بهذه التسمية على العموم ، تبعاً لإسم يعقوب بارادبوس Jacobus Baradaeus ، وهو سورى تولى نشر تعاليم أوطاخى . ويسمي من انضم إلى طائفة اليونان ، تمييزاً لهم من السابقين ، بالملكية أو الملكيين ، لأنهم يوافقون امبراطور الآستانة فى العقيدة . وقد أدى انفصال معظم الأقباط عما كان يعتبر على العموم الكنيسة الصحيحة المذهب إلى خلق عداوة شديدة بينهم وبين اليونانيين ، فذاقوا تحت حكمهم اضطهاداً كبيراً ، كما أنهم لم يعودوا يعقدون زواجاً معهم . ولا شك أن عداوة الأقباط كانت أمر . فاستقبلوا الغزاة العرب بابتهاج ، وانضموا إليهم لطرد اليونانيين . وقد أشبعوا رغبة الانتقام ، ولكنهم أخضعوا إلى نير أثقل . ومع ذلك يحمل القبطى المحدث أيضاً لليونانى ولغيره من المسيحيين من غير طائفته كراهية تفوق كراهيته للمسلمين بكثير . ويقول الأقباط إن القديس مرقس كان أول من بشر بالإنجيل فى مصر . ويعتبرونه البطريرك الأول للأسكندرية . وقد اعتنق النوبيون والأحباش المسيحية عقب المصريين متبعين مثلهم تعاليم اليعقوبية . غير أن النوبيين اعتنقوا الإسلام ، ويفخرون أن ليس فى قومهم مسيحى واحد ، وأنهم لا يسمحون لأحد من المسيحيين أن يعيش بينهم . ولما كان

النوبيون أكثر المسلمين جهلا ، فهم أشدهم تعصباً . وفى الحبشة لا تزال الديانة المسيحية اليعقوبية هى السائدة .

ويتكون نظام الكنيسة القبطيـة من بطريرك ، ومطران الحبشة ، وأساقفة ، وقامصة ، وقسيس ، وشمامسة ، ورهبان .

و « البطرك » هو الرئيس الأعلى للكنيسـة ويشغل كرسى القديس مرقس . وهو يقيم على العموم بالقـاهرة ، ولكنه يلقب « بطرك الأسكنـدرية » . وهو يختار من طبقة الرهبان ، ويظل خاضعاً لقوانينها ، ومن بينها البقاء أعزبا . وهو يلزم بلبس الصوف فوق جسـده مباشرة ، غير أنه يلبس أرفع أنواع الصوف وأنعمها ، كشيلان كشمير ، تخبأ تحت ملابس من فاخر الحرير والجوخ . ويلتزم البطرك بالامتثال لأوامر شديدة بحيث أنه كلما أخذه النوم ، يوقظ بعد كل ربع ساعة(١) . وقد يعين البطرك سلفه ، غير أنه يختار على العموم بالقرعة ، ويختار دائماً من رهبان « دير أنطونيوس » الواقع فى صحراء مصر الشرقيـة بالقرب من الخليج الغربى للبحر الأحمر . وعند انتخاب البطرك ، يلتمس الأساقفة والقسس من رئيس الدير المذكور ، أن يعين ثمانية رهبان أو تسعة يراهم جديرين برئاسة الكنيسة الجليلة . ويكتب أسماء هؤلاء على قصاصات ورق منفصلة تلف على هيئة كرات صغيرة ، وتوضع فى درج . ويسحب أحد القسس إحداها دون أن ينظر إليها . ومن يسحب إسمه يرسم بطركاً . وكان يقوم بعمل القرعة قبلا ولد صغير لاعتباره أكثر توجيهاً من العلياء .

ويدير البطرك متاعاً كثيراً ، يتكون على الأخص من البيوت ، ولا يستخدم فى غير الأعمال الدينية . وقد عمل البطاركة المتأخرون على الأكثار من متاعهم . فعندما يبيع قبطى منزلا بالقـاهرة ، على العموم ، يعرض البطـرك سعراً له ، ولا يجرؤ أحد أن يزايد عليه ، فيضطر مالك المنزل أن يتخلى عنه بأقل من قيمته الحقيقية بكثير .

---

(١) « من أجل الطهارة » . قارن رواية هيرودوتس الخاصة بعادات كهنة مصر القديمة . الكتاب الثانى الفصل السابع والثلاثون . (المؤلف)

قال هيرودوت : « ويحلق كهنتهم البـدن جميعه كل يومين ، فلا يلصق بهم قمل أو حشرة أخرى وهم يتعبدون . ولا يلبسون غير ثوب من الكتـان ونعل من البردى ؛ ويحرم عليهم غير ذلك الثوب أو ذلك النعل ويغتسلون مرتين فى الصبـاح بالمـاء البارد ومرتين فى الليل . ويمكن القول إنهم كانوا يلتزمون بالعديد من الطقوس الدينية ... » (المترجم)

ويلبس البطرك والأساقفة عمامة أوسع من عمامة الأشخاص الآخرين ، وأكثر دوراناً منها . وتشبه عمامتهم مقلة علماء المسلمين كثيراً ، غير أنها كعمائم الأقباط الآخرين من اللون القاتم نفسه (شكل ٩١) .

ويعين البطرك « مطران » الأحباش . وهو يعين مدى الحياة ويقيم بالحبشة .

ويختار « الأسقف » على العموم (أو دائماً ، كما قيل لى) من طبقة الرهبان . ويظل ، مثل البطرك ، خاضعاً لنظمها . ولا تستلزم قوانين الكنيسة أن يكون الأسقف من الرهبان . غير أن العادة جرت قبلا على اختيار العزاب أو الأرامل لوظيفة الأسقف . وعدد الأساقفة إثنا عشر .

شكل ٩١
(عمامة البطريرك القبطى والأساقفة)

ويرقى « القمص » من طبقة القسس العادية . وعدد القمامصة كبير .

ويجب أن يكون « القسيس » شماساً من قبل . كما يجب أن يكون سالماً من عيوب الجسم ، وفى سن الثلاثة والثلاثين على الأقل ، أعزباً ، أو تزوج عذراء واحدة فقط ، قبل أن يرسم قسيساً ، إذ أنه لا يستطيع الزواج بعد ذلك . وإذا توفيت زوجه ، لا يستطيع أن يتزوج ثانياً . كما أنه لا يجوز لأرملة القسيس أن تتزوج مرة ثانية . وقد يكون القسيس من طبقة الرهبان ، وتبعاً لذلك أعزباً . وهو يعيش على الصدقة فقط ، وعلى ما يحصل عليه من عمله الخاص ويخضع القسس والشمامسة معاً لأوامر البطرك أو الأسقف . ويلبس القسيس عمامة تتكون من شريط طويل ضيق . وكان أقباط القاهرة جميعاً يلبسون تلك العمامة ، منذ بضع سنوات (شكل ٩٢) . وقد غيروا هذا الأسلوب رغبة فى تقليد المسلمين .

ويجب أن يكون « الشماس » أعزباً أو متزوجاً مرة واحدة بعذراء . وهو يفقد وظيفته إذا تزوج مرة أخرى أو بأرملة . وقد يكون من طبقة الرهبان ، كما يظهر مما قيل سابقاً .

شكل ٩٢
(عمامة قسيس قبطى)

ويجب أن يكون « الراهب » قد أخضع لتجربة طويلة فى الصبر والتقوى . وأن يكون قد نذر بالعزوبة قبل دخوله السلك الرهبانى . وهو يقوم عادة

بالأعمال الدنيا الشاقة ، قبل دخوله السلك ، لمدة سنة أو سنة ونصف سنة ، في دير منعزل في الصحراء . وهو يستخدم عادة لإحضار الطعام والماء ، وكنس الدير ، الخ ، وخدمة الرهبان ، كما يصرف كل ما يملك (إذا كان يملك شيئاً) في شراء الملابس والضروريات الأخرى للرهبان وللفقراء على العموم . فاذا داوم على عزمه بعد خدمة كافية ، يقبل في السلك . ويقرأ عليه صلاة الموت احتفالا بموته بالنسبة للدنيا . ويقال إنه يدفن بعد وفاته بدون صلاة ، غير أنني أخبرت أن الأمر غير ذلك . والرهبان كثيرون ، وهناك راهبات كثيرات . وهم يقضون حياة تقشف عظيم ، ويضطرون دائماً إلى لبس الصوف فوق الجسد مباشرة . ويميز كل راهب بقطعة من الصوف الأسود تربط أسفل العمامة معلقة خلفاً بطول قدم تقريباً (١) . وملابس الرهبان تتكون ، علاوة على العمامة ، من قميص صوفي فقط على العموم . وهم يتناولون وجبتين من الطعام طول اليوم ظهراً ومساء . ومن يعيش في الأديرة ، وأغلبها في الصحراء ، قلما يتناول طعاماً غير العدس . وهم يأكلون مع ذلك في الأعياد اللحم إذا حصلوا عليه . ويقال إن عدد الأديرة والكنائس يبلغ مائة ستة وأربعين(٢) ، غير أن الأديرة أقل عدداً من الكنائس .

وتوصي الكنيسة القبطية بتعميد الأبناء في سن الأربعين يوماً ، والبنات في سن الثمانين يوماً ، ما داموا أصحاء معافين ، وبتعميدهم قبل ذلك في حالة المرض وخطر الموت الظاهر . إذ أن الاعتقاد السائد في الأقباط أن الطفل ، إذا مات بدون تعميد يكون أعمى في الحياة الأخرى ، ويعتبر والداه آثمين ، ويجب عليهما التكفير بالصلاة أو الصوم . ومع ذلك ، كثيراً ما يهمل القوم من الطبقة الدنيا تعميد أطفالهم سنة كاملة ، إذا كانوا يسكنون على مسافة طويلة من الكنيسة ، وفي أحوال أخرى أيضاً . ويغمس الطفل ثلاثاً في الماء المضاف إليه بعض الزيت المقدس ، يقطر على سبابة القسيس ويزال في الماء ، ويصلي عليه بالقبطية . ويعتقد الأقباط أن الروح القدس تنزل فوق الطفل وقت التعميد . ولا يتناول القسيس نقداً مقابل قيامه بالتعميد ، إلا إذا قدم إليها طوعاً .

---

(١) أهملت ذكر هذه الذؤابة ، غير أنه قيل لي ، إن لم تخدعني الذاكرة ، إنها تسمى « قلاسوه » وتبدو هذه الكلمة محرفة من « قلنسوة » . ويسميها منجان Mengin « كلوسيه » Kaloucyeh في كتابه Hist. de l'Egypte sous Mohammed Aly الجزء الثاني صفحة ٢٩٠ .

(٢) أنظر منجان في الكتاب نفسه ص ٢٨٤ – ٢٨٩ .

قلت إن أكثر الأقباط يختنون أولادهم . وقد قيل لى إن الختان بالقاهرة قليل ، ولكنه يراعى فى جهات أخرى . ويختن الولد على العموم حينما يبلغ سبع سنوات أو ثمانى . وليس لإجراء هذه العملية سن محددة ، فبعض الأقباط يختنون فى سن مبكرة ، حينما يبلغون سنتين ، وبعضهم فى سن العشرين أو أكثر . ولا جرم أن أكثر الأقباط ثقافة ينظرون إلى الختان كعادة يوصى بها ، لا كطقس دينى . ويبدو مع ذلك من انتشار الختان فى الريف انتشاراً مطلقاً ، أن الريفيين يعتبرون أنه شىء أكثر من طقس مدنى فحسب ، ولولا ذلك الاعتبار لتركوا بلا شك ممارسة هذه العادة لمن هم أكثر صقلا . ويقول البعض إنهم يقومون بذلك تقليداً للمسيح الذى ختن . والختان أثر من العادات القديمة .

للأقباط مدارس عديدة ولكنها للصبيان فقط . وقل من القبطيات من يستطيع القراءة ، وأولئك اللائى يقرأن تعلمن بالمنزل . ويعلم الأولاد مزامير داود والأناجيل ورسائل الرسل باللغة العربية ، ثم الأناجيل والرسائل القبطية . وهم لا يتعلمون اللغة القبطية حسب قواعد النحو . وقد قيل إنه لا يوجد قبطى يستطيع أن يكتب القبطية أو يقرأها بدقة أو بسهولة . وإن هناك فئة قليلة جداً تستطيع أن تعمل أكثر من ترديد ما حفظوه غيباً من الكتب المقدسة والطقوس . وقد نسخت اللغة القبطية تدريجاً بعد غزو العرب لمصر . ويبدو أنها بقيت إلى جيلين بعد هذا التاريخ اللغة الوحيدة التى يتفاهم بها الأقباط . غير أن أكثر أهل الوجه البحرى كانوا قد كفوا عن التخاطب بها وفهمها(١) ، قبل القرن العاشر من الميلاد . بينما كان نساء أقباط الصعيد وأطفالهم ، حسب المقريزى ، قلما يتكلمون لغة غير الصعيدية القبطية ، فى زمن المؤرخ (أى فى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً ، أو بدء الخامس عشر) ، وكانوا يعرفون اللغة اليونانية معرفة تامة . وقد بطل استعمال اللغة القبطية بعيد هذا العصر فى الوجه القبلى ، كما نسخت قبل ذلك بمدة طويلة فى الوجه البحرى ، واستبدلت بها اللغة العربية . ولا يزال جميع الأقباط الذين تعلموا فى المدارس يصلون فى الكنيسة ، أو على حدة ، بالقبطية . ولا تزال الكتب المقدسة تقرأ فى الكنائس بهذه اللغة دائماً ، غير أنها تشرح فى الكتب بالعربية . والكثير من الكتب التى يستعملها القسس وغيرهم تكتب لغتها القبطية بحروف عربية .

---

(١) وقد بين ذلك Quatremère فى كتابه : Researches on the Language and Literature of Egypt ، (أبحاث فى اللغة والأدب) .

وصلوات الأقباط الخاصة العادية تستحق الاعتبار. وهم يبدون فى ذلك أنهم يقلدون اليهود ، وأنهم يشبهون المسلمين . وقد أخبرت أن هناك قليلا من الأقباط فى القاهرة لا يمتثلون لتعاليم كنيستهم التى تأمرهم بالصلاة سبع مرات فى اليوم . وتقام الصلاة الأولى فى الفجر ، والثانية فى الساعة الثالثة ، والثالثة فى الساعة السادسة ، والرابعة فى التاسعة ، والخامسة فى الحادية عشرة ، والسادسة فى الثانية عشرة ، أى الغروب ، والسابعة فى منتصف الليل . ويتلو من تعلم القراءة ، ويتمسك بفروضه الدينية ، فى كل من هذه الصلوات ، عدة مزامير من مزامير داود (سبع كتاب المزامير تقريباً) ، وسورة من أحد الأناجيل الأربعة ، باللغة العربية ، ثم يقول باحدى اللغتين العربية أو القبطية : يا ربى ! ارحم ! واحد وأربعين مرة. ويستعمل البعض سبحة مكونة من إحدى وأربعين خرزة ، ويعد الآخرون على أصابعهم . ويضيف بعد ذلك صلاة قصيرة بالقبطية . ويتلو الجميع معاً فى الصلاة السابعة كتاب المزامير كله . وقد جزم لى أن هذه هى العادات الصارمة للطبقات الأكثر محافظة وثقافة أثناء تعبدهم اليومى . ويردد الأمى فى كل من الصلوات السبع اليومية ، الصلاة الربانية سبع مرات ، ثم يقول : يا ربى ! إرحم ! واحد وأربعين مرة . ويقوم بعض الأفراد من خير الطبقات وأكثرها محافظة بغسل اليدين والوجه ، والقدمين أحياناً ، قبل الصلاة ، ويتوجهون دائماً فى الصلاة إلى الشرق . وبالرغم من أن الأقباط يشبهون تقريباً المسلمين واليهود فى أغلب القواعد السابق ذكرها ، فهم يفترقون عنهما فى اعتبار الصلاة ، ما عدا الاجتماعات فى الكنيسة ، تكون أحسن أداء على انفراد منها فى الجهر . وهم كثيراً ما يرددون صلواتهم العادية ، أو على الأقل الصلاة القصيرة ، أثناء سيرهم أو ركوبهم . ويصعب على أن أصدق أن الطبقات المتعلمة تقوم بالصلاة الطويلة على العموم ، ولو أن ذلك أكد لى تأكيداً مطلقاً .

تنقسم الكنائس الكبرى إلى أربعة أقسام أو خمسة . ويشغل « الهيكل » الذى يشمل المذبح ، الجزء المتوسط والرئيسى فى الطرف الأعلى ، الذى يستتر عن بقية الكنيسة بجدار من الخشب المشغول بالحشوات ، يتوسطه باب يؤدى إلى الهيكل ، ويعلق أمامه ستار عليه صليب مطرز . ويخصص القسم السابق مباشرة على القسم الأول للقسس الذين يقرأون الدروس الخ ، وللصبيان الذين يعملون شمامسة صغيرين ويغنون ، ولأعضاء جماعة المصلين الرئيسيين . ويفصل هذا القسم عن السابق عليه مباشرة حاجز من الخشب المشبك ، يعلو

إلى ثمانية أقــدام أو تسعة ، وبه ثلاثة أبواب ، أو باب واحد فى الوسط . ويشغل أدنى الأعضــاء القسم التــالى ، أو القسمين التاليين . ويخصص أسفل الأقسام للنســاء ، ويستر واجهتــه حاجز من الخشب المشبك ليحجبهن تماماً عن الرجال . ويعلق على جدران الكنيسة صور لقديسين مختلفين رديئة الرسم ، كثيرة الزخرفة . ويعلق على الأخص صورة القديس الشفيع ، ولكن التماثيل غير مسموح بها . وتغطى أرضية الكنيسة بالحصر .

ويخلع القبطى نعليه عنــد الدخول إلى الكنيســة ، ويحتفظ بعمامته . وهو يذهب أولا إلى باب الهيكل ،فيسجد أمامه، ويقبل طرف ستارته . ثم يسجد، أو ينحنى ، أو يسلم باليد ، أمام رسم قديس واحد أو أكثر ، ويقبل أحياناً يد قسيس واحد أو أكثر قائم بالخدمة ، فى القسم السابق على الهيكل . ولكل عضو فى الاجتماعات الكنسية تقريباً عصا طولها أربعة أقدام ونصف أو خمسة ، ليتوكأ عليهــا أثناء وقوفه الذى يدوم معظم الوقت . والصــلاة فى الكنيسة (مع القيام بالقربان) تظل ما بين ثلاث ساعات وأربع ، وتبـدأ على العمـوم فى الفجر .

ويلبس القسس الذين يقومون بالصلاة فى الهيكل أثواباً جميـلة ، ويلبس الآخرون ملابسهم العادية فقط . وتكون الصلاة المقامة بالهيكل بالقبطية كلها، إذ لا يسمح باستعمال لغة أخرى فى المعبد . أما القسس بالخارج ، الواقفين تجاه باب الهيكل ، فيقرأون الشروح ويرتلونها بالعربيــة والقبطية(١) . ولا يسمح للقسيس بالجلوس أثنــاء إقامة الصـلاة بالكنيسة ، ولما كان هـذا يدوم وقتاً طويلا ، فهو يتوقف عن القراءة ، ليستطيع الجلوس عـدة مرات ، لبضع دقائق . وفى هذه الأوقات تضرب صنوج مختلفة الحجم والنغم ما دام جالساً . وكثيراً أيضاً ما يخرج قسيس من الهيكل ، ويحرك مبخرة يحرق بها اللبان وسط المصلين ، ويبارك كلا منهم واضعاً يده على رأســه ، ثم ينتقـل إلى حجرة النساء . وكثيراً ما يقام العشاء السرى فى الكنيسة القبطية . ويصنع الخبز على هيئة أقراص مستديرة صغيرة ، مختوم أعلاها ، ويبلل بالنبيذ . ويناول بهذه الحالة إلى المصلين ، ويشاركهم القسس الذين يحصلون على حصـة أكبر من حصـة الآخرين ، والذين يميزون وحدهم بشرب النبيذ . ويتقدم كل المصلين إلى باب الهيكل ليتناول نصيبه .

---

(١) وهم يرتلون تقريباً على طريقة تلاوة المسلمين القرآن .

وكثيراً مايتهم القسس وغيرهم بالتجرد من الوقار أثناء الصلاة العامة . وقد سمعت قسيساً ، يقف أمام المعبد فى الكنيسة البطريركية بالقاهرة يشتم شماساً صغيراً حديث السن . وشاهد صديق لى ، فى المكان نفسه ،فوضى تامة بينما كان قسيس من الريف يشترك فى القيام بالخدمة الدينية ، فلعنه القسس النظاميون، القائمون بالصلاة ، جهاراً وطردوه قسراً ، وبعد ذلك أخذ كثير من المتعبدين، وهم يندفعون نحو باب الهيكل، يسبون، ويضربون بعضهم بعضاً بعصيهم. وقد أدهشنى تجرد الخدمة الدينية فى ذاتها من الوقار ، وإن كانت على الاحتمال تشبه خدمة الكنيسة المسيحية فى عهدها الأول من وجوه كثيرة .

ويلتزم أعضاء الكنيسة القبطية جميعاً بالاعتراف قبل تناول العشاء السرى . ويعترف كل شخص على العموم إلى القسيس نفسه. ويفرض عليه عادة للتكفير عدداً ما من رسم الصليب والسجود ، علاوة على ترديد الصلاة الإلهية ، أو « يا ربى إرحم » ، عند كل سجدة .

ويراعى الأقباط صوماً طويلا شاقاً . وهم يصومون ثلاثة أيام قبل « الصوم الكبير » بأسبوع ، ذكرى لصوم نينوى ، بعد موعظة يونس . ويراعى بعض الأقباط هذا الصوم بالحرمان التام مدة ثلاثة أيام وثلاثة ليال ، ويراعيه آخرون كما يراعون أيام الصوم الأخرى ، التى أتحدث عنها فيما يلى :

كان أهم صوم للأقباط ، ويسمى « الصوم الكبير » المشار إليه سابقاً، محدداً فى الأصل بأربعين يوماً ، غير أن البطاركة المختلفين جعلوه بالتدريج خمسة وخمسين يوماً . ويمتنع الأقباط أثناء هذه الفترة ، ما عدا يومين منها أذكرهما فيما بعد عن أى طعام حيوانى مثل البيض واللحوم واللبن والزبد والجبن ، ويأكلون الخبز والخضروات فقط (الفول خاصة) بالزيت غير الحار ، أو زيت السمسم ، و« الدقة » . وتفتح الكنائس لإقامة القداس مدة الصوم. ولا يتناول الأقباط شيئاً بعد العشاء إلى ما بعد الصلوات الكنسية فى اليوم التالى ظهراً تقريباً ولكنهم لا يفعلون ذلك فى أيام الصوم الأخرى .

وهم يراعون مع ذلك بدقة مماثلة تقريباً ، ثلاث فترات صوم أخرى :

أولا — « صوم الميلاد » ومدته ثمانية وعشرون يوماً تسبق عيد الميلاد مباشرة ، أى شهر كيهك كله ما عدا اليومين الأخيرين . ثانياً — « صوم الرسل »

ويقع بين عيد الصعود والخامس من أبيب ، وهم يراعونه ذكرى لصوم الرسل بعد أن فقدوا سيدهم . ثالثاً — « صوم العذراء » ومدته خمسة عشر يوماً سابقة على عيد رفع العذراء إلى السماء .

ويصوم الأقباط أيضاً كل أربعاء وجمعة فى أى فترة أخرى من السنة ما عدا الخمسين يوماً اللاحقة للصوم الكبير مباشرة ، أى من انتهاء الصوم الكبير إلى آخر الخماسين . وفى أيام الأربعاء والجمعة هذه يتناولون السمك والخضر والزيت فقط .

ويتبع كل صوم عيد . وللأقباط سبعة أعياد كبيرة : — أولا ، « عيد الميلاد » ، فى ٢٩ كيهك (٦ أو ٧ يناير) . — ثانياً ، « عيد الغطاس » ، فى ١١ طوبة (١٨ أو ١٩ يناير) ، ذكرى تعميد المسيح . — ثالثاً ، « عيد البشارة » ، فى ٢٩ برمهات (٦ أبريل) . — رابعاً ، « عيد الشعانين » أحد (السعف) قبل عيد الفصح . — خامساً ، « عيد القيامة ، أو الفصح » أو « العيد الكبير » . — سادساً ، « عيد الصعود » — سابعاً ، « عيد العنصرة » . وتقام الصلوات فى الكنائس فى أول هذه الأعياد وثانيها وخامسها ليلا ، أى فى الليلة السابقة على يوم العيد . ويلبس الأقباط الملابس الجديدة ، فى هذه الأعياد جميعاً ، ويولمون الولائم ، ويتصدقون .

جرت العادة أن يقوم أغلب الأقباط بطقس غريب ، فى « ليلة الغطاس » . وقد علمت أنه قلما يمارس فى العاصمة الآن . فيغطس الرجال ، شيوخاً وشباناً ، والصبيان فى الماء احتفالا بذكرى تعميد المسيح . ويقول المسلمون إنه كلما فعل أحدهم هذا صاح به آخر أن أغطس كما غطس أبوك وجدك ، وأنزع الإسلام من قلبك . ولبعض الكنائس مغطس كبير ، يستعمل فى هذه المناسبة ، بعد أن يبارك الماء أحد القسس . غير أن العادة الشائعة عند الأقباط هى القيام بهذا الطقس (ويعتبره أكثرهم للتسلية أكثر من اعتباره شعيرة دينية) فى النهر ، فيصبون فيه قبل الغطس بعض الماء المقدس من الكنيسة . ويكون ذلك عادة مناسبة لاحتفال كبير عند أقباط العاصمة . فيزدحم النيل بالمراكب ، وتنصب الخيم ، وتقام المشاعل على ضفتى النهر . وتقام الصلوات فى الكنائس عشية هذا العيد . ويبارك أحد القسس الماء فى جرن المعمودية ، ثم يبلل طرف منديل بالماء المقدس ، ويغسل (أو بالأحرى يمسح أو يلمس) قدمى كل أعضاء

الجماعة الكنسية . ويقام هذا الطقس الأخير أيضاً فى «خميس العهد» ، وفى «عيد الرسل» ، ٥ أبيب (أو ١١ يوليه) .

وفى عيدى «البشارة» و «الشعانين» يأكل الأقباط السمك . ويقيم القسس صلاة الميت على جماعاتهم فى الكنائس فى العيد الأخير . فاذا مات أى منهم فيما بين ذلك اليوم ونهاية الخماسين (وهى أشد فترة فى موسم الطاعون) يدفن بدون صلاة . ويبدو أن هذه العادة أصلها استحالة الصلاة عند القبر على كل ضحية من ضحايا الطاعون ، ولا بد أن لها تأثير عميق فى نفوس قوم يتوقعون هذه الكارثة المخيفة .

ومن الأعياد الصغيرة «خميس العهد» السابق ذكره ، «وسبت النور» ، وقد قيل إن هناك نور خارق للعادة يظهر فى القبر المقدس بأورشليم ، و«عيد الرسل»، السابق ذكره ، و «عيد الصليب» ، فى ١٧ توت (٢٦ أو ٢٧ سبتمبر).

يعتبر الأقباط الحج إلى بيت المقدس فرضاً على من استطاع إليه سبيلا، غير أن القليل من الطبقات الفقيرة يؤدى هذا الفرض . ويكون الحجاج قافلة كثيرة العدد . وهم يمضون الجمعة الحزينة وعيد القيامة فى بيت المقدس ، وفى اليوم الثالث بعد الجمعة الحزينة يتقدمون إلى نهر الأردن ، حيث يستحمون .

ويمتنع جميع الأقباط تقريباً عن أكل الخنزير ، لا لأنهم يعتبرونه محرماً شرعاً ، وهم لا يقرون بذلك ، ولكن ، حسب قولهم ، بسبب قذارة الحيوان . على أننى أظن أن هذا الامتناع يعزى بالأحرى إلى ما كان عليه أسلافهم الوثنيون . وكثيراً ما يأكل الأقباط لحم الخنزير البرى . وهم يعتبرون لحم الجمل محرماً شرعاً ، ويحتمل أن يكون ذلك لا لسبب غير أن المسلمين يأكلونه . وهم يمتنعون عن أكل الحيوان الذى يخنق وأكل الدم امتثالا لوصية الرسل إلى الوثنيين المهتدين(١) ويعتبرونها غير منسوخة .

---

(١) أعمال الرسل ١٥ : ٢٠ و ٢٩ . (بل يرسل إليهم أن يمتنعوا من نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم) ، (أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنى ..

ويدفع البالغون من الأقباط الذكور «جزية» ، علاوة على «الفردة» التى يدفعونها عامة مع المسلمين . وهناك ثلاث درجات للجزية : فأغنياء القاهرة ، والمدن الكبيرة الأخرى ، يدفعون ستة وثلاثين قرشاً كل ، ويدفع كل من أفراد الطبقة المتوسطة ثمانية عشر قرشاً ، والفقراء ، تسعة . غير أن هذه الضريبة تفرض ، فى الأرياف ، على العائلة بدلا من الأفراد . والفردة واحدة بالنسبة للأقباط والمسلملين: $\frac{1}{12}$ من كسب الرجل أو راتبه السنوى ، عندما يستطاع إثبات ذلك .

ولم يعد الأقباط الآن تحتقرهم الحكومة وتحط من قدرهم كما كانوا منذ بضع سنوات . فقد ارتفع بعضهم إلى درجة البكوات أيضاً . ولم يكن يسمح ، قبل حكم محمد على ، للأقباط وللمسيحيين الشرقيين الآخرين ، ولا لليهود ، بركوب الجياد فى مصر . غير أن هذا الحظر زال فى السنوات الأخيرة — وقد تظلم مسلمو دمشق ، وهم يشتهرون بتعصبهم الشديد ، إلى الفاتح ابراهيم باشا ، من الإذن للمسيحيين فى مدينتهم بركوب الخيل ، ومن أن المسلمين لم يعدوا يميزون أنفسهم من الكفار . فأجاب الباشا أن للمسلمين أن يعظموا على المسيحيين إذا شاءوا ، فيركبوا الهجين فى الشوارع ، وأن المسيحيين لن يتبعوا مثلهم — ويتمتع الأقباط بحصانة يحسدهم أكثر المسلمين عليها ، فهم غير معرضين للتجنيد(٢) .

وعادات الأقباط المنزلية شرقية تماماً ، وهى تكاد تماثل عادات مواطنيهم المسلمين . وهم يصرفون وقت فراغهم خاصة على الطريقة نفسها فى التدخين واحتساء القهوة . وطعامهم مماثل أيضاً ، وطريقة تناولهم الطعام واحدة . غير أنهم يعكفون على احتساء الخمر فى كل وقت ، وكثيراً ما يفرطون .

ولا تجيز الكنيسة للأقباط الزواج من طائفة أخرى ، وقل منهم من يفعل ذلك . وعندما يريد قبطى أن يعقد مثل هذا الزواج ، الذى يجعله منبوذاً فى نظر قومه الأشد صرامة ، يلجأ إلى قسيس من طائفة المرأة التى يعزم الزواج بها . وإذا رفض طلبه ، كما هو الحال عادة ما لم يرض باتباع عقيدة زوجه ، يعقد

---

(٢) ويقال إن هذه الحصانة رفعت فيما بعد ويعتقد أن أصلها نفور الأمراء المسلمين من منح المسيحى شرف مقاتلة عدواً مسلماً .

زواجه أمام القاضى عقداً مدنياً. ولما كان مثل هذا العقد لا تعترف به الكنيسة، فانه يحل حسب الرغبة.

وعندما يرغب القبطى فى الزواج حسب العادة السائدة، يتبع للحصول على زوجة الطريق نفسه الذى يتبعه المسلمون، فيستخدم إحدى قريباته أو امرأة أخرى لتبحث له عن رفيقة أخرى مناسبة. وقلما يستطيع أن يرى وجه المرأة التى يعتزم الزواج بها ما لم تكن من الطبقة الدنيا، وليس دائماً فى الحالة الأخيرة أيضاً. وإذا كانت المرأة المعتزم الزواج بها دون البلوغ، يكون والدها أو والدتها أو أدنى الأقارب إليها «وكيلا» عنها للقيام بالترتيب اللازم. أما إذا كانت بالغة وكانت يتيمة الأب والأم فهى تعين وكيلها. وللعريس أيضاً وكيل. ويقوم الطرفان بعمل العقد، حيث تنظم مختلف الأمور العائلية الخاصة، فى حضور القسيس. ويدفع ثلثا المهر فى هذا الوقت، ويحتفظ بالثلث الباقى. فاذا مات الزوج تطالب الزوجة به من أمواله. وإذا ماتت هى قبلا يطالب أقاربها به. وبعد إنجاز العقد يتلو الحاضرون الصلاة الربانية ثلاث مرات ويبدأها القسيس أولا.

وتشغل حفلات الزواج فى الطبقتين العليا والوسطى وعندما تكون الزوجة عذراء ثمانية أيام عادة. وهكذا يكون مدى ما يسمى «فرح تمام».

وتفضل الليلة السابقة على يوم الأحد (والأقباط مثل المسلمين يسمونها ليلة الأحد) للقيام بقداس الزواج، ويعقد أغلب الأقباط الزواج فى هذه الليلة. وفى هذه الحالة تبدأ حفلات الزواج فى يوم الثلاثاء السابق عندما يضيف العريس وعائلة العروس أصدقاء الطرفين. وتراعى عادة غريبة أثناء حفلات الزواج وفى الأيام اللاحقة تذكرنا ببعضها عند الرومان. فيصنع الطاهى كرتين من السكر مجوفتين مثقوبتى القاع، ثم يتناول حمامتين حيتين يربط إلى جناحيهما أجراس مستديرة صغيرة، ثم يدير هذين الطيرين المسكينين فى الجو حتى يصابا بالدوار، ويضعهما بعد ذلك داخل الكرتين السابق ذكرهما. ويقدمان إلى الضيوف كل كرة فوق طبق، فيكسر بعضهم الكرتين عندما يتبين أن الحمامتين استردتا الصواب. وتطير الحمامتان فى الغرفة فترننان الأجراس، ويعمد البعض عادة إلى إنهاض الحمامتين إذا لم تطرا فى الحال، إذ أن المشاهدين قد يتطيرون

لعدم نهوضهما(١) . ويسلى الضيوف على العموم فى ليالى هذه الحفلات بالموسيقى . وينقضى يوم الأربعاء فى ترتيب الحفل .

وفى عصر الخميس ، تقاد العروس إلى الحمام ، فى صحبة كثير من قريباتها وصديقاتها ، بالموسيقى عادة ، ولكنها لا تسير تحت مظلة . ويكون يوم الجمعة يوم تنظيم مرة أخرى ، وتضع العروس الحناء إلى يديها وقدميها الخ .

وفى الصباح المبكر من يوم السبت ترسل عائلة العروس إلى منزل العريس مجموعتين من الملابس الخ ، إحداهما للعريس ، والأخرى للعروس ، ويتكون كل منها من أشياء مماثلة (قميص من الحرير والقطن ، سروال ، شريط السروال المزركش ، منديلان مشغولان بالقصب وكيس للتبغ مشغول بالطريقة نفسها) . وبعد ذلك تقصد إحدى سيدات عائلة العروس المسنات منزل العريس لتشرف على نظامه . ويصحب العريس اشبينه فى حفل من أصدقائه إلى الحمام .

وفى المساء التالى . بعد غروب الشمس بساعة ونصف أو ساعتين ، تتقدم العروس فى صحبة عدد من قريباتها وصديقاتها إلى منزل العريس ، يتقدمها الموسيقيون ويتبعونها ، ويلازمها حاملو المشاعل والشموع . وتشبه الزفة هنا زفة المسلمة كثيراً ، غير أن العروس القبطية لا تزف تحت مظلة . وهى تغطى بشال به عدة حلى تعلق إلى الجزء الذى يخفى وجهها ورأسها ، وعدة نقود وحلى أخرى إلى الجزء الذى يغطى صدرها . ويتحرك الموكب ببطء شديد ، ويظل على العموم ساعتين . وفى هذه الليلة يقدم إلى الضيوف فى منزل العريس جملا أو خروفاً ، يذبح عند الباب ، وتتخطى العروس فوق دمه . وقد قيل لى إن هذا الطقس يراعى فى القاهرة والمدن الكبيرة فقط .

ويستريح فريق العروس بمنزل العريس ساعتين تقريباً ، ويتناولن المرطبات ، ومن ثمّ يتقدمن والعروس ، بالطريقة نفسها ، إلى الكنيسة . ويذهب العريس

---

(١) ويسمى الكرة والطير : « القبــة والطير » . ويقال إن مسلمى مصر تعودوا مراعاة هذه العادة الموصوفة هنا ، فى بعض المناسبات ، عندمبايعة سلطان مثلا . غير أن هذا يبدو خطأ ، مرجعه عدم فهم عبارة « القبة والطير » التى أطلقها المؤرخون على مظلة تعلوها صورة طير ، وكانت تحمل فوق رأس السلطان فى بعض المواكب الفخمة .

إلى هناك فى صحبة أصـدقائه ، جماعة على حدة ، وبدون موسيقى . ويقام فى الكنيسة ، حيث يكون كل من الرجال والنساء على انفراد ، صلوات طويلة ، ويناول العشاء السرى. ويستلم القسيس خاتمى العروسين ويباركهما ثم يعيدهما ، ويضع تاجاً ذهبياً فوق رأس كل منهما ، و« وبرنسا » على كتفى العريس . ويسمى هـذا الطقس « التكليل » . وتمتلك الكنيسة التاجين ، فيرفعان قبل أن يغادر الجماعة الكنيسة . غير أن العريس كثيراً ما يذهب إلى المنزل بالبرنس ، فيرفعه أحد القسس هناك . ويقوم البطرك عموماً بالخدمة الكنسية عند زواج الأغنياء بالقاهرة . وفى أغلب الأحوال لا تنجز طقوس الكنيسة إلى ما يقرب من الفجر ، فيعود الجماعة حينئذ إلى منزل العريس . واحتراماً للسر المقدس الذى تناولاه معاً ، يتحفظ كل من العروسين نحو الآخر تحفظاً دينياً إلى الليلة التالية (التى تسبق يوم الاثنين) ، أو على العموم إلى ما بعد نهاية هذه الليلة(١) .

ويؤدب والد العروس مأدبة عشاء فى منزل العريس يوم الاثنين ، ويكون الطعام الرئيسى عادة أرزاً ولبناً ودجاجاً مسلوقاً . وفى المساء ، بعد هذا العشاء ، يخرج العريس و« إشبينه » ليدعوا أصدقاءه إلى حفل كبير يقام فى المساء التالى ، ويختم حفلات الزواج .

هذه هى الطقوس التى تراعى عادة عند زواج العذراء . وقد يقنع البطرك ، أو الأسقف ، أو القسيس ، الذى يقوم بعقد الزواج ، الفريقين بالعدول عن إنفاق نقودهم فى « الزفات » والحفلات المتوالية ، وينصحهم أن يخصصوا بالأولى هذه المبالغ التى يقصدون إنفاقها بطريقة باطلة لإعانة خدمة الدين والفقراء المعوزين ، فيعمل الزواج تبعاً لذلك بطريقة ساذجة وفى عزلة . وتتزوج الأرملة دائماً بدون تظاهر ، أو حفل ، أو « زفة » . وقد تكرم العروس العذراء من الطبقة الفقيرة بزفة أحياناً ، ولكنها تقاد على العموم إلى الحمام فى فريق من القريبات والصديقات فقط ، فيبدى أولئك سرورهن « بالزغاريط » التى تقوم مقام الموسيقى . وبالطريقة نفسها أيضاً تتقدم العروس إلى منزل العريس ، حيث يعقد أحد القسس الزواج ، إذ أن نفقات الإنارة

---

(١) ويراعى الأقباط العادة التى ذكرها بركهاردت فى كتابه (الأمثال العربية) ص ١١٧ ، بأنها تسود طبقات المسلمين الدنيا بالقاهرة .

وخلافها من إعداد الكنيسة للزواج تقع على عاتق العريس. ويتزوج كثير من أقباط القاهرة، لعدم ثرائهم، بطريقة ساذجة أشرت إليها سابقاً. ويلتزم القبطى استئذان البطرك ليتزوج أمام أحد قسس الأكليروس التابع له. وقلما يرخص بذلك بأقل من مائة قرش، وقد يطلب أحياناً، من مثل هؤلاء، مائة ريال (قرشان وربع كل) فيعمد الطرفان إلى الزواج باذن من «القاضى»، ولا يكلفهم ذلك عادة أكثر من قرشين.

وعندما تراعى المرأة الحديثة الزواج قواعد الآداب، تمتنع عن الخروج من المنزل ولا تزور عائلتها أيضاً، إلى أن تلد طفلها الأول، أو إلى أن ينتهى عام إذا لم تبد عليها علامات الأمومة. ويحضر الأب أو الأم لزيارتها بعد انتهاء فترة الحبس هذه.

ولا يحدث الطلاق إلا لسبب الزنا من جانب الزوجة. وقد يفترق الزوجان إذا ارتكبت الزوجة سرقة أو أى جرم شائن آخر. غير أنه فى هذه الحالة لا يستطيع أى منهما أن يعقد زواجاً آخر، وإن استطاعا جمع شملهما مرة أخرى.

ومن أكثر الخاصيات اعتباراً فى خلق الأقباط تعصبهم الشديد. وهم يكرهون المسيحيين الآخرين جميعاً كراهية شديدة تفوق أيضاً كراهية المسلمين للكفار فى الإسلام. ويعتبرهم المسلمون مع ذلك أكثر المسيحيين ميلا إلى الإسلام، ولم يكون هذا الرأى بدون سبب، إذ أن جموعاً كثيرة منهم، اعتنقت، من آن لآخر، وليس نتيجة للاضطهاد دائماً، هذا الدين. والقبطى على العموم، عبوس بخيل إلى أقصى حد، متصنع إلى درجة ممقوتة. وقد قدم إلىّ القبطى المحترم، الذى أشرت إننى أدين له بالمعلومات الخاصة بعادات الأقباط، بياناً غير مناسب عن خلقهم. وقد اعترف بأنهم على العموم جهلاء، خادعون، خائنون، جادون فى السعى وراء المنفعة الدنيوية، واللذات الجنسية، وصرح أن البطرك مستبد، يغرى على تأدية شهادة الزور، وأكد لى أن القسس والرهبان فى القاهرة يرون كل ليلة يتسولون ويستدينون نقوداً، لا يردونها أبداً، من المنازل الواقعة فى دائرة الأبرشية ومن معارفهم، ويحصلون على الخمر، كلما أمكن، أينما يطلبونه.

ويستخدم كثير من الأقباط فى الكتابة والمحاسبة. وفى كل قرية متوسطة

الحجم « معلم (١) » يحفظ سجل الضرائب . وتختلف كتابة الأقباط فى الأسلوب كثيراً عن كتابة المسلمين ، والمسيحيين الآخرين المقيمين بمصر كذلك . وأغلب أقباط القاهرة محاسبون أو أصحاب حرف . ويستخدم الأولون على الأخص فى وظائف الحكومة . والآخرون تجار ، وصياغ ، وجوهرية ، ومعماريون ، وبناءون ، ونجارون . ويعتبر هؤلاء جميعاً أكثر مهارة من المسلمين على العموم . ويشتغل أقباط الأرياف ، مثل الريفيين المسلمين ، بأعمال الفلاحة على الأخص .

وتشبه جنائز الأقباط ، من وجوه عديدة ، جنائز المسلمين : فالجسد يحمل فى نعش ، يتبعه النساء وهن يولولن على طريقة المسلمات فى مثل هذه المناسبة ، غير أنه لا يتقدمه المغنون المستأجرون . ويستخدم النائحات المستأجرات ليندبن فى منزل المتوفى ثلاثة أيام بعد وفاته (وإن كانت تلك العادة يستهجنها رجال الدين ، وكثير غيرهم ، إذ أنها من العادات الوثنية القديمة فقط) ، ويجدد الندب هناك فى اليومين السابع والرابع عشر من الوفاة ، وأحياناً عدة أسابيع بعد ذلك . ويزور الأقباط ، رجالا ونساء ، مقابر الأهل زيارة منتظمة ثلاث مرات فى العام : فى عيد الميلاد ، وعيد الغطاس ، وعيد القيامة . وهم يذهبون إلى المقابر عشية كل من هذه الأعياد الثلاثة ، ويبيتون هناك ، إذ هم يملكون فى المقابر منازل تعد لاستقبالهم فى هذه المناسبات . وتشغل النساء الغرف العليا ، والرجال الغرف السفلى . وفى الصباح التالى ، يذبح جاموس أو خروف ، إذا أستطيع ذلك ، ويوزع اللحم والخبز على الفقراء المجتمعين هناك ، أو يوزع الخبز فقط . ولا يعتبر هذا الطقس ، الذى يشبه « الكفارة » التى يقوم بها المسلمون عند دفن ميتهم ، أنه تكفير عن خطايا الميت ، ولكن مصدره على الأرجح قربان تكفير قديم ، وهو يعتبر صدقة فقط . وتعود النادبات حالما ينتهى ذلك . ويقال إن زيارة المقابر للتأمل الدينى فقط ، وهم بعملهم هذا يخلدون عادة قديمة ، يصعب عليهم هجرها ، وإن عجزوا عن تبرير مراعاتها بمثل هذه الطقوس .

---

(١) ويعنى « مدرس » أو « أستاذ » . وهو لقب يطلق على جميع الأقباط ما عدا الطبقة الفقيرة ، أو الفلاحين . ويسمى مسجل ضرائب القرية « معلم القرية » فقط .

واختم حديثى عن الأقباط بنبذ من تاريخهم تحت الحكم الإسلامى، مستمدة من كتاب المقريزى الشهير عن مصر وعاصمتها(١) .

بعد غزو العرب لمصر بسبعين عاماً تقريباً ، بدأ الأقباط يقاسون السلب والاضطهاد بالرغم من الرعاية والمزايا التى منحت لهم أول الأمر ، إلى درجة أن كثيراً منهم لجأوا إلى السلاح محاولين الدفاع عن حقوقهم ، غير أنهم هزموا بعد مذبحة كبيرة . وفرض على كل راهب ، لأول مرة ، دينار(٢) جزية سنوية . وكان جامع الضريبة يسم يد كل راهب يقابله بختم من الحديد ، وبعد ذلك يقطع يد كل شخص من هذه الطبقة يكتشفه غير موسوم ، ويأخذ عشرة دنانير من كل مسيحى آخر ليس معه إيصال من الحكومة يثبت دفعه الجزية. وقد وجد كثير من الرهبان فيما بعد بدون وسم ، فضرب عنق البعض ، ، وضرب الآخرون حتى الموت ، وهدمت كنائسهم وأتلف صلبانهم وصورهم . وقد حدث ذلك عام ١٠٤ ﻫ (٧٢٢ — ٧٣٣ م) فى آخر حكم الخليفة يزيد بن عبد الملك . وبعد ذلك بسنوات قليلة ، فى عهد خليفة هذا الأمير (هشام) عمل حنظلة بن صفوان ، حاكم مصر ، على وسم يد كل قبطى بختم حديدى يحمل صورة أسد ، وعلى زيادة بؤسهم زيادة شديدة . ولذلك ثار كثير من سكان الريف مرة أخرى ، ولجأوا إلى السلاح ، ولكن بدون جدوى ، وتبع ذلك اضطهاد فظيع .

وكان اليعاقبة (أو جميع الأقباط تقريباً) ، منذ الغزو إلى حكم هشام ، يملكون كنائس مصر كلها ، وكانوا يرسلون أساقفتهم إلى النوبيين ، الذين تبعاً لذلك تركوا العقيدة الملكية ، وانتموا إلى اليعاقبة ، ولكن ، فى عهد هذا الخليفة ، أعاد الملكيون ، بواسطة الهدايا ، الكنائس التى كانوا يملكونها من قبل . ومع ذلك لم تلبث تلك الكنائس أن رجعت إلى ملك اليعاقبة . فكانت بعد ذلك تارة لطائفة وتارة أخرى لطائفة أخرى ، إذ كانت تشترى بالهدايا ، أو بالخدمات تؤدى إلى الحكومة .

---

(١) إذا شاء القارىء الاستزادة فى هذا الموضوع ، من عصور المماليك ، يمكنه الرجوع إلى كاترمير Quatremère فى : Memoires Géogr. et Hist. sur l'Egypte الجزء الثانى ص ٢٢٠ — ٢٦٦ . ومنذ أن عملت هذا الموجز قام وستنفلد Wustenfeld بترجمة الجزء الخاص بتاريخ الأقباط فى كتاب المقريزى ونشره فى ألمانيا .

(٢) ما يوازى فى هذا الوقت ثلاثة عشر شلناً ، أو ، على حد قول البعض ، ما يزيد قليلا على نصف جنيه .

قد يمل القارىء إسهابى الكلام فى ثورات الأقباط تحت نير الأمراء المسلمين، ولكن من الممكن أن أفصل بعض التفصيل فى تاريخ ما قاسوه من جور فى أوائل الحكم العربى . إن الأقباط شعب مدعى لا ينثنى ميال إلى المكيدة، ولذلك يشق على الحكام ولاية أمره . وكثيرا ما جلبوا على أنفسهم الظلم الشديد بحماقتهم ، ولو أنهم كانوا ضحية لاضطهاد لا يستحقونه فى عهد الطغيان والتعصب(١) .

وفى عام ٢٣٥ هـ (٨٤٩ – ٨٥٠ م) أمر المتوكل أن تتخذ ملابس الأقباط مميزات مذلة . فألزم الرجال بلبس عباءة ذات قلنسوة « عسلية اللون » وأنواع خاصة أخرى من الملابس، كما ألزم النساء بارتداء ثوب من اللون نفسه . وكان الأقباط يجبرون على وضع تماثيل خشبية تمثل الشيطان عند أبواب منازلهم أو عليها.

وقد قاسى الأقباط أشد الاضطهادات التى قاسوها أبداً ، والتى عزيت إلى كبريائهم وتظاهرهم بالثروة وسلوكهم المهين نحو المسلمين فى عهد ذلك الزنديق الشقى الخليفة الحاكم ، الذى ولى العرش عام ٣٨٦هـ (٩٩٦ – ٩٩٧ م) ، وقتل عام ٤١١هـ. وكان أقل أذى أوقعه بهم إجبارهم على حمل صليب خشبى يزن خمسة أرطال ويعلق فى العنق ، وعلى ارتداء الملابس والعمائم السوداء . ويبدو أن هذا كان أصل العمامة السوداء التى يلبسها كثير من المسيحيين فى الوقت الحاضر . ولما كان ملبس خلفاء مصر وأعلامهم تميز باللون الأبيض فقد كان الأسود (الذى كان اللون المميز لأعدائهم العباسيين) فى نظرهم أكثر الألوان كراهية وشينا التى يمكن إختيارها لملبس الأقباط المزدرين . ولم أجد لعمامة مسيحى مصر السوداء أى ذكر سابق على هذا . وكان اليهود أيضاً، فى الوقت نفسه، يؤمرون بحمل قطعة خشبية مستديرة تزن خمسة أرطال وتعلق فى العنق مثل صليب الأقباط. وقد تركت جميع الكنائس للهدم والسلب ، وكذلك جميع ممتلكاتها ، واستبدلت المساجد بكثير منها. وأخيراً صدر حكم بنفى جميع مسيحى مصر واليهود إلى اليونان. غير أن تعلقهم بوطنهم كان أقوى من شعورهم بالشقاء ، كما أن كراهيتهم للطوائف الأخرى ، تلك الكراهية التى يثيرها طبعهم السخيف السائد فى كثير من الطوائف ، كان أشد أثراً ، فاحتشد كثير من الأقباط عند قصر الخليفة متوسلين لينقض الحكم،فأجيبو إلى ذلك . وقد أسلم كثير من الأقباط أثناء هذا الاضطهاد وغيره .

(١) يجب ملاحظة أن ما أشير إليه هو استثناء لما يظهر المسلمون من تسامح عام ، وأن الأقباط لم يدخلوا فى الإسلام مكرهين إلا القليل منهم . وقد أسلم الكثير منهم مدفوعين بحبهم لمسلمات .

وحدث لأول مرة، حسب علمى ، فى شهر رجب عام ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) ما جعل الأقباط يميزون بالعمامة الزرقاء كما هم الآن . حدث أن مر سفير مغربى، فى طريقه إلى القلعة ، برجل حسن الزى يلبس العمامة البيضاء ويمتطى جواد ، ويسير فى ركابه توابع عديدون يكرمونه ويسألون رعايته ويقبلون قدميه أيضاً، بينما هو يشيح عنهم بوجهه ويردهم ويأمر خدمه بطردهم . فلما علم أن هذا الرجل مسيحى أخذه الغضب وكاد يصفعه بشدة ، ولكنه أمسك عن ذلك وصعد إلى الديوان فى القلعة وروى ما رآه إلى بعض الأمراء الحاضرين ، دامع العين شفقة على المسلمين . فاستدعى رؤساء الأقباط واليهود إلى الديوان على أثر شكواه ، وصدر الأمر إلى المسيحيين بلبس العمامة الزرقاء والأحزمة ، وإلى اليهود بلبس العمامة الصفراء . ومنع كلاهما أيضاً من ركوب الخيل أو البغال . وقد فضل كثير من المسيحيين إعتناق الاسلام على لبس العمامة الزرقاء .

وفى عهد محمد بن قلاوون ، فى التاسع من ربيع الآخر ، من عام ٧٢١ هـ . (١٣٢١م) ، دبر بعض المسلمين المتعصبين مؤامرة لهدم أهم كنائس مصر ، وعددها ستون كنيسة ، يقع إحدى وعشرون منها بالقاهرة وضواحيها . وقد تمت هذه المؤامرة أثناء صلاة الجمعة على الأخص. فعندما ختم السلطان وحاشيته الصلاة فى جامع القلعة ، صاح رجل يبدو عليه الجنون وسط الجماعة : « اهدموا الكنيسة الموجودة بالقلعة ! » وصاح أحد « الفقراء » فى الجامع الأزهر قبل ظهور الخطيب ، وكانت تعتريه رعشة قاهرة : « أهدموا كنائس الكفرة العتاة ! الله أكبر ! الله ينصر ويعين ! » . وقال بعض المصلين إن الرجل مجنون . وقال آخرون إن هذا علامة بعض الحوادث . وتبين المصلون عند انصرافهم أن ما حرض عليه قد بدأ . فقد كانت الجموع محتشدة فى الشوارع بأسلاب الكنائس التى حول أكثرها إلى تلال من الأنقاض . وتوعد السلطان أهل القاهرة (الآن مصر) والفسطاط (أو مصر القديمة) بقتلهم لهذه الأهانة ، غير أن إنتقام المسيحيين صرفه عن قصده . فقد أشعل هؤلاء النيران فى كثير من المساجد ومنازل الأمراء والبيوت الخاصة بالقاهرة والفسطاط ، لأيام عديدة، بعد أن أمسكوا عن تنفيذ مؤامراتهم مدة شهر ليبعدوا الشبهة عنهم . وقد كشف أمر كثير من مشعلى الحرائق وأعدموا حرقاً . كما أن بعض المسلمين أعدم شنقاً بطول الشارع الرئيسى بين باب القاهرة الجنوبى والقلعة لأهانتهم حسب الظاهر أميراً أتهم بمساعدة المسيحيين ، وإن لم يثبت عليهم ما يدينهم . وقد قبض عليهم بدون تمييز ليكفروا عن الإساءة وليكونوا عبرة لمواطنيهم. غير أن صياح الغوغاء أزعج

السلطان فاضطر بعد ذلك أن يبيح لرعاياه المسلمين سلب كل مسيحي يصادفونه وقتله . وكان المسيحيون فى ذلك الوقت يلبسون العمامة البيضاء ، فأمر السلطان باعلان أن كل من يرى منهم يلبس العمامة البيضاء أو يركب الجياد يعرض للنهب والقتل ، وأن عليهم أن يلبسوا العمامة الزرقاء ، وألا يركبوا غير الحمير ووجههم إلى ذيل الحمار ، وألا يدخلوا حماماً دون أن يعلقوا جرساً فى العنق . كما حرم على الأمراء استخدام المسيحيين ، وعزل جميع المسيحيين من خدمة الحكومة .

وقد اعتنق كثير من مسيحيى مصر الإسلام عام ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ — ١٣٥٥م) بعد أن قاسوا على التواتر الظلم الشديد . وقد بلغ عدد من تحولوا إلى الإسلام فى مدينة قليوب وحدها أربعمائة وخمسين فى يوم واحد . وقد هدمت فى الوقت نفسه أكثر كنائس الصعيد وشيدت المساجد مكانها .

وقد ظل الأقباط منذ ذلك العصر يقاسون الجور كثيراً أو قليلا إلى عهد محمد على باشا . ففى ولايته المتسامحة مع شدتها لم يحتم على المسيحيين أكثر مما حتم على المسلمين ، ما عدا ضريبة زهيدة كانت أكثر من أن يوازنها إعفاؤهم من الخدمة العسكرية ، وهو لم يمنح لهم حظوة (هذا حقيقى) ، ولكنه لا يقل من هذه الناحية أهمية وإثارة للحسد .

٢ – يهود مصر

يكون اليهود فى كل بلد تشتتوا به (خلاف أى طبقة متجمعة أخرى من الشعب يسكن أفرادها بلداً لم يتوارثوه من ممتلكيه الأولين أو لم يغزوه هم أنفسهم أو أسلافهم) أعضاء ثابتين فى الجماعة التى يعيشون بين ظهرانيها. ولذلك ليس من غير اللائق أن أسرد شيئاً عن يهود مصر فى هذا الكتاب.

يبلغ عدد اليهود فى هذا البلد خمسة آلاف تقريباً، يسكن أغلبهم العاصمة فى حى حقير مقفل قذر يقطعه أزقة عديدة يضيق أكثرها إلى درجة لا تسمح بمرور شخصين.

ويختلف يهود الشرق، فى الملامح وفى هيئة الوجه عامة، عن أمم أخرى فى آسيا الجنوبية الغربية أقل مما يختلف يهود أوروبا عن الشعوب التى يعيشون بينها. غير أن كثيراً ما نجدهم يتميزون بشدة بياض البشرة وصهبة الشعر وصفاء عيونهم البندقية أو الزرقاء أو الرمادية اللون. ويشكو كثير من يهود مصر من أمراض العين وانتفاخ البشرة نتيجة الافراط فى استعمال زيت السمسم فى الطعام. وهم على العموم قذرون غير مهذبين فى ملبسهم وفى شخصهم أيضاً. ولا يختلف لون عمائمهم عن لون عمائم الرعايا المسيحيين. وتنتقب اليهوديات ويلبسن ملابس المصريات الأخرى فى الطريق العام.

ولليهود ثمانية معابد بحيهم بالقاهرة. وهم يتمتعون بالتسامح الدينى ويخضعون لحكم أقل تعسفاً فى مصر منه فى أى بلد أخرى من بلدان السلطنة التركية، وهم يؤدون مبلغاً من النقود مقابل إعفاء حيهم من إشراف المحتسب، ويؤدون المثل للوالى ما دامت وظيفته قائمة. وهم يميزون عن الآخرين فى بيع أصناف المؤن بسعر مرتفع، فيستطيعون تبعاً لذلك شراء هذه الأصناف بثمن أعلى، فيجهزون حوانيتهم بالمؤن، وعلى الأخص الفاكهة، التى تفوق غيرها جودة فى أنحاء أخرى من المدينة. واليهود، مثل الأقباط، ولسبب مماثل يدفعون جزية، ويعفون من الخدمة العسكرية.

واليهود محل ازدراء المسلمين وكراهيتهم . ويقال إنهم يحملون للمسلمين وللإسلام بغضاً متأصلا أكثر من أى شعب آخر. ويذكر القرآن فى سورة المائدة « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ... » وقد قص على صديق مسلم عندما ذكرت هذه الخاصية فى أخلاق اليهود حادثاً وقع منذ بضعة أيام فقال : « كان أحد اليهود يمر مبكراً صباح يوم من أيام الأسبوع الماضى بمقهى لأحد معارفه المسلمين يسمى محمداً . فرأى شخصاً يقف هناك فظنه صاحب الدكان (إذ كان الغسق لا يزال قائماً) وقال : « سعدت صباحاً يا شيخ محمد » فلم يرد هذا الأخير ، وكان يهودياً آخر ، على تحية الأول بغير زجرة غاضبة لمخاطبته بأكره الأسماء التى يمكن التفوه بها أمام يهودى . وسحب الجانى إلى الكاهن الأكبر الذى حكم بجلده جلداً شديداً لهذه الإساءة بالرغم من احتجاجه بأنها غير متعمدة . » — ومن الشائع قول المسلمين : « إن فلان يكرهنى كراهية اليهودى » . فلا عجب إذاً أن يكره المسلمون اليهود أكثر مما يكرهون المسيحيين . وكان اليهود إلى عهد قريب يدفعون ويضربون أحياناً فى شوارع القاهرة لمجرد عبورهم على يمين مسلم. وهم الآن أقل عرضة للجور ، ولكنهم قلما يجرأون على شتم أى عربى أو تركى ينتهرهم أو يضربهم ظلماً . فقد أعدم كثير منهم لإتهامهم زوراً وحقداً بسب القرآن أو الرسول. ومن العادى أن تسمع عربياً ينعت حماره المتعب بأفضح الشتائم المختلفة يختمها بوصفه الحيوان باليهودى .

وكثير ما ضحى بيهودى لإنقاذ مسلم كما جرى فى الحادث التالى : « صرف أحد الجنود الأتراك بعض النقود ، فناوله « الصيرفى » ، وكان مسلماً ، بعض النقود المسماة « عدلية » بستة عشر قرشاً كل . وقدم التركى هذه النقود إلى أحد التجار ثمناً لبعض البضائع ، غير أن الأخير رفض أن يحاسبه على أكثر من خمسة عشر قرشاً « للعدلية » قائلا إن الباشا أمر منذ عدة أيام بألا يعد هذا النقد بستة عشر قرشاً بعد ذلك . فعاد الجندى إلى « الصيرفى » وطلب منه قرشاً إضافياً لكل « عدلية » فرفض « الصيرفى » . فتظلم التركى إلى الباشا نفسه ، الذى غضب لإهمال أوامره وأرسل فى طلب « الصيرفى » . واعترف هذا الرجل بذنبه ، غير أنه حاول أن يلتمس لنفسه عذراً بزعمه أن كل « صيرفى » فى المدينة تقريباً قام بالمثل ، وأنه استلم قطع « العدلية » بالسعر نفسه . ومع ذلك لم يصدقه الباشا ، أو رأى أنه من اللازم أن يجعل منه عبرة لغيره ، فأشار بيده إيعازاً بضرب عنقه . وتحركت الشفقة فى قلب مترجم البلاط لهذا الرجل التعس فتوسل

إلى الباشا أن يعفو عنه ، وقال : « إن هـذا الرجـل لم يعمل أكثر مما يعمله جميع صيارفة المدينة ، وقد استلمت أنا نفسى البـارحة قطع « عدلية » بالسعر ذاته . » فصاح البـاشا : « ممن » فأجاب المترجم : « من يهـودى عاملته عدة سنين . » فأحضر اليهودى وحكم عليه بالشنق بينما أعفى عن المسلم . فاغتم المترجم وجد فى الدفاع عن اليهـودى المسكين . ولكن البـاشا لم يلن . كان من اللازم أن يضرب مثلا ، وقد اعتبر أن قتـل يهودى خير من قتل مسلم أكثر جرماً .
وقد رأيت التعس مشـنوقاً فى نافذة « سبيـل » ملحق بمسجـد قائم فى أهم شارع فى المـدينة(1) وقد عرض أقارب اليهودى مبالغ كثيرة ليعفى عنه ، غير أن الحظوة الوحيـدة التى استطاعوا الحصول عليها إدارة وجهه ناحية الشباك حتى لا يراه المارون . وكان هـذا اليهودى يحترمـه كل من عرفه (ما عدا المسلمين طبعاً) ، وقد ترك عائلتـه فى عوز شديد ، فقـام المترجم الذى تسبب فى موته بغير تعمد باعانتهم .

ويعيش اليهود فى مصر عيشة هادئة على العموم . وقل فعلا من يخالطهم ممن هم على غير دينهم . وهم يعتبرون عامة شعباً معتدلا فى مأكله . ويرتدى أغنياؤهم أجمل الملابس داخل بيوتهم ، ولكنهم يظهرون فى الخارج بملابس ساذجة بل رثة أيضاً . وتحوى مساكنهم بالرغم من مظهرها الحقير القذر غرفاً جميلة حسنة الأثاث . وليس اليهود داخل منـازلهم بصرامـة الكثير من الشرقيين الآخرين فى إخفاء نسائهم عن الأجانب ، أو على الأقل عن مواطنيهم وعن الأفرنج . وكثيراً ما يحدث أن يستقبل الزائر الأوربى حيث يجلس نساء الأسرة اليهودية سافرات ، فيقمن على خدمته . وتسود هذه العادة فى السوريين المسيحيين المقيمين بالقاهرة . ويقال إن تدبير المكائد يغلب فى اليهوديات ، غير أن ليس فيهن عاهرات يصرح لهن باحتراف الدعارة . ويعيش أفراد الطبقـة الدنيـا فى بؤس شديد ، وليس لأكثرهم طريقة للتعيش غير ما يجود به عليهم يهود الطبقة العليا .

والبخل صفة مميزة ليهود مصر خاصـة أكثر منها ليهود البـلدان الأخرى حيث هم أقل عرضـة للظـلم . وهم يعنون بكل وسيلة ممكنة لإبعاد شبهة الثراء عنهم ولهذا السبب يبدون فى أقذر شـكل ويهملون مظهـر بيوتهم الخارجى ،

---

(1) من المدهش أن يشنق المسلمون يهودياً فى شباك جامع . بينما هم يعتبرونه مخلوقاً دنساً يلوث دمه السيف ، ولهذا السبب لا يضرب عنق اليهودى فى مصر .

وهم على العموم يحرصون على القيـــام بفروضهم الدينيـــة ، كما أنهم بالرغم من حيلهم فى الصفقات التجارية أمناء فى إنجاز عقودهم .

ويحترف كثير من اليهود المصريين عمليـــة الصرف (أى إقراض النقود) . ويعمل آخرون « صـــيارفة » وهم ذوو أمانة دقيقـــة . ويصيغ غيرهم الذهب والفضة ، ويشغل بعضهم بالبقـالة وبيع الفاكهـة ، والقليل من الطبقة الثرية يحترف التجارة عموماً .

٣ — المحـــدثات الأخيرة[1]

إن ما نشر بأوربا من روايات مبالغ فيها خاصة بالمحدثات الأخيرة والتقدم العام للمـــدنية فى مصر يدفعنى إلى إضــافة بعض الكلام فى هذا الموضوع. إن العادات الأوربية لم تأخذ بعد فى الانتشار بين المصريين أنفسهم، ولكنها لن تلبث أن تنتشر. وقد ظللت مشوقاً، فى انتظار تحقق ذلك، وقبل فوات الوقت، إلى الإلمام بحالة مجتمع أثار وجوده إهتماماً بالغاً منذ عدة أجيال وأعتقد الكثير أنه يكاد يكون ثابتاً.

إن البيان الذى قدمته عن حكومة هذا البلد فى الوقت الحاضر يظهر عبث الزعم بأن مصر تملك مجلساً تشريعياً يمكن وصفه بأى حال أنه يمثل الشعب. إن إرادة الباشا تكاد تكون مطلقة، غير أنه أحدث بلا شك إصلاحاً عظيماً بادخال فن الحركات الحربية والبحرية الأوربى، فنجم عن ذلك نتائج جسيمة لن تلبث أن تنتشر انتشاراً واسعاً، وتلاقى من وجوه عديدة قبولا حسناً. وقد أزال هذا الإصلاح الكثير من عبء الأضرار التى عاقت الأتراك طويلا عن الاحتفاظ بمقامهم النسبى بين أمم العالم المتمدين. وقد أقنع محمد على المصريين بأن هذا العلم الأوربى وممارسته يفوقان ماتعودوه فجعلهم يرضون، إن لم يكن يرغبون، فى تلقى أكثر مما كان يستطيع الأوربيون تعليمهم. وقد لا يرى غير المتأملين أى أهمية فى ذلك، ولكن المسلم الحكيم يعتبره منذراً بالسوء، بينما يرحب المسيحيون به كفأل لأسطع العهود. وقد سلك الأتراك مسلك الأوربيين فى الترف، فأخذ كثير من الأغنياء فى استعمال السكين والشوكة، وسرعان ماتعودوا شرب النبيذ جهاراً، فشاعت هذه العادة بين الكثير من كبار موظفى الحكومة. ومن الجلى أن هذا الحدث يشير إلى إهمال فائق للشؤون الدينية. ولا شك أن مبادىء الطبقة السائدة ستمتد (وإن لم يحدث شىء من ذلك بعد) إلى الطبقة الدنيا. وقد بدأ الأولون فى تقويض أسس الإسلام بينما ينظر الآخرون إلى ذلك ببلادة، أو على

---

(١) كتب هــذا فى أزهى عصر لحكم محمــد على. ولهذا السبب ولأنه يبين السياسة التى اتبعها خلفاؤه على العموم، فقد أبقيت ما كتبت كاملا تقريباً فى الطبعة الحالية.

الأقل يستسلمون إلى العناية الإلهية . إنما يحتمل أن يعاون هؤلاء قريباً فى هذا العمل ، ومن المقبول أن نتوقع قلب الوضع بأكمله فى وقت غير بعيد .

ويبدو أن والى مصر الحالى كان يرمى إلى هدف جسيم يكاد يكون الأوحد . كان يهدف إلى تكوين امبراطورية قوية مستقلة عن الباب العالى . وقد أدخل علوماً وفنوناً وصناعات أوربية عديدة تهدف جميعاً إلى نجاح ما رسمه فقط ، إذ أن تلك الصناعات الجديدة قد أفقرت شعبه . وقد أنشأ مطبعة ، غير أن ما صدر منها من مطبوعات يكاد يكون مخصصاً لتعليم حاشيته من العسكريين فى البر والبحر ومن المدنيين(١) . وهناك مطبعة أخرى بالقلعة يصدر منها جريدة يندر أن تتعدى عباراتها شؤون الحكومة . وهى تطبع بالتركية وبالعربية ، وينشر منها أحياناً ثلاثة أعداد فى الأسبوع ، وأحياناً أخرى ، ينشر عدد واحد فى الشهر (٢) .

وقد ذكرت رأيى صراحة أن سياسة محمد على مغلوطة فى كثير من الوجوه وأن شعبه اضطهد اضطهاداً شديداً ، غير أن الظروف التى وجد بها تبرر شدته . وحتى ننصف فى الحكم على طباعه يجب أن نقارن بينه وبين مصلح تركى آخر ، وليه الأسمى (السابق) ، السلطان محمود . فقد أبدى محمد على من جميع الوجوه تفوقه على الآخر ، وخاصة فى تنظيم قواته . فبينما كان السلطان يقلد الأوربيين فى أتفه الأمور (مثل اقتباسه نظام الملبس الحربى الجديد) قصد محمد على أموراً

---

(١) وقد أرسلت قائمة بهذه المطبوعات إلى الجمعية الأسيوية الملكية .

(٢) سأذكر عملا من أقل أعمال محمد على أهمية على اعتبار أنه يحمل وصفى لشوارع القاهرة وحوانيتها لا ينطبق جملة على حالتها الحاضرة . فقد عمل أخيراً على إزالة المصاطب فى أكثر الشوارع الكبيرة ، وسمح بإعادة بنائها فى الأجزاء الواسعة فقط بعرض شبرين تقريباً . وفى الوقت نفسه أجبر التجار على دهن حوانيتهم وأمرهم برفع « السقائف » الحصر القبيحة المنظر التى تظلل كثيراً من الأسواق ، وحرم وضعها ثانياً ما لم تكن من الخشب . وقد فقدت القاهرة نتيجة لذلك كثيراً من طابعها العربى — بعد كتابة الجزء السابق من هذه المذكرات ببضع سنوات ، ألزم أهل القاهرة بتبييض واجهة منازلهم ، وهكذا شوهت هيئة الشوارع المفتنة .

أكثر أهمية وبلغ هدفه(١) . وإذا أردنا أن نقدر خلقه بالنظر إلى مذبحة المماليك يجب أن نسلم أنه إنما عمد إلى هذه الوسيلة الفظيعة لغاية مرغوبة ، كما يمكننا فى الوقت نفسه أن نضع فى الكفة الأخرى منحه اللاجئين اليونانيين ملاذاً عندما سال دم مواطنيهم فى ميازيب الأستانة.

ومن الصعب تكوين رأى صحيح عن إدارة محمد على للبلاد على العموم ، بسبب التكتم الذى يشمل الأمور السياسية المهمة فى الشرق . غير أنه يمكن القطع بما يلى : إن حكم محمد على أفقر الشعوب التى حكمها . ولكنها استبدلت السكينة بالفوضى والتسامح المتصنع بالتعصب السافر ، بينما تعلم كثير من الأفراد العلوم والفنون التى يتحتم أن تنفع الأمة فى مجموعها نفعاً عظيماً فى النهاية .

(١) لا تزال (١٨٣٥) ملابس جنود محمد على وبعض ضباطه تركية تماماً فى تفاصيلها ماعدا العمامة التى لم يعد يلبسها غير بعض هؤلاء فى الشتاء فقط . وغطاء الرأس النظامى حالياً هو القلنسوة الحمراء يلف حولها دائماً شال من الموصل أو الكشمير . وتكون السراويل فضفاضة من الوسط إلى ما تحت الركبة بقليل ثم تلاصق الساق . ويكمل الملبس الخارجى الذى يرتدى عادة صدرة مشدودة (بقسمة الكمين من الرسغ تقريباً إلى المرفق ، وتزرر على العموم فى هذا الموضع) وحزام وسترة متدلية الكمين ، وجورباً وحذاء أحمر ، وقد يكون كما السترة مثل كمى الصدرة ، وينتعل البعض أحذية أوربية سوداء . ويحمل السيف الآن على الطريقة الأوربية فى منطقة . ويتكون ملبس الجنود الخاصة من صدرة وسروال (يشبه السابق وصفه وليس باتساعه) من صوف غليظ أحمر ، أو من القطن ، فى الصيف ، وحزام وقلنسوة حمراء وحذاء أحمر .

ذيل (١)

حلى النســـاء

تختلف حلى المصريات اختلافاً يجعل وصفها جميعاً قد يجاوز بكثير الحدود التى تسمح بها طبيعة الكتاب ، وقد يقتضى عدداً كبيراً من الرسومات وإلا كان بلا فائدة . وســأصف مع ذلك أهم أنواع تلك الحــلى ، فتنقل إلى القارىء صورة عن البقية . وإذا كان الموضوع لا يهم عامة القراء ، قد ينفع على الأقل الفنانين الذين كثيراً ما يستسلمون للخيال عند تصورهم ملابس العرب وزينتهم . وأصف أولا حلى السيدات من الطبقة الراقية ، ونساء الطبقات الوسطى .

سبق أن تكلمت عن غطاء الرأس أنه يتكون من « طربوش » و« فروديه » (أو منــديل) ، ويسمى الأخير عندما يلف حول السابق « ربطة » . وكثيراً ما تزين الربطة بصفائح من الفضــة المــذهبة أو الساذجة ، مرتبة فى نماذج تصويرية . وتكون الربطة نفسهــا فى هذه الحالة ، من الموصــلى أو الكريشة من اللون الأسود أو الوردى على العموم ، وتكون ساذجة دائماً . وقد وصفت أكثر أنواعها شيوعاً .

« المزاجى » حليــة كثيرة الاستعمال . وهى تتكون من شريط من الموصلى الأسود أو الوردى اللون ، تطوى جملة طيــات ، بحيث تكون رباطاً ضيقاً ، بعرض الأصبع أو أقل . وطولها خمسة أقدام تقريباً . ويزين وسطها ، باتساع حوالى إثنتى عشرة بوصة ، أو ثلاث عشرة ، صفــائح توضع متلاصقة ، أو على شــكل معين إلخ . ويزين طرفاه بالاتســاع نفسه تقريباً ببعض صفائح أخرى ، ويحد كل منهما حاشية وشراريب صغيرة من الحرير المختلف الألوان . وقد يوجد أيضــاً حاشية مماثلة يعلق بها صفــائح بطول الحافة الدنيا من القسم الأوسط المزين . ويربط المزاجى حول الرأس ، فيعــلو القسم المتوسط المزين الجبهة فوق حافة الربطة على العموم . ويشد خلفاً عند أعلى الربطة ، ويتدلى طرفاه المزينان إلى الأمام فوق الصدر . (أنظر شكل ٨٣) .

« القرص » حليـة محدبة مستديرة ، قطرها خمس بوصـات تقريباً عادة ، ويلبسها على العموم عقائل النساء. وهى تخاط على قمة الطربوش (أنظر شكل ٢٤). وهى نوعان : النوع الأول الذى أصفـه (وهو الوحيـد الذى تلبسه عقائل النساء ، وزوجات التجـار ذوى الثروة المتوسطـة) هو « قرص الماس » . وهو يتكون من ماسـات تركب من ذهب على العمـوم ، وتكون على طرز المخرم ، على هيئة ورود وأوراقها الخ . وتكون الماسات عادة من نوع تافه ، كما أن ذهب هذه الحليـة وغيرها من الحـلى الماسية المستعملة فى مصر يمزج بنسبة كبيرة من النحاس . ويبلغ قيمـة القرص المـاسى المتوسط الجمال مائة وخمسة وعشرين جنيهاً استرلينياً أو مائة وخمسـين تقريباً . ويندر أن يكون من الفضة . وأظن أن لتـلك الحـلى من الذهب (شكل ٩٣) تأثير أفخم ، حينما تعلق على طـربوش أحمـر قان ، وإن لم يتفق هذا وذوقنا



شكل ٩٣ (قرص ماسى)

العام . وقد تتحلى زوجـات صغار التجار أيضاً بالقرص الماسى . وهن يولعن بالماس ، ويسعين على العموم للحصول على بعض منه ، وإن رداً لوعه . ويصعب حمل القرص أول الأمر لثقل وزنه . وتشكو من تتعود حمله من النساء الصداع عندما يخلعنـه ، فيحتفظن به ليلا ونهاراً . غير أن للبعض قرصاً أدنى للسرير . ولبعض السيدات قرص للبس العادى ، وقرص ثان للمناسبات الخاصة ، أكبر حجما وأجمـل شكلا ، وثالثاً للبسه فى السرير فقط ـ أما النوع الآخر ،

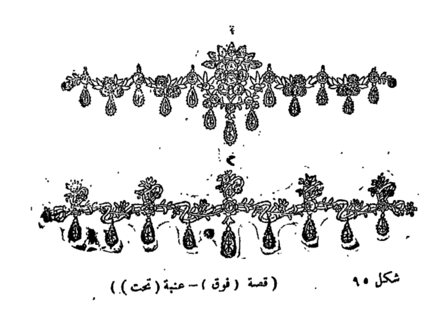
« قرص ذهب » ، فهو صفيحة محدبة من الذهب البارز الرقيق على الطرز المبين فى شكل ٩٤ عادة . ويتوسطه دائماً تقريباً زمردة مقلدة (قطعة من



شكل ٩٤ (قرص ذهبى)

الزجاج الأخضر) ، غير مقطعة . ولا يقطع الزمرد أو الياقوت هنا . فاذا قطع اعتبرا مقلدين . ويبطن القرص الذهبى بطبقة كثيفة من الشمع تغطى بقطعة من الورق . ويلبس هذا القرص كثير من النساء اللائى يعجزن عن شراء قرصاً ماسياً . وبعض الخادمات أيضاً يلبسنه .

« القُصة » (شكل ٩٥ فوق) حلية يتراوح طولها بين سبع بوصات



شكل ٩٥ (قصة (فوق) — عنبة (تحت))

وثمانى ، وتتكون من ماس مركب فى ذهب ، يضاف إليها أحياناً زمرد وياقوت ولؤلؤ ، ويعلق بها أقراط من الماس أو الزمرد الخ . وتوضع القصة فى مقدمة الربطة . وتربط بأبازيم إلى الخلف . وقد رأيت عدة قصات من الماس الخ . مركبة فى فضة بدلاً من الذهب . وتوضع القصة على العموم على رأس العروس خارج طرحتها ، كما يوضع القرص أيضاً . وتستخدم هاتان الحليتان لزين نعش المرأة . ويلبس نساء الطبقتين العليا والوسطى القصة أيضاً .

« العنبة » (شكل ٩٥ تحت) اسم آخر لنفس النوع يلبس بنفس الطريقة . ويبلغ طوله إذا كان تام الحجم أربع عشرة بوصة أو خمس عشرة ، ويحيط أكثر من نصفه بغطاء الرأس .

« الشواطح » (مفردها « شاطح ») حليتان تتكون كل منهما من ثلاثة صفوف من اللؤلؤ أو أكثر ، بطول القصة تقريباً ، تجمعها فى الوسط زمردة مثقوبة مثل عقد اللؤلؤ العادى الموصوف فيما بعد . أو تتكون من لآلىء مرتبة على هيئة شريط ضيق ، ويضاف إليها أحياناً بعض زمردات صغيرة . وتثبت الشواطح بالربط على هيئة اكليلين ، واحد على كل جانب من الرأس ، من طرف القصة إلى خلف غطاء الرأس ، أو إلى القرط أحياناً .

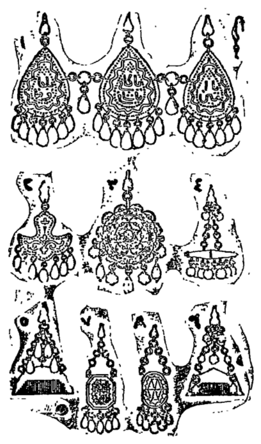
وتلبس النساء بدلا من القصة والشواطح ، وعلاوة عليها أحياناً ، حلياً أخرى أصفها حالا .

« الريشة » عسلوج من الماس مركب فى ذهب أو فضة . وتلبس فى صدر غطاء الرأس أو فى جانبه .

« الهلال » هلال من الماس مركب فى ذهب أو فضة ، ويلبس مثل الريشة . ويشبه فى الشكل القمر فى الليلة الثانية أو الثالثة من الشهر . وهو قليل الاتساع ، وطرفاه لايتجاوزان نصف الدائرة .

« القمرة » حلية مكونة من صفيحة ذهبية بأشغال تصويرية ، وأحياناً بكلمات عربية ، وبها حوالى سبع قطع ذهبية مستوية صغيرة ، تسمى الواحدة

منها « برقا » تربط بالجزء الأسفل، أو تتكون من ذهب وماس ، وياقوت الخ .
ويبين الشكل ٩٦ رقما ١ و٢ نموذجين للقمرة . ويشمل أحدهما ثلاث



شكل ٩٦ — ١ و٢ قمرة ٣ ساقية ٤ عود صليب
٥ و٦ مشط ٧ عقيق ٨ بللور

قرات متصلة ، توضع على مقدمة غطاء الرأس. وتتضمن الوسطى هذه الجملة :
ياكافى ياشافى ، واليسرى : ياحافظ ، واليمنى : يا أمين . ومن ثم تستعمل تلك
حرزا وللزينة .

« الساقية » وتسمى كذلك لهيئتها . وهى حلية مستديرة مستوية من الذهب
المخرم ، بها لآلىء صغيرة ، ويتوسطها ماسة أو حجر كريم آخر . ويعلق بالجزء
الأسفل منها بروق وزمردات . وتلبس على طريقة القمرة أو معها . (شكل ٩٦
رقم ٣) .

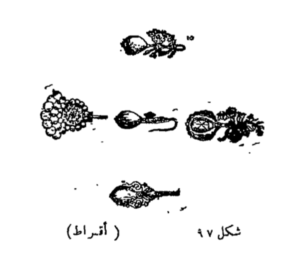
« عود الصليب » نوع من الحلى لا شك مستعار من المسيحيين . والمدهش ان تلبس المسلمات هذه الحلية وتسميها هذه التسمية . وعود الصلب قطعة صغيرة من الخشب تدق فى طرفيها أكثر من الوسط . وتغلف بغلاف ذهبى بالشكل نفسه ، وتتكون من قطعتين متصلتين فى الوسط ، ولها سلسلتان ومشبك تعلق منها ، وصف من البروق بطول أسفلها . ويلبس عود الصليب مكان الحليتين السابقتين أو علاوة عليهما (شكل ٩٦ رقم ٤) .

« المشط » مشط صغير من الذهب ، يلبس بالطريقة نفسها مثل أنواع الحلى الثلاث الموصوفة ، علاوة على حلية أو أكثر من تلك الحلى . ويعلق بسلاسل صغيرة ومشبك ، وله أربعة بروق أو خمسة مثبتة به (شكل ٩٦ رقما ٦،٥) .

وهناك أيضاً حلية تشبه تلك الحلى المذكورة حالا بعض الشبه ، وتتكون من عقيق ، أو قطعة من البللور أو من الزجاج غير الملون ، وتركب فى ذهب ، وتعلق بسلسلتين ومشبك . وبها بروق مثبتة أسفلها ، ويسمى النوع السابق « عقيق » والآخر « بللور » (شكل ٩٦ رقما ٨،٧) .

وهناك أيضاً عدة حلى فى شكل الورود والفراش الخ ، توضع على غطاء الرأس . ولكن يندر أن تلبس وحدها .

وتوجد أنواع كثيرة من الأقراط ، وقد أدرجت هنا أكثر الأنواع استعمالا (شكل ٩٧) . و « الحلق » الأول من الماس المركب فى الفضة . ويتكون

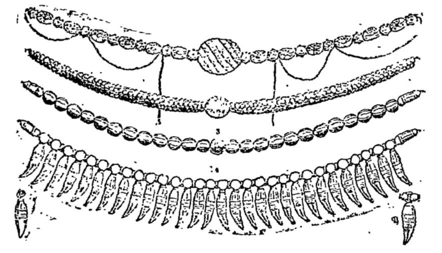


شكل ٩٧ (أقراط)

من قطرة تعلق داخل إكليل يتدلى من فرع . ويذهب ظهر الفضة ،حتى لا يكمد لونه من العرق . والنموذج المبين هنا للأذن اليمنى ، والآخر يماثله ، ولكن الفرع مقلوب . ويلائم هذا القرط السيدة الثرية . ويختلف القرط الثانى عن الأول فى أن له لؤلؤة كبيرة مكان القطرة الماسية والأكليل ، وأن ماس الفرع يركب فى ذهب . أما رقم ٣ من شكل ٩٧ فهو رسم جانبي للقرط نفسه. ويتكون القرط التالى من الذهب،وزمردة مثقوبة الوسط ،يعلوها ماسة صغيرة . ويثقب الزمرد على العموم بمصر ، فيتلف بهذه الطريقة بقدر ما يتلف لعدم تقطيعه . والقرط الأخير من الذهب ، ويتوسطه ياقوتة صغيرة . وتركب الياقوتة فى صياغة من المخرم الدقيق ، يحيط بها خمس عشرة كرة من الذهب . ويعلق بالكرات السبع السفلى عدة بروق مستديرة .

للمصريين ضروب كثيرة من العقود . غير أنها جميعاً تكاد تتشابه فى الخصائص التالية : أولا . أن الخرزات الخ . التى تتكون منها لا تزيد معاً عن عشر بوصات طولا ، ولذلك لا تحيط بالرقبة كلها إذا احكم ربطها ، الأمر الذى لا يحدث أبداً . ويمتد الخيط ست بوصات أو سبع تقريباً من طرفى مجموعات الخرز ، وعندما يربط العقد بالطريقة العادية ، يترك فراغاً بين الطرفين ثلاث بوصات أو أكثر ، ، ولكن ضفائر الشعر تخبئه : ثانياً يتوسط العقد عموماً خرزة واحدة أو حلية أخرى (ويوجد أحياناً ثلاثة أو خمسة أو سبعة) تختلف عن الخرزات الأخرى حجماً ، أو شكلا ، أو خاماً ، أو لوناً — وتكون أكثر العقود استعمالا عند عقائل السيدات من الماس أو اللؤلؤ . — والعقد الأول فى (شكل ٩٨) من الماس المركب فى ذهب . ويتكون العقد الثانى فى الشكل نفسه من خيوط عديدة من اللؤلؤ يتوسطها زمردة مستوية قليلا مثقوبة . وأغلب العقود اللؤلؤية تكون بهذا الوصف . ويسمى العقد الثالث « لبّه »، ويتكون من خرزات ذهبية مجوفة ، تتوسطها خرزة مختلفة النوع (حجر كريم أحياناً ، ومرجان أحياناً أخرى) . و« اللبة » و« الشغير » ، العقد التالى ، قلما يلبسهما غير نساء الطبقتين الوسطى والدنيا . ويسمى العقد

الرابع « شعيراً » تبعاً لشكله الخاص . ويتكون من الذهب المجوف . وإنى ادرج رسماً جانبيـاً لخرزة منه ، وآخر خلفياً (شـكل ٩٨) . وهناك أيضاً نوع



شكل ٩٨ (عقود)

طويل من العقود يصل إلى الوسط ، ويتكون من ماسات أو من أحجار كريمة أخرى ، ويسمى « قـلادة » . وتؤلف بعض النسـاء عقداً طويلا من هذا النوع بقطع البندقى ، أو بالنقود الذهبية التركية أو المصرية .

ليس من اللازم أن أصف الخواتم التى قلما تختلف عن الخواتم الشائعة عندنا ، إلا فى غلظ الصنعة ورداءة الأحجار . ويسمى الخاتم بدون حجر « دبلة » .

تصنع « الأساور » من الماس أو من أحجار كريمة أخرى تركب فى ذهب ، أو من اللآلىء ، أو من الذهب فقط . ويبين شكل ٩٩ أكثر



شكل (٩٩ أساور)

الأنواع شيوعاً . فالرسم الأول منظر جانبي لاسورة ماسية ومنظر أمامي لجزء منها . والرسم الثاني أكثر أنواع الأسورة الذهبيـة ذيوعاً ، ويتكون من جـديلة ساذجـة . أما الثالث فهو كثير الشيوع ولـكنه أقل ذيوعاً من الذهب المجدول . والرسم الأخير من الذهب أيضاً . وتلك الأساور الذهبية تشد فتفتح قليلا لتوضع حول المعصم . وهي تصنع من الذهب البندقي الدقيق الشديد المرونة .

أصف بعد ذلك حلي الشعر — ذكرت أن شعر الرأس جميعاً ما عدا ما فوق الجبهة والصـدغين ، يضفر إلى ضفائر ، ما بين إحـدى عشرة ضفيرة وخمس وعشرين ، تتدلى أسفل الظهر . ويكون عدد الضفائر مفرداً دائماً . وقلما يكون أحـد عشر ، والشائع أن يكون ثلاث عشر أو خمس عشر . ويجـدل بالشعر ، إلى ربع طولها تقريباً ، خيوط حريرية سوداء (ثلاثة إلى كل ضفيرة تضم عنـد القمة) بطول ست عشرة بوصة إلى ثماني عشرة ، أو تربط إلى شريط من الحرير الأسود يشد حول الرأس ، فتدلى الخيوط في هذه الحالة منفصلة تماماً عن الضفائر وتكاد تغطيها ، ويسمى الخيط من تلك الخيـوط « قيطـان » . وهي تؤلف معاً وبعض الحلى الذهبيـة ، المبين أكثرها شـيوعاً في شـكل ١٠٠ ، ما يسمى

شكل ١٠٠ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ برق ٥ ماسورة
٦ حبة ٧ شفتشه

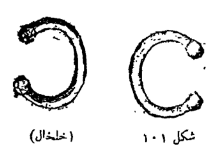
« صفا »(١) . وبربط بطول الخيط الواحـد ، ما عـدا أعلاه إلى الربع تقريباً أو الثلث على الأقصى ، تسعة بروق أو أكثر . وتـكون البروق جميعـاً ذات شكل واحد عادة ، وتوضع الواحد بالنسبة للآخر ، على بعد بوصة أو أكثر قليلا على حـدة . ويتعمد وضع حلي الخيوط بحيث لا يقابل بعضها بعضاً تماماً . وأكثر أنواع البرق شيوعاً هما الرسمان الأول والثاني من النماذج المدرجة في شكل ١٠٠ . وينتهي كل خيط بأنبوبة ذهبية صغيرة ، تبلغ ثلاثة أثمان البوصة طولا ، وتسمى « ماسورة » ، أو تنتهي بنوع من الخرز الذهبي على شكل مكعب مقطوع الزوايا ،

---

(١) أنظر شكل ٢٤ .

يسمى « حَبه » . ويوجد أسفل الماسورة أو الحبة حلقة صغيرة ، يعلق بها عادة نقد ذهبي تركي يسمى « ربع فندقلي » ويساوى شلناً وثمانية بنسات تقريباً ، ويبلغ قطره ما يزيد على نصف بوصة قليلا . ذلك هو الوصف العام للصفا . غير أن هناك أنواع أكثر رقة ، حيث تفضل الحبة عادة على الماسورة ، ويستبدل بالربع الفندقلي حلية ذهبية مستوية تسمى ، تبعاً لشكلها « كمثرى » . وهناك أيضاً عوضاً عن النقد الذهبي حلى أخرى أكثر استحساناً . وأكثرها شيوعاً يسمى « شفتشه » ، ويكون من الذهب المخرم ، ويتوسطه لؤلؤة . ويستبدل بعض السيدات بالنقد الذهبي شرابة صغيرة من اللآلىء ، أو يعلقن على التعاقب لآلىء وزمرد إلى أسفل الخيوط الثلاثية ، ويربطن لؤلؤة إلى كل برق. ويسمى الصفا المكون هكذا مع اللؤلؤ « صفا لولى » . وقد يربط الخرز من المرجان على طريقة اللؤلؤ . ويبدو مما قيل سابقاً ، أن الصفا المتوسط ذى الثلاث عشرة ضفيرة يتكون من ٣٩ خيطاً ، و٣٥١ برقاً ، و٣٩ ماسورة أو حبة ، و٣٩ نقداً ذهبياً أو حلياً أخرى ، وأن صفا الخمس وعشرين ضفيرة باثنى عشر برقاً إلى كل خيط ، يتضمن ما لا يقل عن ٩٠٠ برق و٧٥ من كل من المعلقات الأخرى . والصفا يبدو لى أجمل الحلى التى يستعملها سيدات مصر وأغربها . ولتألق البروق وغيرها ، ولصريفها عندما تسير السيدة ، تأثير بهج خاص .

يكون « الخلخال » من الذهب أو الفضة الأصمين ، وبالهيئة المبينة



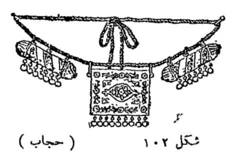
شكل ١٠١ (خلخال)

فى الشكل ١٠١ . وقد أصبح الخلخال الآن أقل شيوعاً . وهو بالطبع ثقيل جداً ، ويحدث رنيناً باصطدامه الواحد بالآخر عند المشى . ومن ثم يقال فى إحدى الأغانى : « رنة خلخالك سلبتنى عقلى » ويشير أشعيا(١) إلى ذلك الرنين ، أو ربما إلى الصوت الذى يحدثه نوع آخر يرد ذكره فيما بعد .

---

(١) ١٦/٣ (وقال الرب من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخشخشن بأرجلهن) .

بقي من حلي السيدات « الحجاب » . وهو كتابة من الأنواع التي سبق أن وصفتها في الفصل الحادي عشر ، يغطى بقماش مشمع ، ليحميه من النجس العرضي ، أو تلف الرطوبة . ويوضع في غلاف من الذهب الرقيق البارز الشغل ، أو من الفضة ، ويعلق بخيط من الحرير ، أو يعلق بسلسلة ، على الكتف الأيسر إلى الجانب الأيمن ، فوق الحزام . وتنقش هذه الأغلفة بنقوش عربية أحياناً ، مثل : « ما شاء الله » ، و « ياقاضي الحاجات » . وأني أورد رسماً لثلاثة أحجبة ذهبية تربط بخيط ، لتعلق معاً (شكل ١٠٢) . والحجاب الأوسط غلاف رقيق



شكل ١٠٢ (حجاب)

مسطوح يحوى ورقة مطوية ، وسمكه حوالى ثلث بوصة . والحجابان الآخران غلافان اسطوانيان ، ذوا أطراف نصف كروية ، ويحويان درجين . ولكل من الأحجبة صف من البرق بطول أسفلها . والأحجبة من هذا النوع ، أو المثلثة الشكل ، يحملها الأطفال ، مثل النساء . وكثيراً ما تعلق الأحجبة المثلثة على غطاء رأس الطفل .

والآن أصف حلي النساء من الطبقة الدنيا .

قد يكون من اللازم أن أذكر القارىء أن غطاء رأس أولئك النساء ، ماعدا بعض فقيرات القرى ، يتكون على العموم من « العصبة » ، وقد وصفتها في صفحة ٤٧ ، وأن بعضهن يلبسن بدلا من هذه ، الطربوش والفرودية . وقد يلبس النساء من تلك الطبقة ، بطول جبهة العصبة أو الربطة ، خيطاً من النقد البندقي (المسمى شده بنادقه) . وقد يزين الطربوش أيضاً بالقرص الذهبي أحياناً ، والفرودية ، ببعض الحلي الذهبية الأخرى السابق ذكرها ، مثل القمرة ، والساقية ، والمشط الخ .

هناك مجموعة كبيرة مختلفة الأنواع من الأقراط . وبعضها من الذهب والأحجار الكريمة ، ، غير أن أكثرها شيوعاً ، من النحاس . وأكثر الأقراط النحاسية معلق بها خرزات ملونة . والقليل منها من الفضة .

« الخِزام » ، خاتم الأنف ، (شكل ١٠٣) ، ويسمى عادة « خُزام » ،



شكل ١٠٣ (خـزام)

يستعمله قليل من القاهريات من الطبقات الدنيا ، وكثير من الريفيات فى مدن الريف وقراه بمصر . وهو يصنع عادة من النحاس ، ويبلغ قطره من بوصة إلى بوصة ونصف ، ويعلق به عادة ثلاثة خرزات أو أكثر من الزجاج الملون الأحمر والأزرق على العموم . وهو يكاد يوضع دائماً فى الجانب الأيمن من الأنف ، ويتدلى بعضه أمام الفم . ولذلك تضطر لابسة الخزام أن تمسكه باحدى يديها عندما تضع شيئاً فى فمها . وقد يصنع الخزام من الذهب . وترجع هذه الحلية إلى عهد ابراهيم(١) . ويذكرها اشعيا(٢) . وحزقيال(٣) . ولا شك أن الخزام يبدو لمن لم يتعود رؤيته أنه نقيض الحلية .

يكون « العقد » على أسلوب يماثل العقود السابق وصفها . وقد سبق أن ذكرت أن « اللبة » و « الشعير » يلبسهما بعض نساء الطبقات الدنيا . غير أن عقودهن تكون عادة من الخرز الزجاجى الملون ، وهى على صف واحد أحياناً ، وأحياناً أخرى ، من صفوف كثيرة ، يتوسطها خرزة كبيرة أو أكثر . أو تصنع على شكل مشبك . وكثيراً ما تلبس المصريات ، وهن يولعن بالحلى ، عقدين

---

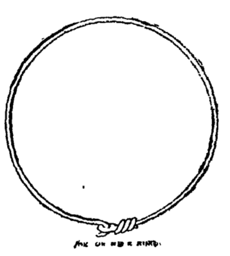
(١) أنظر سفر التكوين ٤٧/٢٤ (فسألتها وقلت بنت من أنت . فقالت بنت بتوئيل بن ناحور الذى ولدته له ملكة . فوضعت الخزامة فى أنفها والسوارين على يديها) . حيث نجد فى النسخة العادية كلمة « حلق »* وضعت بدلا من « خزام » وضعاً غير صحيح .
* فى النسخة الإنجليزية earring . (المترجم)

(٢) ٢١/٣ (الخواتم وخزائم الأنف) .

(٣) ١٢/١٦ (ووضعت خزامة فى أنفك وأقراطاً فى أذنيك وتاج جمال على رأسك وهنا أيضاً نجد خطأ* ، ولكنه صحح فى الهامش .
* فى النسخة الإنجليزية a jewel on thy forehead : حلية على جبهتك . (المترجم)

و ثلاثة عقود بخمسة القيمة . وتكون بعض العقود من خرزات كبيرة من العنبر الشفاف .

وهناك حلية أخرى يلبسها كثير من النساء فى الرقبة ، تسمى « طوقاً » ، من الفضة أو النحاس الأصفر أو القصدير (شكل ١٠٤) . ويلبس الفتيات



شكل ١٠٤ (طوق)

الصغيرات أيضاً هذه الحلية أحياناً . وتصنع بعض الأطواق الصغيرة من الحديد .

وتلبس الخواتم الفضية أو النحاسية عموماً تقريباً . ويمكن شراء الخواتم النحاسية ، المركب بها قطع من الزجاج الملون ، فى القاهرة بما لا يزيد عن ربع بنس ويلبس كثير من النساء خاتمين أو ثلاثة خواتم أو أكثر .

« الأساور » أنواع مختلفة . وبعضها من الفضة ، وبعضها من النحاس الأحمر أو الأصفر ، وهى على شكل أساور الذهب السابق وصفها . والأساور النحاسية أكثرها شيوعاً . وهناك أيضاً أساور من خرزات العنبر الكبيرة ، وأخرى من العظم . ويوجد نوع شائع جداً ، يسمى « غويشات » ، من الزجاج الملون غير الشفاف ، أزرقاً أو أخضراً على العموم . وتنوع الغويشات أحياناً بألوان أخرى .

تقلد بعض نساء الطبقات الدنيا سيداتهن بأعداد شعورهن جدائل كثيرة وجدلها بالخيوط الحريرية السوداء. غير أن العادة السائدة عند نساء تلك الطبقات

هى تضفير الشعر ضفيرتين إلى الخلف فقط ، وجدل كل منهما بثلاثة خيوط حريرية حمراء ، تنتهى بشرابة ، وتتدلى طويلا إلى الأرض ، ولذلك يضطررن عادة إلى سحب الشرابات قبل الجلوس . وتسمى تلك المدليات « عقوص » .

« الخلخال » من الفضة الصماء ، وقد سبق وصفه ، يلبسه زوجات الريفيين الأغنياء ومشايخ البلد ، ويلبس كثير من الأطفال خلاخل صغيرة من الحديد . وكانت العادة شائعة عند العرب أن يلبس الفتيات أو النساء الصغيرة السن خيطاً من الأجراس فى أقدامهن . وقد رأيت عدة فتيات فى القاهرة يلبسن جلاجل حول الرسغ . وقد تكون إشارة أشعيا فى ١٦/٣ ترمى إلى صوت الحلى من هذا النوع أكثر مما ترمى إلى صوت الخلخال العادى .

ذيل (ب)

المقاييس والأوزان والنقود المصرية

ليس بمقدرتى أن أورد بياناً دقيقاً للمقاييس والأوزان المستعملة فى مصر، إذ أنى ، بعد المثابرة فى البحث ، لم أوفق فى وجود أى نموذجين لتسمية واحدة يطابق أحدهما الآخر ، فكان الفرق عظيماً على العمــوم . ويستعمل التجار بمصر ، خوفاً من المحتسب ، مقاييس وأوزاناً تزيد قليلا على القياس الصحيح ، مع أنها تختم بختم الحكومة ، التى تعنى باســتعمال مثل هذه المقاييس والأوزان فى مشترواتها ، كما تعنى أيضــاً ، بلا شك ، باستعمال تلك التى تكون أكثر ضبطاً فى مبيعاتها .

مقاييس الطول والأرض

« الفتر » هو ما بين إمتدادى الإبهام والمشير .

« الشبر » ما بين إمتدادى الإبهام والبنصر .

« الذراع بلدى » ويوازى ٢٢ بوصة وثلثى بوصة ، ويستعمل لقياس أقمشة الكتان الخ . المصنوعة فى مصر .

« الذراع هنداز ة » (هنـدمى) حوالى ٢٥ بوصـة ، ويستعمل خاصة لقياس البضائع الهندية .

« الذراع الاستنبولى » ويستعمل للأقمشـة الأوربيـة ، وهو حوالى ٢٦ بوصة ونصف .

« الفدان » وهو المقياس العادى لمسح الأرض . وهو يقسم إلى ٢٤ قيراطاً ، ويتكون من ٣٣٣ قصبة مربعــة وثلث . وكانت القصبــة ٢٤ قبضة ، وهى الآن ٢٢ .

« القبضه » هى مقياس قبضة الرجل مع امتداد الإبهام ، أو ٦ بوصات وربع تقريباً .

« الملقه » قياس لم أستطع الحصول على تعريف له أحسن مما يلى : أنه المسافة الواقعة بين قريتين . وهو يختلف فى الصعيد والوجه البحرى . فهو فى الأخير ، سفر ساعة تقريباً ، أو ما بين ميلين ونصف وثلاثة أميال . وفى الصعيد سفر ساعة ونصف أو من ٣ أميال وثلاثة أرباع الميل إلى ٤ أميال ونصف ، أو أكثر .

المكاييل

« الأردب » ويوازى ٥ بوشل انجليزى تقريباً .
« الويبه » سدس أردب .
« الربع » ربع ويبة .

الأوزان

« القمحه » واحد على أربع وستين من الدرهم ، أو ربع قيراط .
« الحبه » واحد على ثمانى وأربعين من الدرهم ، أو ثلث قيراط .
« القيراط » ٤ قمحات ، أو ٣ حبات ، وهو واحد على أربع وعشرين من المتقال
« الدرهم » وقد ذكرت أقسامه فيما سبق .
« المتقال » (وزن دينار) درهم ونصف .
« الأوقيه » أو « وُقيه » ١٢ درهم ، أو واحد على اثنى عشر من الرطل .
« الرطل » ١٤٤ درهم ، أو ١٢ أوقية
« الأقه » أو « وُقه » ٤٠٠ درهم أو رطلان وسبعة اتساع .
« القنطار » ١٠٠ رطل .

النقود

يساوى الجنيه الاسترلينى مائة قرش مصرى ، ويحتمل أن يظل كذلك بعض السنوات . وقد ارتفع الاسترليني منذ عامين من ٧٢ قرشاً ، وكان ذلك سعر الصرف لعدة سنوات سابقة .

« الفضه » أصغر النقود المصرية . ويسمى مفرداً « نصاً » (تحريف نصف) أو « نص فضه » . ويسمى أيضاً « ميدى » (بكسر الميم والياء المشددة — أو

الفتح بالامالة — وهو اختصار « مؤيدى ») . وكانت هذه الأسماء تطلق أصلا على نصف الدرهم ، الذى كان يضرب فى عهد السلطان المؤيد ، فى أوائل القرن التاسع للهجرة ، أو الخامس عشر للميلاد . والأتراك يسمونه « باراه » .
« والفضة » تصنع من خليط من الفضة والنحاس ، هى تساوى واحد على أربعين من القرش .

ويوجد قطع بخمسة فضة ، وعشرة فضة ، وعشرين فضة (وتسمى هكذا بدلا من خمسة انصاف فضة الخ .) أو قطعة بخمسة ، قطعة بعشرة ، قطعة بعشرين . وتسمى الأخيرة أيضاً « نص قرش » . وهذه القطع مثل « الفضة » تسك من الفضة والنحاس .

« القرش » يساوى واحد على مائة من الجنيه الاسترلينى ، كما سبق ذكراه أو خمس الشلن ، وهو يسك مثل القطع السابقة ، ويبلغ قطره بوصة وثمن . ويحمل أحد وجهيه طغراء السلطان ، والآخر ، جملة : « ضُرب فى مصر » ، مع تاريخ اعتلاء محمد على العرش ، أسفله (١٢٢٣ هـ ، ١٨٠٨ — ١٨٠٩) م وتاريخ ضرب النقد ، أعلاه . وتحمل النقود الأخرى النقوش نفسها تماماً .

« السعدية » ويسمى عامة « خيرية بأربعة » ، أو « الخيرية الصغيرة » . وهى نقد ذهبى صغير ، قيمته أربعة قروش .

« الخيريه » أو « الخيريه بتسعه » وهى نقد ذهبى قيمته تسعة قروش .

تلك هى النقود المصرية — والنقود التركية مألوفة فى مصر ، ولكنها نادرة. وكذلك الدولارات الأوربية والأمريكية ، وأغلبها توازى عشرين قرشاً . ويساوى الدولار الأسبانى ذو الأعمدة ٢١ قرشاً . ويطلق اسم « ريال فرانسا » على كل نوع ، غير أن الدولار ذى الأعمدة يسمى « أبو مدفع » لظنهم خطأ أن الأعمدة مدافع . وللنقود الأخرى أسماء مميزة . و« الدبلون » الأسبانى وقيمته ستة عشر دولاراً ، شائع فى هذا البلد ، وكذلك « البندقى » و« الجنيه »الإنجليزى .

و« ريال » مصر نقـــد اسمى ، قيمته ٩٠ فضة . وكانت قيمـة الدولار الأسبانى عام ١١٨٥هـ (١٧٧١ - ١٧٧٢ م) أو ما يقرب من ذلك، ٩٠ فضة بأمر على بك . وكان الدولار يسمى حينئذ « ريالا » فقط . ومنـذ ذلك الوقت ظل هذا المقدار من « الفضة » السابق ذكره يسمى بهذا الاسم .

« الكيس » خمسمائة قرش .

« الخزنه » ألف كيس .

ذيل (ح)

النفقات المنزلية بالقاهرة

ما يلى مقدار الخزين اللازم لعائلة من الطبقة المتوسطة تتكون من رجل وثلاث نساء، وأسعاره ، لمدة سنة . وإنى أدرج هذا الإحصاء هنا كملحق لازم للقائمة المذكورة فى صفحة ٢٧٥ .

	ص
قمح ، ثمانى أرادب حوالى	٤٠٠
طحن القمح السابق	٥٠
خبزه	٤٠
لحم ، من رطل ونصف إلى رطلين (أى قرش ونصف فى اليوم)	٥٥٠
خضروات ، نصف قرش فى اليوم	١٨٥
أرز	١٠٠
سمن ، قنطاران ، حوالى	٣٢٥
بن	١٨٥
تمباك جبلى	٢٠٠
سكر نصف قنطار ، حوالى	١٠٠
ماء	١٠٠
خشب للوقود ، ٧ أحمال (حمل حمار)	٧٥
فحم حطب	١٠٠

زيت ، لقنديلين أو ثلاثة ، قنطار ، حوالى	١٢٥
شمع (شحم)	١٠٠
صابون	٩٠
	٢٫٧٢٥

أى سبعة وعشرين جنيهاً استرلينياً وخمسة شلنات . فتكون نفقات المنزل أسبوعياً حوالى عشرة شلنات وستة بنسات ، والنفقات اليومية ثمانية عشر بنساً ، أو سبعة قروش ونصف . ولا يستعمل التمباك ، فى هذه الحالة ، غير رب الدار تقريباً ، وقلما تدخن النساء فى منزله .

ذيل (د)

دعاء التلاميذ المسلمين

إن صديقى مستر برتون Burton (الذى وفّر له طولُ إقامته بمصر ذخيرة طائلة من المعلومات القيمة عن المصريين المحدثين ، وعن موضوعات أخرى أيضاً) أرسل إلىّ ورقة بها صيغة الدعاء الذى أشرت إليه فى ذيل صفحة ٢٤٣ من هذا الكتاب وهو « حزب » يتلوه الأطفال المسلمون فى الكثير من مدارس القاهرة كل يوم ، قبل عودتهم إلى منازلهم ، وقت العصر ، فيما عدا يوم الخميس ، حيث يتلونه ظهراً ، لانصرافهم مبكرين بسبب أجازة يوم الجمعة . وهذا الدعاء لا يُتلى فى المدارس الملحقة بالمساجد . وهو يماثل بعض « خطبة النعت » وفيما يلى ترجمة له(١) .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم عضد الإسلام ، وارفع كلمة الحق والإيمان ، بصون عبدك ، وابن عبدك ، سلطان القارتين(٢). وخاقان البحرين(٣)، السلطان، ابن السلطان، السلطان [محمود](٤) خان . اللهم انصره ، وانصر جيوشه ، وجيوش المسلمين أجمعين . يارب العالمين . اللهم اهلك الكفار والمشركين ، أعداءك ، أعداء الدين . اللهم يتّم أطفالهم ، ودنّس مقامهم . وازلق أقدامهم . واجعلهم وعائلاتهم وأهل منازلهم ونساءهم وأطفالهم وأصهارهم وأخوتهم وأصدقاءهم وممتلكاتهم وذريتهم وثروتهم وحرثهم غنيمة للمسلمين .

ولست أهدف هنا إلى القسوة فى نقد المصريين المسلمين . ولا يجب أن ينسب إلى هذا الشعب عامة ، مثل هذا التعصب الزائد الذى يتضمنه هذا الدعاء . ويتبين ذلك فى هامش ملحق بصفحة ٨٢ .

---

(١) هنا أيضاً لم أستطع الحصول على النص العربى الأصلى . (المترجم)
(٢) أوربا وأسيا .
(٣) الأبيض والأسود .
(٤) السلطان الحاكم وقت كتابة هذا .

(ذيل هـ)

علاج الديسنطاريا والرمد

يجب على من يزور مصر أن يكون عارفاً بالوسائل التالية لمعالجة الديسنطاريا والرمد . وقد اختبرتها كثيراً فما رأيتها فى أسوأ الحـالات تخيب مرة واحدة فى سرعة النجاح وتمامه . ويندر أن يستمر العلاج أكثر من أربعة أيام أو خمسة.

من المناسب فى حالة الديسنطاريا ، عند تناول مضر ، بدء العلاج بأخذ مقيىء مقدار قيراط من عرق الذهب فى المساء . وتكون الخطوة التالية فى هذه الحالة أو الخطوة الأولى فى حالات أخرى،أن يتناول فى الصباح ملين خفيف : خمس عشرة قمحة من الراوند وقمحتين من الزئبق الحلو . وفى اليوم التالى تؤخذ قمحتان من عرق الذهب وربع قمحة من الأفيون فى الصباح وفى المساء ، ويكرر المثل أربع مـرات فى كل من الأيام التـالية . ويجب على المـريض ألا يأكل غير الأرز المسلوق يحلى بقليل من السكر . ويزيد المرض سوءاً الزبد والدهن بأنواعه واللحم والبيض الخ .

فى حالة الأصابة بالمرض ينقط فى العين مرة كل يوم نقطة واحدة من سائل كبريتات النحـاس (الزاج الأزرق) يكون من سبع قمحـات من هذا الملح تضاف إلى أوقية من الماء النقى . ويجب أن تدهن الجفون حتى لا تلتصق أثناء النوم بمرهم من الليمون يمزج بثلاثة أجزاء من الزبد الطازج عند النوم . وعندما يكون الالتهـاب خفيفاً يمكن الإكثـار من إستعمال غسيلا مكوناً من قمحتين من كبريتات النحاس يضاف إلى أوقية من الماء.وقد استعمل كبريتات الخارصين (الزاج الأبيض) بنجـاح عظيم ، غير أنه لا يعادل السـابق . وهو يستعمل بالطريقة السابقة بنسبة عشر قمحـات إلى أوقيـة ماء كما يستعمل بنسبة ثلاث قمحات إلى أوقية ماء كغسيل قابض .

هنا ينتهى الكتاب . ويلى ذلك :

١ ــ إضـافات للمترجم .
٢ ــ أسماء الكتب المذكورة فى الكتاب .
٣ ــ المؤلفين .
٤ ــ فهرس الألفاظ .
٥ ــ الخطأ والصواب .

إضافات

صفحة	سطر	موضع الإضافة	العبارة المضافة
١٦	١٨	بعد عبارة (شكل ٤)	، يسمى حوشا ،
٣٢	٣هـ	بعد الهامش	مشكاة المصابيح كتاب ألفه الخطيب العمرى التبريزى . طبع مراراً وترجم إلى الإنجليزية ١٨٠٩ (المنجد)-(المترجم)
٦٧	٢	يضاف هامش إلى كلمة (الظهر)	ويكتب لين (الضهر) بالضاد ، كما ينطق العامة . (المترجم)
١٢٧	٢	يضاف هامش إلى كلمة (العنبر)	ويكتب لين (عمبر) بالميم ، كما ينطق العامة . (المترجم)
١٢٧	٢١	بعد عبارة (وتستعمل)	فى الشتاء
١٥٤	١هـ	بعد عبارة (ص١١٧)	من كتابه (الأمثال العربية) .
١٧٧	٩	يضاف هامش إلى كلمة (جنباً)	ويكتب لين (جمباً) بالميم ، كما ينطق العامة (المترجم)
١٨٤	٢٣	بعد كلمة (القلم)	من القصب
١٨٦	٦	بعد كلمة (الميقات)	، حساب التوقيت الإسلامى وأوقات الصلاة
١٩٢	٨	بعد كلمة (كيهك)	(والعامية ، كياك)
٢٠٨	٢٢	فى أول السطر	ومسجد السيدة سكينة
٢٤٩	٦	يضاف هامش إلى عبارة (بأيديكم)	أى (أنفسكم) فى تفسير الجلالين
٢٥٧	١هـ	يضاف إلى الهامش	(المترجم)
٤٠٠	٢٣	بعد كلمة (الكعك)	(الكحك)
٤٠٤	٢٦	بعد كلمة (كعك)	(كحك)
٤٩٦	١٨	آخر السطر	يارب العالمين

أسماء الكتب المذكورة فى هذا الكتاب

أسماء المؤلفين المذكورين في هذا الكتاب

فهرس الألفـــاظ

(ب)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
تمهيد	س١ فقرة٢	الطبقة	الطبعة
٢	هـ ٢ س ٣	الان	الآن
٤	١٧	أعرفه أن بأحد	أعرفه بأحد
٣٧	١٠	حداد	حداداً
٤٢	٢	النيلج	بالنيلج
٤٤	هـ ٥	جر سلبته	جر سبلته
٥١	هـ ١ س ١	الصيقلي	الصقلي
٥٥	هـ ٢ س ٢	على منّة	علىّ (بفتح اللام) منّة (بكسر الميم)
٧٤	٢٤	الرسوم	الرسول
٧٤	هـ ٤ س ٣	ولى الدين	زكى الدين
٧٧	٦	آذان	أذان
٨١	هـ ٢ س ٦	وآذاهم	وأذاه
٨١	هـ ٢ س ٧	ان الله قد أمرنى	ان الله أمرنى
٨٢	٢٣	فقال أيضا	وقال أيضا
٨٧	٨	البوظة	البوزة أو البوظة
٨٩	هـ ٣ س ٦	ص ٢	ص ٣ ، ٤
٩٠	٢٥	شرع	مشرع
٩١	٢٠	(ما	وما
٩٦	١٣	أمها	أمها]
١٠٣	هـ ١ س٢	التغيرات	التغييرات
١١٧	٣	تراكا	أتراكا
١٢٦	١٦	(يقلب	ويقلب
٢٢٠	٤	وقائع	والشائع
٢٢١	٧	ثقل	تفل
٢٢٥	١٣	عود الند	الصبر
٢٢٦	هـ ٤ س ٤	تشير ما يسمى	تشير إلى ما يسمى
٢٤٤	٢٠	أدنى	أذنى
٢٥٥	هـ ٤ س ٢	بعض هؤلاء	بعض نسل هؤلاء
٢٧٢	٢٥	قرنا	فرنا
٢٨٣	٤	الزهرا	الزهر
٢٩٢	هـ ١ س ١	الصريات	مصريات
٢٩٣	هـ ٢ س ٣	Saunr	Sauna
٣١٠	هـ ٣ س ٣	بين	لبن
٣٣٣	هـ ١ س ٥	هلبي	حلبي
٣٤١	هـ ٢ س ١	الزال	النزال
٣٤٧	٢٠	مر	أمر
٣٦٥	٢١	نزلة الحجاج	نزلة الحاج
٣٦٥	٢٤	جاويش	شاويش
٣٦٩	١٨	طار	إطار
٣٧٢	٦	يمحهم	يمنحهم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٧٤	٢	قبل	قيل
٣٧٧	هـ ١ س ١	قارعا	قارعا
٣٧٧	هـ ١ س ٢ و ٣	وقد	قد «
٣٧٧	هـ ١ س ٤	ويدان	ويداى
٣٨٦	٧	مقرى	مقرأ
٤٥٠	٤	وقسيس	وقسس
٤٩١	١٨	الأوقية	الأقية
٤٩٦	٨	أجازة	إجازة

رقم الإيداع ٥٢٨٧ / ١٩٧٥

طبع بمطابع
دار النشر للجامعات المصرية

٤١ شارع شريف - القاهرة

